

الادب الاندلسي

البطوشه والتجديف

تأليف
د. محمد عبد النعيم خفاجي
المستاذ الدكتور في جامعة اليرموك

دار الحكمة
بيروت

جَمِيعُ الْمَحْقُوقَاتِ مُنْهَظَةٌ لِدَارِ الْحِلْلِ
الطبعة الأولى
١٤١٢ - ١٩٩٢



الادب الازلاني
(الطبعة الخامسة)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سلام عليك يا أندلس

سلام عليك يا أندلس حقاً

لا أقولها عن نزعات قومية، ولا عن تمجيد لتاريخ مضى فحسب ،
ولأنا أقولها مع ذلك تمجيداً للحضارة، وللإنسانية، وللبقاء والتقدم من
أجل سعادة الإنسان

ولا أقولها هُنُوراً عن بواعث روحية فقط، وإنما أقولها مع هذا إعجاباً
بروح العربي الطامح إلى أعلى درجات العزة والسؤدد، والذي لم يغصْرْ
عمله وكده على مكان دون مكان في الأرض، ولا على قوم دون قوم
من الناس؛ لأن الأرض كلها، والناس جميعاً ملك للإنسانية، للبشرية
المجدة، للتقدم والبهضة والعمل الشرييف المشر

وحيث كتبت هذا الكتاب في دراسة الأدب الأندلسي، وموافقه ومذاهبه
وتياراته ومدارسه بين التطور والتجدد، كنت أعمل على استكمال حلقة
من حلقات تاريخنا الأدبي تعميناً موسوعتي عن الأدب العربي التي تناهى
المائة كتاب؛ وكانت أحياول الكشف عن تاريخ أسلافنا الذين صعدوا
بكفاحهم إلى ذروة الجد والخلود؛ وكانت أحtrinsic على أن أستثني روح

آبائنا الذين سعوا إلى كل مجال شريف من الحياة، ودفعتهم هذه الروح
إلى كل عمل عظيم خلد ذكرهم من تاريخ الفكر الإنساني.
وإنني لسعيد حقاً أن أقدم هذا الكتاب إلى قراء العربية وأدبائها ...
من أجل التاريخ .. والحضارة .. والانسان

عبد المنعم خفاجي

الحضارة العربية في الأندلس

حضارة شامخة، خالدة على مر الزمان، هي حضارة العرب والأندلس، حضارة هرت الدنيا، وخلدت على صفحات التاريخ، ولا تزال حديها عذباً في الأفواه. إن قصة الحضارة العربية في الأندلس لا يمكن أن يستوعبها باحث، فقد ضاع الكثير من وثائقها في مأساة مصرع الأندلس وطرد العرب عنها، حين هب الأسبانيون يحرقون الكتب العربية، ويهدمون المكتبات والجامعات ويدمرون العلماء والفقيرين والأدباء، ويقضون على آثار العرب في الأندلس القضاء الألفي، ولوسو الحظ أخلفت مكتبة العرب في إسبانيا. وكانت تحوي كثيراً من آثار مفكري وشعراء الأندلس وأدبائها الذين صقلوا أدبهم باليقة الأندلسية الجديدة؛ التي أضافت إلى بلاغتهم في التعبير مقدرة فائقة في الخيال والتصور مما جعل الأدب العربي في الأندلس — كما يستدل من البقية التي تختلف لنا — من أوجاد آداب اللغة العربية منذ قدمها. وبعد طرد العرب من الأندلس، احتفظ بعض القساوسة بشيء من الآثار الأدبية العربية التي كانت في مكتبات العرب هناك، ولا يزال هذا البعض موجوداً لهذا الوقت في مكتبة الاسكوريال بمدريد، وهي المكتبة الوحيدة التي تعد من أهم مكتبات العالم التي تحوي كمية من المخطوطات العربية في قصر العرب بالأندلس. كذلك احتفظت مكتبة روما وكذا مكتبة برلين بشيء من تلك الآثار الأدبية، هي للآن المرجع الوحيد الذي يعتمد عليه جماعة المستشرقين والباحثين في دراساتهم

وبحوثهم عن قصة الأدب والحضارة في الأندلس. وعلى الرغم أن كتب العرب في الأندلس، لم تفقد كلها، فإن مما لا شك فيه أنه يحمل أن يكون ضمن الجزء المفقود منها شيء غير قليل من الآثار الفكرية والأدبية التي ربما كان يحق للغة العربية أن تفخر بها. ومع ذلك فإن كثيراً من شعر شعراء الأندلس المعروضين غير كامل، وكثيراً من القصائد ناقصة ومتوردة، بل إن ثمة شعراء يعرفون بالاسم وأشعارهم بالوصف، وأما أئم أشعارهم وأثارهم، فهذا مما لم تطلع عليه، لأنها من الآثار الأدبية المفقودة.

ومكتبة «الاسكوريال» بمدريد لا تحتوي اليوم على الكثير من التراث الأندلسي الفكري والعلمي والأدبي، ولما أنشئت أودع فيها عدة آلاف من الخطوطات العربية الأندلسية، وذلك منذ أواسط القرن السابع عشر، ومع ذلك فقد كانت هذه الخطوطات القليلة أنفس مجموعة من نوعها؛ ولكن حدث بها عام 1671 حريق التهم ثلاثة أرباع هذا الكثر الفريد، وبقي منها نحو 1850 خططاً عربياً. وإن الكريديال كمينس مطران طليطلة الذي أمر بإحراء الكتب والآثار العربية في ساحات غرانطة عام 1499 قد ارتكب عملاً يخالف الإنسانية، إذ لم يستثن من الكتب العربية سوى ثلاثة من كتب الطب العربية وهبت لجامعة «الكالا».

ويضاف إلى هذا السبب — قلة المصادر العربية التي نجت من معركة الإقناط المسيحي لآثار العرب في الأندلس — سبب آخر هو تعصب المسيحيين في إسبانيا من قديم ومحاولتهم طمس الحقائق الساطعة عن تاريخ العرب الحضاري والفكري في الأندلس.

ومع ذلك فقد بقيت لنا وسط هذه الحرية والضلال مجموعة من الوثائق التاريخية تثبت لنا الكثير من روايَّة العرب في الأندلس وحضارتهم، وأصول مدنיהם في الفكر والاجتماع والسياسة والعلوم الآداب والفنون،

ما يعد شهادة ناطقة بذكاء الشعب العربي وموهبه الخارقة، والمعجزات الكثيرة التي قام بها.

إن قصة الحضارة في الأندلس تطبق بها شهادات المستشرقين النصفين، وقد جاء في صحيفة مدرسة أدبrij الكلية : « إن المدينتون للعرب كثيرة، ولو قال غيرنا بخلاف ذلك، فإنهم الحلقة التي وصلت مدينة أوروبا قدماً بمنيتها حدثاً، وبمجاهدهم وسمو هممهم تحرك أهل أوروبا إلى إحراز المعرف، واستفاقوا من نومهم العميق في العصور المظلمة، ونحو مدینيون لهم أيضاً برقة العلوم والفنون النافعة وكثير من المصنوعات والاختراعات التي نعمت أوروبا عملاً ومدنية».

ويقول المسو لاجريدو سيم : « أما العرب فقد ترکوا في البلاد التي احتلواها آثراً لا يزالون يذکرون به للآن، لأنهم لم يقتصرُوا على إدارة شعوب البلاد بل قاماً بعمارتها على أساس من الحضارة والمدنية، ولقد كان شانسوا يذهب إلى بلادهم لاستشارة أطبائهم بالذات، كما أن الراهب (جرييرا) تعلم في مدارسهم قبل أن يتَّخِبَ لكرسي البابوية، وإلى القرن الخامس عشر ما كانت فرنسا تعرف أسماء المؤلفين اليونانيين إلا من طريق ترجمة كتبهم في إسبانيا الإسلامية، وأخذت فرنسا عنهم العلوم المختلفة»⁽¹⁾. ويقول استانلي بول في نكبة العرب بإسبانيا وتكليل الأسبان بهم في نهاية عهدهم : « ولكن الإسبان لم يدركوا أنهم خلوا الأوزة التي تبيض بيضة من ذهب في كل يوم، فقد بقيت إسبانيا قروناً في حكم العرب وهي مركز المدنية، ومنبع العلوم والفنون، ومثابة العلماء والطلاب، ومصباح الحداية والنور، ولم تصل أي مملكة في أوروبا إلى ما يقرب منها في ثقافتها وحضارتها، ولم يبلغ عصر فرديناند وإيزابيلا القصير المتلالي، ولا امبراطورية شارل الخامس الأوج الذي بلغه المسلمون

(1) « رحلة الأندلس » لمحمد البصري.

في الأندلس، وقد بقيت حضارة العرب إلى حين بعد خروجهم من إسبانيا وضاءة لامعة^(١)... . ونحن نعلم أن حضارة العرب الراهبة في الأندلس كانت مثار إعجاب كل أوربي، سواء في أثناء حياة العرب هناك أو بعد ذلك، بل لقد ترجمت بعض الآثار العربية إلى اللغات الأخرى من قدم، ويروى أن أحد القساوسة أنشأ عام ١١٣٠ م معهداً في طليطلة لترجمة الكتب العربية في شتى فروع الثقافة إلى اللاتينية. وقد ذاع في الأندلس فن البناء والهندسة والموسيقى والتحت والتصوير والغناء.

ومن مثل فن العمارة : مدينة الزهراء التي أنشأها الناصر، ومدينة الحمراء التي شادها بنو الأحمر، ومسجد قرطبة الذي شاده الداخل وأنه أبهى هشام.

وكانت القصور والمساجد وسواها من الأبنية العامة، وكان في قصر قرطبة نحو خمسماة دار، وعدد دور العامة بها ثلاثة آلاف ومائة ألف دار، وعدد دور الخاصة نحو خمسماة وستة آلاف، وعدد المساجد فيها ٣٨٣٧ مسجداً، وعدد الحمامات ٥٠٠^(٢).

وأخذ عبد الرحمن الثاني القصور والمتزهات، وجلب إليها الماء من الجبال، وأقام الجسور، وبنى في أيامه المساجد الكثيرة والدور.

وذاعت الموسيقى ذيوعاً كبيراً، وكان لزرياب تلميذ إسحاق الموصلي أثر في ذلك كبير .. ويقول مؤرخ : إن للعرب اليد الطولى فيما تركوه من فنون الموسيقى التي ساعدت أهل أوروبا على الوصول إلى الدرجة التي وصل إليها هذا الفن الجميل الآن، فإن بمكتبة طليطلة آثاراً عظيمة

(١) قصة العرب في إسبانيا لاستاللي بول ص ٢٢٢.

(٢) ١ : ٣٥٥ نفع الطلب طبع أوربا.

تدل على ما كان للعرب من التقدم في ذلك الفن، وهناك جزء من الخطوطات في الموسيقى عليه بعض ملاحظات بخط ألفونس العاشر الذي كانت كل معلوماته وتربيته الفعلية مكتسبة من الثقافة العربية^(١).

وقد انتشر الغناء في الأندلس انتشارا لا مثيل له حتى لقد كان الطرف يغنى كل دار، وكان لقديم زرباب تلميذ إسحق الموصلي يد مشكورة في رق الغناء وتنسيق ضربه وسرعة ذبوعه، فقد غنى الخلقاء والأمراء فهز أعطافهم وحرك أوتارهم، وأصاح لمعازفه الخاصة وال العامة على السواء.

وكان المغنوون يرددون الكثير من الأشياء الرائقة ويغفون بها، ويقال إن زرباب كان يستظهر زهاء عشرة آلاف مقطوعة من الأغاني بالحانها، وكثير المغنون والمغنيات في ربوع الأندلس كثرة تستلتف النظر، وفي طليعتهم : حملونة بنت زرباب، وهندية، وغرالان، وعبد الوهاب الحاجب فريد عصره، ونسجح وحده في براعة الغناء وعنوانة الأخوان ورواية الأشعار، ثم ابن الصائغ السرقسطي الأديب المطرب، ثم فضل وعلم من مطربات القصور، ثم قمر جارية ابن حجاج اللخمي صاحب إشبيلية، وكانت تقول الشعر وتلحنه وتتنفس به، فمن ذلك قوله في مولاه :

ما في المغارب من كريم يرجحني إلا حليف الجود ابراهيم
إني حللت لديه منزل نعمة كل المنازل ما عداه ذميم

وكان الأمير أو السري إذا سمع يمغن أو معنية بعث في طلبها، كتب أبو عامر بن ينق إلى هند جارية محمد بن عبد الله الشاطئي يدعوها إلى مجلسه ل-tonق الأسماع، وكانت أدبية شاعرة :

يا هند هل لك في زيارة فضية نبدوا الحارم غير شرب السلسل
سمعوا البلايل قد شدت فذاكروا نعمات عودك في التفاصيل الأول

(١) كتاب فواردو ج ٢

فأجابه :

يا سيداً حاز العلا من سادة شم الأنوف من الطراز الأول
حسبي من الإسراع تحوك أنسى كت الجواب مع الرسول الم قبل

وكان الأندلسيون جميعاً يهمون بالغناء الرقيق، لا يتورع عن سماعه
عالم أو فقيه. ذكر المقرئي في نفح الطيب أن محمد بن سعيد القاضي
خرج إلى ججازة فرج على منزل صديقه له، وبعد أن طعم، عنت جازية
رب المنزل :

طابت بطيب لثائقك الأقداح وزها بمحمرة خدك التفاص
واذا الريبع تنسمت ارواحه نمت بعرف نسيمك الأرواح
واذا الحنادس ألبست ظلماؤها فضياء وجهك في الدجى مصباح

فطرب القاضي طرباً عظيماً، وبلغ من إعجابه بتلك الأبيات أن كتبها
على ظهر يده.

ودخل ابن حوقل عام ٣٧١ هـ الأندلس، ووصفها بأنها « تغلب
عليها المياه الجارية، والشجر، والثمر، والرخص، والسعنة في الأحوال،
من الرقيق الفاخر، والخصب الظاهر، إلى أسباب الملك الفاشية فيها،
وما هي به من أسباب رغد العيش، وسعنه وكثترته، يملك ذلك منهم
مهينهم، وأرباب صناعتهم؛ لقلة مؤوتهم وصلاح معاشهم ». »

وذكر ابن بشكوال، أن جيابة الأندلس بلغت، في مدة عبد الرحمن
الناصر، خمسة آلاف ألف دينار، وأربعمائة ألف وثمانين ألفاً.

أما عوامل تأسيس الحضارة فقد كانت كلها مملكة للعرب في الأندلس،
 فمن امتزاج العناصر وتوحد الأجناس واحتلاط الدماء، مما نشأ عنه جيل
عربي جديد يجمع خصائص العرب والأربين الفكرية والاجتماعية

والنفسية^(١) إلى جمال البيئة^(٢) وخصبها واعتدال الجو فيها، ورونق الطبيعة وتبرعها وسحرها، وهذا مما بعث على أن لات من أجله طياعهم، ورقت عواطفهم، فنشأ جيل جديد يجري في غروقه الدم العربي، ويتصف بصفات العرب : من غيرة وكرامة، وصفاء في القرىحة، واكتسب صفات الجنس الآري، من دقة الإدراك، وسعة الخيال، وقوة الفكر والتحميس، فكان هذا الشعب الجديد لا شرقا ولا غربا بحثا، وامتاز في كثير من

(١) وقد سكن هذه البلاد أسم مختلطة قبل دخول العرب : فنزلها أول فجر التاريخ قبائل من جبال البرانس، وزرلها من الشمال الشرقي من بلاد القاتل قبائل السلت والبلسك والجلالقة، سكن بعضهم الشواطئ واستقر بعضهم وسط البلاد وزرل بها كثير من البربر سكان إفريقية الشامية. ثم نزلها القيقبون وأهل قرطاجنة قبل المسلمين بقرون. ثم استولى الرومان عليها أواخر القرن الثالث الميلادي (١٤٠م) وسموها هسبانيا أو إسبانيا. ثم أغار على الرومان قبائل الفنادل، فأخرجوهم من هناك، وأنسوا على نهر الوادي الكبير مملكة سموها باسمهم « الفنادل »، ومنها جاءت كلمة « قناليس » التي نطق بها العرب « أندلس »، وأطلقوها على تواخر القرن الأول الهجري. فسكان هذه البلاد علیط ثم دخلها العرب وملكونها في تواخر القرن الأول الهجري. فسكان هذه البلاد علیط من أسم مختلطة وقلائل متعددة. وقد نشأ من هنا كله جيل عربي جديد، له شئ الخصائص الحضارية.

(٢) الأندلس كانت ولا زالت من أجمل بقاع الأرض وأنضرها، مما يأخذ بالألباب، ويسع في روعته الخيال، ويُبعث على تلوك الحسال، ومجدارة الطبيعة في بهاها وغترتها، وقد امتازت هذه البلاد بين الأقطار التي فتحها العرب بجمال طبيعتها : من أشجار باسقة، وشمار يابعة، وأنهار حاربة، وجبال محضر، وطور مفردة، وألبية شاققة، وقصور جميلة، ووجهه نضر، ونسميم عليل. حمل كل ذلك من نفس العربي، ورقة من شعوره، وهذب من عياله، وصقل من ذوقه، وزاد في جمال شعره وفنون الكتابة لديه. وميزه ذلك عن أهل المشرق، وجعل للأندلسيين صبغة خاصة في الأدب العربي، وفتح أمامهم باباً واسعاً من الخيال.

ولما استقرت قدم المسلمين هناك، نزح إليها العرب من كل قبائل، وهاجر إليها كثير من أهل المدن الإسلامية التي فتحها العرب، وانصل كل هؤلاء سكان البلاد الأصلين : من قوط وغيرهم وتصادقو وتحابوا وزدواجوا، وأسلم كثير من المسيحيين واليهود، واندمج بعضهم في بعض بالصاهرة وغيرها، وكانت شعباً واحداً، وتشاركوا في إدارة البلاد، فقد وكل العرب إلى هؤلاء السكان كثيراً من الأعمال.

صفاته وأخلاقه عن أهل الشرق من المسلمين. ويضاف إلى ذلك أن الإسلام دين الثقافة والمعرفة، ومع ما حمله العرب من روح دينهم، فقد أتيحت لهم ثقافات أخرى، هي ثقافات الأصلين التي هضموها وتأثروا بها، وزادت من معارفهم واستعدادهم.

لذلك لم يليث العرب بعد قليل من مقامهم في الأندرس أن بنوا القصور^(١) وأنشأوا الجامعات، وأقاموا المكتبات، وبنوا المدن والمباني

(١) بني عبد الرحمن الداخل جامع قرطبة الأعظم، فأطلق عليه ثمانيين ألف دينار، وقد ذكروا أنه قد كان غداً في توسعه، وأن من يدخله اختواه نحو ٣٦٠ طلاقاً على عدد أيام السنة، يدخل الشمس كل يوم من طلاق، وكان به ثلاث وتسعمون ومائتان وألف سارية، وفيه السحراب وما يليه قد أجري في الذهب المطعم، وكان باب المقصورة من الفضة وكان بها ثقافات من الذهب والفضة محاط كل ثغرة ثلاثة أشراف ونصف، والثان منها من الذهب الإبريز. وكان عدد بواباته تسع عشرة من الشرق إلى الغرب، وأحدى وثلاثين من الشمال إلى الجنوب، وبه واحد وعشرون باباً طليت بالنحاس الأصفر اللامع، أما الندير فقد صنع من العاج وفنسن الخشب، وهو مؤلف من ستة وتلاتين ألف فطمة مفصولة رصع أكثرها بالأحجار الكريمة، وسر بماءير من الذهب، وقد يقع من جمال هذا المسجد ما هو ماثل إلى الآن، فإن السالحين يقفون اليوم دهشين أمام هذه الباية من السواري، يروعنهم فيها نظر لا يكاد يتعين من كل جانب، ولا يزال الرجال المأمورون يلمعون الحمام الجواهر، ولا يزال المحراب يقباه التلاوة بسلام العيون والتلذيب، ولا يزال أشجار البرتقال مورقة يحسن الجامع تسلير امتداد السواري، فإذا وقف المرء أمام عظمة هذا المسجد وحمله عادت به الذكرى إلى أيام مجد قرطبة وازدهارها أيام الخليفة الظليم الناصر لدين الله التي لن تعود، ويروي المؤرخون كثيراً من أتعجب قصور الأئمـر عبد الرحمن وما كان بها من الآبراج الفاخرة التي تفتح على الحدائق حولها أو على النهر، وكان بعض هذه القصور يسمى بالرازح وبعضاً بالمشتوق وبعضاً بالمؤنس، ثم الكامل والمجددة والثاقب وغيرها مما خلقته ألسنة الشعراء، وبعضاً هذه القصور يحفظ باسم حاضرة الأميين الشرقيـ دمشـقـ وكان يقوم على أعمدة من الرخام، وقد رصفت أرضه أحسن رصف، وببلغ عاليـة الروعة والجمالـ وكان حوله مائة ألف بيت للعامة، ونحو سبعـمـلة مسجد، وتسـعـمـلة حمامـ هنا عـدـاـ المـنـزـهـاتـ والـبـالـيـانـ، وقد بينـ النـاصـرـ كـلـلـكـ مـدـيـةـ الـزـهـراءـ التي كانتـ منـ عـجـالـ الدـنـيـاـ وقدـ بـنـاـهاـ الـناـصـرـ فـيـ سـفـحـ جـبـلـ الـمـرـوسـ عـلـىـ بـصـمـةـ =

الخليلية^(١)، وشجعوا العلوم والثقافات والفنون والأداب، ونبغ في هذه البيئة العلماء والأدباء والشعراء والفلسفه والمفكرون، وحسبي ابن رشد وابن باجة وابن طفيل وابن زهر، وسواءهم من أعلام الفكر الأندلسي الذي أثروا في «تطور» الفكر الإنساني، وفي تعجيل بدهنهضة في أوروبا.

وقد بدأ سير الحضارة في الأندلس حينما استقر الأمر لبني أمية في الأندلس أواسط القرن الثاني الهجري سنة ١٤١ هـ، وكان العباسيون قد اتصلا بالسريان وغيرهم من العلماء الذين نشروا علم الإغريق في بلاد الجزيرة فيما بين النهرين، وأسسوا هناك مدارس للعلم منذ القرن الخامس الميلادي، فاستعان بهم الخلفاء في نقل هذه العلوم إلى اللغة العربية، كما استعنوا بالفرس أيضاً. وكانت مدینتنا البصرة والكوفة مقرأً للعلماء اللغة والأدب، ومكة والمدينة مهبط علماء الدين وماوى علوم الشرعية الإسلامية، وصارت بغداد مركزاً للعلوم الكوبانية. فكان الشرق منذ أوائل

= أموال من قرطبة، استجابة لرغبة جاريه « الزهراء » التي كان يهم بها حيأ، وقد أتفق في ياتها ٤٦٠ قطارات من الفضة، وطنوها من الشرق، وقطعوها من ذراع، وعدد السواري بها أربعة آلاف وتلسانة » وكان بها خمسة عشر ألف باب مليئ بالجديد أو التحاصل المسموه، وكان سقف بهو الخلية وحيطاته من الرخام والذهب وفي وسط الباب حوض مليء بالرائق الرجاج، إلى جانب كل منه شامية أبواب من العاج والأبنوس وقد رصعت بالجواهر، فإذا دخلت أشعة الشمس من هذه الأبواب ولاقت انتشار الزينة، ملأت الباب ببريق ينبع من المعان البروق، حتى لقد يحبب رجال الدولة عيونهم بأيديهم لشدة، وقد أجمع كل من رأى قصر الزهراء على أنه لم يبن مثله في الإسلام أليمة، وما دخل إليه أحد من سائر البلاد النائية والنحل المختلفة إلا وقطع أنه لم ير له شبيهاً، بل لم يسمع، بل لم يكن بوهم كون مثله ولو لم يكن فيه إلا السطح الممرد، والقبة وعجب ما تضمنته من إتقان الصنعة، وفخامة الهيئة، وبراعة الآلات والقرش والصحف، ما بين مرمر مستون، وذهب مصون، وعدد كأنها أفرغت في القوالب، وقوش كالرياض، لكلها بعض ذلك شرقاً وغرباً.

(١) في أيام عبد الرحمن الثاني (٢٣٨-٢٥٦هـ) كثرت الأموال، فاتخذت القصور والمتزهات، وجلب إليها الماء من الجبال وأقيمت الجسور، وبنيت في أيامه الجامع، وزاد في جامع قرطبة رواقين.

القرن الثاني الهجري مورد العلوم ومنبع الثقافة، ومن ثم لم ير الأمويون بدأ من الأخذ عن أهل الشرق والرجوع إليهم عندما أرادوا نشر العلم في الأندلس؛ فاقتفوا آثار المشرقين وأخذوا عن أئمتهم كل شيء؛ فساد مذهب الإمام مالك هناك، وكان من زعمائه يحيى الشيشي الذي رحل إلى الشرق وأخذ عن الإمام مالك، وتوفي بقرطبة سنة ٢٣٤ هـ. وكان أبو علي القالي البغدادي إمام الأدب هناك؛ وفُد إلى الأندلس سنة ٣٢٨ هـ، وأخذ عنه جلة العلماء... ومنهم أبو بكر محمد الزبيدي صاحب «خنصر العين».

ورحل كثيرون من علماء الأندلس إلى بغداد وغيرها من بلاد الشرق، وأعجبوا بما كان هناك من علم وأدب. وقد ولع الخلقاء والأمراء بمغاربة أهل الشرق في علومهم ومدنיהם، فنقل عبد الرحمن الناصر ما كان منها عند العباسين، وأفسح صدره للعلماء والأدباء، فكانوا يقدون من المشرق حاملين علومهم وجهود عقولهم، وكان الحكم مشغولاً بالعلوم، وهو الذي يبعث إلى أبي الفرج الأصفهاني بألف دينار من الذهب ليرسل إليه كتابه «الأغاني» قبل أن يخرجه ببغداد. وقد ذاعت ثقافة العرب ببلاد الأندلس، وانتشرت لغتهم وأصبح بين اليهود والنصارى من سكان تلك البلاد كثير من الشعراء الحسينيين والكتاب البلغاء، الذين يحسّبون في مقدمة شعراء العرب وكتابهم. وبعد أن كانت الثقافة اللاتинية تسيطر على عقول الخاصة من السكان، أصبحت اللغة العربية أو الثقافة العربية هي لغة البلاد وثقافة الخاصة من السكان، حتى تسررت إلى الكنائس، وكانت الحياة الأدبية أكثر ذيوعاً من الحياة الفلسفية إذ لم يعن أحد بالاشغال بالفلسفة إلا قليلاً.

ثم تطور سير الحضارة وازدهارها في الأندلس العربية، حينما أخذت قرطبة وغيرها من بلاد الأندلس شهرة تنافس بغداد في العلوم والفنون، واقتتال الكتب واستهواه العلماء للملك بها، جاء إليها كثير من العلماء،

ولا سيما عند ما أخذ بنو أمية في مجازة خلفاء بني العباس في الإقاضة على العلماء والأدباء بالعطايا، وقلدهم في ذلك ملوك الطوائف بعدهم، وكان يقد إليها جلة علماء المشرق، وكان لزرياب المتنى الذي قدم من بغداد أثر عظيم في إصلاح صناعة الغناء وبث بعض العادات التي كانت ذائعة في المجتمعات بغداد. وغير هؤلاء كثير يعدون بالملكات من الواقفين إلى بلاد الأندلس. فكانت الصلة العلمية لا تقطع بين البلدين، وكان الطريق من بغداد إلى قرطبة آهلاً بالراحلين من العلماء والأدباء؛ فقد كانت قرطبة مركز العلوم في بلاد المغرب يقد إليها الطلاب من كل مكان، ويرحل إليها الأدباء والشعراء.

كما رحل إليها من جزيرة صقلية عبد الجبار بن حمد بن الشاعر المعروف، والتحق بمحاشية المعتمد بن عباد أحد ملوك الطوائف. وكذلك كان يرحل إلى بلاد المشرق كثير من العلماء والأدباء للأخذ عن أئمة الأدب والدين هناك، كما رحل إلى مكة وبغداد الإمام الفقيه يحيى بن يحيى الليثي والتقي بالإمام مالك بن أنس، وأخذ عنده مذهب ونشره في بلاد الأندلس، وكانوا قبل ذلك يتبعون مذهب الأوزاعي.

وكان الرحلة بين المشرق والمغرب من أعظم الوسائل التي وطدت العلاقات العلمية، ونشرت هنا وهناك من آثار علماء المسلمين وجهودهم ما بعد مفخرة جليل هذه الأيام. وقد نقل العرب إلى بلاد الأندلس كثيراً من معالم الحضارة الشرقية الإسلامية، وأنشأوا معاهد العلم في قرطبة وإشبيلية وطليطلة ومرسية، وغيرها من البلدان، فاتجع من هذه المواقع ضوء العلوم في سماء أوروبا، وانتشرت اللغة العربية بين الخاصة والعامة، ودخل كثير من ألفاظها في اللغة الإسبانية، وهجر الإسبانيون اللغة اللاتينية، واحتغلوا باللغة العربية وأدبها، حتى أصبحوا لا يكتبون بغيرها، وصار شبانها لا يعرفون غير لغة العرب، حتى اضطر أحد القساوس من أهل إشبيلية إلى أن يترجم التوراة إلى اللغة العربية ليقرأها تلاميذه،

كما ترجم غيره من القسيسين كتب الكنيسة إلى لغة العرب. وقد قال بعض المؤرخين الإسبانيين : « إن من أدب أهل إسبانيا ما هو مأخوذ من أدب العرب ومتأثر به. وإنه لا شك في أن الإسبانين مدربون للعرب بلغتهم وأدابهم ومعرفتهم الفلسفة اليونانية ». وظهرت آثار اللغة العربية والشعر العربي في لغة أهل الشمال من سكان إسبانيا، ومن هناك انتقلت إلى جنوب فرنسا، وأثرت في الشعر الغنائي وفي المقطوعات الشعرية المقفاة، التي هي أشبه بالشعر العربي ومعانه. ومن العرب اقتبس أهل أوروبا بعض أنواع الشعر وتقلعوا عنهم حكم الفرس وأمتهنهم. وظهرت حضارة العرب في العلوم والأداب حين كانت أوروبا أواخر القرن الحادى عشر في جهالة، فلم تتنسم ريح العلوم والحضارة إلا بعد أن أخذت ذلك من عرب إسبانيا وعلماء المسلمين، الذين بثوا بدور الحضارة هناك. ففي نحو سنة ١١٣٠ م أنشأ أحد القساوسة في طليطلة معهدًا لترجمة كتب العرب الشهيرة إلى اللغة اللاتينية. فكان هذه الكتب التي ترجمت أثر عظيم في إيجاد حياة علمية جديدة، وقد بقيت حركة هذه الترجمة من القرن الحادى عشر إلى القرن الرابع عشر، ولم تكن هذه الترجمة مقصورة على مؤلفات العرب الشهيرة، كمؤلفات الرازى وابن رشد وابن سينا، بل اشتملت على ترجمة كتب حكماء اليونان من العربية إلى اللاتينية. فترجمت كتب آرسطيدس وأفلاطون وأرسططاليوس وغيرهم من نقل العرب كتبهم إلى لغتهم. وقد ذكر أحد العلماء الفرنسيين في تاريخ الطب أكثر من ثلاثة كتاب عربي ترجم إلى اللغة اللاتينية، وقال : « ولم يعرف أهل القرون الوسطى من سكان أوروبا كتب اليونان إلا بعد نقلها عن كتب العرب. فيفضل هذه الترجمة العربية أمكن الوقوف على الكتب اليونانية التي صاغ أصلها اليوناني، فأوروبا مدينة للعرب وحدهم يحفظ هذه المؤلفات الجليلة القدر ». وقد بقى أهل أوروبا لا يعرفون غير كتب العرب إلى القرن الثاني عشر، فكان العلماء هناك تلاميذ العرب أو ناقلين كتبهم. وكان فلاسفتهم تلاميذ ابن رشد وابن سينا، كما شهد بذلك

الفيلسوف رينان. وعلى هذه الترجمة العربية سارت جامعات أوروبا. واتخذتها أساساً للدراسة والتعليم مدة ستة قرون. بل بقيت بعض كتب العرب الطبية تدرس إلى زمن قريب في بعض جامعات أوروبا. وكانت كتب ابن سينا تدرس في جامعة مونبلييه جنوب فرنسا إلى أواخر القرن الثامن عشر. وبقيت كتب الفلسفة العربية تدرس في جامعات فرنسا، لاسيما كتب ابن رشد إلى أوائل القرن الثالث عشر. كذلك كانت كتب العرب وعلومهم منتشرة في بلاد إيطاليا. فوجود العرب في أوروبا نشر فيها كثيراً من العلوم والأداب التي كانت مهملة في كل بلد آخر من هذه القارة حتى في القسطنطينية نفسها فإنه لم يكن إذ ذاك معهد علمي إلا في بلدان الشرق الإسلامي وفي إسبانيا العربية من بلاد المغرب. ففي هذه المعاهد كانت تدرس العلوم والأداب، وإليها كان يقد طلاب العلوم من كل مكان. وفي هذه المعاهد تعلم «جوبرت» الذي كان ياباً للديانة المسيحية سنة 999 ميلادية وعرف باسم سلسفستر الثاني وأعجب بعلوم العرب حتى اتّهم بالمرور من الدين عندما أراد أن ينشر في أوروبا ما أخذه عن العرب. وبجهود العرب قامت أوروبا من سباتها وبدأت تهضّمها العلمية. فإنه حينما اتسعت الفتوح العربية حتى شملت بلاد الأندلس، أصبح للثقافة العربية وطن جديد في القارة الأوروبي، أزهرت فيه وأيّنت، وأصبح ميسوراً لطلاب العلم والفلسفة من أبناء الشعوب الأوروبية أن يرددوا هذا المثلث القريب من ديارهم وأوطانهم، في أثناء ذلك العهد الطويل، الذي يسمى أحياناً العصور الوسطى، وأحياناً العصور المظلمة، أي الزمن الذي لم يكن للعلم والفلسفة فيه شأن خطير في القارة الأوروبية. وأنّر الحضارة العربية واضح في مختلف نواحي الثقافة التي اقتصتها شعوب أوروبا، سواء في ذلك الطب والفلسفة والكيمياء والفلكلور والرياضيات، والموسيقى وفن العمارة، وكثير من الصناعات. ولا يسع المجال هنا لشرح هذه النواحي جميعاً، ولكن حسناً أن نذكر أن الفلسفة اليونانية نفسها قد وصلت إلى أوروبا في ذلك العصر بواسطة الترجمات والمؤلفات العربية،

وأن كثيراً من المؤلفات العلمية العربية قد نقلت إلى اللاتينية، حتى إن بعضها فقد أصله العربي، ولم يبق منه اليوم سوى الترجمة اللاتينية، وأن أسماء الفلاسفة العرب لكثرة تداولها على لائحة الإفرنج قد اختفت صورة إفريزية، مثل ابن سينا وابن رشد والرازي. وكان طلاب العلم والمعرفة يقصدون إلى الأندلس من أقطار أوروبا المختلفة لا من الجهات المجاورة لأسبانيا وحدها، فكثير منهم جاء من إنجلترا مثل آدم لارد الباتي وكثير جاء من إيطاليا. وكانت صقلية تشارك الأندلس، وذلك لقربها منها، فلم تكن الأندلس هي السبيل الوحيد الذي تقدرت منه الحضارة العربية إلى أوروبا، بل لقد استطاع العرب في أثناء المائة والتلاته عاماً التي حكموا فيها صقلية أن يغرسوا فيها دوحة العلم قوية وارفة الظلال، حتى لقد بقى أثراً لهم وعلوهم فيها بعد أن استولى عليها التورمانديون في سنة ١٠٩١ م، وقد قام ملوكها أمثال روجر الأول ومن جاء بعده بتشجيع العلماء من العرب، ومساعدة المترجمين الذين توأموا نقل الآثار العربية إلى اللاتينية. وحسبنا أن نشير هنا إلى أن الجغرافي العربي الشهير أبي عبد الله بن محمد الإدريسي، كان يضع مؤلفاته العربية ويعضده في عمله روجر الثاني (١١٠١ - ١١٥٤)، فإن هذا الملك قد كلف الإدريسي أن يضع بالعربية مؤلفاً يشتمل على الوصف الجغرافي لجميع أقطار المعروفة، وفي هذا اعتراف صريح بما للعلماء العرب من منزلة الرفيعة والمكانة الملحوظة.

ومع هذه النبضة الثقافية التي وصلت إلى أوروبا من طريق الأندلس وصقلية، فقد تأثر الأوروبيون من غير شك في أثناء الحروب الصليبية بالحضارة العربية في سوريا وفلسطين ومصر. وليس من السهل اليوم أن نقدر تقديرأ صحيحاً ذلك الآخر العظيم الذي تركه الحضارة العربية في بلاد أوروبا المختلفة، وذلك لأسباب كثيرة منها ما يأتي :

أولاً : أن تاريخ أوروبا في العصور الوسطى تخيم عليه سحب كثيرة

من الغموض والإبهام، تجعل من المتعذر تتبع هذه المؤثرات — في دقة
— من منابعها إلى الجهات التي انتشرت فيها.

وثانياً : أن الحروب الطويلة التي دارت بين المسلمين والنصارى في
الأندلس وانتهت بزوال الحكم الإسلامي عن هذا القطر، وما أعقبها من
انتشار روح التحصّب والجهل، قد أضاعت كثيراً من الآثار العربية.

وثالثاً : أن العلماء الأوربيين — حتى الأسنان منهم — قد انتشرت
بينهم في الأزمنة الحديثة نزرة شعبية شحاذة دفعتهم إلى إنكار المؤثرات
العربية في الحضارة الأوربية الحديثة أو التقليل من شأنها، كما شهد
 بذلك الكتاب الذين اشتراكوا في تأليف كتاب «تراث الإسلام» وهذه
النزعة سترول في الغالب على مدى الزمن، ويستخدم البحث العلمي سبلاً
قوامها الإنصاف والبعد عن الموى. وقد شهدنا هنا الاتجاه الجديد في
مؤلفات الكاتب الأسماي الكبير دون جولييان ريبيرا. وإذا كان من العصر
اليوم رسم صورة كاملة لأثر الحضارة العربية في الثقافة الأوروبية الحديثة
في العلم والفلسفة والفنون، فإن إيضاح أثر الأدب العربي الأندلسي منظومه
ومنتشره في الأداب الإفرنجية أشق وأعمق. ويرجع هذا إلى أن العلوم
وال المعارف كانت تسفل بالتأليف والترجمة، وكثير من المؤلفات العربية قد
وصلت إليها ترجمتها اللاحينية، وكذلك لا يستطيع أحد أن ينكر أثر الفنون
والصناعات العربية التي تظهر بوضوح في الموارنة مثلاً بين آثار العمارة
العربية، ونظائرها في الأقطار الغربية، ولكن جاز لإنسان أن ينكر أثر
العرب في الموسيقى الأوروبية، فلا بد من الاعتراف بأن بعض الآلات
المusicale التي شاع استعمالها في أوروبا قد أخذت عن العرب، وبعضها
مثل العود لا يزال يسمى باسمه العربي في جميع اللغات الأوروبية. أما
في الأدب فنحوزنا هذه الآثار إذا أردنا أن نبحث عن آثار الأدب العربي
في الأداب الأوروبية، لأن ترجمة الآثار العلمية في العلم والفلسفة قد
لقيت إقبالاً شديداً، وتعظيضاً كبيراً، هيهات أن تظفر بهاته الآثار الأدبية،

فإن عامل المفعمة، والفائدة العملية، كان قوياً في الأولى، ضعيفاً في الثانية. وبعض الباحثين قد اضطر لأن يفترض أن بعض الآثار الأدبية لا بد أن يكون قد ترجم أيضاً إلى اللاتينية، أو إلى بعض اللغات الشعيبة، ولكن ليس في أيدينا اليوم دليل مادي على هذا. ولذلك فإن الباحث عن أثر الأدب العربي في الأدب الإفرنجي يتبع في بعده طريقة أخرى، وهي طريقة المقابلة والمضاهاة بين الأديرين، ولاحظة وجوه التشابه التي لا يجوز أن تخفيه عقوفاً. فالباحث الذي يرى تشابهاً دقيقاً بين أشعار « ذاتي » وبعض مؤلفات المعربي مضططر لأن يفترض أن بعض آثار المعربي قد ترجم إلى اللاتينية أو الإيطالية، وإن لم نعثر على مثل هذه الترجمة بعد. وكذلك الباحث الذي يرى أن استخدام القافية في الشعر قد انتقل إلى أوروبا بواسطة العرب، قد تعوزه الأدلة المادية على تأييد هذه النظرية. ولكنه مضططر لأن يرجع أن للأدب العربي شأنـاً كبيرـاً في مثل هذا التطور، لأن الأداب الأوروبية القديمة، وعلى الأخص الأدب اليوناني والأدب اللاتيني الواسع الانتشار كانوا خالين من القافية. ونحن لاحظـنا أن القافية تأتي سهلـة طـيـعة في الشعر العربي. ولا تأتي بمثل هذه السهولة في اللغـات الإفرنجـية. فمن المـقـول أن يكون ظهورـها في العـصـور الوـسـطـى الأورـبـية، نـتـيـجة المؤـثرـات الأـدـيـة العـرـبـيـة. وما يجعل المؤـثرـات العـرـبـيـة في الأـشـعـارـ الغـرـبـيـة غـامـضـة صـعـبة التـحـقـيقـ، أـنـ أـكـثـرـها قد اـنـتـقلـ بواسـطـة الأـغـانـيـ والأـنـشـيدـ والـقـصـصـ الشـعـبـيـةـ التي يـنـداـوـهـاـ النـاسـ وـيـتـاقـلـوـهـاـ شـفـاءـ، وـلاـ يـكـادـ يـعـنىـ بـتـدوـيـهـاـ، وـلـكـنـ منـ الـبـدـهـيـ أنـ اـنـتـقلـ الـآـلـاتـ الـمـوـسـيـقـيـةـ نـفـسـهـاـ منـ الـأـنـدـلـسـ إـلـىـ أـورـبـاـ، مـعـ ماـ يـصـحـبـ هـذـاـ مـنـ وـسـائـلـ الـإـرـشـادـ إـلـىـ كـيـفـيـةـ اـسـتـخـدـامـهـاـ وـالـعـزـفـ عـلـيـهـاـ، يـسـتـدـعـيـ مـنـ غـيرـ شـكـ أـنـ تـسـتـقـلـ مـعـهـاـ الـأـغـانـيـ وـالـأـشـعـارـ، وـكـثـيرـ مـنـ عـتـقـيـفـ الـغـنـاءـ الـأـنـدـلـسـيـنـ كـانـوـاـ يـتـقـلـوـنـ مـنـ بـلـدـ إـلـىـ بـلـدـ، وـيـزـورـوـنـ بـلـادـاـ غـيـرـ إـسـلـامـيـةـ، فـيـشـدـوـنـ وـيـوـقـمـونـ، وـكـانـ الـإـقـيـالـ عـلـىـ غـنـائـهـمـ وـعـرـفـهـمـ عـظـيـمـاـ فـيـ بـلـاطـ الـأـمـرـاءـ الـمـسـيـحـيـنـ فـيـ أـسـبـانـاـ وـفـيـ بـرـوـفـانـسـ وـإـيـطـالـياـ. وـمـنـ الـبـدـهـيـ أـنـ كـثـيرـ مـنـ سـكـانـ الـأـنـدـلـسـ الـذـيـنـ

اعتنقوا الإسلام كانوا يجيدون اللغتين العربية والاسبانية، وكان الأدباء منهم قد اطلعوا على الأدب العربي وتذوقوه، وكانوا واسطة لنقله إلى الأطراف الشمالية في إسبانيا، ومن ثم إلى جنوب فرنسا.

وفي القرن الحادى عشر والثانى عشر الميلادى ظهرت في أوروبا طائفة جديدة من الشعراء المنشدين، الذين يجمعون بين التغني بشعرهم والتوقيع على العود، يبدوا في أشعارهم الطابع العربي الذى لا يتحمل الشك، وقد أطلق على هؤلاء الشعراء اسم الطروبادور، وهي كلمة يرى ريرا أنها مشتقة من لفظ الظرب. وقد امتاز هؤلاء الشعراء بنظم أناشيد تدور كلها حول النسيب، وتبدو فيها الصفات المألوفة في النسيب العربي: من هو عذرى ميرج، ومن حنين وشوق إلى محبوبة ممنعة، عزيرة العمال، ومن وفاء ونبيل عاطفة. وقد ظهرت في هذا العصر قصص كثيرة لا يشك الباحثون في أنها مقتبسة من القصص العربية. وخاصة أخبار العشاق، أمثال عروة بن حرام وعفراء، أو قيس بن ذريح ولبي. وكذلك كانت أشعار الطروبادور مشابهة للأناشيد الأندرسية في نظام وزتها وقوافيها، وقد انتشرت في أول الأمر في بلاد إسبانيا، ثم في جنوب فرنسا وإيطاليا، ولم تزل تنتشر حتى عمت أوروبا الغربية والوسطى. وهذه الأشعار قد أثرت تأثيراً كبيراً في أشعار الأمم الأوروبية، فهي أساس من أسس الشعر في الآداب الأوروبية الحديثة.

وليست الأناشيد والأشعار العربية وحدها التي أثرت في آداب العصور الوسطى الأوروبية، بل لقد كان للقصص والخرافات والأمثال والتواادر العربية المنتشرة أثر كبير أيضاً، بل لعل أثر الشعر في ذلك العصر أوضح، فقد ظهرت قصص في الأدب الفرنسي مثلاً تحمل طابعاً عربياً لا شك فيه، وحسبك أن قصة من أشهرها، وهي قصة «أوقاسين ونيقوليت» ذات صبغة عربية واضحة، واسم البطل فيها ما هو إلا تحرير للاسم العربي : القاسم. وقد ترجمت في هذا العهد مجموعات من القصص منقولة

عن اللغة العربية، أهلهما من غير شك كتاب كليلة ودمنة الذي ترجم إلى الأسبانية واللاتينية في القرن الثالث عشر، وانتقل إلى البلاد الأوربية المختلفة، وكان النواة التي نشأ من حولها أدب قصصي عن الحيوان والطير، وكان له أثره حتى في أشعار لافونتين نظام المزارات الشهير. وإذا كانت القصص التي ترجمت واضحة الأثر في الآداب الغربية الناشئة فإن هناك قصصاً شعبياً كبيراً كان ينقل بالرواية، وليس من السهل ان تدرك مدى تأثيره. ومع هذا فإن من الواضح أن قصص «ديكارمون» للكاتب الإيطالي بوكاسيو تشتمل على قصص عربى مما كان متداولاً في عصره. وأما تأثر الشاعر الإيطالي الأكبر دانتي بالأدب العربي فله أنصار غير قليلين. والذي يبعث على رجحان هذا الرأى أن الأدب العربي والعلوم العربية كانت تدرس دراسة واسعة في إيطاليا في عصره. وليس بمعقول أن يكون هذا الشاعر بمفرز عن هذه التيارات الثقافية القوية التي كانت منتشرة في زمانه. ولم تكن رسالة الغفران وحدها هي المورد العربي الوحيد الذي استقى منه الشاعر، بل هنالك مثلاً أحاديث المعراج، التي وصلت من غير شك مع الفتح الإسلامي إلى صقلية، على أثنا لو نظرنا إلى رسالة الغفران وحدها لرأينا أن وجوده الشبه بينها وبين الكوميديا المقدسة ليس تشابهاً سطحياً، بل إن هنالك اتفاقاً في التفاصيل ليس من السهل أن نفترض أنه جاء عنواً. مثال ذلك أن الشاعر الإيطالي يلتقي في أثناء طوافه في الجحيم بالشعراء اللاتينيين الذين ماتوا قبل المسيحية، كما قابل صاحب المري امراً القيس والنابغة وغيرهما من شعراء الجاهلية ورآهم في النار. وهنالك غير هذا صور للنار وسكنها لم يستطع الباحثون أن يجدوا لها نظيراً في الأدب المسيحي، ولها مشابه في المؤلفات الإسلامية. وليس في هذا الاقتباس ما يقلل من شأن الشاعر الإيطالي، فإن كبار الأدباء كثيراً ما اكتسوا موضوعاتهم في المؤلفات المتداولة في عصرهم. وبعد، فإن الأدب العربي كان ذا أثر كبير في الآداب الأوروبية في

القسم الأخير من العصور الوسطى، أي في الزمن الذي كانت فيه اللغات الأوربية في دور التشوّه والتكون.

ويبدو تأثير أدياء الأسبان بالعرب الذين غزوا بلادهم واضحًا جلياً أمام العقل، هؤلاء قد اتخذوا الأندلس موطنًا لهم وظلوا ثمانية قرون ينتقلون في أنحاء البلاد. وكانت لهم حضارة هي التي وصلت الحضارات القديمة بالحضارة الحديثة.

ولقد أثبت مؤرخو الأدب أن قصة «المحمد بن عباد» آخر الحكماء المستقلين في إشبيلية (١٠٧٨ - ١٠٩١ م) كانت من بين القصص التي تناولها شعراء الإسبان في القرون التالية. بل الثابت أن «دون جوان مانول» وهو أحد قصاصي القرن الرابع عشر الميلادي، كتب هذه القصة وأضفى عليها خيالاً حبيباً إلى القراء في إسبانيا. بل لقد أثبت مؤرخو الأدب كذلك أن كثيراً من القصص قد نقلها العرب من الهند وفارس فلقيت جواً صالحاً في إسبانيا. وانتشرت بعد ذلك حتى بلغت جنوب فرنسا، وما زالت تنقلب في غرب أوروبا حتى اتشحت بشاب مسيحيّة أوروبية لا يستطيع القارئ العربي أن يعترفها إلا بجهد. ومن تلك القصص حرافات وحكايات غناها شعراء متقللون سماهم التاريخ الأدبي «ترويادور»، بل لقد ذهب كثير من دارسي الأدب إلى أن أوزان الشعر العربي نفسها قد أثرت في هذا الضرب من الأدب المتقلل، لأنهم استطاعوا أن يوازنوا بين أساليب الوزن والتفقيبة في الشعر العربي وبين الأوزان والقوافي في شعر هؤلاء.

ولكن هل نستطيع أن نكتشف قصة واحدة في الأدب العربي هي التي نسجت على منوالها «دون كيشوت»؟ وهل في الأدب العربي جاهلياً كان أو إسلامياً قصة تشبه هذه في موضوعها أو أسلوبها؟

فهل تأثر سرفانتس مؤلف «دون كيشوت» بالأدب العربي وبخاصة حين أقام بالجزائر؟ وهل كان للتصعنك كلام يعرفه العرب أثر في صوغ

القصة؟ وهل تأثرت القصة بجنون الحب الذي ورثه القصة العربية، من مثل حديث مجنون ليلي. أسللة قد تجib عنها حياة سرفنتس نفسه.

ولد ميجيل سرفنتس في سنة ١٥٤٧ ونشأ محبًا للكتابة. وأنجح له أن يزور إيطاليا ولما يبلغ العشرين. وليث فيها أربع سنين حتى سنة ١٥٧٠ حينها دعنه الحاجة إلى أن يلتحق بالجيش الإسباني وعقارب الأبرارك في موقعة ليستو، وفي ليستو فقد ذراعه وانتصرت الخليفات الثلاث: إسبانيا والنسا والبنديقة على القوة البحرية التركية لأول مرة في تاريخ الإمبراطورية التركية. فكان ذلك إيذانا بهد جديد لأوروبا، وكان ذلك أيضًا مبدأ لشقاء الكاتب الجندي صاحب النرايع المفقودة، وحاول سرفنتس الجندي أن يبيع « دون جون » قائد الأساطيل المتحالفة ضد الأبرارك. وقضى خمس سنين بعد ليستو يقلب من جزيرة في البحر الأبيض المتوسط إلى جزيرة أخرى. فقد اشتراك في حملة « دون جون » على تونس، وتنقل بين سردينيا وليباردي، وبين ميسينا ونابولي، ثم استأذن القائد أن يزور إسبانيا فسمع له، لكنه أسر في طريقه إلى وطنه. أمره « الجزائريون »، ولبث في الأسر خمس سنين مقللاً بالأشجان.

نعم قضى في الأسر خمس سنين أحسن فيها ثقل القيد والأغلال، لكنه خرج وقد سلمت نفسه، لأن روحه فوق أنها كانت روح فارس، فقد كانت روح أديب.

ولا نظن أن رجلاً يقضي هذه السنوات السود في سرداب من السراديب، وقد تقطعت الصلة بينه وبين العالم الخارجي، وعاش عبداً يرسف في السلاسل والأغلال، لا نظن أن رجلاً هذا شأنه كان يستطيع أن يتأثر بالأدب العربي، لا في قليل ولا في كثير. فلم يثبت أنه اضطرب في بيئة العرب في الجزائر، بل لم يثبت أنه خرج من الأسر إلا في اليوم الذي أشقيق عليه فيه بعض التجار المسيحيين في الجزائر، فافتداه

بألف من الدوقات، ولبث وقتاً قصيراً في الجزائر، وسافر بعد ذلك إلى إسبانيا.

تلك السنين الخمس التي عاشها في الأسر قد انقضت من غير أن تخلف آثاراً عميقاً في نفس سرفيس. لكنها لم تكون آثار الأدب العربي، ولم تكون آثار البيئة العربية. وإنما كانت آثار الأسر الذي عاناه خلال سنوات السجن، لقد رأى الموت يطبل بقرنيه من خلال القيد والأصفاد، لكنه كان صبوراً جلداً، علمه الحوادث كيف يغالب البوس وبصارع الألم، ثم خرج من جحيم السجن وقد تطهرت روحه. فخرجت قصة «دون كيشوت» من هذه المخنة النفسية الطويلة، فهي قصة الفشل الذي لقيه سرفيس، وهي قصة عصر الانتقال من حياة الفروسيّة كما عرفها أهل الشمال والجنوب، إلى عصر الحروب القومية كما عرفتها إنجلترا وإسبانيا وفرنسا.

لم يتأثر سرفيس بشيء من الأدب العربي في مقامه بالجزائر، بل لعله قد تأثر بقامته في إيطاليا أكثر ما تأثر. وقد ذكرنا أنه استقر فيها خمس سنين، وأنه تردد بين بلدانها خمس سنين أخرى. أي أنه قضى شبابه الأول بين العشرين والثلاثين في جو إيطالي. وكانت إيطاليا أسبق بلاد أوروبا إلى النهضة. كانت صاحبة اللسان اللاتيني ومقر الككلة، ومهبط الفن والأدب، وقد تأثر سرفيس بالآثار الإيطالية التي شهدتها، وحياناً عاد إلى إسبانيا بعد أسره ألف مسرحيات كتلك التي رأها في إيطاليا. كان الكاتب المسرحي الأول في إسبانيا خلال تلك السنين لوب دي فيجا، وكان يستأثر بحسن السمعة وذيع الصيت. فخرج سرفيس إلى هذا الميدان ينافس بطله الأول، لكنه لم يبلغ من النجاح ما توقعه، وكانت حياته المسرحية هي الأخرى قصة من قصص الإخفاق. ومهما كان فلا بد أنه تأثر بحضارة العرب وثقافتهم.

ولقد بقىت الآثار العربية في الأندلس شاهدة على هذه الحضارة الخالدة

التي أطلت تلك البلاد ثمانية قرون (٩٢ - ٨٩٧ هـ)، وعلى فضل العرب على أوروبا، ويفصل لنا محمد عبد الله عن الآثار العربية الباقيه في الأندلس اليوم، فيقول : سقطت الأندلس في يد الإسبان منذ سنة ١٤٩٢ بعد صراع طويل الأمد بين إسبانيا المسلمة وإسبانيا التصرانة، وبذهابها ذهبت دولة الإسلام في الأندلس إلى الأبد، واختتم تاريخ ثمانية قرون، تعاقبت خلالها في شبه الجزيرة الإيبيرية دول إسلامية عده، وازدهرت حضارة من أعظم حضارات التاريخ. وما زال اسم الأندلس يطلق في إسبانيا على الولاية الأندلسية القديمة، الواقعة في جنوب إسبانيا، بما تحويه من قواعد أندلسية ذاهبة، أهمها إشبيلية وقرطبة وغرناطة. بيد أنه بينما أصبحت إشبيلية وقرطبة مدينتين أوربيتين بكل معاني الكلمة، إذا بغرناطة ما زالت تحفظ بكثير من طابعها الأندلسى القديم. ولم يبق في إشبيلية اليوم ما يذكرنا بعهدها الإسلامي العظيم، سوى «القصر» والمقصد (الجiralد) وهما من أيام الموحدين، كما أنه ليس في قرطبة عاصمة الخلفاء القديمة من الآثار الإسلامية سوى المسجد الجامع وقد حول اليوم إلى كنيسة، سوى بعض أطلال من مدينة الزهراء، ضاحية قرطبة الملكية كشفت عنها الحفائر الحديثة، ولكن غرناطة قصلاً عن احتفاظها بمعظم خطوطها ومواضعها القديمة، واحتفاظها بأعظم الآثار الأندلسية الباقيه، وتعنى قصور الحمراء العظيمة؛ فإنها ما زالت من الواحي الاجتماعيه والأدبية أكثر القواعد الأندلسية احتفاظاً بطبعها وروحها الأندلسى القديم. ويبدو هذا الطابع وهذه الروح في كثير من خواص الشعب الغرناطي وعاداته وتقاليده .. وتنقسم غرناطة اليوم إلى قسمين، هما غرناطة القديمة وغرناطة الحديثة. وتکاد تشغل المدينة القديمة نفس الواقع والخطوط التي كانت تشغلها المدينة الإسلامية، بل تکاد بدورها الصعبة ومتارها التي ما زالت تحفظ بطرزها الأندلسى، تشعرك بأنك تترىق مدينة شرقية لا مدينة أوربية وما زال ثمة هي من أحياها الأندلسية القديمة هو هي البارين قائمًا في موقعه القديمة، وما يزال كما كان في الماضي هي غرناطة الشعبي،

ولى جانبه توجد موقع « القصبة القديمة ». ويصل بين القسمين القديم والحديث شارع « الملوك الكاثوليكين » وهو شارع غرناطة الرئيسي وبجعل مكان شارع القصبة القديم . وقد سمي كذلك باسم فاتحى غرناطة، الملك فرديناند الخامس وزوجة الملكة إيزابيلا .. وقد حرص الإسبان على تخليد كل ما يذكر بمحادث هذا الفتح التاريخي الخامس، ففي أعلى مكان في برج المراقبة أحد أبراج الحمراء يوجد النصب الذي رفع عليه الصليب عند دخول الإسبان المدينة في سنة ١٤٩٢ . وتحتل كنيسة سانت ماري التي بنيت فوق موقع مسجد الحمراء، أرفع بقعة في الحمراء كلها، وتبدو بناؤوها العالمي مشرقة على سائر مبانها، ويقع قصر شارلكان في قلب الحمراء بجوار القصر الإسلامي القديم، وما زالت مدينة « سانتافى » الصغيرة قائمة قبالة غرناطة في نفس المكان الذي عسكر فيه الإسبان وقت حصار غرناطة، وأنشأ فيه الملك فرديناند مبانها الأولى، وأقسم لا يبرحها حتى يفوز بافتتاح المدينة الإسلامية .. وما زال قيم « الحمراء » أعظم الآثار الأندلسية الباقية في غرناطة يسيطر على العاصمة الأندلسية القديمة شهرة خالدة، وتکاد الحمراء تقدو كعبة ثانية للأندلس يقصدهاآلاف الرواد من سائر أنحاء الأرض. والحقيقة أن هذا الأثر الإسلامي العظيم يکاد يفوق في جماله وروعته أي آثر إسلامي آخر. ثم هو فوق ذلك يکاد ينبل طلعته، ووحشة أبهاته، يلقى في روع زائره أنه يعرب عن نوع من الحزن الصامت، والأسى المؤثر، بل إنه ليث في الواقع في نفس المشاهد شعوراً غامضاً بالحزن والأسى. وقد ترجع هذه الظاهرة النفسية إلى ما اقرن بقصر الحمراء، وسادها السابقين من المأسي التاريخية المشجية. وهذا الاسم « الحمراء » اختفى في تعليمه، غيرى البعض أنه يرجع إلى لون جدرانها الذي يضرب إلى الحمرة الفاتحة. ويرى البعض الآخر أنه يرجع إلى لقب الأسرة الملكية التي أنشأت الحمراء، وهم بني الأحمر ملوك غرناطة، ولكن الرواية المرجحة في ذلك هي أن الاسم يرجع إلى عصور قبل ذلك، وأنه أطلق على قصور بني الأحمر، لأنها انشئت فوق أنقاض

قلعة قديمة تسمى القلعة الحمراء، وعلى فحص غرناطة (المرج) ومن تحتها يجري نهر شنيل، وتشرف من الجنوب والشرق على آكام جبال سيرا نفادة (جبل شنيل) ولم يرق اليوم من قلعة الحمراء القديمة سوى بضعة أبراج متفرقة. وأما القصر الملكي فقد بقيت معظم أجزائه، ومدخله الرئيسي من باب «الشريعة»، وهو من إنشاء السلطان يوسف أبي الحجاج، وما زال يحمل تاريخ إنشائه في سنة ٧٩٤ هـ (١٣٤٨ م). ويعتبر قصر الحمراء من أبدع الآثار الإسلامية التي أبقت عليها حوارث الزمن، وليس له مثيل في الحسن والروعة من حيث موقعه، وتناسق أحياه وجمال أعمدته الرخامية، وحناءاته، وسقوفه ذات الزخرف الملون البديع، ويغمره الضوء والهواء بكثرة، ويدو في مجموعه في متهى الظرف والأناقة. ويكون اليوم من عدة أحياه متصلة تقع على الترتيب الآتي: بهو قمارش أو قاعة السفراء، وبهو البركة أو بهو الريحان، ثم فناء السباع، وعلى أحد جانبيه قاعة الأخرين، وفي الجانب الآخر بهو بني سراج. ويعتبر بهو قمارش أعظم أحياه الحمراء، وكان به مجلس العرش وعليه قبة عظيمة زينت بيقوش بد菊花، ومن فوقها برج قمارش الشهير، يد أن أجمل ما في الحمراء جيئا، هو بلا ريب فناء السباع، وهو من أحدث أبنية الحمراء إذ يرجع بناؤه إلى أواخر القرن الرابع عشر، وهو عبارة عن ساحة مستطيلة طولها ٣٥ متراً وعرضها عشرون، وفي وسطها نافورة السباع المشهورة، وهي عبارة عن حوض كبير من المرمر القائم، يحمله ثمانية عشر أسدًا، تفت الماء من أفواهها وتحيط به من سائر جوانيه مشرفيات متصلة، وقباب صغيرة، تحملها عمد خمسة من الرخام الأبيض تمتاز بدقتها وجاذبها .. ويقع بهو بني سراج في الجانب الجنوبي من فناء السباع، وهو عبارة عن مربع عليه قبة عالية زينت بزخارف بد菊花 ملونة، وقد سمي هذا اليهود باسم إحدى الأسر الغرناطية الشهيرة. وتقع الحمراء فوق هضبة عالية في شمال شرق غرناطة، وتصل إليها بطريق منحدر معبد وتحوز إلى حدائقها الشاسعة من باب يسمى «باب الرمان» وهو باب أنشأه الإسبان، وجعلوا

فوقه ثلاث رمانات كبيرة من الحجر، وهو شعار غرناطة التي يعني اسمها الروماني القديم « جراناتا » أي الرمانة. وموقع الحمراء ذو جمال طبيعي نادر، فهي تشرف من الشمال والغرب على المدينة القديمة. وقد زينت جميع جدران الحمراء بالنقوش العربية البدعة، وسطرت عليها آيات قرآنية وأشعار وحكم مختلفة تتخللها جميعاً في كل مكان وفي كل ركن عبارة « لا غالب إلا الله »، وهي شعار ملوك غرناطة المفضل، وربما كان في ترديده والإكثار منه على هذا النحو ما يدلّ بما كان يستشعره سادة الحمراء من قدر محظوظ لا سبيل إلى انتقامته أو مغاينته. وقد بقيت بعض أبواب الحمراء القديمة، منها باب الشريعة التي سبقت الإشارة إليه، وهو مدخل القصر الرئيسي، وباب « الغفور » أو الطلاق السبع، وهو الباب الذي قيل إن أبي عبد الله محمدأ، آخر ملوك غرناطة، قد خرج منه بعد أن سلم مقاطيع الحمراء إلى الملك فرديناند الخامس، ورجاه أن يأمر ببناء مكان هذا الباب حتى لا يجوز منه إنسان من بعده، ويقال إن ملك الأسبان حق رجاء الملك المغلوب، وأمر ببناء الباب، ومكان الباب اليوم مغلق بالبناء، ويقع على مسافة قليلة من قصر الحمراء، على ربوة عالية، قصر جنة العريف، وهو قصر صغير ومستقل، أنيق الطراز، أنشئ في أواخر القرن الثالث عشر، وكان مصيفاً للملوك غرناطة .. وتبدو الحمراء على العموم، في حالة جيدة من الحفظ والصيانة، ولكن كثيرة من زخارفها ونقوشها الأولى قد عحيت بفعل الزمن. وقد أصلحت الزخارف وجددت في بعض الموضع على يد الاخصائيين الأسبان. ولكن التجديد لا يخلو من العيوب، وهذا يرجع بلا ريب إلى عدم تحكم هؤلاء الاخصائيين من فن الزخارف الإسلامية، ومن معرفة اللغة العربية.

ويقول كوندي المستشرق الأسباني المعروف، متوجهاً بفضل الحضارة الأندلسية : إن العرب استعملوا البارود سنة ٩٠٦ م، وهم الذين نقلوه

إلى الأندلس، ومنها أخذه الأفرنج، وقد استعمله العرب في محاصرتهم صقلية سنة ٦٧٢ هـ، وفي محاولة الانسياق سنة ١٢٤٩ م، واستخدمه صاحب غرناطة في حصار ياجة، ثم نقله عن العرب في القرن الثالث عشر «Roger باكون» الإنجليزي وغيره، وأول ما استخدمه الأفرنج في واقعة كريسي سنة ١٣٤٦ م، وإنه منحة عظيمة منحها العرب للأوربيين.

وبعد، فآثار الحضارة العربية في الأندلس أجل من أن تخفي، هذه الحضارة التي عافت ركوب الجمل، فحاولت تذليل الماء، وأنفت من هنا البراس الضغيل، فانفتحت الريات المشرقة في القصور والمساجد وعلى حفافي الشوارع والميادين. وأدت أن تعيش في نصب البداؤة، فأخذت الماء العذب في أنابيب الرصاص إلى القصور والحمامات والرياض، وفجرته من ثبور التمايل الفنية الرائعة المصوّعة من «الذهب الإبريز»، والقصبة الخالصة والنحاس المموه»، وأجرته إلى البحيرات الهاشمة، والبرك البدعية، والصهاريج الجميلة، في أحواض الرخام المزمرية المنقوشة العجيبة. والفن الإسلامي ماثل في آثار غرناطة وقرطبة وأشبيلية وسواها، وفي قصور الزهراء والخمراء الشامخة التي تسخر بالزمن، ونبسم في وجوه الأيام، وهذا هو التراث العلمي الجيد الذي خلفه رجال الفكر الإسلامي الأندلسي، ما أروع ما كتبه عدد المصنفو من الشرقيين والغربيين. والنهضة في الاقتصاد والزراعة والصناعة والتجارة، وفي الإدارة والسياسة والطب والعلاج، وفي جميع ميادين النشاط الإنساني، لا تزال تشير إلى مدى ما وصل إليه العرب في الأندلس من عصرية وقوة ومدنية.

ومن مثل الطموح العلمي حياة أبي القاسم «عباس بن فرناس»، مفترخة الأندلس، والمفكر العظيم الذي ردّت ذكره الأجيال، فقد نشأ «عباس» في بلاد الأندلس في أوائل القرن الثالث الهجري، والدولة للامويين أحفاد الداخل البطل الأموي الكبير، وكان لا بد له — ككل شاب طامع — أن يرد مناهل العلم، ويعذّي فكره وعقله بالثقافة الإسلامية

في مساجد قرطبة ودور العلم فيها، فتلتزم على رجال العلم، ثم أعلام الفلسفة الذين كانوا يفكرون ويبحثون ويستبطون في خفية بعيداً عن عيون الناس والجمهور، من لا يستسيغون التفكير الحر ولا يشجعون عليه. ثم خرج « عباس » إلى الحياة العامة، شاباً ثائراً الفكر، متأنجاً العزيمة، مشتعل الذكاء، لا يريد أن يفكر كما يفك الناس، ولا أن يعيش كما يعيشون، ولا أن يعني بما يعنون به، بل أراد أن يفكر كما يجب أن يفكر، وأن يستطع ويعترض ويجدد كما شاء له عقله وقواه الفكرية الكامنة فيه. ولم تكن آمال « ابن فرناس » وأفكاره من خيالات الشباب وأكاذيب النفس، بل كانت مظهراً لعقلية مبدعة، وتفكير سليم؛ وبعد قليل تمكن هذا الذهن الحاد القوي من استبطاط طريقة لصنع الزجاج من الحجارة، فكان أول مبتكر هذه الطريقة الجديدة التي نسر على أثراها في شيء من التجديد والدقة والسرعة. ثم أخذت نفسه تحده : كيف نعيش دون التفكير في اختراع شيء جديد يعرف به حساب الدقائق وال ساعات والأيام؟ إن اختراع الشرق الساعات المالية، فليختبر هو ما تفخر به الأندلس والأندلسيون، وفلا تم له ما أراد، فاختبر الله البدعة « المنشالة » التي صنعتها على غير مثال لمعرفة الأوقات. وحول « ابن فرناس » فكره من جديد إلى مملكة النسور ... أبيطل هذا الأفق القسيح، والجو الربح؛ ميداناً للطيران ترفرف بأجنحتها فيه، ناعمة بجماله؟ ولم لا يشاركتها فيه الإنسان؟ هذه الطيور، أليست تطير بجناحين، يساعدها ريش كثيف، فلم لا يكون لابن فرناس جناحان ممدودان وريش منتشر على جسده؟ ليطير كما تطير النسور في الهواء؟ وأخذ يكسو نفسه بالريش ويمد له جناحين، ثم، كان يوم المحاولة الخطيرة الفريدة، التي هي أول محاولة بشرية للطيران، فاجتمع الناس من كل حدب، ليروا هذا الرجل كيف يفتح هذه الأفاق الجديدة أمام الإنسان وحرك عباس جناحه، ونشر ريشه، وأخذ يداعب الهواء فارتفع في الجو، وطار مسافة بعيدة، والناس في أماكنهم ينظرون ويعجبون ويضحكون. ثم كان لا بد لهذا

الطائر أن يهبط إلى الأرض، فهبط رويداً حتى قرب منها، فلم يستطع حفظ توازنه، فسقط مصاباً برضوض في جسده؛ لقد نظر « ابن فرناس » إلى جناحي الطائر وريشه، فامن بأنهما وسليته في الطيران، ولم ينظر إلى ذيله ليعرف مدى مساعدته له في طيرانه وحفظ توازنه وحين هبوطه إلى الأرض، فلم يصنع له ذيلاً كاصن ريشاً وجناحين، فأقصيـت التجـربـة بإـخفـاقـ ما كان أـجـدرـ « ابن فـرنـاس » أـن يـخـافـ سـبـبـ، وقد عـجـبـ النـاسـ، وسـخـرـواـ منـ « عـبـاسـ » وـهـرـثـواـ بهـ، وـنـظـمـ الشـعـراءـ الشـعـرـ فيـ السـخـرـيةـ بـهـ وـالـتـذـرـ عـلـيـهـ. وهـكـذاـ شـأـنـ الـعـقـرـيـنـ فـيـ كـلـ جـيلـ، يـسـبـقـونـ زـمـنـمـ فـلاـ يـفـهـمـهـمـ النـاسـ لـوـ يـفـهـمـهـمـ، بـلـ يـعـادـونـهـ عـدـاءـ شـدـيدـاـ. وقد يـكـونـ نـقـدـ النـاسـ وـسـخـرـيـمـ سـبـبـ لـإـحـجـامـهـ عـنـ إـعـادـةـ التـجـربـةـ مـنـ جـديـدـ، وقد يـكـونـ الـبـاعـثـ عـلـىـ ذـلـكـ جـهـلـهـ بـسـبـبـ إـخـفـاقـهـ فـيـ مـحاـولـهـ الـأـوـلـىـ وـخـوفـهـ عـلـىـ نـفـسـهـ أـنـ تـلـاقـيـ صـدـمـاتـ جـديـدـةـ، وقد يـكـونـ الصـارـافـ لـهـ مـاـ أـصـبـ بـهـ مـنـ جـرـوحـ دـامـيـةـ أـثـرـتـ فـيـ صـحـتـهـ. وـعـلـىـ أـيـ فـرـضـ، فـمـاـ كـانـ أـقـرـبـ « ابن فـرنـاسـ » إـلـىـ الـظـفـرـ بـأـمـيـتـهـ، وـالـلـغـرـوـ هـذـاـ الـأـفـقـ الـجـدـيدـ وـتـسـخـيرـهـ لـلـنـاسـ، وـلـوـ فـعـلـ ذـلـكـ لـأـنـقـلـبـتـ الـحـيـاـةـ، وـتـغـيـرـ بـجـرـىـ الـحـضـارـةـ، وـلـسـجـلـتـ الـحـيـاـةـ لـعـبـاسـ بـنـ فـرنـاسـ هـذـاـ النـصـرـ الذـيـ سـجـلـهـ بـعـدـ أـكـثـرـ مـنـ عـشـرـةـ قـرـونـ « لـلـأـخـوـيـنـ رـايـتـ ». وـلـمـ يـسـكـنـ هـذـاـ الـفـكـرـ الـثـائـرـ، وـالـعـقـلـ الـجـيـارـ. بـلـ أـخـذـ يـعـمـلـ وـيـتـكـرـرـ، حتـىـ تـمـكـنـ مـنـ وـضـعـ صـورـةـ فـيـ بـيـتـهـ، تـمـثـلـ هـيـةـ السـمـاءـ، تـحـيلـ لـلـنـاظـرـ فـيـهـ النـجـومـ وـالـغـيـومـ وـالـرـعـودـ وـالـبـرـوقـ؛ فـعـجـبـ مـنـهـ بـعـضـ النـاسـ، وـسـخـرـ بـهـ الـآخـرـونـ. وـيـقـولـ فـيـ مـؤـمنـ بنـ سـعـيدـ الشـاعـرـ الـأـنـدـلـسـيـ :

سمـاءـ عـبـاسـ الـأـدـبـ أـنـيـ الـ قـاسـمـ نـاهـيـكـ حـسـنـ رـائـقـهـا

وهـكـذاـ قـضـىـ « ابن فـرنـاسـ » حـيـاتهـ فـيـ تـجـدـيدـ وـابـتكـارـ، فـيـ سـيـلـ خـدـمةـ الـحـضـارـةـ، وـالـرـقـيـ بـالـحـيـاـةـ الـإـسـلـامـيـةـ فـيـ عـصـرـهـ. وـكـانـ مـعـ هـذـاـ مـوـسـيقـاـ بـارـعاـ بـعـدـ أـوـلـ مـنـ فـلـكـ كـاتـبـ بـطـلـيمـوسـ فـيـ الـمـوـسـيقـيـ وـالـأـخـانـ؟ـ وـأـوـلـ

من ذلك من الأندلسين كتاب العروض للخليل بن أحمد. وهو مع هذا النبوغ شاعر أديب، اتصل بالأمير الأموي حاكم الأندلس محمد بن عبد الرحمن، الذي اعتلى عرش البلاد من ٢٣٨ هـ إلى ٢٧٣ هـ، فكان له عنده مقام نبيل، ومدحه بقصائد أدية كثيرة، وقد أنشد الأمير محمدأ من أبيات :

رأيت أمير المؤمنين محمدأ وفي وجهه يذر الخبة يضر
وخرج أهل طليطلة حوالي عام ٢٤٠ هـ على الأمير محمد واستعانا
بالأفرنج فخرج إليهم بجيوشه وهزمهم وهدم قنطرة مدینتهم، وفي ذلك
يقول ابن فرناس :

أصحت طليطلة معطلاة من أهلها في قبضة الصقر
تركت بلا أهل تؤهلها مهجورة الأكاف كالقبر
ما كان يقي الله قطرة نصبت لحمل كتاب الكفر
وغنى ابن زرياب بعض الرؤساء، وعياس بن فرناس حاضر معه :
ولو لم يشتقني الطاععون الشاقني حمام تداعت في الديار وقوع
تداعين فاستيكن من كان ذا هوى نواحى ما تجري هن دموع
فذيلهما « عباس » بمدح هذا الرئيس وكان اسمه محموداً :

شددت بمحمد يدي حين خانها زمان لأسباب الرجال قطوع
بني لساعي الحود والخد قبلة إليها جمیع الأجداد رکوع
ويعد ابن فرناس من أوائل من اخترعوا عن المؤشحات. وله القليل
منها مما يبقى من أدبه محفوظا في كتب الأدب الأندلسي ومصادره ..
هذه صورة مصغرة لهذا الرجل، الذي لقب بحق حکیم الأندلس، والذي
شغل الفكر الأندلسي حیاً ومتاً، وكان أول من فكر في الظمران، والذي
مضى على وفاته أكثر من أحد عشر قرناً من الزمان. وتوفي عباس
نحو عام ٢٤٥ هـ.

وبعد عباس بن فرناس بعوائل جاء ليونارد دافنشي الإيطالي الذي عاش في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، والذي سلطت عليه فكرة إمكان الطيران متى نجح الإنسان في تقليد الطيور، فدرس الهواء وخصائصه، وتشريح الطيور، غير أنه لم يوفق إلى تحقيق غرضه والاختراع المبهضة وكشف فكرة البالون؛ وبعده ظهر جورج كيلي الانجليزي في أواخر القرن الثامن عشر وقد صنع طائرة، وظل ينتظر الآلة المحركة التي قال بضرورتها للطيران، وصنع هنسن في سنة ١٨٤٢ نموذجاً لطائرة ولكن لم يقو على الطيران، ثم تلاه «سترينجفيلي» الذي حسن هذا النموذج، وبنى سنة ١٨٤٨ نموذجاً آخر صغيراً وضع فيه آلية بخارية تمتاز بخفق مدحتة ساعدت على طيران هذا النموذج لأول مرة في التاريخ؛ ثم أنس بعد ذلك المستر وظام الجمعية الملكية للطيران بالإنجليز، فكانت إيزانا بقرب الكشف عن هذه المعجزة البشرية الرائعة، وفي ١٨٩٠ بني آدر المهندس الكهربائي الفرنسي طيارة، وركبها عركاً بخارياً، وانتقل بها إلى مسافات طويلة، وفي ١٨٩٧ بني طائرة أخرى وطار بها ٣٠٠ متر في خط مستقيم ثم نزلت إلى الأرض؛ ثم جاء للبيت الألماي الذي طار بعد أن حسن نموذج الطائرة، وتوفي ١٨٩٦ م، ثم جاء لانجلي الأمريكي، وتلاه الأشوان رأيت اللدان طاراً لأول مرة في ١٧ ديسمبر ١٩٠٣.

ففي اليوم السابع عشر من شهر ديسمبر ١٩٠٣ م حدث حدث تاريخي في بلدة كيتي هوك بولاية نورث كارولينا الأمريكية، ذلك أن الأخوين ويلمور وأورفيل رأيت طاراً بطائرة أقل من الماء، فكان أول من نجح في ذلك في تاريخ البشر. ويوم عادا من نورث كارولينا إلى مسقط رأسهما في مدينة ديتون بولاية أوهايو لم يختلف بهما الناس، بل إن جيرانهما ظنوا أنه إذا كان الشابان قد طارا حقاً، فما هي إلا مصادفة اصطلحت عليها الرياح القوية، وأن ما تم لهما لن يتم مرة أخرى، وكان أصدقاؤهما إذا التقوا بهما في شارع المدينة يتوجّبان الإشارة إلى

ما روي عن طيرانيا، فلن تجد رجلا به مسكة من العقل يرضى أن يتحدث في رواية سخيفة كهذه الرواية.

وصدرت صحيفة «ديتون جرنال» في صباح اليوم التالي، وليس فيها كلمة ما عن الحادث الذي تم في ١٧ ديسمبر. ونشرت ست صحف أمريكية رواية غريبة عما تم. ولكن جميع القراء تقريباً انكروا ما قرأوا عن الطيران بالطائرة المن دون الماء. لم يقل كبار العلماء، وفي طليعتهم سيمون نيومن العالم الفلكي الرياضي، إن ذلك مستحيل؟ ثم ألا تراهم قد أيدوا رأيهم بمنطق لا ينقض؟ فلم يكن غريباً أن تجد روؤساء تحرير الصحف يأتون، بعد أن قرأوا رأى العلماء، أن يتشاروا أن الطيران قد تم، وأنه تم على أيدي رجلين مجهولين، كان شغلهما أن يصلحا الدرجات، وليس خطا من العلم ما يصبه طالب في جامعة، لأنهما لم يطلبوا العلم في جامعة.

وفي شهر إبريل من سنة ١٩٠٤ جعل الأخوان بتدربان على الطيران في مرعى للبقر قريب من بيتهما في مدينة ديتون. وعلى أن غير هذه التجارب كان أعظم أخبار العلم وأخطرها في مستهل هذا القرن، فإنه لن تجد ذكرأ له في الصحف، حتى ولا في صحف المدينة التي أحيتها هذين الشابين. وما كان ذلك لأن الأخرين كانوا يكتفان ما يصنعن، فكيف يستطيعان، لو أرادا، أن يكونا شيئاً يصنعانه في مرج على مرأى من عيون الناس، فعل أحدهما جانبي المرج طريق عام، وخط الترام الذي يصل المدينة بالضواحي، وعلى الجانب الآخر سكة حديدية.

وقد ذكر دان كملر الصحفي الأمريكي، الذي كان محراً لقسم أخبار المدينة في صحيفة «ديتون ديلي نيوز» في ذكرياته العجيبة القديمة تلك الأيام، فذكر كملر ما كان، وقال : «كان الناس الذين يمرون بذلك الحقل في مركبات الترام يسيرون إلى مكتب الصحيفة ويسألون : في الصحيفة ذكر لطيران الأخرين، وقد تكون عدد الزوار حتى صرنا

ندهم بليه علينا». فسألته : « ولم لم تنشروا شيئاً في الصحيفة؟ » فقال : « لم نصدق ما قيل، ليس إلا » : ومن الأشياء التي جعلت طيران الأخوين شيئاً لا يسترعى الأنوار أنهمَا كانا يطيران المرة بعد المرة على ارتفاع ١٠ أقدام أو ١٥ قدماً فوق سطح الأرض. وكانا يطيران في أول الأمر مسافات قصيرة في خط مستقيم، كما فعل في كتبى هوك سنة ١٩٠٣، وأنفقا معظم أيام سنتي ١٩٠٤ و ١٩٠٥ في التدرب على إتقان توجيه الطائرة والطيران في دائرة، وزيادة المسافة التي يقطعها، فلما كان شهر أكتوبر من سنة ١٩٠٥ طار أورفيل ٢٠ ميلاً، وبعد يومين طار أخوه ديلور ٢٤ ميلاً ونصف ميل.

ومع ذلك لم تظفر معجزة الطيران باهتمام يذكر. وذات يوم ذكر تلاميذ مدرسة ريفية خبر صحيفة « ديون جورنال » الشیخ آنهم رأوا بعيونهم الأخوين يطيران حول المرعى مدة خمس دقائق. واتفق للمحرر أن لقى أورفيل رايت في مرکبة الترام في أصليل ذلك اليوم فسأله : أحق ما قاله التلاميذ؟ فقال أورفيل إنهمَا كثيراً ما يطيران. فوق في روح المحرر أن الرواية ليست بذات شأن ما دام أورفيل نفسه لا يهد ما يفعله هو وأخوه شيئاً غير مألوف، أو شيئاً ذا خطر. فطيرانهما حول المرج شيء يسلى تلاميذ المدرسة، ولكنه لا يكاد يكون شيئاً يستحق بضعة أسطر في صحيفة، وخدم المحرر حديثه مع أورفيل فقال : « إذا صنعتنا شيئاً خارقاً فلا تتوانيا في نقل خبره إلينا ».

وعلى أن مئات من الناس شاهدوا الأخوين يطيران، فإن أكثر الناس في طول البلاد وعرضها، ومنهم العلماء والمحروون، أتوا ان يصدقو أن طائرة أُنْقَلَتْ من الماء استطاعت حقاً أن ترتفع بقوتها عن سطح الأرض. وكانت هناك جماعة أخرى من الناس، خليقة أن تعنى بال موضوع، ولكن ما روي عنه أزعجها أكثر مما أثار فضولها، وكانت تلك الجماعة جماعة وزارة الحربية. فقد غلب الشعور الوطني على الأخوين، فأرادا

أن يعرضوا على حكومة أمتهما احتكاراً لاحتراعهما، وكانتا يظننان أن الطائرة تصلح للاستكشاف زمن الحرب، وقد تعزز ظنها هذا يوم أخذت حكومات الدول الأجنبية تحطب ودهما، ولا سيما الحكومة الفرنسية. فكتبوا إلى وزير الحربية الأمريكية وعرضوا عليه أن يكون للحكومة الحق الأول في الميمنة على احتراعهما.

وأغلب الرأي أن رجال وزارة الحربية عدوا هذه الرسالة شيئاً ب شيئاً لأن يحفظ في « درج المهملات »، وتلقى الأخوان رسالة عليها توقيع جنرال في هيئة أركان الحرب ورد فيها : « أن مجلس المهمات يرى أن بفرض تخصيص مال التجربة أحجزه الطيران الميكانيكي ». والحق يقال إن الأخرين لم يطلبوا ولا خالوا إلى ضرورة تخصيص مال التجاربما. ثم تلقيا رسالة ثانية في أواخر سنة ١٩٠٥ من مجلس المهمات جاء فيها : « أن المجلس يأذن أن يصنع شيئاً حتى تصنع آلة يثبت فعلاً أنها قادرة ان تطير طيراناً أفقياً وهي تحمل رجلاً ».

مع أنه كان الأخوان لا يزالان يطيران في طائرة هذه صفتها منذ شهر ديسمبر ١٩٠١.

وقرأ رجل من أسرة كابوت كلمة مؤداها أن الأخرين يقاوضان فرنسا في استعمال « السفينة الهوائية » الغربية، التي صنعواها، فكتب إليهما يسألهما لم لا يعرضان مخترعهما على حكومة أمتهما، فرداً بأهلاً فعلاً ذلك غير مرة. واطلع السناتور هنري كابوت لودج على هذه الرسائل، فأرسلها إلى وزير الحربية، فأحالها على مجلس المهمات — فلم يفعل شيئاً، وفي سنة ١٩٠٧ أرسل أحدهم إلى الرئيس ثيودور روزفلت مقالة عن الأخرين، فكتب عليها الرئيس بمخطه « يبحث »، وأحالها على وزير الحربية المستر تافت، فكتب تافت عليها « يبحث » وأحالها على مجلس المهمات. وكان بعض أعضاء المجلس قد تغيروا منذ سنة ١٩٠٥، ولكن المجلس ظل يساوره

الريب في هذا الأمر وبعد بحث فاتر كتب المجلس إلى الأخوان يقول :
إن الحكومة يقظة ولا تأخذ بهذه الألاغيب.

وبعد أن انقضت أربع سنوات أو نحوها على الطيران الأول في كيتي هوك، أخذت وزارة الحربية تغير موقفها، ولا سيما بعد أن توالت الأنباء من ملتحقيها العسكريين بأن الحكومات الأوروبية مهتمة بالطائرة، فقد اتفاق على أن تشتري الحكومة طائرة من طائرات رايت بمبلغ ٢٥ ألف ريال إذا ثبت أنها تستطيع أن تحمل رجلاً عدا قائدها وأن تطير بها مدة ساعة، وأن تكون سرعتها ٤٠ ميلاً في الساعة، وأن تحمل من الوقود ما يكفي للطيران مسافة ١٢٥ ميلاً. وتم الاتفاق على إجراء التجربة في سبتمبر سنة ١٩٠٨. كان الأخوان في تجربتهما الأولى يركبان طائرتهما منبطحين على بطئهما. وكان الانبطاح على هذا النحو، مع رفع الرأس حتى يستطيع المتبع أن يرى ما أمامه، ومع الميل بالجسم من جانب إلى جانب حتى تظل الطائرة معلقة بتوازنها، وكان ذلك كفياً لأن يؤود أقوى الناس. فأراد الأخوان أن يهرباً جهازاً جديداً لتجويف الطائرة، فعاداً إلى مسرح تجربتها الأولى في كيتي هوك، وذات يوم في مايو ١٩٠٨ رأيت طائرة رايت ماضية في الجو، وقد رأها مراسل صحفي اتفق وجوده هناك، وكان اسمه سالي. فابرق إلى طائفة من كبريات الصحف يسأل من : منها يريد قصة ما رأى؟ فأرسل إليه محرر الأنباء في صحيفة « كليفلاند ليدر » برقية غريبة، فإنه لم يكتشف بقوله : إن الموضوع لا يهمه، بل أضاف كلمة أغرب فيها عن غضبه أن يعرض عليه أحد من الناس عرضاً سخيفاً كهذا. وعده محرر صحيفة « نيويورك هرالد » برقية المراسل شيئاً أدق إلى الجنون، ولكن صاحب الصحيفة، جيمس جوردن بنét، كان مهتماً بشئون الطيران، فأمر باستقصاء هذه الرواية الغريبة، فبعثوا بأربع مراسلي الصحيفة، ببرون نيوتن، إلى كيتي هوك. فإذا كان الأخوان من المخادعين، فليس ثمة قلم أذع من قلم نيوتن في فضح

خداعهما، وغامرت الميرالد فنشرت رسالة سالي الأولى، فلم يكدر محررو الصحف الأخرى يرون ما فعلته الميرالد، حتى قضاوا بأن الأوان قد آن للوقوف على حقيقة قصة الأخوين. وسرعان ما انضم إلى بيرون نيوتن في كيتي هوك، جماعة من المراسلين والمصورين. فلما رأى الصحفيون صحراء كيتي هوك المقفرة، ظنوا أن الأخوين يُؤثران البعد عن عيون الناس. فغزموه أن يلوذوا بهم أيضاً بالكتان. فكانوا يمضون بطعامهم وشرابهم كل يوم، ويخبئون في غابات الصنوبر على مقربة من قاعدة الأخوين، ثم يستطعلون بالمناظر المقربة ما يصنعان. فذهلوا عن أنفسهم ساعة رأوا رجلين من البشر يطيران. بل رأوا في يوم ١٤ مايو ما لم تقع عليه عين بشر : طيران طائرة فيها رجالان. ويبيني أن تذكر أن جمهور الناس كان لا يزال متذمراً أن الطيران مستطاع، مع أن الأخوين أقاما الدليل على إمكانه منذ أربع سنوات في هذه البقعة نفسها — كيتي هوك — وأخيراً ظفر خبر الطيران بالعنوانين الضخمة في صدور الصحف معللة ما صنعه الأخوان. وكتب بيرون نيوتن في صحيفة الميرالد : «ليس ثمة أدق ريب في ما صنعه هذا الرجالان في آنها العجيبة». ومع ذلك فلم تكن هذه المقالات كافية لإقناع كل إنسان، وظلت صحف كثيرة ممتنعة عن نشر الخبر. فلما أرسل نيوتن مقالاً إلى إحدى الجرائد يصف فيه ما رأه بعيته في كيتي هوك، أعيد إليه المقال وقد كتب المحرر عليه : «قرأنا مقالكم بهمما ولكننا لا نستطيع أن نسلكه في صف القصص التخييل ولا الحقيقة الواقعية» ولم يكف الناس عن الاسترابة فيما صنعه الإخوان حتى كانت التجربة العامة التي تمت في سبتمبر ١٩٠٨، فيومند اتفق محررو الصحف ورجال العلم، على أن الطيران يآلة أصبح حقيقة واقعة، ولكن الريب ظل يساور النفوس إلى اللحظة التي بدأ فيها الطيران. وقد قال أورفيل : إن أحمس كان الناس المخشدin. هناك، وفيهم ضباط الجيش الذين تولوا الإشراف على التجربة، لم يتوقعوا أن يروا الطائرة تطير. ويصح أن تعلم أن هذه التجربة كانت التجربة العامة

الأولى لإحدى معجزات القرن العشرين، وكان الذين احشدوا لبروها جهوراً صغيراً. ويقول ابن الرئيس تيودور روزفلت : إن أباه طلب منه أن يقدر عدد الناس فكان تقديره أنهما ألف أو أقل. ويقول الفتى روزفلت : « لما ارتفعت الطائرة عن الأرض ندت عن القوم زفة استغراب، لم يكن مردها إلى أن الطيران كان عجباً من العجج وحسب، بل لأن الناس رأوا شيئاً لم يتوقعوه أيضاً. ولن أنسى ما كان لزفة الجمهور من أثر في نفسي، فقد كانت زفة دعثة ثامة ». فلما حط أورغيل على الأرض بعد طيرانه، دهش هو أيضاً، فقد عدا إليه ثلاثة من الصحفيين أو أربعة، والدمع يترقق في عيونهم وينسكب على خدوهم، فقد غلبهم روعة رؤية شيء كان يهدى مسجلاً. وهكذا تحققت معجزة بدأ بها عباس بن فرناس.

ويتحدث شوقي في شعره حين كان في المنفى عن آثار الأندلس وحضارتها الخالدة فيقول من بالية له :

أنادي الرسم لو ملك الجوابا وأجزيه بدمعي لو أنايا
وقل لخمه العبرات تجري وإن كانت سواد القلب ذايا
سيقن مقبلات الترب عنى وأدين التجية والخطايا
نترت الدمع في الدمن البواي وقفث بها كاشاءت وشاعوا
كتظمي في كسواعها الشابا وقوفا علىم الصير الذهابا
ها حق وللأحباب حق رشت وصافهم فيها حبابا
ومن شكر المناجم عسات إذا شكر الترابا
ويبن جوانخي واف الوف وبين جوانخي واف الوف
وكنم ميل الزمان به فكانت على الأيام صحبته عتابا
ثانية إن رضيت به ثوابا وداعاً أرض أندلس وهذا
ذرا من وائل وأعز غابا وما أنتست إلا بعد علم
تجذتك موئلاً فحللت أندى

ويصف شوق في أندلسية الحالدة الأخرى رواج الحمد العربي الكبير في الأندلس فيقول :

نشجي لواديك أم ناسي لوادينا
قصت جناحيلك جالت في حواشينا
أخاك الغريب وظلا غير نادينا
سهماً وسل عليك الين سكينا
من الجناحين عيّ لا يليينا
إن المصائب يجمعن المصايبنا
ولا ادكاراً ولا شجعوا أفالينا
وتسحب الذيل ترقاد المؤاسينا
فمن لروحك بالطمس المداوينا؟
 وإن حلتنا رفقة من روائينا
نجيش بالدموع والإجلال يشينا
ولا مفارقههم إلا مصلينا
للناس كانت لهم أخلاقهم دينا
كالحمر من «بابل» سارت «لدارينا»
تماثل الورد «خربها» و«نسرينا»
دموعنا نظمت منها مرايينا
وكدفن بوقطن في الترب السلاطينا
يا نائح الطلح أشيه عواديها
ماذا تقصر علينا غير أن يداً
رمي بنا الين أيكا غير سامرنا
كل رمهه التوى ريش الفراق لنا
إذا دعا الشوق لم نبرح بمتصدع
فإن يك الجنس يا بن الطلح فرقنا
لم تأْل ماءك تحنانا ولا ظمأ
تغير من فن ساقاً إلى فن
أساة جسمك شتى حين تطلبهم
آهَا لنا نازحي أيك بأندلس
رسم وقفتا على رسم الوفاء له
لفتة لا تزال الأرض أديعهم
لو لم يسودوا بدين فيه منهية
لم نسر من حرم إلا إلى حرم
لما بـالخلد ثابت عنه نسخه
نسقي ثراهم شاء كلما ثرت
كادت عيون قوافينا تحركه

ثم يتحدث عن وطنه مصر في هذه الأندلسية الرابعة فيقول :

لكن مصر وإن أغضت على مقا
عين من الخلد بالكافور تسقينا
على جوانبها رفت تماثلنا
ملاعب مراحت فيها مآربنا
وأربع أنسٍ فيها أمانينا

(١) واد بظاهر أشبيلية كان ابن عماد مولعاً به.

ومغرب حدود من أولينا
 من بر مصر وريحان يغادينا
 وباسم ذهبت في اليم تلقينا
 لحاضرين وأكواب ليادينا
 بعد المدوع، وبهي عن مآقينا
 هاج البكا فخضبنا الأرض باكتينا
 على نیام ولم تخف بسالينا
 قيام ليل الموى للعهد راعينا
 مما نردد فيه حين يضوينا
 نجائب سور مخدوا « مجربينا »
 إنما يعشن فساداً أو شياطينا
 على الغivot وإن كانت مياميها
 وهي الزبرجد من أنوف واديها
 رب خمائل واهترت ساليها
 ونزل كأنزل الطل الرياحينا
 بالحوادث ويفسو من معانينا
 فطاب كل طروح من مراميها
 قميص يوسف لم تحسب مغالينا
 بالورد كتب وبالرياحينا
 عن طيب مراكح لم تهض جوازينا
 غرائب الشوق وشيا من أماليها
 دنيا وودهم الصافي هو الدينها
 ومن مصون هو لهم في تاجينا
 عن الدلال عليكم في أمانينا
 في النائيات فلم يأخذ بأيدينا
 حتى أتنا نواكم من صياصينا

ومطلع لسعود من أواخرنا
 بنا قلم نخل من روح براوحنا
 كأم موسى على اسم الله تكفله
 ومصر كالكرم ذي الإحسان: فاكهة
 يا ساري البرق يرمي عن جوانحنا
 لما ترقق في دمع السماء دمأ
 الليل يشهد لم تهتك دجاجيه
 والتجم لم يرنا إلا على قدم
 كزفرة في سماء الليل حائرة
 بالله إن جيت ظلماء العباب على
 ترد عنك يداه كل عادية
 حتى حوتوك سماء النيل عالية
 وأحرزتك شفوق اللازورد على
 وحازك الريف أرجاء مؤرجة
 فقف إلى النيل واهتف في خمائله
 وأس مابات يندوي من منازلنا
 وبا معطرة الوادي سرت سحراً
 ذكمة الذيل لو خلنا غالاتها
 جشت شوك السرى حتى أتيت لنا
 فلو جزيلاً بالأرواح غالبة
 هل من ذيولك سككي تحمله
 إلى الذين وجدنا ود غيرهم
 يا من نغار عليهم من ضمائرك
 ناب الخين إليكم في خواطرك
 جتنا إلى الصبر ندعوه كعادتنا
 وما غلبنا على دمع ولا جلد

ونابغى كأن الخضر آخره
نطوي دجاه بحرب من فرافقك
إذا رسا النجم لم ترقا مخاجرنا
بنا تقاسي الدواهي من كواكبها
يسدو النهار فيخفىء مجلدنا
سبباً لعهد كأكثاف الرفي رفة
إذ الزمان بنا غيناء زاهية
الوصل صافية والعيش ناغية
والشمس تحتمل في العقيان تحسبها
والليل يغسل كالدنس إذا احفلت
والسعد لو دام، والنعمى لو اطردت

تمينا فيه ذكراماً وتحينا
يكاد في غسل الأسحار يطوبينا
حتى يزول ولم يهدأ تراقينا
حتى قعدنا بها حسرى تقامينا
للشامتين وبأسوه تأسينا
أني ذهينا، وأعطااف الصبا لينا
ترف أوقاتنا فيها رياحيننا
والسعادة حاشية والدهر ماشيها
« بلقيس » ترفل في وشي المانينا
وكان فيها وفاء للمصافينا
والسيل لو عف، والمقدار لو دينا

الباب الأول

الأندلس

الطبيعة .. والتاريخ .. والحياة

الفصل الأول

الأندلس .. الجنة الساحرة

الأندلس .. نذكرها حقا .. نذكر جنة الدنيا، وعيق التاريخ، وممثل الحضارة .. نذكرها بالفخر والنشوة .. ذكرى ولا كثيرها من الذكريات لأبي ذكرى، ذكرى خالدة حقا، فهي ليست ذكرى رجل وإن عظم، أو فرد وإن جل، إنما هي ذكرى أمة مجيدة، وشعب عريق، ودولة لم تكن تنتهي هامتها أمام الأعاصير، ذكرى شعب عربي عزيز، عاش في الأندلس^(١) العربية الشهيدة، الأندلس التي فتحها العرب بدمائهم وأرواحهم، وازدهرت فيها الحضارة العربية طيلة ثمانية قرون (٩٢ - ٨٩٧ هـ)، والتي أتت المدية والعمران والجند فيها هؤلاء العرب، الغر الميامين، الذين دانت لحكمهم الدنيا، وأنصت لسلطانهم التاريخ. الأندلس التي انبثق منها النور والعرفان في العصر القديم يضيء ظلمات أوروبا، ويدعو إلى تحرير العقول والأفكار والأرواح، وإلى حياة جديدة تقضي على الجهل والرجاحة والإقطاع والجمود. الأندلس ذات التاريخ العريق، والجند التليد، بساستها وأمرائها

(١) كلمة «أندلس» مأخوذة من «أنطليشا»، وأصلها «فالنلوشا» نسبة إلى «الفنال» وهو اسم للأمة المغاربة، التي نزلت هذه البلاد في القرن الخامس الميلادي، وقد أطلق العرب كلمة الأندلس على جميع البلاد المعروفة الآن باسم : إسبانيا والبرتغال، فهي شبه الجزيرة الشاملة لنهائي الملايين، الواقع بين عرض ٣٦ و ٤٣ شمالاً.

وكثيراً ما يطلقون عليها «جزيرة الأنيلس»، تasha'alat، كما سموا جزيرة العرب، وسميت «إسبانيا» أخذت من «إيشيان» ملك الروم الذي أسس مدينة إشبيلية. فشبه الجزيرة كلها بسمة العرب «الأنيلس»، ويسمى اليونان ليبريريا، ويسمى الرومان إسبانيا، وشبه جزيرة إسبانيا واقعة في الجنوب الغربي من قارة أوروبا، وهو وإن أطلق العرب عليه اسم الجزيرة مع أن الماء لا يحيط به من جميع جهاته، يد أنه شاهدوا الماء يحيط بما رأوا منها فأطلقوا على جزيرة تجوازاً، كما أطلقوا على شبه الجزيرة كلها اسم الأنيلس، وإن كان اسم الأنيلس إنما يطلق على الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة تحسب، هذا الجزء الجنوبي الذي ينبع منه الوادي الكبير، وتتدنى مقاطعة الأنيلس إلى الشمال من هذا الوادي والتي ينبع منها نهر الروم تجاه باد المغار الأصيني، حيث يصل إليها عن قارة إفريقيا نهر الرايق أو مضيق جبل طارق.

وتشمل بلاد الأنيلس وغيرها مما يقع تحت سلطنة العرب وأطلقوا عليه اسم الأنيلس قسماً من الهيئة الطبلية التي يكون منها الجزء الكبير من بلاد إسبانيا. وأجزاء هذه الهيئة ينفصل بعضها عن بعض بحيث يحيط كل واحد مستقلاً عن الآخر، وتحجري فيها أنهار كثيرة، يصب بعضها غرباً في المحيط الأطلسي، كنهر الوادي الكبير.

تمتد به المجال شمالاً وجنوباً وذريته كثيرة البساطتين الأيقنة والرياض التضرة، وعليه تقع مدينة قرطبة التي كانت من أشهر مدن الأنيلس الإسلامية وعاصمة الدولة الأموية أكثر من قرنين ونصف قرن، وبها ازدهرت علوم العرب وآدابهم وانتشرت بينها الطبلية ومساجدتها التي من أشهرها مسجد قرطبة الكبير، وقد كان من أكبر جامعات العلوم الإسلامية تخرج منه العلماء والفلسفون، وتقع عليه كذلك مدينة إشبيلية وغرناطة، وكثير يواجه التي تقع عليه كذلك مدينة طبلطة التي كانت من أشهر بلاد الأنيلس. وبعض هذه أنهار يصب شرقاً في بحر الروم مثل نهر ابنه الواقع عليه مدينة سرقسطة، وكانت من البلاد الصناعية زرн العرب وكان بها المعترفات الجميلة والمصور الطبلية، وينسب إليها كثير من علماء المسلمين ومشهورتهم.

ومن البدعي أن شبه الجزيرة كله يقع شمالي جبال البرانس وخليج سكانى، وهذه الجنوبي هو الخليج الرومي ويمر الرايق ويعرف الآن بيوغاز جبل طارق الذي يصل البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأطلسي، وعرض هذا الخليج ثالث عشر ميلاً تقريباً، وشرقى الجزيرة البحر الأبيض المتوسط، وغربها المحيط الأطلسي أو البحر الأعظم أو بحر الظلمات. وجوه هذه البلاد في جملة معدل الحرارة صيفاً وشتاءً، في بينما تصل جبال البرانس عنها الرياح الباردة تمر عليها تيارات دافئة تكفي دفئاً وحرارة، وتسقط الأمطار على شرقها شتاءً وعلى شمالها وغربها طول العام، فتفنيض الأنهار بهذه الأمطار الهائلة الغزيرة، وتخصب بها تربة البلاد ثبتت المدارات والمحبوب =

ومفكريها وعلمائها، وبناتها الرائعة الجميلة : من أمثال قرطبة^(١)، وإشبيلية^(٢)،

= والمواكي والكرود، وتذكر فيها المراعي التي تربى عليها الأغنام.
ومن الهمزة الأندرسية يستخرج التحاصل والزريق والقصدير، وعلى العموم فهذه
البلاد تمتاز بجمال الطبيعة، وخصب التربة، وكثرة الأسماك، مما كان له أثر في توجيه
حضارتها وجهة خاصة مسلطة.

(١) كات في الدولة الأموية قبة الإسلام، وملاذ أعلام الأنام، بها استقر سرير الخلافة
المرورانية، وفيها تحضرت خلاصة القبائل المعاشرة في إسبانيا، وإليها كانت الرحلة في
الرواية، إذا كانت مركز الكرماء، ومعدن العلماء، وهي من الأندرس مقررة الرأس
من الحسد، قالوا : وجرت مناظرة بين يدي ملك المغرب المنصور بعثوب، وبين
أبي الوليد ابن رشد، والرئيس أبي يحيى بن زهر، في المعاشرة بين قرطبة وإشبيلية،
فقال ابن رشد لابن زهر في تفضيل قرطبة : ما أدرى ما يقول، غير أنه إذا مات
عالم بإشبيلية، فأزيد بع كتبه، حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها، وإن مات مطروب
بقرطبة، فأزيد بع آلامه، حملت إلى إشبيلية، وكانت قرطبة أكثر بلاد الله كباراً..
وكان بها مسجد الداخلي الذي أصبح كثراية طولها ٢٠٧، وعرضها ١٤٧
متر، وبها ٨٥ اسطوانة من البرمر، ولها عشرون باباً، وست عشرة قبة، وبه الحسر
الأخير، على النهر الأعظم، الذي قيل إنه بين يامر الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي
الله عنه. ويقال إنه لم تبلغ مدينة من مدن الإسلام من العز والحضارة ما بلغته قرطبة،
إذا بعدها. وفيها يقول بعض علماء الأندرس :

بأربع فنات الأنصار قرطبة
نهن نظرنا الوادي، واجمعها
هاتان تنان، والزهراء ثالثة
والعلم أعظم شيء، وهو رابعها
ولم تزل عاصمة البلاد خلال حكم الأمويين (١٣٨-٤٤٧).

(٢) من محاسنها اعتدال الهواء، وحسن العياني، ونهرها الأعظم الذي يبلغ المد فيه النين
وسيعين ميلاً ثم يحصر، وفيه يقول ابن سفر الغرني :

شق النسم عليه جب قمهصه
فانساب من شطبه يطلب شاره
فضاحتك ورق الحمام بدوحها
هزهاء، فضم من الحياة إزاره

وقيل لمن رأى مصر والشام : أيهما أحسن، أهذان أم إشبيلية ؟ فقال بعد تفضيل
إشبيلية : شرقها غابة بلا أنس، ونهرها نيل بلا تماسج. وكانت عاصمة ملك المحمد
ابن عياد من ملوك الطوائف.

وطليطلة^(١)، وغرناطة^(٢)، وجيان، وشلب، وتقع في حوض نهر الوادي الكبير، ما

(١) طليطلة تطل على نهر باجه، وكانت قاعدة القوط، وفيها وجد طارق بن زياد مالدة سليمان بن داود، وكانت من دخالر الشبان ملك الروم، أخذها من بيت المقدس، وقومت هذه المائدة عند الوليد بن عبد العالك بمائة ألف دينار؟ وقيل إنها كانت من زمرد أحضر، وإنها الآن برومة، وكذلك أصاب فيها طارق من الدخالر العظيمة ما لا يكاد يصلقه العقل، وقد صارت في الإسلام قاعدة بي ذي النون من ملوك الطوائف، وكان ابناء ملوكهم صدر الملة الخامسة.

(٢) غرناطة هي مولد لسان الدين بن الخطيب، وفيها يقول الشاعر :

غرناطة ما لها نظير ما مصر، ما الشام، ما العراق
ما هي إلا العروس تحلى ولذلك من جملة الصداق

وتسمى كورة إلبرير، التي منها غرناطة دمشق، لأن جند دمشق تزلاوها عند الفتح، وقيل إنها سميت بذلك لتشهدها بدمشق في غارة الأئمّة، وكثرة الأصحاب، وكانت غرناطة قاعدة بي الأحمر (٦٢٩-٦٩٧هـ)؛ وبها قصر الحمراء المشهور، وعنها رحل الإسلام من بلاد الأنجلترا.

وقد شأت غرناطة في أواخر القرن الثامن، وباتها ملوك الإسلام في الغرب؛ فبني غرناطة أحد ملوك الأنجلترا، كما بني فاس أحد الملوك الأدارسة، وكلتاهما تقوم في بقعة من يقان الأرض مشاهدة بريانتها وللالها وجداولها، وقد ازدهرتا معاً، وقامت بينهما صلات وثيقة تجارية وغير تجارية، وخاصة في عهد المرابطين، وقد لاحظ المؤرخون والكتاب الأساتذون هذا الشبه منذ القرن السادس عشر، وتوجهوا بذلك الفرسى التي ظلت قائمة على وجه الزمان من حيث موقع المدينتين الطبيعي، ولكنها اختلفتا بعد ذلك، لأن مدينة فاس ظلت محفوظة بظاهرها الإسلامي الذي نشأت عليه، في حين أن غرناطة تبدل وجهها وتغيرت استولى عليها فردينان وإيزابيل ملكاً قشتالة، وبها فيها الكاثوليكية الجميلة، وأشهر ما اشتهرت به غرناطة قصر الحمراء الذي يالسا تفاني بجماله الشهير، ووصف محاسنه الأدباء، وألهم أكثر من قاص حكايات بارعة جميلة، وكان من هؤلاء وأولئك « واشنطن لدرفج » و « شاتو بريان » و « بيوغقول جوبيه » و « مانويل أنايا » و « فريديريك أوسيفاليا »، فوصفو روعته وبهاءه، وأحاطوا بألوان الحياة التي كان يعيشها أمراؤه في أوائل القرن الرابع عشر، وتختلف غرناطة عن بقية مدن أسبانيا الكثيرة بأن المسلمين بتوها لا الأسبان، وقد أقاموها بالقرب من خرال مدينة أسبانية قديمة اسمها « ألميرا »، وبلاحظ أن الناس كثيراً ما استعاروا أسماء المدن لبطلقوها على أبنائهم، فالمثير أن اسم مدينة فنبلو إلى اسم سيدة.

عدا طليطلة، والمرية ومرسية وبني سية وملقة ودانة وشاطبة وبرشونة وطرطوشة، وتقع على الساحل المشرف على البحر الرومي، والجزيرة

= وأطلقه « لامرين » على بطلة قصته المشهورة، وأسمى العرب مديتها غرناطة، وهو اسم مأخوذ من اسم الرمان باللغة الرومانية، لأن المدينة كانت في شكلها بين التلال المحجوبة بها تشبه نصف رمانة. وقد تم بناء المدينة في سنة ١٢٣٥ م واستمرت بأيدي العرب إلى سنة ١٤٩٢ فكانت آخر معلم سقط بأيدي الأسبان، وأبرز خطوط تاريخها أن محمد بن الأحمر استولى عليها فيما استولى عليه من مدن الشاطئ الأساتي، وهو الذي شرع فيها في بناء قصر الحمراء، وقد أتمه خلفاؤه من بعده، وخاصة محمد الثالث الذي شيد أبواب الفصري وبني المدرسة، وكانت العلاقات بين ملوك بني الأحمر وملوك أسبانيا تختلف بين حروب ومهادن استمرت غرناطة كاملاً، وانتهت في عهد أبي عبد الله محمد بن عبد الله الذي سلم إلى فردينان ويزايل مفاتيح أبواب المدينة في ٢ يناير سنة ١٤٩٢، أي في نفس العام الذي اكتشف فيه Amerigo كاواخيرن المخطبة، ودخل الملكان المدينة في يوم العطاس (٦ يناير) من تلك السنة، وكان أبو عبد الله قد غادر غرناطة إلى مقابله للملكيين وتسلمه لهم مفاتيح المدينة، ورحل إلى مراكش، ويروي أن أمه، وكان اسمها تريا، سمح له وفند بيرز ويكي فقالت له : « لا تبك كامراً على ملك لم تعرف كيف تدافع عنه كرجل ! ». وبعد سقوط غرناطة لم يلبث الشعاء أن نظمو شهراً كثيراً وصفوا فيه العرب، وروما، عزهم البالد، وكانت غرناطة قد عرفت في خلال تاريخها العربي بالبسر والرخاء، وأصبح ملوك أمرائها إلى الدرجة وملقة وغيرهما، وكان أولئك يتكلمون بلدة يحيط بها القلاد رومانية، وكان بالقرب منها ضاحية جميلة تسمى رياض البارزين تسكنها طفة الأغنان والوجهاء، ويلاحظ أن هذه الطيبة الأرضية كانت تألف سكناً للمدن الكبيرة وتختار لها مكاناً خارج المدينة تبني فيه مازلاها الألبقة، وقديمة قالوا : « إن الأطراف مساكن الأشراف »، وكان كذلك بالقرب من المدينة بير صغير يقال له بير سيدة كرمن، إشارة إلى العذراء مريم، وهو تشويه لاسم جبل الكرمل فلسطين، وقد نحتوا منه اسم « كرمن » الذي صاروا يسمونه به، وكان البير قائماً على أحد التلول المحجوبة بالمدينة، وموقعه ذو مناظر تعدّ فرة للعيون وبهجة للنفوس، وأما قصر الحمراء فكان مقر الملك، كان كأنه حصن قائم على مرتفع يشرف على المدينة في مهابة وجلال، بل إنه كان مدينة صغيرة تشبه « فرساي » و « سان ديني » مقري ملوك فرنسا، وهذا كان من عادة ملوك ذلك العصر أن يبنوا قصورهم خارج المدينة وفي ضاحية منها، وكانت الحمراء ذات أسوار مزدوجة، وفيها مسجد هو =

الحضراء وتقع بالقرب من ساحل بحر الرقاق؛ أما طليطلة فتقع هي ومدريد (أو مجريط) داخل الحضبة الأسبانية؛ هذه المدن ذات الذكريات الجيدة، والتي خرج

= الجامع الكبير، وسوق، وبعض المنازل بين كبير وصغير، وفيها مدافن الملوك وكانت تسمى الروضة، وكانت ذات فخامة وأبهة. ويحكي أنه لما مات الملك إيزابيل أوصت بأن تدفن في قبر بسيط يكفيه المقبرة لتظهر الفرق بين الفخامة التي كانت من مظاهر ملوك العرب والبساطة التي كانت تتوخاها. وبعد قصر الحمراء أُخرج مظهر للقُن الإسلامي بالأندلس، وأُوفى دليل على حياة العز التي كانوا يصيرون بها. وكان يجوي كل أسباب الطمأنينة وال فهو سلسة أئمة حميدة ورددات واسعة، وكان له عدة أبواب منها باب العدل الذي كتب فوقه «لا غالب إلا الله». وكانت هذه الأبواب وتلك الغرف مزينة بأجمل الزينات، مرصعة بالماج والمصف والفضة، ممزوجة على أحسن متوازن، فيها الفسيفساء والتقوش. وفي سنة ١٥٢٦ أمر الملك شارل كان الذي كان يتردد كثيراً على قصر الحمراء أن تهدم بعض أجزائه ليبني موضعها قصراً لإقامته. وقد تم له ما أراد، ولكن بناء القصر لم يتم فظل بلا سقف يظله... وما أحسن قول ابن خفاجة في الأندلس ومدنها :

إن للجنة بالأندلس محظى حسن، وربما نفس
فتنا صبحها من شب ودجا ليتها من لعن
صحت : واثوقي إلى الأندلس وإذا ما هب الريح صبا

وقول ابن سفر السرياني :

= في أرض أندلس تند نعاء
ولا يفارق فيها القلب سراء
وليس في غيرها بالعيش متسع
وأين يعدل عن أرض يحيض بها
على العداوة أنسواه وأفداء؟
وكيف لا يهيج الأصار رؤيتها
وكل روض بها في الوشي صباء؟
وللهواء بها لطف يترق به
ليس السيم الذي يهفو بها سحراً
ولا انتشار لأكي الطل آنداء
 وإنما أرج الشد استثار بها
في ماء ورد، طابت منه أرجاء
وكيف يجوي الذي حازته إحساء
فريدة، وتولى ميرها الماء
قد مزرت من جهات الأرض حين بدلت
دارت عليها عطاها أخير حففت
لذلك يسم فيها الزهر من طرب
فيها خلعت عداري، ما بها عوض
فهي الرياض، وكل الأرض صحراء

منها أئمة الفكر والعلم والأدب والفلسفة؛ خلال العصور السالفة الراهبة التي حكم العرب فيها الأندلس؛ الأندلس الشهيدة التي تآمر عليها وعلى حضارتها أعداء الإسلام من متعمسي المسيحيين، فأحرقوا مدنها، وهدموا جامعاتها، وبددوا مكتباتها، وشردوا أهلها، وقضوا على آثار الحضارة فيها ظلماً وجحلاً واستبداداً، مما لا نسميه حرفة تحرير، لأن الشعب الأسباني كان قد اخْتَلَطَ حيثُنَّ بالشعب العربي، وصار أهل البلاد شعباً واحداً له خصائصه الفكرية والتَّقَوِيَّةُ، وأن حرفة التحرير لاترداد الجهل والرجاحة والوحشية لا يعني بها سفك الدماء، وتزوير الأشلاء، وهدم الجامعات، وحرق المكتبات، واستباحة الأعراض، وانتهك الحرمات، والقضاء على شعب كبير له تاريخه وسماته وخصائصه في تاريخ الحضارة الإنسانية، وما أصدق ما يقول الشاعر الأندلسي :

قلت يوماً لدار قوم تقانوا أين سكانك العزيز علينا؟
فأجاب : هنا أقاموا قليلاً ثم ساروا ولست أعلم أينما

= يقول لسان الدين بن الخطيب في عصائص الأندلس :

« وَخَصَّ اللَّهُ تَعَالَى بِلَادَ الْأَنْدَلُسِ مِنَ الرُّبُعِ، وَغَدَقَ السَّقْيَا، وَلَقَّاَةَ الْأَقْوَاتِ وَفَرَاجَةَ الْحَيْوَانِ، وَدُرُورَ الْقَوَافِكِ، وَكَثْرَةَ الْمَاءِ، وَتَبَرُّ الْمَرَانِ، وَجُودَةَ الْبَاسِ، وَشُرُفَ الْأَيَّةِ، وَكَثْرَةَ السَّلَاحِ، وَصَحَّةَ الْهَوَاءِ، وَابِيَّاضِ أَلوَانِ الْإِنْسَانِ، وَبَلَّ الْأَذَهَانِ، وَفَنُونَ الصَّنَاعَةِ، وَشَهَادَةَ الطَّبَاعِ، وَنَفْذَةَ الْإِدَارَةِ، وَرِحْكَامَ الْسَّدَنِ وَالْأَعْصَارِ بِمَا حَرَمَ الْكَثِيرُ مِنَ الْأَقْطَارِ مَا سَوَاهَا » ونقل المغربي عن الرازي : « بلد الأندلس هو آخر الأقطار الرابع إلى المغرب، وهو عند الحكمة : بلد كريم البقعة، طيب التربية، صعب الجنان، منحس الأنهر الغزار، والعيون العذاب، قليل الهواء ذوات السموم، معتقد الهواء والجو والنسم. ربيته، وخرقه، ومشته، ومصيفه، على قدر من الاعتدال، وسطة من الحال... تصل فواكهه أكثر الأرمنة، وتندوم ملائحة غير مقودة. أما الساحل منه ونواحيه، فينادر باكورة، وأما النهر وجهاته، والجبل المخصوصة ببرد الهواء فبنآخر بالكثير من ثمرة» فنادة الخبرات متعددة في كل الأحيان، وفوائده على الجملة غير معدومة في كل ألوان، وله خواص في كرم النبات توافق في بعضها أرض الهند، المخصوصة بكرم النبات وجواهره، منها : أن الملحيل، وهو المقدم في الأقوية والمفضل في أنواع الأشنان، لا ينت بشيء من الأرض، إلا بالأندلس والهند. ولأندلس السدن الحصينة والعماقل الحنيفة، والقلاع الحريزة، والمصانع الجليلة، ولها البر والبحر، والسهل والوعر.

إن الأندلس وفلسطين لتشيدان والuhan من أناشيد الخد والعظمة والجلال، ولن ينسى العرب والمسلمون قصة مصرع الأندلس في القديم، ولا قصة مصرع فلسطين في الحديث، لأنهما قصتان يجب أن يلتقي إليهما الضمير الإنساني، وأن يردددهما شباب العرب في كل جيل وزمان ومكان.

وكيف ننسى أجيالاً من الكفاح والبطولة والتضحية والبناء والعمل الشاق لغير الإنسانية جماء، وقرعوا ثانية قضياؤها العرب في الأندلس برفعون لواء الحضارة، وبيثون روابع العمران، ويشجعون الفتوح، وينهضون بالعلوم، ويتفانون في بعث النهضة في قلب أوروبا الجاهلة الشقية الخروبة الخذولة، التي سرقت أمجاد العرب ومدنיהם، ثم جحدت فضلهم، وأنكرت أياديهم البيضاء على أوروبا المسكينة الخروبة يومذاك.

ونحن نعلم أنه لو لا معركة تور لما تأخرت النهضة في أوروبا نحو تسعه قرون طوال، هذه المعركة التي أدت إلى انتكاس الإنسانية والحضارة بانتصار شارل مارتل على عبد الرحمن الغافقي في خريف سنة ٧٣٢ م، وهي التي قال فيها مسيو كلود فاريير الأديب الفرنسي الأشهر : « في سنة ٧٣٢ م (١١٤ هـ) حدثت فاجعة ربما كانت من أشأم الفجاجع التي انقضت على الإنسانية في القرون الوسطى، وكان منها أن غمرت العالم الغربي — مدة سبعة قرون أو ثمانية إن لم نقل أكثر — طبقة عميقة من التوحش لم تبدأ بالتبدد إلا على عهد النهضة (رونسанс) ... هذه الفاجعة هي التي أريد أن أذكرها، وأعني بها الانتصار البغيض، الذي ظفر به على مقربة من بواتيه^(١) — أولئك البرابرة المغاربة من الأفرنج بقيادة الكارولنجي شارل مارتل — على كتاب العرب المسلمين الذين لم يحسن عبد الرحمن الغافقي جمعهم على ما ينبع من الكثرة فانهزموا راجعين أدراجهم، في ذلك اليوم المشئوم تراجعت المدنية ثانية قرون إلى الوراء. ويكتفي المرء أن يطوف في حدائق الأندلس

(١) بقعة من الأرض الفرنسية قرية من بلدة (تور) في مقاطعة شمبانيا.

أو بين الآثار العربية التي لا تزال تأخذ بالأوصار مما يبدو من عواصم السحر والخيال (إشبيلية وغرناطة، وقرطبة، وطليطلة)، ليشاهد — والألم الغريب آخذ منه .. ما عساها أن تكون بلادنا الفرنسية لو أنقذها الإسلام العماراني الفلسفى السلمى المتساung — لأن الإسلام مجموعة كل هذا — فخلصها من الأهاويل التي لا أسماء لها. وكان من ذلك أن نتج حرباً (غالباً) القديمة، التي استعبدها أولاً لصوص أوسترازيا، ثم اقطع جزءاً منها فرchan التورمانديين، ثم تخجرات وتغزت وغرقت في دماء ودموع، وفرغت من الرجال بما انبعث في أرجائها من الدعوة للحروب الصليبية، ثم انتفخت بالأشلاء والجثث بما دهتها من الحروب الخارجية والأهلية الكثيرة العدد. حدث ذلك في حين كان العالم الإسلامي — من نهر الوادي الكبير في أوروبا إلى نهر السندي في قلب آسيا — يزدهر كل الازدهار في ظل الإسلام ... ليس ما كتبه فصلاً من التاريخ الرسمي، بل هو التاريخ الحقيقي الذي يتعلمه المرء بنفسه، مما يجتازه من بخار، ويقطنه من فياف وأفاق، ويقلبه من خزان الكتب الأجنبية، وليس هذا يعزز على حياة سائح يريد أن يفصح — عقب رحلة له — ما كان يلمسه بأطراف بنائه من تلك الأكاذيب الكبيرة السفهية التي أراد معلمونا — ولا يزالون يريدون — وضعها أمام أعينا كأنها حقيقة بل هي حقيقة».

ويقول أديب فرنسي كبير آخر، هو المسوبي هنري دي شامبوت مدير مجلة (ريفو بار لنتر) هذه الشهادة الصريحـة : « لولا انتصار جيش شارل مارتنل الممجي على تقدم العرب في فرنسا لما وقعت فرنسا في ظلمات القرون الوسطى، وما أصبحت بفظائعها، ولما كانت المذايحة الأهلية الناشئة عن التعصب الديني والمذهني. ولو لا ذلك الانتصار البربرى على العرب لنجت إسبانيا من رحمة حاكم التفتیش، ولو لا ذلك لما تأخر سير المدينةثمانية قرون. إننا مدینون للشعوب العربية بكل حماد حضارتنا : في العلم، والفن، والصناعة، مع أننا نزعم اليوم أن لنا حق السيطرة

على تلك الشعوب العريقة في الفضائل، وحسبي أنها مثال الكمال البشري مدة ثانية قرون، بينما كنا يومئذ مثال الحمامة. وإنه لكتاب وافراء ما ندعيه من أن الزمان قد اختلف، وأنهم صاروا يمثلون اليوم ما كنا نمثله نحن فيما مضى ^٤

ونعلم كذلك إنه لو لا العصب المسيحي في أسبانيا، وأمساة طرد العرب منها، وما صنعته حاكمة التفتيش في أهلها العرب المسلمين وغيرهم، لو لا ذلك كله ل كانت أسبانيا اليوم أغزر دولة في العالم، ولما تأخر بدء النهضة في أوروبا، وما أجل ما يقول نيشة فيلسوف ألمانيا الأشهر : « لقد حرمتنا المسيحية ميراث العبرية القديمة، ثم حرمتنا بعد ذلك الإسلام، لقد ديسست بالأقدام تلك المدينة العظيمة، مدينة الأندلس المغربية، ولماذا؟ لأنها نشأت من أصول رفيعة، ومن غرائز شريفة، نعم من غرائز رجال. إن تلك المدينة الإسلامية لم تذكر الحياة، بل أحاجتها بالإيجاب، وفتحت لها صدرها.

وفي تصوير مدى الجرم الإنساني العظيم الذي ارتكبه الأسبانيون في حق العرب يقول محمد عبد الله عنان في كتابه « ديوان التحقيق »^(١) : « في سنة ١٤٩٩ ذهب الكريدينال كمنيس إلى غرانادا، وحث مطرانها والدوق تالافيرا على اتخاذ وسائل جديدة لتنصير المسلمين، وجمع فقهاء المدينة وشرح لهم أصول النصرانية ودعاهم إلى اعتناقها، وأغدق عليهم التحف والهدايا، فأقبل بعضهم على التنصير، إما اثناء للاضطهاد، أو اغتناماً للحظة، وتبعدم جماعة كبيرة من العامة. ولما حاول بعض آئيان المسلمين التدخل والاحتجاج بأن هذه السياسة تناقض روح العهود المقطوعة وتصوّرها، أجاب كمنيس بالوعيد، وهدد باتباع الشدة والعنف، وعندما إلى ارتكاب جريمة من أشنع الجرائم البربرية، إذ أمر بجمع كل ما يستطيع

(١) ديوان التحقيق — محمد عبد الله عنان — ص ٣٥.

جعه من الكتب العربية، ونظمت أكاداما في أكبر ساحات المدينة، وكان منها عدد كبير من المصاحف المزخرفة وكتب الفقه والكلام، ومنها أيضاً كثير من كتب الآداب والعلوم، وأضرمت فيها النار جميعاً، ولم يستثن منها سوى ثلاثة كتاب في الطب ». وبختلف المؤرخون في تقدير عدد المخطوطات العربية التي ذهبت فريسة هذه الجريمة الشائنة. فيقدروا بعضهم بأكثر من مليون، ولكن (كوندي) يقدرها بـألفين ألفاً، وتقديره أرجح وأقرب إلى المعقول، لأن المكتبة الأموية الشهيرة في قرطبة لم تردد على ستة آلاف مجلد، وقد بددت هذه المجموعة الكبيرة أيام ثورات البربر واقتحامهم لقرطبة، ولم يجمع في غرناطة في مجموعة واحدة مثل هذا القدر، ولكن أنشئت بها مجموعات مختلفة ما بين خاصة وعامة، وكان طبيعياً أنها وهي مركز العلوم الإسلامية، بعد قرطبة، تحتوي على أنفس الآثار الإسلامية من حيث التفكير والفنون، ويؤيد كوندي تقادره بـألفين وشواهد لا يأس بها.

وها هؤلاً أحد الشعراء الأندلسيين يبكي ما ضاع من ثارات العقول والأفكار الإسلامية في الأندلس، فيقول من قصيدة وجهها إلى بايزيد العثماني مستغيناً من ملك الروم وتنكيله بال المسلمين، وقضائه على تراثهم الفكري :

وحان عهوداً كان قد غرنا بها
وأنحرق ما كانت لنا من مصاحف
وخلطها بالزبل أو بالنجاسة
وكل كتاب كان من أمر دينا
ففي النار أقصوه بيء وحقرة
ولا مصحفاً يغلب به للقراءة

الطبيعة الأندلسية الفاتحة

- ١ -

بلغت فنّة الطبيعة في الأندلس وجماها حداً لا يوصف، هذه الطبيعة الساحرة التي انتظمت الجبال والأنهار والوديان والحقول الواسعة وشواطئ البحار، والمدن الجميلة، مثل: قرطبة، وغرناطة وطليطلة وأشبيلية، وغيرها. وكانت مناظر الطبيعة في الأندلس أجمل من أن توصف، فهذا وادي الأشات^(١)، وقد أحذق به اليسانين والأنهار، وفيه يقول أبو الحسن ابن نزار:

لله ظلك والمجير مسلط قد بردت لفحاته الأداء^(٢)
والشمس ترغب أن تفوز بلحظة منه فتضطر طرفها الآباء^(٣)
والنهر يسمح والحباب كأنه سلخ نضنه حية رشاء^(٤)
فلذاك تحدره العيون فيلها أبداً على جنباته إيماء

(١) قرية صغيرة من أعمال غرناطة.

(٢) المجير: شدة الحر، ولفتحة النار: الهمة من حرها.

(٣) الآباء: جمع في، وهو ما كان شمساً فسحة النهل، والمعنى في «تضطر طرفها الآباء» أن النهل يرد عن الشمس عن التفتح في موضعه، فكأنها طرفت فأغصت.

(٤) الحباب: معظم الناء، والمراد هنا طهرا، السلخ: بالفتح اسم ما تزع عن الشاة من جلدتها، والمعنى من باب نصر وقطع، نضا التوب (كتصر) خلعة، الرشاء: الحياة المنقطة بسود.

وهذا وادي علراء، بمدينة برجة التي سميت « بهجة » لبهجة مناظرها،
وفيه يقول أبو الفضل بن شرف القمياني التوفيق عام ٤٦٠ هـ :
رياض تعشقها سندس
مدامعها فوق خدي ريا
وكل مكان بها جنة
و فيها أيضا قوله :

حظر الرجال يبرجه
في قلعة كسللاح
فاحصنا لك أمن
كل البلاد سواها

وقد ذكروا عن إشبيلية أنها من أحسن مدن الدنيا، وبأهلها يضرب
المثل في الخلاعة، وانهاز فرصة الزمان الساعية بعد الساعة، يعنيهم على
ذلك وادياً الفرج، وناديها اليه، وهذا جيل الشرف، وهو تراب آخر
مترامي التواحي، يشتمل على مائتين وعشرين قرية، قد التحافت بأشجار
الزيتون واشتملت، وذكروا عن نهرها أن المد يصعد فيهاثن وسبعين
ميلاً ثم ينحصر، وفيه يقول ابن سفر :

شق التسيع عليه جيب قميصه فاتساح من شطبه يطلب ثاره
فضاحكت ورق الحمام بدوحها هرعاً فضم من الحياة إزاره
إلى غير ذلك من شتى مناظر الطبيعة الفاتنة الساحرة.

(١) السلاح معروف، والمعنى : أن الكلمة — وهي في الأصل موضع الخوف — صارت كأنها السلاح، وبروي «سلام» ولا معنى له.

وقد كان الأندلسيون أكثر الناس حباً للأندلس، وافتاتنا بمفاتنه وهياماً بجماليه وحسنها.

وقد بلغ من حجمهم ليلادهم، وغرامهم بمحاسنها، إن أديباً من أهلها وهو أبو عمران موسى بن سعيد، كتب إليه أحد الوزراء يرغبه في النقلة إلى مراكش فألف وكتب إليه : «كيف أفارق الأندلس !! وقد علم سيدى أنها جنة الدنيا بما حبها الله من اعتدال الهواء، وعذوبة الماء، وكثافة الأفياء، وأن الإنسان لا يرث فيها بين فرة عنين وقرار نفس : أفق صقيل، وبساط مدح، وماء صالح، وطائر متزن، فكيف يعدل الأديب عن أرض على هذه الصفة !! يا سموعل الوفاء، وباحات المساح، وبوا جذبة الصفاء !!»، كمل من أملك النعمة، بتركه في موطنه، غير مقدر لخاطره بالتحرك من معده .. ألم .. *

ولما رقت حال أبي القاسم عامر بن هشام بقرطبة، وزين له بعض أصحابه الرحلة إلى حضرة ملك الموحدين يبراكتش قال وذكر المنشرات بقرطبة. وتسمى هذه القصيدة عند أهل الأندلس كنز الأدب :
با هبة باكرت من نحو دارين واقت إلى على بعد تحييني
سرت على صفحات التبر ناثرة جناحها بين خيري ونورين

(٤) هو جذبة بن مالك بن عامر التبوخي، أول من قاد العرب وملك على قضاعة وكانت منزلة الحجرة والأباري، ولولاته من قبل أرد شير بن يالك، وكان أبورس فعلل عن الاسم فقيل الأبرش وهو الذي يقال له نديم الفرقين، وكان إذا شرب فدحأ صب لهاها فدحين، وهو الذي تزوج الرياء، وكان لها وتر عنده لأنه كل أيامه عمره من العطوب العاملين فسلك بعد انتهـه «الرياء» فاستشار أصحابه فأشاروا عليه بالمعنى، إلا قصیر بن سعد، فلما كان عندها قطعت رواهـه واستقرـه حتى مات فحلـمه على الملك ابن أخيه عمرو من عدي ثم احتـال قصـير على الـريـاء ودـبر لها مكـيدة أهـلكـها.

رددت إلى جسدي روح الحياة وما
لولا تسمها عن نشر أرضكم
ومنها :

من شاء يظفر بالدنيا وبالدين
حفت بشطبه الفاف البسايتن^(١)
وأن مالي فيه كثر قارون
ت الراح بهاً ووصل الحرور والعين
وأن حظي منها حظ مبغون
لما رأى الرزق فيه ليس برضيني
فلو ترحلت عنه حله دوني
قود الأماني وطوراً فيه تعصيني

وأين يعدل عن أرجاء قرطبة
قطر فسيح ونهر ما به كدر
يا ليت لي عمر نوح في إقامتها
كلها كدت أفيه على تشاوا
 وإنما أسفني أني أهيم بها
يا أمري أن أحث العيش عن وطني
نصحت لكن لي قليلاً ينazuعني
لأن من وطني طوراً تطاوعني

- ٣ -

وما أكثر ما هاج أهل هذه البلاد بالشقاء عليها ثراً ونظماء، حتى يكاد
قوفهم يكون مقصوراً على وصف تعيمهم بها، والتلهف على ما فاتهم
منه حين اقصوا عنها، ومن تقدحهم بمحاسنها قول ابن سفر المريني^(٢) :
في أرض أندلس تلذذ نعماء ولا يفارق فيها القلب سراء
وليس في غيرها بالعيش متفع ولا يقسم بحق الأنس صهباء
وكيف لا تهيج الأبصار رؤيتها وكل روض بها في الوشي صناعه^(٣)

(١) الألفاف : الأنججار المختلفة، جمع لف « مثلاً » وهو جمع لقاء، فيكون ألفاف جمع
الجمع.

(٢) نسبة إلى بني مرiven، قال في شرح القاموس : بني مرiven كانوا من ملوك العرب،
 منهم : أبو يعقوب عبد الحق وأولاده وطالحة من آل مرiven.

(٣) بهج ككرم وفرح : سر. وكتنعن : أفرج كأنهيج.

أنهارها فضة والمسك تربتها
ليس النسيم الذي يهفو بها سحراً
ولما أرج اللند استثير بها
وأين يبلغ منها ما أصنفه
قد ميزت من جهات الأرض حين بدأ
دارت عليها نطاقاً أبغر حففت
لذلك يسم فيها الـزهـرـ من طرب
فيها خلت عذاري ما بها عوض

والجز روضتها والـسـدـ حـصـباءـ
ولا انتشار لـآـلـ الطـلـلـ أـنـداءـ
في مـاءـ وـرـدـ فـطـابـتـ منهـ أـرـجـاءـ^(١)
وكـيفـ يـحـويـ الـذـيـ حـازـتـ إـحـصـاءـ؟
فـريـدةـ وـتـولـيـ مـيـزـهـاـ المـاءـ
وـجـداـ بـهـ إذـ تـبـدـتـ وـهـيـ حـسـنـاءـ
وـالـطـيرـ يـشـدـوـ وـلـلـأـغـصـانـ إـصـفـاءـ
فـهيـ الـرـياـضـ وـكـلـ الـأـرـضـ صـحـراءـ^(٢)

وقول ابن خفاجة (٤٥٠ هـ - ٥٣٣ هـ) :

إن للجنة بالأندلس
مجل مرأى وريان نفس^(٣)
ودجى ظلمتها من شب
صحت وأشواقي إلى الأندلس!

ويقول ابن الرقاق البليسي في بلنسية :

بلنسية إذا فكرت فيها
وأعظم شاهدي منها عليها
كـسـاهـاـ رـهـاـ دـيـاجـ حـسـنـ
وـفـيـ آـيـائـهاـ أـسـنـىـ الـبـلـادـ
وـأـعـظـمـ شـاهـدـيـ مـنـهـاـ عـلـيـهـاـ
لـهـاـ عـلـمـانـ :ـ مـنـ بـحـرـ وـوـادـ^(٤)

(١) الأرج : نوع ريح الطيب. روى هذا البيت في نوع الطيب « استار » ولا يكون
هذا الفعل إلا متعدياً فلا يناسب في هذا الأسلوب إلا بناؤه للمجهول. الأرجاء :
جمع رجا وهو الناحية.

(٢) العذار : ما سال من اللجام على خد الفرس، ولا يخلع اللجام من فرس في الركوب
إلا إذا أريد أن يطلق ملء فروجه. ويقال : خلع غلام عذاره في هذا الأمر : أن
أطلق نفسه حرية لا يردها راد.

(٣) الريا : الربيع الطيبة.

(٤) الشب : نقط بعض في الأسنان.

(٥) علم التوب : نقشه. يريد أن البحر والوادي كأنهما نقش وزينة بلنسية، التي شهدها
بالثوب.

ويقول مروان بن عبد الله بن عبد العزيز ملك بلنسية :
 كأن بلنسية كاعب وملبسها سندس أحضر
 إذا جنتها سرت نفسها بأكمامها فهى لا تظهر
 وفي قرطبة أو غرناطة يقول بعضهم :

أغريناطة الغراء هل لي أوبة إليك وهل يدتو لنا ذلك العهد^(١)
 سقى الجانب الغربي منك غمامه وقع في ساحات روضتك الرعد^(٢)
 لياليك أحسخار وأرضك جنة وتربك في استنشاقها عنبر ورد^(٣)

وقال ابن مالك الرعبي يصف الحمراء :
 رعى الله بالحمراء عيشاً قطعنه ذهب به للأئس والليل قد ذهب^(٤)
 ترى الأرض منها فضة فإذا اكتست بشمس الضحى عادت سبيكة ذهب^(٥)
 ولابن خفاجة في وصف منظر راقه :

له نهر سال في بطيحاء أشهى وروداً من للي الحسناء^(٦)
 متغطف مثل السوار كأنه والرهب يكفيه مجر ساء

(١) غرناطة : يفتح أوله. قال في معجم البلدان : وال الصحيح أغريناطة بالهمر في أوله، أنيقطها العامة كما أنيقطوها في أثیرة، فقالوا : ثیرة. قال ومعنى غرناطة رمانة بلسان أهل الأندلس، وهذه البلدة هي ثلاثة عواصم الأندلس بعد قرطبة وإشبيلية، وقد ازدهرت فيها سلالة بين الأحمر؛ وهي على نهر شنيل في الجنوب والشرق من قرطبة، ويروى : «أقرطبة».

(٢) المقصمة : صوت الرعد.

(٣) العنبر هنا : الزعفران. والورد : الذي يشوب بياضه حمرة.

(٤) قوله ذهب به للأئس أي صرفة نحو الأئس.

(٥) اللغة الفصحي في الوقف على المنون المنصوب ان يكون بالألف، ولكن ربيعة تقف عليه كما يوقف على المربوط والمجرور.

(٦) اللئي : سمرة الشقة والمراد بها هنا موضعها.

قد رق حتى ظن قرصا مفرغا من فضة في بردة خضراء
وغدت تحف به الغصون كأنها هدب تحف بمقلة زرقاء^(١)
وهكذا فتن الأندلسيون بطبيعة بلادهم، وتحدىوا عنها في شعرهم
ونثرهم .. وهذه الطبيعة السمحاء كان لها أثرا في الأخيلة والعقول الأفكار؛
وكان لها الفضل فيما عرف به الأندلسيون من توقد الذهن، وكثرة
النشاط، والإقبال على الحياة، والعمل من أجل الرخاء والأمن وتأصيل
الحضارة.

(١) الهدب: بالضم وبضمين: شعر أشفار العينين، واحدتها هدية، ومن هنا بين وجه
تأنيت الفعل في قوله تحف.

الفصل الثاني

العرب في الأندلس

التاريخ القديم للأندلس

دخلت بلاد الأندلس في عصور التاريخ الأولى قبائل من الجنالقة والسلت والبسكت، واستقر البعض في الشواطئ الساحلية، ثم هاجرت إليها سلالات حامية من البربر سكان إفريقيا، وقبل الميلاد بعشرين قرون دلف إليها سلالات سامة من الفنقيين الذين استوطنوا قرطاجنة، وأثرت البيئة الأندلسية في هذه الأمم المختلفة إلى حد كبير. وفي عصور الحضارة الإغريقية الأولى دخل إلى البلاد كثير من اليونانيين، ثم استولى الرومان عليها في أوائل القرن الثالث الميلادي، وكانت حاضرة البلاد في عهدهم مدينة « طالقة » القرية من أشبيلية، وقد أطلق الرومان على البلاد اسم هسبانيا، واستمر حكمهم لها زمناً طويلاً، حتى أثروا واعتمد من ثقافتهم أخلاق أجدادهم الفاضلة فغلبوا على حكم البلاد قبائل الفندال الجermanية التي أنسنت لها على نهر الوادي الكبير مملكة سميت باسمهم « فندلس »، ومن هذا الاسم أخذت الكلمة أندلس، ثم أغار القوط على الفندال فنسخوا الحكم الفنديسي من البلاد، وانحدروا مدينة طليطلة عاصمة ملكهم، وقد دام حكم القوط ثلاثة قرون بلغ فيها متى الفخامة والترف، وانتشر

في ظلالة الدين المسيحي، بعد أن تغلب على الوثنية الأولى، وكان آخر ملوكهم « رودريث » الذي اغتصب العرش لنفسه، وأقام ملوكه على العسف والاستبداد، وروع الشعب، فهاجر الكثير إلى بلاد الإمبراطورية الإسلامية الناشئة، ينعمون في ظلاتها بالعدل والأمن والحرية، وينشدون لوطنهم السلام والرفاهية ولو في ظلال الحكم الإسلامي النبيل.

وكان المسلمون قد قتحوا مصر عام ٢٠ هـ، وتغلبوا في شمال إفريقيا بعد ذلك، وأسسوا مدينة القروان عام ٥٠ هـ، واستقروا في فتوحاتهم، حتى بلغ عقبة بن نافع إلى شاطئ بحر الظلمات ونزل بقرسه فيه وهو يقول :

« اللهم فاشهد لو كان وراء هذا البحر قوم لخضته اليهم ». .

الفتح العربي للأندلس

خلف موسى بن نصر عقبة بن نافع عام ٨٨ هـ في ولاته، وفي عزيمته وهنته، وكانت ولاته من قبل الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك (٨٦ - ٩٦ هـ)، فقطع موسى إلى فتح جديد يجدد به معجزات البطولة العربية، فلم يجد أمامه إلا بلاد الأندلس.

وفي هذه الفترة كان « رودريث » على عرش إسبانيا يتربص به شعبه ريب الحوادث، وأنصار الملك المخلوع ملك الجوت الذي اغتصب رودريث عرشه يدبرون له المكابيد، والكونت بليان حاكم سبتة يؤازرهم مؤازرة النداد عن شرفه وكرامته، فأخذ برشيد موسى بن نصر إلى مواطن الضعف من القوط، ويحبب إليه فتح البلاد، ويضع أسطوله تحت تصرفه، ورأى موسى أن الفرصة سانحة، فأرسل طريف بن مالك في حملة إلى بلاد الأندلس طليعة للجيش، ثم أتبعه بحملة أخرى يقودها طارق بن زياد عامل طنجية.

يروى أن الأمراء كانوا يرسلون بناتهم إلى بلاط الملك وصائف، وأن جولييان (جوليان) حاكم مدينة «سبطة» أرسل ابنته حفيدة الملك وتيرا (غيطشه) إلى القصر الملكي، فأغواها رودريك من عقافها، ثم استفاقت فابلغت أبيها أمرها، فزعم على أن يكيد لرودريك انتقاماً منه، ولم يجد مما في نفسه شيئاً إلا أنه عرض بما أراد؛ إذ كان رودريك يطلب منه أن يهدى إليه صقروراً للصيد فأجاب جولييان : لأرسلن إليك صقروراً ما رأيتها من قبل. وربما كان جولييان أراد أن يتقمّل الملك الخلوع الذي كان صهراً.

وربما كان جولييان أراد أن يؤمن غارة العرب الذين يحيطون به وتقضّ قوتهم مضجعه؛ فجعل يغري موسى بن نصير والي إفريقية من قبل الوليد ابن عبد الملك بملك رودريك وجمال بلاده ووفرة الخبرات وقلة الخطير، فلعل ذلك مانعه من العرب أو مفiqueه إلى ظلمهم الفظيل، ولعله يظفر بتاج رودريك أو يستطيع رده إلى أحائه أولاد وتيرا. ومن البديهي أن موسى بن نصير كتب إلى الخليفة الوليد يبلغه ويأثر بأمره، فكتب إليه الخليفة يحذره أن يجازف بدماء المسلمين وأرواحهم ويأخذ لهم في خفيف الغزوّات ومامون السرايا.

وأرسل موسى مولاه طريفاً عام ٩١ هـ - ٧١٠ م، ومعه خمسة مسلم اجتازوا الطريق المسمى الآن بوغاز جبل طارق، وكان العرب يسمونه بحر الرقاق على أربع سفن قدمها اليه جولييان تفيناً لما كان قد تعهد به لموسى بن نصير من حمل المسلمين في البحر ودلائلهم في البر وتعريفهم بعورات البلاد ومسالكها، وقد كانت سرية طريف موقعة، فتح بها المدينة الخضراء، واستيقن إخلاص جولييان وسهولة البلاد.

وأغرى هذا التوفيق الميسّر موسى بن نصير فأرسل في عام (٩٢ هـ : ٧١١ م) طارق بن زياد في سبعة آلاف نزل بهم على صخرة صارت تسمى من ذلك الحين جبل طارق ودخل بهم كائناً هو يسعى

في البلاد دون مقاومة، إلى أن وصل نهر جواديليت «نهر بقة» وإذا جيش كثيف زاحف إلى المسلمين يقوده رودريك في خمسة أمثال جيشه أو يزيد، وأعد طارق جيشه وخطب فيه خطبه المشهورة، ثم اجتمعوا على عدوهم وحاربوا جوشة سبعة أيام حتى انتصروا نصراً خالداً، ورقى حذاء رودريك وجواهده على شاطئ النهر فقيل إنه مات غريقاً، وهكذا تم النصر، فقد كانت الحالة النفسية بين الجيшиين مختلفة، فالمسلمون يجاهدون في الله حق جهاده، والجيوش توزعت أهواءهم المظالم التي كان يصعبها الملوك عليهم صبا.

وكان جيش المسلمين على قلب رجل واحد، وجيشه الجيوش خليطاً من الرعاع والعبيد المرتزقون الذين ليس لهم في الحرب فائدة ولا غنا، وكان قائد المسلمين كال المسلمين أو هو أشد منهم، يفيض حماسة وقوة إيمان وتلتهب كلماته في خطابه فتدركهم حمية وتضيء لهم الطريق، حين كان رودريك في أبيه الملك على وسادة حريرية في مخفة تبرما بغال بيض.

وكان اليهود مستضعفين يسمونهم رودريك وجنوده سوء العذاب، وقد تنفسوا الصعداء لما رأوا جيش المسلمين فأمدوهם بالعونين الأدبي والمادي، وظاهروا المسلمين على الإسبان وكان أبناء الملك (وتيرزا) قواداً في جيش رودريك وكانتوا تواطعوا مع جوليان أن ينزعوا بجنودهم إبان المعركة ففعلوا، وكان المسلمون في موقف لا خيرة فيه، ولا احتفال : فالبحر من ورائهم والعدو أمامهم، والله تعالى وعدهم إحدى الحسينين أنها لهم، هذا كله عجل للعرب بالنصر المبين.

ويروى أن طارقاً لما بلغه قرب جيش رودريك منه قام في أصحابه فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم حتى المسلمين على الجهاد ورغبتهم فيه، فكان مما قال: أليها الناس، أين المفر؟ البحر من ورائكم، والعدو أمامكم وليس لكم، والله إلا الصدق والصبر. واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أضيع من الأيتام في مأدبة الطعام. وقد استقبلكم عدوكم بجيشه؛

وأسلحته، وأقواته موفورة، وأنتم لا وزر لكم إلا سيفكم، ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أيدي عدوكم، وإن امتدت يكم الأيام على انتصاركم ولم تنجروا لكم أمراً — ذهب ريحكم. فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة عن أمركم بمناجرة هذا الطاغية؛ فقد ألقت به إليكم مدحبيه المصيبة. وإن انتهز الفرصة فيه لممكن إن سمح لأنفسكم بالموت. وإن لم أحذركم أمراً أنا عنه بمحنة، فلا ترغبا بأنفسكم عن نفسي، فما حظكم بأوفر من حظي. وقد بلغكم ما حوت هذه الجزيرة من المخربات العميقة. وقد انتخيكم الوليد بن عبد الملك، أمير المؤمنين، من الأبطال عرباناً، ورضيكم للملك هذه الجزيرة أصهاراً وأختاناً، ثقة منه بارتاحكم للطعان، واستباحكم بمحالدة الأبطال والفرسان — ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته، وإظهار دينه بهذه الجزيرة، ول يكن مقتتها خالصاً لكم من دونه ومن دون المؤمنين. والله تعالى ولني إخدادكم على ما يكون لكم ذكراً في الدارين. واعلموا أن أول مجيب إلى ما دعوتكما إليه. وإنى — عند ملتفي الجماعين — حامل بمنحي على طاغية القوم «لذررق» فقاتلته إن شاء الله تعالى. فاحملوا معي، فإن هلكت بعده فقد كفيتكم أمره، ولم يعزكم بطل عامل تستدون أمركم إليه. وإن هلكت قبل وصوفي إلىه فالخلفوني في عزيمتي هذه، واحملوا بأنفسكم عليه، واكتفوا من فتح هذه الجزيرة بقتله.

وبعد أن تم النصر وجد طارق من سهولة الفتح ما أغراه بالإمعان في أن يشنن في الأرض، فوالى حركاته الحرية، وتواتت انتصاراته حتى لم يليث أن أرسل سبعمائة من رجاله فتحوا كورديا (قرطبة)، ورأى طارق أن يعجلهم ويسرع إلى طليطلة قبل أن يولوا عليهم ملكاً يجمع كلمتهم ويعلم شعهم، فتقدم قاصداً طليطلة، بعد أن فرق جيشه فرقاً. فأرسل فرقة إلى قرطبة. وأخرى إلى مالقة. وثالثة إلى غرناطة. فاستولت كل فرقة على البلد الذي قصدها. وسار هو إلى طليطلة، عاصمة البلاد،

فوجدها مغلقة الأبواب، حصينة الأسوار، فحاصرها زمان، حتى اضطر أهلها إلى الصلح، فصالحهم على أن لهم الحرية في الخروج إن شاءوا. وهم أحراز في دينهم إن يقروا، وترك لهم كتابتهم.

وبلقت هذه الأنبياء والانتصارات الباهرة موسى بن نصير، فكتب يخبر الخليفة الوليد بما أفاء الله على جيش المسلمين، ويادر فشخص في حملة عسكرية وجند كثيف يضم الفتح ويساعد طارقاً على التهديد للإسلام وللعرب في هذه البلاد، وذلك بعد أن استخلف على القimروان ابنه عبد العزيز عام ٩٣ هـ. ولما بلغ موسى بن نصير ميدان القتال وجد طارقاً قد كاد يبلغ الشمال فاستدعاه إليه والتقيا عند مدينة (تلقيا) فساطط موسى طارقاً على وجهه، واستكان المولى إلى مولاه قلم بيد امتعاضاً، وحمل إليه طارق الغائم فلذلك نسب الفتح إلى موسى لأن طارقاً من قبله، ولأنه أتم فتح ما بقى، ويقول بعض المؤرخين إنه إنما ضرب طارقاً بالسوط لأنه حسده أن يستأثر بهذا الجند العظيم دون سيده، وإن ابن نصير كان يحب أن يكون هو الفاتح وليس طارقاً، والحقيقة أن موسى كان يخاف على المسلمين، وكانت سياسته أن يتم فتح البلاد على التدرج، فقد روى أن ابن نصير قال لمولاه طارق عند اللقاء : كيف غرت بنفسك والمسلمين ولم تخف ألا تستطيع أن أمدك بمال ولا رجال؟!

وروي أن موسى بن نصير لم يخلع طارقاً عن القيادة، ولم يستبدل هو بهذه القيادة، بل اقسمها البلاد بجيشهما فجعلها يشرقان وبغرستان ويصعدان وبحدران وببلقيان ويفترقان أربع سينين عدد، حتى ملكوا وسط البلاد وشرقها وببلاد جيليقا (البرتغال) في غربها، ولم يتركا في الشمال إلا نفرا يسيرا من المسيحيين استهانا بهم، وإن كانوا فيما بعد من أسباب البلاء على المسلمين والإسلام في الأندلس.

وأقام موسى بالأندلس مجاهداً، وجماعاً للأموال والغنائم، ومرتبًا للأمور، إلى عام ٩٥ هـ. وبغض على طارق، ثم استخلف ابنه عبد العزيز، وذهب

إلى القبروان فدمشق ومعه طارق، ومات الوليد عام ٩٦ هـ. وموسى بطرية، ويقال إن موسى وصل وأدرك الوليد حياء، وكان موسى من صنائع الوليد، وكان سليمان بن عبد الملك يعتقد عليه، ولذلك لم يليث أن تولى سليمان الخلافة، فاتهم موسى بالخيانة والغلوط في الغنائم، واستئنف طارقاً لدبه بأن موسى نفسه عليه جهاده وبلاعه، ويروى أن سليمان قال لموسى : من فتح الأندلس ؟ فقال : أنا يا أمير المؤمنين ، فقال طارق : سله يا أمير المؤمنين عن الرجل المفتردة من مائدة سليمان أين هي ؟ فلم يعلم موسى عنها شيئاً، فقال طارق : هي عندي يا أمير المؤمنين وأحضرها فأقرروا له أنه فاتح الأندلس لا مولاها^(١) ونفي سليمان موسى إلى المدينة فمات بها سنة ٩٨ هـ.

الشعب العربي في الأندلس

دخل العرب الأندلس فاقعين، وتبع الجيش الإسلامي الفاتح القبائل العربية من كل مكان، فنزل بها من قبائل العرب وساداتهم جماعة ورثوها أحفادهم : نزل بها من العدنانية خنوف وقريش، ومن قريش جماعة من بني هاشم من ولد إدريس بن عبد الله مؤسس دولة الأدارسة بالمغرب، ومنهم بني حمود ملوك الأندلس بعد الدولة الأموية في الأندلس؛ وزرها كذلك بني أمية، ومنهم خلفاء الأندلس، ومن بني عزروم الشاعر أبو بكر المخزومي الأعمى، والوزير أبو بكر بن زيدون، ومن عقيل القيسيين جماعة من خفاجة وغيرهم. ومن خفاجة ابن خفاجة الأندلسي شاعر الطبيعة. ونزل بها من كنانة كثيرون أقاموا في طليطلة، والعدنانيون بقبائلهم وأنذاذهم كانوا يمثلون في الأندلس تجلياً كاملاً. أما الجماعة فكانوا أكثر انتشاراً من المضدية، ومنهم محمد بن هانئ الأزدي، ومنهم بني مازن

(١) تاريخ الأندلس — عبد الفتاح بدوي ط ١٩٤٠.

وينسبون إلى غسان الأردين، ومنهم من الأنصار جمع غير نزلوا الأندلس وأقاموا فيها، ومن المزور بالأندلس أبو بكر عبادة بن عبد الله بن ماء السماء من ولد سعد بن عبادة صاحب الرسول، وقد توفي عام ٣٣ هـ. وشهر بالموشحات، وإلى قيس بن سعد بن عبادة ينسب بنو الأحمر ملوك غرناطة، وكان من وزرائهم لسان الدين بن الخطيب، وفي آخر أيامهم انقرض ملك العرب بالأندلس.

اتصل العرب بسكان البلاد الأصليين من قوط وغيرهم، وأسلم كثير من المسيحيين واليهود، واندمج بعضهم في بعض بالمصاهرة وغيرها، وكثروا شعباً واحداً وتشكلوا في إدارة البلاد، واقتبس الإسبانيون كثيراً من عادات العرب وأخلاقهم، واحد العرب كذلك بعض مظاهر حياتهم، وجاروهم في كثير من أحوالهم الاجتماعية، وورثت الناشئة الجديدة صفات العرب من غيره وكرامته. وصفات الأوربيين من دقة الإدراك وسعة الخيال وقوة الفكر.

وهكذا دخل الأندلس العرب فصادقوا البلاد، وقد انتبهت فيها مزايا هذه الأمم. فما ليثروا أن أحدثوا أنفسهم، وأتت أعلم الناس بطابع العربي في بياديه، وما أفاده بالإسلام من خلق فاضل، ودين قويم يدعوه إلى الصدقية، ويأمر بالإتصاف في الخالطة، وبغض على العلم، وبعث لهم للسعى في الرزق والضرب في الأرض، واستثناء ما فيها من خير.

يروي لسان الدين ابن الخطيب عن ابن غالب مؤلف كتاب «فرحة الأنفس» في وصف الشعب العربي الأندلسي :

«أهل الأندلس عرب» في الأنسان والعزة. وعلو الهمة، وفصاحة الألسن، وطيب النفوس، وإباء الضمير، وقلة احتمال الذل، والسمامة بما في أيديهم، والزاهدة عن الخضوع وإتيان الدنيا، «هنديون» في إفراط عنايتهم بالعلوم وحبهم إليها، وضبطتهم لها وروايتهم، «بغداديون» في نظافتهم وظرفthem ورقة أخلاقهم ونباهة ذكائهم، وحسن نظرهم، وجودة قرائحهم

ولطافة أذهانهم وحدة أفكارهم ونفوذ خواطرهم، «يونانيون» في استباقهم للسماء، ومعاناتهم لضروب الفراسات، و اختيارهم لأجناس الفواكه، وتدبرهم لتركيب الشجر، وتحسينهم للبساتين بأنواع الخضر وصنوف الزهر. فهم أحكم الناس لأسباب الفلاح، وهم أصيর الناس على مطاولة الشعب في تجويد الأعمال ومقاساة النصب في تحسين الصناعات، وأخذن الناس بالفروسيّة، وأصرّهم بالطعن والضرب.

وقد ظل هذا شأن الأندلس مدة استيطانهم هذه البلاد، وهي زهاء ثلاثة قرون، فلما نفذ قضاء الله تعالى عليهم بخروج أكثرهم — وهم المسلمون — وحرمانهم من هذا الوطن الذي كان أعز عليهم من نفوسهم، تفرقوا في بلاد المغرب الأقصى بير العدوة، فأما أهل البداية فقد نزلا باليوادي وحالطوا أهلها وأقادوهم ما كانوا درجوا عليه في موطنهم الأول، فاستبطوا المياه وغرسوا الأشجار، وأحدثوا الأرضي^(١) الطاحنة بالماء، فصلحت بذلك حال مضيغهم، وكثرت غلاتهم، وعمت الخيرات فيهم. وأما أهل الحاضر، فمالوا إليها في وطنهم الجديد، فأهل الأدب كان منهم الوزراء والكتاب والعمال وجة الأموال، حتى كان لا يستخدم بلدي ما وجد أندلسي، وقد فاق أهل الصناعات أهل البلاد، وتولوا إدارة الأعمال.

الحكم العربي في الأندلس

١ — حكم الأندلس الولاية العرب للدولة الأموية بدمشق، وعدهم عشرون، وقد حكمو البلاد ستة وأربعين عاماً (٩٢—١٨٣ هـ)^(٢).
ولم تكن الأندلس في عهد الولاية ذات صبغة خاصة مستقلة، بل

(١) جمع رحي كما ذكره القاموس.

(٢) هم : طارق بن زياد (٩٢هـ)، وموسى بن نصير (٩٣—٩٥هـ)، وعبد العزيز بن موسى =

كانت تابعة لسياسة الدولة، وكان ولاءها يتلقون التعليمات من الحاكم العربي الأكبر في القرون الوسطى. وبأخذنون الولاية من هذا الحاكم، ومن الخليفة نفسه، وفي هذا العهد كفرت الفتوحات :

فقد حمل عبد الرحمن الغافقي لواء الجهاد في سبيل الإسلام فاتحاً مظفراً في جنوب فرنسا حتى استولى على مدينة (بوردو) وكان بينه وبين باريس نفسها أربعون كيلومتراً. وكان المسلمين رضي الله عنهم يأملون — لما لم يتألم فتح القسطنطينية من الشرق — أن يفتحوا بلاد أوروبا إلى أن يصلو إليها من الغرب، ويصبح الأوروبيون بالإسلام إخواناً.

ولما اجتاز عبد الرحمن « بواتيه » في طريقه إلى باريس لقيه جيش من الفرنسيين عام ١١٤ هـ، ويفقد هذا الجيش أمير اسنه « شارل » وكان كبير وزراء فرنسا التقى الجماعان فصبروا وصابروا سبعة أيام كاد

= ابن ناصر (٩٥ - ٩٨ هـ) وقد مات مقتولاً، وأبو أيوب بن حبيب اللخمي ابن أخت موسى بن ناصر (٩٨ - ١٠٠ هـ)، ثم الحسن بن عبد الرحمن الغافقي (١٠٣ - ١٠٠ هـ) والسميع بن مالك من قتل عمر بن عبد العزيز (١٠٤ - ١٠٣ هـ)، وقد بين قنطرة قرطبة وأوغسل فيفتح شمال إسبانيا مما حاصم جنوب فرنسا حتى استشهد بالقرب من مدينة « ليون »، وتبعه قائد جيشه عبد الرحمن الغافقي، ثم هبة بن سليم الكلبي (١١٠ - ١١٢ هـ)، ثم عزرة بن عذالة الظاهري (١١١ - ١١٢ هـ)، ثم بحبيبي بن سلمة (١١٠ - ١١١ هـ)، ثم عثمان بن أبي نعمة (١١٠ - ١١١ هـ)، ثم حذيفة بن الأحوص (١١١ - ١١٢ هـ)، ثم الهيثم بن عدي (١١٢ - ١١٣ هـ)، ثم عبد الرحمن الغافقي (١١٤ - ١١٥ هـ) وهو يطلق معركة تورعام (١١٤ هـ) على أرض فرنسا، وقد قتل فيها وهزم جيشه، ثم عبد الملك بن قطن الظاهري (١١٤ - ١١٦ هـ) وقد عزل، ثم عقبة الحاجاج السطيولي (١١٦ - ١٢١ هـ)، ثم تلا ذلك مهد الوراث : ثورة ابن قطن في الأندلس وثورة كثروم بن عياض القشيري في المغرب، ثم ثار الجنود البربرية في الأندلس على ابن قطن وعرب الأندلس، ثم ثورة جنود الشام على ابن قطن حيث قتل، وتولى حسام بن ضرار الكلبي (١٢٥ - ١٢٨ هـ)، ثم ثوابه من سلامه الجندي (١٣٢ - ١٣٩ هـ) ثم يوسف بن عبد الرحمن الظاهري (١٣٢ - ١٣٨ هـ). ودخل عبد الرحمن الداخل بلاد الأندلس، واستولى على مقايد الأمور فيها، حيث انتزعها بالقوة من يوسف الظاهري.

المسلمين يجتازون من ورائها النصر، لولا ما كانوا قد حلوا معهم من أسباب الفشل والخذلان، فقد كان المسلمون اصطحبوا معهم الأسلاب والسياسات والأموال التي غنمها في المعركة التي كانت قبل هذه المعركة، فكثروا بها آثراهم ونقلت بها معونتهم، واحتاجوا لرعايتها إلى عن特 غير يسير. وبدا للفرنسيين وقد آذنت الشمس بالغيب أن يهجم فريق منهم، يستنقذون هذه الأسلاب يشاغلون المسلمين بذلك، فتحجت الخطة وانقسم الجيش الإسلامي : فريق إلى الطعائن يحميها وفريق بمحارب المقاتلين. وعاد إلى القتل الأمير عبد الرحمن الغافقي فقتله في الأعضاد ومرق وحده الجيش خوزعه الأهواء، فلما جن الليل وتحاجر الفريقان تحمل المسلمين في جنح الظلام وعجلوا حتى عن جنودهم الجرحى فلم يحملوه معهم، فأصبح شارل مارتل وقد تبدل شوهره أمناً وغير في رأيه النهار ما كان الليل قد أثراه به من موقعة حامية الوطيس يختفي مفتها، ووجد الميدان يلقعاً إلا من أنين الجرحى فأجهز عليهم، ولكنه لم يجرؤ أن يتبع جيش المسلمين.

عرفت هذه الموقعة بواقعة بلاط الشهداء، أولئك الذين سقوا أرض فرنسا بدمائهم الذكية لتهزّ فتربيو بالإيمان وبالإسلام، ولكن كان غير ما كانوا يريدون، ويعبرها التاريخ من موقعه الحاسمة، فقد حيل بها بين المسلمين وبين ما كانوا يشهدون، وانتصبت حداً فاصلاً بين المسيحية وبين تقدم الإسلام^(١).

٢ — ثم دخل الأندلس أموي طموح هو عبد الرحمن بن معاوية ابن هشام الأموي واستولى على مقاليد الحكم فيها بالسياسة والدهاء، وكان عبد الرحمن أحد الذين تمكنا من النجاة من ايدي العباسيين وطلبهم. ولد عبد الرحمن عام ١١٣ هـ في دمشق، وجده هشام خليفة للمسلمين (١٠٥ — ١٢٥ هـ)، وتوفي والده في حياة أبيه، وكان الناس يتباؤن

(١) ١٢ تاريخ العرب في الأندلس — عبد الفتاح بدوي.

لعبد الرحمن بمستقبل كبير حتى قال مسلمة بن عبد الملك فيه : « سيكون لهذا الفتى بالغرب الأمر العظيم »، وانتهت الدولة الأموية وخلفتها الدولة العباسية. وكان السفاح أول خلفائها أشد الناس قسوة على الأمويين وقتل لرعيتهم وسفك دمائهم، دهم بيته عبد الرحمن، وقتل أخيه،

وتمكن عبد الرحمن من الفرار، وبعدها هو عن فراره فيقول :^(١)

إني بحالس يوماً في تلك القرية في ظلمة بيت ثواريت فيه لمد
كان في وابني سليمان يكر ولدي يلعب قدامي إذ دخل الصبي فرعاً
بأكياء، فأهوى إلى حجري، فجعلت أدفعه لما كان في، ويأتي إلا التعلق
وهو دهش يقول ما يقوله الصبيان عند الفزع، فخرجت لأنظر فإذا
الروح قد نزل بالقرية ونظرت فإذا الرaiات السود عليها منحة وأخ
لي حدث السن كان معه يشد هارباً ويقول : النجاة يا أخي فهذه
رايات المسودة، فضررت يدي إلى دنائير تناولتها ونجوت بنفسى والصبي
معي، وأعلمت أخواتي متوجهى وأمرتهم أن يلحظنى ومولاي يدر معهن
وخرجت، فكمنت في موضع ناء عن القرية، فما كان إلا ساعة حتى
اقبلت الخيل فأحاطت بالدار فلم تجد أثراً ومضيت وخلفتى يدر فأتت
رجال من مغارب بشط الفرات، وأمرته أن يمطاع لي دواب وما يصلح
لسفري فدل على عبد سوء له فما رأينا إلا جلبة الخيل تخفتنا تنادينا
من الشط : ارجعوا لا يأس عليكم، فسبحت حاتاً لنفسى وسبح الغلام
أخى فلما قطعنا نصف الفرات قصر أخي فالتفت لأقوى من قلبه وإذا
هو قد أصفع إليهم وهم يخدعونه عن نفسه وناديه : تقتل يا أخي،
للي لي، وإذا هو قد اغتر بأمانهم وخشى الغرق فاستعجل الانقلاب
خواهم وقطعت أنا الفرات ثم قدموا الصبي أخي الذي صار اليهم بالأمان
فمضوا برأسه وأنا أنظر إليه فاحتضرت فيه ثكلاً ملائني
مخافة ومضيت إلى وجهي أحسب أن طائر فلجلأت إلى غيبة خواريث
فيها حتى انقطع عني الطلب، ثم عرجت هارباً حتى وصلت إلى إفريقيا.

(١) راجع ٢٢ تاريخ الأندلس — عبد الفتاح البدوي، وكتاب « صفر غريش » لعلى أدعم.

وظل عبد الرحمن يقلب في البلاد بالغرب خمس سنين، وأراد الذهاب إلى الأندلس : لأن فيها أملاك جده هشام وقد وهبها لخفيه عبد الرحمن، ولطموحه في إمارتها، وفي ربيع الآخر ١٣٨ هـ - ٧٥٥ م دخل عبد الرحمن البلاد ونودي به أميرا على الأندلس بتدبر الميائة وجند الشام في الأندلس في أليهـ، وسار عبد الرحمن إلى أشبيلية وانتصر فيها في يوم عيد الأضحى (١٣٨ هـ - ٧٥٦ م) على جيش أمير الأندلس يوسف بن عبد الرحمن الفهري وبعد مناوشات كثيرة عقد صلح بين يوسف وعبد الرحمن، تنازل فيه يوسف عن الإمارة لعبد الرحمن، على أن يأمن يوسف على نفسه وأتباعه، ودخل عبد الرحمن بعد ذلك عاصمة قرطبة ظافراً منصوراً في صفر ١٣٩ هـ يوليو ٧٥٦ م، ثم نكث يوسف فقتل، وقتل الصميل، وانتصر على العلاء بن مغيث الذي دخل الأندلس واليا من قبل الخليفة المنصور عام ١٤٦ هـ، كما انتصر على أتباع يوسف الفهري في طبلطة، وعلى البنين، وعلى ابن أبي الصباح حاكم أشبيلية لعبد الرحمن، وعلى البربر الثائرين، وعلى كثير من التوارث الداخلية، وعلى جيوش شارلنان الذي تحرك للقضاء على ملك الداخل تفينا لأغراض هارون الرشيد في بغداد. وأسس عبد الرحمن لنفسه والأحفاده دولة عظيمة واسعة الأرجاء امتد حكمها نحو ثلاثة قرون (١٣٨ - ٤٢٨ هـ) ...
هذا هو صقر قريش الذي انقض على الأندلس فاحتطفها واستأنثر بها لنفسه وبنيه من بعده حتى حين، قال أبو جعفر المنصور يوماً جلساته : تعلمون من صقر قريش ؟ قالوا: أمير المؤمنين أبا الله، قال: ليس ذاك، قالوا: فعبد الملك بن مروان، قال: لا، قالوا: ما هو، وضربوا في عرض الحديث فقال أبو جعفر: فضي قريش الأحوذى الفذ الذي قذف بنفسه في بلج المهالك لابتلاء مجده؛ فاقتحم جزيرة شاسعة الخل نائية المطبع، عصبية الجندي، ضرب بين جنودها بخصوصيته، وقع بعضهم ببعض بقوة حيلته، حتى انقاد له عصيمهم، وذل أبيهم، وإن ذلك هو الفتى كل الفتى، لا يكذب مادحه، وقد سكن قرطبة وبنى بها القصر والمسجد الجامع،

ولقب نفسه بالداخل لأنه أول من دخل الأندلس من بني مروان، ولقب هو وذربيه بالأمراء أبناء الخلفاء، حتى جاء عبد الرحمن الناصر (٣٠٠—٣٥٠ هـ). فلقب نفسه «أمير المؤمنين» .. وما أصدق أيام جعفر المنصور إذ نوه بعصامية الداخل وعقربيه، ويروى عن المنصور في رواية أخرى :

«لا تعجبوا لامتداد أمرنا، مع طول مراسه وقوته أسيابه، فالشأن في أمر فضي قريش الأحوذى الفذ في جميع شؤونه، وعدمه لأهله ونشبه، وتسليه عن جميع ذلك وبعد مرق هنته، ومضاء عزيمته، حتى قذف بنفسه في حل المهالك لابناء مجده، فاقتصر جزيرة شاسعة الحقل، نالية المطعم، عصبية الجند ضرب بين جندها يخصوصيه، وقمع بعضهم ببعض بقوته حيلته. واستحال قلوب رعيتها بقضية سياسته، حتى انقاد له عصيّهم، وذلُّ أبיהם، فاستولى فيها على أرثيكته، ملكاً على قطاعته، قاهراً لأعدائه، حاميَاً لنماره، مانعاً لخوزته، خالطاً الرغبة إليه بالرهبة منه، إن ذلك هو الفتى كل الفتى، لا يكذب مادحه.

وقد ظل الأمر لبني أمية إلى سنة ٤٢٨ هـ، وتولى الحكم منهم ستة عشر أميراً^(١)، وكان المستعين بالله الأموي قد استعان بالقاسم وعلى أبي

(١) هم : عبد الرحمن الداخل (١٣٨—١٧٢ هـ)، هشام الأول ابن الداخل عبد الرحمن ابن معاوية بن هشام (١٧٢—١٨٠ هـ)، والحكم الأول ابن هشام (١٨٠—٢٠٦ هـ) وعبد الرحمن الثاني ابن الحكم (٢٠٦—٢٣٨ هـ) وفي عهده قدم زرباب المفتني إلى الأندلس فأكرم وقادته، ومحمد الأول ابن عبد الرحمن (٢٣٨—٢٧٣ هـ)، ولعباس بن فرناس شعر فيه (جد ٣ العقد الغريب)، والمتندر بن محمد (٢٧٥—٢٧٣ هـ) وعبد الله ابن محمد (٢٧٥—٣٠٠ هـ)، وعبد الرحمن الثالث ابن محمد (٣٠٠—٣٥٠ هـ) والحكم الثاني (٣٥٠—٣٦٦ هـ) وهشام الثاني المتوفى (٣٦٦—٣٩٩ هـ) وقد استشهد بالأمر في دولته حاجبه المنصور بن أبي عامر المتفوقي عام ٣٩٣ هـ ومحمد المهدي (٣٩٩—٤٠٧ هـ)، وسليمان المستعين (٤٠٧—٤٠٠ هـ)، وعبد الرحمن الرابع (٤١٢—٤١٢ هـ)، وعبد الرحمن الخامس (٤١٢—٤١٦ هـ) وهشام الثالث المعتمد (٤١٦—٤٢٨ هـ).

حمدود وها من أعقاب الأدارسة الذين حكموا المغرب من عام ١٧٢ حتى عام ٣١٣ هـ وذلك بعد انقراض دولة الأدارسة بفاس، وجعلهما قادتين على البربر والبيهقي في بعض حروبه، ثم عقد للقاسم على الجزيرة الخضراء، ولعله على طنجة. فطمع على في الخلافة، وادعى أن هشام الثاني كتب له بالعهد، ودخل قرطبة ولقب نفسه بالناصر، وبقي حكم الأندلس بينبني حمود وبني أمية ست سنين (٤٢٢ — ٤٢٨ هـ)، وهو عام انتهاء الحكم الأموي في الأندلس وملكبني حمود لها واستمر حكمهم لها حتى عام ٤٥٠ هـ.

وقد بلغت الدولة في عهد الأمويين ذروة الجد، وخطب ودها ملوك الغرب، وأصبحت قرطبة قبلة الملوك، وكعبة العلماء، وملاذ الحضارة والثقافة، ولقب الناصر نفسه بالخليفة، وما ضعفت الدولة في آخر عهدها كان الحجاب هم كل شيء في الدولة، فالمتصور بن أبي عامر حاجب هشام الثاني كان يده كل الأمور، فلما مات عام ٣٩٤ هـ خلفه ابنه أبو مروان عبد الملك بن أبي عامر على الوزارة والمحاجة لஹشام ولقب نفسه بالظفر، وكان أحرص الناس على جمع علوم الأدب واللغة والتاريخ، وانتخب مما جمع له كتاباً كبيراً سماه «الظفرى»، واستمر أبناؤه يحكمون بطليوس إلى عام ٤٨٥ هـ، وكانت أيامهم مواسم للأدب، وملاذاً للعلم والعلماء، وفيهم نظم الوزير ابن عبدون المتوفى عام ٥٢٠ هـ قصيدة الرائية المشهورة.

وأشهر ملوك الأندلس هو الناصر، الذي شجع العلوم والأداب والثقافة تشجيعاً كبيراً.

«ولما استفحى ملك الناصر»^(١)، صرف نظره إلى تشيد المباني والقصور وكان جده الأمير محمد، وأبوه عبد الرحمن الأوسط، وجده

(١) عن ابن حمدون.

الحكم، قد اختلفوا في ذلك وبنوا قصورهم على أكبر الأنفاق والضخامة، وكان منها المجلس الراهن والبيو الكامل والقصر المنيف، فبني هو إلى جانب الراهن قصره العظيم وسماه دار الروضة، وجلب الماء إلى قصورهم من الجبل، واستدعي عرفاء المهندسين والبنائين من كل قطر فوفدوا عليه حتى من بغداد والقسطنطينية، ثم أخذ في بناء المترهزات، فأخذ مينا الناعورة خارج القصور، وساق لها الماء من أعلى الجبل — على بعد المسافة.

ثم احاط مدينة الزهراء، وانفذها منزله، وكرسي الملك، فأنشأ فيها من المباني والقصور والبساتين ما علا على مبانيهم الأولى، وانفذ فيها مجالات للوحش فسيحة الفناء، متباينة الارتفاع، ومسارح للظهور مظللة بالشباك، وانفذ فيها داراً لصناعة آلات السلاح للحرب والخليل للزينة، وغير ذلك من المهن.

وأمر أن تعمل الطلة على صحن الجامع بقرطبة، وقاية للناس من حر الشمس^(١).

وقد عني الناصر عنابة خاصة بإنشاء نافورات من المرمر الجميل في جوامع قرطبة وأشبيلية، يكتنفها بوج يغرس فيها شجر البرتقال والآس وغيرها.

وأصلح قطرة النهر الكبير، وضرب نقوداً جديدة وضع عليها اسمه وألقابه^(٢).

وما استدل به بعض المؤرخين على رقي عصره، ما حكوه من أنه أراد الفقصد ذات يوم، فقعد بالبيو في المجلس الكبير، المشرف على مدنته

(١) عن ابن خلدون.

(٢) وكان ذلك في السنة التي تلقب فيها بالخلافة أبي في سنة (٣٦٦هـ). فأمر بإقامة دار السكة داخل قرطبة، لضرب الدنانير والدراجم، وكانت مثاقيله ودراجمه محضأ من عالص الذهب والفضة.

بالزهراء، واستدعي الطبيب لذلك، وأخذ الطبيب الآلة، وحبس يد الناصر،
وإنه لكتلك، وإذا بزرزور قد أطل، فقصد على إباء ذهب بال مجلس،
وأنشد:

أهلا الفاصلـ رفقـا بـأمير المؤمنـينـ
إـنـا تـفـصـلـ عـرـقـا فـيـهـ مـعـاـ الـعـالـمـيـنـ
وـجـعـلـ يـكـرـرـ ذـلـكـ الـرـلـةـ بـعـدـ الـرـلـةـ فـاـسـطـرـهـ النـاـصـرـ وـسـرـيـهـ، وـسـأـلـ
عـمـنـ اـهـتـدـىـ إـلـىـ ذـلـكـ وـعـلـمـ الرـزـزـرـ، فـذـكـرـ لـهـ أـنـ السـيـدةـ الـكـبـرـىـ مـرـجـانـةـ
أـمـ وـلـدـ وـلـيـ عـهـدـ الـحـكـمـ الـمـسـتـقـرـ يـاـهـلـهـ صـنـعـتـ ذـلـكـ وـأـعـدـهـ هـذـاـ الـأـمـ.
قـالـواـ :ـ فـوـهـ هـاـ مـاـ يـنـيـفـ عـلـىـ ٣٠ـ أـلـفـ دـيـنـارـ!ـ

وقد أصاب المؤرخون في تسميتهم هذا العصر الأندلسي بالعصر الذهبي فقد نفقت فيه سوق العلم والأدب وارتقت فيه الفنون، فكانت ترى أنى ذهبت مجالس أدب ومحالس علم ومحالس غلاء، وكان بلاط الناصر مزدحماً بالعلماء ورجال الأدب والفن.

ولما عظم أمر الناصر، وارتفع شأنه، رغب في مخالفته حتى أشد الملك صلفاً — كما يقول دوزي — وكان من بين هؤلاء الملوك قسطنطين ملك الروم الذي بعث إليه يهديه المشهور وأرسل معها كتاباً يرحب فيه بتجديد الخلافة القديمة التي كانت بين أسلافهما عوضاً مما كان منها مع خلفاء بغداد. قالوا : « وكتب هذا الكتاب بمعرفة من ذهب في رق سماوي اللون، وفيه طرس سماوي أيضاً كتب بمعرفة من الفضة يصف المدية وأساقفها بالملحق الأغريقي.

وكان الناصر يرسل إلى القسطنطينية والعراق والهجاز والشام ومصر وإفريقية من يشتري له الكتب ويحصل له من ذخائرها وأصولها المهمة⁽⁵⁾

(١) نفح الطيب : ٢٧٠

وأرى خلقه المستنصر على الغاية، فجمع من الكتب ما لم يجمعه أحد قبله من الملوك، حتى بلغ عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربعة وأربعين في كل واحدة عشرون ورقة ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين، ويعتني كتاب (الأغاني) بـألف دينار ذهباً، ويتحلى جمه للعلم والعلماء في استقباله العظيم لأبي علي القالي، واحتفائه به، وقد اجتمعت بالأندلس خزانة من الكتب لم تكن لأحد قبله ولا بعده، وقد حفظوا أنها بلغت سبعين مكتبة كانت تحفل بأربعين ألف مجلداً، وكان هو نفسه واسع الاطلاع، قلما يوجد كتاب في خزانته إلا وله فيه قراءة أو نظر، في أي فن.

٣ — ثم حكم الأندلس ملوك الطوائف نحو ست وخمسين سنة، حين انقضى ملك الأمويين، وانفطر عقد الدولة، وانتشر سلك الخلافة، وقام في كل جهة أمير؛ وكان من أشهر الأمراء: بنو جهور بقرطبة (٤٢٥ - ٤٦١ هـ)^(١) وبنو عياد باشبيلية (٤١٤ - ٤٨٤ هـ)^(٢) وبنو حماد

(١) المرجع ١٨٤ : ١.

(٢) منهم أبو الحزم بن جهور المتوفى عام ٤٤٥ هـ وتولى ابن زيدون له الوزارة ولما غضب عليه استعطفه بالرسالة الجدية، وينهي نسخهم إلى أبي عبد الكلبي جدهم الذي قدم الأندلس، وكانت ذوي شرف في قرطبة، وتولوا الوزارة أيام المستنصر وبني عامر، ولما حللت قرطبة من الأمويين وهي حمود اجتماع الناس على جهور بن محمد ابن جهور سنة ٤٢٢ هـ، إذ كان حازماً عالقاً، لم يخف عمار الفتى على جهور بن محمد قرطبة، بل ترك الأمور للعصبية شبع نفسها وتنفس غلتها، وقد علم أن هذه الفتى الهوج لا يبني عليها ملوك، ولا يستقر سلطان، فترك الفتى حتى في فها ذروها «فَلَمَا خَلَ لَهُ الْجَوْ، وَصَفَرَ الْفَنَاءِ، وَأَقْفَرَ النَّادِيَ مِنَ الرَّوْسَاءِ، وَأَسْكَنَهُ الْفَرْسَةَ وَثَبَ عَلَيْهَا»، ولم يتحول عن داره إلى قصر الخلافة، وكان على من بنى أهل الفضل، يعود المرضى ويشهد الجنائز، ولا يحجب عن الناس، وقد نشر الأمن والطمأنينة، وضبط الأمور بمحكمة وسادة، ورفع لواء الحضارة، حتى عادت به قرطبة إلى أكمل حالاتها من الحضارة والرخاء والأمن، إذ منع عنها من كان يطلبها من الرأبة، بخضف الجناح، والرق في المعاملة حتى حصل على سلمهم واستقرار مرافق بلاهم.

وقد تضاعف تراوه حتى صار لا تقع العين على أحدهم منه. إلا أنه حاط ذلك بالخل الشديد، والمتع الحالص؛ اللذين لولاهما ما وجد عاليه فيه طعنة، وكان مع

= هنا من أشد الناس نواعداً، وأشدهم ظاهراً ياطن؛ وكان أدبياً يندوّ الأدب، وشاعراً يندو بالشعر، من ذلك قوله في تحضيل الورد :

الورد أحسن ما رأت عين وأذن
كى ما سقى ماء السحاب الجائد
حضرت توأمير الرياض لحمسه
فقللت تقليد وهي شوارد
وإذا تبدي الورد في أغصانه
يزهو فنادق يتهدى وهذا جاسد
وإذا أتيت وقد الريسع مبشرأ
بطلوع صفحاته فضم الواليد
وإذا تعرى الورد من أوراقه بقيت عوارفه فهن خوالد

ولم تزل قرطبة به مشرقة، وغضون الأذن فيها مورقة، حتى مات سنة ٤٣٥هـ
فتولى بعده ابنه أبو الوليد فاقر الأمور على ما كانت عليه أيام والده، حتى جاءه
بعدة ابنه عبد الملك، فقلبه ابن ذي التون على قرطبة، ثم استولى عليها محمد
ابن عباد سنة ٤٦١هـ.

(٣) تولى أبو القاسم بن عباد القضاة على إشبيلية، والقتن عاصمة، والتورات جامحة؛ ثار
قرطبة على القاسم بن حمود حتى خرج عهداً، وقصد إشبيلية، ولكنها حذرت جنو
برعامة هذا القاضي، ونجحت في صد الاجي، واحجم أهل إشبيلية على
القاضي ابن عباد؛ فقام الأمر حتى مات سنة ٤٣٣هـ، فخلفه ابنه المعتصم وكان
شديداً حازماً قاسياً داهياً، أوثني من جمال الصورة، و تمام الخلقة، وفخامة الهيئة،
واسطة اثنان، وحضور الخاطر، وصدق الحسن ما قال به نظراءه، وكان إلى هذا
شاعراً يحسن الصنعة، ويعرف للشعراء قدرهم، وتولى بعده ابنه محمد سنة ٤٦١هـ
وكان يشبه بهارون الواقع بالله من ملوكبني العباس : ذكاء نفس، وغزارة أدب،
وكان شعره كأنه الحال المشتركة، واجتمع له من الشعراء وأهل الأدب ما لم يجتمع
لملك قبله من الملوك، وكان أئمـ ملوك الأندلس راحة، وأربـهم ساحة، وكانت
حضرته ملتقـ الرجال، وموسمـ الشعـراء وأفاضـلـ الأدبـاء، وكانت قرطـةـ أثـنيـ عـملـ،
وكان رومـ أمرـها متـنهـ أـلمـ، فـما زـالـ يـعملـ الحـيـلةـ حـتـىـ استـولـىـ عـلـيهـ، فـأـعـطـيـ زـمامـهاـ
لـابـهـ الـظـافـرـ حـتـىـ قـلـ بهاـ سـنةـ ٤٦٦ـهـ فـيـ حـالـةـ مـؤـرـةـ وـصـفـهـ صـاحـبـ الـفـلاـتـ، ثـمـ
ابـهـ المـأـمـونـ حـتـىـ قـلـ كـلـلـكـ أـيـضاـ، وـكـاتـ دـوـلـ بـنـيـ عـبـادـ مـنـ أـهـمـ الدـوـلـ كـرـمـاـ
وـقـضـلـاـ وـأـدـبـاـ، حـتـىـ قـالـ أـبـوـ يـكـرـ الدـانـيـ : إـنـهـ أـشـهـ شـيـءـ بـالـدـوـلـ الـعـابـسـيـةـ يـخـلـادـ :
سـعـةـ مـكـارـمـ وـجـمـعـ فـضـائـلـ، وـلـذـلـكـ أـلـفـ فـيـهـ كـتـابـاـ مـسـتـقـلـاـ أـسـمـاءـ «ـ الـاعـتمـادـ فـيـ أـسـيـارـ
بـنـيـ عـبـادـ ». أـمـاـ نـهاـيـةـ الـمـحـمـدـ فـقـدـ كـاتـ مـنـ أـقـعـجـ الـهـيـاـتـ، وـحـسـكـ أـنـ قـرـأـ شـعـرهـ
الـذـيـ يـصـوـرـ فـيـ نـكـتـهـ «ـ كـانـ الـمـحـمـدـ أـكـبـرـ مـلـوـكـ الـطـوـافـ، وـأـكـرـهـ بـلـادـ، وـكـانـ =

في مالقة (٤٠٧ - ٤٤٩ هـ) وينو الأفطس بطليوس، ومنهم المظفر صاحب التاريخ المظفرى واستمر حكم أبنائه فيها إلى عام ٤٨٥ هـ وينو هود برقسطة (٤١٢ - ٥٢٦ هـ)، وينو ذي التون بطليطلة (٤٢٧ - ٤٧٨ هـ)، وينو زيري بن مياد يغرنطة (٤١٢ - ٤٨٣ هـ)، وينو صمادح في المرية الذي انتهى عام ٤٨٤ هـ والعامريون بشاطبة، وهكذا انقسمت البلاد فرقاً ودول، وأصبح كل أمير في جهة من الجهات ملكاً.

بُؤدي الضربة للأذوفن، ظلمًا ملك هذا طليطلة لم يعد يقبل ضربة المعتمد طعماً في أحد بلاده، فأرسل إليه يهدده، فضرب المعتمد الرسول وكل من معه، فأستعد الأذوفن لقتاله، فاستعاد المعتمد بالأمير يوسف بن تاشفين، قدم له النصر، وهرب الأذوفن، وفي العام التالي غدر يوسف هنا بالمعتمد بتأثير الدنس والوشایة، فأغار على بلاد المعتمد، واتبعها من أنته، ثم حاصر المعتمد بشيشليه وقضى عليه واغتصبه بمدينة «أغمات»، وأودعه ذل فيها وظل سجينها، وشرد أبناءه، وذلت بناته، وتحطم ملوك الشام، وانطوى بساط غزه وجده، ودخلت عليه بناته في سجن يوم عيد، ولكن يهزلن للناس بالأجرة في «أغمات» حتى إن إداهن غزلت ليت صاحب الشرطة الذي كان في خدمة أبيها وهو في سلطانه، فرأهن المعتمد في أطمار باليه وحالة رثة، فقصدونه قلبه فقال :

فهـا مـضـيـ كـتـ بـالـأـعـادـ مـسـرـرـاً
تجـاـكـ العـدـ فيـ أـخـمـاتـ مـأـسـرـاً
ترـىـ بـيـانـكـ فيـ الـأـطـمـارـ جـالـعـةـ
يـغـزـلـنـ لـلـنـاسـ لـاـ يـمـلـكـ فـطـمـيرـاـ
برـزـنـ نـحـوكـ لـتـسـلـيمـ خـائـصـةـ
أـصـارـهـنـ حـسـيرـاتـ مـكـاـسـرـاـ
يـطـآنـ فيـ الـطـينـ وـالـأـقـدـامـ حـاجـيـةـ
كـائـنـاـ لـمـ تـطـأـ مـسـكـاـ وـكـافـورـاـ
مـنـ بـاتـ عـدـكـ فـيـ مـلـكـ بـسـرـ يـهـ
فـائـنـاـ بـاتـ الـأـسـلـامـ مـسـرـرـاـ
وـمـ زـالـ يـرسـلـ مـنـ زـفـانـ، وـيـسـكـ مـنـ دـمـوعـهـ، حـتـىـ مـاتـ بـالـسـجـنـ سـنةـ ٤٤٨ـ هـ،
فـلـمـ مـاتـ زـارـ قـبـرـهـ جـمـاعـةـ مـنـ الشـعـرـاءـ مـنـهـمـ أـبـنـ الـيـانـةـ الـذـيـ وـقـفـ فـيـ يـوـمـ عـيـدـ،
وـالـنـاسـ عـنـ قـبـورـ أـهـلـهـمـ، فـأـنـشـدـ بـصـوـتـ عـالـ :

ملـكـ الـلـوـكـ أـسـمـعـ فـانـدـيـ
أـمـ قـدـ عـدـتـكـ عنـ السـمـاعـ عـوـادـ
لـمـ نـقـلـتـ عنـ القـصـورـ وـلـمـ تـكـنـ
فـهـاـ كـمـاـ قـدـ كـتـ فـيـ الـأـعـادـ
أـقـيلـتـ فـيـ هـذـاـ الـرـىـ لـكـ خـاصـمـاـ
وـجـعـلـتـ قـبـرـكـ مـوـضـعـ الإـشـادـ

وعلى الرغم من الضعف السياسي الذي كانت عليه الأندلس في عهد ملوك الطوائف حيث احتدمت الخصومات والخروب بين الحاكمين، واستعنان كل أمير على خصومه بأية قوة تصره، ولو كانت هذه القوة هي قوة المسيحيين أعداء البلاد والإسلام؛ فإن العلوم والفنون والآداب ازدهرت في هذا العهد ازدهاراً كبيراً، وتنافس الملوك في تشجيع العلماء والأدباء، وحاول كل أمير أن يتشبه بالخلفاء في بسطة اليد وتقريب الشعراً، يقول أبو علي الحسن بن رشيق المتوفى عام ٤٥٦ هـ، الذي عاش في عهد ملوك الطوائف :

ما يزهدني في أرض أندلس أيام محمد معتمد فيها ومعضده
أقبال مملكة في غير موضعها كافر يمكي اتفاها صولة الأسد

٤ — وبعد عهد ملوك الطوائف صارت الأندلس خاضعة لحكم دولتي البربر المثلثين أو المرابطين، والموحدين — وذلك نحو خمس وأربعين ومائة سنة (٤٨٤ — ٦٢٩ هـ)، وفي عهد هاتين الدولتين صارت الأندلس بعد عصرها الذهبي ولاليةتابعة للمغرب، حكمها الملشمون^(١) ثمانية وخمسين سنة (٤٨٤ — ٥٤١ هـ)، وهم من قبائل صنهاجة، كانوا قبل الفتح الإسلامي متقطنين في القفار، وكانوا على دين الجبوسية، قد اختذلوا اللئام شعاراً لهم، وكانت الربراسة فيهم في لنوتة، وأول من حكم الأندلس منهم يوسف بن تاشفين، استنصر به أهل البلاد، وعلى رأسهم المعتمد بن عياد، لما طمع ملك الجلاقة فيها، فلقي يوسف الدعوة، وقصد إشبيلية، فخرج ملوكها للقاءه وكذلك فعل غيره من الملوك، وساروا معه بجيشهم خاربة الطاغية، فأزاح كابوسه عن بعض بلاد المسلمين، وانتصر على القوئis في موقعة الزلاقة يوم الجمعة ١٣ رمضان سنة ٤٨٠

(١) كانت دولة المثلثين أو المرابطين قائمة بالمغرب الأقصى، وقد أسسها يوسف بن تاشفين الصنهاجي، واتخذ المدنية عاصمة له.

هـ، ثم عاد إلى المغرب فاستشرى الطاغية ثانية فعاد إليه يوسف فرد اعتدائه، ودانت له ملوك الطوائف حين رأوا أنهم من الضعف إما أن يخضعوا له أو للطاغية. وأسر ابن تاشفين المعتمد بن عباد، وسجنه بأعمال من بر العدوة حتى مات سنة ٤٨٧ هـ، وقيل إن الذي أوقع به عند ابن تاشفين هو المتصنم بن صمادح صاحب المربية، وكان يهدى على المعتمد بن عباد^(١) وقد اتخذ يوسف قرطبة عاصمة لملكته، وكان يدعو على منابر قرطبة للم الخليفة العباسي، ودانت بلاد الأندلس لحكمه واستمر يجاهد ويغزو الإفرنج حتى مات سنة ٤٩٣ هـ، فقام من بعده ابنه على ولقب نفسه بلقب أبيه : أمير المسلمين وأخذ يصد الإفرنج عن البلاد، وكان لا يبت في صغير ولا في كبير إلا بمحضر أربعة من الفقهاء، كما كان يبغض مباحث الفلسفة والجدل والكلام، فأمر أن لا يخوض فيها أحد، وتوعد من وجد عنده كتاب فيها، ولما وصلت إلى بلاد المغرب كتب الغزالي أمر بإحرارها، وانقطع للعبادة فذهب ربع دولة المرابطين؛ وكفرت الفتن والتورات حتى مات عام ٥٣٧ هـ؛ وخلفه ابنه تاشفين ابن علي الذي مات مقتولاً عام ٥٤٠ هـ.

وفي وسط الاضطراب والضعف قام ابن تومرت المهي سوس، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، فآذره في دعوته عبد المؤمن بن علي، وبaiduغ الناس محمد بن تومرت^(٢) بالإمارة فأنشأ في المغرب دولة جديدة سميت

(١) نظم المعتمد قبل وفاته قصيدة مؤثرة أمر أن تكتب على قبره ومطلعها :

قبر الغريب سقالك الرابع الغادي حقاً ظفرت يا شلاء ابن عباد
وكان للمحمد ولد يلقب بقهر الدولة وكان ولد عهده، فما برأته به العواد
حتى تعلم صنعة الصياغة فمر به ابن البلدة فثار ما رأى وأشتد قصيده :

اذكى القلوب أسي، أباك العيون دما عطّب وحدناك فيه يشهي العدما

(٢) ألف ابن تومرت كتاباً في أصول الدين على مذهب الأشعرية، وكان أشعرياً في أكثر مسائل علم الكلام، وقد تأثر بآراء أستاذة الغزالي، وحاول نشرها في المغرب =

دولة الموحدين، وصارت بلاد المغرب ومراكش كلها تحت حكمهم، ومات ابن تومرت عام ٥٣٤ هـ، فخلفه عبد المؤمن بن علي الذي فتح البلاد وطوى المالك، وما مات علي بن تاشفين عام ٥٣٧ هـ فتح عبد المؤمن الأندلس عام ٥٣٨ هـ فانتزاعها من أيدي المشركين، واقتصر أمر تاشفين بن علي حتى قتله عام ٥٤٠ هـ، وبذلك انتهت دولة المرابطين.

ولما استتب الأمر لعبد المؤمن بن علي ولد ابنه يوسف على أشبيلية؛ وولى ابنه عثمان على غرناطة، ثم عاد هو إلى مراكش ظافراً منصوباً فاقام بها حتى توفي عام ٥٥٨ هـ، وكانت دولة الموحدين تشمل شمال بلاد المغرب من طرابلس إلى مراكش، كما كانت تشمل الأندلس، وترك عبد المؤمن لأسرته عرشاً وطربداً وملكاً كبيراً، خلفه عليه ابنه أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن على الملك والولاية (٥٥٨ - ٥٨٠ هـ)، ثم خلفه المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن (٥٨٠ - ٥٩٥ هـ)، ثم ابنه الناصر أبو عبدالله محمد بن يعقوب (٥٩٥ - ٦١٠ هـ)، ثم ابنه يوسف (٦١٠ - ٦٢١ هـ)، وحكم الموحدون البلاد نحو سبع وثمانين سنة (٥٤١ - ٦٢٩ هـ) إلى أن تغلب ابن هود عليهم في بعض البلاد عام ٦٢٢ هـ؛ وزالت دولتهم ودولة ابن هود عام ٦٢٩ حيث حكم البلاد بني الأحرar عام ٦٢٩ هـ.

٥ — ولما ضعفت دولة الموحدين، ودخلها الوهن قام ابن الأحرار وقضى على دولة الموحدين بالأندلس عام ٦٢٩ هـ، وأسس لنفسه مملكة صغيرة عاصمتها غرناطة واستمر الملك في بيته أمداً طويلاً (٦٢٩ -

— ووافى المحرقة في نفي الصفات وفي مسائل أخرى قليلة، وقد توفي ابن تومرت عام ٥٣٤ هـ، وقد سموا الموحدين تسجيلاً لترحيمهم الله وتمريضاً بمن جنح عن التأويل ووقف عند الظاهر.

٨٩٧ هـ (١) وقد حكم من ملوك هذه الدولة

(١) أَلْفُ لَسَانِ الدِّينِ ابْنِ الْحَبْبِ كَاتِبًا فِي مَلُوكِ هَذِهِ الدُّولَةِ حَتَّى عَصْرِهِ سَمَاءُ الْمَسْمَةُ الْبَدْرِيَّةُ فِي الدُّولَةِ الْقُصْرِيَّةِ وَقَدْ تُشَرَّكَ بِالْمَاقِرَةِ عَامَ ١٣٤٧ هـ؛ وَعَاصِمَةُ هَذِهِ الدُّولَةِ وَهِيَ غَرَانَاطَةُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ قَرْطَبَةِ تَسْعُونَ مِيلًا وَفَحْصَهَا الْأَفْيَجُ — الشَّبَهُ بِالْمَوْطَةِ — حَدِيثُ الرَّكَابِ وَسَرِّ النَّالِيِّ. فَدَحَاهُ اللَّهُ فِي بَسِطِ تَخْرِقَةِ الْجَدَالِوْلِ وَالْأَنْهَارِ، وَتَزَارَمَ بِهِ الْقَرَى وَالْجَنَّاتُ : فِي أَحْسَنِ الْوَضْعِ وَأَحْمَلِ الْبَناِ، ذَرَعُ أَرْبِيعِ مِيلٍ، تَحْدِقُ الْهَضَابُ وَالْجَيَالُ الْمُنْظَمَةُ مِنْهُ يَسْكُنُ ثَلَاثَةَ دَارَاتٍ، فَعَدَوْاتُ الدُّولَةِ مِنْهُ فِيمَا بَلِيَ الْمَرْكُ، مُسْتَنْدَةً إِلَى أَمْوَادٍ سَامِيَّةٍ، وَعَصَابَ عَالِيَّةٍ، وَمَنَاظِرَ مُشَرَّفَةٍ.

وَيَشْكُلُ شَكْلَ هَذِهِ الْمَدِينَةِ الْعَظِيمَةِ — وَمَا يَرْجِعُ إِلَيْهَا مِنْ أَرِيَاضِهَا — عَلَى جَيْلٍ خَسِّةٍ، وَسَهْلٍ قَبِيعٍ السَّاحَةِ، بَعْدِ الْأَغْطَارِ، مُتَرَابِ الْعَمَارَةِ، لَا يَتَخلَّلُهُ عَرَبٌ وَلَا يَرْأَسُ عَلَى حَدٍّ مَا، عَلَيْهِ كُورُ التَّخْلُلِ قَدْ ضَمَّ مِنَ السَّمَمِ مَا لَا يَحْيِطُ بِهِ إِلَّا مِنْ كِبَرِ الْحَرَكَاتِ وَأَحْصَى الْأَنْقَاسِ. إِلَى الْجَسُورِ الْمُحَكَّمَةِ، وَالسَّاحَدِ الْعَيْقَةِ، وَالْأَسَاقِقِ الْمُنْظَمَةِ. يَشْقَى الْبَلَدُ الْبَهْرُ الشَّهِيرُ الْمَسْمَى بِهَدَارَةِ آتَيَّ مِنْ جَهَةِ الْشَّرْقِ، وَيَجْتَمِعُ بِخَارِجَهَا بِوَادِي شَجَلِ الْآتَيِّ مِنْ قَبْلِهَا، فَيَتَسَقَّطُ الْفَحْصُ الْأَلْيَجُ، وَلَا يَرَالُ مَدَّهُ بِإِنْصَافِ إِلَيْهِ مِنْ فَضْوَلِ السَّقِّيِّ وَمَوَاقِعِ الْأَنْهَارِ بِأَحْوازِهَا، إِلَيْهِ أَنْ يَمْرُ بِالشَّيْلَةِ وَقَدْ صَارَ نِيلًا عَظِيمًا، وَفِي ضَواحيِ غَرَانَاطَةِ مَدِينَةِ الْحَمْرَاءِ، وَهِيَ دَارُ الْمَلْكِ مَطْلَةً عَلَى مَعْمُورِهَا فِي سَمْتِ الْقَلَّةِ، تَشَرُّفُ عَلَيْهِ مِنْهَا شَرَفَاتُ الْبَيْضِ، وَالْأَبْرَاجُ السَّامِيَّةُ، وَالْمَعَاقِلُ الْمُنْيَعَةُ وَالْقَصُورُ الرَّفِيعَةُ؛ تَعْشِيَ الْعَبُونَ، وَتَهْرُبُ الْمَقْوُلَ. وَتَحْدُدُهُ مِنْ فَضْوَلِ مِيَاهِهَا وَأَفْيَاسِ حَوَالِرِهَا وَبِرْكَهَا فِي سَفَحِهِ جَدَالُلُ تَسْعُ عَلَى الْمَدِينَةِ الْمُنْظَمَةِ، وَيَحْفَظُ بِسُورِ الدُّولَةِ الْبَسَاطَنِ الْمَرِبَّةِ الْمُسْتَخْلَصَةِ، وَالْأَدْوَاجُ الْمُنْتَهَى، فَيَقْبَرُ ذَلِكَ حَلْفَ سَيَاجِ تَلَوْجِ نَهْرِهِ الْمُرَبَّعِ أَنْتَاهِهِ عَصْرَانَهُ، فَلَا تَعْرِي جَهَةً مِنْ جَهَاتِهِ الْجَنَّاتِ وَالْكَرْوَمِ وَالْبَسَاطَنِ. وَأَنَا مَا حَازَهُ الْمَهْلُ مِنْ جَوْهِيِّهِ فَقَسَى عَظِيمَةُ الْحَطَرِ، مَتَاهِيَّةُ الْقِيمِ، تَضَيقُ حَدَّهُ مِنْ عَدَا أَهْلِ الْمَلْكِ عَنِ الْوَقَاءِ بِأَسْمَانِهَا. مِنْهَا مَا يَقْلُلُ فِي السَّهَّ شَطَرُ الْأَلْفِ مِنَ الْذَّهَبِ عَلَى حُمُولِ أَثْمَانِ الْخَضْرِ بِهَذِهِ الدُّولَةِ، يَخْتَصُّ مِنْهَا بِمَسْتَحْلِصِ السَّلَطَانِ مَا يَنْهَا الْتَّلَاثَيْنِ مِنْهُ. وَيَحْبِطُ بِهَا وَيَصْلُبُ بِأَذْيَالِهَا مِنَ الْعَقَارِ التَّهِينِ الَّذِي لَا يَعْرِفُ الْجَمَامَ وَلَا يَفَارِقُ الْرَّبِيعَ مَا يَنْهِي السَّرْجَعُ الْعَلَى مِنْهُ إِلَى نَحْوِ خَمْسَةِ وَعِشْرِينَ دِيَارًا مِنَ الْذَّهَبِ، وَقِهٌ مِنْ مَسْتَحْلِصِ السَّلَطَانِ مَا تَضَيقُ عَنِهِ بَيْوتُ الْأَمْوَالِ ذَرَاعَةً، وَيَرْجِعُ إِلَى دُورِ نَاجِمَةِ وَبِرْوَجِ سَامِيَّةِ وَبِيَادِرِ قَبِيسَةٍ وَقَصَابِ الْحَمَامِ وَالْدَّوَاجِنِ مَائَةً، مِنْهَا فِي حُسْنِ الْبَلَدَةِ وَطَوْقَ سُورَهَا مِنْ مَسْتَحْلِصِ السَّلَطَانِ مَا يَنْبَغِي عَلَى الْعَشَرِينِ، بِهَا الْحَمْلُ الْمُضْخَمُ مِنَ الرَّجَالِ، وَالْمَفْحُولُ الْمَارِعَةُ مِنَ الْحَيْوانِ لِلثَّاثَرَةِ وَعَلَاجِ الْفَلَاحَةِ، وَفِي كَثِيرٍ مِنْهَا الْمَحْصُونُ وَالْأَرْحَاءُ وَالْمَسَاجِدُ. وَيَتَخَلَّلُ هَذَا الْمَنَاعُ الْغَيْبَطُ الَّذِي هُوَ لِيَابِ الْفَلَاحَةِ ==

كثير)، وكانوا يلقبون أنفسهم أمراء المسلمين.

وقد استردوا معظم بلاد الأنجلوس من الأسبانيين، ومنعوا الإتاوة التي كان المسلمون يدفعونها لملك أسبانيا، واستكثروا من الجيوش والأساطيل، وحكموا البلاد أكثر من قرنين ونصف من الزمان، انتعش فيها الأدب، وتقدمت العلوم والفنون، ثم ضعف السلاطين، لكثرة الخلافات والثورات والخصومات؛ ورضوا بأن يقدموا الجزية لفرديناند ملك أرغونة وزوجته ملكة قشتالة؛ ثم أخذ الأسبانيون يحيطون بغرناطة وبمحاصرتها من كل جهة، حتى أتم فرديناند محاصرتها عام ٨٩٦هـ، فاضطر آخر ملوك غرناطة أبو عبد الله إلى عقد معاهدة صلح بينه وبين الأسبانيين الذين لم يلتزموا

وعن هذه المدرسة الطيبة سار القرى والبلاد التي بأيدي الرعية، مجاورة لحدود ما ذكر بلاد عريضة وقرى آهلة؛ منها ما يسيطر وتدن فاشترك فيه الآلوف من الخلق وتعددت فيه الأشكال، ومنها ما الفرد يملك واحد أو اثنين فصاعداً وتنبع أساؤها على ثلاثة، وتتصب في نحو عشرين منها متاجر الجمعيات وتمدن الأكفاء البيض وترفع الأصوات الفصيحة ثق، ويشتعل سور هذه المدينة وما رواه من الأرجاء الطاحنة بالماء المعين على أزيد من مائة وثلاثين رحى.

(١) ينسب بن الأحمر إلى سعد بن عبادة، وأول ملوكهم هو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجي الأنصاري من أبناء الأنصار، وقد ملك غرناطة في رمضان ٦٣٥هـ إلى أن توفي عام ٦٧١هـ، وخلفه ابنه أبو عبد الله (٦٧١هـ-٧٠١هـ)، ثم ابنه أبو عبد الله محمد (٧٠٨هـ-٧٣١هـ)، وقد ملأ الفطر عام ٧٠٨هـ وتوفي في شوال عام ٧١١هـ، وخلفه أبوه نصر الذي خليع أبا (٧١٣هـ-٧١١هـ) وخلفه ابن ابن عم أبيه، وهو السلطان أبو الوليد اسماعيل بن فرج بن اسماعيل (٧١٣هـ-٧٢٥هـ)، أما نصر المخلوع فقد مات في مدينة وادي آش عام ٧٢٢هـ، وخلف اسماعيل ابنه محمد (٧٣٤هـ-٧٢٥هـ) وقتل بطاهر جبل الفتح بأيدي جنده من المغاربة، فتولى الحكم بهذه أخوه أبو الحجاج - يوسف (٧٣٤هـ-٧٥٥هـ)، حيث اغتاله أحد الرعية فخلفه ابنه محمد (٧٥٥هـ-٧٦٠هـ)، ثم تار عليه أخوه اسماعيل وتولى الحكم منه (٧٦١هـ-٧٦٠هـ)، ولكن ابن عم له قله واستولى على الملك.. ومن ملوكبني الأحمر أبو الحجاج يوسف (٧٥٥هـ-٧٣٤هـ)، وابنه محمد (٧٥٥هـ-٧٦٠هـ) وقد تولى لهما الوزارة لسان الدين بن الخطيب المتوفى في عام ٧٦٦هـ، وأخر ملوكبني الأحمر هو أبو عبد الله.

شروطها، فجلاً الكثير من العرب إلى بر العدوة، وأكروه من يقى منهم على التنصر، وأخذنهم الإسبانيون قتلاً ونهاً وتشريداً وسجناً وتعذيباً، وبذلك انتهت دولة المسلمين في الأندلس، فلا حول ولا قوة إلا بالله .. وكان نهاية مصرع الأندلس عام ٨٩٧ هـ - ١٤٩٢ م، ولم يكف الإسبانيون عن نفي المسلمين عن البلاد، وإحراق كتبهم، وتبييد تراثهم، وتخرج العرب من هذه البلاد انطلاقاً مصباح مضيء من مصابيح الإسلام التي بعثت للحياة والنهضة في أوروبا نحو ثانية قرون.

ولا يمكن وصف معاملة مسيحيي إسبانيا للمسلمين بعد أن طردوه من البلاد ولا الفطائع التي ذكر صالح الرندي القليل منها دون الكثير، في قصيدةه التونية التي يقول فيها :

أحال حاهم جور وطغيان
عليهم في ثياب الذل ألوان
هالك الأمر واستهتك أحزان
كما تفرق أرواح وأبدان
كائناً هي باقوت ومرجان
والسعين باكمة والقلب ولحان
إن كان في القلب إسلام وإيمان
يا من لذلة قوم بعد عزهم
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم
ولو رأيت بكاهم عند يعهم
يا رب أم و طفل حيل بينهما
وطفلة مثل حسن الشمس إذ طلعت
يقودها العلج للمكرره مكرهة
لثل هذا يذوب القلب من كمد

ويقول منها في موضع آخر :

فجائح الدهر أنسواه متوعة
وللرمان مسرات وأحزان
وما لا حل بالاسلام سلوان
وللحواودت سلوان يمهلها

ومنها :

إن كنت في سنة فالدهر موعظة
أبعد حمى نصر الرءاء أوطن
وما لها من طوال الدهر نسيان
يا غافلاً وله في الدهر موعظة
وماشيا مرحاً يلهي موطنه
تلك المصيبة أنسست ما تقدمها

ومنها :

يا راكبين عناق الخيل ضامرة
كأنها في مجال السبق عقبان
وحاملين سيف المهد مرهفة
لهم بأوطانهم عز وسلطان
وراتعن وراء البحر في دعوة
أعندكم نبا عن آل اندلس؟
الآن قوس أیات لها هم
ألا نفوس أیات لها هم
أما على الجد أنصار وأعوان؟
والقصيدة طويلة وقد اخترنا بعضها وهي تدل على شعور صادق
ونفس متألمة .. ثم هي أيضا تقرر حقيقة تاريخية وواقع ثابتة، ليس
من شك في وقوعها.

ولم تسقط غرناطة إلا بعد أن حاصر الأسبان والبرتغال سواحل الأندلس
الجنوبية، واستولوا عليها قبل ذلك بدة كبيرة، فاستولوا على سبتة عام
٨١٨ هـ وعلى جبل طارق عام ٨٦٩ هـ، وعلى طنجة عام ٨٦٩ أيضاً؛
وأستولوا كذلك على جميع المدن الأندلسية ما عدا غرناطة وإقليمها وكان
يحيوي نحو مائة مدينة ومائة قرية ونحو مائتي حصن وقلعة.

وقد سقطت غرناطة بعد أربعين عاماً من سقوط الأستانة في أيدي
الأتراك عام ٨٥٧ هـ؛ وكان سقوط غرناطة بعد حصار دام سبعة أشهر،
أهلك العرب، حتى كاد الناس يأكل بعضهم بعضاً.

وكان سقوطها نتيجة كذلك لضعفبني الأحرى السياسي؛ وكان حكام
المغرب عاجزين عن تحذير المسلمين في الأندلس إذ كانوا في ضعف وتخاذل
وإنقسام شديد، وكان ملك المغرب منبني مرید هو السلطان عبد
الحق بن سعيد المتوفى عام ٩٦٠ هـ، وقد وفده عليه في فاس سلطان
غرناطة بعد تسليمها لفرديناند وزوجته إيزابيلا، وقد أكرم سلطان
المغرب وقادته هو وأسرته.

وقد اشتملت شروط الصلح التي وضعها أبو عبد الله بن علي آخر

ملوك بني الأحرر على سبعة وستين شرطاً تنصب كلها على تأمين المسلمين في الأندلس على أمواهم وأراوحهم وأعراضهم وحرياتهم الدينية، وعدم الخبلولة بينهم وبين المجرة متى شاء واحد منهم ذلك، ولم يف الأسبان المقصوبون بشيء من هذه الشروط.

وكان تسلیم أبي عبد الله محمد بن الأحرر في ٢ ربيع الأول عام ٨٩٧ هـ، وهاجر إلى المغرب واستوطن مدينة فاس وعاش بها حتى مات عام ٩٤٠ هـ.

وقد عامل الأسبان المسلمين بقسوة لا مثيل لها، ولما ثار جماعة من البيازين وهم من عرب الأندلس في مدينة غرناطة أخذت ثورتهم، وقادت حاكمة الفتیش تتكل بال المسلمين. وفي عام ١٥٦٣ م ثار أحد سلاة بني سراج، وأسسه فرج بن فرج، وجاء إلى جبال البشرات، وتبعه كثيرون من غرناطة، ونادوا بأحد حفلة خلقاء قرطبة ملكاً عليهم باسم محمد ابن أبيه، واستمرت هذه الثورة عامين، وقد خلص المسلمين في أثنائها ابن أبيه، وولوا أمرهم عبد الله ابن أبيه، وهو أحد الرعاع المشهورين بالبطولة، وما زالوا يجاهدون حتى غلبوا على أمرهم وعلق الأسبان رأس عبد الله على أحد أبواب قرطبة ثلاثة سنّة. وأخذوا يطردون العرب من بلادهم جلة، حتى وصل عدد الذين طردو من الأندلس أكثر من ثلاثة ملايين.

وكانت نكبة الأندلس في عهد بايزيد الثاني سلطان تركيا وقائبياً سلطان مصر، وقد اتفق المكان على أن يُفرجوا أسبانياً بأسطول كبير يسرره ملك تركيا وجيش بري يسرره قايبيري من مصر، ولكن بايزيد شغل بثورة سياسية في مملكته، وقايبيري أرسل إليه الإنسان رسولًا أدى له بمعلومات كاذبة عن مصرع الأندلس، ولم تجد رسائل بايزيد الثاني وقايبيري إلى البابا وملك أسبانيا والبرتغال شيئاً في تخفيف معاملة الأسبان المسلمين المغلوبين في بلادهم، وهكذا أراد الله ولا راد لمشيته، قل

اللهم مالك الملك تعطي الملك من تشاء، وتنزع الملك من تشاء، وتعر
من تشاء وتندل من تشاء^(١).

ويحدث الأستاذ محمد عبدالله عبان عن أبي عبد الله آخر ملوك
الأندلس من بنى الأحرر في بحث له يقول فيما يقول :

كانت ظروف مملكة غرناطة تدعو إلى الألم والأسى، فقد مزقتها الحرب
الأهلية شيئاً، وتشب النضال من أجل الملك والرياسة بين السلطان أبي
الحسن وأخيه محمد بن سعدالمعروف بالرغل، ثم بين السلطان الشیخ
وابنه الأمير الفتی أبي عبد الله محمد، واتتی الأمر بان ظفر الأمير الفتی
بالعرش. وفي أثناء ذلك كانت المعارك تضطرب باستمرار بين المسلمين
والاسبان حول قواعد الأندلس القليلة الباقية. وفي شهر مارس سنة ١٤٨٣
هزم الإسبان في معركة الشرقية الشهيرة بجوار مالقة، على يد يطل الأندلس
يومئذ مولاي الرغل. فاتعشت آمال المسلمين وسرت الحماسة في كل
مكان. وأراد السلطان أبو عبد الله أن يتبرأ هذه الفرحة خاربة النصارى؛
فخرج على رأس قواته من غرناطة ربيع سنة ١٤٨٣ متوجهاً نحو قرطبة.
واجتاز في طريقه عدداً من المحسون والضياع، وهزم النصارى في عدة
معارك محلية. ولكن حين عودته أدركه النصارى في ظاهر قلعة « اللسانة »
ونشب بين الفريقين معركة هائلة ارتدى فيها المسلمون إلى ضياف شيشل،
وقُتل وأسر كثير من قادتهم وفرسانهم. وكان بين الأسرى السلطان أبو
عبد الله محمد نفسه، عرفه الجندي النصارى أو عرفهم بنفسه خشية الاعتداء
عليه، فأخذوه إلى الكوتون دي كابرا (قرطبة)، فاستقبله بحفاوة وأدب،
وأنزله بأحد المحسون القرية تحت حراسة قوية. وأخطر في الحال مليكه
(فرديناند الكاثوليكي) بالباً الآليم. فطلب فرديناند أن يوثق بالأسر
الملكي إلى قرطبة، وقرر أن يستقبل كما كان يستقبل الأمراء، وأن يحتشد
لاستقباله جميع الأشراف والكبار.

(١) راجع ص ٦١٥ ج ٢ نفع الطيب في سقوط « غرناطة ».

وهكذا أتى بالسلطان أبي عبد الله من حصن اللسانة في حرس قوي. واحتشد أهل قرطبة أمام الأبواب لرؤية موكب الملك المسلم وكان أبو عبد الله يرتدي ثوباً من القطيفة السوداء، ويركب حصاناً أسود عليه سرج ثمين. وكان وجهه يشع كآبة. وكان الشعب القرطي يحتشد جموعاً غفيرة أمام الأبواب وفي الطرقات ويتدافع بالناكب لرؤية السلطان المن ked، وأخذ أبو عبد الله أولاً إلى دار الأسقف المواجه للمسجد الجامع، ثم أخذ بعد ذلك إلى قلعة «أو ميناتي» الحصينة. وعمل هناك بكل ما يقتضيه مقامه الملكي من إكرام، وألحق بخدمته عدة من الخشم المسلمين وأقام في أسره تغلب عليه الكآبة، وهو يتضرر يوم الخلاص. وكان الاضطراب قد ساد غرناطة على أثر هزيمة مليكتها وأسره. وبادرت أمه السلطانة عائشة الحرة بإرسال سفارة على رأسها الوزير ابن كاشة ليقاوض الملك الإسباني في الإفراج عن الأسير مقابل الشروط التي يرضاهما. وحاول السلطان أبو الحسن والد الأمير الأسير، وكان قد استولى عندها على غرناطة، أن يسعى كذلك لدى الملك الكاثوليكي لكي يطيل أسر ولده ويكتبه مئونة مناقشه، أو أن يسليه إليه مقابل الإفراج عن بعض أكابر الأسرى النصارى الذين يخفظ بهم، فأدى فرديناند هذا العرض واستنكر صدوره من الوالد الحقد.

وعقدت الملكة إيزابيلا الكاثوليكية مجلساً من أكابر رجال البلاط والقيادة للبحث فيما إذا كان من الأفضل أن يفرج عن الأمير لقاء شروط حسنة أو أن يبقى في أسره، وبعد مناقشات طويلة رأى أن يفرج عنه نظير أفضل الشروط التي يمكن الحصول عليها لأن هذا الإفراج من شأنه أن يزيد في اضطرام الحرب الأهلية بين المسلمين، وأن يتعاون بذلك في إضعاف قواهم والتهديد لسحقهم.

وانتهت المفاوضات بين رسول أبي عبد الله وبين الملكين الكاثوليكين على ما يأتي :

ان يعترف أبو عبد الله بطاعة الملك فرديناند وزوجته الملكة إيزابيلا، وأن يدفع لهما جزية سنوية قدرها إثنا عشر دويبلا من الذهب، وأن يسلم إليهما في الحال أربعين ألفاً أسيراً من النصارى الموجودين في سجون غرناطة. ثم يسلم إليهما بعد ذلك كل عام سبعين ألفاً لمدة خمسة أعوام، وأن يقدم ولده الأكبر وأثنى عشر عضواً آخرين من أكبر أسرته، وذلك ضماناً بحسن وفائه لشروط المعاهدة.

وتعهد الملوك الكاثوليكيان من جانبهم بالإفراج عنه فوراً، وألا يكلف في حكمه بأي أمر يخالف الشريعة الإسلامية، وأن يعاونه في افتتاح المدن التائرة عليه في مملكة غرناطة، وهذه متى تم تفعيلها تندو واقعة تحت طاعة ملك قشتالة، وأن تستمر هذه المدددة لمدة عامين من تاريخ الإفراج عن السلطان الأسيرة.

وفي يوم ٢ سبتمبر سنة ١٤٨٣ بعد أن قضى أبو عبد الله في الأسر بضعة أشهر قدم إلى قرطبة وقد من أكابر الغرناطيين لاستقبال أبي عبد الله واستصحابه. وأقبل أبو عبد الله في ثياب زاهية، وسار الجميع إلى حضرة ملك قشتالة. فاستقبل الملك النصرياني أسيره المسلم بحفاوة ورقة، وأعرب أبو عبد الله بواسطة ترجمانه المسلم عما يتطلعه من عون ملك قشتالة ورعايتها، واقتيد الرهائن المشروط تسليمهم إلى أحد الحصون لحفظهم، وأمر فرديناند أن تقدم إلى أبي عبد الله هدية تقسية من السهام والثياب والخيل، وسار أبو عبد الله ومعه سرية قوية من الجند القشتاليين حتى وصل إلى أول قلعة أمينة من قلاع المسلمين.

وللملك أبي عبد الله صورة أخذت له خلال أسره وكانت في حوزة أسرة معروفة من الأشراف هي أسرة دي كورديا (قرطبة) الإسبانية التي ترجع أصولها إلى أيام الفروسية والحروب بين المسلمين والنصارى. وكان من أعلام هذه الأسرة القائد دون ديجدودي كورديا، كونت كابرا (قيرة) بطل واقعة اللسانة التي أسر فيها السلطان أبو عبد الله.

والمرجح أن صنع هذه الصورة لأبي عبد الله يرجع إلى فترة أسره.
وفي بواعت صنعتها رأيان أو نظريان :

١ — أنها صنعت للملك الأسير تحقيقاً لرغبة الكونت دي كابرا،
وذلك أنه كان من تقاليد الأشراف الظافرين في المعارك الخالية أن تزين
قوتهم بعد الموت بما غنموا من خصومهم من السلاح والثياب. وقد
رأى الكونت وبعض زملائه أن يعهدوا إلى بعض المصورين برسم صورة
للملك الأسير تكون تذكاراً للمعركة، ورماً للظفر، ثم يزين بها قبو
مدفنه بعد وفاته مع باقي متعلقات الملك المسلم. ثم تناقل ورثة الكونت
ملكية هذه الصورة بالتعاقب.

٢ — أن يكون الملك فرناندياند الكاثوليكي نفسه أو زوجه الملكة
إيزابيلا قد رغب أو رغبت في رسم صورة للملك الأسير لتكون عنواناً
للنصر، ولتضم إلى الذخائر الملكية. وقد عهد برسمها إلى أحد مصوري
البلاط. ومن المعروف أنه لما توفيت الملكة إيزابيلا، بيعت مجموعة الصور
التي كانت في حوزتها بالزاد، وكان منها صور للملوك الكاثوليكين
وأعضاء الأسرة المالكة، وصور أخرى لبعض الملوك والأمراء الأجانب،
ومن المتحمل جداً أن تكون صورة الملك المسلم قد آلت بالشراء إلى
أسرة القائد الذي ظفر بأسره أو إلى أحد من المعاصرين الذين اشتركوا
في المعركة، أو غيرهم من يدعى هؤلاء أن يبقى هذا التذكرة لديهم، ثم آلت
بعد ذلك إلى أسرة كابرا.

وعلى أي حال، ففي أوائل القرن التاسع عشر، كانت صورة السلطان
أبي عبد الله ضمن مجموعة « الدون كرسنوبال رافاييل فرنانديث دي
كردو با كونت دي لوكي »، وهو من أكابر أشراف غرناطة، وكان يعيش
في قصره عيشة هادئة رغدة.

ودخل في خدمة الكونت في سنة ١٨١٨ محام فني يدعى خوسه
فرنانديث جيرا وعمل سكرتيراً له، وأبدى في خدمته غيرة ووفاء، وتوثق

عري الصداقة بين الرجلين. ووهد الكونت سكرتيره أرضاً من أملاكه. هذا فضلاً عما كان يهدقه عليه من المدحايا والتحف، وكان مما أهداه إليه قبل وفاته في سنة ١٨٣٣ صورة السلطان أبي عبد الله، وبذلك آلت هذه التحفة الفريدة إلى أسرة فرنانديث جيرا.

واللوحة التي رسمت عليها الصورة، صغيرة الحجم، طولها ٣٧ سنتيمتراً وعرضها ٢٦، وفيها يهدأ أبو عبد الله فتى في نحو الرابعة والعشرين، وهي سنة وقت الأسر، يوجه عريض وأنف مننسق، وعيين حضراوين، ونظارات حادة تغشاها الكابة، وتظلل فمه من الأسفل ثغرة خفيفة تجعل الشفتين أكثروضوحاً. وله شعر كستني غزير، ولحية صغيرة مدبة، وترنن تاجه الذهبي أحجار من الزمرد والياقوت، وهو موضوع فوق قلنسوة خضراء. أما هذه السلسلة التي تتصل بعنقه فهي طابع المزينة وشعار الأسر، مما يعزز الرأي القائل بأن الصورة قد رسمت حقاً خالل أسره في قرطبة.

ويرتدى الملك الأسير في الصورة سترة ذات لونين، الأخضر وهو موشى بأسلام الذهب، والآخر قرمزي وهو موشى بالورود الذهبية. والجزء الأسفل من الياب مصنوع من قطيفة زاهية تزيئها من الجانب الأمين أزرار سوداء، ويرى من زاوية السترة المفتوحة، وهي قميصه العربي. ويهدأ السلطان هادئاً الحسا، رصيناً، يمحفه الجلال، وتشع نظراته بالكابة والعذوبة.

وكانت الصورة حينها أهدافاً الكونت دي لوكي إلى صديقه الدون خوسيه فرنانديث بلا إطار، فصنع لها الدون إطاراً بيضاوياً مذهبأً على الطراز العربي، ونقش عليها اسم أبي عبد الله وشعار بني نصر ملوك غرناطة، آلت الصورة إلى آل كولي ثم إلى أسرة فرنانديث جيرا الغرناطية، وهي الصورة الوحيدة الحقيقة للسلطان المسلم.

الفصل الثالث

الحياة الأندلسية في ظلال الحكم العربي

أولاً — الحياة الاجتماعية

اختلط العرب^(١) بسكان البلاد الأصليين وعاشروهم وصاهروهم

(١) يقول لسان الدين بن الخطيب في كتابه النسخة الباردة : « ولما استقر الفتح وبلغ حيث بلغ من السخوم سكنت العرب الأقطار وتبوأت الديار، ثم دخلت بعد ذلك العرب الشاميون مع الأمير بلج بن يشر المشيري في عشرة آلاف فارس من أعلام أهل الشام، وتنسى « الطالعة الحنمية » : فالداخلون مع موسى وطارق يسمون بالأندلسيين في الرسوم والمظاهر والآدلة على المسلمين، والداخلون مع بلج بن يشر يسمون بالشاميين، وأخص بكورة البرة وهي التي تُوقّعها عليها اسم دمشق جند دمشق، وبكورة جيان جند قسرىن، وبأشبيلية جند حمص، وسواها من الكور بهذه النسبة، وزرلت بهذه الكورة الإسبانية من أعلام العرب الذين بها إلى هذا العهد يروتهم جملة من القبائل : منهم بيوتات من قيس عيلان، ومن عيسى ابن بغيض، ومن أشجع بن ربيت، ومن ياملة، ومن سليم بن متصور، ومن جليلة، ومن كلاب بن ربيعة، ومن عقيل بن كعب، ومن ملال بن عامر، ونمير بن عامر، ومن سلول، ومن ثقيف، ومن غافق ابن الشاعد، ومن عث، ومن الأنصار وهم نو الأوس والخزرج، ومن غسان، ومن الأزرد ومن الغوث، ومن بحيرة، ومن خدم، ومن كندة، ومن السكانك، ومن تجيب، ومن جدام بن عدي، ومن خولان بن عمرو، ومن العافر بن يضر، ومن حكم، ومن حضرموت، ومن جعف، ومن سعد المشيرية، ومن همدان، ومن حمير، ومن = = =

وامتنعوا بهم، وقد عاشوا معهم في ظلال وحدة واحدة^(١) وإناء تام،

= شرعب، ومن ذي رعن، ومن ذي أصبع، ومن يحصب بن مالك، ومن كلب بن وبرة، ومن جهينة، إلى كثرين.

(١) لم يحدث بين المسلمين وسكان البلاد الأصلين خلاف ديني ما عدا حوادث فقليلة، كانت الباعث عليها تعصب بعض المسيحيين تجاه دينهم، ففي القرن الثالث قامت حركة باسم الدعوة الدينية، هي حركة الاستشهاد، وقاد هذه الحركة القسيس بولوجيوس معتقداً على زعمه من أغبياء العائلة اسمه المارو، وكانت تعيش في قرطبة قاتل اسمها قلورا «الزهرة» كان أبوها سلماً ذات في حالة منها فكتلتها أنها المسيحية ولقتها مبادئ التنصيرانية وشنت عليهما، لما كبرت حملت تردد على الكناس قددخل في الأمر أنفسها المسلم لأيمانها ووقى بولوجيوس بها صلبه حتى ألتقي في روعها أن المسيح لا يرضي عنها إلا إذا جهرت باعتقادها بالنصرانية وحافظت في سبيل المسيح، فرفع أنفسها أمرها إلى القاضي فأعادت أدبارها أنها لم تكون يوماً مسلمة وأنها لا تعرف إلا المسيحية بهذا وأمر القاضي بجلدها شفقة عليها، ولعلها تعود إلى دينها الأصلي وكلها أنفسها، ولكنها هربت إلى بيت مدين لها مسيحي فأوأها ثم غابت في قرطبة وتوارت عن الأنظار، وفي غيبتها هجر قيس أسمه برقوكوس بالطبعن في الدين الإسلامي، فحكم القاضي بإعدامه ونفذ الشخص نصر الاعدام عند غروب الشمس يوم عيد الفطر، وحمل تاجر مسيحي اسمه حنا يذكر من التعريض بالتي ~~هي~~ فرفع أمره إلى القاضي، وحكم عليه بالجلد أربعين جلدة، وخفق هذا العمل المتخصص إلى التقدم لإراضا المسيح بتقديم أنفسهم إلى السياf، وتقدّمهم في ذلك قيس أسمه أسيخ، ذهب إلى القاضي يوماً وقال له: أريد الدخول في دين الإسلام، فسر له القاضي وجعل بحاجاته في ساحة الإسلام وعداته وحقيقة شرعيه ففاجأه القاضي القس قائلاً: لقد كذب بيكم وخدعكم بكلمه وأفراهه ثم سه ولعنه، فلطمته القاضي وقال له: لعلك تعلم من شراب أو بذ من جنون فثبت، فأجاب: إني أملك قراري كاملة ولم أذق شراباً في يومي، وإنما دفعني إلى ما كان متى [إخلاصي لديني]، فسخر القاضي معتقداً أنه يجنون حتى يجيئ أمره، ولكن عبد الرحمن لما بلغه ما فعل القيس هله الأمر، فأمر بقطعه ثم صلبه وإحرافه، وتعاقبت حوادث مثل حادثة إسحاق حتى بلغ عدد الذين قضيوا رفاههم في هذا السبيل أحد عشر في أقل من شهرين، فوجدت الحكومة الإسلامية نفسها تلقاء حالة اجتماعية يحب علاجها، فصدر أمر عبد الرحمن بعد مؤتمر يبحث هذا الأمر ويسوءه بما يعني أن يساس به، وأخذ الحكومة الإسلامية في الأندلس يأخذ من الناس الدين تفكير في حل لهذا، ورأى أن تدعو الحكومة ذوي المكانة والفوءة من المسيحيين للنظر في في الوصول إلى حالة تحفن دماء الناس، وتنزع من النطاول على الإسلام =

وأخذ السكان الأصليون يتعلمون اللغة العربية، ودخل كثير منهم في الإسلام طوعاً ورغبة، وتبادلوا العادات والتقاليد. وأصبح المجتمع الأندلسي عربي الملاع والسمات، وأقامت القبائل العربية الواقفة في كل مكان من هذه البلاد الجميلة^(١)، وترك كل العوامل ويضاف إليها عامل آخر هو

= أو الطعن فيه، ولدلالة على أن هذه الحركة التي تقدم بها المستهدفوون للسيف ليست من الدين في شيء وأنها لا تؤدي إلا إلى تعرض المسيحيين للإيذاء والقتل، ومثل الحكومة في هذا المؤتمر شخص اسمه جوزيف بن أنطونيان، صار له شأن في عهد خلف عبد الرحمن، وصدر قرار المؤتمر بأمررين:

الأول: أن حركة الاستشهاد هكذا خاصة لا صحة لها.

الثاني: أنه يجور للمنصوصة أن يأمرروا سجين من ظهر عليه أعراض مثل هذه الفتن.

ولم يؤد المؤتمر إلى نتيجة التي كانت متطرفة، فان بولوجيوس وأشياخه لجوا في عملهم نظروا من مكان إلى مكان وسجنا كلما وجد مبرر لسجنه، وسجن بولوجيوس الثالث في سجنه وظلوا مرة أخرى، وفي ٢٤ نوفمبر سنة ١٩٥١ أعدمت تلك الفتاة وزوجها لها تسمى ماري.

(١) لما استقرت قدم المسلمين بالأندلس وتم فتحها، صرف أهل الشام وغيرهم من العرب حمّهم إلى الجنحول بها، فنزل بها من جرائم العرب وسادتهم جماعة أورثوها أعقابهم، إلى أن كان من أمرهم ما كان، فاما العذنابيون فنهم خدف وتم قريش، وأما بنو هاشم فنهم جماعة كلهم من ولد إبريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسين ابن علي بن أبي طالب، ومن هؤلاء بن حمودة لوك الأندلس بعد اشتخار سلك بني أمية، ومن بين مخزوم أبو بكر الس ZXROMI الأعمى الشاعر المشهور من حصن المدور ومنهم الوزير الفاضل في النظم والثر أبو بكر بن زيدون، ووالده الذي هو أعظم منه أبو الوليد بن زيدون وزير معتمد في عيادة، ومن الكاتبين ابن جعفر صاحب الرحلة، ومن نزل الأندلس من قحطان، الأزر، ونهم محمد بن هاشم الشاعر المشهور الأبييري، وهو من بنى المهبأ، ومن الأزرد من ينتسب إلى الأنصار على العموم وهو الحم الغفير بالأندلس، قال ابن سعيد: والمحب ما شد عن العدد كثرة، ولقد أخبرني من سأله عن هذا النسب بالسديمة فلم يوجد منه إلا شيئاً من المخرج وعجزوا من الأوس، قال ابن غالب: وكان جزء الأنصار بناسية طليطلة، وهم أكثر القبائل بالأندلس في شرقها وغربها.

ومن المخرج بالأندلس أبو بكر بن عبد الله بن ماء السماء من ولد سعد بن عيادة ==

بيئة الأندلس الغنية الجميلة الشاعرة، تركت آثارها في العقول والأفكار والآرء والأرواح، وقد اشتهر المجتمع الأندلسي بعلو الثقافة واتشارها،

صاحب رسول الله ﷺ وهو المشهور بالموشحات، وإلى قيس بن سعد بن عبادة ينسب به الأعمى سلطان غرباء، الذين كان لسان الدين بن الخطيب أحد وزرائهم وعلى عهدهم انفرض ملك الأندلس من المسلمين.
وعلى الجملة فقل أن تجد قيلة من القبائل العربية ليس من بينها من اتخذ الأندلس موطنه الكثرة غيرها وطيب هواها. وكان أكثر الوفاقيين عليها من أهل الشام حتى اضطر أحد أمرائها إلى أن يفرّقهم في البلاط، فأذرل أهل دمشق أليبرة وسمها دمشق. وأذرل أهل حمص أنسيلية، وسمها حمصاً، وأذرل قسرون: جيان وسمها قسرون، وأهل الأردن ناحية ربة وملقة وسمها الأردن، وأهل فلسطين ناحية شحونة وشريش، وسمها فلسطين.

ورحل إلى الأندلس أيضاً كثير من أهل مصر والعراق، كما عبر إليها من مراكش وشمال إفريقية جماعة من البربر، واستعمر كل هؤلاء سكان البلاد الأصلين من قوط وغيرهم بالصاهنة والمصادفة، وجمعهم الإسلام، فكان صلة أخرى غير صلة الاجتماع في بقعة واحدة، وانتشرت كل هذه الأجناس بعضها بعض انتزاعاً تسبّب في عقوتهم كما تسبّب في دمائهم، وتمت مواهيمهم الفطرية وساعدتهم على ذلك انتهاجهم بلاداً واسعة غنية جليلة مختلفة المناظر متعددة المناخ، فكان أثر ذلك كله أن تقام فيها حالة اجتماع خاصة، وأن تصبح لهم مميزات وصفات في الاجتماع والعلم والفن لم تكن لغيرهم من العرب الخلق، بل اشتقت من غير ما حملت عناصر هذا المجتمع الجديد من مميزات وما ركز من طبعاتها من صفات، فكانوا أعنف الناس أرواحاً وأصفاهم نفوساً وبلطفتهم أثواباً وأخذهم أذئاناً، حتى صبح فهم ما نقل عن ابن غالب في (قرحة الأنفس) : «أهل الأندلس عرب في الأسباب والغزة والأفة، وفصاحه الآلس، وطيب التقوس، وإباء الضنب، وقلة احتمال الذل والمساحة بما في أيديهم، والزراعة عن المخصوص وإياب الدنية. هذين في إفراط عنافهم بالعلوم وجهم بيهما، وغضفهم وروايتهما لها، يقدادون في ظاهرتهم وظففهم ورقة أحكامهم وبناهم وذاكهم وجودة قرائحهم ولطافة أذهانهم، وجلة أفكارهم، يوبأبون في استبيانهم للحياة، وعناناتهم لضرر الصناعات واختيارهم لأجناس الفواكه، وتدبرهم لتركيب الشجر، وتحليلهم السادس بأنواع الحضر، وأصناف الزهر، فهم أحكم الناس لأعمال الفلاح، ومنهم ابن بصال صاحب كتاب الفلاح الذي شهدت التجربة له، وهو أمير الناس على مط Rowe النعْب في تحويل الأعمال، وتحسين الصالح، وأخذهم بالفروعية، وأبغضهم بالطعن والضرب.

فالقلح في حقله والتجار في متجره والمصانع في مصنعه، كل هؤلاء فضلاً عن سواهم من الطبقات الراقية، كانوا يجيدون المشاركة في أمور الثقافة والأدب والشعر، وينتاز المجتمع الأندلسي كذلك بعلو النوق ولطفه وانتشار الآداب الاجتماعية الرفيعة فيه. وكانت الفنون والآداب والغناء والموسيقى ذاتها في كل وسط .. وستتحدث عن كثير من مظاهر هذه الحياة الاجتماعية الرفيعة في الفصول التالية .. وكانت اللغة العربية التي يتحدث بها هذا المجتمع لغة راقية مهدية رقيقة يتحدث بها الناس على أنها لغة راقية، لغة الثقافة والآداب^(١) وإن كانت الآداب الشعبية كالرجل قد ذاعت ذيوعاً كبيرة.

(١) يقول الأستاذ حسن جاد « حد ابن زيدون »:
كانت حالة اللغة في الأندلس تختلف عنها في الشرق، فقد كانت قواعد التعليم هناك تقوم على علوم الدين وشواهد العرب وأمثالهم ومتورهم ومظومهم، وكانتا كذلك عرباً يبدئون التقويم والسلطان وللخthem القهر والغلبة، ولا مزاحم لها من اللغات الأخرى، لأن العرب في الأندلس انتصروا انتصاراً عاماً، فملكت لغتهم ألسنة أهلها بما لهم من التقدّر. حتى إن هشام بن الداخل حظر على الصارى أن يتكلموا بغير العربية. فقيمت لهذا نبذة من المحبة، غصة الإهاب، باخرة الشباب، زمناً طويلاً. على حين كانت ثورت في المشرق بمراجحة أضدادها ولا سيما الفارسية، التي انهزم الشرقيون أمام حضارة أهلها، ثم إن الدولة العباسية ورثت حضارات وثقافات عربية ظهر أثرها في اللغة فجئى على مادتها باللحن والمحنة، ولكنها لم تصل في الأندلس الخلوها من هذه الثقافات. وكانت مع هذا لغة الخاصة والعامة في معظم عهد العرب بالأندلس، في الوقت الذي كانت فيه لغة الخاصة فقط بالشرق، ولكن انتشارت في بشدة الأسر ووصلة الأسلوب، تحسّبها في الأندلس أنها كانت تذهب مذهب السيم : رقة لفظ، وتألق أسلوب.

ولهذا فتن بها الإنسان. وشفقوا بها كل الشفف، حتى أنساهم ذلك لذتهم. اللاتينية، وحتى جأر بالشكوى من هذه الحال « الفارو » كاهن فرطبة إذ يقول : « إننا نحب أن نقرأ الشعر والقصص وتدرس الدين والفلسفة في اللغة العربية، فنعلم لغة عذبة الأنفاس، بلية الأداء، جميلة الإنشاء، ولا تكاد تجد فيها من يقرأ الكتب المقدمة باللغة اللاتينية، وشبانيا الأذكياء جميعاً لا يعرفون غير لغة العرب وأدائهم، وكلما قرأوا كتبها، ودرسوا أدبها أصحبوا بها، فإذا حدثتهم عن كتاب من الكتب اللاتينية ==

ويقول استانلي بول : « ... أخذ النصارى يخضون لغتهم اللاتينية القديمة، ويصدرون عن آدابها، فتعلموا العربية، واستطاعوا بعد حين أن يكتبوا لها، كما يكتب العرب أنفسهم، وقد ندد بولوجوس نفسه بهذه الحال إذ يقول : إن النصارى يولعون بقصائد الشعر العربي وقصصه، ويهجرون الكتاب المقدس وأثار القديسين. وما يوجب الحزن والأسى أن الجيل الناشئ لا يعرف غير العربية، فهو يقرأ كتب المسلمين بشغف، وينشئ لها الخرائط، ويراهما جديرة بالإعجاب، في حين أنه يدخل بنظرة إلى كتاب مسيحي. ثم يقول : لقد نسي النصارى لغتهم، ومن العسر أن تجد واحداً منهم في كل ألف يكتب حرفاً لاتينياً كتابة سائعة، وهم مع ذلك يستطيعون أن ينظموا شعراً عربياً رائعاً »^(١).

ويقول أحد ضيوف في بلاغة العرب في الأندلس نقاً عن مؤرخي الفرنجة : « هجر أهل إسبانيا اللاتينية واشتفلوا باللغة العربية وآدابها وكانوا لا يكتبون بغيرها حتى إن أحد العلماء المشهورين منهم شكا من ذلك وقال : إننا نحب قراءة الشعر والقصص العربية، وتدرس المسائل الدينية والفلسفة الإسلامية، باللغة العربية لتعلم لغة رشيقه وعبارة بلغة ولا يكاد يوجد عندنا من يقرأ الكتب المقدسة باللغة اللاتينية، وكل شبابنا الأذكياء لا يعرفون غير لغة العرب وآدابها لأنهم يقرؤون الكتب العربية ويدرسونها بهمة عظيمة ويدعوهم كثرة اطلاعهم على تلك الكتب إلى الأعجاب بأداب العرب، فإذا حدثهم عن كتاب من الكتب اللاتينية سخروا منها وقالوا إنها لا تستحق عناء قارئ أو مستفيد، من أجل ذلك نسي المسيحيون لغتهم فلا تكاد تجد في الألف من واحداً يمكنه

= سخروا منه وقالوا : إن الفائدة منه لا تساوي الثعب في فراءه، وهكذا نسي المسيحيون لغتهم وجهلوا كتابها وبلغتها، وحدلوا اللسان العربي حتى ليكتبه تراً ونظماً في أسلوب أثني، وتصوير دقيق، يذوقون فيه العرب أحياناً .
(١) نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي — كمال كيلاني

أن يكتب رسالة باللاتينية أما إذا أرادوا أن يكتبوا بالعربية فإن كثيراً منهم يكتب بعبارات بلية وأسلوب منمق، وقد يفوقون العرب أنفسهم في ذلك حتى في الشعر وكابة القوافي».

ويقول نقا عن مؤرخ آخر : « في أوائل القرن التاسع كانت اللغة العربية هي لغة الوثائق الرسمية، وفي هذا الوقت ترجم قيس من أهل أشبيلية التوراة إلى اللغة العربية للاميده، فوجد أحد العلماء هناك على أهل دينه وآتيمهم بالمساعدة على نشر اللغة العربية. والعمل على ترك اللاتينية. وقد دامت هذه الحال زمناً طويلاً في قرطبة وطليطلة حتى إن القس لجهلهم اللاتينية اضطروا إلى ترجمة كتب الكنيسة إلى اللغة العربية وبقي ذلك إلى أواخر القرن الحادي عشر إلى أن استولى الفونس السادس على طليطلة سنة ١٠٨٥ م .»

أولاً: مشاهد من الحياة الأندلسية

— ١ —

قدم الأندلس علي بن نافع زرياب المغني — الزرياب طائر أسود اللون حسن الصوت وسي به لسمة كانت فيه مع جمال الصوت — وقد تخرج زرياب على يدي إسحق الموصلي فتبح حتى نال من أستاذه كل تقدير، وقال الرشيد يوماً لإسحق: أحب يا إسحق أن تبعيني شاباً ظريفاً تؤديه أدبك حتى تدخله لوقت قد لا تجده فيه، فقال إسحق: لدى يا أمير المؤمنين بعثتك التي ترید، شاب لم تقع عيناي على أحسن منه صوتاً وأداماً وألحاناً، وهو بالباب إذا شاء مولانا أمير المؤمنين: قال الرشيد: على به، فدخل زرياب واستجوبه الرشيد فأبان عن ظرف ولباقة، فأعجبه وطلب منه الغناء فقال: أريد العود، فجاء له بعدد أستاذ إسحق، فأتي وقال: أريد عودي وهو بالباب، فقبل له: أليس عود أستاذك عوداً؟ فأجاب: إن كان مولانا يريد أن أغنى غناء أستاذي فإني أغنى على عوده، وإن كان مولانا يريد غنائي فإني أغنى على عودي، فأعجبت هذه القطنة الرشيد وارتاح لها، ولما جاءه بمعد قال له الرشيد: أراه كمعد إسحق، فأجاب نعم يا مولاي هو مثله في الشكل، وأمير المؤمنين صادق، ولكن أوتار العيدان يختلفونها من الحرير، وأنا أخذت أوتار عودي من مصارعين الأشبال، فأكابر هذا الجواب زرياباً في عيني هارون،

ثم انطلق فجئ الصوت الذي فيه :
يا أيها الملك اليمون طائره هرون راح اليك الناس وابتكروا

فطرب الرشيد طرباً ما رأى مثله عليه من قبل وأبدع فيه زریاب وأغرب فأطرب وأعجب وشاءت المقادير أن تنقل زریاباً من بغداد إلى قرطبة، فقد أوجس الموصلي في نفسه حيفة على صيته وحاجه في بلاط الرشيد أن يسقطه هذا العلام الناشئ المبدع، فخلال الأستاذ بتميذه وقال : يا زریاب إنك تلميذِي وإنني أحبك كابني ولكنني أيضاً أحب نفسي، وليس إلا اثنان فواحدة بنعمتها وأخرى أظلتك تأباهَا ولا ترضاهَا، فلما أن نقم هنا وأنا والله دايم وراء قتلك حتى يكون ولو بذلت في ذلك نفسِي لأنك قاتلي ولا محالة، وإنما أن تخثار لك بذلك ترحل إليه بعيداً لا تعود ما أنا حي ولك حين ذلك كل ما يعينك على الوصول إلى ما تريده من جاه ومن مال. وكان لا جرم أن يختار زریاب الرحيل وهو يرى هذا الوعيد والتهديد ويعلم جاه إسحاق عند الرشيد فرحل يضرب آباط الأسفار إلى الأندلس وقد كانت شهرتها وقت بلغت بغداد فيما بلغت من بلاد الشرق فلم تعد ولاية من ولايات الأمويين ولا إيلاء يطبع فيها العباسيون ولكن ملك دولة وفخامة يندق فيها الحكم ابن هشام حتى يستقدم إليه من المشرق كثيراً من جلة العلماء كائني على القالي.

ولما أشرف زریاب على الأندلس كان الحكم قد أشرف على الموت فلم يجد زریاب من الحكمة أن يهاجر إلى الأندلس، ولبث في إفريقية ينتظر، فلما تولى عبد الرحمن بن الحكم أرسل الألطاف وأهداياً ورسلاً يشرون زریاباً بعيش وجده وخير كثير في بلاط عبد الرحمن، فانتقل زریاب إلى الأندلس في أبهة وإعزاز، حتى إن عبد الرحمن خرج إليه من عاصمة ملكه يتلقاه زيادة في التجلة والإكبار.

وتفلغل نفوذ زرباب الأدبي في علية القوم وسراتهم فقلدوه في أشياء كثيرة، غيرت من عادات الناس في طعامهم وشرابهم ولبوسهم وأزيائهم على وجه العموم فحبب إليهم كوس الزجاج عن أدوات الذهب والفضة والمعادن، وكان هو وأولاده يقصون شعورهم ولا يتركون منها إلا جمة تزيين التواصي فقلدهم الأندلسيون في ذلك، وغير ملابسه وألوانها على حسب القصور فغير الناس كما يغير، وتشاء من هنا كله لون من الحضارة لم يكن معروفاً، وكان لهذا اللون أثره في انتقال الأندلس حالاً على حال.

وكذلك كان إبداع زرباب في الغناء مؤثراً في الأدب العربي إذا أدخل في آلات الموسيقى ما لم يكن فيها قبل من الأوّل، فاختبر بذلك أداة جديدة تسرى عن الناس همهم وأحزانهم، وترق طباعهم وعواطفهم، وتدعى الشعراء إلى الابتكار والإجاده في أنواع الشعر الغنائي وتجويدها، لقد كان لزرباب والذين من بعده أثر كبير في الأدب الغرقي نفسه لأنه لقح الأدب الفرنسي بكثير من الطواهر العربية في الأساليب وفي المعاني ويظهر هنا التلقيح في أمرين :

الأول : إن أدوات الغناء قد نقل كثير منها إلى الفرنسيين، حتى إن كلمة عود نقلت بنفسها لهذا المسمى العربي، والأداة الموسيقية نفسها، والثاني: أن الشعر الفرنسي لم يكن مقفى في بادئ ثناهه لأن أصله وهو الشعر اللاتيني لم يكن مقفى، ثم ظهرت التقاقة في هذا الشعر بعد عصر الاختلاط الذي كان بين الأندلسيين والفرنسيين في عهدى الحرب والسلام، فدل على تأثر الأدب الفرنسي بالأدب العربي، والفضل في ذلك لزرباب وأمثاله.

وبما مكن عبد الرحمن لزرباب في المنزلة، تمكن سلطان زرباب في الحاشية والباط والأمراء والأشراف، ولكن لباقه الرجل وحسن تفكيره جعله يكتفي بهذا النفوذ الأدبي، ولا يحاول أن ينورط به في مجال التعصب السياسي والمنازعات.

وإذا قدر للأندلس أن يكتب تاريخها الفني والاجتماعي، فلا شك أن انصر صفحة في ذلك التاريخ الجيد وأعججها تكون صفحة أبي الحسن علي بن نافع المغني الملقب بزريراب. فهو رجل استطاع وحده أن ينقل أمة بأسرها من حال البداوة إلى حال الحضارة، وذلك بشيئين التين : تحبيب الموسيقى إليها وتنظيم حياتها اليومية.

ولقد قطع المسلمين الأندلسيون في العقد الأخير من القرن الأول الهجري، وانتشرت القبائل العربية والبربرية في بساتنها وحروتها، ولكنهم ظلوا حتى أواخر القرن الثاني بذلة جفافة، كلما اجتمعوا كلّتهم لم يلبثوا أن تفرق بينهم الإحن والعداوات المتبعثة عن العصبية القبلية، فكان لهم لا يزالون ضاربين في هضاب نجد وسهول هامة ومقابر إفريقية. ثم أخذت شعوبهم السياسية تستقر وتتسق بفضل مجاهود المتقدمين من أمراء الدولة الأموية الأندلسية : عبد الرحمن الداخل، وهشام، والحكم، وبعد الرحمن الأوسط. أما الأحوال الاجتماعية فظللت على ما كانت عليه فساداً واضطراها.

وعلى العكس من ذلك كان المشرق الإسلامي في ذلك الزمان، قد استبحر فيه العمران، وبلغت المدينة الإسلامية فيه غايتها، وتعلق فيه ذوق الدعة واليسار بأسباب الكمال من شعون الحياة بعد أن استكملوا الضروري والخارجي منها على حد تعبير ابن خلدون. وقد أسفتهم في ذلك عامل الدين وعامل التاريخ معاً، فأمام المتحدون منهم فكانوا يستندون إلى أن الدين الإسلامي دين يسر، يحب من المؤمن أن يكون هيناً ليناً مغفور الخطأ من الطرف والكياسة، غير فقط ولا غلط في القلب، ولا ناس نصبه من الدنيا. وأما المنظرفون فوجدوا في تقاليد الفرس والروم الاجتماعية ما جعلهم يؤثرون العاجلة ويخرسون على لذة الحياة الدنيا ومتاعها، وأيا كانت الطرق الموصولة إليها.

وقد تألفت من هؤلاء وهؤلاء طبقة ارستقراطية، مرهفة الأذواق،

حقيقة الطياع. ترى في الموسيقى، و مجالس الأنس والطرب، و حفلات السمر خير ما ير فهو به عن تلك الأذواق المرهفة والطياع المترفة. هذا هو السبب المباشر في تقدم صناعة الغناء في ذلك الزمان، وبلوغها الغاية على أيدي : إبراهيم المهدى، وإبراهيم الموصلى، وابنه اسحاق. وهذا هو السبب كذلك في استفاضة مجالس الأنس والطرب لذلك العهد في مدن الشرق الإسلامي وبغداد خاصة، وفي بلوغ هذه المجالس درجة من التأثر يمكن تصورها إذا عرفنا أنهم وضعوا لها آداباً كانوا يأخذون بها من يحضرها من الندماء، والجلساء، والسمار. من ذلك أن يكون الغناء قوامها، وأن يحتفل لها بلبس الثياب المصبغة الأنيقة، وأن يزين المجلس بالأزهار والرياحين، وألا يحضرها إلا من كان مهذباً، خفيف الروح، حاضر البديهة، قادرًا على قول الشعر وارتجاله، فضلاً عن تنوفه وروايته عندما ينقضي المقام ذلك.

إلى هذا المشرق اتجه أبناء بني أمية الأندلسيون، وهم أبناء خلاف دمشق ووصلاتها، يستهونون فنانين ومعلمين يهذبون ما غلظ من طياع العرب والبربر والمولدان، وينظمونها جيئاً في نسق واحد. وقد أهدى المشرق إلى المغرب غير واحد من المغنين أمثال : علوان، وزرقون، ولكن زريباً كان أعظم هؤلاء جيئاً وأبعدهم أثراً.

وقد نهض زرياب بالموسيقى الشرقيّة نهضة جديدة مطبوعة بطبعه، وذلك بما أدخله على العود من إصلاح وتحسين، وبما استن من طرق جديدة في إلقاء الغناء وتعلمه، فقد اتّخذ لنفسه وهو بالشرق عوداً جعله على الثالث من وزن العود القدم، وصنع أوتاره من حبر لم ينزل يوم سخن يكسوها رقة ورخاؤة، واتّخذ بعها ومثلثها من مصران شبل أسد « فلها في الترم والصفاء والجهارة والخدة أضعاف ما لغيرها من مصران سائر الحيوان، ولها من قوة الصير على تأثير وقع المضارب المعاورة بها ما ليس لغيرها »، فلما كان بالأندلس زاد أوتار العود الأربعية المقابلة

للطبائع الأربع وترًا خامسًا يقوم مقام النفس من الجسد، فاكتسب به عوده ألطاف معنى وأكمل فائدة كلامي المقرى. واتخذ مضراب العود من قوادم النسر بدلاً من مرصف الخشب « وذلك للطيف قشر الريشة ونقائه وخفته على الأصابع وطول سلامة الوتر على كثرة ملازمته إياه ». وأما من حيث إلقاء الغناء فقد رسم زریاب أن يبدأ في الإلقاء بالتشيد بأی نقر كان، ثم يرُق في أثره بالبساط وبختم بالحركات والإهراج. أما مذهبه في تعليم الغناء فيقول فيه المقرى : « وكان إذا تناول الإلقاء على تلميذ يعلمه أمره بالقعود على الوساد المدور المعروف بالمسورة، وأن يشد صوته إذا كان قوي الصوت. فإن كان لديه أمره أن يشد على بطنه عمامة فإن ذلك مما يقوى الصوت ولا يوجد متsuma في الجوف عند الخروج على القم، فإن كان أصوات الأضراس لا يقدر على أن يفتح فاه أو كانت عادته زم أستانه عند النطق، راضه بأن يدخل في فيه خشب عرضها ثلاثة أصابع. بيتهما في فمه ليالي حتى ينفرج فakah. وكان إذا أراد أن يختبر المطبوع الصوت المراد تعليمه من غير المطبوع أمره أن يصبح بأقوى صوته يا حجام! أو يصبح آه! ويد بها صوته، فإن سمع صوته بها صافيا نديا قوية مؤدية لا تتعريه غنة ولا حسنة ولا ضيق نفس، عرف أن سوف يتوجب وأشار بتعليمه، وإن وجده خلاف ذلك أبعده ». هذه العبارة تشير في صراحة إلى أن زریاباً أنشأ بالأندلس في أوائل القرن الثالث الهجري ما يصح أن نسميه بلغة الوقت الحاضر معهداً لتعليم الموسيقى الشرقية.

وقد اتتكر زریاب لأهل الأندلس ألواناً من الطعام استطاعوها ونسوا بعضها إليه، وعلمهم أن يشربوا من آنية الرجاج الرقيق بدلاً من آنية المعدن. وهو أول من اجتلى لهم البقلة الشهية المعروفة بالملبيون، وكانتوا لا يعرفونها من قبل. وعلمهم أن يسطروا فوق ملاحف الكحان أنطاع الأديم الذين، وأن يسطروا سفر الأديم فوق الموائد الخشبية، وذلك أنظف لها وأنق لنظرها. وعلمهم أن يلتئموا بين ما يلبسون وبين فصول السنة

الأربعة فيتدرجو من الخفيف الأبيض صيفاً إلى الثقيل الملون شتاً، ولقتهم إلى أنواع من الطيب والمعطر لم يلتبوا أن أقبلوا عليها وفضلوها على ما كانوا يتعطرون به من قبل، كما علمهم كيف يتظمون شعورهم تصفيقاً وتدويراً وإرسالاً.

وقد توفي زرياب في إمارة الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط (٢٣٨ — ٢٧٣ هـ) وكما رزق زرياب الحظوة عند أهل الأندلس في حياته، فقد رزقها ذكراه عندهم بعد مماته. ذلك بأن منهبه في الغناء وما رسمه لهم من أسلوب المعيشة ظل باقياً متوارثًا فيهم حتى آخر أيامهم. فلما انتهى أمر الأندلس وخرج من تبقى من أهلها إلى بلدان إفريقيا الشمالية انتقل إليها بانتقامهم مقدار غير قليل من صناعة زرياب وأدابه. يقول ابن خلدون عند ذكره زرياباً : « فأورث بالأندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه إلى أزمان الطوائف، وطما منها يأشبليه بحر زاخر، وتناقل منها بعد ذهاب غضارتها إلى بلاد العدوة بأفريقيا والمغرب، وانقسم على أمصارها، وبها الآن منها صباية على تراجع عمرائها وتناقص دوالها »، ويقول المقري « وكان زرياب قد جمع إلى خصاله هذه الاشتراك في كثير من ضروب الظرف وفنون الآداب ولطف العاشرة، وحوى من آداب الجالسة طيب الحادة ومهارة الخدمة الملكية ما لم يجد له أحد من أهل صناعته، حتى اتخذه ملوك أهل الأندلس وخواصهم قدوة فيما سنه لهم من آدابه واستحسنه من أطعمته، فصار إلى آخر أيام أهل الأندلس منسوحاً إليه معلوماً به ». *

كان أهل رومية القديمة على عهد نيرون يلقبون سرياً من سرائهم اسمه بطرونيوس برب الظرف وسلامة الذوق، لأنه كان عندهم مضربي المثل في ذلك، أما أهل الأندلس فقد وصفوا زرياباً بأنه « معلم الناس المرءة ». *

يقول^(١) محدث : قصدت منزل ابن بكار الروائي في أشبوة^(٢) ونقرت الباب، فنادى من هذا؟ فقلت : رجل من يتوسل لرؤياك بقرابة، فقال : لا قرابة إلا بالتفى؛ فإن كنت من أهله فادخل، وإنما فتح عنى. فقلت : أرجو في الاجتماع بك والاقتباس منك أن تكون من أهل التفى، فقال : ادخل؛ فدخلت عليه؛ فإذا به في مصلاه، وسبحة أمامه، وهو يمد حوبها ويسبح؛ فقال لي : أهلهني حتى أتم وظيفتي من هذا التسبيح، ثم أقضى حرك؛ فلقدت إلى أن فرغ. فلما قضى شغله عطف على، وقال : ما القرابة التي بيني وبينك؟ فانتسبت له فعرف أبي، وترحم عليه، وقال لي : لقد كان نعم الرجل وكان لديه أدب ومعرفة؛ فهل لديك أنت مما كان لديه شيء؟ فقلت له : إنه كان يأخذني بالقراءة وتعلم الأدب، وقد تعلقت من ذلك بما أنتبه، فقال لي : هل تنظم شيئاً؟ قلت : نعم! وقد أجناني الدهر إلى أن أرتق به. فقال : يا ولدي إنه بشسا يرتق به، ونعم ما يتعلّم به إذا كان على غير هذا الوجه! ولكن تحل المية عند الضرورة! فأنشدني — أصلحك الله — مما على ذكرك من شعرك.

فطلبت بخاطري شيئاً أقابل به مما يوافق حاله، فما وقع لي إلا فيما لا يوافقه من مجنون ووصف حمر وما أشبه ذلك. فأظرقت قليلاً؛ فقال : لملكت تنظم! قلت لا! ولكنني أذكر فيما أقابلتك به؛ فقولي أكثره فيما حملني عليه الصبا والسخف، وهو غير لائق بمجلسك.

قال : أنشدني ما وقع لك غير متكلف، فلم يدنبي خاطري إلا بـ

(١) نفح الطيب ١١٢ : ٢

(٢) أشبوة : بلد بالأندلس.

أجعن^(١) فيه، فقال : أما كان في نظمك أطهر من هذا؟ فقلت له : ما وفقت لغيره. فقال : لا بأمس عليك، فأنشدني غيره، ففكترت إلى أن أنشدته قوله :

ولما وقفت على ريعهم
وأرسل دمعي شرار الدموع
لصار تأجج في الأضلع
قام عذولي لما رأى بكائي وقفأً على الأدمع
قلت له : هذه سنة لم حفظ العهد في الأربع^(٢)

فرأيت الشيب قد اخطلط، وجعل يحيى ويدهب، ثم أفاق، وقال : أعد بمحك آبائك الكرام. فأعادت فأعاد ما كان فيه، وجعل يردد، فقلت له : لو علمت أن هذا يحركك ما أنشدتك إيه. فقال : وهل حرك مني إلا خيراً وعظة. يا بني إن هذه القلوب المخللة لله كالأوراق التي جفت، وهي مستعدة لحبوب الرياح، فإن هب عليها أقل ريح لعب بها كيف شاء، وصادف منها طوعه.

فأعجبني مترنحه، وتأنسه به، ولم أر عنده ما يعتاد من هؤلاء المتدلين من الانكماش؛ بل ما زال يحدثني بأعيار فيها هزل، ويدرك لي من تاريخ بني أمية وملوكها ما أرتاح له، ولا أعلم أكبره. فلما كثر تأنس به أهويت إلى يده كي أقبلها، فضمها بسرعة، وقال : ما شأنك؟ فقلت : أرغب في أن تنشدني شيئاً من نظمك! فقال : أما نظمي زمان الصبا فكان له وقت ذهب، ويجب للنظم أن يذهب معه، وأما نظمي في هذا الوقت فهو فيما أنا بسيله؛ وهو يقل عليك، فقلت له : إن أنصف سيدني أنشدني من نظم صباحه، ومن نظم شيخوخته فيأخذ كلانا بمحظه،

(١) راجع هذا الشعر في ص ١١٢ : ٢ من نفح الطيب.

(٢) الأربع : الأرض ذات الحزوة تشاكل الرمل.

(٣) الأربع : جمع ربع، الدار يعنيها.

فضحك، وقال : ما أعصيك وأنت ضيف، ولك حرمة أدب، ووسيلة
قصد، ثم أنشدني وقد بدا عليه الخشوع وختنه العبرة :

ثق بالذى سواك من عدم فإليك من عدم
وانظر لنفسك قبل قرء السن من فرط التدم
واحدر — وقت — من الورى
قد كنت في تيه إلى
أن لاح لي أهدي علم
فاقتلت نحو ضيائـه حتى خرجت من الظلم
لكن قناديل الموى في سور رشدي كالحـمـمـ^(١)

فوالله لقد أدركني ما أدركه، وغلب على خاطري بما سمعت من هذه
الأبيات، وفعلت بي من الموعظة غاية لم أجد منها التخلص إلا بعد
حين، فقال الشيخ : إن هذه يقظة يرجى معها خيرك، والله مرشدك
ومنقذك، ثم قال لي : يا بني، هذا ما نحن بسبيله الآن، فاسمع فيما
مضى، والله ولي المغفرة وأأنت :

أطل عذار على خـدـه
قطـنـوا سـلـوي عن مـذـهـبـي
وقـالـوا : غـرـابـ لـوـشـلـ التـوى
فـقـلـتـ : أـكـسـىـ الـبـدرـ بـالـغـيـبـ^(٢)
ونـادـيـتـ قـلـبـيـ : أـيـنـ السـرـ
وـبـدـرـ الدـجـىـ حلـ بـالـعـقـرـبـ^(٣)
فـقـالـ : وـلـوـ رـمـتـ عن جـهـهـ
رـحـيـلاـ عـصـيـتـ وـلـمـ أـدـهـ
فـسـمـعـتـ مـنـهـ مـاـ يـقـصـرـ عـنـ صـدـورـ الشـعـرـاءـ، وـشـهـدـتـ لـهـ بـالـتـقـدـمـ،
وـقـلـتـ لـهـ : لـمـ أـرـ أـحـسـنـ مـنـ نـظـمـكـ فـيـ جـدـ وـلـاـ هـزـلـ. ثـمـ قـلـتـ لـهـ :
أـلـرـوـيـهـ عـنـكـ؟ فـقـالـ : نـعـمـاـ مـاـ أـرـىـ فـيـ بـأـسـاـ بـعـدـ إـطـلـاعـ مـنـ يـعـلـمـ السـرـاـئـرـ
عـلـىـ مـاـ فـيـ الضـمـائـرـ، فـقـلـتـ لـهـ : فـإـنـ أـسـبـعـتـ عـلـىـ النـعـمـةـ بـرـيـادةـ شـيءـ

(١) الحـمـمـ : الرـمـادـ وـالـفـحـمـ، وـكـلـ مـاـ اـحـترـقـ مـنـ النـارـ.

(٢)

الـغـيـبـ : الـظـلـمـةـ.

(٣) العـقـرـبـ : بـرـجـ فـيـ السـمـاءـ.

من هذا الفن فعلت ما تملك به فلبي آخر الدهر. فقال : يا بني، لا
ملك قلبك غير حب الله تعالى، ثم قال : ولا أجمع عليك رد قول
ومنعه، ثم أنسد :

ما كان قلي يدرى قدر حكم
وكتت أحسب أني لا أضيق به
ثم استمرت على كره مريرته^(١)
عساك أن تلافوا باللقاء رمقي

ثم قال : حسبيك ، وإن كلفتني زيادة ، فالله حسيك ، فقلت له : قد
وكللتني إلى كريم غفور ، فالله إلا ما زدتني ؟ وأكبت لأقبل رجليه ،
فضضمها وأنشدني شعراً رقيقة ملأ معنى عجائب ، ووسط أنسى ، وكنت
كل ما أنشدني ، ثم قلت له : لو لا خوف من التقليل عليك لم أزل
أستدعي منه الإنثاد حتى لا تجد ما تستدعيه . فقال : إن عدت إلى
هنا تذكرت وأنشدتك ، فما عندي مما أضيقك به غير ما سمعته وما تراه .

ثم قام وجاء من بيت آخر في داره بصحفة فيها حسام^(٢) من دقيق
وكسرى باردة ، فجعل يفت فيها ، ثم وأشار إلى أن أشرب ، فشربت ، ثم

(٣) العبرة : القوة.

(٢) الحسا : العرق.

شرب إلى أن أتينا على آخرها، ثم قال. هذا غذاء عمل نهاره، وإنه لنعمة من الله تعالى، أستديم بشكرها اتصالها. فقلت له: يا عم؛ ومن أين عيشك؟ فقال: يا بني عيشتي بتلك الشبكة أصطاد بها في سواحل البحر ما أقات به، ولي زوجة وبنت يعود من غزهما مع ذلك ما تجد به معاونة؛ وهذا مع العافية والاستغناء عن الناس غير كثير. فتركته، وفي نبتي أن أعود إلى زيارته بعد أيام خوف التحقيق، فعدت إليه بعد ثلاثة أيام، فنفرت الياب، نكلمتني المرأة بسان عليه أثر الحزن، وقالت: إن الشيخ قد خرج إلى الغزو، وذلك بعد اتفاقي معه يوم، ناله كالجنون، فقلت له: ما شأنك؟ فقال: إني أريد أن أموت شهيداً، وهولاء جيران لي قد عزموا على الغزو، وأنا ماض معهم ثم اختم في سيف ورخ، وتوجه معهم، وقال: نفسي هي التي قتلتني بஹام، أفلأ أقص منها فأقتلها؟ فقلت لها: من خلف للنظر في شأنكم؟ قالت: ليس ذلك لك! فالذى خلفه لنا لا تحتاج معه إلى غيره، فأدركتني من حوابها روعة، وعلمت أنها مثله زهداً وصلاحاً.

قلت: إني قريبه، و يجب على أن أنظر في حالكم بعده! قالت: يا هنا إنك لست بذى محمر، ولنا من العجائز من ينظر لنا، ويبيع غزلنا، ويتفقد أحوالنا؛ فجزاك الله عنا خيراً. انصرف عنا مشكوراً! قلت لها: هذه دراهم خلدوها؛ لستعinya بها. قالت: ما اعتدنا أن نأخذ من غير الله، وما كان لنا أن نخل بالعادة. فانصرفت نادماً على ما فاتني من الاستكثار من شعر الشيخ. ثم عدت بعد ذلك لداره ساللا عنه، فقلت لي المرأة: إنه قد قيله الله تعالى . فعلمت أنه قتل؛ فقلت لها: أفل؟ فقرأت: ﴿وَلَا تحسِنَ الَّذِينَ قُطِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاهُ اللَّهُ عَذَابُهُمْ يَرَزِقُونَ﴾.

فانصرفت معتبراً من حاله!

— ٣ —

قصد^(١) المنصور بن أبي عامر رجل جوهرى من تجار المشرق من مدينة عدن بجواهر كثيرة وأحجار نفيسة، فأخذ المنصور من ذلك ما استحسن، ودفع إلى التاجر الجوهرى صرته — وكانت قطعة يمانية — فأخذ التاجر في انصرافه طريق الرملة على شط النهر، فلما توسطها واليوم قالقط، وعرقة منصب، دعنه نفسه إلى التبرد في النهر، فوضع ثيابه وتلك الصرة على الشط، فعمت حادة فاختطفت الصرة، تحبسها لحما، وطارت في الأفق ذاهبة بها.

فقامت قيمة التاجر، وعلم أنه لا يقدر أن يستدعي ذلك بحيلة، فأسر الحزن في نفسه، ولحقه لأجل ذلك علة اضطراب فيها، واستبان للمنصور ما بالرجل من المهانة والكآبة، وقد ما كان عنده من النشاط وشدة العارضة فسأله المنصور عن شأنه فأعلمه بقصته، فقال له : هلا أتيت إلينا حين وقوع الأمر فكنا نستظير على ذلك بالحيلة ! فهل هيئت إلى الناحية التي أخذ الطائر إليها ! فقال : من شرقاً على سمت هذا الجبل الذي يلي قصرك — يعني الرملة.

فدعى المنصور شرطيه الخاص به؛ فقال : جئني بمشيخة أهل الرملة الساعة، فمضى وجاء بهم سريعاً، فأمرهم بالبحث عن غير حال الإقلال منهم سريعاً، وانتقل عن الإضافة دون تدريج؛ فانتظروا في ذلك، ثم قالوا : يا مولانا، ما نعلم إلا رجلاً من ضعفائنا كان يعمل هو وأولاده بأيديهم، ويتناولون السبق بأقدامهم؛ عجزاً عن شراء دابة؛ فابتاع اليوم دابة، واكتسي هو وولده كسوة متوسطة.

فأمر بإحضاره من الغد، وأمر التاجر بالغدو إلى الباب، فحضر الرجل بين يدي المنصور فاستدناه، والتاجر حاضر، وقال له : سبب ضاع هنا

(١) نفح الطيب ١٩٢ : ١.

وسقط إليك، ما فعلت به؟ قال : ها هؤلا يا مولاي، وضرب بيده إلـى حجزة^(١) سراويله، فأخذ الصرة بعينها، فصاح الناجر طرباً وكاد يطير فرحاً.

فقال له المنصور : صف لي حديثها. فقال : بينما أنا أعمل تحت خالة إذ سقطت أمامي فأخذتها، ورأقني منظرها؛ فقلت إن الطائر اخليتها من قصرك لقرب الجوار، فاجتررت بها، ودعنتي فاقتي إلى أحد عشرة مثاقيل كانت معها مصورة، وقلت : أقل ما يكون في كرم مولاي أن يسمح لي بها.

فأعجب المنصور ما كان منه، وقال للناجر : خذ صرتلك، وانظرها، واصدقني عن عددها، ففعل وقال : وحقك يا مولاي، ما ضاع منها شيء سوى الدنانير التي ذكرها وقد وهبها له. فقال له المنصور : غلن أولى بذلك منك، ولا تنقص عليك فرحةك؛ ثم أمر للناجر بعشرة دنانير عوضاً عن دنانيره، وللرجل بعشرة دنانير ثواباً له، وقال لو بدأنا بالاعتراض قبل البحث لأوسعناه جراء. فأخذ الناجر في الثناء على المنصور، وقد عاود نشاطه. وقال : لأيشن في الأقطار عظم ملوكك، ولأين أنت تملك الطير، فلا تعصم منك، ولا تؤذني جارك.

فضحك المنصور، وقال : أقصد في قوله بغير الله لك! فعجب الناس من تلطيف المنصور في أمره، وحيلته في تفريح كربته!

(١) الحجزة من السراويل : موضع النكبة.

— ٤ —

كان^(١) أبو بكر بن المدخل وأبو بكر الملاح متآخجين متصافين، وكان
هما ابنان صغيران قد برعا في الطلب، وحازا قصب السبق في حلبة
الأدب، فتهاجي الإبنان بأقدع الهجاء، فركب ابن المدخل في سحر من
الأسحار مع ابنه عبد الله، فجعل يتعجب عليه على هجاءبني الملاح،
ويقول له : قد قطعت ما بيني وبين صديقي وصفني أبي بكر في إنداعك
بابنه! فقال له ابنه : إنه يداني والبادي أظلم، وإنما يجب أن يلحن^(٢)
من بالشر تقدم، فعلزه أبوه! فيما هما على ذلك إذ أقبلوا على واد تنق
فيه الضفادع، فقال أبو بكر لابنه أجز :

تنق ضفادي الوادي

قال ابنه : بصوت غير معناد

قال الشيخ :

كأن نقيق مقوها

قال ابنه : بنو الملاح في الوادي

فلما أحسست الضفادع بهما صمت، فقال أبو بكر :

وتضمنت مثل حمتهم

قال ابنه : إذا اجتمعوا على زاد

قال الشيخ : فلا غوث للهوف

قال الابن : ولا غيث لمرتاد!

(١) نفح الطيب ص ٣٠١ ج ٢.

(٢) يلحن : يلام ويعناد.

ورد^(١) ابن جاخ الشاعر على المعتصد بن عباد، فدخل الدار
الخصوصة بالشعراء فسألوه، فقال : إني شاعر! فقالوا : أنشدنا من شعرك
فأنشدهم شعراً ضحكوا منه واذروه. فقال بعض عقلائهم : دعوه،
فإن هذا شاعر، وما يبعد أن يدخل مع الشعراء، ويندرج في سلكهم،
فلم يبالوا كلام الرجل، ففي معهم، وكان لهم في تلك الدولة يوم
خصوص، لا يدخل فيه على الملك غيرهم، فقال بعضهم لبعض : هذه
شمعة^(٢) بنا أن يكون مثل هذا البادي يقدم علينا، ويختبر على الدخول
معنا. فاتفقوا على أن يكون هو أول متكلم في اليوم الخصوص بهم
عند جلوس السلطان، وقدروا أن يقول مثل هذا الشعر المضحك فيطرده
عنه، ويكون ذلك حسماً لعلة إقادام مثله عليهم.

فلما كان اليوم المذكور، وقعد السلطان في مجلسه، وتصل الكرمي
لهم، رغبوا منه أن يكون هذا القادر أول متكلم في ذلك اليوم، فأمر
بهذا، فقصد الكرمي، وانتظروا أن ينشد مثل ذلك الشعر المضحك،
قال :

قطعت يا يوم النوى أكبادي
وتركتني أرعى التجوم مهدا
والنار تضرم في صمي فؤادي
فكأنما آتى الظلام أية
لا يتجلل إلا إلى ميعاد
ولرب خرق^(٣) قد قطعت نياته
والليل يرفل في ثياب حداد
بشملة^(٤) حرف^(٥) كأن زميلها
والنجم يخدوها وقد ناديتها
يا ناقبي عوجسي على عباد

(١) نسخ الطب ص ٤٥٨ ج ٢.
(٤) النسلة : السريعة.
(٢) الشعاعة : القطاعة، والاسم الشمعة.
(٥) الحرف : الناقة الضامرة.
(٣) الخرق : الفقر والأرض الواسعة.
(٦) سرح الرياح : إرسالها.

ملك إذا ما أضرمت نار الوعي
 فتري الحسوم بلا رعوس تتشى
 يأيها الملك المؤمل والذي
 قدما سما شرفا على الأنداد
 إن القربيض لكاسد في ارضنا
 فجلبت من شعرى إليك قوافياً
 يفهى الزمان وذكرها مهادي
 من شاعر لم يضطلع أدباً ولا
 خطت يداه صحفة بمداد
 فقال له الملك : أنت ابن جاخ؟ فقال : نعم! فقال : اجلس، فقد
 وليتك رياست الشعراء، وأحسن إليه، ولم يأذن في الكلام في ذلك اليوم
 لأحد بعده!.

— ٦ —

قال^(١) المنصور بن أبي عامر يوماً لأبي عمر يوسف الرمادي : كيف
 ترى حالي معن؟ فقال : فوق قدرى ودون قدرك؛ فأطرق المنصور
 كالغضبان، فانسل الرمادي، وخرج وقد ندم على ما يدر منه، وجعل
 يقول : أخطأت، لا والله ما يفلح مع الملوك من يعاملهم بالحق! ما
 كان ضرني لو قلت له : إني بلغت السماء، وتمطقت بالجوزاء! وأنشد :
 من يأت هذا الموت لا يلف حاجة لنفس إلا قد قضيت قضاءها

ولما خرج كان في المجلس من يحسنه على مكانه من المنصور، فوجد
 فرصة، فقال : وصل الله لولانا الظفر والسعادة! إن هذا الصنف صنف
 زور وهذيان، لا يشكرون نعمة، ولا يرعون الإل^(٢) ولا ذمة، كلاب
 من غالب، وأصحاب من أخصب، وأعداء من أجدب، وحسبك منهم

(١) اللقي : ما طرح.

(٢) نفع الطب ص ٢٢٦ ج ٢.

(٣) الإل : المعهد.

أن الله جل جلاله يقول فيهم: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَعَمَّلُونَ، أَلَمْ ترَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهْمُونَ، وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾، والاتباع منهن أولى من الاقتراب، وقد قيل فيهم: ما ظلمك بقوم الصدق يستحسن إلا منهم.

رفع المنصور رأسه — وكان عاصي أهل الأدب والشعر — وقد اسود وجهه، وظهر فيه الغضب المفرط، ثم قال: ما بال أقوام يশرون في شيء لم يستشاروا فيه، ويسيرون الأدب بالحكم فيما يدرؤون، أليسوا ألم يخطئ؟ وأنت — أيها المنبيت للشر دون أن يبعث — قد علمتنا غرضك في أهل الأدب والشعر عامة، وحسدك لهم؛ لأن الناس كما قال القائل:

من رأى الناس له فض سلا عليهم حسدوه

وعرفنا غرضك في هذا الرجل خاصة، وليسنا — إن شاء الله — نبلغ أحداً غرضه في أحد؛ وإنك ضربت في حديد بارد، وأخطأت وجه الصواب، فرددت بذلك احتقاراً وصغاراً، وإن ما أطرقت من كلام الرمادي إنكاراً عليه، بل رأيت كلاماً يخل عن الأقدار الجليلة، وتعجست من تهديه له بسرعة، والله لو حكمته في بيوت الأموال لرأيت أنها لا ترجع ما تكلم به قدر ذرة، وإياكم أن يعود أحد منكم إلى الكلام في شخص قبل أن يؤخذ معه فيه، ولا تحكموا علينا في أوليائنا ولو أبصراً مما التغير عليهم؛ فإننا لا تتغير عليهم؛ بغضنا عنهم، بل تأدباً وإنكاراً، فإننا من تزيد إبعاده لم نظير له التغير، بل ننبذه مرة واحدة، والتغير إنما يكون لن يراد استيقاؤه. ولو كنت مثال السمع لكل أحد منكم في صاحبه لنفرقتم أيدي سباً، وجوبت أنا مجانية الأجر، وإنى قد أطلعتكم على ما في ضميري، فلا تدلوا عن مرضاتي.

ثم أمر أن يرد الرمادي. وقال له: أعد على كلامك، فارتاع، فقال:

(٢) التأنيس خلاف الإيجاش.

الأمر على خلاف ما قدرت، الثواب أول بكلامك من العقاب، فسكن
لتأسيه، وأعاد ما تكلم به، فقال المنصور : بلغنا أن النعمان بن المنذر
حشا قم النابعة بالدر، افعلوا به ذلك.

— ٧ —

ومن الجواري في الأندلس فضل المغنية، وكانت حاذقة بالغناء كاملة
الخصال وأصلها لأحدى بنات هارون الرشيد ونشأت وتعلمت ببغداد،
ودرجمت من هناك إلى المدينة المنورة، على ساكنها أفضل الصلة والسلام،
فانضمنت ورقت طبقتها في الغناء، واشتركت من هناك لعبد الرحمن أمير
الأندلس مع جارية أخرى مدينة اسمها علم، وصواحب غيرهن.

ومنهن جارية اسمها قلم، وكانت أندلسية الأصل من سبي البشكنس
حملت صبية إلى المشرق فوقعت بالمدينة حتى اشتريت لعبد الرحمن، وكانت
أدبية ذاكرة حسنة الخط راوية للشعر حافظة للأخبار عالمية بضرورب
الآداب.

ومنهم جارية تسمى العجفاء؛ قال في نفع الطيب : قال الأرقمي :
قال لي أبو السائب — وكان من أهل الفضل والسلك : هل لك في
احسن الناس غناء؟ فجئنا إلى دار مسلم بن عيسى مولىبني زهرة فاذن
لنا، فدخلنا بيته عرضه أنا عشر ذراعاً في مثلاها، وطوله في السماء ستة
عشر ذراعاً، وفي البيت نحرقان قد ذهب عنهما اللحمة وبقي السدى
وقد حشيتا بالليل، وكرسيان قد تفككا من قدمهما ثم اطلعت علينا
عجفاء كلقاء عليها هروي أصفر غسيل وكان وركبها في خيط من
وسخها قلت لأبي السائب : يأبي أنت من هذه؟ فقال : اسكت،
فتناولت عوداً فغنت :

بيد الذي شغف الفؤاد بكم
تفرج ما ألقى من المم
فاستيقني أن قد كلفت بكم
ثم أفلط ما شئت عن علم

قد كان صرم في الممات لنا
فعجلت قبل الموت بالصرم

قال : فحست في عيني وبدا ما أذهب الكلف عنها، وزحف أبو
السائب وزحفت معه، ثم تفتت :

برح المخاء فاي ما يك تكم
ولسوف يظهر ما تسر فيعلم
كم ما تضمن من عزيز نيله
يا قلب إلث بالحسان لغم

يا ليت أنك يا حبيب يا رضنا
تلقي العراسى طالعاً وتخيم

فخدوق لذة عيشنا ونعيمه

ونكون إخواناً فماذا نقم ؟

قال : فزحفت مع أبي السائب حتى فارقنا المقربين وربت العجفاء
في عيني كما يربو السوق بماء مزنة، ثم غنت :

يا طول ليلي أعالج السقما إذ حل كل الأجهة الخرما
ما كنت أخشى فراقكم أبداً فالليوم أمسى فراقكم ضرما

فألقيت طليساني وأخذت (شادكونة) فوضعتها على رأسي وصحت
كما يصاح على اللوبيا بالمدينه، وقام أبو السائب فتناول ربيعة في البيت
فيها قوارير ودهن فوضعها على رأسه، وصاح صاحب الجارية وكان ألغى :
قوانيسي، يعني قواريري، فاصطركت القوارير وتكسرت وصال الدهن على
رأس أبي السائب وصدره وقال للعجفاء : لقد هجت لي داء قدماً ثم
وضع الريعة، وكنا مختلف إليها حتى بعث عبد الرحمن بن معاوية فابتعت
له العجفاء، وحملت إليه.

ومن الجواري في الأندلس طروب وهي جارية من نافارا (نبرة)
ولمع بها عبد الرحمن حتى لقبت السلطانة طروب، وتدخلت في شئون

الإمارة بما هيأ لها عبد الرحمن على نفسه من الهيمنة، حتى لقد كان لا يطيق الصبر على فراقها ولا على هجرها. غاضبته مرة فقدت عنده ولزمه مقصوريتها فضاق ذرعاً بهجرها، فجهد يترضاها وهي تجهده عناء وترهقه عتناً، فأرسل بعض خصيانه الخواص يستكرهونها على أخيه إليه، فأغلقت عليها الباب وأقسمت ألا تذهب ولو اقضى الأمر قتلها، فأوحى عبد الرحمن إليهم أن يحملوا بدر المال فيجعلوها من وراء الباب سداً، ثم أقبل يستعطفها ويبكي لها هذه الدر، فرفقت له وعطفت عليه.

— ٨ —

قال أبو الطاهر^(١) إسماعيل بن أحمد التحيي: كنت بمدينة مالقة^(٢) من بلاد الأندلس سنة ست وأربعين، فاعتلت بها مدة انقطعت فيها عن التصرف، ولزمت المنزل، وكان يمرضني^(٣) حينئذ رفican كانوا معى، يلمان من شعبي ويرفقان بي.

وكتب إذا جنني الليل اشتد سهرى، وخافت حولي أوتار العيدان والطناير والمعازف من كل ناحية، واحتللت الأصوات بالغناء، فكان ذلك شديداً علي، وزائداً في قلقى وتألمى، فكانت نفسى تعاف تلك الضروب طبعاً، وتكره تلك الأصوات جلة، وأود لو أجد مسكنًا لا أسمع فيه شيئاً من ذلك، ويتعذر على وجوده لغبة ذلك الشأن على أهل تلك الناحية وكفرته عندهم.

وإني لساهر ليلة بعد إغفاءة في أول ليلتي، وقد سكت تلك الألقاظ

(١) شرح المختار من شعر بشار ص ١٤.

(٢) مدينة بالأندلس كانت تقرأ حضيناً على بحر الروم، أنسها الفيتقون، وكان لها شهرة أيام الرومان والقرطاجيين، وكان بها بنو حمود من ملوك الطوائف.

(٣) مرضه: قام عليه في مرضه.

المكروهة، وهدأت تلك الضرب المضطربة، وإذا بضرب حفي معتدل
حسن لا أسمع غيره، فكان نفسي أنسى به، وسكتت إليه، ولم تفر
منه نفارها من غيره، ولم أسمع معه صوتاً، وجعل الضرب يرتفع شيئاً
فشيئاً ونفسي تتبعه، وسعي يصفعه إلى أن بلغ في الارتفاع إلى
ما لا نهاية وراءه، فارتحت له، ونسى الألم، وتداخلي سرور وطرب،
وخيلى إلى أن أرض المزبل ارتفعت في، وأن حيطانه تمور^(١) حولي، وأنا
في كل ذلك لا أسمع صوتاً.

قللت في نفسي : أما هذا الضرب فلا زيادة عليه؛ فللت شعرى
كيف صوب الضارب ؟ وأين يقع من ضربه ؟ ولم ألبث أن اندرعت
جاربة تغنى في هذا الشعر بصوت أندى من النوار، غب القطار^(٢)،
وأحلل من البارد العذب، على كبد الهمم الصب، فلم أملك نفسي أن
قمت ورفقاي نائمان، ففتحت الباب، وتعت الصوت، وكان قريباً مني،
فاطلعت من وسط متزلي على دار فسحة، وفي وسط الدار بستان كبير،
وفي وسط البستان شرب^(٣) نحو عشرين رجالاً، قد اصطفوا وبين أيديهم
شراب وفاكهه، وجوار قيام بعيدان وطنابير وآلات طو، ومزامير لا يحركها،
وجارية جالسة ناحية، وعودها في حجرها، كل يرمقها ببصره، ويوعها
سمعه وهي تغنى وتضرب، وأنا قائم بحث أراهم ولا يرونني، وكلما
غنت بينما حفظته إلى أن غنت عدة أبيات وقطعت، فعدت إلى موضعى،
يشهد الله وكأنما انشطت^(٤) من عقال، وكأن لم يكن في ألم، وقد
وعيت الأبيات وهي :

ما بال أنجم هذا الليل أضلت القصد؟ أم ليست على ذلك

(١) تمور : تحرك وتدفعه وتنجي.

(٢) القطار : جمع قطر.

(٣) جمع شراب.

(٤) انشط من عقال : حل.

كأنما جشت صرعى يمترك
 عادت سواريه^(١) وفقاً لا حراك بها
 هل من بشير بنور الصبح، تقدنى
 بشراه من طول وجدى غير متراك
 فقد أجد النواء الليل لي شجناً
 وأضجعنتي تاريخي^(٢) على الحشك^(٣)
 خذ يا شمول^(٤) كوس الراح متربة
 فسقينها ولا تسأل عن الدرك
 وهيج بالحانك الطنبور إن له
 على شجون المعنى سطوة الملك
 ثم انصرفت في صباح تلك الليلة، فلقيت صديقاً لي من أهل العلم
 قرطبياً سكن مالقة، فأخبرته الخبر، وأنشده الشعر، ووصفت له الدار،
 فاغرورقت عيناه وقال : الدار للوزير فلان، والخارية فلانة البغدادية إحدى
 الحسانات من جواري المنصور بن أبي عامر، وصارت إلى ابن الوزير
 بعد موت المنصور وغرق ملوكه ! .

(١) جمع سار.

(٢) تاريخ الشوق : توهجه، والتاريخ الشدائ.

(٣) الحشك : نبات ورقة كورق الرجلة وأدق وعده ورقه شوك صلب ذو ثلاث ثعب.

(٤) شمول : اسم غلام صقلي من صقالة المنصور.

صور أندلسية

— ١ —

معركة تور في فرنسا

امتدت فتوحات عرب الأندلس شمالاً إلى فرنسا، ووطئ عبد الرحمن الغافقي أرضاها عام ١١٤ هـ - ٧٣٢ م؛ وتقدم إلى وادي اللوار حتى مدينة تور، وبين بوابته وتور دارت المعركة بين الغافقي وشارل مارتل؛ وكان جيش الغافقي نحو ٨٠ ألفاً، وجيشه مارتل كان فيه герمانيون، ولا سيما السيلوتون، وبدأت المعركة يوم الجمعة ٧ شعبان سنة ١١٤ هـ - ٢ أكتوبر سنة ٧٣٢ م، وبعدها يوم قتل الغافقي في الميدان، وقتل كثير من الجيش الإسلامي أو أكثر من نصفه، وانسحب الباقيون من فرنسا إلى ما وراء جبال بيرن، فانفرد شارل مارتل ثم ابنه ثم حفيده شارلمان بالحكم في فرنسا، وهم ملوك الدولة المارونجية الشهيرة، وتأسست على أنقاض معركة تور الإمبراطورية الرومانية الغربية، وتوج البابا شارلمان إمبراطوراً على فرنسا وألمانيا وإيطاليا سنة ٨٠٠ م - ١٨٤ هـ في عهد الرشيد، وبهذا بدأ التمدن المسيحي.

يقول جبون المؤرخ الإنجليزي في نتائج هذه المعركة : « لو لم يصد الم horm لكان العرب تدرس في جامعات إنجلترا وألمانيا ».

ويقول مسيو كلود فارير^(١) : « في سنة ٧٣٢ م - ١١٤ هـ حدثت فاجعة ربما كانت من أشأم الفجائع التي انقضت على الإنسانية في القرون الوسطى، وكان منها أن غمرت العالم الغربي - مدة سبعة قرون أو ثمانية إن لم نقل أكثر - طبقة عميقة من التوحش لم تبدأ بالتبدد إلا على عهد النهضة؛ هذه الفاجعة هي التي أريد أن أكره حتى ذكرها، هي الانتصار البغيض الذي ناله على مقرة من بلدة يواتيه - قريباً من بلدة تور في مقاطعة غيانا - أولئك البربراء المغاربة من الإفرنج بقيادة الكارولنجي شارل مارتل على كتائب العرب المسلمين بقيادة الغافقي... ففي ذلك اليوم المشؤوم تراجعت المدينة ثمانية قرون إلى الوراء، وبكلفه المرء أن يطوف في حدائق الأندلس أو بين الآثار العربية في إشبيلية وغرناطة وقرطبة وطليطلة ليشاهد - والألم الغريب أخذ منه - ما عساها أن تكون بلادنا الفرنسية لو أتقنها الإسلام العماني الفلسفي الإسلامي المتسع - لأن الإسلام مجموعة كل هذا - فخلصها من الأهاويل التي لا أسماء لها، وكان من ذلك أن تنج خراب غاليا القديمة، في حين كان العالم الإسلامي، من نهر الراودي الكبير في أوروبا إلى نهر السند في قلب آسيا، يزدهر كل الازدهار في ظل الإسلام... وفي هذه المعركة

يقول شيل ملاط الشاعر اللبناني :

من للزمان يمثل فضل محمد
وعدلة كمدالة الخطاب
رفع الرسول عmad أمة يعرب
وأعزها بالآل والأصحاب
غشت الفتوح وصفقت راياتها
في الشرق فوق أباطع وهضاب
وتغلبت في الغرب طائرة على
أكاف صقر جارح وعقاب
لولا تجلد «شارل مارتل» حيت
ولكان صار الغرب أندلساً به
شوقى يقول سواحراً وسواسى

(١) مدرس بمدرسة اللغات الشرقية في باريس.

- ٤ -

رسالة قصيرة :

أرسل العزيز الفاطمي ابن المعر حاكم مصر (٢٦٥ - ٣٨٦ هـ) في أول ولادته رسالة إلى الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر رسالة يسمى فيها ويوجهه؛ فاكتفى الحكم بأن كتب إلى العزيز هذه الكلمات « عرفتنا فهجوتنا، ولو عرفناك لأجبناك ».

وبعد ذلك أرسل صلاح الدين الأيوبي عام ٥٨٨ هـ إلى يعقوب ابن يوسف بن عبد المؤمن حاكم المغرب والأندلس وملك الموحدين بالغرب يستنجد به على الصليبيين فرفض أن يعيره لأنه لم يلقه بأمر المسلمين.

- ٥ -

أبو جعفر الحميري :

قال المراكشي في كتابه « المعجب »^(١) :

أخبرني شيخي وأستاذي أبو جعفر أحد بن محمد بن عبي الحميري رحمه الله أيام قرأتني عليه بقرطبة سنة ٦٠٦ هـ، وذلك أنا بلغنا عليه في الحمسة إلى مقطوعة ابن زياد التميمي التي أولاها :
بما لطف زياد للحرث الـ صائح فالغمام فالآث

فلما أنتهينا منها إلى قوله :

والله لو لاقته خالياً لا آب سيفانا مع الغالب

قال لنا : أحدثكم بأعجب ما اتفق لي في هذا البيت، وذلك أن

(١) ص ١٧١.

أمير المؤمنين أبا يوسف رحمة الله لما فصل عن قرطبة متوجهاً إلى لقاء الأدفنش لعنه الله، قال لي ولدي عصام بعد انفصاله بليلة أو ليلتين : يا أبتي رأيت البارحة أمير المؤمنين داخلاً قرطبة وقد رجع من السفر وهو متقلد بسيفين فقلت يا بني : لئن صدقت رؤياك هذه ليهربن الأدفنش لعنه الله، وخطر لي هذا البيت :

والله لو لاقته حالياً لا آب سيفانا مع الغالب

قصدت الرؤيا والتعبير؛ وكان أبو جعفر آخر من انتهى إليه علم الآداب بالأندلس، لزمه نحواً من سنتين فما رأيت أروي لشعر قديم ولا حديث، ولا ذكر بمحاكية تتعلق بأدب أو مثل سائر أو بيت نادر أو سجعة مستحسنة منه، أدرك جلة من مشائخ الأندلس فأأخذ عنهم علم الحديث والقرآن والأداب، وأعانه على ذلك طول عمره وصدق عبشه وإفراط شفقة بالعلم، قال لي ولده عصام وقد رأيت عنده نسخة من شعر أبي الطيب قرأت على أو أكثرها فألفيتها شديدة الصحة فقلت له : لقد كتبتها من أصل صحيح وتحيزت في نقلها، فقال لي : ما يمكن أن يكون في الدنيا أصل أصح من الأصل الذي كتبت منه، فقلت له أين وجدته ؟ قال هو موجود الآن بين أيدينا وعندينا، وكما في المسجد في زاوية قلت له أين هو ؟ فقال لي عن يمينك، فلعلمت أنه يريد الشيخ فقلت ما على يميني إلا الأستاذ فقال لي هو أصل وباملاه كتبته، كان يعل على من حفظه، فجعلت أتعجب فسمع الأستاذ حديثنا فالتفت إلينا وقال فيه أنتما ؟ فأخبره ولده اخرين، فلما رأى تعجي قال : يعید «أن تفلحوا يعجب أحدكم من حفظ ديوان المتنبي والله لقد أدركك أقواماً لا يعلدون من حفظ كتاب سيبويه حافظاً ولا يرون مجدهداً»، وتوفي أبو جعفر هذا في شهر صفر من سنة ٦١٠ عن ست وتسعين سنة، ولم يكن في الأندلس أعلى روایة منه في كل ما يروي؛ ولم ار قبله ولا بعده مع اتساع علمه وشدة تميّزه وحسن اختياره ومعرفته بعمل

هذه الصناعة أكثر إنصافاً منه ولا أسرع رجوعاً إلى الحق، قال المراكشي :
كنت أنشد من شعري على ركابه وكثرة تكلفه وبعده من الجودة
أبياتاً لا أعدها شيئاً يحملني على إنشادها إياه فرط استدعائه ذلك مني
في Leigh بها ويشتد استحسانه لها وربما درسها فحفظها، أنسدته يوماً وقد
استدعى مني ذلك على عادته بيتن ارتجلتها في شاب كان يقرأ معنا،
كان شديد العفة مع حسن رائع وظرف ناصع كان اسمه فتحاء، ها :

يا من له عن كناس من الميت قلبه
ما أنت كاسك فتح وإنما أنت قلب

فطرب والتفت إلى ابنه وقال له : هذا والله الشعر لا ما تصدعني
به طول نهارك إن كنت تقول مثل هذا وإنما فاسكت، قلماً كان من
الغد قال لي أعلم ما صنع عصام أمس قلت لا قال كان كما قالوا
في المثل : سكت ألفاً ولم يزل أمس يعمل فكرته وبعد الجهد الشديد
أخذ معنى بيتك فسلبه روحه وأعدمه رونقه ومسخه جلة فقال :

سي فؤادي خشف فقوى اليوم ضعف
سموه فتحاً مجازاً وفي الحقيقة حشف

ما زاد أكثر من الجاز والحقيقة فقلت أنا : هذا والله أحسن من
شعري، فتغير لي وقال يا بني دع عنك هذه العادة فإن أسوأ ما يخلق
به الإنسان الملق وترى الباطل سيماء إذا أضاف إلى ذلك الخلف الكاذب،
والله إنك لتعلم أن هذا ليس بشيء وإنما قد اخْتَلْ ميزك وساء اختيارك،
وما أظن هذا هكذا، وسمعته من شدة إنصافه يستحسن بيتن هجاء
بهمَا صاحبنا على ابن خروف رحمة الله، وذلك أن الأستاذ كان يلقب
بالوزغي والفصيح فيه غرنيق، فكان بعض الطلبة يتهمون الأستاذ بالليل
إلى ذلك الشاب، فقال ابن خروف في ذلك :

أَحْقَى سَامُ أَبِرْصُ مَا سَعَنَا بِأَنَّكَ قَدْ تَعْشَقْتَ ابْنَ مَاء
وَكَيْفَ وَأَنْتَ فِي الْخَيْطَانِ تَمْشِي وَذَلِكَ يَطْمِرُ فِي جَوِ السَّمَاءِ
فَأَبْعَدَهُ الْأَسْتَاذُ وَأَنْهِيَ خَبْرُهُ إِلَى الْقَاضِي أَبْنِ الْوَلِيدِ بْنِ رَشْدٍ فَأَوْجَعَهُ
ضَرِبًاً وَامْتَنَعَ الْأَسْتَاذُ مِنْ قِرَاءَتِهِ عَلَيْهِ فَحَرَمَهُ اللَّهُ بَهْدِينِ الْبَيْنِ فَوَالَّذِي
عَلِمَهُ وَأَبْعَدَهُ عَنْ مَرِيعِ جَاهِهِ وَوَلَاهُ الْأَسْتَاذُ حَفْطَهُ وَأَلْقَى جَهَهُ عَلَى غَارِبِهِ،
فَلَمْ يَفْلُحْ ابْنُ خَرْوَفَ بِعَدْهَا وَلَا حَصَلَ عَلَى شَوْهِهِ مِنَ الْعِلْمِ، وَإِنَّمَا كَانَ
يَعْتَدُ فِيمَا يَأْتِي بِهِ عَلَى طَبِيعَهُ خَاصَّةً. وَتَوْفَى عَامُ ٦١٠ هـ.
وَكَانَ يَحْفَظُ دِيوَانَ الْمُتَبَّيِّ، وَيَقُولُ لِمَنْ يَتَعَجَّبُ مِنْ حَفْظِهِ: «لَقَدْ
أَدْرَكَتْ شَيْوَخًا لَا يَعْلَمُونَ مِنْ حَفْظِ كِتَابِ سَبِيلِيَّهِ حَافِظًا».

— ٤ —

المحصم بن صمادح :

لَمْ يَقْتَصِرْ يُوسُفُ بْنُ نَاثِقَيْنِ مَلِكُ الْمَرَابِطِينَ عَلَى الْاِسْتِيلَاءِ عَلَى الْأَنْدَلُسِ
عَامَ ٤٨٤ هـ وَعَلَى نَفِيِّ الْمُتَّهَدِ بْنِ عَبَادِ مِنْ إِشْبِيلِيَّةِ فِي الْعَامِ نَفَسِهِ
إِلَى الْمَغْرِبِ الْأَفْصَى حِيثُ مَاتَ مُنْفِيًّا مُشَرِّدًا فِي أَغْمَاتِ عَامِ ٤٨٧ هـ؛
بَلْ أَخْرَجَ كَذَلِكَ الْمَوْكِلَ بْنَ الْمَظْفَرِ مَلِكَ بَطْلِيُّوسَ مِنْ مَلْكِهِ وَقُتِلَ عَامَ
٤٨٥، وَكَانَ أَبُوهُ الْمَظْفَرِ — الْمَوْرِقِ — تَوْفِيَ عَامَ ٤٦٠ هـ — قَدْ مَلَكَ بَطْلِيُّوسَ
قَبْلَ أَبِيهِ الْمَوْكِلِ مَدْةً طَوِيلَةً ثُمَّ أَخْرَجَ الْمَرَابِطُونَ كَذَلِكَ الْمَحْصُمَ بْنَ صَمَادِحَ
مَلِكَ الْمَرِيَّةِ مِنْ مَلْكِهِ عَامَ ٤٨٤ هـ، وَجِئَنَا كَانَتِ الْأَنْدَلُسُ فِي أَمْرِ مَرِيعٍ،
زَالَ عَنْهَا سُلْطَانُ الْخَلَافَةِ فَاضْطُرَّبَتْ. وَقَدِنَتْ رَوَاسِيَّهَا مِنْ بَنِي أَمِيَّةَ فَمَادَتْ.
وَأَصْبَحَتْ كَرْقَعَةُ الشَّطْرَنجِ، يَتَغَالَبُ الْمَلُوكُ عَلَى كُلِّ بَيْتٍ فِيهَا، كُلِّ قَوْيٍ
يَحْوزُ مَا وَسَعَ حُولَهُ وَهَنَّهُ، وَالْعِيشُ غَلَابٌ «وَالْبَرُ أَوْسَعُ. وَالْدُّنْيَا لِنَّ
غَلِيَا». مَلِكُ مُحَمَّدٍ بْنِ أَحْمَدَ بْنِ صَمَادِحِ التَّجَيِّبِيِّ مَدِينَةً «وَشَقَّةً»

بالأندلس. ثم ملك ابنه معن بن محمد مدينة (المريقة^(١)). وخلفه ابنه أبو بخي المتصم بالله وهو في سن الرابعة عشرة حيث نشأ في ملك ضيق الرقعة، فاستعراض منه سعة الخلق وبعد الهمة وحلية العلم والأدب والسخاء الشامل، والجود العظيم، حتى طاول المعتمد بن عباد كبير ملوك الطوائف ونافسه. وقال أمير المسلمين يوسف بن تاشفون حينما لقيهما بالأندلس « هذان رجلا هذه الجزيرة ». قال ابن حلكان :

« وكان رحباً الفتاء، جزيل العطاء، حليماً عن الدماء. طافت به الآمال واتسع في مدحه المقال، وأعملت إلى حضرته الرحال، ولزمه جماعة من فحول الشعراء ». وسائل الفتح، بن خاقان :

« ملك أقام سوق المعرف على ساقها، وأبدع في انتظام مجالسها وانتساقها، وأوضح رسماها، وأثبت في حين أيامه رسماها، لم تخُل أيامه من مناظرة، ولا عمرت إلا بمناكرة أو حاضرة. وكانت دولته مشرعاً للكرم، ومطلعاً للهمم؛ فلاحت بها شموس، وارتاحت فيها نفوس، ونفت فيها أعلام الأعلام، وتندقت بخار الكلام، كإجاده ابن عمار وإبداعه، في قوله معذراً من وداعه :

امتصاصاً بالله وال Herb ترني يأبطالها والخيل بالخيل تلتقي
دعنتي المطابا للرحيل وإنني لأفرق من ذكر النوى والفرق
ولاني إذا غربت عنك فإيما جيئتك نفس والمرية مشرقي

وكان المتصم - كالمعتمد بن عباد - شاعراً مجيداً، كتب إلى الوزير الشاعر ابن عمار :

وزهدني في الناس معرفتي بهم وطول اختياري صاحباً بعد صاحب
فلم ترقى الأيام خلا تسرني مباديه إلا ساعتي في العواقب
ولا قلت أرجوه لدفع ملمة من الدهر إلا كان إحدى المصائب

(١) مدينة بالأندلس على ساحل البحر الرومي كانت قاعدة الأسطول الإسلامي.

وقد طوى الأمير أربعين عاماً في إمارته، شاع فيه ذكره، ونبه اسمه، وحلب الدهر أشطروه، ورأى أحداهه وعبره. ثم حم القضاء، وبعث ابن تاشفين جنوده على ملوك الطوائف تسل عروشهم، وتعفي آثارهم، ولقي « رجلاً الجزيرة » الصدمات الأولى، فدارت على العهد الدائريات، فإذا هو أسر أغمات^(١)، وللمحمد بن عباد قصة ملؤها العبرات والزفرات.

وعلم ابن صمادح بما أصاب صاحبه فملكه الغم، وناء به الحزن. وكان أسعد من صاحبه جداً، نجاه الموت من الإسار، وأنقذه الحمام من المذلة. « رب عيش أخف منه الحمام ». والله ابن سام حين يقول : « وكان بين المعتصم وبين الله سريرة أسلفت له عند الحمام يداً مشكورة، فمات وليس بيده وبين حلول القاهرة به إلا أيام يسيرة، في سلطانه وبنته، وبين أهله وولده ». .

دع ما نفع الكتاب وأنشد الشعراء، ودع أربعين عاماً طواها الزمان كائناً أحلاً، وانتظر المعتصم ليلة الخميس ليثان بقين من شهر ربيع الأول ستة أربع وثمانين وأربعين - الليلة التي طلع عليه بالردى فجرها. فيها هو ذا على فراش الموت في قصره بالمرية، ومعسكر ابن تاشفين على مقربة من المدينة، ترى خيامه، وتسمع ضوضاءه، ويسمع المعتصم وجة من الجيش النجف، والجند المصطحب، فيقول كان لم ينعم بالملك والجاه أربعين عاماً :

« لا إله إلا الله، نغض علينا كل شيء حتى الموت ». قالت « أروى » إحدى جواريه : « قدمنت عيناي، فلا أنسى طرفاً إلى يرفعه، وإن شاده لي بصوت لا أكاد أسمعه » :
ترفق بدموعك لا تفنه فبين يديك بكاء طويل

(١) بلدة كانت وراء مراكش.

ما أشبه الليلة البارحة :

سقطت الأندلس في أيدي الإسبانين، وخرت صریحة مضرجة بالدماء
والأشلاء؛ أليست الأندلس مثل بغداد، وألم تسقط بغداد من قبل في
أيدي التار الخربين، كما سقطت الأندلس من بعد في أيدي الإسلاطين المدمرین.

ورثى الشعراء الأندلسيين حتى قبل النكبة، يمراث تفتت الأكباد
وتحطّب الزفرات، كما رثى الشعراء ببغداد، عاصمة الإسلام ودار السلام،
فهذا الشيخ سعدي الشيرازي الشاعر الفارسي الكبير — الذي عده قومه
أحد أباء الشعر الثلاثة، والأخرين الفردوسي والأنورى. وهو طائر الصيت
بكنايهِ كلستان وبستان، ويدويانه وأشعاره الأخرى — يرثى بغداد
وحضارتها.

روي أنه لما أغار التار على بغداد في حياته رثى حاضرة الإسلام
بقصيدةتين : فارسية وعربية. وقصيدهته العربية ليست على نسق شعره
الفارسي بلاغة وإحكاماً، ولكنها قصيدة نادرة في موضوعها ومنها :
حيست بعيني المدامع لا تغري فلما طفى الماء استطال على السكر
نسم صبا بغداد بعد خرابها لأن هلاك النفس عند أولي النهى
أحب لهم من عيش منقبض الصدر لزرت اصطبلاراً حيث كنت مفارقاً
ولاتسألن عما جرى يوم حصرهم
فذلك ما ليس يدخل في المحصر
بكث جدر المستنصرية ندية
نوائب دهر ليتنى مت قبلها
والم أو عدوان السفيه على الحبر
محابر تبكي بعدهم بسادها
بعض قلوب الناس أحلك من حبر
أيا ناصحي بالصبر دعني وزفري
فجرت مياه العين فازدادت حرقة
كما احرقت جوف الدماميل بالفجر

ذُو الْخَلْقِ الْمَرْضِيُّ، وَالْغَرْرُ الزَّهْرِ؟
 وَذَا سَرْرٍ يَدْمِيَ السَّامِعَ كَالسِّيرِ
 يَعُودُ غَرِيباً مُثْلِ مِبْتَدِلِ الْأَمْرِ
 وَسَيِّ دِيَارِ السَّلْمِ فِي بَلْدِ الْكُفَرِ؟
 وَحَافَاتُهَا لَا أَعْشَبُ وَرْقَ الْخَضْرِ
 وَمُسْتَعْصِمَ بِاللَّهِ لَمْ يَكُنْ فِي الدَّذْكُرِ
 عَلَى الشَّهَادَةِ الطَّاهِرِينَ مِنَ الْوَزَرَرِ
 وَمَا فِيهِ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ أَعْظَمِ الْأَجْرِ
 بِأَنَّهُمْ دَارُ الْكَرَامَةِ وَالْبَشَرِ
 يَكْلِفُنَا مَالاً نَطْمِقُ مِنَ الْأَمْرِ؟
 سَوْيِ الْمَلْكُوتِ الْقَانِمِ الصَّمَدِ الْوَتَرِ

 فَأَبْنَى بْنُ الْعَبَاسَ مَفْتُحَ الْوَرَى
 غَدَا سَرَراً بَيْنَ الْأَنَامِ حَدِيثَهُمْ
 وَفِي الْخَيْرِ الْمَرْوِيِّ دِينِ مُحَمَّدٍ
 أَغْرَبَ مِنْ هَذَا يَعُودُ كَمَا يَدَا
 فَلَا اخْدَرَتْ بَعْدَ الْخَلَائِفَ دَجْلَةَ
 أَنْذَكَرَ فِي أَعْلَى الْمَنَابِرِ خَطْبَةَ
 حَمْبَةَ مِشْتَاقَ وَالْفَرِحَسِ
 هَبْنَاهَا لَهُمْ كَأْسَ الْمَيْنَةِ مُتَرْعَماً
 فَلَا تَخْسِنَ اللَّهُ مُخْلِفُ وَعْدَهُ
 إِلَامَ تَصَارِيفَ الرَّزْمَانِ وَجُورَهُ
 وَسَائِرَ مَلَكَ يَقْتَضِيهِ زَوَالَهُ

— ٦ —

الماضي الحالد :

لَمَّا فَحَحَ الْعَرَبُ الْأَنْدَلُسَ سَاسُوا أَهْلَهَا سِيَاسَةً رَشِيدَةً، بَيْتَ عَلَى التَّسَاعِ
 وَالْعَدْلِ، وَقَامَتْ عَلَى الْمَسَاوَةِ وَالْإِذْعَانِ لِلْحَقِّ، وَتَرَفَعَتْ نَفْسُهُمْ عَنِ الدَّنَابِيَا،
 وَعَفَتْ أَيْدِيهِمْ عَنِ الْأَمْوَالِ الْمَغْلُوبِينَ. وَلَمْ يَعْضُ إِلَّا زَمْنٌ يَسِيرُ حَتَّى تَبَيَّنَ
 أَنَّ الْعَدْلَ فِي حِصَارَةِ الْبَلَادِ وَرَقِيَّهَا، وَأَخْذَ الْعَرَبُ فِي تَحْطِيطِ الْمَدَنِ، وَتَشْبِيدِ
 الْقَصْصُورِ، وَخَرَقَ الْتَّرْعَ، وَإِقْامَةِ الْمَجْسُورِ، وَبَنَاءِ الْقَنَاطِرِ، وَشَقَّ الْخَلْجِ، وَهَبَّ
 الْأَرْضُ لِلْزَرْعَةِ، وَتَبَيَّنَتِ الْطَرِيقَ، وَاسْتَهْدَادُ كَثِيرٍ مِنَ الْأَشْجَارِ وَالْبَيَاتِ مِنَ
 مَصْرَ وَالشَّامِ وَالْمَرْاقِ؛ وَجَلَبُوا إِلَيْهَا مِنَ الشَّرْقِ كُلَّ مَا فِيهِ مِنْ صَنَاعَاتٍ؛
 وَأَقْبَلَ الْأَنْدَلُسِيُونَ عَلَيْهَا فَأَجَادُوهَا أَهْمَا إِجَادَةً. وَأَصْبَحَتْ مَدِينَتِهِمُ الْكَبِيرَةُ
 غَاصِةً بِالْعَدْدِ الْعَظِيمِ مِنَ الصَّنَاعَاتِ، وَجَمِيعَ قُرْطَبَةَ الشَّيْءِ الْكَثِيرِ مِنْ مُخْلِفِ
 الْمَصْنَوَعَاتِ، وَأَخْذَتْ يَنَابِيعَ الثَّرَوَةِ تَنَفَّجِرُ فِي كُلِّ نَاحِيَةٍ مِنْ تَوَاحِي الْبَلَادِ.

واهتموا بنشر العلوم والفنون حتى نبغ كثير من العلماء في العلوم المختلفة : من دينية، ولسانية، وطبية، وزراعية، وطبيعية وفلسفية. وشملت العمارة جميع نواحيها، حتى كان المسافر في أوديتها وأنهارها لا يكاد يتقطع نظره عن القصور الفخمة، والبساتين المتصلة التي أملت على ابن خفاجة المتوفى سنة ٥٣٣ هـ، قوله في وصفها :

يا أهل آندلس، الله دركم ماء وظل وأنهار وأشجار
ما جنة الخلد إلا في دياركم ولو تغيرت هذا كثت أحجار
لاتحسسوا بعد ذا أن تدخلوا سقرا فليس تدخل بعد الجنة النار

وكانت قرطبة — عاصمة الأندلس — زهرة البلاد في الغرب، كما كانت بغداد زهرتها في الشرق، وكانت الحواضر العظيمة — كالقاهرة ودمشق وبغداد — تحمل إليها ما اكمل من صناعاتها، ونادر كتبها، وختلف تحفها، لبيعها في أسواقها التي تكتظ بالأموال في أيدي النساء والرجال. لذا كانت حضارة القوم تأخذ بطرف من حضارات هذه البلاد.

وكان بالأندلس أيام العرب أربع جامعات للطب بقرطبة وأشبيلية ومرسيسة وطليطلة، ومقات من المدارس والمعاهد قد اكتظت بالطلبة من جهات مختلفة. وقد تخرج في هذه المعاهد كثير من فحول العلماء في كل فن، أمثال ابن رشد في الفلسفة، وابن زهر في الطب، وابن فرناس في الرياضة، وابن زيدون وابن خفاجة في الأدب، وغير مؤلاء من يضيق المقام عن ذكرهم، ولا زلتنا نقرأ أسماء من انتسب منهم إلى مدینته، كالقرطبي، والإشبيلي، والملاقي، والبطليوسى، والشاطبى؛ وكانت جامعة قرطبة في الغرب كمدرسة الإسكندرية في الشرق إبان عظمتها، يؤمها الطلاب من كل فج، حتى من بلاد الرومان واليونان^(١). ويعرف

(١) راجع الذخيرة لابن سام الأندلسي المتوفى عام ٥٤٢ هـ، وفتح الطيب للمقرئ م ١٠٤١ هـ.

المصنفون من مؤرخي الإفرنج بما كان لحضارة العرب من أثر في مدينة
أوربا الحديثة.

— ٨ —

شاعر يوري الأندلس :

هذه القصيدة طبعتها لأول مرة الأستاذ صوالح محمد بالجزائر سنة ١٩١٤، وذكر أن هذه القصيدة من جملة قصائد بعثت إلى السلطان بايزيد العثماني بقصد الاستغاثة، ونشرت صحيفة الزهرة التونسية من قبل تنفيذاً منها، ومؤلف القصيدة مجهول، ويذكر المؤرخ المغربي السيد محمد ابن علي الدكالي السلوى أن صاحبها كما يفهم من القصيدة من مدينة الربة، ولعله أبو جعفر بن خاتمة، وقد تكون مذكورة في كتاب له يسمى مزينة المرية الموجود منه نسخة خطية بمكتبة الأسكندرية :

أحقاً حبا من جو رندة نورها وقد كشفت بعد الشموس بدورها
وقد أظلمت أرجاؤها وتزلزلت منازلها ذات العلا وقصورها
أحقاً خليل أن رندة أقرفت وأزعج عنها أهلها وعشيرها
وهدت مبانيها وثلث عروشها ودارت على قطب التفرق دورها
وكان عقاباً لا يطال مطارها ومعقل عز زاحم النسر صورها
هوت رندة الغراء ثم حصونها وأنظارها شنماء عز نظرها
وقد كن عقداً زين القطر نظمها فقد فتح الآن البلاد ثبورها
وفرق شمل المؤمنين فيها وقطع من أرحامهم زميرتها
وكانت شروداً لا يقاد نفورها تسلمهما حزب الصليب وقادها
وقد ذهبت أدبارها ونفوسها وقد دثرت تحت السباء ثبورها
فباد بها الإسلام حتى تقطعت مناسباً واستأصل الحق زورها
وأصبحت الصليان قد عبدت بها تماثيلها دون الإله وصورها

كرائه أصوات يروع صريرها
 سقى عهدهم مزن يصوب ثيورها
 ودارت عليكم بالصروف دهورها
 لدى صرعات الخضر يأتي سفريها
 سوى حرق سحم تلظى سعورها
 ولا تنقضني اشجانها وزفيرها
 يذوب كما ذاب الرصاص صبورها
 سويدةه سوداء جسم ثبورها
 بعيرة حزن ليس يرق عبورها
 يساجل قطر الغاديات درورها
 وتكللا بأفقار قد أطفيء نورها
 وكانت إلى بيت الحرام شطورها
 وقد كان معناد الأذان يزورها
 وأياها تشكو الفراق وسورها
 وحفل بختم الذكر تعضي شهورها
 ينود المايا وهو كان يريدها
 فيرهيء شيل الشرى وهصورها
 تزان لها عين الجنان وحورها
 وشمعاء غارات يتاب مغيرها
 ويخرجى بها غتصارها ورميرها
 فأنسحى لعمر الله وهو أسيرها
 كما قد قضى جبارها وندبرها
 إذا سفرت يسي العقول سفوريها
 وقد زانها دياجها وحريرها
 وقد هتك بالرغم منها ستورها
 وقد أسللت وأدمع عيني شعورها

لقرع النواقيس اعتلى بمنارها
 في ساكنى تلك الديار كبرية
 أحقاً أخلاقي القضاء أدباركم
 فقتل وأسر لا يفادي وفرقة
 لعمر المدى ما بالخشا لفراقكم
 ولوغة ثكل ليس يذهب روعها
 ونفس على هذا المصاب حرينة
 وقلب صديع ماج فيه بلاوه
 سأبكي وما يجدى على الفائت البكى
 شابيب دمع بالدماء مشوبة
 عوياً يواقي المشرقين بريمه
 فواحسرناكم من مساجد حولت
 ووأسفاً لكم من صوامع أوحيشت¹⁹
 فمحراها يشكو لنيرها الجوى
 وكم من لسان كان فيها مرتل
 وكم من فتن ثبت الجنان مهذب
 يصل على الأبطال صولة ضيضم
 له في سبيل الله خير تقيبة
 له في جانب الكفر أجدى نكبة
 يراع لها دين الصليب وحزبه
 وكم أنفس كانت لديه أسرة
 تحكم فيه الشرك وهو موحد
 وكم طفلة حسناء فيها مصونة
 غيل كفضن البان مالت به الصبا
 فأضحت يأيدي الكافرين رهينة
 وقد لطمته واحد قلبي خدودها

وإن تستجرر ذا رحمة لا يغيرها
 وأسلمها آباءها وعشائرها
 على الذل يطوي لبها ومسيرها
 يزق من بعد الوقار قبورها
 تود لو انضمت عليها قبورها
 أساها وعين لا يكف هداتها
 فأكيادها حراء لفوح هجرها
 وهل يبع الشيطان إلا صغرها
 سيلًا إلى العسرى يحيف كفورها
 عوائقها عنورة وشوارعها
 وبالعمى عن رأها بصرها
 وبما عترة أني يقال عنورها
 بليت ولم يلتف فؤادي حرورها
 وينهض قل الأهل فيه كثيرها
 أتبرجي على رغم العادة نشورها
 لأرجانها يشفى الصدور صدورها
 معالها تعلو بذلك عقرها
 على الرغم أغنى من لديها فقرها
 وحق لديها محوها وذورها
 مدائتها موئسورة وثورها
 وأحجارها مصدوعة وصخورها
 ملابس حسن كان يزهو حبورها
 يكاد لفترط الحزن يهدو ضميرها
 لذابت رواسمها وغاضت بعورها
 بشير الأنام المصطفى ونديها
 قد استفرغت ذيماً وقللاً حجورها

وإن تستفتح بالله والدين لا تفت
 وقد حل ما بين الشقيق وبينها
 وكم من عجوز يحرم الماء ظمئها
 وشيخ على الإسلام شافت شيوبيه
 وكم فيهم من مهجة ذات ضجة
 لها روعة من وقعة البين دائم
 وكم من صغير حيز من حجر أمه
 وكم من صغير بدل الدهر دينه
 وكم من شقي يسرت هذه له
 كروب وأحزان يلين لها الصفا
 فيها فرحة القلب الذي عاش بعدها
 وبما غربة الإسلام بين خلاها
 وبما ليت أمي لم تلدني ولستني
 وما خير عيش يذهب الموت دونه
 فيما ليت شعرى بعد ماصح موتها
 وبما ملة الإسلام هل لك عودة
 وهل تسمع الآذان صوت الآذان في
 وبما لعزاء المؤمنين لفافة
 لأندلس ارتخت لها وتضعضعت
 منازلها مصدورة ويطاحها
 شائمها مججوعة ومحودها
 وقد ليست ثوب الخداد ومرقت
 فأحياؤها تبدي الأسى وجادها
 لو أن ذا إلف من بين هالك
 على فرقة الدين الذي جاءها به
 فمالقة الحسناء شكل أسيفة

وبدل بالويل المبين سرورها
 تقها فأضحي جنة الحرب سورها
 ومن سربان الداء بان قطورها
 فأفقر مغناها وطاشت حجورها
 فقد خف ناديا وجف نصيرها
 لها رجة، نار الهيام شيرها
 يسحب يضاهي المعصرات خيرها
 لها أدمع نهر الدموع يميرها
 قد ارتج يادها وضع حضورها
 من الخلد والماوى غدت تستطيرها
 هي الحضرة العليا زهتها زهورها
 ولا في بلاد الله طرأ نظيرها
 ونبتها مستعبر وسيرها
 وزائرها في مأتم وزورها
 وبنت لها البشري وحش ثورها
 كنفس كليم الله إذ دك طورها
 فهن يواكي الأعين الرمد مورها
 سكارى وما استاكت بخمر ثبورها
 سواء بها نجل العيون وعورها
 دهاما وأقى يستقيم شعورها
 وما كابت من ذا المصائب خورها
 قليلة أو جمال أزيل عذارها
 تأجج من حر الوجيف بخورها
 أو استودعواها من إليه أمرها
 وأول أوطان غذاني خيرها
 تجددها آصالها وبكورها

وجزت نواصيها وشلت يمينها
 وقد كانت الغريبة الجنن التي
 وبلاش قططت رجلها بيمينها
 وضحت على تلك النبات حجرها
 وبالله إن جئت المنكب فاعتر
 وسکرها قد بدل اليوم علقمًا
 وعرج على الإقليم فابنك ربوعها
 وودع بها وفدى التعميم فإيمها
 ألا ولتفق ركب الأسى بعالم
 بدار العل حيث الصفات كأنها
 عمل قرار الملك غرنانطة الذي
 فيما في العراقيين العتيقين مثلها
 ترى الأسى أعلامها وهي خشع
 وأماموها ساهي الحجي وإمامها
 لها حال نفس قد أصبح فؤادها
 فأنفسها في الصمع دون إفادة
 وقد ذعرت تلك النبات حولها
 وقد رجفت وادي الأسنى بقاعها
 لقد أظلمت حتى لفطرت حدادها
 وبسطة ذات البسط ما شعرت بما
 على عظم بلوها وطول وبلاها
 وما أنس لا أنس المريمة إنها
 ولو أحرق الشكل المصابين أصبحت
 فيها أصدقاني ودعوها كرية
 منازل آبائي الكرام ومنشئي
 وأقرروا عليها من سلامي تحية

لقد عميت عين تبدد نورها
 وقضت عرى الإسلام إلا يسراها
 من التكرا فانظر كيف كان تكيراها
 كثدي السيرة السوائى لدى من يسراها
 وبؤنا بأحوال ذئيم حضورها
 وعاثت بنا أسد العدا وغورها
 وأموالنا فيها أباحت وفورها
 قناء ولا غارت عليهم ذكورها
 علينا فوق للصلب نذورها
 وقد كسرت عقباها ونسورها
 جيوش كموج البحر هبت دبورها
 جنایات أخذ قد جناها مثيرها
 ولا تحجل حتى تخط أصورها
 وصاعقة واري الحسوم ظهورها
 وزعزع من أكناها مستطيرها
 فظاعاً بسکر الدهر تقضي خمورها
 وغض باكيد التقاة عقورها
 نداء سراة القرف إذ ضل عيرها
 على زمر الإسلام جلت أجورها
 فليس بؤدي الفرض إلا نغيرها
 ليل الله يغفر ما اجترحه غفورها
 وردوا ظلامات يبيد نغيرها
 فليس يزكي النفس إلا ظهورها
 يلوح على ليل الوغى مستيرها
 بأشد على جرد من الخيل سبق
 بأنفس صدق موقنات بأنها

أماناتها ضاعت فضاعت رقابها
 أضمنا حقوق الرب حتى أضاعنا
 وملتنا لم نعرف الدهر عرفها
 بما قد كسبنا نالنا ما أنالنا
 بشقوتنا الخذلان صاحب جمعنا
 بعصياتنا استول علينا عدونا
 نعم سلبوا أوطاننا وتقوساها
 علوها بلا مهر وما غمزت لهم
 وقد عوت الأفرنج من كل شاهق
 وقد كشرت ذؤبانها وكلابها
 وجاءت إلى استصال شافة ديننا
 علامات أخذ مالنا قبل بها
 فلا تمحي إلا بمحسو أصولها
 معاشر أهل الدين هبوا لصعقة
 أصابت منار الدين فانهد ركبه
 أدارت على غربة الدهر أكتوساً
 ودبّت أفاعيها إلى كل مؤمن
 أنادي لها عجم الرجال وعربها
 وأستنصر الأدنى فالأدنى فريضة
 على كل محتاج لفضل دفاعها
 إلا وارجعوا يا آل دين محمد
 أنبيوا وتوبوا واصروا وتصدقوا
 ومن كل ما يردي النفوس تطهروا
 إلا واستعدوا للجهاد عزيزاً
 بأشد على جرد من الخيل سبق
 بأنفس صدق موقنات بأنها

على الله في ذاك النعيم مهورها
 حالة نور الورد ذر ذيورها
 كفالم ذات الخط خطت سطورها
 وخطوا بأمال يشوق غربيرها
 تدين بدين الحق وهو نصيرها
 بوادر سخط ليس برجي فنورها
 يطاول آباء الزمان قصيرها
 عيتها على طول الليل خدورها
 وأعلاق أموال خطير خطيرها
 بلايا يبر الطيات مرورها
 فليس لها في الخبر إلا خبرها
 باقادة خوف الفراق يطيرها
 فهذا العدو الضخم حتماً يبرها
 لكافحة هر الصليب سرورها
 عيونهم والكفر ظل قريرها
 إذا لم يكن منك التلاقي ظهيرها
 بيابك موقفو الحشاشات، بورها
 شفيع الوري يوم النادي بشيرها
 وأول رسول الله فضلاً آخرها
 سراج السموات العلى ومنيرها
 بأنفس استول عليها قصورها
 برجي يحلي المؤمنين شذورها
 وعزوة سلطان يروق طيرها
 يدال به من كل عاد كسيرها
 يروح ويغدو بالسوار ميرها
 وينظم شمل الكفر تشتيت نسمة

تروم إلى دار السلام عائساً
 وضرب كأن الهام تحت ظلالها
 وطعن برى الخطى في مهج العدا
 يمتن عدى إن تقاوا الله تنصروا
 فلا يخذل رب المهيمن أمة
 وإن أنتم لم تتعلموا فترقبوا
 وأيام ذل واهضام وفرقعة
 وأهدوا للدين الشرك كل خريدة
 وكل نفيس من نقوس كرمية
 وحق العظيم الشأن لا عيش بعدها
 هرفع شكوكها لعالم سرها
 ند أكف الذل في باب عزه
 فإن لم يقل رب العباد عثارنا
 إله الوري تدعوك يا حير مرتخي
 وشققت جيوب المؤمنين وأساخت
 وليس لها يا كاشف الكرب ملحاً
 أغاث دعوات المستغيثين لهم
 وليس لهم إلا الرسول وسيلة
 إمام الهدى بحر الندى قائم العدا
 محمد المختار من آل هاشم
 دعوناك، أملناك، جنانك خشعاً
 بجاه العظيم الجاه أدرك ذماعنا
 وعفو وتأيد ونصر مؤزر
 ولطف وتسديد وجبر لما مضى
 وأرسل على هنا العدو رزية
 يشتت شمل الكفر تشتيت نسمة

وصلَ على خير البرية أحمد وأكرم من قد أنجيته ظهورها وأصحابه الشهُب المُداة والـ صلاة مع الآباء يزكوا عبادها ويبدو من هذه القصيدة أن صاحبها من المريء^(١)، وأنها نظمت بعد سقوط غرناطة... ولا اشتدت حركة محكمة التفتيش في إسبانيا، أرسل بعض المسلمين في الأندلس إلى السلطان بايزيد الثاني نحو عام ١٥٠٥ م رسالة سجلها المقرئ في مؤلفه أزهار الرياض، ويبدو على القصيدة أنها نظمت بعد سقوط الأندلس نحو سنة ١٥٠٠ م - ٩٠٩ هـ، حينما قام الإسبان بأول محاولة لتنصير المسلمين؛ وقرر مجلس الدولة أن يفرض التنصير على المسلمين عام ١٤٩٤ هـ - ١٤٩٩ م.

— ٨ —

شاعر يصف آثار الأندلس :

وقد زار إسبانيا عام ١٩٥٢ الأديب الشاعر جورج صيدح، ووصف معالم الآثار الأندلسية، فقال فيما قال :

في قرطبة : عاصمة الدولة العربية الأولى، يقوم الجامع الأكبر على انقضاض كنيسة عظيمة استولى العرب على نصفها يوم فتحوا المدينة وتركوا الصف الثاني للمسيحيين حتى يتيسر للفرجتين القيام بشعائر الدين. روى لنا الدليل أن عبد الرحمن الداخل عندما أسس الخلافة الأموية في قرطبة

(١) سقطت مدينة « رندة » في أيدي الإسبان عام ١٤٨٩ م - ٨٩٠ هـ، وسقطت بعدها مالقة في شعبان ١٤٩٢ م - ٨٩٢ هـ، ووادي آش والمربية والمنكب في آخر ١٤٨٩ - ٨٩٤ هـ، وبسطة في المحرم ١٤٩٥ م - ٨٩٥ هـ، دسمبر ١٤٨٩ تم سقوط بعدها في صفر ١٤٩٦ م - ٨٩٧ هـ، دسمبر ١٤٩١ م، ودخلها فرديناند في الثاني من ربيع الأول ١٤٩٧ م - ٢ يناير ١٤٩٢ م.

حاول ضم القسم المسيحي إلى القسم الإسلامي وتشييد جامع جديد يليق بمقام الخلافة، فعارضه المسيحيون واشتربوا عليه وهو الفاتح الحاكم بأمره، أن يموّلهم مالاً يكفي لبناء كنيسة جديدة؛ وأن يجدد بناء جميع الكنائس التي تهدمت أثناء الحرب، فقبل عبد الرحمن شروطهم ووافى بهما. ثم شرع في بناء الجامع الذي نراه اليوم بروعة الفننة وهندسته العجيبة. يقوم على ألف ومائة عمود، وفي خلاها يسجد ستة عشر ألف مصلٍ فلا تحجب عن نظرهم المحراب. أما بعد جلاء العرب عن المدينة فقد عمد المكان فرديناند وشارلوكت إلى بث المذابح والخنايل في بيو الجامع وجدرانه، وإلى اقلاع الأعمدة المواجهة للمحراب ليحل هيكلاً عالٌ على كل منها. وأرانا الدليل ونحن على صفة وادي الكبير ثلث طواحين قائمة في عرض النهر تعرقل سير المراكب فيه، وقال لنا إن الخليفة الحكم قاوم أصحابها على شرائها منهم خدمها فلم يقبلوا، وبقيت الطواحين في مكانها إلى اليوم. ثم ذكر لنا أن سبعين مكتبة عمومية كانت في قرطبة في عهد العرب أغلقت وأغلقت بعد ذهابهم. هذه المكتبات مضافة إلى الجامعة الشهيرة التي أسسها عبد الرحمن في القرن الثامن، جعلت من قرطبة مركز الإشعاع العلمي، ونقطة دائرة المعارف العالمية.

وفي إشبيلية: أكبر مدينة أندلسية، خيل لنا فيها أن الجو يتنفس عن ورود الشام، وأن النسيم يترنح على نغمات العود والكمان، رنات الطفاطيق (الكاستانوبلا) لم تفارق أحاسينا في الأسواق والحدائق تهاراً، وفي الحرارات والملاهي ليلاً، الغناء ذو لمحات شجاعة مأخوذة عن الموال العربي وحلقات الرقص لا تختلف كثيراً عن حلقات الدبكة. يقول المؤرخون في كتبهم: من لم ير إشبيلية لم ير شيئاً، ويقول الدليل: إن مات عالم في إشبيلية لا يوجد مشترٍ لكتبه إلا في قرطبة، وإن مات معن في قرطبة لا يوجد من يشتري آلات الطرب من ورشه إلا في إشبيلية.

وفي طليطلة: وهي إحدى مقابر العرب، لم نجد من آثارها إلا

كيساً للبيود أينما دخلوه، وأطلال القصر الخصين (الكاسار) الذي خربه قبائل الجمهوريين في حربهم مع الجنرال فرانكون، ولم يزد ينداعي ويندر الزائرين بالخطر، ثم الكنيسة الكبيرة أو الجامع الفخم سابقاً، فورناها فاسترعى انتباها طائفة من المثاليل تحدق بالذبح في صدر الكنيسة، وتتمثل الباباوات الأولين ما عدا واحداً منها يمثل شيخاً لابساً عمامة وجبة عربية، قال لنا الدليل إنه تمثال الفقيه أبي الوليد، وقصته تتلخص في أن جمهوراً من المسيحيين طرقوا الجامع ذات ليلة وعيشاً بريته ما استطاعوا، فجاءهم الحاكم العربي بخيله ورجله ليؤديهم بحد السيف ويبيدهم عن بكرة أليهم، فوقف الفقيه أبو الوليد في وجهه، يتصحّه ويترضيه مقدماً رأسه كفارةً عن المذنبين، حتى رق الحاكم وعدل عن الانتقام، فحققت الدماء، وأصبح الفقيه قدسياً في نظر المسيحيين يحق له التمول في الهيكل، بين الباباوات.

وفي مدريد: التي سلمها العرب قرية حقيقة وسلموها مدينة عظيمة الشأن كاتدرائية تدعى «سيدة المد» وأصل التسمية هو أن ملك «كاستيا» عندما أُجلَ العرب عن المدينة وجد في قصر ملكهم مذبحاً نقش عليه رسم العذراء، فبني الكنيسة تخليداً لذلك الرسم، وجعل من عذراء المد شقيقة عاصمتها.

وفي غرناطة: عاصمة العرب الأخيرة، قال لنا الدليل ونحن نخطط الطريق صعداً إلى جبال الثلج (سييرانيفادا) المشرفة على قصر الحمراء: كان العرب أول من تسلقوا هذه الشاهقات، وافتتحوا خزانات الثلوج الأبدية فيها، هم الذين أجرروا المياه في قنوات تهبط منها إلى السهول، ولو لاهم لما عرفت الأندلس الخصب في مزارعها، والأزهار في حدائقها، والتوافير في قصر الحمراء. أمامكم عروس المدارس الأندرسية تحرسها من مائتين وستين عاماً بعد سقوط قرطبة، ثم دانت ثم فنكتوا بأثارها الفخمة

حسداً وانتقاماً، وجردوا الحمراء من الكثير من زخرفها. وعند شارلوكت إلى تشيد قصر إلى جانبها يزيدوها ارتفاعاً، ولكنه فارق الحياة قبل استكمال البناء. ثم أشار الدليل إلى معلم الحمامات العربية («أسماها تركية») التي انتشرت من ألف عام؛ فذكرت كلمة الدكتور فيليب حتى : « كان الاستحمام أمراً مألوفاً في غربناطة يوم كان محظوراً على طلاب جامعة أكسفورد، لاعتباره خطراً على صحة أجسامهم ».

وفي القرى : في طريقنا إلى الجزيرة، وهي أول مدينة وطأتها أقدام العرب بعد جبل طارق، أوماً الدليل إلى قرية « التعرية » وإلى مناعة أسوارها، التي قاومت الفاتحين فحاصروها، وفي أثناء الحصار وقع ابن حاكمها الإسباني أسيراً في يد العرب، فحمله القائد العربي إلى مدخل السور ونادى بأبيه أن يستسلم أو يشهد ذبح ولده بعينه، فكان جواب الأب أن ألقى مخجره إلى القائد العربي قائلاً : « اذْهَبْ بِهِنَا إِنْ أَعُزُّكَ السَّلَاحَ » فغدا القائد عن الوله، وافتتح القرية عنوة بعد أيام. وعلى ذكر البطولة، روى لنا الدليل أن هناك قرية «أسماها العرب « الحادة » امتنعت عليه رغم قربها من قلاعها الحصينة في بلد الوسقة، حاصرها العرب حتى أثروا رجالها فلم تستسلم، بل هرع النساء والأولاد إلى الأسوار يحمونها بأجسادهم. فرقق بهم الفاتحون وتركوا القرية وشأنها. وما أكثر الحكايات التي يتناقلها الشعب من هذا الطراز تمجيداً للذكرى العرب. إن السائح العربي ليشعر أنه في بيته القدم عندما يمر بقرى ودساكير هذه أسماؤها : الياسطة (فيها صناعة المدبي والخاجر العربية)، قلعة النهر (حيث ولد سرفنتس)، الكوة (حيث الكروم وأحراج الزيتون)، الميرة (عكاظ الأدب والشعر)، الإبر (حيث مغازل الأنسجة الدمشقية)، القنطرة، القانص، الخائن، السيرة، الحامة، الغوطة، المنكر، قلعة أبوب، الروضة، طيف الله، وادي الحجارة، وادي اللب، وادي الرامة، وادي الكبير، وهلم جرا. وبمناسبة الأسماء العربية لي ملاحظة

على قصر الحمراء : إن اسمه بالإسبانية وفي جميع اللغات اللاتينية « الاميرا » بالإضافة حرف الباء على الكلمة العربية، وليس « الأمراء » كما يلفظ الأجانب كلمة الحمراء. ألا يكون هذا الاسم الحقيقي « العبرة » ؟ يؤيد هذا الفتن أن لا وجود للون الأحمر في داخل القصر، بل كل جدراته وسقفه وزخارفه بلون العتيق.

— ٩ —

ويصف « واشتختن ارفتح » روايَة الفتن العربي في قصر الحمراء فيقول : كان أجمل ما في غرناطة، في عهد الامبراطورية العربية الإسبانية — كما لا يزال إلى اليوم — القصر الملكي أو حصن « الحمراء »، وقصرها الذي أنشأه محمد أبو الأحرار بن نصر، وبلقب بالغالب بالله، ثانى ملوك غرناطة الذي وفي نفقات إنشائهما من ضربة فرضها على الرعاعي المغلوبين. وكان يشرف على البناء بنفسه. وعندما أتاه جعله مقاماً ملكياً. وقد حصن هذا الملك السعيد الجد الجليل الذي تقوم عليه. وخلال مدة حكمه كلها وقف جزءاً وغثراً من ثرواته على تحسينها والبلوغ بها مبلغ الكمال. وأغرم خلقه أبي عبدالله كل الغرام بزخرفة « الحمراء » أو إضافة أشياء إليها ولا سيما محمد الثاني، وخلفيه محمد الثالث. وقد أنشأ هذا الملك مسجداً على فن معماري جميل، أثني علىه نفقات واسعة، وجمله تجميلاً بالنسبيّة، وجعل سقفه تتصدى على أعمدة كبيرة بدعة الصنبع، تيجانها وقواعدها من الفضة. والأمير الذي أتم هذا القصر هو يوسف بن اسحائيل ابن فرج، وبلقب بأبي الحاجاج. وقد حكم من سنة ٧٣٢ هـ إلى سنة ٧٥٥ هـ (١٢٣١ - ١٢٥٤ م). وكان آخر ما عمله في الحمراء البرج الرابع. وهو الآن المدخل الأكبر الحالي للقلعة، وتدل النقوش التي عليه على أنه أُنْشِئَ سنة ١٣٤٨ م.

ويقوم قصر «الحراء» فوق الحافة الشمالية لتل يطل على منظر ممتد فوق ريف جليل، ويسمى بطلعته الجليلة فوق مدينة غربناطة. وقد تفوضت جوانبه التي تواجه القلعة تقريباً، أو أتحمت بمبان حديثة حتى لم يعد ظاهراً إلا قلة قليلة من آثار الجدران الخارجية، ولكن البقايا الداخلية من القصر على حال لا يأس بها، تعطي صورة واضحة عن عظمة رائعة للملكها السابقين. وقد خطط قاعاته على أن تكون سلسلة متصلة من الأجنحة، كلها في مستوى واحد. ومن المحقق أنها كانت في حالتها الأولى ساحرة فاتنة. فالردهات والقاعات والسقائف والعمد والعقود والفسيسماء والنباتات والأزهار البلسمية المختلفة الألوان... كل ذلك تراه خلال سديم رشاش النافورات. ومع أن العرب لم يكونوا على علم بالمنتظر إلا أن مشاهدهم المعمارية كانت يحق ساحرة تفتن الأنظار، وأحکم إعدادها حتى ليبدو البناء الصغير أكبر مما هو عليه. واستعراضوا عن تلك الأعمال الفنية القديمة الغالية بأن جملوا قاعاتهم وحرّيهم بمظاهر الطبيعة البسيطة.

والماء موفر في كل ناحية بالقصر، زمام أمره في أيديهم، يصعدون به أو يهبطون. وحياناً يجلبونه للعيون، وحياناً يخفونه حسباً يريدون. وأحياناً يفجرونه في الهواء يبدد وحيم الأخيرة الساخنة في القضاء، وبخيل جفاف الطقس رحاء. وأحياناً آخرى ينشرونه في وسط القاعة، صفة مستطرلة تبدو عليها مناظر الأبنية والنافورات والأشكال، ثم السماء يزرقتها الصافية. وقد جملت الحافة بأعلام من المرمر الأبيض، تضم أحواضاً طويلة من الأزهار نسقت على الجانبين. ينساب فيها جدول جار لا ينقطع حتى ينتهي إلى طرف من أطرافها ثم يخرج من طرف آخر، تاركاً السطح المستوي استواء البلاط ناعماً، وكأنه تلك الأرض الزجاجية من ردهة الاستقبال التي تلقى فيها سليمان ملكة سباً.

وفي كل جناح يجري تياران من الهواء في غير انقطاع، فهناك كوات قربة السقف يخرج منها الهواء الساخن الفاسد، الذي يطرد الهواء النقي

أسفل منه إلى أعلى. وبتلك الأنابيب المبتوة في الجدران، التي هي أشبه بالأنقية تحت الأرض، ينتشر الدفء لا في هذه الحمامات المصطفة وحدها بل في كل الأجنحة العليا المجاورة، التي تعوزها الحرارة. والأبواب في العادة كبيرة بنيت إلى الداخل قليلاً، اللهم إلا في جانب البناء تجاه الودة حيث المنظر جيد عظيم، فقد وضعت التوازن لجعل نظر الناظر لا يجد ما في داخل القصر.

وإن الزخارف العربية، والطلاء والفصيقات، التي تم صنعها في حرص ودقة، تدلنا على عنایتهم واهتمامهم حتى بالأجنحة الصغيرة، فبدلاً من أن يغطوا الجدران بالورق أو بالخشب فقد غشواها بالزخرفة العربية التي صبت في قالب على هيئة فريدة، ثم ضم بعضها إلى بعض على حال لا يظهر أثر الانفصال. وهذه الزيات المتعلقة ملونة في تدرج سليم بالذهبي الناصف ثم الأزرق الصافي ثم الأرجواني القائم. وأول الألوان أقربها وأخرها أبعدها من العين. ولكن السطح في عالمه أبيض.

والكثرة من أعمال النحت التي تبدو غير مستوية في بروزها تثير البلبلة، لذا تزهوا عن ذلك الخطأ في ذلك المكان حيث الحلبات قد صنعت حفرًا كأن عددها الذي لا يحصى يثير في النفس شعوراً بلا نهاية. أما في الخارج حيث يضطرون إلى الأشياء البارزة، فيلاحظ أن خط التسلسل يكون متسلقاً في كل مجموعة ذات نسق بين. وكذلك القباب والمقطرات صنعت من حليات مصبوبة، تكون تكون في خفة الخشب وفي صلابة المرمر. والجزء الأدنى من الجدران على ارتفاع يقرب من أربعة أقدام، مقطوع بالفصيقات الخزفية ذات الأشكال والألوان المختلفة. ويبين لنا من قليل القطع التي بقيت فيه أن أرض الأجنحة وأعمدتها كانت هي الأخرى مغطاة بفصيقات من هذا الطراز.

ومن أعجب ما في «الحراء» قاعة البركة، وهي قاعة فسيحة، رصفت أرضها بالمرمر الأبيض، وزين كل ركن منها برواق ذي أعمدة، وفي

وسطها حوض للسمك زخرف بالأسماك الذهبية، طوله ١٣٠ قدماً وعرضه ٣٠ قدماً، وقامت على حوافه وشائع الورود. وفي الطرف الأعلى يطل برج قمارش الكبير وهو أحد الأبراج العظيمة المجاورة للقصر. وقد سمي باسم مهندسه العربي الذي أبدع هندسته، وجعله يزهى على سائر الأبراج على الرغم من جمالها الفاتن.

وهناك قاعة الأسود وبها الانتا عشرأسداً لا تزال ناهضة ترسل من أفواهها المياه البلورية. وقد زودت بأحواض الزهر، وأحيطت بالأروقة ذات الأعمدة. ويواجه هذه القاعات قاعةبني سراج التي سميت باسم ذلك التغر من الفرسان الأبطال الذي قتلوا فيها غيلة بأيدي الأفرنج.

— ٩٠ —

ويصف باحث^(١) مدينة قرطبة بأنها كانت تعد من المدن العالمية المهمة، وكانت أعظم مدن الأندلس جميعاً، سواء بأبيتها الجميلة الفخمة، أم بدور كيتها الكثيرة الواسعة، أم بحدائقها وبساتينها البديعة، وقد اتخذها عبد الرحمن الداخل عاصمة له، وشيد فيها القصور والحدائق والأبنية والمساجد، ولا سيما الجامع المعروف «بجامع قرطبة» وظلت عاصمة الأندلس حتى زمن عبد الرحمن الناصر، ثامن ملوكبني أمية هناك، إذ أنشأ على مقربة منها مدينة الزهراء المشهورة، وجعلها عاصمة له بدلاً منها، وفي عهد الحكم المستنصر ازدهرت البلاد ازدهاراً عظيماً، وكثرت دور الكتب والمدارس وانتشرت العلوم والأداب بين طبقات الأمة، وكان لقرطبة الصبغ الأولي من عنایه، حتى لقد عن أخاه الأمير عبد العزيز مديرأ لإحدى مكتبات (دور كتب) تلك المدينة

(١) هو الأستاذ الناصري من مقالة نشرت في مجلة الرسالة.

العظيمة، ثم جاء هشام الثاني، فعجز عن إدارة المملكة، وتدخل أرباب المصالح، والمعطامع في أمورها، وكانت النتيجة انفصال الأقاليم واستقلالها، ومن جملتها «قرطبة» إذ استقلت سنة ٤٢١هـ ١٠٢٩م، واستولى عليها «أبو الحزم بن محمد بن جهور»، وأسس الدولة الجهورية فيها (٤٢٢هـ - ١٠٣٠م)، ولما مات (٤٣٥هـ - ١٠٤٣م) تولى الأمر بعده ابنه «أبو الوليد محمد بن جهور»، ثم توفي وخلفه ابنه عبد الملك بن محمد، فكرهته الرعية لسوء معاملته لهم، ثم خلصوه وأخرجوه من قرطبة (٤٦١هـ)، متهددين مع جيش محمد بن عباد، وبسقوطه انقضت دولةبني جهور، ومنذ ذلك الوقت بدأت قرطبة في التأخر، وفي سنة ١٢٣٦م استولى عليها الأفرنج، وطردوا أهلها، واتخذوها حصنًا على حدود مملكتهم وهي الآن من المدن الصغيرة، ويبلغ عدد نفوسها (٨٠٠٠٠) نسبة.

أما في تلك العصور الزاهرة، فكان عدد نفوسها يربو على المليون، وكلهم يعيشون في خصوص من العيش ورفاهية وسعادة، وما ساعدهم على تلك الرفاهية إتقانهم لفنون وصناعات كثيرة، وزيادة نسبة المتعلمين والمشتغلين بينهم كما كان الحال في باقي المدن الأندلسية المتوسطة والكبيرة، فاشهرت غرناطة بجودة حريرها، وظليلة بقفتها في صنع الأسلحة، وقوفقة بجودتها الأخضر والأزرق، وقرطبة بصناعة السروج ودباغة الجلود الخ. وكان في قرطبة مصانع كثيرة مختلفة، تصدر أنواع السلع الأخرى إلى المدن الأندلسية، وإلى خارج البلاد أيضًا..

ونقل صاحب نفح الطيب عن ابن سعيد مؤلف الحلقة المذهبة في مملكة قرطبة : «أن عرب قرطبة كانوا ينفخون بثلات : بأصلة البيت، وبالجندية، وبالعلم. قال : وهي أكثر بلاد الأندلس كثباً، وأشد الناس اعتماداً بخزائن الكتب، صار ذلك من آلات التعيين والرياسة، حتى إن الرئيس منهم الذي لا تكون له معرفة، يحتفل أن تكون في بيته خزانة

كتب، ويحفظ بها، ليس إلا أن يقول : عندي خزانة كتب، والكتاب الفلاني ليس عند غيري والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصته وظفرت به ..

وكان فيها مكتبات كثيرة وكبيرة، تحوي أثمن الكتب وأجلها وأفضلها، ولهذا فاق القرطبيون غيرهم من أهل الأندلس والأقطار الأخرى، بكثرة علمائهم وأدبائهم، وبشدة إقبالهم على التعليم والتلقيف، وعلى حبهم للعلماء واحترامهم لهم، ولصناعة العلم والأدب.

وكان للحكم الثاني في قرطبة مكتبة، فيها ستمائة ألف كتاب لها أربعة وأربعون فهرساً، في كل فهرس ٢٠ ورقة لأسماء الدواوين فقط!! . ويقول جستاف لويون — بهذه المناسبة : إن شارل الحكم الذي تولى أمر فرتسا بعد خلافة الحكم بأربعين سنة (١٣٦٤م) بذل جهده في أن يجمع أكبر عدد ممكن من الكتب للمكتبة الأهلية بباريس — حين أنسها — ولكنه لم يستطع أن يجمع أكثر من تسعمائة مجلد ثلثها دينية !! ..

وكانت الكتب تردها من بغداد ودمشق وخراسان والستانة، وكان فيها ٨٠ مدرسة جامعة، يقصدها طلاب العلم الراقي والأدب الرفيع من أنحاء العالم المختلفة، ومنهم البابا سلفستر الثاني، وكان قد ذهب إلى أشبيلية، فدرس فيها زمناً، ثم إلى قرطبة، وذلك قبل أن يصبح بابا (٩٩٩م)، وكان يسمى قبلاً الراهب جريبر، ومن تخرجوا في جامعات قرطبة، بطرس فرابل، وقسيس كولوني، وكذلك «شانجه» ملك ليون، وغيرهم كثيرون من الأوربيين الذين تذهب إلى جامعاتهم التي حلّت محل الجامعات العربية.

وكان في قرطبة علماء وأدباء وفضلاء كثيرون، نذكر منهم، أبو بكر يحيى بن سعدون الأزدي القرطبي، الملقب «بصائر الدين» وهو أحد الآئمة المتأخرين في القراءات، وعلوم القرآن، والحديث، والنحو،

واللغة الخ. ولد بقرطبة (٤٨٦) ومات بالموصل (٥٦٧هـ). وأبو الوليد عبدالله بن محمد بن يوسف المعروف «بابن الفرضي». وكان فقيها عالماً، من مؤلفاته (تاريخ علماء الأندلس) و (المختلف والمختلف) و (أخبار شعراء الأندلس)، وقد ولد سنة ٣٥١هـ. وقتل البربر يوم فتح قرطبة سنة ٤٢٢هـ. وابن زيدون ولد سنة ٣٩٤هـ. ومات باشبيلية سنة ٤٦٣هـ. وأحمد بن محمد عبد البر، من موالىبني أمية، ولد كتاب في الفقهاء بقرطبة ومات مسجونة. ومنهم : أحمد بن محمد ابن موسى، له مؤلفات كثيرة من أخبار الأندلس، توفي في ١٢ رجب سنة ٣٤٤هـ. وولد في ١٠ من ذي الحجة سنة ٢٧٤.

وخلال بن سعيد القرطي : أحد أئمة الأندلس، مات فجأة في سنة ٣٥٢هـ في السنتين من عمره، وحسن بن الوليد بن نصر، وابن الدباغ الأزدي، وغيرهم... وغيرهم...

وتقع قرطبة على الشاطئ الغربي من نهر الوادي الكبير، وبينها وبين البحر خمسة أيام، وذكر ياقوت الحموي في معجمة أنها كانت «أعظم مدينة في الأندلس، وليس لها في المغرب شبيه في كثرة الأهل وسعة الرقة، ويقال إنها كأحد جانبي بغداد، وإن لم تكن كذلك فهي قريبة منها، وهي حصينة بسور من حجارة، ولها بابان مشرعان في نفس السور إلى طريق الوادي من الرصافة — والرصافة مساكن أعلى البلد متصلة بأسفله من رياضها وأبنيتها، مشتبكة محطة من شرقها وشمالها وغربها وجنوبها، فهو إلى واديهما وعليه الرصيف المعروف بالأسواق والبيوع ومساكن العامة بربضها...».

وكان طول قرطبة أربعة وعشرين ميلًا، وعرضها ستة أميال « وكان عدد أرباضها ٢١ ربيضاً، في كل ربيض من المساجد والأسواق ما يقوم بأهله ولا يحتاجون إلى غيره، وكان بخارج قرطبة ثلاث آلاف قرية، في كل واحدة منها منبر وقبة».

وكان فيها (٢٠٠،٠٠٠) بيت و (٦٠٠) مسجد و (٥٠) مستشفى و (٩٠٠) حمام سوقي، فضلاً عن الشمائلن مدرسة التي ذكرناها، وكان فيها قنطرة طولها ٨٠٠ ذراع وارتفاعها ٦٠ ذراع وعرضها ٢٠ ذراعاً، وفيها ثمانى عشرة حنية وتسعة عشر برجاً.

وقد تناقض الخلقاء والأمويون في تعمير هذه المدينة وتزيينها وتجميلها، فبني عبد الرحمن الداخل (القصر الكبير) وجعله مقراً له، وشيد المنصور ابن أبي عامر قصر الزهراء سنة ٣٦٠ على نهر الوادي الكبير، وانتقل إليه سنة (٣٧٠ هـ)، وبنى ياقى الملوك والوزراء والعلماء قصوراً كثيرة نذكر منها : الحائط، الروضة، المعشوق، المبارك، الناج، السرور الخ...

ولكن أعظم بناءات قرطبة، بل الأندلس كلها : المسجد الجامع، الذي شيده عبد الرحمن الداخل، وكان في الأصل كنيسة فأعجبه موقعها فأخذها من النصارى مقابل أموال وأراض كثيرة.

وكان جامع قرطبة آية من آيات الفن العربي، ودليل قاطع على علو كعب العرب في النحت والبناء، وبرهان ساطع على سمو الذوق العربي، والمقدرة الفنية العربية. ولم يكن يضاهيه من المساجد والقصور في ذلك العصر سوى الجامع الأموي بدمشق، وليس من السهل وصف عظمة جامع قرطبة وتصوирه للقارئ وصفاً وتصويراً صادقين، بل ليس من السهل على القارئ أن يدرك عظمته إذا ما نظر إلى عدة صور فوتografية عنه، ومع ذلك فتحن باذلون جهدنا في أن نعطيك فكرة عامة عنه :

طول المسجد ٦٠٠ قدم وعرضه ٢٥٠ قدمًا وارتفاعه ٢٠ متراً، وفي عرضه الأيمن ٣٨ صحنًا، والأيسر ٢٩ صحنًا، وفيه ١٢٩٣ عموداً من الرخام، تيجانها منقوشة بمختلف النقوش الرائعة. « وفيه من جهة الجنوب ١٩ باباً مبطنة بصفائح من النحاس المتوج (نحاس المدافع)،

وأوسطها مرصع بصفائح من الذهب، وبأعلاه ثلاث كرات ذهبية فوقها رمانة من المسجد.^٤

أما الباب العمومي — وهو باب المغاربة — فهو من النحاس أيضاً عرضه ٨ أمتار، وارتفاعه ٢٠ متراً، وفي الزاوية القبلية من المساجد تقوم مئارته العظيمة، وهي مربعة الشكل، وطول كل ضلع منها ١٢ متراً وارتفاعها ١٣ متراً، وتحللى بصفائح فضية وذهبية، محاط كل منها نصف متراً أو أكثر بقليل. ويقول صاحب « رحلة في الأندلس » : إنها خمس طبقات في كل طبقة عدد كبير من الأجراس.

وكانت قبة المسجد مشيدة على ٣٦٥ عموداً من المرمر، والمحراب والمقصورة من أجمل ما في المسجد، ففي تلك المقصورة كان الخلفاء يصلون « وهي بناء مربع مرتفع مزین بعقود جصية بدعة جداً وعليها كتابات قرآنية وأحاديث نبوية ». وأما المحراب فقسيح وواسع، ويكون سقفه من قطعة رخامية واحدة وفيه كتابات كوفية قرآنية، وكان في المصحف العثماني الشريف، وقد نقله عبد المؤمن بن علي إلى مراكش عند استيلاء الموحدين على الأندلس سنة ٥٥٢ هـ.

وكان في المسجد (٤٧٠٠) قنديلًا من الذهب الأيريز، واحد منها في المحراب، وكان يصرف عليها سنويًا (٢٤٠٠) رطل زيت، و (١٢٠) رطلاً من العنبر والعود الفانلي...».

ويقول سديرو : « كانت هذه المدينة تصبح مضيئة، وحاراتها مطيبة، بما يلقى فيها من الزهور، مع استعمال الألحان المطربة في المتنزهات والعيادات العامة..».

البطل الخالد :

يحدثنا التاريخ أنه لم يق لل المسلمين في الأندلس إلا مملكة غرناطة — هذه البقعة الصغيرة القرية من البحر. وقد ألح العدو عليها، وصم على محواها واستمات المسلمين في الدفاع عنها، إذ كانت الملاجا الأخيرة، والوزر الذي ليس وراءه إلا الموت أو الاستعباد.

وكان بني مرين — ملوك المغرب — يرسلون جيوشهم مهدداً لبني الأحمر ملوك غرناطة، وربما ساروا بأنفسهم ليجاهدوا في جانب إخوانهم وجيرانهم. وكان أولو النجدة والقوة يقدون على الأندلس مجاهدين مرابطين غضباً لدينهم، وحمة لأخوانهم.

جاء إلى الأندلس : عثمان بن أبي العلاء، أحد أمراء بني مرين، فنولى « مشيخة الغزاة » وحسن يلاوه، وعظمت مكانته فكان شجاعاً في حلوق الإسان. ولم يكن عثمان ملكاً، ولكنه كان من نفسه الكبيرة في جيش، ومن كبرياته في سلطان.

تولى زعامة الغزاة ثلاثة وعشرين سنة، فما وهن عزمه، ولا فل حده، ولا أغمد سيفه، ولا خط سرجه :
وما كان إلا النار في كل موضع ثير غباراً في مكان دخان
والنفس الكبيرة تستهين بالصعاب، وتطرق على المنايا الأبواب. وما
الجيوش الجرار، والحرروف المستمرة في همة الرجل الفظيم إذا صمم ؟
فأثبتت في مستنقع الموت رجله وقال لها: من تحت أحصنك الحشر
وحسبنا من الإفاضة في وصف عثمان، والإشادة بذكره، أن نذكر هنا
بعض ما كتبه أصحابه الغزاة على قبره :
« هذا قبر شيخ الحماة، وصدر الأبطال والكماء؛ واحد الجلال،

ليث الإقدام والبسالة؛ علم الأعلام، حامي ذمار الإسلام؛ صاحب الكتاب المتصورة، والأفعال المشهورة، والمغازي المسطورة؛ وإمام الصفو، القائم بباب الجنة تحت ظلال السيف؛ سيف الجهاد. وقاصم الأعداء، وأسد الآساد؛ العالى الهمم، الثابت القدم، الهمام العاجد الأرضى، البطل الباسل الأمضى، المقدس المرحوم، أبي سعيد، عثمان بن الشيخ الجليل الهمام، الكبير الأصيل الشهير، المقدس المرحوم أبي العلاء إدريس بن عبدالله بن عبد الحق. كان عمره ثماناً وثمانين سنة، أفقه ما بين روحه في سبيل الله وغدوة، حتى استوفى — في المشهور — سبعمائة واثنتين وثلاثين غزوة.

«توفي، رحمة الله، يوم الأحد الثاني لذى الحجة من سنة ثلاثين وسبعمائة. رحمة الله !».

— ١٢ —

من صور التاريخ الأندلسى شخصية سيدة اسمها صبح أو صبيحة، وهي نصرانية نافارية، كانت زوجة الحكم المستنصر بالله خليفة الأندلس (٣٦٦ - ٩٦١ - ٩٧٦) وأم ولده هشام المؤيد بالله، وكانت من الأسپانيات الأسرى^(١)، وكانت على قسط كبير من الجمال، وقد ولدت للحكم ابنه عبد الرحمن عام ٥٣٢ - ٩٦٢ م، وولدت له كذلك ابنه هشاماً عام ٣٥٤ هـ، ولما توفي ابنه عبد الرحمن صار هشام ولي العهد عام ٣٦٥ هـ. وكان من الموظفين في ديوان

(١) من هؤلاء الأسرى : أيلونا القرطبة، أئللة رودريك ملك القوط عند الفتح، وبسمها العرب أم عاصم، وقد تزوجها عبد العزيز بن موسى بن نصیر. وكانت أم عبد الرحمن الناصر اسمها « ماريا » وهي إسپانية نصرانية تزوجها الأمير محمد بن محمد.

الحكم شاب اسمه محمد بن عبدالله بن أبي عامر المعافري، وكان له نفوذ كبير لدى الحكم وزوجته صبيحة. ولما مات الحكم كان النفوذ ثلاثة: صبح أم هشام، وال الحاج جعفر بن عثمان المصحفي، ومحمد بن أبي عامر، ورفع بعد قليل ابن أبي عامر إلى رتبة الوزارة.

— ١٣ —

التراث الأندلسي

لن يستطيع أحد في إسبانيا أن يجيب عن هذا السؤال العزيز: أين الشمانون ألف كتاب التي أمر «الكرديبال شيمتر» بحرقها في ساحات غرناطة بعيد استظهارهم عليها، فأحرقوها وهم لا يعلمون ما يعلمون، حتى أفنوا — على ما قال مؤرخهم «ربليس» — ألف ألف وخمسة آلاف مجلد كلها خطتها أقلام العرب، وليتهم يخبروننا : كم من كتاب لعبت بهم نيرانهم بعد ذلك، وماذا يقولون عن السفن الثلاث التي ظفروا بها مشحونة بالمجلدات العربية الضخمة وطالبة ديار سلطان مراكش فسلبوها، وألقوا كتبها في قصر الأسكنوريال سنة ١٦٧١ م — ١٠٨٢ هـ، حتى لعبت بها التيران فأكلت أغلبها... وتولى ميخائيل القصيري تكوين مكتبة الأسكنوريال بما بقي منها، وكان نحو ١٨٥١ كتاباً^(١).

(١) مجلة المقاطف — السنة الثالثة — ص ٧

الأميرة الصغيرة

الأندلس نار تشتعل، ملوك الطوائف كل منهم مشغول بأمر مملكته الصغيرة، والنزاع بينهم يشتد، والأفرنجية من الأسبان يستولون في ظل هذا الضعف السياسي الخطير، والعجز الحربي الواضح، على المدن الأندلسية مدينة أثر مدينة.

والمعتمد بن عياد ملك إشبيلية في هم ثاحب، وقلق شديد، وفرع رهيب، فعاصمة مملكه إشبيلية تكاد تسقط في يد الأسبان، وأعيان إشبيلية ورجالات الدولة، في لقاءات مستمرة، وها هم أولاء يجتمعون بالمعتمد، ويجمعون الرأي على أن لا مفر من الاستجاجاد بسلطان المرابطين في المغرب، لوقف الرمح الإسباني على إشبيلية.. والمعتمد يستمع إليهم، وبدأ يميل إلى مشورتهم ورأيهم، وتحذرره زوجته اعتماد الرميكية من العاقبة، وتحذرره الملتفون حوله من رجال الحاشية، لأن مجده ابن تاشفين معناته ذهاب ملك بني عياد، فبرد المعتمد عليهم ردًا بليغاً فاصلاً : لأن أكون حادي أبل في «مراكش » أفضل لي من أن أكون راعي خنازير في « قشتالة » ..

وبعد المعتمد إلى سلطان المرابطين يستجاجد به، فرد عليه ردًا بليغاً، وأكد له انه هو وجشه في الطريق إليهم ..

ودخل ابن تاشفين إشبيلية، وعسكر جيشه في المعسكرات خارج المدينة، ورحب به ابن عياد ترحيباً كبيراً، واجمل له ولجيشه الكبير في الضيافة، وبدأ الجميع يستعدون للمعركة القادمة..

وكان النصر العظيم الذي أحرزه ابن تاشفين والمعتمد في معركة « الزلاقة » عام ١٠٨٦هـ/٤٧٩ م حاسماً ومدوياً، وأنهار الأسبان، وسحقت قواتهم سحقاً شديداً، واستعاد الاندلسيون الأمن والطمأنينة،

وهذا المعتمد واطمأن على عرشه التي كادت تعصف به الأحداث.

ولكن الملك الغربي بدأ يفرض هيمنته على ملوك الطوائف وبدأ يولي من يشاء ويعزل من يشاء، وجاء الدور على المعتمد نفسه، فاستولى السلطان على الحكم في أشبيلية، وقرر نفي ابن عياد هو وأسرته وحاشيته إلى مدينة (اغمات) الصغيرة في المغرب، وأصبح للمرابطين أمبراطورية واسعة، تمتد من المغرب الأوسط (الجزائر) إلى المغرب الأقصى وغاناً ومالي والسنغال والتاجر وبعض الأطراف الأخرى.

واستعد المعتمد للرحيل، والدموع تساقط من مآقِه غزيرة على خده، ومعه زوجته الرميكية ذات الدلال والجمال.. وجاء الرعاع من السوق فهاجموا القصر في اللحظات الأخيرة، واعملوا في السلب والنهب، ثم اشعلوا النار فيه، ولم يدر المعتمد من الأمر شيئاً، وأطفال المعتمد أصبحوا لا يعرفون ماذا يفعلون..

وها هي ذي الأميرة الصغيرة بثينة بنت المعتمد تهرب من القصر والنار مشتعلة فيه، وهي لا تدرِّي ابن تسير، وأبواها لا يدرِّيان من أمرها شيئاً.

وجاء رجل من السوق فأخذها إلى منزله، ثم خرج بها في الصباح إلى سوق الجواري فباعها فيه على أنها رفيقة تاجر ثري من تاجر أشبيلية. واستسلمت الأميرة الصغيرة لحكم القدر، وصارت لا تكف عن البكاء والدموع كلما خلت إلى نفسها.. ولجمالها المفرط واديتها الجم، عاملتها سيدها معاملة طيبة، واحتذت تكبر شيئاً فشيئاً، الا ان خوفها على فراق أبويها ومصيرهما المظلم لم ينقطع أبداً.

ورأى فيها التاجر ملامح الذكاء والأدب والظرف فرشحها لأحد ابناءه لكونه أم ولد له، وأخذ التاجر وابنه يستعدان لهذا اليوم الموعود. وهنا بدأت الأميرة تفصح عن نسبها، أنها حرة لا رقيقة، وهي

من بيتبني عباد، وبنت ملك اشبيلية المعتمد المعزول، وهي لا تحل لأحد الا بعد زواج، ثم هي لا تمانع في هذا الزواج، ولكن لا بد من موافقة ولي امرها الملك الاشبيلي في أغمات، وانها ترى ان ترسل الى أبيها رسالة تستأذنه في الموافقة على هذا الزواج.

وكان المعتمد وزوجته في أغمات يتحملون مع آلام النفي وعذاب الغربة، مراة حرمائهم من بتهم الأميرة الصغيرة، وجهلهم بمصبرها.

وفجأة وصلتهم رسالة من الأميرة الصغيرة، تحكي فيها قصتها، وتستشير أنها في هذا الموقف، الذي وضعتها الأقدار فيه، وتقول لأبيها شرعاً، وماذا تقول الأميرة بنتية لأبيها المعتمد ولأمها الرميكية؟ إنها لا تملك النساء على الانسان المرشح للزواج منها :

اسمع كلامي واستمع لمقاتلي فهي السلوك بدث في الأجياد
لا تكروا اني سبت وأنثى بنت لملك من بنى عباد
ملك عظيم قد تولى عصره وكذا الزمان يُؤول للاقداد
لما أراد الله فرقة شملنا
قام النفاق على أبي في ملكه
فدنى الفراق ولم يكن بمراد
لم يأت في أفعاله بسداد
قد ياعني بيع العبيد فضمني
وارادني لزواجه نجل ظاهر
حسن الخلاق من بنى الأنجاد^(١)
ومضى اليك يوم رأيك في الضا
ولأنت تنظر في طريق رشادي
فساك يأجبي تعرقني به
اذ كان من من يرتاحي والوداد
عسى (رميكية) الملوك بفضلها
تدعو لنا باليمن والاسعاد

قصيدة شعرية مؤثرة حزينة، ووصلت الرسالة يحملها المرشح للزواج

(١) أي إلا من الأحران.

(٢) أي الشجعان الأبطال.

من الأميرة الى يدي المعتمد، فلم يمالك المعتمد نفسه من البكاء الشديد هو وزوجته الملكة أم الأميرة بشينة، ورحبا بالرسول الكريم، وأكرماه في منزلهما الصغير، في أغمات إكراماً حانياً.

وبمقدار ذكاء المعتمد وحصانته السياسية لم يدر ماذا يصنع؟ ولكنه لم يوجد مقرأً من الموافقة على هذا الزواج، وببارك للزوج فيه، فكتب عقد زواج ابنته بشينة على الشاب المهدب الذي كان رسول الأميرة إليه، وأشهد نفسه على عقد زواجها منه، وكتب إليها رسالة صغيرة مملوكة بأخر العاطف، وفيها يقول لابنته الأميرة العروس :

بنitti كونسي به بسراً فقد قضى الدهر باسعاده
وسائل الزوج يحمل رسالة الملك الأشبيلي المعزول المنفي في أغمات،
إلى ابنته الأميرة بشينة في أشبيلية.

فأخذت الرسالة وقبلتها ووضعتها إلى صدرها في فرح وبكاء.

ثانياً - الحياة الفكرية في الأندلس

تمهيد

١ - قوام الحياة الفكرية في أي مجتمع أو شعب، هو انتشار الثقافة إلى حد بعيد انتشاراً يجعل في استطاعة كثير من الناس أن يفكروا بقولهم، لا عن تقليد أو متابعة للحياة في سيرها الوئيد، ويضاف إلى ذلك الفكر الحر واستعان رجال من أذناد العلماء بعلوم الفلسفة التي تكون العقل المستثير الوعي المدرك لكل ما حوله من مظاهر الحياة والوجود، الدائب على تسخير الحياة للإنسان، لا تسخير الإنسان للحياة؛ والحياة الفكرية مع ذلك لا بد لها من ذيوع الحرية في المجتمع ليمستطع كل إنسان أن يفكر بعقله كما يجب أن يفكر، وأن يبحث كما يريد البحث، وأن يستنتاج ما شاء له التفكير، ومستطع أن نقول: إن ذيوع الثقافة في الأندلس أمر مسلم، وستحدث تفصيل عن ألوان العلوم والفنون والأداب التي عرفت وذاعت في الأندلس بعد ذلك بقليل، أما حرية التفكير ومدى انتشار مباحث الفلسفة في الأندلس فيهمنا أن نتحدث عنهما بشيء من التفصيل.

لقد كانت الثقافة العامة دائمة في الأندلس، ومع ذلك فقد كان للأندلسيين نصيب كبير في العلوم والأداب والفنون، وتعلق ظاهر بالعلوم الشرعية كالتفسير وخدمة الحديث والفقه والأصول، وكذلك العلوم العربية

كالآدب والنحو واللغة، ظهر في ابن عبد ربه الأندلسي صاحب كتاب «العقد الفريد» الذي يعد من أهم مصادر الآدب العربي، وابن سيده صاحب المخصص؛ وقد عنوا عنابة فائقة بالتاريخ، ظهرت في أديبهم من نثر وشعر، وبرز فيه ابن الأقطس وابن حيان وابن بسام وابن بشكوال، هنا كله عدا معرفتهم بفنون الطب والتبرات والكيمياء والعمارة والموسيقى، وهذا عدا ما كانوا يمتازون به من ذوق لطيف، وأذن ناقدة، وبصر بمحاسن الكلام وحسن تعبيره.

ويقول صاحب نفح الطيب: إن كل العلوم لها حظ عند الأندلسيين واعتناء إلأ الفلسفة والتنجيم، فإن لها حظاً عند خواصهم، ولا يتظاهر بهما خوف العامة، فإنه كلما قيل: فلان يقرأ الفلسفة أو يشتعل بالتنجيم أطلق على العامة اسم زنديق، وقدرت عليه أناقسة، فإن زل في شبهة رجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره إلى السلطان، أو يقتله السلطان تقرباً لقلوب العامة، وكثيراً ما يأمر ملوكهم بإحراف كتب هذا الشأن إذا وجدت، وبذلك تقرب المنصور بن أبي عامر لقلوبهم أول نهوضه، وإن كان غير حال من الاشتغال بذلك في الباطن^(١). ويدرك المقربي في مواضع من كتابه: أسماء بعض من اشتهروا بالتنجيم كأبي عبيدة مسلم بن أحمد المتفوقي في أواخر القرن الثالث وغيره. وإذا نحن أردنا أن نبحث الحركة الفكرية والفلسفية في الأندلس، فعلينا أن نخرج إلى نطاق أوسع في البحث والاستقصاء.

٢ — لم تكن في الأندلس قبل الفتح الإسلامي آراء وبحوث في الفلسفة، ولم يعرف سكان البلاد القدماء ولا علماؤها شيئاً عن فلسفة الإغريق، وكانت تقيم بها سلالات آرية، لم تحصن عقولها، ولم تخرج عن بدوتها الأولى، ولم يرتفع ذكرها إلى أفق الفلسفة، وكانت تقيم

(١) نفح الطيب ج ١ ص ١٣٦.

معها سلالات حامية أبعد ما تكون عن الفلسفة وعن التفكير العقلي، وسلالات سامة احتللت بالبربر، وشغلت بالتجارة والمالحة، فأُنْتَ تطبع عقولها على الفلسفة؟ ثم هذه القبائل الآرية المتريرة كالسلط والفنادل والقوط كانت تهاجم البلاد كثرة بعد أخرى، فلم يكن يستتب فيها أمن، ولا يفرغ فيها عقل إلى التفكير، وكانت البلاد مع هذا وهذا تدين بالوثنية فلم تشجع فيها هداية السماء وشاعر الوحي المسيحي إلا بعد الميلاد بقرون، أي نحو عام 589 م؛ والإغريق الذين أقاموا فيها هاجروا إليها قبل الميلاد بخمسة قرون أو نحو ذلك، أي أنهم هاجروا إليها قبل أن تنمو الفلسفة الإغريقية وتزدهر.

وامتزاج هذه الأمم في إسبانيا — وهي على ما رأيت من بعد عن الفلسفة وعن البحث المطلق — يحتاج إلى زمن بعيد؛ حتى تخرج منها أمّة واحدة مبتكرة مفكرة.

كانت إذن بلاد الأندلس خالية من العلوم فلم يتبغ منها في القديم عالم، وكانت عاطلة من الفلسفة فلم يخرج منها فيلسوف. بيد أنه كان فيها طلاسم قديمة، وكان بها سحر وكمان على عهد حكم الرومان، وكان آية السحر عندهم أن يبنوا قنطرة، أو يضعوا طلسمًا أو يحركون آلة بالهواء.

وعندما فتح العرب الأندلس واستقرّوا فيها، وزاعت العلوم عندهم، وكثرت هجرتهم إلى الشرق، وهجرة أهل المشرق إليهم، كانت الفلسفة وترجمة علومها ذاتلة في المشرق وخاصة في بغداد وشمال الجزيرة القراتية، ومن ذلك الحين بدأ الأندلسيون يتصلون بالفلسفة ومباحتها وعلومها؛ وإن كانت العلوم السائدة في الأندلس هي العلوم اللغوية والدينية والأدبية، فضلًا عن أن اختلاط الأمم والعناصر بعد الفتح لم يكن قد أتيح له الوقت الكافي بعد ليشرّق فلسفة وفكراً حراً، بيد أنه كان هناك أفراد يذهبون إلى بلاد المشرق، فيطلبون على ما هنالك من علم وفلسفة،

ثم جاء إلى بلاد المغرب أظهر ذلك أو كتبه، وكان الذين يظهرون ذلك يجدون مقاومة وتشهيراً من الأدباء والفقهاء؛ رحل من المغرب إلى المشرق أبو عبيدة مسلم بن أحمد بن أبي عبيدة البلنسي المعروف بصاحب القبلة، فسمع بمكمة من علي بن عبد العزيز، وبمصر من العزني والربيع بن سليمان المرادي ويونس بن عبد الأعلى ومحمد بن عبدالله ابن عبد الحكم وجماعة سواهم — وكان عالماً بالنجوم وحركات الكواكب وأحكامها وحسابها، وقد لقى عتنا من نظراته من الأدباء والفقهاء، فقد عابوا مذهبة، وأنكروا عليه، وشنعوا به، ومن شمع عليه أحمد بن محمد بن عبد ربه الأديب الأندلسي صاحب «العقد الفريد» المتوفى سنة ٣٢٨هـ فقد قال فيه:

يحكى ويخبر أسراراً للذى سألا
أبى عبيدة والمسؤول عن خبر
أبى إلا شنواه عن جماعتنا
وقد أبى فما تبغى بها بدلا
كذلك القبلة الأولى مبدلة
زعمت بهرام أو بذخت برزقنا
لا بل عطارد أو برجيس أو زحلا
وقلت إن جمبع الخلق في ذلك
بهم محيط وفيهم يقسم الأجيال
فوقاً وتحتها وصارت نقطة مثلاً
صيف الجنوب شفاء للشمال بها
فإن كانون في صنعاً وقرطبة
برد وأيلول يذكر فيها الشعلا
من القوانين يجلّي القول والعمل
كمما استمر ابن موسى في غوايته
توعر السهل حتى خلته جبلاً
إلى كفرت بما قالاً وما فعلها
أبلغ معاوية المصغى لقولهما

ففى ابن عبد ربه في هذه القصيدة الساخرة يهزأ بأبى عبيدة ويقتدى رأيه ويبطل مذهبة، وينهى عليه غوره وشنواه، فهو يلومه على أن عرض نفسه للسخرية والتهمة، وهو يعتب عليه أن شذ عن جماعة الفقهاء والأدباء وعن إجماعهم على تحريم النظر في ضلالات الحكمة ومربيات

الفلسفة والكلام، ثم هو ينبعه على خطأ رأي المرجحة ومذهب المعتزلة، وينبئ عليه أن ولـي وجه شطر بيت المقدس راصداً للنجوم في الأفلاك، وكيف؟ ولم يتوجه إليها؟ وقد بذلك القبلة الأولى منذ فجر الإسلام، ثم هو يذكر آراؤه ويعود عليها بالنقض.

وقد كان بدء ظهور الفلسفة في الأندلس في منتصف القرن الثالث الهجري.

علوم الفلسفة في الأندلس :

ووجدت الفلسفة هناك أولاً مقاومة شديدة، ومع ذلك فقد استمرت تخطو وتداء وتداء؛ وكان أول ما ظهر من فروع الفلسفة : علم الفلك والنجوم، ثم تلاهما علم الطب فعلم الكلام... ولما برغت الحضارة الأندلسية في عهد عبد الرحمن الناصر (٣٥٠-٣٥٠ هـ) شجع العلوم والفنون والأداب واشتري الكتب الشعينة وأكرم وفادة العلماء الذين رحلوا إليه من الشرق، وكان ابنه الحكم رئيساً لمعاهد قرطبة ومكتباتها ونواديها العلمية والأدبية، أي أنه كان بمثابة وزير للمعارف في حكومة الناصر؛ وقد كان نشأته بين أشهر الأساتذة وعلماء العربية أثر في ميله إلى الثقافة والأداب، واتصل الحكم ب الرجال التفكير الأندلسي، وغرس ذلك في نفسه حب الإطلاع والإقبال على الكتب والمسخاء في أمور العلم والثقافة وعلى العلماء والأدباء، وحراكه في ذلك الأمراء والولاة.

وتولى الحكم (٣٥٠ - ٩٦٦ - ٩٧٦ م)، فطلب من القاهرة وبغداد وشتي العواصم المخطوطات في الفلسفة والرياضيات وعلوم العربية والدين، وكان له في جميع بلاد الشرق عمال يجلبون له المؤلفات العربية والقديمة، وقد بعث بألف دينار لأبي الفرج الأصفهاني ليبعث له بنسخة من كتابه « الأغاني »، وكان للحكم مكتبة عظيمة قبل إنها

كانت تحتوي على أربعين مجلد، وقيل ستمائة الف، وكانت فهارسها تبلغ أربعة واربعين فهرساً ليس فيها إلا ذكر أسماء المؤلفات، وكان الحكم يطالع الكتب ويعلق عليها بخطه ويدرك شيئاً من حياة المؤلفين، وقل أن كان يوجد كتاب في مكتبه ليس له فيها تعليق، وقد قلده الشعب عامتهم وخاصتهم في حب الثقافة. وذاعت كتب الفلسفة ومذاهبها، وكان للطبع في الأندلس أربع جامعات كبيرة، وكان في قرطبة وحدها أكثر من ثمانين مدرسة، منها مدرسة جامع قرطبة الكبير، التي كان يلقى فيها «القالي» مجالسه الأدبية ودوره اللغوية، وكان الحكم يعقد الندوات العلمية والأدبية في قصره، ويجتمع بأفذاذ العلماء يجادلهم ويناظرهم، كما كان يشجع الشعراء ويشيرهم: وطار من أجل ذلك صيت العرب في الأندلس.

وقد أعجب أهل أوروبا علوم العرب وحضارتهم، وأقبلوا على الأندلس يتعلمون في جامعاتها، ويتعلمون على العلماء العرب، ويقرأون في مؤلفاتهم، ويترجمونها إلى لغاتهم، ويتحولون المناصب الرفيعة في بلادهم، حتى إن بابا روما جوبيرت سلفستر الثاني الذي ولـي البابوية عام ١٣٨٩هـ - ٩٩٦م كان من تعلمـوا في الأندلس على أيدي الأساتذة المسلمين.

وفي عهد الناصر والحكم نبغ بعض الفلاسفة، ومنهم: ابن التيمية من أهل قرطبة وكان بارعاً في النجوم والطب وشئـ الثقافـاتـ. وكان من رحل إلى المشرق وتوفي عام ١٣١٥هـ^(١)، ومنهم: السري عبدالله ابن محمد، وكان عالماً بالعدد والهندسة وتوفي نحو عام ٣٧٠هـ، ومنهم: محمد بن إسماعيل المتوفى عام ١٣٢١هـ، وقد رحل إلى المشرق وبرع في الطب والنجوم؛ وفي الأدب والشعر والموسيقى، وكذلك

(١) ١٠١ طبقات الأمم لصاعد.

أبو بكر بن أبي عيسى، وكان إماماً في الهندسة والنجوم وكان يعلمها^(٣).

ولما توفي الحكم خلقه ابنه هشام المؤيد وكان صغيراً يبلغ العاشرة من عمره، وكان لحاجبه المنصور بن أبي عامر سلطان عليه وعلى الدولة، فعمد المنصور إلى مكتبة الحكم وفتحها وأخرج منها كتب الفلسفة وأحرقها بمشهد الفقهاء، وبهذا أخذت الفلسفة في الانكماش، وسكن الفلسفة بعد أن تحركوا في عهد الناصر والحكم، وظلت الفلسفة إلى آخر عصر الدولة الأموية عام ٤٢٨هـ تلقى مقاومة واضطهاداً شديدين، ومن ثم نرى كيف أن الفلسفة نشأت في الأندلس متأخرة مستعارة من الشرق، وكيف قضت نصف قرن مكرهه مضطهدة، ثم نصفاً آخر حرجة آمنة، ثم نصفاً ثالثاً تلقى فيها المقاومة والعدف.

وفي عهد ملوك الطوائف شغلت الفتن ملوك قرطبة عن تعقب الفلسفه ومحاکمتهم؛ فاستعادت حرريها ونشاطها، ومع ذلك فقد بيعت المكتبات العامة والخاصة التي كانت تزين قصور قرطبة — بأبخس الأثمان، وتناولها الناس وقرأوا فيها الكثير. من بحوث الفلسفة التي نجت بعض مؤلفاتها من عسف ابن أبي عامر وأصحابه، فأمن الناس وأظهروا ما لديهم في الفلسفة من كتب، وأخذوا يهتمون بالعلم الرياضي وصناعة المنطق، دون العلم الطبيعي والعلم الإلهي، وصاروا يجادلون ويناظرون في مسائلها، وبنج فيها في هذا العهد وفي أهم عصر الدولة الأموية الكبير من الفلسفه، من أشهرهم :

١ — الإقليدي عبد الرحمن بن إسماعيل، وكان متقدماً في الهندسة والمنطق، وكان أبوه أحد وجوه قرطبة وولي الحسبة للحكم، وقد اختصر

الإقليدي كتب أسطو المنطقية الثمانية في كتاب لم يصلنا^(١).

٢ — أبو عثمان^(٢) سعيد بن فتحون السرقسطي، وقد أصيب بمحنة شديدة في عصر ابن أبي عامر، ولما اطلق سراحه هاجر إلى صقلية وتوفي بها عام ٤١٠هـ، وله رسالة في الموسيقى ورسالة شجرة الحكمة في المدخل إلى علوم الفلسفة.

٣ — المجريطي^(٣) مسلمة بن احمد المتوفى عام ٣٩٨هـ، وكان إمام الرياضيين في الأندلس في وقته، مع مهارة الفلك، وكان يدمن المطالعة في كتاب «المجسطي» بطليموس، وقد اختصر تعديل الكواكب في زيج الثنائي^(٤) وزاد في زيج الخوارزمي^(٥) جداول فلكية كثيرة، وحول تاريخه القارسي إلى التاريخ العربي، وتلمس عليه الكثيرون.

٤ — محمد بن الحسن وكان بصيراً بالطب والمنطق وسواهما، وتوفي عام ٤٢٠هـ.

٥ — الكرماني^(٦) عمر بن عبد الرحمن القرطبي (٣٦٨ - ٤٥٨هـ)، رحل إلى المشرق وتعلم في مدارس حران الهندسة والطب، ثم عاد إلى الأندلس وأقام بسرقسطة، وبعد من الفحول في الطب والهندسة والحساب، وهو أول من أدخل « رسائل إخوان الصفاء »

(١) ١٠٦ طبقات الأمم.

(٢) ١٠٧ طبقات الأمم لصاعد.

(٣) هو محمد بن حمير المتوفى عام ٣٠٧هـ وينسب إلى بنان من أعمال حران، وقد نبغ في الهندسة والنجوم.

(٤) هو محمد بن موسى الخوارزمي من علماء الهيئة وكان خازن دار الحكمة للسماوات، وله زيجان فلكيان.

(٥) ١٠٩ طبقات الأمم.

في الأندلس ولم يعرف أحد ادخلها قبله في هذه البلاد، فقرأها الكثيرون^(١).

٦ — هشام بن أحمد الطليطي الكناني وقد برع في المنطق والهندسة والكلام، وتوفي نحو ٤٥٤هـ.

٧ — الإمام الوزير ابن حزم على بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي (٣٨٤ - ٤٥٦هـ) ولد في بيت عريق في قرطبة وكان والده وزيراً للمنصور بن أبي عامر ولابنه المظفر بعده، وكان أخوه أبو محمد وزيراً للمستظر عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر، وقد تعلم ابن حزم على متأله العلامة والفلسفه، ونفع في علوم الشرعية وأصول الدين واللغة والأدب والتاريخ، وعني بالمنطق عنابة خاصة وألف فيه كتاب «القريب» وله «الفصل في الملل والتحلل» وكتاب «مراتب العلوم» وكثير من المؤلفات التي تبلغ أربعين مؤلفاً.

وكان ابن حزم شافعي المذهب، ثم اتبع مذهب داود الظاهري وأفطر في الدعوة له، وله حظ كبير في علوم اللغة والأدب، وكان شاعراً، ويروى له :

انا الشمس في جو العلوم منيرة ولكن عسى ان مطلعى الغرب
ولو اتنى من جانب الشرق طالع لجد على ما ضاع من ذكري الشهب
ولي نحو العراق صباة ولا غرو أن يستوحش الكلف الصب
ويقول المراكشي : « وهو أشهر علماء الأندلس وأكثرهم مذهب مالك
مجالس الرؤساء وعلى ألسنة العلماء، وذلك لمحالته مذهب مالك

(١) هذه الرسائل إحدى وخمسون مقالة في الفلسفة ألقاها في البصرة جماعة من الفلسفة في منتصف القرن الرابع وحيوا فيها الفلسفة إلى الناشئ، وذكروا فيها أن الكمال لا يتم إلا بتأهي الدين والفلسفة، ومن زعمائهم : زيد بن رفاعة والمقدسي.

(٢) راجع من ١١٧ طبقات الأمم الصاعد.

بالمغرب، واستبداده بعلم الظاهر ولم يشتهر به قبله أحد، وقد كثُر أهل مذهبة وأتباعه اليوم عندنا بالأندلس^(١).

وقد عاش ثرياً ميجلاً، حتى مات عن إحدى وسبعين سنة، وهو أحد الأفراد الذين وقفوا أنفسهم على تحصيل العلم ونشره، وقيل فيه: إنه كان أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام. ويصفه بعض معاصريه فيقول: وما رأينا مثله فيما اجتمع له من الذكاء وسرعة الحفظ والدين، وكان له في الآداب والشعر نفس واسع، وباع طويلاً، وما رأيت من يقول الشعر على البيهية أسرع منه، وله مؤلفات كثيرة في الحديث والأصول، والأخلاق والسير، والآساتذة. ومن أشهر كتبه غير كتاب الفصل: شرح الموطأ للإمام مالك، والجامع في صحيح الحديث ومداواة النفوس، والمعروف بالأخلاق والسير. وغير ذلك كثير، ولا ينحصر ترجم في كتاب الصلة لابن بشكوال وفي كتاب بغية الملتحم للضبي، وفي وفيات الأعيان لابن خلكان، وفي طبقات الأمم لصاعد، وغير ذلك من المراجع.

ومن فصوله في كتابه «الفصل في الملل والتحل»^(٢) فصل كتبه في الكلام على من انكر الشرائع من المنتهيين^(٣) إلى الفلسفة^(٤):

(١) الفصل: الفروق أو الأقضية والأحكام، جمع فصلة، والمثل: الأديان والشائعات جمع ملة، والتحل: المذاهب وأسلها الداعوى جميع نحلة، والتخل: كقطعة وقطع وفرق، وهذا المركب يجعله أصبح علماً على هذا الكتاب.

(٢) من الانماء وهو الاتساب والاعتراض.

(٣) أصلها كلمة يونانية مرکبة من كلمتين، هما (فیلوس) أي صحبة و (سوفا) أي الحكمة، فيكون معناها: صحبة الحكمة، والفلسوف هو صحب الحكمة، وقد آثر الحكماء وصف أنفسهم بصحبة الحكمة دون الحكمة نفسها التي هي العلم بحقائق الأشياء، لأن الحكم الحق هو الله سبحانه وتعالى: وهو نوعان: نظرية وهي إيمان بهبة وإنما طبيعية وإنما رياضية، وعلمية وهي الأخلاق والتدبر المنزلي والتدبر السياسي. ويرى طائفة من القدماء أن هذا النوع هو ثمرة النوع الآخر والغرض منه: وسيجري على ذلك ابن حزم في هذا الفصل.

الفلسفة — على الحقيقة — إنما معناها وثمرتها والغرض المقصود نحوه^(١) بتعليمها، ليس هو شيئاً غير إصلاح النفس، لأن تستعمل في دنياها الفضائل وحسن السيرة المؤدية إلى سلامتها في المعاد، وحسن السياسة للمنزل والرعاية^(٢) وهذا نفسه لا غيره هو الغرض في الشريعة^(٣) (الإسلامية). هنا ما لا خلاف فيه بين أحد من العلماء بالفلسفة ولا بين أحد من العلماء بالشريعة. فيقال لمن أنتهى إلى الفلسفة بزعمه، وهو ينكر الشريعة بجهله — على الحقيقة — بمعانى الفلسفة^(٤) وبعد عن الوقوف على عرضها ومعناها : أليست الفلسفة^(٥) بإجماع من الفلاسفة، مبينة^(٦) للفضائل من الرذائل. موقفة على البراهين المفرقة بين الحق والباطل ؟ فلا بد من نعم ضرورة^(٧). فيقال له : أليس الفلسفة كلهم قد قالوا : إصلاح العالم بشيئين : أحدهما باطن والآخر ظاهر. فالباطن هو استعمال النفس للشارع الراجرة^(٨) عن تظالم^(٩) الناس وعن القبائح، والظاهر هو التحصين بالأسوار، واتخاذ السلاح لدفع العدو الذي يريد ظلم الناس والإفساد، ثم أضافوا إلى إصلاح النفوس بما ذكرنا : إصلاح الأجساد بالطبع ؟ فلا بد من نعم ضرورة.

(١) جهة وناحية.

(٢) فمثلاً يعني مفهوم أي المزعنة من الرعاية وهي السياسة والتدبير والحفظ.

(٣) في يعني أي الغرض من الشريعة.

(٤) أي سبب جعله بمعانى الفلسفة على الحقيقة، أي حالة تكون جهة كائناً على الحقيقة،

فهي الكلام تقديم وتأخير كما رأيت.

(٥) مقول القول، والاستفهام هنا التقرير بما بعد النبي لأنه إنكار للنفي.

(٦) أي مميزة ومفرقة، من باب الشيء يعني افرق وانفصل.

(٧) أي إذا قيل له ذلك فلا مفر ولا مناص من أن يقول نعم، وضرورة منصوبة على

التحيز لأن المعنى : أن حجية ذلك الجواب حاصلة من جهة الضرورة.

(٨) المائمة والنهاية، وإسناد الرجز إلى الشرائع التي يرجز بها محار عقلي.

(٩) أن يظلم الناس بعضهم بعضاً، وهذه الصيحة تدل على المشاركة كالفضائل والتضارب.

فيقال لهم : فهل صلاح العالم، وانكماف الناس^(١) عن القتل الذي فيه فناء الخلق وعن الزنا الذي فيه فساد النسل، وخراب المواريث، وعن الظلم الذي فيهضرر على الأنفس والأموال، وخراب الأرض، وعن الرذائل من البغي والحسد والكذب والجبن والبخل والنميمة والفسق والخيانة، وسائر الرذائل، إلا لشائع زاجرة^(٢) الناس عن كل ذلك ؟ فلا بد من نعم ضرورة، وإلا وجب^(٣) الإهمال الذي فيه فساد كل ما ذكرنا. فإذا^(٤) لا بد من ذلك، ولو لا ذلك^(٥) لفسد العالم كله، ولفسدت العلوم^(٦) كلها، ولكن الإنسان قد يطلب فضيلة الفهم^(٧) والنطق والعقل الذي فيه، وصار كالبهائم فلا تخلو^(٨) تلك الشائع من أحد وجهين : إما أن تكون صحاحاً من عند الله عز وجل الذي هو خالق العالم ومديره^(٩) كما يقول أصحاب الشائع، وإما أن تكون

(١) امتناعهم، من كفه إذا منه.

(٢) يعني : إلا تقتضي وتعلول هذا الصلاح الشائع.

(٣) أي وإن لا يكن انكماف الناس عن الرذائل مقتضي الشائع، ثبت وازم لامال الشائع لما به إصلاح العالم وتقتضيها له.

(٤) أي فإذا ثزم الإهمال المؤدي إلى الفساد وترتب على نفي أن يكون إصلاح العالم مقتضي للشائع وهو باطل، فلا بد ولا مفر من جعله مقتضاها ولازماً لها لنزههما عن ذلك.

(٥) أي ولو لا القضاء الشائع لما به صلاح العالم.

(٦) أي من حيث فقدانها ثبرتها التي عرفتها قبل.

(٧) أي انتفت الفضيلة التي هي الفهم فالإضافة بياية، والفهم وما عطف عليه يعني واحد. وذلك أن قاعدة المثل هي النظر وتحصيل العلم. وقد يطلب العلوم التي هي مطلوب العقول وتراثها يibraltar المادية والمرتضى منه الذي هو الفضائل على تقديره إهمال الشائع للفضائل. ثبت يطلبان ذلك وثبت أن الفضائل هي مقتضي ولازم للشائع.

(٨) أي فإذا سلم ذلك فلا تخلو الشائع.

(٩) التدبر : التصريف على مقتضي الحكمة.

موضوعة^(١) من أفضليات الحكام لسياسة الناس بها^(٢)، وكفهم عن النظام والرذائل. فإن كانت موضوعة كما يقول هؤلاء المخاذيل^(٣) فقد تيقنا أن ما ألموا الناس من ذلك كذب لا أصل له، وزور مختلف، وإيجاب لما لا يجاح، وباطل لا حقيقة له، ووعيد ووعد^(٤)، وكلاهما كذب. فإن كان ذلك كذلك^(٥) فقد صار الكذب^(٦) الذي هو أرذل الرذائل، وأعظم الشرور، لا يتم صلاح العالم الذي هو الغرض من طلب الفضائل إلا به. وإذا كان ذلك كذلك فقد صار الحق باطلاً، والصدق رذيلة، وصار الباطل حقاً وصادقاً، والكذب فضيلة، وصار لا قوام للعالم أصلاً إلا بالباطل، وصار الكذب نتيجة الحق^(٧)، وصار الباطل ثمرة الصدق^(٨)، وصار الفسق والفسق والخدعية فضائل ونضيحه، وهذا أعظم ما يكون من المحال والممتنع والخلف^(٩) الذي لا مدخل له في العقل^(١٠).

وفي هذا النص نجد ابن حزم يذهب في الاستدلال على قيام شرائع

(١) أي مبنية مخترعة باصطلاح الحكام.

(٢) السياسة : التدبير.

(٣) جمع مخلوقون من الخذلان ضد التوفيق.

(٤) الوعيد : الإنذار والتهديد والمشهور اختصاص الوعيد بالخير كاختصاص الوعيد بالشر.

(٥) وهو متبع في مثل هذا التصريح.

(٦) أي فإن كان ما ألموا الناس به على تقدير أن الشرائع من وضع الحكام كما

فكان من أنه كذب وزور الخ.

(٧) المراد به كذبهم على الله في نسبة الشرائع إليه على هذا التقدير، وكذب ما تضمنه من الوعيد بالعقاب والوعد بالثواب الآخرين.

(٨) مكتنباً في الأصل.

(٩) الظاهر ثمرة.

(١٠) الخلف بالضم الاختلاف، والتناقض أن تكون النتيجة على خلاف المفروض وبالفتح الرديء من الكلام، والظاهر هنا الأول.

(١١) كتابة عن عدم قول العقل له.

من عند الله سبحانه وتعالى، والرد على من يتسبون كذبًا إلى الفلسفة ويزعمون أن الشرائع من وضع الحكماء، خلافاً لما توجه أصول الفلسفة جمياً من صحة الشرائع، إلى أن الفلسفة تتفق مع الشريعة في أن المقصود من كل منها هو استعمال الفضائل في الدنيا لصلة الناس إلى إصلاح النفوس وسلامة الناس في المعاش والمعاد. فيقال لمن أنكر الشريعة من ينسبون إلى الفلسفة بزعمهم وهم أجهل الناس بمعانها : إن ما به هذا الصلاح وتلك السلامة إما أن يكون مقتضي الشرائع تفرق بين الحق والباطل وبين الفضيلة من الرذيلة، وتأمر بأسباب السلامة، وتزجر وتنهى عن أسباب ال�لاك، وإما أن يكون فتكون الشرائع قد أهملت ذلك وأضاعته. ولزوم ذلك للشروع محال لأنها متزهة عن التصنيع والإهمال. وذلك أن الإهمال فساد، والشرع لا تقتضي الفساد وإنما تقتضي الصلاح. فلا بد إذن أن يكون ما به صلاح النفوس وسلامة الناس في المعاش والمعاد مقتضي ولازماً للشرع لا لغيرها، وإلا فسد العالم وقدست المعرفات كلها؛ لأن ثمرة المعرفات والغرض منها هي ذلك، لافتت كذلك فضيلة العقل الذي به المعرفة والعلم ببطلان ثمرة العلم والمعرفة إذن، فإذا سلم بذلك فلا تخلو هذه الشرائع من أن تكون من عند الله خالق العالم ومديره ومصرفة على مقتضي الحكمة والعالم بما يصلحه وما به سلامة الناس في المعاش والمعاد. وإنما تكون هذه الشرائع من صنع الحكماء ووضعهم، إلا أنهم نسوها كذبًا وزوراً إلى الله سبحانه وتعالى، فوعدوا الناس بثواب لا أصل له، وتوعدوهم بعقاب لا حقيقة له، كما هو مقتضي قول أهل الخدلان وبطلان من يتسبون بزعمهم إلى الفلسفة، وهم أجهل الناس بأغراضها ومعانها، وذلك يؤدي إلى محالات هي :

أ— أن يكون ما أوجبه الشرائع على الناس غير واجب عليهم لأنه كذب لا أصل له وباطل لا حقيقة له.

ب — أن يكون الكذب كهذه الشرائع الموضوعة لا يتم صلاح العالم الذي هو الغرض من الفضائل إلا به، وبذلك يصير العالم الذي أقامه الله على الحق قاتلاً على الباطل وعلى الكذب الذي هو أرذل الرذائل وأعظم الشرور.

ج — وأن يصير الحق باطلًا بواسطة أنه أمر به وحمل عليه الباطل، والصدق رذيلة لأنه إنما أمرت به شرائع كاذبة.

د — وأن يصير كذلك الباطل كالشريعات الموضوعة حقاً وصادقاً بواسطة أن الحق ومقتضاه، ويصير الكذب فضيلة لأدائه إليها.

ه — وأن يصير نتيجة الكذب الحق وثمرة الباطل الصدق.

و — وأن يصير خصال الغرور والغش والخديعة إلى أضدادها فتصير من باب الفضائل والتصحية. وهذا كله أعظم ما يكون من المجال الذي يمتنع قوله في العقل، فما استلزم ذلك من كون الشرائع من وضع الحكماء هو كذلك في الإحالات والبطلان؛ لأن ما استلزم المجال فهو محال.

٧ — عبد الرحمن بن أحمد اللخمي، وقد درس كتب جاليتوس وأرسطو ومهر في الطب والأدوية، وألف فيها كتاباً جليلاً لا نظير له، وتوفي حوالي عام ٤٧٠ هـ.

٨ — ابن خلدون أبو مسلم عمرو بن أحمد الخضرمي، من أشراف أهل إشبيلية في علوم الفلسفة، مشهوراً بعلم الهندسة والطب والنجوم، وتوفي عام ٤٤٩ هـ.

٩ — ابن السمع^(١) أبو القاسم أصيغ بن محمد، وكان بارعاً في العدد والهندسة والفلك وحركتات النجوم والطب، ومن كتبه : المدخل

(١) ١٠٧ و ١٠٨ طبقات صاعد.

إلى الهندسة في تفسير كتاب إقليدس، وكتاب ثمار العدد، وكتاب طبيعة العدد، وكتابه الكبير في الهندسة، وكتاباً في الآلة المسماة بالاسطرلاب، ومن كتبه: زيجه الذي ألقه على أحد مناهب الهند المعروف بالستند هند، وكان من تلامذة المجريطي، وتوفي في غرناطة سنة ٤٤٢٦هـ عن ست وخمسين سنة، وميلاده عام ٣٧٠هـ.

١٠ — ابن الصفار^(١) أحمد بن عبد الله بن عمر، وكان مشهوراً في العدد والهندسة والنجوم، وقد في قرطبة لتعليم هذه العلوم، وأدركه الفتنة في قرطبة أيام أبي عامر، ثم خرج منها إلى دانية عاصمة الأمير مجاهد العامري على الساحل الأندلسي الشرقي وتوفي بها، وكان له أخ اسمه محمد، شهر بعمل الاسطرلاب^(٢).

١١ — ابن برغوث المتوفى عام ٤٤٩هـ وكان بارعاً في العلوم الرياضية^(٣).

١٢ — أبو القاسم حلف بن عباس الزهراوي المتوفى عام ٥٠٠هـ، وهو من الأطباء، وله في الطب كتب.

(١) ١٠٨ المرجع نفسه.

(٢) لفظة يونانية مركبة من «استرون» بمعنى كوكب، و«لاني» بمعنى أحد، معاها أحد الكواكب، ويفسرها العرب بيزان الشمس أو بيزان الكواكب، وهي آلة يوصل بها إلى معرفة كثير من أحوال الكواكب على أهل طريق وأقرب مأخذ، كارتفاع الشمس ومست القبة وعرض البلاد وسوى ذلك، وأول من صنع الاسطرلاب بطليموس، وأول من علمه في الإسلام إبراهيم بن حبيب الفزاروي، وقيل إن الأوائل كانوا يدخلون كرة على مثال الغلوك ويرسمون عليها الدوائر ويفسرون بها الليل والنهار وبصخون بها الطالع إلى زمن إدريس، وأن ابن إدريس اسمه «لام» هو الذي صنعوا — وقد حللت في عصرنا الآلات الحديثة محل الاسطرلاب.

أما الريح الذي سبق ذكره فهو جدول يستدل به على حركة الأفلاك لأجل تقويم مواعدها، وأقدم الزيجات: زيج بطليموس، والريح ينفع في الأسفار البحرية وفي علم الهيئة.

(٣) ١١١ صاعد الأندلسي.

١٣ — ابن شهر^(١) مختار بن عبد الرحمن، كان بصيراً بالهندسة والنجوم بليناً شاعراً متكلماً، ولـي قضاء العـرية في آخر دولة زهير العامري سنة ٤٢٧ هـ وتوفي بمدينة قرطبة عام ٥٤٣ هـ.

ومنهم ابن العطار^(٢)، وابن الليث^(٣) المتوفى في بنسية عام ٤٠٥ هـ، وكان يقلد فيها القضاة.. وابن حـي^(٤) الذي خـرج من الأندلس عام ٤٢٢ هـ إلى مصر فاليمـن، وتـوفي باليمـن عام ٤٥٦ هـ.. وابن الجـلـاب^(٥)، وأبـو الحـسـن عـلـيـ بنـ اـسـمـاعـيلـ بنـ سـيـدـهـ الأـعـمـيـ، وـهـ أـعـلـمـ أـهـلـ قـرـطـبـةـ بـالـتـحـوـ وـالـلـغـةـ وـالـشـعـرـ، وـلـهـ كـاتـبـ الـمـخـصـصـ، وـقـدـ عـنـيـ بـعـلـومـ الـمـنـطـقـ عـنـيـةـ كـبـيرـةـ وـأـلـفـ فـيـهاـ مـؤـلـفـاـ كـبـيرـاـ وـتـوفـيـ سـنةـ ٤٥٨ هـ عن سـيـنـ سـنـةـ وـمـيـلـادـهـ نـحـوـ عـامـ ٣٩٨ هـ، وـالـقـاضـيـ صـاعـدـ الـأـنـدـلـسـ المتـوفـيـ عـامـ ٤٦٢ هـ، صـاحـبـ كـاتـبـ «ـ طـبـاتـ الـأـمـ ».

وـمـنـ الـأـطـيـاءـ فـيـ الـأـنـدـلـسـ : أـبـوـ مـرـوـانـ عـبـدـ الـمـلـكـ بـنـ زـهـرـ الـأـشـيـلـيـ^(٦) وـابـنـ الـذـهـنـيـ الـمـتـوفـيـ بـلـنـسـيـةـ عـامـ ٤٥٦ هـ، وـأـبـوـ الـمـطـرـفـ عـبـدـ الرـحـمـنـ بـنـ مـحـمـدـ^(٧) وـكـانـ مـيـلـادـهـ عـامـ ٣٩٨ مـ، وـأـقـامـ فـيـ طـلـيـطـلـةـ، وـسـعـيدـ بـنـ مـحـمـدـ بـنـ الـبـغـوـنـشـ^(٨) (٣٦٩ - ٤٤٤ هـ) وـهـ مـنـ أـهـلـ طـلـيـطـلـةـ، وـبـيـوسـفـ بـنـ مـحـمـدـ^(٩) (٣٤٥ - ٤٣٥ هـ) وـالـكـاتـبـ أـبـوـ عـبـدـالـلـهـ مـحـمـدـ بـنـ الـحـسـنـ^(١٠) (٤٢٠ - ٣٤٠ هـ) وـمـحـمـدـ بـنـ عـبـدـونـ، وـقـدـ رـجـلـ

(١) ١١١ صـاعـدـ الـأـنـدـلـسـ.

(٢) المرـجـعـ نفسهـ.

(٣) ١١٣ صـاعـدـ الـأـنـدـلـسـ.

(٤) المرـجـعـ نفسهـ.

(٥) ١١٤ المرـجـعـ نفسهـ.

(٦) ١٢٩ المرـجـعـ نفسهـ.

(٧) ١٢٨ المرـجـعـ نفسهـ.

(٨) ١٢٧ المرـجـعـ نفسهـ.

(٩) ١٢٦ المرـجـعـ نفسهـ.

(١٠) ١٢٥ المرـجـعـ نفسهـ.

إلى المشرق وعاد عام ٣٦٠هـ وخدم المستنصر^(١) ويحيى بن اسحق أحد وزراء الناصر وله في الطب كتاب كبير في خمسة أسفار ذهب فيه مذهب اليونانيين في الطب^(٢) وسعيد بن عبد الرحمن بن عبد ربه ابن أخي محمد صاحب « العقد الفريد »، وكان طيباً نبيلاً وشاعراً محسناً، وله رجز طويل في الطب، وكان له أيضاً بصر بالكتواكب^(٣)، وأحمد وعر ابنها يونس^(٤)، وقد رحلا إلى المشرق عام ٣٤١هـ، وعاد منه عام ٣٥١هـ، فألحقهما الحكم بخدمته في الطب، واستخلصهما لنفسه من سائر الأطباء وعاش أحمد بعد أخيه طويلاً، وكان يارعاً في أمراض العين.

مقاومة الفلسفة في الأندلس :

وفي عهد المرابطين لقيت علوم الفلسفة مقاومة شديدة، فاختفى الفلسفة وسكتت مباحث الفلسفة، ولما وصلت كتب الغزالي أمر على ابن يوسف بن تاشفين بإحرافها، وانقطع الناس عن الأبحاث الفلسفية والمجادلة فيها، إلى أن ضعفت دولة المرابطين، وفي عهد الموحدين استمرت مقاومة الفلسفة إلا في عهد يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨-٥٥٨هـ) الذي أطلق حرية الفلسفة والمفكرين، وكان عصره غرة في جبين الحياة الفكرية في الأندلس.

وكان يوسف هذا ملماً بجميع فروع الثقافة، مؤثراً للعلم، محباً للأدب واللغة، مظلاً على التاريخ، درس الطب، وتعلم الفلسفة، وأمر بجمع كتبها، وكانت له مكتبة فلسفية كبيرة، وقرب إليه العلماء

(١) ١٢٤ صاعد الأندلسي.

(٢) ١٢١ المرجع نفسه.

(٣) المرجع نفسه.

(٤) ١٢٤ المرجع نفسه.

والفلاسفة، فصحبه أبو بكر محمد بن طفيلي الفيلسوف المتفقى عام ٥٨١هـ تلميذ ابن باجة وأستاذ ابن رشد وصاحب القصة الفلسفية المشهورة : « حى بن يقطان » .. وقد قرب هذا الخليفة إليه ابن رشد، فعيشه عام ٥٦٥هـ قاضياً في أشبيلية، وبعد ذلك يعمن عينه قاضياً في قرطبة، وفي سنة ٧٧٨هـ عينه قاضياً للقضاء في هذه المدينة، وقد لخص ابن رشد له كتاب أسطو المنطقية الشامية. وكان يجادل ابن طفيلي وابن رشد في مباحث الفلسفة حتى عظم شأنها في عهده. وخلفه ابنه يعقوب (٥٩٥-٥٨٠هـ) فقرب إليه الصالحين والزهاد وعلماء الحديث، وأظهر الزهد والتقوى، وأراد أن يجمع الناس على مذهب واحد يستمد من ظاهر الكتاب والسنّة، فأمر بإحرار كتب مذهب مالك، وأمر العلماء بجمع الأحاديث الصحيحة في كتاب واحد، حمل الناس على حفظه وخاصة الفقهاء، ثم أمر بترك الاشتغال بالعلوم العقلية وعدم الخوض في شيء منها، وتوعّد على ذلك بالعقوبة الشديدة.

واشتد في مقاومة الفلسفة وأصحابها ومال إلى التصوف، وجعل حوله بطانة من شيوخ الطرق الذي أحتجقوه على الفلسفة عامة وعلى ابن رشد خاصة ومن سوء حظ هذا الفيلسوف أن جماعة من أعدائه قد اندسوا بين هؤلاء المتصوفين، وأخذتني يكيدون له من وراء ستار الدين حتى إذا استحکم العداء في نفس الأمير، أمر بالقبض على ابن رشد وتلاميذه المخلصين له، فجئ بهم وحوكموا أمام مجلس علىي، ولم يسمح لهم بالدفاع عن أنفسهم، وأسفرت المحاكمة عن نفيهم، فنفوا إلى « أليسانا ».

وعلى أثر أمر الخليفة ينفي ابن رشد إلى « أليسانا » وبإحرار كتبه، أذاع منشوراً شديداً من إنشاء عبدالله بن عياش، شهر فيه بالفلسفة، وحذر الشعب من كتب الفلسفة، وحرم على الناس الاشتغال بها. وهذا نصه :

« قد كان في سالف الدهر قوم خاضوا في بحور الأوهام، وأفر لهم عوامهم بشفوف عليهم في الأفهام، حيث لا داعي يدعو إلى الحي القيوم، ولا حاكم يفصل بين المشكوك فيه والمعلوم، فخلدوا في العالم صحفاً مالها من خلاق، مسودة المعانى والأوراق، بعدها من الشريعة بعد المشرقيين، وتباهيا تباهى الثقلين، يومنون أن العقل ميزانها، والحق برهانها، وهم يتشعبون في القضية الواحدة فرقاً، ويسيرون فيها شواكل وطرقاً، ذلكم بأن الله خلقهم للنار، وبعمل أهل النار يعملون، ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيمة، ومن أوزار الذي يضلوتهم بغير علم، إلا ساء ما يزرونه، ونشأ منهم في هذه السمعة البيضاء شياطين إنس يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون. يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً، ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يغترون. فكانوا عليها أضر من أهل الكتاب، وأبعد عن الرجعة إلى الله والماضي، لأن الكتابي يجتهد في ضلال، ويجد في كلام، وهؤلاء جهدهم في التعطيل، وقصارهم التمويه والتخييل، دبت عقاربهم في الآفاق ببرقة من الزمان إلى أن أطلعوا الله سبحانه منهم على رجال كان الدهر قدمنا لهم على شدة حروبهم، وعفي عنهم سنتين على كثرة ذنوبهم، وما أملى لهم إلا ليردادوا إنما، وما أمهلوا إلا ليأخذهم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علماً. وما زلت — وصل الله كرامتكم — نذكرهم على مقدار ظننا فيهم وندعوهم على بصيرة إلى ما يقربهم إلى الله سبحانه ويدينهم، فلما أراد الله فضيحة عماليتهم وكشف غواياتهم، وقف ليحضنهم على كتب مسطورة في الضلال، موجة أخذ كتاب صاحبها بالشمال، ظاهرها موشح بكتاب الله، وباطنها مصراح بالإعراض عن الله، ليس الإيمان منها بالظلم، وحيى منها بالحرب الزبونة في صورة المسلم، مزلة للأقدام، وهم يدب في باطن الإسلام، أسياف أهل الصليب دونها مغلولة، وأيديهم عما يناله هؤلاء مغلولة، فإذا بهم يوافقون الأمة في ظاهرهم وزيفهم ولسانهم، ويختلفونها بباطلهم وغيرهم

وبهاتهم. فلما وقنا منهم على ما هو قدى في جهن الدين، ونكتة سوداء في صفة التور العبيين، نبذناهم في الله تذ النواة، وأبغضناهم حيث يقصى السفهاء من الغواة، وأبغضناهم في الله، كما أنا نحب المؤمنين في الله، وقلنا : اللهم دينك هو الحق اليقين، وعبادك هم الموصوفون بالمتقين، وهو لاء قد صدروا عن آياتك، وعميت أبصارهم وبصائرهم عن بیناتك. فباعد أسفارهم وألحق بهم أشياعهم حيث كانوا وأنصارهم، ولم يكن بينهم إلا قليل وبين الإلحاد بالسيف في مجال أستتهم، والإيقاظ بحده من غفلتهم وستهم. ولكنهم وقووا بموقف الخزي والهون، ثم طردوا عن رحمة الله، ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكافرون. فاحذرؤا وفックم الله هذه الشرذمة على الإيمان حذركم من السموم السارية في الأبدان. ومن عثر له على كتاب من كتبهم، فجزاؤه النار التي بها يعبد آربابه، وإليها يكون مآل مؤلفه وقارنه وما يبه، متى عثر منهم على مجد في غلوائه، عم عن سبيل استقامته واحتداه، فليتعاجل فيه بالتحقيف والتعریف. ولا ترکتوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تتصررون. أولئك الذين ححطت أعمالهم. أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحيط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون. والله تعالى يظهر من دنس الملحدين أصناعكم، ويكتب في صحائف الأبرار تصاغركم على الحق واجتمعكم... إن منعم كريم.^٤

ذلك هو المنتشر الذي أمر الخليفة بإذاعته في بلاد الأنجلترا والمغرب، فكان له أسوأ الأثر في الحياة الفكرية العربية والأندلس.

وظل ابن رشد وتلاميذه عاماً في المنفى حتى أذن الخليفة بإعادتهم فعادوا إلى الأنجلترا من جديد، وقد أمر الخليفة بإحراق كتب الفلسفة كلها إلا الطب والحساب والقليل من علوم الترجمة، مما يتوصل به إلى معرفة أوقات الليل والنهار؛ ولكنه لم يلبث بعد قليل أن نزع عن

ذلك كله، وجنح إلى تعلم الفلسفة، واستدعي ابن رشد إليه في مراكش حيث توفي فيها آخر عام ٥٩٤هـ، وتوفي بعده بقليل الخليفة نفسه عام ٥٩٥هـ.

وقد ظهر من الفلاسفة في عهد المرابطين والموحدين — على الرغم من هذه المقاومة التي عرفنا أمرها من قبل — الكثير من الفلاسفة العبريين ومن أشهرهم :

١— ابن باجة السرقسطي : لقبه ابن الصائغ، وكان طيباً فلسفياً مولعاً بالموسيقى، وتوفي يفاس في المغرب الأقصى عام ٥٣٣هـ. ابن الصائغ اسمه أبو بكر محمد بن يحيى بن باجة، وكان ميلاده في سرقسطة وهي مدينة كبيرة تقع على نهر إبرو. وكانت من العدن الصناعية في عهد الحكم العربي للأئلنس، وقد نشأ فيها العلماء والأدباء وال فلاسفة. ومن فلاسفتها ابن فتحون، المتوفى في أوائل القرن الخامس الهجري بصفلية، وعبدالله بن أحمد المنجم، المتوفى سنة ٤٨٨هـ، وأحمد ابن سليمان بن الحاجب، المتوفى عام ٤٧٠هـ، والكرمانى المتوفى عام ٤٥٨هـ.

وقد ولد ونشأ ابن باجة في آخر عهد ملوك الطوائف وأوائل دولة المرابطين، وبرع في الطب والفلك والفلسفة، وكان أبو بكر بن إبراهيم صهر علي بن يوسف بن تاشفين والياً على المدينة؛ فاتخذ ابن باجة جليساً له وزيراً وفي عام ٥١٢هـ انتقل ابن باجة إلى إشبيلية على أثر سقوط سرقسطة في يد الفونتني الأول، وعكف في إشبيلية على الاطلاع والبحث والتأليف، ثم خرج منها إلى غرناطة، فأقام بها حيناً ينشر الفلسفة ويعملها، ثم انتقل إلى قاس عاصمة بلاد المغرب الأقصى، اتصل بالأمير يحيى بن تاشفين، وظل مقيناً يفاس حتى توفي عام ٥٣٣هـ. وقد عاش ابن باجة يدافع عن آراء الفلسفة، ويناضل آراء الغزالي القائمة على نقد تعاليم فلسفة آرسطو وأتباعه كالفارابي وابن سينا، ويدعو إلى

معرفة الإنسان ذاته، ومعرفة الطبيعة التي حوله. وله كتب كثيرة منها : رسالة الوداع — رسالة تدبير المتوحد — شرح كتاب السماع الطبيعي لأرسسطو — كتاب اختصار الحاوي للرازي في الطب، وقد توفي الرازي عام ٣٢٠ هـ، وسوى ذلك من مؤلفاته، ورسالة الوداع التي ألفها ابن باجة ترجمت في القرن الرابع عشر الميلادي إلى العربية، وفيها الكثير من آراء ابن باجة وفلسفته، وقد كتبها قبل سفر طوبول عزم عليه، وبعث بها إلى تلميذه له ليكون على علم بفلسفته إذا قدر له أن لا يعود، أما رسالة ابن باجة الأخرى « تدبير المتوحد » فهي أهم كتبه وأجلها، ويقول عنها ابن رشد : « أراد أبو يكر أن يختلط خطبة التدبير المتوحد في هذه الأمة لكنه لم ينجزها، وكثير منها غامض لأنه أول من سار في هذا المضمار ولم يسبقه فيه أحد »، وفي المكتبة التيمورية جزء من هذا الكتاب، وقد لخص هذه الرسالة موسى التربوني الإسرائيلي في شرحه العربي لرسالة « حي بن يقطان »، وعلى هذا الملخص عول الباحثون؛ وقد تحدث فيها عن التدبير السياسي وشئون الحكومة الكاملة، وعن أفعال الإنسان، وعن الغاية من الأعمال الإنسانية، ويعرف الفيلسوف بأنه إنسان إلهي سام، وهو لا يقصد إلا أرفع الأعمال وأعلاها ذكرًا، وهو ممتاز بهذا عن جميع الناس، إلى غير ذلك من مباحث هذه الرسالة التي تعطينا صورة صادقة عن فلسفة ابن باجة التي قامت على مناهضة آراء الغزالي الصوفية.

وقد وصف ابن طفيل ابن باجة بتقادم الذكاء وصحة النظر وصدق الروية وبأنه شغلته الحياة عن إخراج مكونات علمه، وبأدراه الموت قبل نضوج فلسفته، وكان الفيلسوفان متعاصرين وكانت بينهما عداوة شديدة.

وقال فيه تلميذه أبو الحسن علي بن عبد العزير الغرناطي : « كان في ثقابة الذهن، ولطف الغوص على تلك المعاني الجليلة الشريقة الدقيقة،

أعجوبة دهره، ونادرة الفلك في زمانه، فإن هذه الكتب الفلسفية كانت متداولةً من عهد الحكم المستنصر، فما اتهج فيها الناظر قبل ابن باجة سبلاً، وما تقييد عند الناظرين في تلك الكتب قبل ابن باجة إلا ضلالات كما تبدو عند ابن حزم، وكان أجل نظار زمانه، وإنما اتهجت سبل النظر في هذه العلوم بهذا الخبر وبمالك بن وهيب الأشبيلي .. وقد تلمس عليه كثيرون منهم ابن رشد (٥٢٠-٥٥٩هـ) كما يقولون، ومنهم علي بن عبد العزيز الغناطي الذي نوح عن الأندلس بعد وفاة أستاذه، ومات بصعيد مصر في النصف الأخير من القرن السادس الهجري. ولابن باجة شعر روى بعضه المقربي وابن خاقان وابن خلakan، ومنه : قد أودعوا القلب لما ودعوا حرقا فظل في الليل مثل النجم حيرانا راودته يستغير الصبر بعدهم فقال : إني استعرت اليوم نيرانا

ومنه :

لا والذي جعل الغصون معاطفاً لهم وصاغ الأقحوان ثبورا
ما مر بي ربع الصبا من بعدهم إلا شهقت له قعاد سعيرا

وقد كان نوع ابن باجة في الفلسفة الطبيعية والهندسة وعلم الهيئة لا حد له، ومن آرائه : أن العقل يمد الجسم بالحركة، وأنه يسير في مدارج حتى يصل بالعقل الفعال، وأن على الإنسان إدراك الصور المعقولة جميعاً وأن العقول الإنسانية مخالدة، وأن الناس لا يسمون إلى إدراك الحقيقة إلا في القليل النادر، وعلى الإنسان تصريف وجوده الحال في اكتساب المال، إلى غير ذلك من آرائه. ويوازن الغناطي منه وبين مالك بن وهيب الأشبيلي^(١) فيقول : « كانوا متعاصرين غير أن مالكا لم يقييد عنه إلا قليل نزر من أول الصناعة الذهنية — المعقولات — ثم أضرب عن النظر ظاهراً في هذه العلوم وعن التكلم فيها لما لحقة

(١) يصفه المراكشي بالمشاركة في جمع العلوم، والتحقق بكثير من أجزاء الفلسفة.

من المطالبات في دمه لسيبها ». وقد قلد ابن باجة فلاسفة الشرق كالفارابي وابن سينا، وإن كان لم يترك لنا فلسفة كاملة تضارع ما للفارابي أو لابن سينا أو للغزالى.

٤ - ابن طفيل : أبو بكر أو أبو جعفر محمد بن عبد الملك ابن طفيل، الحكم الأندلسي الشهير، ولد في « وادى آش » وهي قرية صغيرة من أعمال غرناطة تحيط بها الأنهر والبساتين، ولجمال الطبيعة وسحرها فيها وصفت شعراً وثراً في الأدب الأندلسي.

نشأ ابن ط菲尔 في ظلال دولة الموحدين، وأكب على الدراسة والنظر في علوم الأدب والدين، وبنج فيها، ثم عشق كتب الفلسفة وباحتها، فتفرغ لدراستها والنظر فيها حتى أصبح من الواقفين على مذاهبها، المطلعين على أسرارها، المفتين في جميع فروعها من الطبيعيات والإلهيات، واتخذ الطب مهنة، وقربه منه من أمير قرطبة زمان، وسرعان ما اتصل بأبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي ملك الموحدين (٥٨٠-٥٨٨هـ)، وكان يوسف يشجع الفلسفة، ويجمع كتب الفلسفة، ويدرس فروعها، واختار الملك ابن ط菲尔 طبيه ووزيره وتديمه، وفي مكتبة الملك الكبير طالع ابن ط菲尔 من كتب الفلسفة الكثير، وكان يقرب الفلسفة والملفكون من الملك ويحضره على إكرامهم، وهو الذي نوه عنده بابن رشد، ودعا ابن رشد إلى تلخيص كتب أسطو يوسف لما آنس فيه من جودة الذهن وصفاء القرىحة، ولما سمعه من شكوى الملك من غموض ترجم مؤلفات أسطو ورغبت في تلخيصها وتسهيل عبارتها وأغراضها وتقريب مأخذها، وكان ابن ط菲尔 شيخاً وابن رشد في عهد الشباب ..

وفي هذا الوسط كتب ابن ط菲尔 رسالته « حي بن يقطان »، التي أحدثت في عالم الفكر ضجيجاً عظيماً، ففي البيات العربية كانت مصدراً هاماً لنظرية التوحيد التي بدأها ابن باجة ونماها ابن ط菲尔،

وفي البيات الأوربية قد فازت أيضاً بحظ عظيم من الاهتمام. فترجمها إلى العبرية موسى التاربوني في منتصف القرن الرابع عشر وترجمها إلى اللاتينية « بوك » الإنجليزي، ونشرها في « أوكسفورد » مع النص العربي في سنة ١٦٧١ ثم في سنة ١٧٠٠. ثم ترجمت هذه الترجمة اللاتينية إلى اللغة الإنجليزية مرتين، ثم ترجم النص العربي إلى الإنجليزية أيضاً ونشر في سنة ١٧١١. ولا ريب أن إحدى هذه الترجمات هي التي يسرت للكاتب الإنجليزي « دانييل دي فويه » التأثر بخيال ابن طفيل حتى جعلته يحاكي رسالته « حي بن يقطان » فينشي في سنة ١٧١٩ على غرارها رواية الفحمة « روبيسون كروزووبيه » التي يشاهد فيها الباحث لوحة أمينة للرقى المنهجي والعواطف الأخلاقية الملموسة في رواية ابن طفيل، وترجم هذا الكتاب إلى اللغة الهولندية في سنة ١٦٧٢. وقد ترجمه إلى الألمانية (بريتوص) في سنة ١٧٢٦، ثم ترجمه إلى نفس اللغة (إيشورن) في سنة ١٧٨٣.

وكان ابن طفيل في آخر حياته قد وجّه عنايه إلى العلم الإلهي، نابداً ما سواه من فروع الفلسفة، كما كان حريصاً على التوفيق بين الشريعة والفلسفة، معظمماً للنبوات، ولم يترك مؤلفات في الفلسفة سوى « حي بن يقطان » وقد طبع هذا الكتاب في القاهرة عام ١٢٩٩هـ وكذلك له رسالة في الطبيعيات ورسالة في النفس، لم يصلنا عنهما شيء، ويروى عن ابن رشد أن له كتاباً في (البعق المسكونة وغير المسكونة)، ويدرك ابن رشد أن له آراء في الفلك، كما يذكر (البتروجي) تلميذ ابن طفيل أن أستاذه ذكر له أنه وفق لنظام فلكي لحركات الأفلاك غير النظام الذي اتباه بطليموس؛ وابن ط菲尔 من غير شكل أول من أخرج الفلسفة في ثوب قصصي جميل، وكان مع هذا شاعراً كاتباً، وفي (المغرب^(١)) و (وفيات الأعيان^(٢)) أن ابن باجة

(١) ص ١٥٦.

(٢) ٣٧٤ : ٢.

كان أستاذًا له ولكن ابن طفيل يقول في رسالته « حي بن يقطان » إنه لم يلقه، فضلًا عن أن يكون قد تلمذ عليه.

والمرجع الوحيد للدراسة ابن طفيل هو رسالته « حي بن يقطان » أو « أسرار الحكمة المشرقة » التي يشرح فيها ابن طفيل كيف يهتمي الإنسان إلى الاتصال بالعالم العلوي ويعرف الله ويربط روحه به، ويصل إلى مرتبة الإدراك عن طريق الاتصال بالطبيعة والكتابات في إنسان ونبات وحيوان. وقد هدف ابن طفيل إلى أن تكون ردًا على آراء ابن باجة في رسالة الاتصال، واسترشد برأي ابن سينا في الاتصال.

وفلسفة ابن ط菲尔 إشراقة تحل معضلة كبيرة من مشكلات الحياة، هي علاقة النفس البشرية بواجب الوجود العظيم، ولكن لم يكتف برأي الغزالي الذي وقف في الاتصال إلى حد التصوف، بل أمعن في فلسفة ابن باجة والفلسفة القديمة ووضح كيف ينمو الفكر الإنساني وكيف يحل مشكلات الوجود.

هذا ولا ننسى أن نقول : إن ابن ط菲尔 روى له كثير من القصائد، ومن شعره الفلسفي قوله :

يا باكيها فرقة الأحباب عن شحط
هلا بكى فراق الروح للبدن
أظنها هدنة كانت على دخن
يا شد ما افترقا من بعد ما اعتلقا
إن لم يكن في رضا الله اجتماعهما
في لها صفة تمت على غبن

٣ - ابن رشد :

هو ابن الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد، ولد في قرطبة في سنة ٥٢٠ هـ - سنة ١١٢٦ مـ من أسرة ماجدة عالية الشأن، توارث أفرادها منذ زمن بعيد بعض المناصب الراقصة في الدولة، فكان أبوه قاضياً في قرطبة، ورث القضاء عن جده، وقد مكنته ثراء والده من

أن يتلقى دراسة عالية في كثير من العلوم والفنون مثل الفقه وعلم الكلام والنحو والطب والموسيقى والفلكلور وبقية علوم الرياضة وما وراء الطبيعة، حتى صار أعلم أهل عصره قاطبة بكل هذه العلوم. وروي أنه لم يدع القراءة طول حياته إلا ليثنين : ليلة زواجه وليلة وفاته. وفي سنة ٦٥٤٨-١١٥٣ قدم ابن طفيل إلى الأمير أبي يعقوب بن عبد المؤمن الموسري، وقد روى لنا أحد تلاميذ ابن رشد قصة هذه التقدمة فقال على لسان أستاذه ما يأتي : حين مثل ابن رشد بين يدي أمير المؤمنين^(١) ألقاه مع ابن طفيل، فلما استقر بهم المجلس، أخذ هذا الأخير يشي عليه وعلى أسرته ثناء، يقول ابن رشد : إنه لا يستحقه. وعلى أثر ذلك وجه الأمير إليه هذا السؤال : هل للسماء مبدأ، أو هي أزلية..؟ فارتاع ابن رشد من هذا السؤال، وأحسن بحروجة موقفه، وخشى أن تجلب الإجابة عليه سخط الأمير. فاستعمل أسلوب الحكيم وأخذ يتصيد العبرات للقرار من الجواب. فلما شعر الأمير بارتباكه التفت إلى ابن طفيل. وأخذ يتحدث عن هذه المشكلة، فذكر فيها آراء أفلاطون وأرسطو وبعض الفلسفه الآخرين، وسرد الاعتراضات التي وجهها المتكلمون إلى هذه الآراء، وقد دل حديثه على عمق وسعة اطلاع وقوه ذاكرة أدهشت ابن رشد وملائمه إعجاباً بهذا الأمير العالى، كما أعجب الأمير بابن رشد بإعجابه^(٢).

وفي عام ٥٥٨، تولى يوسف بن عبد المؤمن الخلافة بعد والده، وقرب إليه ابن رشد؛ وفي عام ٥٦٥، لاه قضاء إشبيلية، ثم لاه

(١) لم يكن هذا الأمير في ذلك العهد أميراً للمؤمنين، لأنه لم يصعد على العرش إلا بعد وفاة والده سنة ٥٥٨ - ١٦٣. وقد تسبب هنا التصريح «أمير المؤمنين» في خطأ كثیر من العلماء الذين كثروا عن ابن رشد.

(٢) كان من أستانته أحمد بن رزق؛ ومن أستانته في الطلب عبد الملك بن زهر الأندلسي م ٥٩٠، وأبو جعفر هارون، وفي الفلسفة ابن طفيل وابن باجة.

بعد ذلك قضاء قرطبة، ثم أضاف إليه غرناطة، واحتاره قاضي القضاة؛ وبعد وفاة الملك عام ٥٨٠ هـ، خلفه ابنه يعقوب بن يوسف على الملك، وكان شديد العصب على الفلسفة، ثم وشي ابن رشد عنده، واتهمه خصمه لديه، بأنه يشرك بالله ويستغل بالفلسفة وعلوم الأولئ، وينكر الدين؛ وقدموا إليه جملة في كتاب لابن رشد نصها : « فقد ظهر أن الهرة، أحد الآلهة، يحكى بهذه الجملة مذهب قدماء الفلسفه؛ وسيق ابن رشد إلى المحاكمة. فسأله الملك : هل هذه الأوراق بخطك، فأنكر ذلك، فلعن الملك كاتبها وأمر الناس بعلمه، ثم أخرج ابن رشد مهاناً، وحكم عليه بالنفي هو وتلاميذه، وصدر منشور يتوعد فيه الخليفة من يخوض في شيء من الفلسفة، وأمر بإحرق كتبها إلا الطبع والحساب، وقليلًا من علم الفلك؛ وكان منفي ابن رشد وتلاميذه في « أليسانة ».

وبهذا تعرضت الفلسفة والفلاسفة لمحنة جديدة؛ وبعد عام عفا الخليفة عنه وعن تلاميذه، ولغى الحظر الذي أصدره على الفلسفة وكتب الفلسفة، وأكرم ابن رشد ورضي عنه. وأخيراً توفي ابن رشد في آخر عام ٥٩٤ هـ وقيل في صفر عام ٥٩٥ هـ في المغرب، ونقلت رفاته إلى قرطبة بعد ثلاثة أشهر ودفن فيها.

وقد تلمند على ابن رشد كثيرون منهم ابن ساق وابن حوط الله وغيرهما.

وفلسفة ابن رشد في المغرب تمثل فلسفة ابن سينا في المشرق، وابن رشد يأخذ أرسطو محاولاً التوفيق بين الفلسفة والدين. وقد تلمند على آراء ابن رشد الكثيرون من شباب المغرب. بل إن فلسفته كان لها أثر كبير في النهضة الأوروبية، وفي بعث البقظة في بيئات المغرب، وقد كانت بعض مؤلفات أرسطو قد صارت منذ سنة ١٢٥٥ ضمن منهج كلية الفنون بجامعة باريس رغم الحروب الشعواء التي أعلنتها

عليها الباباوات، ولكن هذه المؤلفات كانت تدرس في ذلك المعهد دراسة محايدة، لا يشتغل القائمون بها بمحاولات التوفيق بين الدين والفلسفة.

ولما كان من الضروري أن يستعين الأساتذة المكلفوون درس مؤلفات أرسطو بما كتبه الشرح عليهما، فقد قام الأستاذ « سيمجه البراباني » بدراسة واسعة لشرح ابن رشد على كتب أرسطو استغرقت أكثر من أحد عشر عاماً منذ سنة ١٢٦٦ إلى سنة ١٢٧٧، فكانت هذه الدراسة مبدأ الحركة التي عرفت فيما بعد باسم « الرشيدية اللاتينية » والتي كانت ترمي إلى كشف كل ليس يحيط آراء أرسطو في القطب الأساسية من مذهبها، وهي: أزلية العالم، وجود علم الإله بالجزئيات، وإنكار انشغال العناية الإلهية بعالم ما بعد فلك القرآن، ووجوب صدور المعلومات عن عللها دون أي استثناء، ووحدة العقل المفيس بالنسبة لجميع بني الإنسان، وزوال شخصية النفس بتفكك الجسم. ولكن رجال الدين اضطهدوا، ففي سنة ١٢٧٠ أدان أسقف باريس ثلاث عشرة فقرة من فقرات ابن رشد تتعلق بنظريات أزلية العالم والقضاء والقدر، وإنكار علم الإله بالجزئيات، ووحدة العقل المفيس. وفي سنة ١٢٧٧ أمر البابا جان الحادي والعشرون ذلك الأسقف بإجراء تحقيق كانت نتيجته إدانته مائتين وتسعمائة فقرة. ومن الغريب أن القديس توماس كان قد أقر كثيراً من هذه الفقرات، فكانت إدانته سبباً في إدانة غير مبشرة للقديس توماس فتحت باب معركة حامية الوطيس بين أنصار توماس وبخصومه.

وعلى أثر هذا الحكم طرد سيمجه من الجامعة، ثم دعى إلى المحاكمة فحكم عليه بالسجن المؤبد، ولكن سكرتيره قتله في سنة ١٢٧٢. وعلى الرغم من هذا الاضطهاد استمرت الحركة الرشيدية في طريقها، وكان لها من النتائج ما يتضمن مثيلاتها من الحركات العنيفة، تضعف حيناً فيقل أنصارها، وتقوى حيناً آخر فيظهر لها أنصار جدد. ومن مظاهر

قوتها بعد حادث سيجيه أن قام جان الجندي بتدريس هذه الآراء من جديد في تلك الجامعة، فأصدر البابا جان الثاني والعشرون قراراً بطرده من حظيرة الدين، رغم أنه قال في دفاعه عن نفسه : إنه يؤمن بما جاء به الدين، ولكنه لا يستطيع أن يدلل عليه، فهنيئاً للذين يستطيعون التدليل، أما أنا فليس في وسعي إلزاه إلا الإيمان بالقلب.

ثم كان الطبع هو السبب الأول الذي اقتحم الفلسفة الرشدية إلى جامعة بادوا في النصف الأول من القرن الرابع عشر، وكان « بير الألباوي » أول من عمل على وضع ابن رشد في صفين أسطو، وقد أحقى عليه انتصاره لحكيم قرطبة السليلية، فأمرت بالقبض عليه لعدمه كما كان مأموراً في ذلك العصر، ولكنه توفى أثناء التحقيق وفاة طبيعية، فدفع الحنق أولئك المتعصبين إلى إحراق جثته. ومن الأساتذة الذين عملوا على تثبيت الفلسفة الرشدية في جامعة بادوا « جريجوار الربيني » و « جيروم فرارى » و « جان الجندي » الذي كان أستاداً في باريس وطرده البابا من حظيرة الدين في سنة ١٣٢٦. وكان قد كتب شرحاً طويلاً لكتاب أسطو وابن رشد. ومنهم أيضاً « أوربانو البولوني » الذي كتب في سنة ١٣٣٥ شرحاً لشرح ابن رشد على كتاب الطبيعة لأسطو، فأحدث بذلك سنة اعتبار ابن رشد من كبار الفلسفه الجديرين بالشرح، وكان أول العاملين على حلوله في تلك الأوساط محل أسطو. ومنهم أيضاً بول البندقي المتوفى في سنة ١٤٢٩، والذي كان من أكبر علماء عصره المتضلعين. وكان بول أو جوستانيا شديداً في الدين، ولكنه وافق على كثير من نظريات ابن رشد وتحمل مسؤولياتها أمام دينه، وكان يعلن أن ابن رشد هو أجل من فهموا فلسفة أسطو، ثم قامت مدرسة في ذلك العهد لاحياء المعارف الاغريقية، وكان على رأسها « نقولا فافا » فأعلنت بلسان زعيمها أن ابن رشد أساء شرح كثير من نظريات حكيم استاجيرا، فاتفق أشياخ النظام الديني الذي كان « بول » و « فافا » يتسانان إليه على أن تعقد مناظرة بين

هذين العالمين يؤيد فيها كل منهما رأيه بالحججة والبرهان، فعقدت هذه المناظرة وحضرها ثمانمائة من رجال الدين، فكان النصر فيها حليف «فافا» على «بول» وابن رشد، ولكن هذه الهزيمة التي أصابت «بول» لم تعدد البيات الدینية لأنها — فيما يظهر — كانت مدبرة. أما في البيات الجامعية فقد بقي سلطانه العلمي عزيزاً ساماً لم يمسه أحدٌ ضعف. ومن زعماء هذه المدرسة أيضاً «جايانو نودي تين» (١٣٨٧-١٤٦٥) وكان من أسرة عريقة في إيطاليا، وقد ساهم بموهبه وعارفه ومجهوده وثراته في إعلاء المذهب الرشدي وثبتت أهميته في جامعة بادوا.

ولقد كان حظ هذا العالم أسعد من حظوظ كثير من أسلافه، فسطع نجمه في أوروبا كلها، وطبع مؤلفاته عدة طبعات، مع أن الباحثين المحدثين يرون أن مذهبـه كان أقل وضوحاً من مذهبـ (بول البندقى)، بل إن من يتحقق في قراءة كتبـه يظهر له أنه لا يتفق مع ابن رشد في كل نظرياتـه على الرغم من أنه يزعمـ هذا. ولكن لعل السببـ في شهرته هو أنه قام بجهودـ كبيرةـ في الدعايةـ لابن رشدـ من جهةـ، وفي التوفيقـ بين الشارحـ (ابن رشدـ) وبينـ الدينـ لا سيماـ فيماـ يتعلقـ بخلودـ النفسـ منـ جهةـ أخرىـ. ولقد نجحـ (جييانوـ ديـ تينـ)ـ فيـ التنويـهـ بابنـ رشدـ حتىـ صارـ يفضلـ الحكمـ الأولـ الذيـ لاـ ينافـزـ فيـ (بادواـ)ـ وـ (بولونـيـ)ـ وأصـبحـ أهـمـ ماـ يشـغلـ أسانـدةـ الفلـسـفةـ فيـ جـامـعـيـ هـاتـيـنـ المـديـنـيـتـيـنـ هوـ شـرـحـ الشـرـحـ الـكـبـيرـ لـابـنـ رـشـدـ. وـفـيـ عـامـ ١٤٨٠ـ أـلـفـ كـاسـانـدـراـ فـيـ دـيلـيـلـهـ — وـهـيـ إـحـدىـ شـهـيرـاتـ عـالـمـاتـ مـدـيـنـةـ الـبـنـدـقـيـةـ — رسـالـةـ أـيـدـتـ فـيـهاـ تـأـيـداـ عـلـىـ بـعـضـ النـظـرـيـاتـ الرـشـدـيـةـ، فـنـالـتـ بـهـاـ جـائـزةـ الـفـلـسـفـةـ الـكـبـيرـ. غـيرـ أـنـ هـذـاـ التـلـقـ الـفـاقـ يـمـدـهـ اـبـنـ رـشـدـ مـنـ المـفـكـرـيـنـ لـمـ يـمـنـعـ مـنـ أـنـ يـكـوـنـ لـهـ خـصـومـ يـهـاجـمـونـهـ فـيـ عـنـفـ وـفـوـةـ. وـمـنـ أـشـهـرـهـمـ وأـبـرـزـهـمـ بـوـمبـانـازـيـ الـذـيـ ظـلـ يـاضـلـهـ تـارـيـخـ بـطـرـيقـةـ مـبـاشـرـةـ وـأـخـرىـ عـلـىـ

لسان أنصاره المتخمين حتى توفي، فكانت وفاته بمثابة هدنة وضعت أوزار الحرب بين الرشدية واليونانية.

وعلى أثر ذلك خلا الجو للفلسفة الرشدية، فانفردت بالسلطان في جامعة بادوا، ولكن بعد أن أزال منها مهرة الأساتذة أكثر ما يصطلحون مع التعاليم المسيحية، فعادت حركة الترجمة في كتاب ابن رشد إلى النشاط من جديد، ولكنها لم تكن أقل رداءً من الترجمة القديمة، لأن أصلها العربي كان سيئاً.

غير أن هذه السيادة الرشدية المغالية كانت قد أحدثت من قبل رد فعل بين المجددين، فنهض أنصار الثقافة الهيلينية الذي كانوا يتعالون على معاصرיהם بأنهم هم وحدهم العلماء الحقيقيون بالهيلينية الصحيحة، وأعلنوا احتقارهم لتلك الهيلينية الرائقة المشوهة الآتية عن طريق العرب، وذهبوا إلى ما هو أبعد من ذلك، فصرحوا بأن آراء ابن رشد غير قابلة للمقولة وغير جديرة بالعقل المتفتح. وبإيجاز كانت غايتهم أن يضعوا كل ترجمة القرون الوسيطة وشراحها في الدرك الأسفل من الإهانة والازدراء. وفي ٤ من إبريل سنة ١٤٩٧ صعد نيكولا توماس للمرة الأولى على المنصة ليدرس أرسطو باللغة الإغريقية. وعلى أثر ذلك احتملت معركة حامية الوطيس بين الأرسطو طاليسية العربية من خلال ابن رشد، والأرسطو طاليسية الإغريقية من خلال مؤلفات أرسطو نفسه وتلاميذه وشراحه من الإغريق. وقد ساعد على تفاقم هذه المعركة اتجاه القول في ذلك الحين إلى أفلاطون، إذ أن دراسة هذا الأخير في كتبه أبانت للمثقفين أن العرب كثيراً ما كانوا يخلطون بين آراء هذين الحكميين مخدوعين بالتلقيق الإسكندرى. وقد بدأت هذه النهضة الأفلاطونية في مدينة فلورانسا التي هامت بأراء أفلاطون في كل نواحي حياتها هاماً جعل العلماء يطلقون عليها اسم المدينة الروحية.

وقد كان (بيك دي لا ميراندول) صورة أمينة لتلك المعارك

والمناضلات؛ ففي كتبه يعثر الباحث على الأفلاطونية والأرسطوطاليسيّة والرشدية وبقية التراثات المختلفة والمذاهب المتباعدة المعروفة إذا ذاك، مفصلة تفصيلاً يختلف باختلاف قيمتها وحظوظها في ذلك الحين. وأكثر من ذلك أنه كان ينادي بأنه يستطيع أن ينصر آية فكرة كانت في جميع المشكلات التي يمكن الإنسانية أن تعرفها. وقد أضاف فولتير إلى هذه الجملة سخرية من صاحبها قوله : بل ومشكلات عديدة أخرى. وقد صارت هذه الجملة الساخرة الصادقة إلى جملة يك دي لامير أندول مثلًا يضرب للسخرية من الباهي، ولكن هذه السخرية لم تكن عادلة من جانب ذلك الساخر، فقد كان يك دي لا مير أندول دائرة معارف كاملة، وقد أحصى جميع المشكلات التي دارت أو يمكن أن تدور حولها المجادلات الإنسانية في تسعمائة مشكلة، وأعلن مقدراته على حلها بالحجج المنطقية. وقد انتهت هذه المناضلات بانتصار الهيلينية الصحيحة في جميع جامعات أوروبا ومدارسها وانهزام الرشدية فيها ما عدا جامعة بادوا، وقد يقى ابن رشد فيها مستعملاً بشيء من الاحترام وإن كانت سيادته الأولى قد انفتح. فمثلًا : « زارا بيلا » وهو استاذ الفلسفة في جامعة بادوا من سنة ١٥٦٤ إلى سنة ١٥٨٩ — كان يعتمد في فهم الفصول الغامضة من كتب أرسطو على شروح ابن رشد إلا فيما يتعلق بنظرية خلود النفس، فقد كان يضع فيها بومباردي. وقد كان أليبرتي، وكريمونيي ينسجان على متوازن زارا بيلا، فيدعوان إلى نظريات ابن رشد ما خلا نظرية خلود النفس. وفي سنة ١٦١٩ أمرت السلطات الدينية أستانة جامعة بادوا بوقف كل ما يدرسونه فيها من ضلالات أرسطو، فما وصل هذا الأمر إلى مسمع كريمونيي احتاج عليه وأجاب بلهجة حادة ملؤها الكرامة والعزم قائلًا : إنه جاء إلى هذه الجامعة ليبسيط آراء أرسطو ويشرحها. فإذا أتيهم باللادينية استطاع أن يدافع عن نفسه، وهذا هو كل ما يمكنه فعله. ولهذا يعتبر كريمونيي آخر ممثلي الفلسفة الرشدية في جامعة بادوا. وكانت وفاته في سنة

إجمال لحال الفلسفة الأندلسية قبل ابن رشد:

ونستعرض هنا من ابن طفيل وصفا لحال الفلسفة الأندلسية قبل ابن رشد ذكره في قصته الخالدة « حي بن يقطان »^(١) قال : « من ينشأ بالأندلس من أهل الفطرة اللاقعة قبل شروع علم المنطق والفلسفة فيها قطعوا أعمارهم بعلوم التعاليم، وبلغوا فيها مبلغاً رفيعاً، ولم يقدروا فيها على أكثر من ذلك، ثم خلف من بعدهم خلف زادوا عليهم بشيء من علوم المنطق، فنظروا فيه ولم يفتش بهم إلى حقيقة الكمال، فكان فيما من قال :

برح بي أن علوم السورى اثنان ما إن فيهما من خريده حقيقة يعجز تحصيلها وباطل تحصيله لن يفيده ثم خلف من بعدهم خلف أحذق منهم نظراً وأقرب إلى الحقيقة، ولم يكن فيهم ثقب ذهناً، ولا أصح نظراً، ولا أصدق رؤياً، من أبي بكر بن الصائغ، غير أنه شغلته الدنيا حتى اخترمه العنة قبل ظهور خزان علمه، وبث خفايا حكمته، وأكثر ما يوجد له من التأليف إنما هي غير كاملة ومخرومة من أواخرها، ككتابه في النفس، وتدبير المتوحد، وما كتبه في المنطق وعلم الطبيعة، وأما كتبه الكاملة فهي كتب وجيزة ورسائل مختلفة، وقد صرخ هو نفسه بذلك، فهذا حال ما وصل إلينا من علم هذا الرجل ونحن لم نلق شخصه؛ وأما من كان معاصرًا له فمن لم يوصف بأنه في مثل علمه فلم يترك تأثيراً، وأما من جاء بعدهم من المعاصرين لنا فهم بعد في حد الترايد أو الوقوف على غير كمال، أو من لم يصل إلينا حدس أمره.

(١) ص ١١ حي بن يقطان.

هذا هو ما قاله ابن طفيل عن الفلسفة الأندلسية قبل ابن رشد، وطبعاً كان ابن طفيل أستاذًا لابن رشد، فلم يدرك حين تأليف رسالته «حي ابن يقطان» عصر نبوغه.. ولا ننسى أن ذكر من الفلسفة الأطباء في عصر ابن رشد أبو بكر بن زهر المتفق عام ٥٩٠هـ.

الفلسفة الأندلسية بعد ابن رشد :

علمنا الكثير من حال الفلسفة الأندلسية في عصر الموحدين، وهو العصر الذي عاش فيه ابن رشد، أما حالها في عهد بني الأحمر ملوك غرناطة، فإننا نلاحظ أولاً أنه لم يكن لفلسفة ابن رشد ولا لمؤلفاته سوى أثر قليل في الأندلس بعد وفاته، وكذلك كان أثراًها في العالم الإسلامي قليلاً جداً، وقد ضاعت أصول الكثير من مؤلفاته، ولم يكن لابن رشد تلاميذ ولا أتباع يواصلون فلسفته، وذلك بسبب مقاومة الفلسفة في الأندلس.

وليس من شك في أنه كان يوجد الكثيرون من أهل الفكر الحر، كل واحد في معزل عن الآخر، وكانتا يرون في العبث أن يكلف الإنسان نفسه الاشتغال بالفلسفة، إذ لم تكن الفلسفة قد استطاعت وحدها أن تؤثر في الثقافة العامة أو في الفكر الإسلامي أو في مجرب الحياة تأثيراً كثيراً، وقد قاوم بنو الأحمر علوم الفلسفة واضطهدوا أصحابها، فهاجر بعضهم إلى أوروبا وأقام بعضهم في الأندلس منقطعاً عن النظر فيها، وساعد على ضعف شأن الفلسفة الصراع الشديد بين الأسبانيين والأندلسيين، وكذلك نكبة ابن رشد وتشريد تلاميذه، هذا إلى اضطهاد ملوك غرناطة للفلسفة، فخدمت روحها، وانطفأ شعاعها؛ وعادت الحياة الفكرية في الأندلس إلى الانحطاط، وكثير الصوفيون الذين كان من بينهم قليل نحو الفلسفة، ولما وجد الامبراطور فريدریش الثاني حوالي منتصف القرن الثالث عشر الميلادي عدة مسائل فلسفية

لل المسلمين في ستة ندب الملك عبد الواحد فيلسوفاً صوفياً هو ابن سبعين المتوفى عام ٦٦٨هـ للإجابة عنها، وقد فعل ذلك فأخذ يتلو في زهو آراء الفلسفة القدماء والمحاذين.

ويصف ابن خلدون في مقدمته حال الفلسفة في هذا العهد فيقول بعد أن ذكر ابن الصائغ وأبن رشد^(١): «إن المغرب والأندلس لما ركبت ريح العمران بها، وتناقضت العلوم بتناقضه، أضحم ذلك — يشير إلى العلوم العقلية والحكمة — منها إلا قليلاً من رسومه تجدها في تفاريق من الناس وتحت رقبة «من علماء السنة»^(٢)، ثم يقول: «وبلغنا عن أهل المشرق أن بضائع هذه العلوم لم تزل عندهم موفورة، وخصوصاً في عراق العجم وما بعده فيما وراء النهر، وأنهم على ثبيح من العلوم الفلسفية، كذلك بلغنا لهذا العصر أن هذه العلوم الفلسفية ببلاد الإفرنجية من أرض «رومة» وما إليها من العدوة الشمالية ناقفة الأسواق، وأن رسومها هناك متعددة، ومجالس تعليمها متعددة، ودواوينها جامعة، وطلبتها متکثرة»^(٣).

ويقول كذلك ابن خلدون: «وقد عول المتأخرون لهذا العهد بال المغرب على زيج لابن إسحاق من متجر تونس في أول المائة السابعة، ويزعمون أنه عول فيه على الرصد، وأن يهودياً كان بصلة ماهراً في الهيئة والتعليم، وكان قد غُني بالرصد»^(٤) وهكذا نجد ابن خلدون

(١) ذكر ابن خلدون المجريطي أيام الأندلس في القرن الثالث في التالية والسر وآنه شخص جمیع تلك الكتب وهذها في كتابه «غاية الحکیم» ولم يكتب في هذا العلم بعده، وكتب المجريطي كتاباً في الكيمياء سماء زينة الحکیم (٥٠٤، ٥١٢، المقدمة).

(٢) ص ٤٥٥ مقدمة ابن خلدون.

(٣) المرجع نفسه

(٤) ٤٦٣ — ٤٦٤ المرجع نفسه.

يؤكد اضطهاد الفلسفة في الأندلس والمغرب بعد عصر ابن رشد^(١) اضطهاداً شديداً.

ومن غلاستة هذا العهد موسى بن ميمون تلميذ ابن رشد^(٢) المتوفى عام ٦٥٠هـ، ولسان الدين بن الخطيب المتوفى عام ٧٧٦هـ وقد درس الطب والفلسفة وعلوم الأدب والدين واللغة وبرع في الكثير فيها، وتولى الوزارة لأبي الحجاج يوسف ثم لابنه محمد بعده، ثم انهم بالكفر والإلحاد فهرب إلى المغرب الأقصى وبقى عليه في مدينة فاس.

(١) وقد تحدث ابن خلدون عن ابن رشد. فذكر أنه شخص كتب أرسطو وشرحها، متبعاً لها، غير مخالف (٤٦٦ المقدمة).

(٢) ولد بقرطبة — ودرس الطب والفلسفة وعلوم الدين ثم هاجر إلى مصر لاضطهاد الموحدين له، وأقام بالمسطاط يعلم الفلسفة ويعاجز في الجواهر، حتى اتجه صلاح الدين طيباً خاصاً، وترك مؤلفات كثيرة في الطب والفلسفة وتوفي عام ٦٥٠هـ.

الثقافة والعلوم في الأندلس

تمهيد :

نشطت العلوم والثقافات والفنون في الأندلس نشاطاً كبيراً لا حد له، وزاد من ذلك : عناية ملوكهم وأمرائهم بالعلوم، وذكاء العلماء وشدة تحصيلهم وكثرة روایتهم وهجرتهم المستمرة إلى المشرق، وكثرة المدارس والجامعات والمكتبات، وإقبال العامة وخاصة على العلم على حد سواء.

ويذلك على مكانة العلم والعلماء ما جاء في نفح الطيب للقربي^(١) قال : أما حال أهل الأندلس في فنون العلوم، فتحقيق الإنصاف في شأنهم في هذا الباب أنهم أحرص الناس على التمييز، فالجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم يجهد أن يتميّز بصنعة، ويرى بنفسه أن يرى فارغاً عالة على الناس، لأن هذا عددهم في نهاية القبح، والعالم عندهم معظم من الخاصة وال العامة، يشار إليه، ويحال عليه، وبينه قدره وذكراه عند الناس، ويكرم في جوار وابتهاج حاجة وما أشبه ذلك. وهم يقرعون جميع العلوم في المساجد؛ فالعالم منهم يارع لأنه يطلب ذلك العلم

(١) ١٠٢ : ١ نفح الطيب.

بیاعت في نفسه يحمله على أن يترك الشغل الذي يستفيد منه ويتفق من عنده حتى يعلم، وكل العلوم لها عندهم حظ واعتناء إلا الفلسفة والتحجيم؛ فإن لهما حظاً عظيماً عند خواصهم ولا يتظاهر بها خوف العامة، فإنه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشغله بالتحجيم أطلق عليه العامة اسم زنديق وقيدت عليه أنفاسه؛ فإن زل في شبه رجموه بالحجارة أو حرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان، أو يقتله السلطان تقرباً لقلوب العامة، وكثيراً ما يأمر ملوكيهم بإحرق كتب هذا الشأن إذا وجدت، وبذلك تقرب المتصور بن أبي عامر لقلوبهم أول نهوضه، وإن كان غير الحال من الاشتغال بذلك في الباطن على ما ذكره الحجاري والله أعلم. وقراءة القرآن بالسبع ورواية الحديث عندهم رفيعة، وللقمة رونق ووجاهة، ولا مذهب لهم إلا مذهب مالك، وخواصهم يحفظون من سائر المذاهب ما ياحتون به بمحاضر ملوكيهم ذوي الهم في العلوم، وسمة الفقيه عندهم جليلة حتى إن المسلمين كانوا يسمون الأمير العظيم منهم الذي يربونه تربته : بالفقير، وهي الآن بال المغرب بمنزلة القاضي بالشرق، وقد يقولون للكاتب والنحوي واللغوي : فقيه، لأنها عندهم أرفع السمات.. وعلم الأصول عندهم متوسط الحال، والنحو عندهم في نهاية من علو الطبقية، حتى إنهم في هذا العصر فيه ك أصحاب عصر الخليل وسيويه، لا يزداد مع هرم الزمان إلا جدة، وهم كثير، والبحث فيه وحفظ مذاهبه كمناهج الفقه، وكل عالم في أي علم لا يكون متذكراً من علم النحو بحيث لا تخفي عليه الدقائق قليلاً عندهم بمستوى التمييز ولا سالم من الإزدراه، مع أن كلام أهل الأندلس الشائع في الخواص والعوام كثير الانحراف عمما تقتضيه أوضاع العربية، حتى لو أن شخصاً من العرب سمع كلام الشلوبيني أبي علي المشار إليه بعلم النحو في عصرنا الذي غربت تصانيفه وشرقت وهو يقرئ درسه لضحكه بملء فيه من شدة التحرير الذي في لسانه، والخاص منهم إذا تكلم بالإعراب وأخذ يجري على قوانين النحو استقلوا

واستبردوه، ولكن ذلك مراعي عندهم في القراءات والمخاطبات في الرسائل. وعلم الأدب المثار في حفظ التاريخ والنظم والنشر ومستلزمات الحكایات أتيل علم عندهم، وبه يتقرب من مجالس ملوكهم وأعلامهم، ومن لا يكون فيه أدب من علمائهم فهو غفل مستقل.. والشعر عندهم له حظ عظيم وللشعراء من ملوكهم وجاهة، ولهم عليهم حظ ووظائف والمجيدون منهم ينشدون في مجالس عظاماء ملوكهم المختلفة، ويوقع لهم بالصلات على أقدارهم إلا أن يختل الوقت ويغلب الجهل في حين ما، وإذا كان الشخص بالأندلس نحوياً أو شاعراً فإنه يعظم في نفسه لا محالة ويُسخّف ويظهر العجب، عادة قد جلوا عليها .. ويقول باحث في تصوير عناية الأندلسيين بالعلوم والثقافات^(١).

وعنوا بجمع الكتب في كل علم وفن. فقد كان في إسبانيا ستون مكتبة عامة أشهرها مكتبة قرطبة. وكانت تحتوي على الكتب العقلية والنقلية التي ترجمها وألفها العرب في الزراعة والفلكل والرياضة وفي الطب والكمياء والموسيقى وفي أصول الدين كالتوحيد والفقه والحديث والتفسير، وفي فنون الأدب كالبلاغة والتاريخ والقصص والرحلات والخطب ودواوين الشعر المختلفة ومعاجم اللغة، كان كل ذلك مجموعاً منظماً في مكتبة الحكم المستنصر (٣٦٦-٣٥٠) التي كانت فهارسها أربعة وأربعين - كما سبق - وبلغت الكتب فيها مائتي ألف مجلد، قالوا إنه قلما يوجد كتاب في مكتبيه إلا كان له نظر فيه وتعليق عليه، وكان يجمع في داره الجنان في صناعة النسخ والضبط ويحود عليهم بالمال، ويعث بالكتب إلى الأقطار رجالاً من التجار يزودهم بالمال، ويعث في كتاب الأغاني إلى مؤلفه أبي الفرج يألف دينار من الذهب العين، فجاءه بنسخة منه قبل أن يخرجه إلى العراق، وكذلك كان الخلفاء في إكرام العلماء والأئمة بناصرهم، فكان المنصور بن أبي عامر على

(١) بلاغة العرب في الأندلس ص ١١.

مثل هذه الحال يعمل على ترقية العلوم ونشرها، ويذور المدارس ويحضر الدروس ويختلط بالطلبة ويُمدح المدرسون ويكتفى التلاميذ على جدهم، وكانت إذا فتحوا بلدًا أو مدينة يبدأون بإنشاء مسجد ومدرسة يقصدون بذلك أن نشر الدين والعلم معاً لازم لهذيب الأمم، وأن تربية النفوس بالدين كثيرة العقول بالعلوم والمعارف، وعنهم أخذ أهل أوربة المدارس الجامحة ونظام الكليات التي يجتمع فيها كثير من الطلبة على أستانة يتعلمون في العلوم المختلفة، وكان في كل مدينة من مدن إسبانيا مدرسة كبيرة، وكان للطلب أربع مدارس آهلة بالمدرسین والتلاميذ من جميع العلل.

وقد^(١) كانت علوم العرب بالأندلس هي الشعاع الذي أضاء لأهل أوربا ما كان مظلماً من عقلاهم، فإنهما لم يعرفوا حكمة اليونان إلا بعد أن قرأوها مترجمة في كتب العرب، وعن العرب أيضاً أخذوا نظام المدارس الجامحة، وقد كان في كل مدينة من مدن الأندلس مدرسة جامحة، وكان للطلب بذلك البلاد أربع مدارس آهلة بالطلاب من جميع العلل، في قرطبة وإشبيلية وطليطلة ومرسية. وكان في قرطبة وحدها ثمانون مدرسة لأنواع العلوم، وذلك في مدة الحكم بن عبد الرحمن الناصر (٣٥٠-٤٣٦هـ).

وورد في صحيفية مدرسة أدتراج الكلية في بيان فضل عرب الأندلس على أوربا الحديثة : إننا لمدينتون للعرب كثيراً، ولو قال غيرنا خلاف ذلك. فإنهم الحلقة التي وصلت مدينة أوربا قدماً بمدينتها حدثاً، وبنجاحهم وسمو هممهم تحرك أهل أوربا إلى إحراز المعارف، واستتفاقوا من توهمهم العيق في الأعصار المظلمة، ونحن مدينتون لهم أيضاً برقية العلوم الطبيعية والفنون النافعة وكثير من المصنوعات والمخترعات التي نفتحت أوربا علماً ومدنـة^٤.

(١) الأدب العربي وتاريخه - ٣ - محمود مصطفى.

وقد بني فيليب الثاني ملك إسبانيا في النصف الأخير من القرن السادس عشر الأسكوريال على قمة مرتفعة، بعيدة عن مدريد بأكثر من خمسين كيلومتراً، والأسكوريال يشمل الكنيسة والقصر والمقررة الملكية والدير ومدرسة، وفي الأسكوريال مكتبة ضخمة، والقسم العربي فيها غني بالتراث الأندلسي القديم الذي لا يزال مخطوطاً حتى اليوم.

عناية الملوك بالعلم والعلماء :

كان للملوك في الأندلس عناية شديدة بالعلم والعلماء، فعهد الرحمن بن الحكم (٦٢٣٨هـ-٢٠٠٦)، كان مثلاً في تكريم العلماء، ورعاية الثقافة، وهو الذي قدم زریاب إلى الأندلس في عهده، ويرى أن عبد الرحمن كتب إلى عماله على البلاد بأن يحسنوا إليه، ويوصلوه إلى قرطبة، فلما وصلها أتزله في قصر مشيد، وجعل له مائتي دينار في العام، ولكل واحد من بيته الأربع عشرين عشرين ديناراً، وأجرى على زریاب من المعروف العام ثلاثة آلاف دينار واقطعه دوراً وضياعاً كثيرة. ولعبد الرحمن قصص تدل على كرم وسخاء في رعاية العلم والعلماء.

وفي عهد الناصر (٣٥٠هـ-٢٠٣٠) أنشئت المدارس والمكتبات العامة، وكان دائم الحدب على العلماء والسؤال عنهم، ومحالستهم.

حكي الفقيه أبو القاسم بن مفرج قال : كنت أختلف إلى الفقيه أبي ابراهيم من كبار علماء المالكية في عهد الناصر لدين الله — رحمة الله تعالى — فimen يختلف إليه للتference والرواية فاني لعنه في بعض الأيام في مجلسه بالمسجد المتسبب لأبي عثمان الذي كان يصلى به قرب داره. ومجلسه حافل بجماعة الطلبة وذلك بين الصالحين — إذ دخل عليه خصي من أصحاب الرسائل جاء من عند الخليفة الحكم فوقف وسلم وقال له : يا فقيه أجب أمير المؤمنين أبقاء الله، فان

الأمر خرج فيك وها هو قاعد يتظرك وقد أمرت بإعجالك فآله آله !
قال سمعاً وطاعة لأمير المؤمنين ولا عجل، فارجع إليه وعرفه — وفته
آله — عنى أنك وجدتني في بيت من بيوت آله تعالى معي طلاب
العالم أسمعهم حديث ابن عمه رسول الله عليه السلام فهم يقيدونه عنى،
وليس يمكنني ترك ما أنا فيه حتى يتم المجلس المعهود لهم في رضا
آله وطاعته؛ فذلك أوكد من مسيري إليه الساعة، فإذا انقضى أمر من
اجتمع إلى من هؤلاء المحسنين في ذات آله، الساعين لمرضاته، مشيت
إليه إن شاء آله تعالى — ثم أقبل على شأنه، ومضى الشخصي بهيم
متضاجراً من توقفه، فلم يك إلا ريشاً أدى جوابه، وانصرف سريعاً
ساكن الطيش قال : يا فقيه أنهيت قولك على نصه إلى أمير المؤمنين
آله فأصغي إليه، وهو يقول لك : جراك آله خيراً عن الدين وعن
أمير المؤمنين وجماعة المسلمين وأمتعهم بك ! وإذا أنت أوعيت فامض
إليه راشداً إن شاء آله تعالى، وقد أمرت أن أفق معك حتى ينقضني
شغلك وتضي معي. قال : حسن جميل، ولكني أضعف عن المشي
إلى باب السدة ويفصل بيني ركوب دابة لشيخوختي وضعف أعصامي،
وباب الصناعة الذي يقرب إلى من أبواب القصر المكرم أحوط لي
وأقرب وأرق بي، فان رأى أمير المؤمنين أيده آله ان يأمر بفتحه
لأدخل إليه منه، هون على المشي، وودع جسمي. وأحب أن تعود
وتنهي إليه ذلك عنى حتى تعرف رأيه فيه، وكذلك تعود إلى، فاني
أراك فتى شديداً، فلن على الخير معيناً. ومضى عنه الفتى ثم رجع
بعد حين وقال يا فقيه : قد أحبب أمير المؤمنين إلى ما سألك وأمر
بتفتح باب الصناعة وانتظارك من قبله ومنه خرجم إليك وأمرت بملازمالك
مذكرة بالتهوض عند فراغك. وقال : أقبل راشداً وجلس الشخصي جانباً
حتى أكمل أبو ابراهيم مجلسه بأكمل وأفسح ما جرت به عادته غير
متزعج ولا قلق، فلما انقضينا عنه قام إلى داره فأصلاح من شأنه،
ثم مضى إلى الخليفة الحكم فوصل إليه من ذلك الباب وقضى حاجته

من لقائه ثم صرفة على ذلك الباب فأعيد إغلاقه على اثر خروجه.
قال ابن مفرج : ولقد تعمدنا في تلك العشية اثر قيامنا عن الشیخ
أبی ابراهیم المرور بهذا الباب المعهود إغلاقه بدور القصر الذي تجثم
الخلیلية له فوجدناه مفتوحاً كما وصف الشخص وقد حفظه الخدم والأعوان
متزوجين ما بين كتاب وغراش، متأنفين لانتظار أبی ابراهیم، فاشتد
عجبنا لذلك وطال تحدهنا عنه.. فهكذا تكون العلماء مع الملوك، والملوك
مع العلماء قدس الله تلك الأرواح^(١).

وقد كان اهتمام الحكم (٣٥٠-٣٦٦هـ) بالعلم والعلماء لا مثيل
له، وهو الذي استقبل أبا علي القالي في وفاته على الأندرس عام
٤٢٨ بدعوة من أبيه، وكتب إلى بعض العمال ان يتلقاه في وفدي من
وجوه رعيته ففعل وسار به في موكب جليل إلى قرطبة، وقد بعث
الحكم وهو ولی العهد كذلك إلى أبي الفرج الأصبهاني، في طلب
نسخة من كتابه «الأغاني»، وبعث إليه بألف دينار، فجاءته منه نسخة
قبل أن يظهر بالشرق، وشفعها أبو الفرج بقصيدة يمدحه فيها، وبمؤلف
في تسب الأمويين... وكان اهتمام الحكم بالكتب والمكتبات كبيرة،
وكان في قرطبة في عهده عشرات المكتبات العامة، وفي غرناطة سبعون
مكتبة عامة.

أما ملوك الطوائف فقد جدوا في إعزاز العلم، وإكرام العلماء،
متنافسين^(٢) في الفضل، قاصدين إلى إرضاء العامة، مقدرين ما للعلم
من أثر في حفظ ممالكتهم. ولقد كان منهم الفقهاء والأدباء والعلماء،
في كل فن يؤلمون وكثيراً ما يدعون العلماء إلى التأليف برسائلهم، كما
فعل ذلك سابقاً في دولةبني مروان أبو علي القالي، فإنه طرز كتابه

(١) ١٧٦/١ نفع الطلب.

(٢) ٣٢/٣ الأدب العربي — محمود مصطفى.

«الأُمالي» باسم أمير المؤمنين الحكم المستنصر وقد تبلغ الدالة بالعالم والاعتراض منه بشرف العلم، أن يائى إجازة الأمير إلى جعل كتابه برسمه، فقد ذكروا أن آبا غال اللغوي القرطبي المتوفى سنة ٤٣٦ هـ لما ألف كتابه في اللغة، بعث إليه أبو الجيش مجاهد العامري ملك دانية يألفي دينار، ومركتوباً وكساء، على أن يجعل الكتاب باسمه فيزيد فيه: «ألفته ليتفتح به الناس، وأخلد فيه عمي، ثم أقبل في صدره اسم غوري، وأصرف الفخر له!» فلما بلغ هذا مجاهداً استحسن أنفه.

ولقد بلغ من حرص هؤلاء الأمراء على ظهور الكتب مؤلفة برسهم أن عادى الأخ أحاء في سبيل ذلك، وقتل المؤلف الذي آثر أحاء بالذكر في مقدمة كتاب، فقد ذكروا في سب قتل الفتح^(١) بن خاقان (٤٨٠-٤٥٢ هـ) صاحب كتابي «قلائد العقائد» و«مطبع الأنفس» وقد وجد مقتولاً يقتد بعدينة مراكش — أن الذي أشار بقتله هو أمير المسلمين أبو الحسن علي بن يوسف بن تاشفين، أخو أبي اسحق إبراهيم، الذي ألف له الفتح بن خاقان كتاب «قلائد العقيان»، وذكر في خطبة الكتاب، فحسنه أخوه على هذه الميزة وأشار بقتله . وهذه عبارة المقدمة التي ورد فيها اسم أبي اسحق «ولم يزل شخص الأدب وهو متوار، وزنته غير وار، وحده عاثر، ومنهجه دائر. إلى أن أراد الله اعتلاء اسمه، وإحياء رسمه، وإنارة أفقه، وإعادة رونقه، قبعت من الأمير الأجل أبي اسحق إبراهيم بن يوسف بن تاشفين ملكاً علياً، وغدا للبه المجد حلياً، وهي على الأمة وسياً وولياً».

ومن مؤلفي هؤلاء الملوك المظفر بن الأقطس صاحب بطليموس، كان كثير الأدب، جم المعرفة، محباً لأهل العلم، جماعاً للكتب، ذا عزامة عظيمة قال في حقه ابن سام : كان المظفر المتوفى سنة ٤٦٠ هـ، أديب ملوك عصره غير مدافع ولا منازع، وله التصنيف الرائق، والتأليف

(١) ولد بأشبيلية ونشأ بالأندلس، وكتب لابن تاشفين، قوله: مطبع الأنفس وقلائد العقيان.

الفائق، المترجم بالذكر، والمشتهر أيضاً باسم الكتاب المظفر في خمسين مجلداً، يشتمل على فنون وعلوم ومقاز وسير ومثل وخبر، وجميع ما يخصه علم الأدب، وذكر « المعجب » أنه كان ولوغاً بالاطلاع على جميع فروع الثقافة فجمعته كتب ومؤلفات في شتى أنواع العلوم، وقد جمع ما ألفته له العلماء في كتاب سماه باسمه.

وقد اشتهر أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بجهة للعلم وجمع الكتب، وكان يناقش العلماء، حتى قال الفيلسوف ابن رشد، أشهر حكماء الأندلس على الإلقاء، والمعتبر في المغرب كان سينا في المشرق : إنه هو الذي حملني على تلخيص ما لخصته من كتب الحكمي أرسسطو.

أشهر العلماء في الأندلس :

١ - نبغ في علوم اللغة كثيرون، من أشهرهم أبو بكر الزبيدي صاحب مختصر العين المتوفى عام ٣٧٩ هـ، وهو محمد بن الحسن الزبيدي الإشبيلي. قال ابن الفرضي : كان واحد عصره في علم التحريف وحفظ اللغة، أحد العربية عن أبي علي القالي وأبي عبدالله الرياحي. وأدب ولد المستنصر بالله، وولي عهده هشام، وولي قضاء قرطبة، وصنف : مختصر العين، وأبانية سبورة، والواضح في العربية، وما يلحن فيه عام الأندلس، وطبقات التحويين. توفي سنة ٣٧٩ وقيل ٣٩٩، والزبيدي يضم الرأي وفتح الباء نسبة إلى زيد وهي قبيلة باليمن كما في وفيات الأعيان، وقد ألف مختصر العين الزبيدي لهشام المؤيد مختصراً له من كتاب العين.

٢ - ابن سيده : وهو الحافظ أبو الحسن علي بن إسماعيل، كان إماماً في اللغة والعربية حافظاً لهما. وقد جمع في ذلك جموعاً منها « كتاب المحكم في اللغة » وهو كتاب جامع، رتبه ترتيب كتاب العين،

ويمتاز بالضبط والدقة، وصحة الشواهد؛ وهو يرمته في المتحف البريطاني، ومنه بدار الكتب أجزاء لا تتم نسخة، ومنها المخصص وهو معجم في سبعة عشر جزءاً مطبوع بمصر. ومنها «شرح مشكلي المتني» وهو مخطوط بدار الكتب المصرية، وكان ابن سيده ضريراً وأبوه كذلك. وكان أبوه قبله قياماً باللغة، وعليه اشتغل ابنه في أول أمره، وتوفي سنة ٤٥٨هـ.

٣ — أبو الحسن علي بن محمد المعروف بابن خروف النحوي الأندلسي الإشبيلي، كان فاضلاً في علم العربية، وله فيها مصنفات، شهدت بفضلها وسعة علمه. شرح كتاب سيبويه شرحاً جيداً، وشرح كتاب الجمل للزجاجي. قالوا: كان في خلقه زعارة (شراسة) ولم يتزوج قط، وكان يسكن الحانات، واختل في آخر عمره، ومشى في الأسواق عرياناً بادي العورة. توفي باشبيلية سنة ٦٠٩ أو ٦١٠ على ما ذكره ابن خلكان أو سنة ٦٠٣ كما يقول المزهر.

٤ — علي بن مؤمن بن محمد المكتبي أبو الحسن بن عصفور النحوي الحضرمي الإشبيلي حامل لواء العربية في زمانه بالأندلس، أخذ عن الدياج والشلويني ولازمه مدة، ثم كانت بينهما منافرة ومقاطعة، وتتصدر للاشتغال بالتدريس مدة في عدة بلاد، وجال في الأندلس وأقبل عليه الطلبة، وكان أصبر الناس على المطالعة لا يمل ذلك، ولم يكن عنده ما يؤخذ عنه، غير النحو ولا تأهل لغير ذلك، وكان رفق الدين، جلس في مجلس شراب فلم يزل يرجم بالتأرجح حتى مات سنة ٦٦٣هـ، وصنف كثيرة.

٥ — وعمر بن محمد أبو علي الإشبيلي المعروف بالشلويني، إمام عصره في العربية بلا مدافع، وأخر أئمة العربية بالشرق والمغرب، وكان العارفون يقدرون يقدره من تلاميذه وغيرهم يغالون فيه مغالاة شديدة، وكانت فيه مع ذلك غفلة وصورة يله، حتى قالوا إنه كان يوماً على جانب النهر وبيه كراريس فوقع منها كراسة في الماء وبعدت عنه

فلم تصل إليها يده فأخذ كراسة أخرى وجدتها بها فلقت بالماء !!
وله في هذه الحال حكايات كثيرة، توفي باشبيلية سنة ٦٤٥هـ.

والشلوبيني والشلوبين بلغة الأندلس الأیض الأشقر كما قال ابن خلkan، وقال ياقوت في معجم البلدان : شلوبين أو شلوبينة أو شلوبينية
بالياء المخففة : حصن بالأندلس، من أعمال كورة البير على شاطئ
البحر، كثير الموز وقصب السكر والشاه بلوط، ومنه أبو علي الشلوبيني.
وقال صاحب القاموس المحيط شلوبين أو شلوبية : بلد بال المغرب،
منه أبو علي الشلوبيني التحوي : وقال السيوطي في بغية الوعاة : أبو
علي الإشبيلي الأردي المعروف بالشلوبين.

٦ - وعبد الله بن السيد الطليوسى، وكان عالماً بالأدب واللغات،
متبحراً فيهما، سكن مدينة بلنسية، وكان الناس يجتمعون إليه ويقرأون
عليه؛ وكان حسن التعليم جيد التفهم، وله كتاب : «الاقتضاب في
شرح أدب الكتاب » وهو مطبوع، توفي سنة ٥٢١هـ.

٧ - ومحمد بن يوسف أثير الدين أبو حيان الأندلسي الغرناطي
النفزي (نسبة إلى نفرة — بالفتح — وهي قبيلة من البربر) وهو نحوى
عصره، ولغويه، ومفسره، ومحدثه، ومقرنه، ومؤرخه وأديبه، سمع
بالأندلس وإفريقية، ومصر والمحجاز وغيرها، وتولى التدريس بمصر
بالمصورية. وكان يقرئ بجامع الأقمر، وكان فضيحة العبار، وقد أخذ
العربيه بمصر عن البهاء بن النحاس وأخذ عنه أكابر عصره، وتقادوا
في حياته : كالشيخ تقى الدين السبكي والجمال الأستوى، وابن قاسم؛
وابن عقيل وغيرهم؛ وكان له إقبال شديد على أذكياء الطلبة، وكان
ثيناً صدوقاً حجة، سالم العقيدة من البدع الفلسفية، كثير الخشوع
والبكاء عند قراءة القرآن، وهو الذي جرأ الناس على مصنفات ابن
مالك، وشرح لهم غامضها وألف كثيراً، ومات بمصر سنة ٧٤٥هـ.

٨ - ومن الأندلسيين أصلاً كذلك ابن مالك جمال الدين محمد

ابن عبد الله بن مالك الامام العلامة الأوحد الطائي الجياني الأندلسي، المالكي حين كان بالمغرب، الشافعى حين انتقل الى المشرق، النحوي نزيل دمشق.

ولد — رحمه الله — بجيان الأندلس سنة ٦٠٠ هـ أو في التي بعدها، وسمع بدمشق من مكرم، وأبي صادق الحسن بن صباح وأبي الحسن السخاوي وغيرهم، وأخذ العربية عن غير واحد، فمن أخذ عنه بجيان أبو المظفر ثابت بن محمد بن يوسف بن الخيار الكلاعي من أهل ليلة، وأخذ القراءات عن أبي العباس أحمد بن نوار، وقرأ كتاب سيبويه على أبي عبد الله بن مالك المرشانى، وجالس ابن يعيش وتلميذه ابن عمرون وغيره بحلب، وتتصدر بها لاقرءاء العربية، وصرف همته إلى إتقان لسان العرب حتى بلغ فيه الغاية، وأربى على المتقدمين. وكان إماماً في القراءات وعالماً بها؛ وصنف فيها قصيدة دالية مرموزة في قدر الشاطبية.

وأما اللغة فكان اليه المنتهي فيها، قال الصفدي أخبرني أبو الثناء محمود قال ذكر ابن مالك يوماً ما انفرد به صاحب المحكم عن الأزهرى في اللغة، قال الصفدى : وهذا أمر يعجز، لأنه يحتاج إلى جميع معرفة ما في الكتابين، وأخبرنى عنه : أنه كان إذا صلى في العادلية — لأنها كان إمام المدرسة — يشيعه قاضى القضاة شمس الدين ابن خلkan إلى بيته تعظيمًا له. ومع هذا لم تذر لأى سبب أغلق ابن خلkan ترجمته.

وقد روى عنه الألقية شهاب الدين محمود المذكور، ورواهما الصفدى خليل عن شهاب بن محمود قراءة، ورواهما إجازة عن ناصر الدين شافع بن عبد الظاهر، وعن شهاب الدين بن غانم بالإجازة عنهما عنه. وأما النحو والتصريف فكان فيما ابن مالك بحراً لا يجارى، وإماماً لا يبارى. أما اطلاعه على أشعار العرب التي يستشهد بها على النحو

واللغة فكان أمراً عجيباً وكان الأئمة الأعلام يتحمرون في أمره. وأما الاطلاع على الحديث فكان فيه آية، وكان أكثر ما يستشهد بالقرآن، فإن لم يكن فيه شاهد عدل إلى الحديث، وإن لم يكن فيه شاهد عدل إلى أشعار العرب، هذ مع ما هو عليه من الدين المتبين والعبارة وصدق اللهجة وكثرة التوافل وحسن السمت وكمال العقل، وأقام بدمشق مدة يصنف ويشتغل بالجامع وبالتربيـة العادلة وتخرج عليه جماعة، وكاننظم الشعر عليه سهلاً رجزه وطويله وبسيطه.

ومن تصانيف ابن مالك «الموصل في نظم المفصل» وقد حل هذا النظم فسماه : سبك المنظوم، وفك المختوم، ومن قال : إن اسمه فك المنظوم، وسيك المختوم، فقد خالف النقل والعقل، ومن كتب ابن مالك «الكافية الشافية» ثلاثة آلاف بيت وشرحها، و«الخلاصة» وهي مختصر الشافية، و«إكمال الأعلام بمثلث الكلام» وهو مجلد كبير كثير الفوائد يدل على اطلاع عظيم و«لامية الأطفال وشرحها» و« فعل وأفعال» و«المقدمة الأسدية» وضعها باسم ولده الأسد و«عدة اللاظف وعمدة الحافظ» و«نظم الأوزان فيما يهمز» و«الاعتصاد في الطاء والضاد» مجلد و«إعراب مشكل البخاري» و«تحفة المودود في المقصور والممدود» وغير ذلك كشـرح التسهيل.

وروى عنه ولده بدر الدين محمد، وشمس الدين بن جعوان، وشمس الدين ابن أبي الفتح، وأبن العطار، وزين الدين أبو بكر المزي، والشيخ أبو الحسن اليوتبي (شيخ المؤرخ الذهبي)، وشهاب الدين بن غانم، وناصر الدين بن شافع، وخلق سواهم. ومن رسوخ قدمه في علم النحو أنه كان يقول عن ابن الحاجب : إنه أخذ نحوه من صاحب المفصل، وصاحب المفصل نحوـي صغير، وناهيك بمن يقول هنا في حق الرمخـري. وكان الشيخ ركن الدين بن القوبـع يقول : إن ابن مالك

ما خلى للنحو حرمة. وقدم رحمه الله القاهرة ثم رحل إلى دمشق وبها مات ثاني عشر شعبان سنة ٦٧٢هـ.

وكان ذا عقل راجح حسن الأخلاق مهذباً ذا رزانة وحياء ووقار وانتساب للإفادة، وصبر على المطالعة الكثيرة، تخرج به أئمة ذلك الزمان كابن المنجى وغيره، وسارت بتصانيفه الركبان، وخضع لها العلماء والأعيان، وكان حريصاً على العلم حتى إنه حفظ يوم موته ثمانية شواهد.

وذكر الصفدي عن الذهبي، أن ابن مالك صنف الألقية لولده تقي الدين محمد العلقمي بالأسد، واعتربه العلامة العجمي بأن الذي صنف له عن تحقيق المقدمة الأسدية، قال : وأما هذه يعني الألقية فذكر لي من أثق بي قوله، أنه صنفها برسم القاضي شرف الدين هبة الله بن نجم الدين عبد الرحيم بن شمس بن ابراهيم بن عفيف الدين بن هبة بن مسلم بن حسان الجهمي الحموي الشافعى الشهير بابن البارزى.

وقال بعض المغاربة يمدح ابن مالك وألقيه :

لقد مرت قلبي سهام جفونها كما مرت اللحمي مذهب مالك
وصال على الأوصال بالقد قدما فأضحت كأيات بقطعيع مالك
وقدلت إذ ذاك الهوى لمرادها كقليد أعلام النجاة ابن مالك
وملكتها رقى لرقة لفظها وإن كنت لا أرضاه ملكاً لمالك
وناديتها يا متىي بذل مهجني ومالي قليل في بديع جمالك

٩ — ومن المؤلفين في التفسير أبو عبد الرحمن يحيى بن مخلد القرطبي (٢٣١-٢٧٦هـ)، وله تفسير ضخم، قيل إنه لم يُؤلف مثله في الإسلام، وفضل على تفسير ابن جرير الطبرى، وكان من أكبر أئمة الحديث في الأندلس، روى عن ألف وثلاثمائة راو.

١٠ — ومن الأئمة رجال الدين في الأندلس يحيى بن يحيى بن كثير الليثى، وكانوا يدعونه عاقل الأندلس وراوياها ومحدثها، ارحل

إلى المشرق، وسمع من الإمام مالك الموطأً ورواه عنه. حتى كان المشارقة يرجعون إلى روايه ويقدمونه على غيره مع كثرة رواة كتاب الموطأ. وهو من الذين عملوا على نشر مذهب مالك في الأندلس هو وأستاذه زياد بن عبد الرحمن اللخمي، وكان أئمّاً في دينه معظمًا لدى الأمراء لترفعه عن القضاء. توفي بقرطبة سنة ٢٣٤ هـ.

١١ — ومن فقهاء الأندلس المعروفين كذلك عبد الملك بن حبيب السلمي القرطبي ولد سنة ١٧٤ وتوفي سنة ٢٣٨ هـ. وكان فقيه عصره، سكن قرطبة وزار مصر ثم عاد إلى الأندلس وتوفي بها. وكان من كبار فقهاء مذهب مالك، عالماً بالتاريخ والأدب. ألف كتاباً كثيرة منها « طبقات الفقهاء »، وطبقات المحدثين، وتفسير موطأ مالك، والواضحة، وغيرها.

١٢ — ومن علماء التفسير والحديث المعروفين في الأندلس : القاضي أبو محمد عبد الحق بن عطية الغرناطيي ولد سنة ٤٨١ هـ وتوفي سنة ٥٤٢ هـ، ومن أشهر كتبه « الوجيز في تفسير الكتاب العزيز » وهو من أعظم كتب التفسير وأجلها.

١٣ — ومن العلماء الفقيه الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد البر المتوفى سنة ٤٦٣ هـ وله : التمهيد والاستيعاب.

١٤ — ومن أشهر علماء الشريعة : القاضي عياض، كان إمام الحديث في وقته ولد بمدينة سبتة سنة ٤٧٦ هـ وولي القضاء بها، وتوفي بمراكنش سنة ٥٤٤، ومن كتبه الشهيرة : « كتاب الشفاعة بتعريف حقوق المصطفى » و « طبقات الحاكمين » و « مشارق الأنوار في غريب الحديث » وغيرها.

١٥ — ومن أئمة الدين المعروفين أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، سبق ذكره في الفلسفة، وأصل جده الأعلى من بلاد

فارس وقد دخل أحد أجداده الأندلسي. ولد أبو محمد بقرطبة سنة ٣٨٤هـ. ولما شب اشتغل بتعلم العلوم الدينية : كالحديث والفقه، حتى صار من كبار العلماء في ذلك. وألف في علم الحديث والفقه والأصول ومراتب العلوم، وكتب مباحث في أصول الأديان وما كان من النبيين والتبشير في بعضها. وألف رسائل في الطب والأدب، فكان عالماً وأديباً وفقيهاً وشاعراً متفناً في العلوم جميعها، عاملاً يعلمه حتى قالوا : إنه كان أجمع أهل الأندلس قاطنة لعلوم الإسلام، وأوسعهم معرفة مع توسيعه في علم اللسان ووفر حظه من البلاغة والشعر والمعرفة بالسير والأخبار. وكانت بينه وبين علماء زمانه مناظرات ومجادلات حملت أعداءه على التشكيك به، حتى نفرت منه القلوب، وأجمع فقهاء زمانه على تضليله، فأقصته الحكم عن بلاده حتى توفي سنة ٤٥٦هـ. ومن أشهر كتبه : كتاب « الفصل في الملل والنحل » تكلم فيه على مذاهب الفلسفة ومعتقداتهم، وفصل الكلام على الفرق الإسلامية. وهذا الكتاب من أفضل ما كتب في هذه الموضوعات.

١٦ — والشاطبي صاحب الشاطبية في القرآن، وقد توفي عام ٥٩٠هـ.

١٧ — وأبو العباس المرسي، وكان مفسراً جليلاً، أخذ عنه ابن عطاء الله الإسكندراني، وقد توفي بالاسكندرية عام ٦٨٦هـ.

١٨ — ومن أشهر مؤلفيهم في التاريخ ابن حيان، المتوفى عام ٤٧٦هـ. صاحب « المبين » في ستين مجلداً^(١) والمظفر بن الأقطس صاحب بطليوس، له كتاب « المظفر » في خمسين مجلداً، وتوفي عام ٤٦٠هـ. ومن كتبهم في الطبقات كتاب « طبقات الأمم » للقاضي أبي القاسم صاعد بن أحمد الأندلسي المتوفى سنة ٤٦٢، وذكر فيه تاريخ العلوم عند جميع الأمم، وعد علماء كل أمّة، ولابن سام الشنيري

(١) وله : « المقتص في تاريخ الأندلس » في عشرة مجلدات وهو مفقود.

المتوفى سنة ٥٤٢ هـ، كتاب « الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة » وهو تاريخ الأندلس وأدابها في القرن الخامس الهجري^(١)، ومنه جزءان مخطوطان في دار الكتب المصرية، والثالث في برلين، وقد طبع الكتاب في مصر.

ولابن بشكوال أبي القاسم خلف الخزرجي الأنصاري القرطبي المتوفى سنة ٥٧٨ هـ : كتاب « الصلة » جعله ذيلاً لتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي المتوفى سنة ٤٠٣ هـ الواقع في عدة مجلدات، وقد طبع كتاب « الصلة » في مدريد في مجلدين، وبه ١٤٤٠ ترجمة، وقد ذيله ابن الأبار المتوفى سنة ٦٥٨ هـ، في كتاب سماه « تكملة الصلة » وقد طبع في مدريد في مجلدين فيما ٢١٥٢ ترجمة لأعيان الأندلس وعلمائها، وشراطتها. وللفتح بن حاقدان المتوفى سنة ٥٢٩ هـ كتابان : « قلائد العقيان » و « مطعم الأنفس » في أخبار الوزراء، والكتاب، والعلماء والشعراء. ولقد بلغ من عنايتهما بالتاريخ، أن أرخوا المدينة الواحدة في كتاب، كما فعل لسان الدين بن الخطيب المتوفى سنة ٧٧٦، في كتاب « الإحاطة في أخبار غرناطة ». ومن المؤرخين : على ابن موسى بن سعيد المغربي الشاعر الرحالة الغرناطي، رحل إلى مصر والشام وببلاد العراق والمحاجز، دون مشاهداته في مؤلفات يقى منها : « المغرب في حل المغارب » في خمسة عشر مجلداً، توارث تأليفه ستة من آباء المؤلف وأعمامه، في ١١٠ سنة، وكتاب « المشرق في حل المشرق » في ستين جزءاً، وهذا مفقود، وتوفي ابن سعيد في

(١) وقد قسم المؤلف الكتاب إلى أربعة أقسام : الأول في أدباء أهل قرطبة وما يضاف إليها من بلاد أو واسط الجزيرة، والثاني في أدباء الجانب العربي من الأندلس من إشبيلية إلى ساحل البحر المحيط، والثالث في أدباء الجانب الشرقي، والرابع فمن طراغ على الأندلس من الأدباء، وذكر المستشرق (جيمس هبورث دن) أن الكتاب منه نسخة خطية كاملة في مكتبة باريس.

دمشق سنة ٦٧٣هـ. ولابن بطوطة المتوفى عام ٧٧٨هـ كتابه : تحفة الأنوار في غرائب الأمصار. وكتاب لسان الدين بن الخطيب صاحب « الإحاطة في أخبار غرناطة » في مجلدين وهو مرتب على حروف المعجم، ابتدأه المؤلف بمقدمة عن ولاية غرناطة وعادات أهلها وشرح كثير من أحوالهم على أيامه، وعبارة مسجوعة، وترجمته طويلة، وأآخرها ترجمة المؤلف لنفسه، وهو خاص بمشهوري غرناطة، عاصمة ملك بني الأحمر.

ومن عناياتهم بالتاريخ، أن نظموا شعراً، كما فعل أحمد بن عبد ربه، المتوفي سنة ٣٢٨هـ صاحب العقد الفريد، فإنه نظم حروف عبد الرحمن الناصر ونظم كذلك تاريخ المنذر بن محمد (٢٧٥-٢٧٣هـ). وسيقه إلى نظم التاريخ يحيى بن حك الجياني المتوفى سنة ٢٥٠هـ. فقد ذكروا أن له تاريخاً منظوماً.

١٩ — ومن الرحالة الأندلسيين المؤرخين : ابن جبير الأندلسي محمد ابن أحمد بن جبير الكاتبي (٥٤٠ - ٦٦٤هـ). وكان ميلاده ببلنسية أو بشاطئية، وتوفي في الاسكندرية. وكان مقيناً بغرناطة، وهو أديب شاعر مجده، وقد قام بعدة رحلات إلى المشرق :

الأولى : قام بها من غرناطة عام ٥٧٨هـ، وعاد إلى غرناطة في محرم سنة ٥٨١هـ، وقد زار فيها مصر والمحجاز والشام وبغداد.

والثانية : قام بها من غرناطة عام ٥٨٥هـ، وعاد إليها عام ٥٨٧هـ.

والثالثة : قام بها من سبتة ودخل فيها مكة، ثم عاد إلى بيت المقدس، ورحل إلى مصر، فأقام بالاسكندرية حتى توفي.

ويحدثنا ابن جبير (٥٤٠ - ٦٦٤هـ) في رحلته الكثير من المعلومات عن صقلية، وانتشار المسلمين فيها، ويصف ملك الجزيرة المسيحي وحسن سيرته واستخدامه للمسلمين وأنه كثير الثقة بال المسلمين يسكن

إليهم في أحواله، ويدرك تشبه الملك بملوك المسلمين، ويقول ابن جبير : ومن عجيب شأن هذا الملك أنه يقرأ ويكتب بالعربية^(١). ثم يتكلم على الجزائر المجاورة لصقلية واضطهاد المسلمين بها وإلقاءهم إلى النصر وتعذيبهم، وما تبع ذلك من أحوال تسوء كل مسلم^(٢).

ويذكر كذلك استراق المسلمين رجالاً ونساء في سردايا^(٣).

هذا كله بعد أن كانت كريت في القرن الرابع : جميع سكانها مسلمون، وكان أميرها يسمى عبد العزيز بن شعيب من ولد أبي حفص البلوطي الأندلسي وذلك عام ٣٤٥هـ، وقد غزا المسلمون كذلك جزيرة صقلية زمان بنى الأغلب عام ٢١٢هـ، ثم قرعوا أبواب روما وضربوا الجزية على اليابا^(٤).

٢٠ — ومن مؤرخي الأندلس المقربي صاحب نفح الطيب شهاب الدين أحمد بن محمد أبو العباس المقربي التلمساني (٩٨٨-١٤٠١هـ) : من أجداد الأدباء والمفكرين العرب في القرن الحادى عشر الهجري، وقد نشأ في مدينة « مقرة » في إقليم الزاب بالمغرب الأوسط، ورحل إلى جهات كثيرة في المغرب، وإلى البلاد الإسلامية : مصر والجزائر والشام، ومات في القاهرة، حيث دفن في مقبرة المجاورين، بعد أن ترك وراءه آثاراً أدبية خالدة، ومؤلفات متباذلة مشهورة، وذكراً مدوياً في كل مكان.

وترجع أهمية تأليف المقربي إلى أنها دوائر معارف عامة عن الأدب

(١) ٣٠٨ و ٣٠٩ رحلة ابن جبير.

(٢) ٣٢٤-٣٠٩ رحلة ابن جبير.

(٣) ص ٤ المرجع نفسه.

(٤) ٢٤ حضارة العرب في الأندلس للبرقوقي.

العربي في الأندلس والمغرب، وموسوعة تاريخية كبرى عن الحياة السياسية والفكرية والأدبية في هذه البلاد؛ وقد طارت شهرة كتابه «نفح الطيب» في العالم كله، وعد مرجحاً أصيلاً في الآداب العربية في الأندلس خلال حكم العرب لها، وقد استقى المقرى مواد هذا الكتاب من مئات المراجع التي ضاعت بعد عصره، وبقي ذكرها وآثار منها في نفح الطيب.

وظل تاريخ المقرى مجهولاً أو شبه مجهول، حتى تصدى للكتابة عنه أديب تونسي معاصر، هو الباحث «الحبيب الجنحاني» الذي تحدث في مفتتح كتاب آلفه عن المقرى بعنوان «المقرى صاحب نفح الطيب» عن الحياة الفكرية في العالم الإسلامي في عصر المقرى، وتكلم عن حياة المقرى وأثاره ومؤلفاته ومكانته العلمية والأدبية في عصره في شيء من الإفاضة والتحليل والبحث والنقد.

وفي آخر هذا الكتاب القيم يتكلم المؤلف عن المقرى المؤرخ والشاعر والكاتب، ويأتي بمناذج مختارة من أدبه. ثم يحصي شئ المصادر التي رجع إليها في كتابة بحثه.

٢١ — ومن علماء الأدب في الأندلس :

الأعلم الشنمرى المتوفى عام ٤٧٦هـ، وله كتب عديدة منها : شرح كتاب سيبويه، وشرح ديوان زهير، وشرح الشعراء ستة جاهلين. ومنهم : أبو علي القالى صاحب الأمالى (٢٨٨-٣٥٦هـ).

وقد ولد ونشأ في ديار بكر سنة ٢٨٨هـ. ثم رحل إلى العراق وتلقى العلم في بغداد. ورحل إلى الأندلس سنة ٣٢٨هـ فحصل به عبد الرحمن الناصر وجمله مؤدب ابنه الحكم ومعلمه. واشتهر أمير القالى في الأندلس حتى أخذ عنه كثير من أدباء زمانه. واشغل بالتدريس في مسجد قرطبة وهناك أملى على تلاميذه كتاب الأمالى المشهور.

والقالي اسمه إسماعيل، ولقبه أبو علي، واسم أبيه القاسم، وكان من موالي عبد الملك بن مروان. وأكثر أبو علي من حفظ اللغة والشعر، وعنى عنابة شديدة بدرس نحو البصريين، وتلمس لابن دريد، ونقطويه، وأiben درستويه، وغيرهم. وقد أقام ببغداد خمساً وعشرين سنة، ثم أقام بالموصل زمناً، ثم وفد على الأندلس في زمن الناصر، وكان ابنه الحكم يتصرف حيثئل من أمر أبيه كالوزير، فأمر عاملهم ابن رماحه؛ أن يحيي، مع أبي علي إلى قرطبة في وقد من وجوه رعيته، يتخذه من ياض أهل الكورة، تكراة أبي علي، ففعل، وسار معه نحو قرطبة في موكب نبيل، فكانوا يتذكرون الأدب في طريقهم، ويتشاددون الأشعار، إلى أن تجاوزوا يوماً، وهم سارون أدب عبد الملك بن مروان، ومسئله جلسة عن أفضل المناديل، وإنشاده البيت :

ثمت قمنا إلى جرد مسومة أعرافهن لأيدينا مناديل

وكان الذاكر للحكاية الشيخ أبي علي، فأنشد الكلمة في البيت : « أعرافها لأيدينا مناديل ». فأذكرها ابن رفاعة الأكبيري. وكان من أهل الأدب والمعرفة، وفي خلقه حرج وزعارة، فاستعاد أبي علي البيت مستعيناً مرتين، وفي كلتيهما أنشده « أعرافها »، فلوى ابن رفاعة عنانه منتصراً، وقال : « مع هذا يوفد على أمير المؤمنين وتحشم الرجل تعظيمه، وهو لا يقيم وزن بيت مشهور بين الناس، لا يخلط الصبيان فيه، والله لا تبعنه خطورة »، وانصرف عن الجماعة، وتدبه أمير رماحه لا يفعل، فلم يجد فيه حيلة، وكتب إلى الحكم يعرفه، ويصف له ما جرى لابن رفاعة ويشكوه، فأجابه على ظهر كتابه : « الحمد لله الذي جعل في بادية من بواديها من يخطى واقت أهل العراق إليها، وأiben رفاعة أولى بالرضا عنه ».

ومن علماء الأدب كذلك ابن عبد ربه (٢٤٦-٣٢٨).

وكتابه « العقد الفريد » يحسب من أمنع كتب الأدب وأجلها فائدة

وأوسعها مادة. جرى مؤلفه في تصنيفه على أسلوب لم يسبق إليه، فقسمه إلى عقود وجواهير، تكلم في كل باب منها على موضوع خاص. فجاء وأفياً في الأدب العربي وتاريخ العرب وأحوالهم، جامعاً لكثير من القصص والأخبار وأيام العرب وعلوم اللغة، وكثير من المسائل الأدبية محظياً على جملة من الحكایات والتوادر والملح، مما يحتاج إليه الأديب من شعر ونثر. وأكثر الكتاب مختار من كلام الكتاب والمؤلفين من أهل المشرق، فهو كتاب جليل الفائدة لمن يريد الوقوف على أدب العرب.

ومن علماء الأدب في الأندلس كذلك :

جمال الدين أبو الطاهر محمد بن يوسف السرقسطي المعروف بابن الأشتر كوني المتوفى سنة ٥٣٨، وله خمسون مقامة أنشأها بقرطبة على متوال مقامات الحريري والتزم فيها ما لا يلزم، ولذا تعرف بالمقامات اللزومية، وحدث فيها المنذر بن حمام عن السالب بن تمام، وأبو الحسن علي بن موسى الأندلسي المتوفى عام ٦٧٣هـ، وله كتاب « ريحانة الأدب » جمع فيه بين عيون الأخبار ومستحسنات الأشعار.

ومن علماء الأدب كذلك : الشريسي، ومدينة « شريش » المنسوب إليها أديبنا الشريسي شارح مقامات الحريري هي إحدى القرى الجميلة القديمة في الأندلس، ويصف ابن لیال الشاعر متزهاً فيها يسمى « إجازة » فيقول :

أبا حبذا إجازة كيـفـما اغـدت زـمان رـبع أو زـمان عـصـير
مـذـائب مـاء كـالـلـجـين عـلـى حـصـى كـدـر بـلـا ثـقـب أـغـرـ ثـيـر
وـرـمـل إـذـا مـا اـبـتـل بـالـمـاء عـطـقـه غـيـباـ به عـن عـيـرـ وـذـورـ
وـتـيـن كـمـا قـامـت عـلـى حـلـمـاتـهـا نـهـود عـذـارـي الرـنـجـ فـوقـ صـدـورـ
كـأـنـ القـبـابـ الخـرـ فيـها عـرـائـسـ عـلـى سـرـرـ مـفـروـشـةـ بـحـرـيرـ

ويذكر الشريishi في هذا الكتاب عرضاً أسماء بعض شيوخه، منهم : ابن جبير^(١) الرحالة الأندلسي المشهور الناائع الصبيت... وهذه قصة أدية يشير فيها إلى أستاده أبي عبدالله بن زرقون، وفيها شيء من تاريخ صباح وبدهاته الحاضرة، قال الشريishi^(٢) : حدثني الفقيه أبو عبدالله بن زرقون في بيته بطریانة أيام قراحتي عليه التوادر والكامـل، وكان رحمة الله مذاكراً بالطريقة الأدية مع تميزه بالطريقة الفقهية، فدارت بيتي وبينه في إحدى العشيـات، أنواع من المذاكرات، في فنون أدبيـات، فاهتز رحمة الله وهـش وأظهر السرور بي وأنا يومئـل غلام ما بقل عنـاري، فقال لقد علمت أن بيـني وبينك أحـوة، قلت : وكيف ذاك يا سيدـي ؟ فقال إـني ولدت بـيلـدك شـريـش فـزـدت بالـحـديث غـبـطة واستـرـدت منه فقال لي ومع ذلك قـمـة مـسـتـرـظـة : اـعـلمـ أـنـيـ كـنـتـ اـجـزـتـ بـشـريـشـ قـافـلاـ منـ العـلـوـةـ معـ الفـقـيـهـ أـبـيـ بـكـرـ عـبـدـالـلهـ بـنـ الـعـرـبـيـ رـحـمـهـ اللهـ، فـلـمـ صـرـنـاـ فـيـ بـطـاحـهـ وـبـينـ كـرـمـانـهـ وـجـانـهـ، أـخـذـ الفـقـيـهـ أـبـيـ بـكـرـ يـشـيـ عـلـيـهـ بـكـلـ لـسانـ، عـلـىـ كـثـرـةـ مـاـ رـأـيـ مـنـ الـبـلـدـانـ، وـيـقـولـ : إـنـ الـأـشـيـاءـ الـتـيـ جـمـعـتـ فـيـهـ لـاـ تـكـادـ تـجـمـعـ فـيـ بـلـدـةـ مـنـ كـثـرـ الزـرـعـ وـالـضـرـعـ وـالـزـيـرـ وـالـعـصـيرـ وـالـمـلـحـ وـغـيـرـ ذـلـكـ، قـلـتـ لـهـ : أـعـلـمـ أـنـيـ وـلـدـتـ بـهـاـ قـفـالـ لـيـ أـبـوـ بـكـرـ : أـتـقـولـ أـنـ الـآنـ مـسـقـطـ الرـأـسـ شـريـشـ ؟ـ قـلـتـ لـهـ مـجـيـزاـ : وـبـهـاـ كـتـ أـعـيـشـ، قـفـالـ أـبـوـ بـكـرـ : وـرـدـهـاـ مـنـ سـلـسـلـيـلـ، قـلـتـ : وـصـحـارـيـهـ عـرـيـشـ. ثـمـ سـرـنـاـ فـيـ طـرـيـقـناـ عـلـىـ قـوـافـيـ السـرـوـجـيـةـ، فـرـدـدـنـاـهـ شـريـشـيـةـ، وـقـدـمـنـاـ بـهـاـ الطـرـيـقـ وـنـحـنـ لـاـ نـشـعـرـ فـكـانـ أـسـرـ عـشـيـةـ مـجـالـسـةـ مـثـلـ هـذـاـ الـفـاضـلـ وـسـنـهـ وـقـدـ نـيـفـ عـلـىـ الـشـمـائـنـ بـسـتـيـنـ، يـحـدـثـيـ عـنـ أـبـنـ الـعـرـبـيـ وـابـنـ عـبـدـالـلهـ الـكـاتـبـ وـنـظـرـائـهـ فـيـ رـيـاضـ كـلـهـاـ نـزـهـةـ عـلـىـ نـهـرـ أـشـيـلـيـةـ وـهـيـ أـمـامـاـ عـلـىـ بـهـجـتـهـ وـجـمـالـهـ؛

(١) راجع ١٢٦ ج ٣ من هذا الكتاب وموضع أخرى — نشر خفاجي.

(٢) شرح المقامات ج ٢.

مادحأ لي ولبلدي ليدخل على بذلك مسرا، تسأل الله تعالى أن يبلغه
غاية السرور في دار البقاء.

« وشرح المقامات للشريسي » مجموعة علم وأدب، ودائرة معارف ثقافية واسعة، ومصدر من مصادر الأدب العربي القديمة، وهو بحق ثروة علمية ثمينة، وهو جدير بعناية الأدياء والعلماء به واهتمامهم بدراسةه والاطلاع عليه، فوق أنه عظيم الأهمية في دراسة الأدب العربي القديم في الأندلس وببلاد المغرب؛ لما تضمنه من طرائف وفصول قيمة وإشارات لطيفة، عن الأدب الأندلسي وأعلامه.

ويقول السيوطي عنه في بقية الوعاة (ص ١٤٣) : أحمد بن عبد المؤمن بن موسى بن عيسى بن عبد المؤمن القيسى الشريسي، أبو العباس التحوي، شارح المقامات. قال ابن عبد الملك : كان ميرزاً في المعرفة بالتحو ، حافظاً للغات، ذاكراً للأداب، كاتباً بليغاً فاضلاً ثقة، عني بالرحلة في طلب العلم، وروى عن أبي الحسن ومصعب ابن أبي ركب وابن خروف، وخلق، وعنده: ابن الأبار وابن فرتون وأبو الحسن الرعيبي، وتصدر لإقراء اللغة والأدب والعربيّة والعروض... وله ثلاثة شروح في المقامات، وشرح الإيضاح، وشرح عروض الشعر، وعلل القوافي، وشرح الجمل، ومحضّر نوادر القالي، وغير ذلك، مات بشريش في ذي الحجة سنة ٦١٩هـ.

وترجم له المقرئ في الجزء الأول في كتاب نفح الطيب ص ٣٧٦ فقال : الكمال أبو العباس أحمد الشريسي، وهو أحمد بن عبد المؤمن ابن موسى بن عيسى بن عبد المؤمن القيسى من أهل شريش. روى عن أبي الحسن بن ليل، وأبي بكر بن أزهر، وأبي عبدالله بن زرقون، وأبي الحسن بن جبير، وغيرهم.. وأقرأ العربية، وله تأليف أفاد بما حشد فيها، منها : شرح الإيضاح للفارسي، والجمل للزجاج، وله في العروض تأليف، وجمع مشاهير قصائد العرب، ومحضّر نوادر أبي علي

القالى. قال ابن الأبار : لقيته بدار شيخنا أبي الحسن بن حريق من بلنسية قبل توجهى إلى إشبيلية فى سنة ٦١٦، وهو إذ ذاك يقرأ عليه شرحه للمقامات، فسمعت عليه بعضه وأجاز لي سائره مع رواياته وتأليفه، وأخذ عنه أصحابنا، ثم لقيته ثانية مقدمه من مرسيه : ومن بديع نظمه

وهو بمصر يتشوق إلى الشام :

يا جيرة الشام هل من نحوكم خير
فإن قلبى بنار الشوق يستعر
بعدت عنكم فلا والله بعدكم
ما لذ للعين لا نوم ولا سهر
يقرىكم كادت الأحساء تنفتر
إذا تذكرت أوقاتاً نأت ومضت
كأننى لم أكن بين الترين ضحى
والغيم يكى، ومنه يضحك الزهر
والورق تشد والأغصان راقصة
والدوح يطرب بالتصفيق والنهر
والسفع أين عشياتى التي سلفت
لي منه؟ فهى لعمري عندى العمر
سقاك يا سفع الدمع منهلا
وقل ذاك له إن أعزور المطر

وله شروح مقامات الحريري : كبير ووسط وصغير، وفي الكبير من الآداب ما لا كفاء له. وكان رحمة الله معجباً بالشام. وقال ابن الأبار عندما ذكره إنه شرح مقامات الحريري في ثلاثة نسخ، كبراهما الأدية، ووسطها اللغوية، وصغراهما المختصرة.

ومن أدباء المؤلقين : أبو الوليد الباجي، ولد عام ٤٠٣، وتوفي في أواخر القرن الخامس الهجري، وذلك عام ٤٧٤هـ^(١). وكان يعاصره محمد بن حزم الظاهري^(٢) (٣٨٤-٤٥٦هـ).

ومنهم محمد بن الوليد الفهري (٤٥١-٥٥٢هـ)^(٣)، والكاتب محمد ابن عبد رب المالقى من أدباء القرن السادس الهجرى^(٤)؛ وأبى

(١) ٢٠٢-١٧٣ : ٦ نفح الطيب.

(٢) ٢٢٢-٢٠٢ : ٦ المرجع نفسه.

(٣) ٢٢٢-٢٢٢ : ٦ المرجع نفسه.

(٤) ٢٥٩-٢٥١ : ٦ المرجع نفسه.

الصلت أمية بن عبد العزير بن أبي الصلت الإشبيلي (٤٦٠—٥٢٩هـ)، وكان شاعراً مجيداً^(١)، وبرع في الفلسفة والطب؛ وأبو العباس الشريسي. وقد سبقت ترجمته بتفصيل^(٢)، وتوفي عام ٦١٩هـ، والوزير أبو عبدالله محمد بن أبي الحسن بن عبد ربه حفيد صاحب «العقد الفريد» من أدباء الأندلس في القرن السادس وأوائل السابع الهجري^(٣). ومن العلماء الأجلاء يقى بن مخلد (٢٧٦—٢٠١هـ)، وقاسم بن ثابت السرقسطي المحدث أول من أدخل كتاب العين الأندلس، وتوفي عام ٣٠٣هـ.

ويقال إن تأليف عالم الأندلس عبد الملك بن حبيب السلمي الفقيه الإمام بلغت ألفاً^(٤)، وكان الأديب الشاعر محمد بن سعيد الذي عاصر عهد عبد الرحمن ابن الحكم (٢٣٨—٢٠٦هـ) يلقب بالأصمي لقوة ذكائه.

اما يحيى بن يحيى اللثي^(٥) المتوفى عام ٢٢٤هـ بقرطبة، فهو الذي انتهت إليه الرياسة بالأندلس، وبه اشتهر مذهب مالك^(٦) فيها، ومنذر ابن سعيد البلوطي قاضي الجماعة بقرطبة^(٧) في عهد الناصر، مكانته أجل من أن تتجدد.

وقد سافر إلى الشرق وسنّه وقتل ثمان وعشرون سنة، وتلقى العلم على أستاذة مالك بن أنس الذي أملّى عليه كتابه المعروف بالموطأ،

(١) ٢٨٠—٢٩٢ : ٦ المرجع.

(٢) راجع ٣٠٦—٣١٠ : ٦ المرجع، وص ٢٣ من هنا الجزء.

(٣) ٣١٥—٣١٩ : ٦ المرجع.

(٤) ٨ ج ٦ فتح الطيب — نشر فريد رفاعي.

(٥) ١٦ ج ٦ فتح الطيب.

(٦) ٤٦٩ : ٦ المرجع.

(٧) ٣٤—٤٧ : ٦ المرجع.

وحدث أن كان يحيى ذات يوم في أحد دروس مالك ومعه عدد من الطلاب رقائمه، فقال قائل : « حضر الفيل »، فخرروا جميعاً لرؤيته، ولم يتحرك يحيى من مكانه، فسأله مالك : « لم لم تذهب لزراه، وليس في بلادك مثل هذا الحيوان ؟ » فأجابه يحيى : « لقد تركت بلادي لأراك وألتقي عنك الدروس، ولم آت هنا لرؤية الفيل » فسر مالكاً هذا الجواب وقال عنه إنه عاقل الأندلس، ولما عاد يحيى إلى إسبانيا، بذل كل ما في وسعه لنشر تعاليم مذهب مالك — ولكن كان يحيى لهذا قد أصر بسبب تورعه ونسكه على رفض أي منصب من المناصب العامة، فقد عظم تأثيره لذلك وذاع صيته إلى حد أن وصلاً — كما يقول ابن حزم — إلى أنه كان لا يولي قاض في الأندلس إلا بعد أن يؤخذ رأي يحيى فيه، ولا بعد أن يبين من يفضله على سواه من الناس^(١).

(١) ابن علikan ج ٤ ص ٢٩، ويقول المقرئ في ذلك « ومن الراحلين من الأندلس الفقيه المحدث، يحيى بن يحيى الشيشي راوي الموطأ عن مالك رضي الله تعالى عنه، ويقال إن أصله من بربرية مصمودة — وحكي أنه لما ارتحل إلى مالك ولازمه، فيما هو عنده في مجلسه مع جماعة من أصحابه، إذ قال قائل « حضر الفيل فخرج أصحاب مالك كلامهم، فقال مالك : « مالك لم تخرج وليس الفيل في بلادك ؟ » قال : « إنما جئت من الأندلس لأنظر إلىك وأتعلم من هديك وعملك، ولم أكن لأنظر إلى الفيل » فأعجب به مالك وقال : « هذا عاقل الأندلس » ولذلك قيل : « إن يحيى هنا عاقل الأندلس، وعيسي بن ديار فقيهها، وعبد الملك بن حبيب عالها، وبقال إن يحيى رايتها ومحذتها، وتوفي يحيى بن يحيى سنة ٢٢٤ هـ في رجب وفاته كان يستقصى به بقرطة ».

« وكان مع أمانته وديه معظمًا عند الأمراء يكنى عندهم. حقيقةً من الولايات منها، جلت رتبته عن القضاة، وكان أعلى من القضاة قدرًا عند ولادة الأمر بالأندلس، لزهده في القضاة وامتناعه — قال الحافظ بن حزم — « مذهبان اشترا في هذه أمرهما بالرياسة والسلطان، مذهب أبي حنيفة، فإنه لما ولد القضاة أبو يوسف كانت القضاة من قوله، من أقضى المشرق إلى أقصى عمل أفريقيا، فكان لا يولي إلا أصحابه والمتدين لمذهب، ومذهب مالك عندنا بالأندلس، فإن يحيى بن يحيى كان مكتيناً عند السلطان،

ومن علماء الأندلس : أبو محمد القاسم الشاطبي (٥٣٨ـ٥٥٩هـ) وقد دخل مصر عام ٥٧٢هـ، ودفن بالقاهرة بالترية الفاضلية بسفح جبل المقطم، والإمام القاضي أبو يكر بن العربي (٤٦٨ـ٥٤٣هـ)، ودفن بفاس.

ومن المحدثين : عمر بن الحسين الظاهري الأندلسي المحدث (٥٤٨ـ٦٠٣هـ) توفي بالقاهرة ودفن بسفح المقطم.

وعلى ذلك فقد أصبح مذهب مالك يلي الحديث مباشرة في اتخاذه شرعاً للبلاد، قال عالم من كتاب القرن العاشر : « لقد كان الإسبانيون لا يعرفون إلا القرآن والموطأ، فكانوا إذا وجدوا تابعاً من أتباع مذهب أبي حنيفة أو الشافعى طردوه من إسبانيا — والويل لمن يصادفونه من المعزلة أو الشيعة أو من طائفة تتسمى لمذهب ما، فإنهم كثيراً ما كانوا يخدمون أنفسهم »^(١).

ومن أئمة الصوفيين بالأندلس أبو عبدالله القرشى الهاشمى (٥٤٤ـ٥٩٩هـ)، ومحمد بن سراقة الشاطبي (٥٩٢ـ٦٦٣هـ) وأقام بمصر نحو العشرين عاماً وبها توفي.

ومن علماء الأندلس كذلك : عبد الرحمن بن عبدالله السهيلي الأندلسي المالقى المتوفى عام ٥٨١، العالم بالعربية واللغة، ومن تصانيفه : الروض الأنف^(٢).

— مقول القول في القضاء وكان لا يلي قاض في أقطار الأندلس إلا يمشوره واحتياجه ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان على مذهبه والناس سراج إلى الدنيا، فاقبلا على ما يرجون بلوغ أفرادهم به — على أن يحيى لم يقتل قضاء نعم، ولا أجاب إليه — وكان ذلك زالداً في جلالته عندهم.

(١) المقدسى ص ١٤٤.

(٢) ١٣٧ـ١٤٤ : ٦ : نفح الطيب.

(٣) ١٨٧ نكت الهميان.

ومنهم : محمد بن أحمد جابر الأندلسي الضرير (المتوفى عام ٦٩٨هـ) قدم دمشق وسمع بها على شيوخ عصره، وتوجه منها إلى حلب عام ٧٤٣هـ^(١).

ويوسف بن سليمان الشنتمري الأندلسي الأعلم التحوي، مات باشبيلة عام ٤٧٦هـ، وميلاده عام ٤١٦هـ، ومن مؤلفاته : شرح على الحمامة.

وألف القرطبي : محمد بن عبد الرؤوف بن محمد الأزدي الكاتب العالم بالأخبار واللغة، المتوفى عام ٣٤٣هـ، كتاباً في أخبار شعراء الأندلس.

ولابن آبان محمد القرطبي الأندلسي، شرح لديوان المتنبي، وكان عالماً باللغة والأخبار والأساس، وتوفي سنة ٣٥٤هـ^(٢).

ولابن السراج محمد بن سعيد الشنتمري التحوي الأندلسي المالكي المتوفى عام ٥٤٩هـ، كتاب « جواهر الآداب وذخائر الشعراء والكتاب »، ومحضر العدة لابن رشيق.

وألف الاشبيلي محمد بن خلف المتوفى سنة ٥٨٦هـ شرح الأشعار الستة، وشرح الفصيح في اللغة.

وألف الأندلسي محمد بن يحيى الشاطبي المتوفى عام ٥٤٧هـ تاريخاً لملوك الأندلس.

وألف محمد بن صالح القحطاني الأندلسي المتوفى عام ٣٨٢هـ تاريخاً للأندلس.

وألف الباجي محمد بن أحمد اللخمي الاشبيلي الأندلسي المالكي المحدث (٣٥٦-٤٢٣هـ) كتاباً كثيرة.

(١) ٢٤٤ نكت الهبيان.

(٢) ٤٣ : ٢ هدية العارفين تأليف اسماعيل البغدادي باشا، طبعة استانبول ١٩٥٥.

وألف ابن الحذاء القرطبي محمد بن يحيى (٣٤٨-٤١٦هـ) كتاب : « الخطب والخطباء ».

وألف الحميدي محمد بن أبي نصر الأندلسي م ٤٨٨هـ « جنوة المقبس في تاريخ علماء الأندلس ».

وللطاطشوسي محمد بن الوليد الأندلسي (٤٥١-٥٢٠هـ) كتاب سراج الملوك، وللسقسطي محمد بن حكم الأندلسي م سنة ٥٣٨هـ كتاب شرح الإيضاح لأبي علي الفارسي، ولابن الاشتراكوني محمد بن يوسف السقسطي الأندلسي م ٥٣٨هـ شرح للكامل للمبرد، والمقامات السقسطية في خمسين مقامة.

ومن تشاوا في الأندلسي الشيخ الأكبر محمد بن علي بن العربي الطائي الحاتمي الأندلسي المولود بالأندلس عام ٥٦٠هـ المتوفى بدمشق عام ٦٣٨هـ وهو من أئمة الصوفية.

ولالأستجي أبي عبدالله محمد بن أحمد الأندلسي المتوفى عام ٦٤٠هـ كتاب : الحل في نظم الدول، وللوادي آتشي المتوفى سنة ٦٥٧هـ مختصر إحياء علوم الدين للغزالى، وللمرسى محمد بن عبدالله الأندلسي (٥٥٥-٦٥٥هـ) كتاب البديع والبلاغة؛ ولابن هشام محمد بن يحيى الأنصاري التحوى الأندلسي (المتوفى عام ٦٤٦هـ) شروح على كتاب الإيضاح لأبي علي الفارسي؛ ولابن سراقة محمد بن محمد الأندلسي (٥٦٢-٥٧٢هـ) كتاب إعجاز القرآن؛ ولابن منظور الأفريقي (٦٣٠-٦٧٧١هـ) كتاب لطائف الذخيرة في محسان أهل الجزيرة. ولأبي حيان الأندلسي محمد بن يوسف (٦٥٤-٧٤٥هـ) مؤلفات كثيرة في النحو والتفسير؛ وللشريسي محمود بن أحمد الأندلسي م ٧٦٩هـ شرح على مفتاح العلوم للسكاكى.

ومن الأدباء كذلك : الفتح محمد بن عبد الله بن خاقان الإشبيلي.

ولد سنة ٤٨٠، وتوفي سنة ٥٢٩هـ. ونشأ ببلاد الأندلس، ثم دخل بلاد المغرب واتصل بملوكها. وكتب لبني تاشفين، وألف كتابه « قلائد العقيان » و « مطعم النفس » وهما من أشهر ما كتب عن أدباء الأندلس وشعرائهم وقضائهم ووزرائهم.

مؤرخون أندلسيون :

وهم كثيرون أشهرهم :

١ — أبو بكر بن القوطية : ومن مصنفاته تاريخ الأندلس من فصحها إلى عبد الرحمن الناصر.

٢ — ابن حزم، وله عدة مؤلفات في الأحكام والفقه والملل وغيرها، وله كتاب صغير سماه نقطن العروس، ذكر فيه وقائع تاريخية في الأندلس، وأخلاق وعادات بني أمية فيها، وهو كتاب مفيد لم يصل لنا منه سوى بعض أبواب حفظها المؤرخون الذين بعده (١).

٣ — أبو مروان بن حيان القرطبي، المعروف بابن حزم، المتوفى سنة ١٠٧٦م. كان رئيس الشرطة في قرطبة، وله كتاب « المقني » في تاريخ الأندلس «، في عشرة مجلدات، ثم كتاب « المتن أو العين، كما جاء في كشف الظنون » في تاريخ الأندلس أيضاً في ستين مجلداً، ولم يصل إليه من مؤلفه سوى بعض فصول أوردها من جاء بعده من المؤرخين، ويتبين منها حسب رأي دوزي أن وصف الحوادث التاريخية ونقدتها كان من مؤلفات ابن حزم مستوفياً لا يقبل الزيادة.

٤ — أبو عبدالله محمد بن أبي نصر الحميدي الأندلسي، المتوفى سنة ١٠٩٥م، أصله من قرطبة روى عن أبي محمد علي بن حزم

(١) وفيات الأعيان لابن حلكان ج ١ ص ٣٤٠

الظاهري وأكثر من الأخذ عنه وشهر بصحبته، وحج إلى مكة سنة ١٠٥٦م، وطاف بأفريقية ومصر والشام والعراق واستوطن بغداد. وله عدة مؤلفات منها : تاريخ علماء الأندلس سماه « جذوة المقتبس » في مجلد واحد، يقول في مقدمته إنه كتبه من حفظه ولذلك لا يعتمد عليه^(٣).

٥ — لسان الدين أبو عبدالله محمدالمعروف بابن الخطيب، المتوفى سنة ٧٧٦هـ — ١٣٧٤م، كان وزيراً لأبي الحجاج يوسف سلطان غرناطة، وصنف له كتاب « الإحاطة في تاريخ غرناطة » الذي أخذ عنه المقربي.

٦ — أبو العباس المغربي، المتوفى سنة ١٠٤١هـ — ١٦٣١م، أصله من الغرب واستوطن في القاهرة وصنف فيها « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب » ذكر فيه تاريخ الأندلس من فتحها إلى غزو الملك فرديناند غرناطة.

وقد كتب كثير من المؤرخين عن المغرب، اشتهر منهم : ابن عذاري العراقي، وله كتاب « البيان المغرب في أخبار المغرب ». ومن تبع في الأندلس : ابن البيطار المالقي، المتوفى بدمشق سنة ٦٤٦هـ وقد درس النباتات في الشام وبلاد الروم واليونان، وله كتاب « مفردات الأدوية » وكان من خدم الملك الكامل الأيوبي، وكان يعتمد عليه في معرفة الأدوية، ولا يزال مرجعاً أصيلاً في ياده.

مدرسة التحو في مصر والأندلس :

من هؤلاء : أبو عمرو عثمان المعروف بابن الحاجب، تخرج بها وبرع في علوم العربية وغيرها، ثم انتقل إلى دمشق ودرس بجامعها،

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٨٥.

قال ابن خلkan : وقد سأله عن مواضع في العربية مشكلة، فأجاب
بأنه إجابة، ومن جملة ذلك أنه سأله في بيت المتنبي :
لقد تصبرت حتى لات مصطبر فالآن أقحم حتى لات مقتضم
عن السبب في خفض مصطبر ومقتضم ولا تليست من أدوات
الجر فأطال الكلام، وأحسن الجواب، ولم يذكر ابن خلkan صورة
إجابة ابن الحاجب على ذلك خوف الإطالة، وأقول : يجوز في هذا
أن يكون الجر بمعنى ولا تكلا ليست حاجزاً كما جروا بالباء في
قولهم « جنت بلا زاد » على رأي ونصبوا المضارع بأن في نحو
(ثلاث لا يعلم)، وفي شرح المتنبي للعكيري في هذا الموضع الناء في
لات زائدة، وقد تزداد في الحروف كتم وتمت ورب وربت والجر
به شاذ، وقد جر به العرب، وأنشدوا :
طلبو صلحنا ولا تأوان فاجننا أن لات حين بقاء
ثم عاد ابن الحاجب إلى القاهرة، وأخذ عنه خلق كثير، ومن مصنفاته
الكافية في التحو والشافية في الصرف وتوفي سنة ٦٤٦هـ.
وعلى الكافية شروح كثيرة من أشهرها شرح رضي الدين محمد
ابن الحسن الاستريادي المتوفى حوالي سنة ٦٩٠هـ.

وهذا الشرح جليل الاعتبار، كثير القوائد، فيه أشياء لا توجد في
غيره وشوهد هذا الشرح أخذه عبد القادر البغدادي، المتوفى بالقاهرة
١٠٩٣هـ، وينتسب إليها خزانة المشهورة المسماة : خزانة الأدب، ولب
لباب لسان العرب، وهي واسعة الأرجاء، مملوءة بجوهر الأدب، قل
أن يوجد كتاب في بابها يحاكيه؛ فهي ضالة الأدب، وقد طبعت بمطبعة
بولاقي سنة ١٢٩٩ في أربعة أسفار ضخمة.

ومن أشهر علماء التحو محمد بن عبد الله بن مالك، نشاً بمدينة
جيان من الأندلس، ثم انتقل إلى دمشق وأقام بها، وكان بحراً لا يشق

عبابه في العلوم خصوصاً في النحو، وتصدر بحلب لقراء العربية، وكان يجتمع به قاضي القضاة ابن خلكان ويحترمه لعلمه، ومن تصانيفه منظومة الكافية الشافية في النحو، وهي ثلاثة آلاف بيت، وشرحها ثم لخصها في أرجوزة سماها : الخلاصة، وهي ألف بيت ولذا تعرف بالألفية، ونشر هذه في كتاب سماه : الفوائد التحوية والمقاصد المحوية، وتسهيل هذا الكتاب وتكميله صنف كتاباً سماه : تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد، واشتهر كتاب التسهيل دون كتاب الفوائد، ومن تصانيفه أيضاً : الأعلام بمثلث الكلام، وعدة اللافظ وعدة الحافظ، وتوفي بدمشق ٦٧٢، وقد سبقت ترجمته.

هذا وقد أقبل الناس إقبالاً زائداً على الألفية يحفظونها ويعرفون أحکامها؛ ولذا أكثر العماماء من شرحها، فمن شرحها: محمد بن الناظم المتوفى سنة ٦٨٦ بدمشق، وحسن بن قاسم المصري المتوفى سنة ٧٤٩، وقد شرح التسهيل أيضاً. وأبو زيد عبد الرحمن المكودي المتوفى سنة ٨٠١، وأبو الفضل عبد الرحمن جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١، ويدر الدين على الأشموني المتوفى في حدود سنة ٩٠٠ هـ، وهذا الشرح يسمى : منهاج السالك إلى الأفية ابن مالك، ويدرس بالأزهر بعد شرح ابن عقيل لأنّه أوسع منه وأصعب. وقد دونوا على هذه الشروح حواشي، فمن ذلك : حاشية أحمد بن قاسم العبادي المتوفى سنة ٩٩٢ على شرح ابن الناظم، وحاشية الشيخ أحمد السجاعي المتوفى سنة ١١٩٧ بمصر على شرح ابن عقيل، وحاشية الشيخ محمد الخضرى الدمعاطي المتوفى سنة ١٢٨٨ على هذا الشرح، وهي أوسع وأتفع من حاشية السجاعي وكلاهما يقرأ بالأزهر، وحاشية الشيخ محمد الصبان المصري المتوفى سنة ١٢١٦ على هذا الشرح أيضاً وينقرأها المتهون بالأزهر.

ومن إشبيلية : علي بن محمد الكتامي أبو الحسن المعروف بابن

الصانع، كان إماماً في العربية لا يجاري، لازم الشلوبين وفاق أصحابه بأسرهم، أملى على إيضاح الفارسي، ورد اعترافات ابن الطراوة على الفارسي، واعترافات على سيبويه، واعترافات البطليوسى على الزجاجي، ورد على ابن عصفور معظم اختياراته، وله شرح الجمل وشرح كتاب سيبويه، جمع فيه بين شرحى السيرافي وابن خروف، وله في مشكلاته، عجائب توفي سنة ٦٨٠.

وكان من أهل فاس: أبو عبدالله محمد بن محمد بن داود المعروف بابن آجروم الصنهاجي، نسبة إلى صنهاجة وهي قبيلة بالمغرب المتوفى سنة ٧٢٣، ولا يؤثر عنه إلا من الأجرمية، وعليها شروح كثيرة. منها: شرح الشيخ خالد الأزهري المتوفى سنة ٩٠٥، وعليه حاشية للسيد محمد أبي النجا من نهاية القرن الثالث عشر، ومنها: شرح الشيخ حسن الكفراوى الأزهري المتوفى سنة ١٢٠٢ بالقاهرة. وعلى الأزهرية حاشية للشيخ محمد الأمير المتوفى سنة ١٢٣٢، حاشية للشيخ حسن العطار المصرى المتوفى سنة ١٢٥٠.

واشتهر من الأندلس: أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي الغرناطي، نزيل مصر، كان إمام عصره في فنون الأدبأخذ عن ابن الصانع وغيره، وأخذ عنه كثير من الأئمة: كفقي الدين السبكي وابن قاسم وابن عقيل والسمين، وكان يقرئ الناس كتاب سيبويه ومصنفات ابن مالك ويرغبهم فيها ويشرح لهم غامضها، ومصنفاته في العربية كبيرة. منها: التذليل والتكميل في شرح التسهيل، وهو مطول، واختصره في كتاب سماه: ارتشاف الضرب من لسان العرب. قال الصفدي: لم أره قط إلا يسمع أو يستغل أو يكتب أو ينظر في كتاب، وكان ثبناً فيما عارفاً باللغة، وأما النحو والصرف فهو الإمام المطلق فيهما، وخدم العلم أكثر عمره حتى صار لا يدركه أحد في أقطار الأرض، وله اليد الطولى في التفسير والحديث وترجمة الناس وتعريف طبقاتهم خصوصاً

المغاربة، ومن شعره :

عدي لهم فضل على ومنه فلا أذهب الرحمن عن الأعداء

هم بحثوا عن زلني فاجتبيها وهم نافسوني فاكسبت المعاليا

ومنه :

سبق الدمع بالمسير المطايا إذ نوى من أحب عنى نقله

أجاد السطور في صفحة الخد ولم لا يجيد وهو ابن مقله

. ومات بالقاهرة سنة ٧٤٥.

وفي مصر نبغ ابن هشام (٧٠٨-٧٦١هـ) وكان من أئمة النحو،

وله كتب مشهورة، منها : القطر والشذور ومعنى اللبيب ورتبه على

ثانية أبواب. الأول : في تفسير المفردات وفيه يذكر حروف المعانى

وما أشبهها. والثانى : في تفسير الجملة وذكر أقسامها وأحكامها. والثالث :

في ذكر أحكام ما يشبه الجملة وهو الظرف والجار والمجرور وذكر

أحكامها في التعلق. والرابع : في ذكر أحكام يكثر دورها ويصبح بالمعرب

جهلها. والخامس : في ذكر الجهات التي يدخل الاعتراض على المعرب

من وجهتها. السادس : في التحذير من أمور اشتهرت بين المعربين

والصواب خلافها. والسابع : في كيفية الإعراب. والثامن : في ذكر

أمور كلية يتخرج عليها ما لا ينحصر من الصور الجزئية، وهي إحدى

عشرة قاعدة، ويندرج تحت كل باب مواد كثيرة تعرف من الاطلاع

على الكتاب؛ وله أيضاً كتاب أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك،

وقد نثرها فيه ويعرف بالوضيغ. قال الأمير في حاشيته على المعني

هذا : ولد ابن هشام بالقاهرة سنة ٧٠٨ ولم يأخذ عن أبي حيان

غير أنه سمع منه ديوان زهير بن أبي سلمى، ومن شعره :

ومن يصطبر للعلم يظفر بيته ومن يخطب الحسناء يصر على البذل

ومن لم يبذل النفس في طلب العلا يسيراً يعيش دهرًا طويلاً أخاذل

وتوفي سنة ٧٦١، ورثاه ابن نباتة المصري شاعر الملك المؤيد

صاحب مصر وحماه بقوله :
سقى ابن هشام في الشرى نوء رحمة يجر على مشواه ذيل غمام
سأروي له من سائر المدح سيرة فما زلت أروي سيرة ابن هشام
تورية بعد الملك بن هشام صاحب السيرة.

وقد اعنى العلماء بمصنفات ابن هشام فشرحوها وكتبوا عليها الشرح
والحواشي العديدة. ثم ظهر السيوطي (٨٤٩-٩١١هـ) من مصر، وتصدر
مدرسة النحو المصرية في عصره، وصار من أئمة العربية وأعلامها
الحالدين.

المؤرخون الأندلسيون

نبغ في الأندلس كثير من المؤرخين ودونوا معالم هذا التاريخ كاملاً،
وإن كانت آثارهم كلها أو جلها تعد مفقودة، ومن هؤلاء :

١ - أبو مروان بن حيان القرطبي المعروف بابن حزم المتوفى سنة
١٠٧٦م، وكان رئيس الشرطة في قرطبة وله كتاب : « المقبس في
تاريخ الأندلس » في عشرة مجلدات. ثم كتاب العترين أو العبيين كما
جاء في كشف الظنون، وهو في تاريخ الأندلس أيضاً في ستين مجلداً.
ولم يصل إلينا من مؤلفيه سوى بعض فضول أوردها من جاء بعده
من المؤرخين، ويتبين من خلاله حسب رأي دوزي أن وصف الحوادث
التاريخية وتقديها كان من مؤلفي ابن حزم مستوفياً.

٢ - أبو عبدالله محمد بن أبي نصر الحميدي الأندلسي المتوفى
سنة ١٠٩٥م، أصله من قرطبة، روى عن أبي محمد علي بن حزم
الظاهري، وأكثر من الأخذ عنه وشهر بصحته وحج إلى مكة سنة
١٠٥٦م، وطاف بأفريقية ومصر والشام والعراق واستوطن بغداد. وله
عدة مؤلفات منها تاريخ علماء الأندلس سماه « جلدة المقبس » في

مجلد واحد، يقول في مقدمته : إنه كتبه من حفظه ولذلك لا يعتمد عليه^(١).

٣ — لسان الدين أبو عبدالله محمدالمعروف بابن الخطيب المتوفى سنة ٧٧٦ هـ — ١٣٧٤ م كان وزيراً لابي الحجاج يوسف سلطان غرناطة، وصنف له كتاب : « الاشاطة في تاريخ غرناطة » الذي أخذ عنه المقربي.

٤ — أبو العباس أحمد المقربي المتوفى سنة ٤٠٤ هـ — ١٦٣١ م أصله من الغرب، واستوطن القاهرة وصنف فيها « نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب »، ذكر فيه تاريخ الأندلس من فتحها إلى غزو الملك فردیناند غرناطة.

وقد كتب كثير من المؤرخين عن المغرب، اشتهر منهم ابن عذاري المراكشي في الجيل الثالث عشر، وله مصنف يسمى « البيان المغرب في أخبار المغرب ».

واشتهر في الجيل الرابع عشر أبو الحسن علي بن أبي ذرع صاحب كتاب « أنس المطربي في أخبار المغرب » و« روض القرطاس في تاريخ مدينة فاس ». وسماه أيضاً « القرطاس الكبير » ألفه للسلطان أبي سعيد عثمان بن المظفر ثامن سلطان من دولة بني مرين، وذكر به أخبار المغرب من أيام ادريس الأول سنة ٧٢٥ أيام السلطان أبي سعيد، ويظهر أن التاريخ المسمى بكتاب القرطاس ليس إلا مختصراً من القرطاس الكبير يقلل ابن أبي ذرع نفسه. ونذكر أخيراً تاريخ (عبد الواحد المراكشي).

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٨٥.

مما يهم الأندلسيين :

ولغرب الأنجلترا مفاسير كثيرة في شتى شؤون الحياة، فقد كان الذي اخترع المدفع هو أندلسي من العلماء العرب في غرناطة، في عهد السلطان أبي الحسن الأحمر، واسمها « إبراهيم الصانتو ».

وهو رجل زايد عابد فقيه أديب، له مشاركة في العلوم، وتحصص في الكيمياء، ذو بصر نافذ، وقريحة وقادرة وخيال خصب، وهو مجتوب يحب بلاده، ناقم على الأوغاد الذي أخذوا بيعونها للعدو وأثروا العاجلة على الآجلة، فجاهر بتقدمه للسلطان على ما فرط في شأنها وشأن عرشه، وذلك بالرغم من أنه كانت له مكانة في قلب السلطان لما اشتهر به من زهد وقوى، حتى لقد أطلق عليه لقب « الصانتو » أي الولي أو القديس.

قرأ الصانتو في كتب التاريخ والأدب والرحلات أن المصريين استعملوا النار اليونانية في حربهم مع لويس التاسع أمام دمياط وتغلبوا عليه بها، فجعل ينقب ويبحث ويقتدح زناد الفكر إلى أن توصل إلى لون من النار يمكن استعماله في الحرب مع فرديناند. وقرأ في كتاب « حسن الرماح » عن البارود أنه « بيبة تخرج وتحرق » فجعل غايته أن يغير على المواد التي يركب منها البارود وأن يصنع منها الألغام والقنابل، فلما توصل إلى ذلك جعل هدفه أن يصنع المدفع الذي يطلق القنابل على العدو. فعل ذلك كله في الجبل تحت ستار من التكتم، إذ كان يعلم أن البلاد موبوءة بجوسس العدو، وأن الحكومة ذاتها ملوثة بفعل التجسس، فهو يخشى أن يؤول اختراعه إلى العدو فتنقلب الآية ويستخدمه العدو ضد بلاده. فلما انتهى من وضع اختراعه وتجارييه، صنع له رسوماً منفصلة وجاء إلى العاصمة يقصد أن يضعه بين يدي السلطان بالذات فلا يأتمن عليه أحداً سواه، وكان يعلم أن يكفيه أن يذكر اسمه ففتح أبواب السلطان في وجهه. فلما جاء العاصمة علم أن السلطان لا يقابل

أخذوا لكتة مشاغله، فرأى أن يستعين بالحربيم، وكان يمقت السلطانة عائشة ومن يتضمنون إليها لعلمه بأن حزبها على صلة بابيزابيلا وفرديناند، ولم يجد بدأ من أن يلحاً إلى السلطانة ثريا فلحاً إليها، فأوصت أهل القصر بأن يوصلوه إلى باب السلطان وي ساعدوه على لوجه. وما أكثر ما صرف في ذلك من جهود وقت ومال وصحة حتى أصيب بالشلل ولم يظفر بأكثر من الجلوس قريباً من باب السلطان في انتظار الإذن له طوبلاً، وقد اتهمه الحوتنة الاسبان في غرناطة بأنه يريد قتل الملك، وحوكم وفتش منزله وأخذت أوراق اختراعه فسلمت إلى سفير فرديناند وإبزيابيلا في غرناطة، وفوجيء العرب في «إيلورة» بأصوات كالرعد القاصف، وإذا هي القنابل يطلقها عليهم فرديناند خذك القلعة، وتهدمها على رؤوس من فيها، وكذلك حدث في «مالقة» واستطاع هذا المدفع أن ينهي في بضعة أشهر ملكاً استمر ثمانمائة عام.

وكان أول من أنشأ الحدائق العامة لراحة الشعب هم العرب وخاصة أهل قرطبة، الذي أنشأوا الحدائق العامة، وجعلوا في المقاعد المظللة وغير المظللة، وجعلوا في داخل المقاعد المظللة رفوفاً للكتب توضع عليها، وكان يوجد في كل حديقة مكتبة عامة يستعير منها القارئ كتاباً، ويسعدها عند الفراغ منها أو عند الاستراحة على تلك الرفوف، وكان الكتاب يساوي مبلغاً عظيماً ربما بلغ الألوف، وإنما هونه على المكتبة وعلى مستعير الكتاب الأمانة التي كانت متغلفة بين الناس، ورقابة أحكام الشريعة النافذ أمرها، يقول المستر «ب، ج ترند» في الجزء الأول من كتابه «تراث الإسلام» : «كان يستعمل في الحدائق العامة القاشاني بالنماذج الهندسية والرسوم الملونة، كمقاعد ورفوف للكتب في قرطبة».

وأول من استعمل البارود هم العرب عام ١٧٩هـ - ٩٠٦م، وهم الذين نقلوه إلى الأندلس، وعنهما أخذته أوروبا.

وأول من صنع الديبابة هو موسى بن نصير سنة ٩٦ هـ حينما فتح الأندلس، ولما أراد فتح مدينة ماردة، وكانت محصنة، وأهلها ذوو باس شديد، اخترع موسى لهم دبة، دب فيها المسلمين تحتها إلى برج من أبراج أسوارها وجعلوا ينقبوه.

وقد سبق عرب الأندلس المصريين إلى الطباعة بزمن نمير، فكانت السجلات تطبع في دار وزير الناصر أمير المؤمنين، وأنشاد بذلك كوندي الاسباني، وقال : وهم سبقو جو تبرج إلى الطباعة بضعة قرون.

وهؤلاء العرب من أهل الأندلس هم سلالة عرب المشرق الذي أثروا الملك، وشادوا الحضارة، وأقاموا الجامعات، وتشروا الثقافة، ورفعوا من شأن الفكر الإنساني، وهو الذين اخترعوا كل جلائل المخترعات ودقائقها، ووصلوا حتى إلى أقل الكشواف، من مثل « قلم الحبر » فقد ذكر القاضي النعماني في « الخصائص والمسامرات » قال : « حدثنا الإمام المعر عن اختراع هذا القلم^(١)، وقد وصف صنعته، ثم مررت بضعة أيام، حتى جاء الصانع يحمل قلماً من ذهب، فأودعه المداد وكتب به، وزاد شيئاً من المداد عن مقدار الحاجة، فأمر بإصلاحه، فإذا هو قلم يقلب باليد، ويميل إلى كل تاحية، ثم إذا رفعه عن الكتاب أمسك المداد، فرأيت صنعة عجيبة لم أكن أظن أنني أرى مثلها ». .

(١) يزيد قلم الحبر الذي يكتب من حبر مخزون في جوفه.

شخصية أندلسية — أبو علي القالي

٢٨٨ — ٣٥٦ م

ترجع شهرة أبي علي القالي إلى كتابه الجليل «الأمالي»، وينعد كتاب الأمالي لأبي علي اسماعيل بن القاسم القالي البغدادي من أشهر مصادر الأدب العربي القديم، وينعد من أصول الثقافة الأدبية، وقد أشاد به العلماء والأدباء والنقاد يقول فيه ياقوت في معجم الأدباء^(١) : «كتاب الأمالي معروف بين الناس، كثير الفوائد، غاية في معناه». وقال أبو محمد بن حزم فيه : هو مبار لكتاب الكامل الذي جمعه المبرد، ولكن كان كتاب أبي العباس المبرد أكثر نحواً وخبراً، فان كتاب أبي علي أكثر لغة وشعرأ^(٢).

والكتاب دائرة معارف واسعة في الأدب والنقد والشعر واللغة، وهو يحقق في مقدمة أمهاط كتب الأدب العربي المعدودة. ويقول القالي في مقدمة الكتاب : «أودعه فتواناً من الأخبار، وضروباً من الأشعار، وأنواعاً من الأمثال، وغرائب من اللغات، على أنني لم أذكر فيه باباً من اللغة إلا أشبعته، ولا ضرباً من الشعر إلا اخترته، ولا فناً من

(١) ص ٣٥٢ ج ٢ معجم الأدباء لياقوت.

(٢) المرجع نفسه.

الخبر إلا انتخلته، ولا نوعاً من المعانٰ والمثل إلا استجده؛ ثم لم أخله من غريب القرآن، وحديث الرسول ﷺ، على أتنى أوردت فيه من الإيدال ما لم يورده أحد، وفسرت فيه من الآيات ما لم يفسره بشٌ^(١).

ويقول محقق كتاب الأمالى : إن أئمة اللغة والأدب طالما تجدهم ينظمون في كتبهم من دررها، ويغترفون من بحره، وهو تأليف جزل الفائدة، جم النفع لمن يريد التعمق في علم اللغة، وتزيين عقله بالأداب العربية، والأخيارات المختارة، والأشعار المختارة، والأمثال المستجادة.

وقد طبع الكتاب لأول مرة في مطبعة بولاق الأميرية بالقاهرة عام ١٣٢٢هـ، فاقتصر على اقتنائه العلماء والأدباء إقبالاً منقطع النظر، وقررت وزارة المعارف المصرية تدريس الكتاب في مدرستي دار العلوم والقضاء الشرعي وفي غيرهما من المعاهد العلمية إبان ذلك العهد، واتخذ في الأزهر الشريف كتاباً للمطالعة، ثم أعيد طبعه بمطبعة دار الكتب المصرية عام ١٣٤٤هـ - ١٩٢٦ مع إدخال تعديلات عليه، والحاصل فهارس مستوفاة به، وإضافة كتاب «التبه على أوهام أبي علي في أماله» للإمام أبي عبد البكري^(٣)...

(١) من ٣ جـ ١ الأدبي طبعة دار الكتب المصرية ١٤٤٥-١٩٢٦م - وقد تحدثت صاحب الأدبي عن الآيات في الجزء الثاني من كتابه صفحة ١٠٨، كما تحدثت عن الآيات أيضاً في الكتاب.

(٢) هو عباد الله بن عبد الرحيم بن محمد البكري الوزير، من أعيان الأندلس وأديبها وعلمائها الشهورين، كان من أهل مرسيه، وبها ولد عام ٤٣٢هـ - ١٠٤٠م، ونشأ، ثم هاجر إلى قرطبة، ثم لاذ بصاحب العربية فاصطفاه لصصحيه وتلقى مجالسته والأسas به، ونهادى ملوك الأندلس مؤلفاته، وكان من أهل اللغة والأداب الواسعة، والمعروفة بالتاريخ والأساس والأخبار والشعر، وتوفي بقرطبة عام ٤٨٧هـ - ١٠٩٤م (٢: ٥٢، ٢٤٨ ابن بشكول)، وراجع كذلك المقدمة التي نشرت في صدر كتاب النبي، يقلم الألب أنطون سالحاتي (الرسوبي).

والأمالي مطبوع في دار الكتب المصرية في جزئين يقع الأول في صفحة عدا المقدمة، والثاني في ٣٢٦ صفحة، وكتاب ذيل الأمالي والتواتر للقالي أيضاً في ٢٤٤ صفحة.. أما كتاب التبيه مع فهارس الأمالي فيقع في ٢٤٤ صفحة أيضاً.

والتعليقات التي نشر بها الكتاب في طبعته قليلة وإن كانت قيمة، ولدي شرح واسع مستفيض ضخم للكتاب يقع في ستة أجزاء كبيرة، وحجم كل جزء لا يقل عن خمسينات صفحة، إلا أنني حتى اليوم لم أحاول نشر هذا الشرح الضخم لما يكلفه من أعباء مالية كبيرة، ولقدان التشجيع على نشر مثل هذه الآثار والتاليف.

وتراثنا الأدبي القديم في حاجة ماسة إلى العناية به، وطبع روايته، وعلى كثرة سبل الطبع والنشر اليوم، فإنه لم يعد أحد في عهدها الحاضر يعني بمثل هذه الكتب، لأن شباب العرب صار اهتمامهم بقراءة الفصوص والمجلات أكثر من اهتمامهم بقراءة المصادر والأصول لثقافتنا العربية الإسلامية.

— ٤ —

والقالي من أشهر أعلام الأدب العربي القديم، وهو إمام في اللغة وعلوم الأدب، وله مؤلفات جمة مأثورة مشهورة، ويقول الريادي فيه : « ما نعلم أحداً من المقدمين ألف مثله^(١) ». وكان القالي أحفظ أهل زمانه للغة وأرواهم للشعر وأعلمهم بعلن التحو على مذهب البصرىين، وأكثراهم تدققاً في ذلك.

وحياة القالي مثال رائع لحياة العلماء المسلمين في العصور القديمة،

(١) ٢ : ٣٥٢ معجم الأدباء الياقوت.

عصور النهضة الفكرية والازدهار العلمي، والتشجيع الكامل من الخلفاء والوزراء والأعيان.. إن العلم في العالم الإسلامي القديم لم يكن وسيلة للدعابة السياسية ولا للشهرة الرخيصة، ولا للإعلان الكاذب، ولا للمجده.. إنه كان حركة ضخمة لخدمة التقدم والرقي بالحضارة وإعزاز شأن العقل، والنهوض بمستوى الحياة، وكان العلم والتعليم كله مجانياً، وأجرور العلماء ومكافآت الطلاب كلها من الدولة، هذا إلى الأوقاف الضخمة، التي كان يرصدها أعيان المسلمين على الجامعات والمدارس والمساجد وحلقات العلم، وإلى حد كبير يصح أن نقول اليوم إن حركات التعليم في العالم العربي والإسلامي لا روح لها، لأنها ليست خالصة لوجه الله، وليس المقصود بها بالعلم في حد ذاته، وإنما تتجه للكسب المادي، وتنتهي الوظائف، ولإدراك الشهرة قبل كل شيء، ومع التقدم الزمني الكبير فلا زلتنا في العلم المادي عالة على الغرب. أما علومنا الإسلامية الأصلية فقد قلت العناية بها وضعف الإقبال عليها، وفترت روح العلماء والمتعلمين حالها، وتکاد الأيام المقلبة تهدى الثقافة الإسلامية الأصلية تهديداً خطيراً : بإضعاف روح الإقبال عليهما، وبإهمال شون طبعها ونشرها وبيان عدم إدراك فائدتها وقيمتها.

فكتاب ككتاب الأمالي الذي نتحدث عنه لم يعد اليوم مقرراً للدراسة فيما نعلم إلاً في كلية اللغة العربية، وهذا شأن الكامل للمبرد ومقيدة ابن خلدون والبيان والتبيين للجاحظ وزهر الآداب للحضرمي وسوها.

ولد أبو علي اسماعيل بن القاسم بن هارون بن عيسى بن محمد ابن سليمان مولى عبد الملك بن مروان الخليفة الأموي المشهور عام ٢٨٨ هـ بـ « منازجـ » من أعمال ديار بكر^(١)، وبها نشأ وحصل أطرافاً

(١) بقية المتنس للضي ص ٢١٨، وهو أحد الكتب التي تجمعها المكتبة الأندرسية، وهي الصلة لابن بشكوال في جزئين، و تاريخ علماء الأندرس لابن الفرضي، و تكملاً للصلة لابن الأبار و تكملاً التكملاً لابن الأبار، وبقية المتنس للضي، والمجمم لابن =

من العلم، ثم رحل عنها إلى العراق لطلب العلم والتحصيل، وفي طريقه إلى بغداد كان في رفقة جماعة من «قالي قلا»^(١)، وكانتوا — كما يقول القالى — يكرمون لمحكمتهم من التغز، فلما دخل بغداد نسب إليهم لكونه معهم، وأطلق عليه القالى، وأحياناً كانوا يسمونه البغدادي لطول إقامته في بغداد، وكانت رحلة القالى إلى بغداد عام ٢٣٠٣هـ، وهو في الخامسة عشرة من عمره^(٢)، وفي بغداد تلمذ على فحول العلماء، وأئمة الثقافة، وجهابذة الرواية، من مثل : البغوي المتوفى عام ٣١٧هـ، والعدوي (٢١٠-٣١٩هـ) والمجستانى المتوفى عام ٣١٦هـ، وأبن صاعد (٢٢٧-٣١٧هـ)، وأبن درستويه (٢٥٨-٣٤٢هـ) والزجاج المتوفى عام ٣١١هـ، والأخفش الصغير المتوفى عام ٣١٥هـ، وأبن دريد (٣٢١-٢٢٣هـ) ونقطويه المتوفى عام ٣٢٣هـ، وأبن السراج المتوفى عام ٣١٦، وأبن الباري المتوفى عام ٣٢٨هـ، وسواهم من أعلام العلماء الذي يروى عنهم وينوه بعلمهم.

وبذا تبوغ القالى في علوم اللغة والأدب لأمساكته، وأخذت شهرته تزداد في حلقات العلم والثقافة في بغداد، وجلس للتعليم والإفادة، وظل ربع قرن مقيماً في بغداد متعلماً ومعلماً ومحفظاً ومفيدةً، حتى جاءت سنة ٣٢٨هـ، فكانت سنة تطور كبير في حياة القالى الثقافية والأدبية. كان القالى ينتهي إلى بنى أمية، وكان هواه معهم، وكان ازوراه عن بنى العباس شبه معروف للخاصة من أترابه ولداته، وكان لبني أمية دولة في الأندلس أسسها الداخل عام ١٣٨هـ، وظلت قائمة حتى عصر القالى.

= الأنبار، وفهرست ما رواه عن شيوخه من الدواوين في ضرورات العلم وأنواع المعارف أبو بكر بن خليفة الأموي الأشبيلي. وقد نشرت المكتبة الأندلسية في مدريد بإشراف المستشرقين الأساسيين : كودير، ورييرا.

(١) قرية من قرى « متازجرد ».

(٢) ٦ : ٣٥٢ معجم الأدباء لياقوت.

وكان من الممكن أن يسمع الأمويون في الأندلس بعالم كبير ينتهي إلى بني أمية، ويعيش في بغداد شهء مغضوب عليه.

وكان الحكم في الأندلس إبان ذلك الخليفة الأموي المشهور عبد الرحمن الناصر الذي تولى الحكم في الأندلس خمسين عاماً (٣٥٠-٣٠٠هـ) رفع فيها مinar العلوم والأداب في هذه البلاد، ووطد فيها دعائم الدولة، ونهض بسلكته نهضة جليلة، وحارب خصومه وانتصر عليهم في مواقع عديدة، وكان يساعدته في حكم البلاد ابنه وولي عهده الحكيم بن الناصر الذي ولـي الخلافة بعد أبيه ستة عشر عاماً (٣٦٦-٣٥٠هـ). وكانت عاصمة الخلاف الأموية في الأندلس هي قرطبة منذ أسس عبد الرحمن الداخل مملكة أمورية فيها، وفي عهد الناصر وابنه الحكم أُسست المكتبات، وأنشئت الجامعات والمدارس، وازدهرت الحركة العلمية في الأندلس ازدهاراً لم يحدث له نظير من قبل.

- ٣ -

وكانت قرطبة إبان ذلك تعد من العواصم الكبرى في العالم، وقد بلغت من الحضارة منزلة تكاد تصل إلى المنزلة التي بلغتها بغداد، وكان سكانها أكثر من مليون نسمة، وقد أنشأ الناصر على مقربة منها مدينة الزهراء الخالدة، وينقل المقرري عن أبي سعيد مؤلف «الحـلة المـذهبـة في مـلـكـة قـرـطـبة» أن هذه المدينة كانت أكثر بلاد الأندلس كثافة، وكان أهلها أشد الناس اعتماداً بخزانـة الكـتبـ، صـارـ ذلكـ منـ آلاتـ الـرـياـسـةـ، حتىـ إنـ الرـئـيسـ مـنـهـمـ الذـيـ لاـ تـكـوـنـ لـهـ مـعـرـفـةـ يـحـفـظـ أنـ تـكـوـنـ فـيـ بـيـهـ خـزـانـةـ كـبـرـىـ كـبـرـىـ وـمـاـ هـوـ إـلـاـ أـنـ يـقـولـ :ـ عـنـديـ خـزـانـةـ كـبـرـىـ (ـأـيـ مـكـبـةـ)،ـ وـالـكـتـابـ الـفـلـانـيـ لـيـسـ عـنـدـ غـيـرـيـ،ـ وـالـكـتـابـ الـذـيـ هـوـ بـخـطـ فـلـانـ قـدـ حـصـلـهـ وـظـفـرـتـ بـهـ،ـ وـيـقـولـ سـدـيـوـ :ـ كـانـ

هذه المدينة تصبح مضيّقة، وحاراتها مطيبة بما يلقي فيها من الزهور، مع استعمال الألحان المطرية في المتنزهات والسيادين العامة.

وفي لحظة حاسمة في حياة القالي وصلته رسالة من الناصر خليفة المسلمين في الأندلس، يرغبه في الوفود عليه، لنشر علمه، ولبي القالي الدعوة، وسافر إلى قرطبة، مودعاً ببغداد وعهده فيها، وحياته بها.

وفي أحد ثغور الأندلس وصلت السفينة التي تقل عالمنا الكبير، وتلقاه بأمر الحكم ولبي المهد في العيناء ابن رماحس في وفد من العلماء والوجهاء، وساروا وسار معهم القالي في موكب نبيل إلى قرطبة، يتذكرون الأدب، ويتناشدون الشعر.

وكان من صحب القالي إلى قرطبة الأديب الأندلسي ابن رفاعة الألبيري وللقالي معه قصة غريبة، أنسد القالي في الطريق بيتاً من الشعر لعبدة بن الطيب :

ثُمَّ قَمَنَا إِلَى جَرْدٍ مَسُومٍ أَعْرَافُهَا لَأَبْدِينَا مَنَدِيل

فأنكر ابن رفاعة البيت، واستعاده من القالي مراراً فأنسد القالي في كل مرة « أعرافها »، وقال : « مع هذا يوقد على أمير المؤمنين، وتجشم الرحلة لعظيمه، وهو لا يقيم وزن بيت مشهور بين الناس لا يخلط فيه الصياغ، والله لا تبْعَثْ خطوة »، وانصرف عن الجماعة.

ولعل هذه القصة هي التي جعلت القالي يشهد للأندلسيين بالعلم والذكاء، يقول ابن سام في الذخيرة عن القالي : لما وصلت القبروان وأنا أغير من أمر به من أهل الأنصار فأجادهم درجات في العبارات وقلة الفهم بحسب تفاوتهم في مواضعهم منها بالقرب والبعد، كأن منازلهم من الطريق هي منازلهم من العلم محاسبة ومقاييس، فقلت : إن نقص أهل الأندلس عن مقدار من رأيت في أفهمهم، يقدر نقصان هؤلاء عن قبلهم، فسألتاج إلى ترجمان في هذه الأوطان. قال ابن

سام : فبلغني أنه كان يصل كلامه هذا بالتعجب من أهل هذا الأفق الأندلسي في ذاكائهم، ويختنقى عنهم عند المباحثة والمقاشة، ويقول لهم : إن علمي علم رواية وليس بعلم دراية، فخذوا عنى ما نقلت، فلم آل لكم أن صحيحت.

دخل القالى قرطبة ثلثاً بقين من شعبان عام ٣٢٠ هـ كما يقول ابن حلكان، فاكرم الناصر وقادته، وأعلى في دولته مكانته، وآثره بالعطف والتقدير، بتأديب ولی عهده الحكم، وتقييمه ثقافة أذية وعربية خالصة، واستوطن قرطبة، وأخذ يلقى محاضراته ودروسه في حلقات مسجدها الجامع، فأورث أبو علي أهل الأندلس علمه، وأقبل عليه أهل الأندلس للإفادة والتعلم والتأدب من دروسه التي كان يلقىها من روایته وحفظه في كل يوم خميس بقرطبة، في المسجد الجامع بالزهراء، وكان أبو علي واسع العلم، كثير الرواية، طويل الباع في علوم الأدب واللغة، مما شهد به علماء عصره، فسمع الناس منه، وقرأوا عليه كتب اللغة، والأخبار والأمثال، وعظمت استفادتهم منه. ومن تلاميذه في هذه الفترة : الريدي مؤلف كتاب مختصر العين وإمام اللغة والأدب في الأندلس في عصره وسواء.

وللشاعر الأندلسي الرمادي يوسف بن هرون الكندي قصيدة في مدح القالى، قال فيها :

روض تعاهده السحاب كأنه متواهد من عهد إسماعيل
قسه إلى الإعراب تعلم أنه أولى من الأعراب بالتفضيل
حاوزت قبائلهم لغات فرق
فيهم وحاز لغات كل قبيل
فالشرق خال بعده فكاننا نزل الخراب بربعه المأهول
وكانه شمس بدت في غربنا وتغيبت عن شرقهم بأقوال
وحقاً كان القالى شمساً بدت من المغرب، وخلال منها مكانتها في المشرق.

وعاش القالى عشرين سنة في الأندلس في حlapة الناصر، ثم مت
سنوات أخرى في خلافة الحكم بن الناصر، الذي شمله بالعطف والمعطاء؛
مما جعله في سعادة ورخاء ونمة وفراغ بال؛ وما جعله يعكف على
الإفادة والتأليف.

وللقالى كتب عديدة منها: *الأمالى*، *الممدود والمقصور*، *كتاب الإبل*،
كتاب حلى الإنسان والخيل وشياطها، *كتاب « فعلت وأفعلت »*، *كتاب
مقاتل الفرسان*، *وتفسير السبع الطوال*، *وكتاب البارع في اللغة*، *وسواها*.

وكان بين أبي علي القالى وبين العلماء والأدباء في الأندلس صداقات
ومداعبات ووفاء، وكان من معاصريه من علماء اللغة بالأندلس: ابن
القوطية وغيره.

وكان تعصب الدولة في الأندلس لكل ما هو أموي يرفع من مكانة
القالى فيها، وخاصة عند الخليفة الناصر وولي عهده، ولذلك رفعت
مكاناته في الدولة، واحتل منزلة سامية فيها، وصار عميد العلماء والأدباء
في عصره، كما كان إمام الأدب وشيخ اللغة في زمانه.

ومما يدلل على مكانة القالى أن الخليفة الناصر وولي عهده الحكم
كانا يهدان إليه بمحيل الدولة في أخطر المواقف السياسية، حتى ليروى
أن الناصر كلفه بالخطابة أمام وقد الروم لولا أن أبا علي بهت وانقطع
عنه الكلام في هذا الموقف، فقام مقامه منذر بن سعيد البلوطى.

وتوفي القالى في قرطبة في ربيع الآخر عام ٣٥٦ هـ، وشيعت جنازته
الأندلس كافأ، وبكاء فيها العلماء والأدباء والطلاب بكاء حاراً، رحمه
الله رحمة واسعة.

ومقدمة كتاب الأمالى سجل ثمين يكشف لنا ألواناً عديدة من حياة القالى وأدبه، فهي تمثل نثره الفنى أصدق تمثيل، وهي تصور لنا البواعث النفسية لتأليف الأمالى، والقالى فيها يشيد — بعد حمد الله — بفضل العلم وترفع العالم، وبشى فيها على الناصر وتشجيعه للآداب، وعلى ولى عهده الحكم، ويدرك أنه أملى «الأمالى» في يوم الخميس بقرطبة، وفي المسجد الجامع بالزهراء المباركة، ثم يختتم المقدمة ببيان ما اشتمل عليه الكتاب من بحوث وأراء ودراسات.

والأمالى مع مظهره الأدبي العالى، يدل على ثقافة لغوية واسعة، وهو حاصل بالفوائد اللغوية التي لا توجد في كتاب، فتجدد القالى فيه مثلاً يتعرض لتفصير مادة «نَسَأْ» ومادة «لَحْنَ» ومادة «حَرْدَ»، ويفسر الغريب من حديث السحابة التي نشأت ورسول الله جالس بين أصحابه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَاٰلِهٖ وَسَلَّمَ، وي تعرض للكلام على غريب حديث : «أَلمْ أَخِرْ أَنْكُ تَقُومُ اللَّيْلَ، وَتَجْدِهِ كَذَلِكَ يَخْصُصُ مَطَالِبَ لِتَرْتِيبِ أَسْنَانِ الإِبْلِ وَأَسْمَائِهِ وَأَسْمَاءِ الرِّجْلِ يَحْبُّ مَحَادَثَةَ النِّسَاءِ، وَأَسْمَاءِ الشَّخْصِ، وَأَسْمَاءِ الْأَلْوَانِ وَأَوْصافِهَا، إِلَى غَيْرِ ذَلِكِ مَا اشْتَهَى عَلَيْهِ الْكِتَابُ مِنْ ثَقَافَةِ لُغَوَّةِ عَرَضِهِ الْمُؤْلِفُ قَصْدًا، أَوْ ذَكَرَهَا أَثْنَاءَ شِرْحِهِ لِنَصْوصِ أَدْبِيَّةِ قَدِيمَةِ أَوْ مُحَدَّثَةِ، وَفِي فَصُولِهِ فِي الْكِتَابِ يَذَكُّرُ مَا تَعْقَبَ فِيهِ الْعَيْنُ وَالْحَاءُ، وَالْهَمَزةُ وَالْهَاءُ، وَالسِّينُ وَالنَّاءُ. إِلَخَ».

أما ثقافات الكتاب الأدبية فينطوي بها ما احتوى عليه الكتاب من روايات الآثار المرورية عن العصر الجاهلي والإسلامي والأموي وصدر دولة بنى العباس، وهي نصوص أدبية رفيعة قد لا توجد في كتاب آخر، سواء ما سجله القالى منها من التأثر أم الشعر. وفي الكتاب كذلك آراء وأحكام ومحالس في النقد، وهي ذات أهمية كبيرة في ثقافة الأديب ومتناوق الأدب.

والنصوص الواردة في الكتاب تفسر لنا بعض الجوانب الغامضة من حياة العرب في الجاهلية وعصر صدر الإسلام وبني أمية، تصويراً كبيراً له مدلوله التاريخي.

وأكثر روايات القالى عن ابن دريد، ويظن أن مجالس ابن دريد الواردة في هذا الكتاب هي مقدمة لظهور فن المقامة في الأدب العربي، ومنها مثلاً حديث البنات الثلاث اللاتي وصفن فيه ما يحيى من الأزواج وسوى ذلك، والقالى يمزج الشر بالشعر والخطب بالأمثال، والحكمة بالوصية، والنقد بالشرح، ويأتى بعد ذلك بالطرائف المستجادة، والقوائد المستحسنة، مما يروع، ويسحر.

وبين بحوث الكتاب اللغوية يعقد القالى مطالب يذكر فيها ما قال الشعراء في الحديث، أو في البكاء ووصف الدموع أو في العناق أو غير ذلك، ويدرك كثيراً من القصائد المشهورة في الأدب العربي، أو يعرض لحديث الشعر أو الشر، أو لسوى ذلك من الموضوعات الطريفة.

وكثيراً ما يستروح القالى إلى شيء من النقد، فيذكر مثلاً سؤال بعض خلقاء بني أمية لجرير عن أشهر الناس، أو يروي مقابلة بين عمر وجميل في الغزل، أو يذكر ما يستحسن ويستجاد من شعر شاعر، مما يدل على روح النقد الأصلية، أو سوى ذلك.

أما ملاحظات البكري على القالى، فمع كثرتها تجد بعضها يتصل بتصحيح اسم من الأسماء، كان يذكر القالى لعبد الملك وإنشاده شعر قيس ابن رفاعة، فيذكر البكري أن صحة الأسم هي أبو قيس بن أبي رفاعة، وكان يحقق الرواية الأدبية، وكان يصحح شرعاً لنص من النصوص؛ أو سوى ذلك، وهذه التبيهات في جملتها مفيدة مهمة.

وبعد فإن كتاب القالى دائرة المعارف في الأدب القديم، وهو ثمرة

من ثمرات الرجولة المكتملة، والإحاطة الشاملة، والثقافات الواسعة، وهو من أجل ما ألفه القالى من مؤلفات.

وهو صورة لأداب المشرق في مختلف العصور إلى آخر القرن الثاني الهجري، وأداب المشرق كانت في الأندلس من الطرف الجميلة، التي يختلف بها، وتروى وتذاع. وليس في الكتاب طبعاً شيء من أداب الأندلسيين وأثارهم، إنما هو صورة مشرقة واضحة لذوق أدباء المشرق وشعرائه ونقاده.

ونحن في هذه الدراسة الموجزة نتوه بفضل القالى على الأدب ولغة العرب وثقافات الأدباء في القديم والحديث، ونوصي الشباب أن يقرأوا «الأعمال» ويستفيدوا مما فيه من آثار وتصوص وحكم وأداب، فهو جدير بالعناية والاهتمام.

— ٥ —

وللقالى كتاب «البارع» في اللغة: وهو معجم ابتدأ فيه منذ سنة ٣٣٩هـ وعاونه فيه ورافق اسمه محمد بن الحسين الفهدى من أهل قرطبة منذ عام ٣٥٠هـ واستمر في تأليفه حتى توفي القالى إلى رحمة الله فتولى تهذيبه وراقه مع محمد بن معمر الجياني. وكان قد أتمه. ولم يستطع تبييضه ونقله. بل نقل كتاب الهمزة. وكتاب الهاء. وكتاب العين..

والبارع مبني على حروف المعجم: وجمع فيه كتب اللغة، وعزا كل كلمة من الغريب إلى من نقلها عنه من العلماء، واختصر الإسناد عنهم، وهو يحتوى على ٥٠٠٠ ورقة.

وقد اتبع القالى في طريقة الخليل ومنهجه: فبني «البارع» على

مخارج الحروف، ولكنه لم يسر على ترتيب الخليل. فبدأ بالهمزة، ثم بالهاء، ثم بالعين، مع خلاف يسير في الترتيب، ومع مخالفته الخليل في الأبنية وترتيبها فهي عند القالى ستة : أبواب الثنائي المضاعف ويسمه الثنائي في الخط والثلاثي في الحقيقة، وأبواب الثلاثي الصحيح. وأبواب الثلاثي المعطل، وأبواب الحواشى، وأبواب الرباعى، وأبواب الخماسى... والقالى يتبع الخليل في ذكر الكلمة ومقولتها..

ومن البارع قطعهان : أحدهما في المتحف البريطاني برقم ٥٢٩٨١١، والثانية في المكتبة الأهلية بباريس برقم ٤٢٣٥ وقد صورهما الدكتور فلتون وجعلهما في كتاب.

والبارع أول معجم يظهر في الأندلس، وهو صورة لمعاجم المغاربة ولا ينكر لهم^(١).

(١) الصحاح ومدارس المعجمات للأستاذ أحمد عبد النور عطار من ١١٧ و ١١٨.

اللغة العربية في الأندلس

- ١ -

لغة الكتابة والثقافة والتأليف :

بعد أن تغلب العرب على شبه الجزيرة دخل في حكمهم آلاف المسيحيين من كل جهة فتحولوا. فعاش أولئك المسيحيون في كنف المسلمين، وأحسنت الحكومة معاملتهم، ومحظتهم الحرية الدينية، وكثيراً ما رفعتهم إلى مناصب عالية في الجيش وفي بلاط الملك. فاعتنق كثير منهم الإسلام وافتتح بحضارته وثقافته، حتى رأينا « الفارو » كاهن قرطبة في أواسط القرن التاسع للميلاد يولول في أوائل ذلك العصر شاكياً من أبناء دينه انكياههم على مطالعة أشعار العرب وأساطيرهم، وهياهم بدراسة كتابات لاهوتى المسلمين وفلسفتهم — لا بقصد تفتيتها — بل رغبة في التعمير عن خوالجهم بأسلوب عربي رشيق وصحيح^(١).

(١) يقول دوزي : « بعد الفتح الإسلامي امتنع كثير من المسيحيين دين الفاتحين — حفظتهم لهذا المنافع من جهة، واقناعهم بأن الدين الإسلامي هو الدين الحق من جهة أخرى. فقد جددوا غسلتهم في نظرية الصراع — يعتقدون أنه حيث تكون القوة يكون الحق، ويقولون للكهنة : لو كانت المسيحية حقاً فلماذا أسلم الله بلادنا وهي مسيحية لشيعة دين غير صحيح، وقد زعمتم أنه أخذ الكاثوليكية تحت رعايته، =

وكان الفارو يتساءل قائلاً : « أى يناح لإنسان في هذه الأيام أن يقابل واحداً من أبناء جنسنا يقرأ التفاسير الالامية للكتب المقدسة »

= وقصصتم لسعة من تلك المعجزات التي وقعت غيرة على هذا الدين من المظالم الازية — فلم لا تبعث هذه المعجزات مرة أخرى ؟ و كانت هذه الاعتراضات في العصور السابقة تسب المجزرة والارتكاب للكهنة أنفسهم الذين كانوا يجهلون كذلك كيف يخضع المؤمنون وذلوا أمام الملوك !! — فما تقادم زمان الفتح حل هذه الاعتراضات بأن المتأخرین من المؤمنين بل كيدهم وأشرافهم كانوا أئمة مجرمين وأن القوارع التي قرعنهم لم تكون إلا عقاباً عادلاً من الله — وقد كان اعتبار الكتابات قصاصاً عادلاً من فلسفة الأنبياء على العلوم واليهودية على الخصوص — وقد تجلى في أعمال سليمان معاذة الأبرار ومقاؤة الفجار في صور مختلفة — وكانت الفرون الوسطى تطبق على العامة نفس هذه النظرية، فكان انتصار المسلمين على الخصوص آية القلب الإلهي كما كانت انتصارات المسيحيين في رأي المسلمين — وكانت تردد هذه الجملة في إيطاليا كذلك وهي : « إذا انتصر المسلمون بذلك لأن الله يريد عقاباً على خطاياها »، وكذلك كان يقال في إسبانيا وفي سنة ٨١٢ م أذاع الفونس الثاني مشوراً باملاء الكهنة قال فيه : « أنها الإله — إن القوط أهانوك بغيرياتهم فكانت أملاً لأن تزففهم السيف العربية » وفي سنة ٩٢٤ م قال سكودي ثغاري في منشوره بمناسبة إنشاء مهد البلد : « اللذ كانت إسبانيا تحت سلطان المسلمين، وكانت حصونها وقرابها مكتففة بالكتائش. وبذلك كان الدين المسيحي سائداً في كل مكان. ولكن أسلفاً تابعت خطايهم وخرجوا على وصايا الإله، فألاجل أن يعاقبهم على ما قدّمت أيديهم ويرجعهم إلى الصراط السوي رمامهم بهذا الشعب البربرى ». وقال سفيان بنوره : « وإنما هلك الجيش القوطى لأن الملوك والكهنة تركوا شريعة الله »، وقال كاهن : « عاقب الله أسلفاً في هذه الحياة الدنيا حتى لا تكون هناك حاجة إلى عقابهم في الحياة الأخرى » وفي رواية كاهن بشيلوس أقدم المؤرخين الذين ينقلون عنه : « أن برمود كان عادلاً وأنه كان يعمل على فعل الخير واجتناب الشر، ولكنه كان يسيء الخطط فقد حدث في عهده — وقت أن كان يشغل عرش ليون — أن وجد المنصور ابن أبي عامر إلى المسيحية أشد الضربات التي أصابتها منذ الهجوم العربي، فلم ينج شيء من سيف المسلمين، ولم تكن لترى حينذاك إلا مدنان مغربية وأذيرة حاوية وكلاس مهدمة — بل لقد وصلت الحال إلى أن سقط بيستوي وهكل سان جان رأساً على عقب — وهذا راجع السؤال، لماذا تغلب المسلمون على المسيحية ؟ وأجاب الكهنة على ساق عادتهم ذلك عقاب على خطاياها والمنصور هو مطرقة القلب الإلهي، وهكذا كانوا يسمونه، ولهم الحق =

ومن ذا الذي يدرس منهم فصول الأنجليل وسير الأنبياء والஹارين !!
واحسرته ؟ إن كل الشبان المسيحيين ذوي المواهب، لا يعرفون إلا
العربية وإنما كتابات العرب فهم يقرءونها ويدرسونها بحماس بالغ متنهاه
— كما أنهم ينفقون المبالغ الطائلة من النقود لاقتنائها في مكتباتهم.
— وتراهم — أتى وجدوا — يذيعون أن تلك الأداب جديرة بالإعجاب،
فإذا تجاوزت عن ذلك وأخذت تحدثهم عن الكتب المسيحية أزور
جانيهم، وأصحابها ياحمقان : «إنها أسفار لا تستحق الذكر ! واحسرنا
عليهم ! لقد نسي المسيحيون لغتهم، حتى ليتذر العثور — بين آلاف
منا — على فرد يستطيع أن يحرر إلى أحد أصدقائه رسالة لاتبعة بأسلوب
لا يأس به — على حين ترى العدد الجم قادرًا على الإلابة عما في

في ذلك، فلقد بلغ به حبه الشديد للغزو، أنه ربما خرج للهصلي يوم العيد، فحدث له بيه في ذلك قلباً يرجع إلى قصره بل يخرج بعد اتصافه من المصلى يوم العيد كما هو من قوله إلى الجهاد، فتحمه عساكره وتطلق به أولاً فأولواً، بلا يصل إلى أوائل بلاد الروم، إلا وقد لحقه كل من أراده من العساكر، غزا في أيام ملكه تبعاً وخمسين غزوة، وفتح فتوحات كثيرة، ووصل إلى معاقل انتعمت على من كان قبله، وفي أيامه تعالى الناس في الأنفاق فيما يجهزون به بناهم من الثواب والجحلي، وذلك لرخص أثمان بناءات الروم، حتى نوادي على آية عظيم من عظماء الروم بقرطبة وكانت ذات جمال رائع، فلم تساو أكثر من عشرين دياراً، وكان في أكثر زمانه لا يخل بان يغزو غزوتين في السنة... راجع في ذلك الكتاب الممحى — على أنهم كانوا مدربين أن بيتو لنا أين كانت تلك الجرائم التي استويت هذه العقوبة الهائلة !! وكيف تم ذلك رغم أن الإيمان بالخلود كان في ذلك الزمن أكثر منه في أي زمن آخر !! ولكن لا غرابة في ذلك فقد آتى كتاب القرآن الثاني عشر على أنفسهم أن يقموها بهذا الواجب، فمؤلف التاريخ الكشكشاني على الرغم من أنه من رجال الكتبية شخصياً بلا ريبة بالكلمة الذين ترأسوا كنيسة «روم سيل» في القرن العاشر وأظهروا بمظهر القسسة المحترمين قيادة القلوب، وعني في بلاط أفيديو بشخص برمود — لا ترى كيف أنه يبدأ كلامه ببشر صحبة طوبية من سياته ومحازيره، فإذا انتهت منها وصل إلى هذه النتيجة فقال: « وإنما سبب جرائم برمود وجرائم شعبه إن المتصور.. الخ » وهكذا يبرروا عمل الألوهية التي ساحت للإسلام أن يكتسح المسيحية.

نفسه بأسلوب عربي خلاب، وعلى حين ترى حذفهم في قرض الشعر العربي قد وصل إلى حد فاقوا معه العرب أنفسهم^(٤).

أما المؤلفون والصائرون من الإنسانيين الذي اعتنقوا الإسلام، فقد استعربوا تماماً بعد أجيال قليلة، ومنهم نبغ أدباء وشعراء ازدان بهم الأدب العربي في الأندلس.

وقد حظر هشان بن الداخل (١٧٢-١٨٠) على النصارى أن يتكلموا بغير العربية، وفي هذا دلالة واضحة على حب هؤلاء الملوك لغتهم، وعملهم على سيطرتها، لتحكم الأئمة، بأن تحمل العربية لغة الأسواق، وحديث العامل، وحوار الباعة.

ولا ريب أن الدين الإسلامي وعروبة القابضين على أزمة البلاد هما العامل الأول في انتشار تلك اللغة الكريمة، زادها الله شرفاً ورفعة، والعامل الثاني الذي له أثره من بعد : هو الحاجة إلى الاتصال بالحاكم واستدارار خبره في متضييات الملك : من كتابة وعملة وزلعي وشفاعة وما إلى ذلك.

كذلك أغري بها وزاد الرغبة في تعلمها، سهولتها وعنوبتها وسرعة تعلمها، ولا سيما ما كان في البيات الصنليلة، وكذلك المصاهرة التي مرجت العناصر ولقت ألفاظ اللغة وأساليبها، ولم يكن العرب يتحرجون

(٤) ومن كلام هنا الكاهن كما في كتاب تاريخ العرب في أسبانيا للدوزي : ٢/١٠٣
إذا تحب أن تقرأ الشعر والقصص، وتدرس الدين والفلسفة في اللغة العربية، فتعلم لها عندي الألفاظ، بلغة الأداء، جميلة الإنشاء، ولا تكاد تجد هنا من يقرأ الكتب المقدسة باللغة اللاتينية، وشبانيا الأذكياء جميعاً لا يعرفون غير لغة العرب وأدائهم، وكلما قرءوا كتبها ودرساً أدبياً أعنجهوا بها، فإذا حدثتهم عن كتاب من الكتب اللاتينية سخروا منه، وقالوا إن القائلة به لا تستوي النعيم في قراءته، وكذلك نسي المسيحيون لغتهم، وجهلوا كتبها وبلاغتها، وحنقو اللسان العربي حتى ليكتبه شرّاً ونظم بأسلوب أنيق وتصوير دقيق.

من مصاورة من دخل في دينهم، وأوى إلى كنف الإسلام، مهما انحدر
نسبة أو رتبة.

كذلك لا ننسى ما كان من الحكماء الأوائل الأميين من يربّي بلغتهم،
فإنهم كانوا في المغرب مثلهم في المشرق، يعانون بمحاجر آباءهم
ويتمسّون ذلك في لغتهم وتراثها الأدبي الخالد، فيعتقدون للأدب مجالس
هم مدبرو حوارها، ورواة أخبارها، في فصاحة ولسن، وطبع لا تتكلّف
معه، والناس يتبعون ملوكهم، وكذلك هم عاشقون لهذه اللغة في ذاتها،
يحنون إليها حتى الطيور إلى الوكر، فلطالما عملوا على ترقية شعوبها.
وأعلاه كلمتها، والحضور على التقانى في خدمتها يذلل الأموال، وتقرّيب
المجاهدين في سبلها والمرابطين على حفظ ثغورها. فشجع ذلك على
نقل الأدب الشرقي إلى الغرب بالأحد عن الكتب تارة، والرحلة للحج
وطلب العلم أخرى. بل لقد كانوا يحبّبون المقام في بلاد الأنجلوس
بشتي المغريّات. ولقد جهد كثير منهم أن تظهر مؤلفات النابغة من
الشرقين في بلادهم قبل ظهورها بالمشرق، كما في كتاب شرح مختصر
 ابن عبد الحكم للأبهري، وكما في الأغاني، وكان ذلك طبعاً في
استرداد الملك الضائع، وتقويض عرش الغاليين من بني العباس.

- ٢ -

وتتجدد اللغة في عهد الولاة الفاتحين، وهو ما يقرب من نصف
قرن، كانت حالها في المغرب بشيء يشبه حالها في المشرق، فإن
القوم هم القوم، ولم يجد في أمرهم ما هو جدير بأن يؤثر في حال
اللغة، ولا أستحدث جديد لها، فاللغة قوية فطرية، أسلوبها مرسل وألفاظها
جزلة بريقة من تكلّف البديع، ومعانٍ بعيدة من تعمق الفلسفـة، وترتـيب

الحكماء، وأغراضها دائرة حول أحوال المعيشة والبحث على إعلاء كلمة الله، وبذل النفوس لحماية البلاد والحفاظ عليها.

وفي زمن بني أمية لملك الطوائف انتشرت اللغة بين أهل البلاد على اختلاف أجناسهم ومللهم. حتى ترجم بها القسوس التوراة وغيرها من الكتب الدينية. وذلك دليل على أنها أخضعت كل شيء لسلطانها هنالك، وقد دخل على اللغة كثير من التجديد في شئ نواحيها : فاما أسلوبها : فقد صقل بجمال البلاد ورقها، وجد فيه كثير من الصنع المقبول. ولا سيما السجع والسلامة المستعدبة.

وأما المعاني فقد كانت واضحة بعيدة عن التعمق، متعددة الصور، لطيفة المتزعز، كثيرة الطرف، جذابة النكات، لا يمل المتأنل فيها، لخفة روح القوم وميلهم نحو كل جميل خلاب من الأفكار والتوصيرات، وحسبك خيالهم البديع الذي كانت الطبيعة الأندرسية من بعض مصادره.

وأما الأغراض : فقد اتسعت رقتها وتعددت منازعها فجالت في شعون الملك ودوابين الحكم ومرافق الإمارة ثم صنوف الصناعة والتجارة، وقطعت شوطاً كبيراً في تصوير العلوم والمعارف وتجلت في معارضها الجميلة، وحافة لكل مظاهر الطبيعة وصنعة الحضارة ومشاهد النهضة، ونبغ الشعر الأندرسي في الوصف، مع دقة الخيال، ورقة العبارة.

وقد كان حظهم من الترجمة بحسناً ضئيلاً لتفانيهم في حب لغتهم وبغضهم للأجانب وبعدهم عن مؤثرات عملت في الشرق عملها، من سلطان الفرس وسيطرة الدخيل. ولكن الوهن دب إلى اللغة في زمن المرابطين والموحدين لكترة الفتن، ولأن السلطان إذ ذاك في أيدي البربر وهم يعيدون كل البعد عن فهم اللغة العربية وجمالها، وسحرها، فانحطت بانحطاطهم، وعادت متلقية إلى الوراء.

ولكن القدر تداركها ببني هود ثم بني الأحمر. وهم عرب خلص،

فأعادوا لها شيئاً من مجدها التالد؛ وعزها الغابر؛ واستطاعت اللغة أن تقوم من كبوتها وكادت تصمد لعافية الزمان، لو لا أن الفتن والقلائل كانت متغللة في داخل البلاد؛ والعدو رايش لهم، متربص لخطفهم، يشعل الفوضى بين صفوفهم، حتى هزمهم واستولى عليهم؛ فمحبت اللغة العربية من الأندلس بعد خروجهم، وعادت البلاد إلى لغتها الأصلية، وديتها القديم.

— ٣ —

وقد كان سريان الفساد في عربية الأندلس بطيئاً، ويعمل ذلك ابن خلدون بكثرة معاناتهم لعلوم اللسان، وامتّهم من المحفوظات اللغوية نظماً ونثراءً، وتدالون ذلك فيما مائتين من السنين، مما جعلهم أقرب إلى تحصيل ملكة اللغة المضدية من غيرهم من أمثال البربر، ولهذا ما كان بإمكانية من مشاهير طارئن عليها. ولذلك سب آخر، وهو أن أهل اللسان العجمي، الذي تفسد ملكتهم، ليست عجمتهم أصلاً للغة أهل الأندلس، وإنما هم طارئون عليهم، أما البربر في هذه العدة فهم أهلها، ولسانهم لسانها، إلا في الأقصى فقط، وهم فيها منقسمون في بحر عجمتهم ورطانتهم البربرية فيصعب عليهم تحصيل الملكة اللسانية بالتعليم، بخلاف أهل الأندلس.

ويقول باحث^(١) : وهناك شيء شغل ملوك هذه البلاد بلغتهم، ووجه منهم عناية زائدة إليها، هو منافستهم للمشارقة، وتساميهم إلى أن يدعوا معهم، بل طمعهم في أن يفوقهم، وهذه المنافسة قد تناولت كل شيء حتى أسماء البلاد، بل سموا : حمص، ودمشق، وقسري،

(١) ٤٤ : ٣ : الأدب العربي وتاريخه — المرحوم محمود مصطفى.

وفلسطين^(١)، كما أسموا في الشعراء ابن هاني وابن زيدون، بمعنى الغرب وبمحتربه. وكما شهروا المخزومي الشاعر الأعمى بأبي العلاء، حتى قال بعضهم في الترحيب به حين قدم غرناطة :

ما ثانياً للمعري في حسن شر ونظم
وغرط ظرف وليل وغوص فكر وفهم

وقد دعتهم هذه المنافسة، إلى أن يستدرجوا علماء الشرق وأدباء، وأصحاب الفنون فيه، إلى بلادهم ويرغبوا بهم بإغداق المال والجاه عليهم، حتى يظهر للغرب فضل على الشرق، وما يبعد عنك حديث أبي علي القالي وزريراً المعنى وغيرهما، وقد استند صاحب نفح الطيب أغلب الجزء الثاني، في ذكر هؤلاء الراحلين إلى الأندلس، وبيان ما نالوا من إكرام.

ويروي أن أبا علي القالي في وفوده على أمير المؤمنين الناصر، قال : « لما وصلت إلى القبروان كنت اعتبر من أمر به من أهل الأمصار، فأجادهم درجات في العبارات وقلة الفهم؛ بحسب تفاوتهم منها بالقرب والبعد، كأن منازلهم من الطريق، هي منازلهم من العلم محاصلة ومقاييسة، فقلت : إن نقص أهل الأندلس عن مقادير من رأيت في أفهمهم يقدر نقصان هؤلاء عن قيمهم، فاست الحاج إلى ترجمان، في هذه الأوطان » فلما وصل إلى الأندلس وجد أحلى الناس لساناً، وأنصصحهم بياناً، وأنفذهم أذهاطاً، وكان كثيراً ما يعجب من ذلك. ولا غرو^(٢).

(١) يقول المقري : لما تولى أبو الحظار ولادة الأندلس عام ١٢٨هـ أتول أهل دمشق « إلبرة » وسماها دمشق، وأتول أهل حمص إشبيلية، وسماها حمص، وأتول أهل قسرن حبان، وسماها « قسرن » وهذا يحيط بالمعنى إلى الوطن.

(٢) ومن صور عامة أهل الأندلس في القرن السادس الهجري ما رواه السوطني في « بدية الوعاة »، إذ ذكر في ترجمة الحافظ أبي محمد بن حوط الله المتوفى سنة ٦١٢ بغرناطة، وتفسير هذا اللقب (حوط الله) ... « قال ابن عبد الملك : كأنه مصدر يحيط بحوط مضافاً إلى الله تعالى، وذكر شيخنا أبو الحكم أن أصله : حوط الله صدر »

لغة التخاطب :

يقول باحث محدث^(١): كانت عناصر الشعب الأندلسي مكونة من ثلاثة عناصر :

١ — العرب، الذين دخلوها فاتحين، وترجوا إليها من الشام وغيره، من قبائل المضدية واليمانية.

٢ — البربر، الذين ظل العرب يمانون أمرهم، ويختلطون بهم منذ احتل عقبة بن نافع مدينة القيروان سنة ٥٠ هـ، وقد أسلموا ثم ارتدوا، ثم أسلموا ثم ارتدوا، وكان ذلك منهم التي عشرة مرة، كما يذكر المؤرخون، ثم ثبتو على الإسلام، وتلوا قرآنهم متبعين ومتقениين في دين الله.

٣ — سكان البلاد، الذين قبلوا الإقامة بين ظهراني العرب، راضين بحكمهم، مغبطين بعذالتهم، من نصارى وبهود. وقد أقبل عليهم العرب الفاتحون، يتلقون بمواهبهم، في إدارة البلاد، خصوصاً اليهود منهم الذين أظهروا للفاتحين إخلاصاً أدى إلى الثقة بهم والاستامة إليهم، فكان من نتائج ذلك أن تولى الوزارة في غرناطة اليهودي المعروف بابن نفذالة، استوزر ابن باديس^(٢) صاحب غرناطة، وقد قتل هذا الوزير اليهودي سنة ٤٥٩ هـ.

حوت، مؤنثاً، على لغة شرق الأندلس، فإنهم يقصون أول الكلمة من نحو الحوت والسمور، ويطلقون باللهاء طاء، فيقولون في حوت: حوط، وبليقون آخر المصادر لاماً مشددة مقتولة في المؤنث، مقصومة في الذكر، وهو ساكتة فيقولون في تصغير حوت: حوطلة وحوطلة. فمن الذي يسمح حوطلة في هذه الأيام وينهم أن المراد بها تصغير حوت.

(١) ٤٦ ج ٣ الأدب العربي وتاريخه.

(٢) من ملوك الطوائف.

وأظهر هذه العناصر العرب، وهم حكام البلاد وساستها وقادتها، وقد كثر عددهم في الأندلس، حتى كانت بعض الأنساب بالشرق مقودة، وفي الأندلس متصلة، كما في نسب الأنصار الذين كان منهم في الأندلس عدد كبير، وكان الأثر لذلك ذيوع اللغة العربية على الألسنة، وخفتها في الأفواه، واتخاذ الجميع لها لغة تهافت ينطقون بها معربة سلية فصيحة، أو يحرفونها تحريفاً قليلاً.

وقد كانت العامة تشارك في الأدب وتحتفظ به، وكانت لغة تهافتها تكاد تكون أدباً، وكان منهم شعراء، وكتاب، وأدباء، وقد روى لنا الفزوياني عن مدينة «شلب» بالبرتغال، أن من إحدى عجائبها أنه قل أن ترى من أهلها من لا يقول شعراً، ولا يعاني الأدب، ولو مررت بالقللاح خلف قدانه، وسألته عن الشعر قرض من ساعته ما افترحت عليه وأي معنى طلبه منه^(١).

وهذا كلّه ناشئ عن رقي الثقافة والميل إلى الأدب، وكانت هناك قنون أدبية ذاتية الصياغ بين الناس، وأغان عامية متداولة في هذه البيئة، وكان من بين تلك الأغانى الدارجة: فتاً الرجل والموشحات، وهما ضربان محظيان، وكلاهما مبدع في إسبانيا، ووضعهما معروف وإنما ولهما متجانس، ويركب أغلب هذه الأغانى والأوضاع الدارجة، من العامية الرقيقة غير المقيدة بقواعد اللغة. وأول من رفع الرجل إلى مرتبة الأدب هو ابن قرمان في سنة ١١٦٠ ميلادية. وما نقل إلينا من مخلفات الأميين بالأندلس، نرى أن شغفهم بالشعر والموسيقى وبالبلاغة الراقية، قد زاد حتى كان قريباً عن جهنم الحديث.

وكثير من الشعراء كان يلتقط المعانى التي تدور على ألسنة العامة، فينظمها ليتعنى الناس بها، حتى قربت لهجاتهم من اللهجات العامية،

(١) ص ٢٤٥ عجائب المخلوقات.

وأصبحت خليطاً من اللغة الفصحي وكلام العامة، وصار الناس ينظمونها غير متبعين قواعد اللغة وأصولها. فتعددت لهجاتها، وتولد من ذلك فن الرجل : وهو نوع من الشعر العامي المتغلب كثيراً في لهجات العامة وأغانيهم. وقد ذاع أمر الرجل وتعددت لهجاته بتنوع الأماكن التي نشأ بها، وتشتمل على أنواع من الشعر، أكثرها الغزل والوصف، وكثيراً ما يكون الرجل أصدق في التعبير عن النقوس من الشعر الفصيح، لقربه من تعبير العامة واحتلاله على عباراتهم المألوفة، وعدم احتياجه إلى التكلف في الصناعة، واحتياط الألفاظ، وأول من ابتكر الرجل أبو بكر محمد بن قرمان القرطبي المتوفي سنة ٥٥٥هـ. ثم ظهرت أنواع أخرى من الشعر العامي سميت بأسماء مختلفة.

ويقول باحث : وكان كلما مضى الزمن على الفتح، وزرع العرب في الأندلس إلى الترف، وألغوا سكني المدن، لأن جلودهم وأسلتهم، وبعد عهدهم بالفطرة العربية، فانمازت لغة حديثهم عن لغة كنائسهم، وصار إلى العربية كل ما يصير إلى اللغات حين يفقد أهلها ملوكاتهم : من تحريف، وتصحيف، وإهمال للإعراب، واشتقاق على غير القياس العربي، واستعمال لكلمات من الذخيل، واختلاف في نبر الحروف ولهجتها النطق. وكذلك الشأن في خلطاء العرب، من البربر وأهل البلاد، اضطربت في أسلتهم لغاتهم ولغة العربية، فنشأت ألفاظ ليست من هذه ولا من تلك، وحدثت منهم أساليب في العربية يحاكون بها أساليب لغتهم التي درجوا عليها، وهكذا حتى تألفت لغة جديدة تحمل سمات اللغات لهؤلاء المخاطبين، وتلك هي التي تسمى « اللغة العامية ».

وهذه العامية تحتاج إلى زمن في تكوينها، و تمام بنائها، و تأصل ملوكها، لذلك نراها في بلاد الأندلس قد صارت كذلك بعد حين، فقبلت على الألسنة حتى لا يستطيع العالم النحوي، الذي وعى علم العربية، وحفظ شواهدها، وفصل مسائلها أن يقيم لسانه لحناً، ذكروا

ذلك عن الشلوبيني، قال صاحب نفح الطيب في معرض الكلام على علم النحو : « والنحو عندهم في نهاية من علو الطبيقة، وإن كان كلامهم الشائع في الخواص والعام، كثير الاتحاف عمما تقتضيه أوضاع العربية، حتى إن شخصاً من العرب لو سمع كلام الشلوبيني أني على المشار إليه بعلم النحو في عصره، الذي غربت تصانيفه وشرقت، وهو يقرأ درسه، لضحكه يملء فيه من شدة التحريف الذي في لسانه. والخاص منهم إذا تكلم بالإعراب، وأخذ يجري فيه على قواعد النحو، استثناؤه واستبردوه، ولكن ذلك مراعي عندهم في القراءات والمخاطبات والمراسلات ». *

ولكن هذه العامية التي صارت لسان الخاص والعام في محاذاتهم، كانت عامية مقبولة، يغلب في كلماتها العنصر العربي، ويقل الدخيل، ولا يشد التحريف، ترى كل ذلك مثالاً في موشحاتهم، وأزجالهم، التي هي أدب عامتهم، فأنتم لا تكاد تثر فيها بدخل، ولا بمحرف بعد من أصله كل البعد، وإن كان إهمال الإعراب شائعاً فيها، لأنه أول ظاهرة تبدو في عامية اللغة العربية في أي بلد نشأت.

على أن هذه الموشحات والأزجال، لا يعني أن تعد مقياساً مضبوطاً للعامية، ولا مثالاً صادقاً لما كانت عليه، فإنها عامية الخاصة، إذ كان أغلب قائلها من الشعراء المغاربة، الذين تبسّطوا في قولهم، توسعوا في أدبهم، ف قالوا الموشحات والأزجال، ف تكون لغة هذين الفتن هي عامية الأدباء، وإن كانت لا بد مفهومة للعامة، لأنهم هم المقصودون بها في الخطاب، فهي تدل من قريب على اتجاه العامية على أهل الأندلس، فهي عامية غير مستقلة، ولا مستبحة ».

الباب الثاني

الشعر الأندلسي

تمهيد

كان الملوك في الأندلس أدباء وشعراء، ينتوون الأدب، ويقرضون الشعر، والأديب أعرف بقيمة الأديب، والشاعر آنس بالشاعر، فكانوا لهذا ينافسون في تعهد الأدباء، وإثابة الشعراء، ويبالغون في إكرامهم، وإجازال العطاء لهم. وكان عبد الرحمن الداخل شاعراً، وكان ابنه هشام أدبياً، وكان المستنصر عالماً وأدبياً، وكذلك كان بقية الخلفاء والوزراء والملوك : كابن أبي عامر، وملوكبني الأقطس والمعتمد، وابن جهور وغيرهم. وقد يكون من فرط عنابة بعض هؤلاء الملوك بالأدب واعتدادهم بالشعر ألا يستوزروا وزيراً إلا أن يكون شاعراً أدبياً كما فعل المعتمد، ولقد قالوا : إنه لم يجتمع من فحول الشعراء وأمراء الكلام بباب أحد من ملوك الإسلام ما اجتمع بباب الرشيد والصاحب بن عباد، والمعتمد هذا وكان بحضرته مثل : ابن زيدون وابن الليانة وابن عمار وابن وهبون وغيرهم.

وفي هذا الاهتمام من جانب الخلفاء والملوك ما فيه من بعث الهم، واستهان القراء، والنهوض بالشعر والأدب.

وكان المعتمد يناظر المتكفل بن الأقطس، وكان في حضرة بطليوس كالمعتمد بإشبيلية، يتعدد أهل الفضل بينهما كتردد النواسم بين جتنين،

وينظر الأدب منها عن مقلتين، والمعتمد أشعر والمتوكل أكتب^(١).

وقد صرف ملوك الطوائف جهدهم إلى العناية بالأدب والشعر، فصار المدح لغناء أرواحهم كالملح لطعم أجسامهم، وظلت هذه العادة فيهم، حتى إن يوسف بن تاشفين لما دخل الأندلس توسط له المعتمد بن عباد عند الشعراً ليمدحوه حتى لا يصغر شأنه، مع أنه دخل في نجدة لهم على الإفرنج، وكان على يده النصر العظيم^(٢). ولو زعم أحد أنه لم يقم أحد من أمراء الأندلس وخلفائها وزرائهم إلى آخر القرن الخامس إلا وهو جامع أسباب الأدب، لكنه خليقاً أن يصدق في زعمه، ولو لا أدיהם لما تفق الأدب عندهم.. ولم يعرف منهم من أهل الركاك والسفف إلا المستكفي والد ولادة.

— ٤ —

وكانت مجالس الأدب في الأندلس من أكبر مسارح الأفكار، وأفخم مظاهر الجمال، وأظهر مظاهر الحياة العقلية والاجتماعية، كانت تحفل بأنواع الأدب، وأنواع الطرف، وأفنان اللهو والسرور، وكان الشعر فيها نشوة الشراب، وغناء الراقص، ولغة الكثوس، وأدب التفوس.

وكان للمنصور بن أبي عامر مجلس في كل أسبوع يجتمع فيه أهل الأدب والعلم، للمناقشة بحضورته^(٣)، وكان للمنصور دار مخصوصة بالشعراء، وديوان تقيد فيه أسماؤهم، وقد جعل لهم يوماً يفرغ لهم

(١) النفع حد ٢ ص ٢٥٣.

(٢) تاريخ الأدب للرايني حد ٣ ص ٢٩٢.

(٣) المعجب للمرَاكش.

فيه، فلا يدخل عليه غيرهم^(١) :

١ — ومن مجالس الأدب ما يروى من أن المنصور جلس يوماً^(٢) وعنه أعيان مملكته ودولته من أهل العلم كالزبيدي والعاصمي وأبن العريف وغيرهم، فقال لهم المنصور : « هذا الرجل الوافد علينا^(٣) يزعم أنه متقدم في هذه العلوم، وأحب أن يمتحن، فوجه إليه، فلما مثل بين يديه، والمجلس قد احتجل، خجل، فرفع المنصور مجله، وأقبل وسأله عن ابن سعيد السيرافي، فزعم أنه لقيه وقرأ عليه كتاب سبويه، فبادره العاصمي بالسؤال عن مسألة من الكتاب، فلم يحضره جوابها، واعتذر بأن النحو ليس جل بضاعته، فقال له الزبيدي : « فما تحسن أيها الشيخ؟ ». فقال : « حفظ الغريب ». قال : « فما وزن أولئك؟ ». فضحك صاعد وقال : « أもし لي يسأل عن هذا؟ إنما يسأل عنه صيانت المكتب ! ». قال الزهرى : « قد سألك، ولا نشك أنك تجهله » فتغير لونه وقال : « أغلق وزنه ».

فقال الزبيدي : « صاحبكم مسخرق ! ».

وقال له صاعد : « إحال الشيخ بضاعته الأبية ! ». فقال له : « أجل »، فقال صاعد : « وبضاعتي أنا حفظ الأشعار، ورواية الأخبار، وكل المعنى وعلم الموسيقى ! ». قالوا : « فناظره ابن العريف فظهر عليه صاعد وجعل لا يجري من المجلس كلمة، إلا أنشد شمراً شاهداً، وأنى بحكمة تجانتها ». ^(٤)

(١) الفتح ج ٢ ص ٤٦٨.

(٢) نفح الطيب.

(٣) يعني آبا العلاء صاعدة.

٢ — ومن مجالس الأدب ما يروى من أن صاعداً الأندلسي^(١) كان بين يدي المنصور، فأحضرت إليه وردة في غير وقتها لم يستم فتح ورقها، فقال فيها صاعد مرتجلأ :

أنتك أيا عامر وردة يذكرك المسك أنفاسها
كمدراء أبصرها مبصر فقط باكمامها راسها

(١) هو صاعد بن الحسن الربيعي، وكتبه أبو العلاء، وأصله من الموصل، وقد تعلم في بغداد، واستمر بها حتى تبحر في اللغة والأدب، ثم ورد على المنصور بن أبي عامر سنة ٣٨٠، في أيام إمارته، فأراد المنصور أن يعنى به أثراً أثني على القالي، فلم يجد منه ما يرقبه، وأعرض عنه أهل العلم، ودخلوا في علمه ودينه، ولم يأخذوا عنه شيئاً قلة القلة به.

وقد ذكر ابن بسام أن الأندلسيين دحضوا كتابه «القصوص» الذي أله المنصور — ونحوه من تحني كاتب التوادر للقالى — وأنهم ألقوه في الهر، وذكر الماركشى صاحب كتاب العجب والمغرى هذه الحكاية بروايات أخرى، أشهرها أنه دفع الكتاب لغلام بعد تمامه، فصر فرات قدم الغلام به وهو يعبر نهرآ، فسقط هو والكتاب في النهر.
قالوا : ففرح ابن العريف بذلك وقال مرتجلأ بحضور المنصور :

قد غاص في البحر كتاب القصوص وهكذا كل ثليل يغوص
فضحكت المنصور والحاضرون، ولكن ذلك لم يزع صاعداً، وقال :

إنسا معدلسي إنسا توجد في قعر البحار القصوص

وكان السبب في تأليفه هذا الكتاب، أن المنصور أراه كتاب التوادر للقالى، فأكيد له صاعداً أن في قدرته أن يؤلف كتاباً غيراً منه، وقال له : «إن أراد المنصور أملأ على كتاب دوله كتاباً أرفع منه وأجل، لا أورده في غير ما أورده أبو على !» فلما أخذ له المنصور بذلك جلس بجامع «الراحلة» وكتب كتابه «القصوص» حتى أكمله. قالوا : فتبسم أباها ذلك الوقت فلم تمر به كلمة صحيحة عنده، ولا خير ثبت لديهم !».

ولقد أحسن ابن بسام كل الإحسان، وتوخي شرعة الإنصاف والعدالة، في تعليمه على هذا الخبر، حين قال : «ما أظن أن يحضرى على مثل هذا ! وإنما صاعد اشترط أن لا يأتي إلا بالقرب غير المشهور، وأعانتهم على نفسه، بما كان يتفق به من الكذب.

فسر بذلك المنصور، وكان ابن العريف حاضراً، فدعاه إلى مناقضته، وقال للمنصور : هذان البيان لغيره، وقد أشدنيهما بعض البغداديين بمصر نفسه، وهو عندى على ظهر كتاب يخطه، فقال له المنصور : « أريه » فخاف ابن العريف، وركب وحرك دابته حتى أتى مجلس ابن برد، وكان أحسن أهل زمانه بديهة، فوصف له ما جرى، فقال هذه الآيات ودس فيها بيتي صاعد :

عشوت إلى قصر عباسة وقد جدل النوم حراسها
فألفيتها — وهي في خدرها وقد صرع السكر آناسها —
قالت « أسار على هجعة ؟ » فقلت « بلى ! » فرمي كاسها
ومندت يديها إلى وردة يحاكي للكطيب أنفاسها
كعذراء أبصراها مصر فقطت بأكمامها راسها
وقالت خف الله لا تضحن في إينة عملك عباسها
فوليت عنها على غفلة وما خبت ناسي، ولا ناسها

فطار ابن العريف بها، وعلقها على ظهر كتاب يخط مصرى، ومداد أشقر ودخل بها على المنصور.

فلما رآها اشتد غيظه، وقال للحاضرين :

« غداً أمتحنه، فإن فضحه الامتحان أخرجه من البلاد، ولم يبق في موضع لي عليه سلطان ! ».

فلما أصبح، وجده إله، فأخضر، وأحضر معه جميع الدماء، فدخل بهم إلى مجلس محفل، قد أعد فيه طبقاً عظيماً فيه سقائف مصنوعة من جميع التوارير، ووضع على السقائف لعب من ياسمين في شكل الجواري، وتحت السقائف بركة ماء، قد ألقى فيها الآلات مثل الحصباء، وفي البركة حية تسبح.

فلما دخل صاعد ورأى الطبق، قال له المنصور : « إن هذا اليوم،

إما أن تسعد فيه معنا، وإما أن تشقي بالضد عننا، لأنه قد زعم قوم أن كل ما تأثر به دعوى، وقد وقفت من ذلك على حقيقة، وهذا طبق، ما توهمت أنه عمل لملك مثله، فإن وصفته بجميع ما في، علمت صحة ما تذكره.^٤

قال صاعد بديهية:

أبا عامر! هل غير جدواك واكف
يسوق إليك الدهر كل غريبة
وأشاع نور، صاغها هامر الحياة
ولما تناهى الحسن فيها، تقابلت
كشنل الطياء المستكنته كسا
وأعجب منها أنهن نواطير
حصاها اللآلئ، سابع في عبادها
ترى ما تراه الحسن في جباتها
قالوا: «فاستغربت له يومئذ تلك البديهية، في مثل ذلك الموضع،
وكتبها المنصور بخطه».

وكان إلى ناحية من تلك السقايف سفينة فيها جارية من النور تجذب
بمجاذيف من ذهب لم يرها صاعد، فقال له المنصور: «أحسنت!
إلا أثرك أغلقت ذكر المركب والجارية»، فقال للوقت:
وأعجب منها غادة في سفينة مكللة تصبو إليها المهاجف
إذا راعها موج من الماء تنقي
مني كانت الحسنة ريان مركب
ولم تر عني في البلاد حديقة
ولا غرو إن ساقت معاليك روضة
فأنت امرؤ، لو رمت نقل متالع
فكنتي لها، إني لمجدك واصف

قالوا : « فأمر له المنصور بألف دينار ومائة ثوب، ورتب له في كل شهر ثلاثين ديناراً »^(١).

٣ — ومن مجالس الأدب هذا المجلس في مناقضة صاعد لابن العريف في حضرة المنصور : دخل ابن العريف يوماً على المنصور، وعنه صاعد، فأنشدـه — وهو بالوضع المعروف بالعامرية — من أبيات :

فالعامرية تزهى على جميع العباني
وأنت فيها كسيف قد حل في غمدان

فأظهر صاعد للمنصور أن في استطاعته أن يرتجل خيراً من هذا الشعر الذي أعده ابن العريف وروى فيه، فطلب منه المنصور أن يفعل، ليظهر صدق دعواه، فقال من غير فكراً طويلة :

يا أيها الحاجب المعـ شلي على كيـوان
ومن به قد تناهى فخار كل يمانـي
العامـية أضـحت كجنة الرـضوانـ
فرـيدة لـفـيد ما بين أـهـلـ الزـمانـ

ثم مر في الشعر إلى أن قال في ختام الأبيات :

فـدم مـدى الـدـهـرـ فـهـا فـي غـبـطـةـ وـأـمـانـ

فأعجب المنصور بـيـادـهـ، وـقـالـ لـابـنـ العـرـيفـ: « ما لـكـ فـائـدةـ فـيـ منـاقـضـةـ منـ هـذـاـ اـرـتـجـالـ، فـكـيفـ تـكـونـ روـيـهـ؟ ».

فـأـجـابـهـ ابنـ العـرـيفـ: « إـنـماـ أـنـطقـ وـقـربـ عـلـيـهـ المـأـخـذـ إـحـسانـكـ! ».

فـقـالـ لـهـ صـاعـدـ: « يـفـهمـ مـنـ هـذـاـ أـنـ قـلـةـ إـحـسانـهـ إـلـيـكـ أـسـكـنـكـ وـبـعـدـتـ عـلـيـكـ المـأـخـذـ! ».

فـضـحـكـ الـمـنـصـورـ وـقـالـ: « غـيرـ هـذـهـ المـنـازـعـةـ أـلـقـ بـأـدـبـكـماـ! ».

(١) نفع الطيب.

٤ — ومن مجالس الأنس واللهو ما يروى من أن صاعداً اللغوي
كان كثيراً ما يمدح بلاد العراق بمجلس المنصور وبصفتها ويعقرظها،
فكتب الوزير عبد الملك بن شهيد^(١) إلى المنصور في يوم برد، بهذه
الأبيات :

صبرنا للكمون أخذاداً؟
حتى لكادت تعود أفلاداً؟
نخذ سيراً إليك إغذاداً
وادع المسئي بها، وصاحبها
تدع نبلاً، وتدع أستاداً
بخمر قطربيل وكلواذا
ما دام في أرملاط مشرينا
أما ترى برد يومنا هذا

وكان المنصور قد عزم ذلك اليوم على الانفراد بالحرم، فأمر بإحضار
من جرى رسمه من الوزراء والتدماء، وأحضر ابن شهيد في
محفة، لنقرس كان يعتاده وأخذدا في شأنهم، فسر لهم يوم لم
يهدوا مثله، ووقد لم يهدوا نظيره وطما الطرب، وسما بهم، حتى
تهابج القوم ورقصوا، وجعلوا يرقصون بالتنورة، حتى انتهى الدور إلى
ابن شهيد، فأقامه الوزير أبو عبدالله بن عباس فجعل يرقص، وهو متوكئٌ
عليه، ويرتجل، ويومي إلى المنصور، وقد غله السكر :

هاك شيخاً قاده السكر لكا
قام في رقصته مستهلكا
فانشى يرقصها مستينا
لم يطق يرقصها مستينا
عافه عن هزها منفرداً
نقرس، أخني عليه، فاتكى
من وزير فيهم رقاصة
قام للسكر يناغي ملكاً !
أنا لو كنت كما تعرفني
قمت أجلالاً على رأسي لكا
قهقه الإبريق مني ضاحكاً
ورأى رعندة رجلي فيكى

(١) عبد الملك بن شهيد هو والد الوزير أبي عامر أحمد بن شهيد.. وابنه شاعر مشهور.

(٢) يعني أنا العلا صاعداً.

قالوا : « وكان حاضرهم ذلك اليوم ، رجل بغدادي حسن النادرة سريعاً^(١) فلما رأى ابن شهيد يرقض قائماً من ألم المرض الذي كان يعنته من الحركة ، قال : « الله درك يا وزير ! ترقص بالقائمة وتصلي بالقاعدة ؟ ». ^(٤)

فضحك المنصور وامر لابن شهيد بمال جزيل ولسائر الجماعة وللبيهدادي^(٥).

٥ — وذكر ابن بسام أن أبي عامر بن شهيد أَخْدَمْ بْنَ عَبْدِ الْمُكْرَمِ الْوَزِير^(٦) ، أهدى له غلام من النصارى لم تقع العيون على شبهه فلمحه الناصر فقال لابن شهيد : « أَنِّي لَكَ هَذَا ؟ » فقال (هو من عند الله) ، فقال له الناصر : تتحفونا بالنجوم و تستأثرون بالقمر ؟ فاستعمل و احتفل في هدية بعثها مع الغلام وقال : يا بني كن مع جملة ما بعثت به ، ولو لا الضرورة ما سمحت بذلك نفسي . وكتب معه هذين البيتين : أمولاي هذا البدر سار لأتفكم وللأفق أولى بالدور من الأرض فأرضيكم بالنفس وهي نفيسة ولم أر قبلي من بمجهجه يرضي فحسن ذلك عند الناصر ، وأنجفه بمال جزيل ، وتمكت عنده مكانته ، ثم إنه بعد ذلك أهدى إليه جارية من أجمل نساء الدنيا ، فخاف أن ينتهي ذلك إلى الناصر فيطلبها ف تكون كقصة الغلام ، فاحتفل في هدية أعظم من الأولى وبعثها معها ، وكتب له هذه الأبيات :

أمولاي هذى الشمس والبدر أولاً تقدم ، كيما يلتقي القرمان
قران لعمري بالسعادة ناطق فدم منها في كوثر وجنان
فما لها والله في الحسن ثالث وما لك في تلك البرية ثان

(١) كان يعرف بالفكير ، وكان ابن شهيد استحضره إلى المنصور.

(٤) المقري.

(٥) راجع كتاب فتح الطيب ص ٢٢٣—٢٢٩ وص ٢٤٦ و ٢٤٧ - ١.

فتضاعفت مكانته عنده، ثم إن أحد الوشاة رفع للملك أنه بقي في نفسه من الغلام حزارة وأنه لا يزال يذكره حين تحركه الشمول ويقرع السن على تمنير الوصول، فقال للواشى بذلك : لا تحرك لسانك وإلا ظار وأسلك، وأعمل الناصر حيلة في أن كتب على لسان الغلام رقعة منها : يا مولاي تعلم أنك كنت لي على انفراد ولم أزل معك في نعيم، وإن كنت عند الخليفة مشاركاً في المنزل له، محاذر ما يبدو منه من سطوة الملك، فتحيل في استدعائي منه.. وبعثها مع غلام صغير السن وأوصاه أن يقول من عند فلان، وأن الملك لم يكلمه قط، إن سأله عن ذلك، فلما وقف أبو عامر على الرسالة واستخبر الخادم فعلم في سؤاله ما كان في نفسه من الغلام وما تكلم به في مجالس العدام، كتب على ظهر الرقعة، ولم يزد حرقاً :
 أمن بعد إحكام التجارب تبتغي لدى سقوط العبر في غابة الأسد؟
 وما أنا من يغلب الحب قلبه ولا جاهل ما يدعيه أولو الحسد
 فلما وقف الناصر على الجواب تعجب من فظنته ولم يعد إلى استماع واش به، ودخل عليه بعد ذلك فقال له : كيف خلصت من الشرك؟
 فقال : لأن عقلي بالهوى غير مشترك، فأنعم عليه وازدادت محنته عنده.

— ٣ —

وكان ذكاء الأندلسيين مما يجعلهم نابغين في الأدب، ملهمين في الشعر والثر، ومن مثل ذكائهم وجودة قرائحهم وبصرهم ببلغة الكلام : ما يروى عن القاضي منذر بن سعيد البلوطى قاضي الجماعة بقرطبة، قال : أتيت وأبو جعفر بن النحاس في مجلسه بمصر يملأ في أخبار الشعرا شعر قيس المجنون، حيث تقول :
 خليلي هل بالشام عين حزينة تبكي على نجد، لعلى أعينها

قد أسلماها الباكون إلا حمامه مطروقة بات وبات قريتها تجاوبها أخرى على خيرانة يكاد يدنىها من الأرض لينها فقلت له : يا أبا جعفر، ماذا — أعزك الله تعالى — بانا يصنع ؟ فقال لي : وكيف تقول أنت يا أندلسي ؟ فقلت له : بانت وبيان قريتها فسكت. وما زال يستقلني بعد ذلك حتى منعني كتاب العين.

وقد امتاز الأندلسيةون كذلك بحافظة قوية اعتمدوا عليها في رواية الأدب والشعر، ومن نوادر حافظة الأندلسية القوية الوعائية : ما يروى عن الوزير أبي بكر ابن وزع أبي مروان عبد الملك، قال : « بينما أنا قاعد في دهليز دارنا وعندي رجل ناسخ أمرته أن يكتب لي كتاب الأغاني. فجاء الناسخ بالكريسيس التي كتبها فقلت له : « أين الأصل الذي كتبته منه لأقابل معلمك به ؟ » قال : « ما أتيت به معنِّي »، فيما أنا معه في ذلك إذ دخل الدهليز علينا رجل بد الهيئة، عليه ثياب غليظة أكثرها صوف وعلى رأسه عمامة قد لأنها من غير إتقان لها، فحسبته لما رأيته من بعض سكان أهل البادية. فسلم وقعد. وقال : « يا بني ! استأذن لي على الوزير أبي مروان »، فقلت له : هو نائم، هذا بعد أن تكفلت جوابه غاية التكلف، حملني على ذلك نزوة الصسي، وما رأيت من حشونة هيبة الرجل، ثم سكت عنى ساعة وقال : « ما هذا الكتاب الذي يأيديكما ؟ »، فقلت له : « ما سؤالك عنه ؟ »، قال : « أحب أن أعرف اسمه فإني كنت أعرف أسماء الكتب فقلت : هو كتاب الأغاني فقال : إلى أين بلغ الكتاب منه قلت : « بلغ موضع كتنا ».

وجعلت أتحدث معه على طريقة المسخرية به والضحكة على قالبه، قال : وما لكائك لا يكتب ؟ قلت : طلبت منه الأصل الذي يكتب منه لأعراض هذه الأوراق، فقال : لم أجيء به معنِّي، فقال : يا بني خذ كاريسيك وعارض. قلت : بماذا ؟ وأين الأصل ؟ قال : كنت أحفظ هذا الكتاب في مدة صيادي، فتسبمت من قوله. فلما رأى تبسمي

قال : يا بني أمسك على . فأمسكت عليه وجعل يقرأ ، فوالله إن أحطأ
واواً ولا فاء . هكذا نحو كراسين ؟ ثم أخذت له في وسط السفر وأخره
فرأيت حفظه في ذلك كله سواء . فاشتد عجبي ، وقمت مسرعاً حتى
دخلت على أبي فأخبرته الخبر ووصفت له الرجل ، فقام كما هو من
فوره لا يرافق على نفسه وأنا بين يديه ، وهو يوسعني لوماً حتى تراوني
على الرجل وعانته ، وجعل يقبل رأسه ويديه ويقول : « يا مولاي !
اعذرني ، فوالله ما أعلمني هذا الخلف إلا الساعة » وجعل يسبني والرجل
يغضض عليه ويقول : ماعرفني . وأبي يقول : هه ما عرفتك قما عنده
في حسن الأدب ؟ ثم دخله الدار وأكرم مجلسه وخلا به ، فتحدثنا
طويلاً ، ثم خرج الرجل وأبي بين يديه حافياً حتى بلغ الباب ، وأمر
ببابه التي يركبها فسرجت وحلف عليه ليركبها ثم لا ترجع إليه أبداً .
فلما انفصل قلت لأبي : من هذا الرجل الذي عظمته هذا العظيم ؟
فقال لي : اسكت ! وبحكم ! هذا أديب الأندلس وسيدها في علم
الأدب . هذا أبو محمد عبد العميد بن عبدون ، أيسر محفوظاته كتاب
الأغاني ، وما حفظه في ذكاء خاطره وجودة قريحته . وكان ابن عبدون
يلقب بأصمي الأندلس .

ولهذا دلالة قوية على عناية الوزراء وأرباب السلطان بالأدب ورجاله ،
ووضعهم إياهم في المكان الأول من الإجلال والرفة ، وقد أطربت
الحكاية في وصف ذلك ، ودلالة كذلك على اهتمام الأندلسيين الشديد
بنقل كتب الشرق ونسخها لعم فائدتها ، ولقد يزيدكم اقتناعاً بهذا
الرأي ما يروى عن الحكم الثاني وعناته الفاتحة الحدود باقتناء الكتب
النفيسة وجلبها من أقصى بلاد الشرق ، حتى لقد بادر بشراء كتاب
الأغاني قبل أن ينشر في الشرق نفسه ، ودليل على شغف الأندلسيين
بالإكثار من المحفوظات إلى حد يصعب تصديقه على من لم يدرس
حياة العرب دراسة جيدة ، فإن من لا يعرف المنزلة العالية التي وصلت

إليها ملوكات العرب في الشرق لا يستطيع تصديق هذه الحكاية وأمثالها مما يروونه عن عرب الأندلس، ولقد كان يكفي لاعتبار الإنسان أدبياً أن يكون حفاظة، ولقد أكثر ملوك الأندلس من اقتراح حفظ كتب بعضها، وخصوصاً من يفعل ذلك بجوائز مالية، فاشتد إقبال الناس على تنفيذ رغباتهم طمعاً في ذلك، وقد وصل حفاظ الأندلس إلى درجة لا تقل عمّا وصل إليه حفاظ المشرق.

الفصل الأول

مواقف للشعر والشعراء

- ١ -

قال أمير المؤمنين يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن (٥٨٠ - ٥٩٥ هـ) من غزوة الأراكة سنة ٥٩١ هـ، فورد عليه الشعراء من كل قطر يهتلونه، فلم يمكن لكتরتهم أن يشند كل قصيدة، بل كان يختص منها بالإنشاد البيتين، أو الثلاثة المختارة، فأنشد أحدهم: ما أنت في أمراء الناس كلام إلا كصاحب هذا الدين في الرسل أحيث بالسيف دين الهاشمي كما أحياء جدك عبد المؤمن بن علي فأمر له بألقي دينار ولم يصل غيره من الشعراء عملاً بقولهم: «منع الجميع أرضي الجميع»، وانتهت إليه رقاع الشعراء وغيرها، وتراءكت حتى حالت بينه وبين ما أئمه.

- ٢ -

ذكر الفتح بن خاقان أن ذا الوزارتين القائد عيسى بن ليون، كان بمجلس مشرف على بطحاء قد لبست زخرفها، وديج الفمام مطرفها؛

وفيها حدائق ترتو عن مقل نرجسها، وتبث طيب تنفسها، والجلنار
قد ليس أرديه الدماء، والراوح قد ملك أهدأ الندماء، فقال :
قم يا نديم أدر على القرقا (١) أو ما ترى زهر الرياض مغوفاً
فتخال محبوها مدللاً وردها وتنظر نرجسها محبأً مدنقاً
والجلنار دماء قللي معرك (٢) والياسمين حباب ماء قد طفا

— ٣ —

كان ذو الوزراتين أبو بكر بن رحيم، قد مال مع أصحابه إلى إحدى
جذبات مرسيّة، فحلوا منها في قبة فوق جدول مطرد، وتحت أدواح
طيرها غرد، وإذا بالجنان وقف عليه، وقال كان بموضعكم هذا بالأمس
صاحب الموضع ومعه شعور منشورة، وخدود غير مستوره. فاستدعي
الوزير فحما، وكتب على إحدى زوايا القبة :
قادنا ودنا إليك فجئنا بنتوس فدتك من كل بؤس
فرزنا منازلاً لبدور وحللنا مطالعاً لشموس

— ٤ —

قال أصحاب القاضي أبي عبدالله محمد بن عيسى : ركبنا لي بعض
الأمر في موكب حافل من وجوه الناس، إذ عرض لنا غني متادب
قد خرج من بعض الأزمة سكران يتمايل، فلما رأى القاضي هابه، وأراد

(١) القرقا : كمحضر اسم الخمر، يردد منها صاحبها، قيل سميت القرقا لأنها تعرف
صاحبها أي ترعد، وأنكر بعضهم أنها تعرف الناس، وقال البلاط : هي اسم للخمر.

المغوف : كمعظم، برد رقيق، أو فيه خطوط بيضاء.

(٢) دتف الريض تقل مرضه، وأندفعه المرض، فالريض مدتف ومدقق، بصيغتي الفاعل
والمفعول.

الأنصاف فخاته رجاله واستند إلى الحائط، فلما قرب منه القاضي
رفع رأسه، وأشار يقول :
فأضحي به في العالمين فريداً
فلم أر فيه للشراب حدوداً
صبور على ريب الزمان جليداً
تروح بها في العالمين حميداً
لساناً على سر الزمان حديداً
فلم سمع القاضي شعراً، وميز أدبه، أعرض عنه، وترك الإنكار عليه.

- 6 -

عنى الوزير أبو بكر بن رحيم في بعض الليالي بهذه الشعر :

بـدا فـكـانـمـا قـمـرـ علىـ أـزـارـاهـ طـلـعاـ

وقد خـلـمـتـ عـلـيـهـ الـرـاـحـ منـ أـثـواـبـهاـ خـلـعاـ

وكان من الحاضرين من استحسن الشعر، فرغب إليه في تذليله، فقال :

فـأـهـدـىـ مـنـ مـحـاسـتـهـ إـلـىـ أـبـصـارـنـاـ بـدـعـاـ

فـلـمـاـ فـتـ أـكـبـدـنـاـ وـحـازـ قـلـوبـنـاـ رـجـماـ

فـقـاطـتـ أـعـيـنـ أـسـفـاـ وـفـاقـضـتـ أـنـفـ جـزـعـاـ

(١٤) يقال قاض العام فِيضاً وفيصوحة وفيهناً: يعني كثُر حتى سال، وفاقت نفس الرجل، وفاقت الرجل طوراً فِيضاً وفيهناً: مات.

— ٦ —

استدعي المตوكل الأديب الحكيم أبا الفضل بن شرف، في يوم
ماطر، ونسيم روض عاطر، فصحبه في مشاة إليه سحابة بلت عليه
ثيابه، فلما دخل على المตوكل أدناه، وأكرم مثواه، وهزه إلى القول
في ذلك فاهتز، وقال :

صاحبنا الغيث إلى الغيث لكنه غيت بلا عيش
سحابة تهمي حياها سرى لا تخلط الإعجال بالريث
يا ليث غاب حسه باهر والحسن لا يعرف للبيث
أحنني قربك في موضع بجل عن أين، وعن حيث^(١)

— ٧ —

رأى الشتربي نجماً في السماء، وترك وراءه مستطيل ضباء، فقال :
وكوكب أبصر الغربت مسترقاً للسمع فانقض يذكى إثره لهه
كفارس حل إحضار^(٢) عمامته فجرها كلها من خلقه عذبه !!

— ٨ —

ركب المعتمد بن عباد المتفق عام ٤٤٨٧ هـ للتبره بظاهر [شبيلية،
في جماعة من نداماته، وحشد من شعرائه، فلما بعد أخذ في المسابقة
بالخيول، فجاء فرسه بين البساتين سابقاً، فرأى شجرة تين قد أبعت
وزهت، وبرزت فيها ثمرة فسدت إليها عصا كانت في يده فأصابها،

(١) أي المكان.

(٢) الإحضار : العدو.

وثبتت في أعلامها فأطربه ذلك، والفتت ليخبر من لحنه من أصحابه،
فرأى ابن حاج الصياغ أول لاحق به، فقال أجز :
كأنها فوق العصا.....

فأجابه مسرعاً :

هامة زنجي عصا.....

وابن حاج هذا كان صياغاً عامياً، ولكنه قال الشعر فاشتهر أمره
حتى جالس الملوك، وقد مر عليه الوزير أبو بكر بن عمار المتوفى
عام ٤٧٩ هـ فرأى ما فعلت الصياغة بيده، فأخرج زنده وأشار إليه، وقال :
كم بين زند وزند.....
قال ابن حاج ما بين وصل وصل

- ٩ -

ذكر ابن بسام في الذخيرة، قال : اجتمع ابن عبادة وعبد الله بن
القابلة البستي بالمرية فنظر إلى غلام وسيم يسبح في البحر، وقد تعلق
بسكان^(١) بعض المراكب فقال ابن عبد الله أجز^(٢) : انظر إلى البدر الذي
لاح لك — فقال ابن القابلة : في وسط اللجة تحت الحالك :
قد جعل الماء سماء له وصبر الفلك مكان الفلك

(١) السكان : النفق.

(٢) الإجارة في الشعر أن تكمل معصراع غيرك، وقيل هي أن ينظم الشاعر على شعر
غيره في منهان ما يكون به تمام وكماله، وهي منشقة من الإجارة في السفي، فقال :
أجاز فلان فلاناً إذا سقاء وسقي له، فكأنهم شبهوا قول الشاعر الحمير بعمل الشاعر،
والمحاجز شعره يسقى الشخص للشخص، قال ابن السكين بقال الذي يرد النساء مستجير،
قال ابن رشيق ويجوز أن يكون من أجزت عن فلان الكأس إذا صرفها به دون
أن يشربها إلى من يليه وكأنهم شبهوا الشاعر لما تدعى باسم شعره بمحاجز الكأس،
قال أبو نواس : وقت لساقيها أجزها ظلم تكن ليهـي أمير المؤمنين وأشربـا

- ١٠ -

جلس المحمد بن عباد يوماً للشرب، وبين يديه ساقية جميلة، قد
تقابل بدر وجهها بشهاب الكأس، واتفق أن لمع البرق فارتاعت، فقال
بديها :

روعها البرق وفي كفها برق من القهوة لماع
عجبت منها وهي شمس الضحى كيف من الأنوار ترتع؟!
فلما أزعجه البيان، استدعى في الحال عبد الجليل بن وهبون المرسي،
وأنشده البيت الأول، وقال أجزء، فقال :
ولن ترى أعزب من آنس من مثل ما يمسك برتاع^(١)

- ١١ -

قال الفتح بن خاقان المتوفى عام ٥٢٩هـ، في كتاب القلائد : خرجت
من اشبيلية لوداع كبير من المرابطين، فوجدت معه الوزير أبي محمد
ابن مالك، فلما انصرفا عننا متسللين فمررتنا بعرج حسن النبات،
بديع النوار، فبادر ملوكه من معايلكه، وضيء الوجه إلى زهرة بدعة
فاقتطفها وأتاه بها، لتعجبه من حسنه، فاقترح على أن أصفه، فقلت :
وبدر بدا والظرف مطلع حسنه وفي كتفه من راتق النور كوكب
قال مجيزاً :

بروح لتعذيب النفوس وبقتدي ويطلع في أفق الجمال ويغرب
ويحسد منه الغصن أي مهفه يحيى على مثل الكثيب ويذهب

(١) يرى صاحب البداع أن هذا البيت أحسن من بيت المحمد.

ولم يقف تناول الشعر ومعاناته على طائفة دون أخرى؛ فقد قاله الخلقاء والأمراء والوزراء والقواد، وتبغ فيه كثير من العوام مثل : ابن حاج الصباغ، ويعسى القصاب، كما بربت في النساء، مثل : حسانة التميمية — وكانت على أيام الحكم (١٨٠٦ — ٢٠٦هـ) وابنه عبد الرحمن (٢٢٨—٢٠٦هـ) ومثل حفصة الركونية، المشهورة بالجمال والمال والحسب، ومثل ولادة بنت المستكفي، صاحبة ابن زيدون، ومثل اعتماد جارية المعتمد بن عباد، وأم أولاده، وقد كان أباها سبب تقربيها، فقد كان مع ابن عمار وزيره، وقد ركبا النهر فمررت الريح، ففردت صفحة الماء، فقال ابن عباد لابن عمال، أجز صنع الريح من الماء زردد.....

فلم يستطع الوزير، فقالت غسالة كانت على مقربة منها، هي (اعتماد) هذه :

أي درع لقتال لو جمد.....

قطار بها المعتمد إعجاباً، وشفع لها عنده أيضاً قسامه وجهها، فضمها إلى جواريه.

آراء في الشعر الأندلسي

إن الشعر الأندلسي الذي تعوزنا عنه مئات الدراسات لا زال في حاجة ماسة إلى جهد الباحثين وجهادهم للكشف عن جوانبه ونواحيه الفاضلة حتى اليوم.

والشعر الأندلسي كان يحفل بأعلام خالدة فيه، من أمثال ابن هانئ متنبي المغرب، وأبن زيدون بمحتر المغرب، والأعمى التطيلي معربي المغرب، وحميدة بنت زياد خنساء المغرب، وسواهم.

ويقول الدكتور أحمد زكي أبو شادي من حديث له عن الشعر الأندلسي :

الدكتور نيكل^(١) من ثقات العالم في اللغة البروفессية وفي الشعر التروبيادور الذي يعده مديناً للشعر العربي في نشأته، وله ذوق أدبي ناضج، وشاعرية مرهفة، وتضطلع من اللغة العربية التي درسها كما درس القرآن الكريم والشعر العربي على شيوخ الأزهر، إلى جانب تبحره في لغات أوروبية متعددة بله سياحاته التي تعد وحدتها ثقافة إنسانية، ولا غرو إذا تابعت بعد ذلك دراساته وكتبه مثل ترجمته الانجليزية لكتاب (طوق الحمام) لابن حزم الأندلسي، ومثل نشره كتاب

(١) له : كتاب المختارات من الشعر الأندلسي.

« الزهرة » لأبي داود الأصفهاني بالاشتراك مع قعيد الشاعر ابراهيم طوقان، وديوان ابن قرمان القرطبي الذي ترجم بعضه إلى الإسبانية، تأهيلك بمحاضراته الجامعية الممتازة في أمريكا وخارجها، وله فضل أدبي على الشعر الأندلسي، وإن أمامنا خمسة عصور للشعر الأندلسي تستحق الدرس، ألا وهي عصربني أمية، فنصر ملوك الطوائف، فنصر المرابطين، فنصر الموحدين، وأخيراً عصربني نصر في غرناطة وهو آخر أيام العرب في الأندلس.

فإذا نظرنا في نماذج العصر الأول : عصر الإمارة والخلافة المستبد ما بين ستة وخمسين وسبعينة إلى ستة عشرین بعد الألف للميلاد. نجد عبد الرحمن الداخل من الشعر الوجданى التأملي البليغ الكبير، وشعره جامع بين نصاعة الألفاظ وإشراق البيان وصدق العاطفة مع ملاعة الموسيقى لما فيه من نزعة تأملية، وهذا أبو المخسي شاعره في أيامه هو الذي مدح سليمان بن عبد الرحمن بشعره وتوجه عليه فيه أنه عرض بهشام أخيه، وكانت بينهما مباعدة ومنافسة، فتعصب متخصص لهشام فسلم عينيه، فقال في العمى شعراً حسناً، ثم قصد به عبد الرحمن بن معاوية فأنشده إياه، فرق له واستعبر، ودعا بأنفي ديار فأخطأه وضاعف له دبة العينين. وهو الشعر الذي أورله :

حضرت أم يناتي للعدى أن قضى الله قضاء فمضى
ورأت أعمى ضربرأ، إنما مشيه في الأرض ليس بالعصا
فاستكانت ثم قالت قوله وهي حرث بلغت مني المدى
فقوادي قرح من قوله « ما من الأدواء داء كالعمى »

وفي موسيقى هذه المقتصورة صوت فجيعته وأثنين لوعته. وهي على غرار الشعر الأندلسي في صدر الفتح الإسلامي من تماسك الألفاظ ومتانة التركيب وصدق العاطفة وروعة المعانى... فإذا بلغنا ابن هانى الأندلسي الذي لقب « بمني الغرب » وجدنا الشاعرية المفتنة، وان

لبث تقليد المدح للحكام والمغالة في ذلك سنة في الأندلس، وهناك أشعار لشعراء كان يهجهة المجالس؛ كما هي زينة المصنفات الأندلسية الأدبية، وكان بين أولئك الشعراء الحكام أنفسهم مثل الحكم بن هشام

بن عبد الرحمن الداخل الذي اشتهر من غزله قوله :

ظلل من فرط حبه مملوكاً ولقد كان قبل ذاك مليكاً
إن يكى أو شكا الهوى زيد ظلماً وبعاداً أدنى حماماً وشيكاً
تركه جادر القصر صباً مستهاماً على الصعيد تريكاً
 يجعل الخد راضعاً فوق ترب للذى يجعل الحرير أريكاً
هكذا يحسن التذلل للحـ سـ إـذاـ كـانـ فـيـ الـهـوىـ مـمـلـوـكاـ

وإن ننس لا ننس بين أولئك السابقين ابن عبد ربه الشاعر الناشر القرطبي الذي كان يعجب به أبو الطيب المتنبي حتى وصفه « بملح الأندلس »، فقد كان شاعراً مقلقاً في معظم شعره، ولو أنه كان مكتراً. وهو من الرائدين في الشعر القصصي كما يرى من أرجوزته في تاريخ عبد الرحمن الناصر. وما عاب شعره إلا تطرق الجانب التعليمي إليه حينما تقدمت به السن وإيثار الموعضة والزهد على العاطفة التي هي روح الشعر. ويقول بروكلمان في عرضه لمراحل التطور في الشعر العربي بمجلة « الأدب الإسلامي » الصادرة عن مدينة لاهور في يومية سنة ١٩٥٢ : إن شعراء العربية في الأندلس تربوا حب الطبيعة وجمالها، خالق شعرهم واشتهر في الشرق وقلده كثيرون من الأدباء في مصر وسوريا، وانتشر هذا الشعر الجديد في القرون الوسطى بأنحاء العالم العربي جميعه؛ حين لم يكن ثمة فارق كبير ما بين إنتاج شعراء البلاط في قاس القاهرة وجنوب بلاد العرب. ونظرة مستقلة منصفة في شعر ابن عبد ربه تربينا الشاعر المجدد كما تربينا الشاعر الكلاسيكي في آن. وكثير في هذا الشعر يضممه كتاب « يتيمة الدهر » وكتاب « تاريخ علماء الأندلس » فضلاً عن كتابه « العقد الفريد » وفي الجزء الثاني منه أرجوزته التاريخية الشهيرة في عبد الرحمن الناصر، وإن قيل إن

له ديواناً كثيراً لا نعرف أنه أهتدى إليه بعد. وهو على الإجمال محافظ، حتى إنه انتقد بشدة إحدى قصائده مسلماً أنها عبيدة القائل بكرودية الأرض ! وعمر فوق الثمانين فشاخ شعره معه، وراح ينقض شعره الغزلي السابق في صباح بقصائد فقهية زهدية، ومع ذلك لم يخل من الحكمة الآسرة كما نرى في هذا الشعر، وهو آخر نظمه :

بليت وأبلتي الليلى بكرها وصرفان للأيام متعوران
ومالي لا أبلى لسعيٍن حجة وعشر أنت من بعدها سنان
ولست أبالي من تباريع علىٰ إذا كان عقلي باقياً ولسانى !

وهذا مثال من شعره الوجданى المأثور :

أنت ذاتي وفي يديك دوائي يا شقائى من الجوى وبلاطي !
إن قلبي بحب من لا أسمى في عناء، أعظم به من عناء !
كيف لا ؟ كيف أن أذى يعيش مات صبرى به ومات عزائى
أيها اللاائمون ! ماذَا عليكم أن تعيشوا وأن أموت بدنائي ؟
ليس من مات فاستراح بميت إنما الميت ميت الأحياء »

وهذا مثال آخر لغزله :

محب طوى كشحًا على الرفراط وإنسان عيني خاض في غمرات
ومن في يديه ميتى وحياتى فيما من بعينيه سقامى وصحى
بحبك عاشرت الهموم صباية كأنت لها ترب وهي لدانتي
بخدي أرض للدموع وملأتى سماء لها تهلل بالعمرات !

وذلك مثال آخر في « يوم القراء » :
ودعنتى بزفارة واعتنقاك ثم نادت : متى يكون التلاقي
وتصدت فأشرق الصبح منها بين تلك الجيوب^(١) والأطواق

(١) الجيب : مكان العنق من الثوب.

ياسقىم الجفون من غير سقم
بن عينيك مصرع العشاق
إن يوم الفراق أبغض يوم
لتي مت قبل يوم الفراق !

ومثال آخر في وصف رمح وسيف :

بكل رديبي^(١) كان سنانه شهاب بدا في ظلمة الليل ساطع
تقاصرت الآجال في طول منته وعادت به الآمال وهي فجائع
وذى شطب تقضي المثابا لحكمه وليس لما تقضي المنية دافع
ويستل أرواح الكماة انساله ويرتاع منه الموت والموت رائع
وليس لابن عبد ربه ابتداع يضارع تفنن ابن هاني ولا عبد الملك
ابن شهيد ولا جرأة ابراهيم بن إدريس من شعراء العصر الأول، ولكنه
مع ذلك صاحب ألمعية انعكست على مرآتها موحيات زمنه فراح يجدد
بالتوضيح والشعر القصصي، كما انعكست على مرآتها ثقافة الدينية
فصار المترمث في أواخر عمره، وكان المحافظ في معظم سنته حتى
إنه في تأليفه (العقد الغرید) لم يعن بأدباء الأندلس وشعرائهم، وإنما
عني بأدباء المشرق وشعرائهم فحسب، عدا نماذج من شعره أتى بها، حتى
قال فيه الصاحب بن عياد : « هذه بضاعتنا ردت إلينا. ظلت أن هذا الكتاب
يشتمل على شيء من أخبار بلادهم، فإذا به يشتمل على أخبار بلادنا. لا حاجة
لنا به ! ». *

ومهما يكن من شيء فإن عبد ربه، ناظماً ونائراً، كان حلقة اتصال
متينة بين القديم والجديد في عصره. وشعره في الغالب شعر الذكاء
والفكير، وطافقه غير قليلة، حتى قال فيه أبو الطيب المتنبي — على
حالة قدره — « يا بن عبد ربه لقد تأثرك العراق حيوا ». *

ويستوقف نظرنا بين شعراء العصر الأندلسي الأول : منذر بن سعيد
البلوطي الذي يبرز في عهد الأمير المنذر وقد كان هذا الشاعر بربوري

(١) الرديبي : الرمح نسبة إلى رديبة وهي امرأة اشتهرت بقويم الرماح.

الأصل وقد أتم دراسته في قرطبة التي ولد بجيرتها، وبعد إتمام دراسته حج وبي حارج الأندلس أربعين شهراً، وقد تلقى في القاهرة علوم اللغة عن الشيخ أبي جعفر أحمد بن محمد بن النحاس، وكان شيعي المذهب فلما عاد إلى الأندلس عين في منصب قاضي قضاة قرطبة وذلك في عهد الناصر تقديرأ لتصوفه البارع في استقبال سفير أميراطور القسطنطينية، إذ كان المقرر أن يستقبله الأديب أبو علي القالي بخطاب الترحيب، ولكن القالي روعه الموقف فلم ينس بيت شفاعة، وفي هذه اللحظة الحرجية تقدم الشاعر متذر وارتجل خطاباً سر منه الجميع، وفي المقدمة ذلك السفير الذي أطرب الشاعر ونوه به كسياسي متذر، وقد ذكر أبو عامر بن شهيد في كتابه (حانون العطار) نماذج ثلاثة من شعره، وقد عمر إلى الثانية والثمانين، فلا بدع إذا أملأ عليه طول اختياره هذا الشعر في الموت والحياة :

الموت حوض وكلنا يرد لم ينج مما تخافه أحد
فلا تكن مغرياً يرزق غد فلست تدرى لما يجيء غد
وخذ من الدهر ما أثاك به وسلم الروح منك والجسد
والخير والشر لا تدعه فما في الناس إلا التشنيع والحسد !

وسأله شاعر يوماً :

مسألة جشت مستفتياً عنها، وأنت العالم المستشار

علام تحمر وجسه الطبا وأوجه المشاق فيها اصفرار

فأجابه :

احمر وجه الطبي، إذ لحظه سيف على العشاق، فيه أحورار
واصفر وجه الصب لما نأى والشمس تبقي للمغيب اصفرار

وهذا من شعر الذكاء، كما أن المثال السابق من شعر التأمل والتفلسف؛

وقد اشتهر بدقه أحكماته وطهارة ذمته وحسن تصرفه، وكل هذا يتلاءم مع مسلكه، في مستهل حياته. ولكنه مع ذلك لم يكن راضياً عن الوسط الذي

يعيش فيه، ولو أنه عاصر الناصر والحكم المستنصر في عهديهما الذهبيين ذلك لأنّه تعرض بنيوّه للمحسد وللدسائس ولصافوف من الكيد نفّصت عليه أيامه، فقال فيما قال مثل هذا الشّعر العاطفي القوي:

هذا المقال الذي عاشه قد لكن صاحبه أزرى به البلد
لو كنت فيهم غريباً كدت مطرقاً لكنتني منهمو فاغتالني التكـدـ
لولا الخلافة، أبقى الله بهجتها ما كنت أبقى بأرض ما بها أحد
ومما يُؤسف له أن بيته هذا الشاعر التي جنت عليه ونفّصته رغم نهاية شأنه
ونقاء ضميره وعفة يده وجنب كذلك على شعره الوجданى الراى كالمثلـ
السابق. فأهمل شعره وضاع أو أضيع، يقول استيفن سبندر الشاعر الناقدـ
الأمريكـيـ: إنـ الشـعـراءـ يـسـطـعـونـ آـنـ يـوـحـواـ إـلـىـ الـأـحـزـابـ السـيـاسـيـةـ،ـ ولـكـنـ
الـشـعـراءـ أـنـفـسـهـمـ يـعـانـونـ عـنـدـمـاـ تـجـمـعـ الـقـضـاـيـاـ الـاجـمـاعـيـةـ أوـ الـدـيـنـيـةـ الـتـيـ يـدـعـونـ
إـلـيـهاـ وـيـنـافـحـونـ عـنـهـاـ،ـ وـاـنـ هـذـاـ مـاـ حـدـثـ حـتـىـ فـيـ عـصـرـناـ الـحـاضـرـ شـرـقاـ وـغـربـاـ.
وـهـكـذـاـ كـانـ حـظـ الشـاعـرـ المـشـفـقـ التـرـيـهـ متـنـرـ بـنـ سـعـيدـ الـبـلـوـطـيـ.ـ ولاـ رـبـ أنـ
الـاهـتـاءـ إـلـىـ شـعـرـ الـوـجـدانـيـ الضـائـعـ الـذـيـ يـصـورـ فـيـ الـوقـتـ ذـاتـهـ زـمـنـهـ وـمـلـاسـاتهـ
لـسـماـ يـعـدـ غـنـماـ لـلـأـدـبـ،ـ وـلـعـلـ هـذـاـ يـحـقـقـ يـوـمـاـ مـاـ.ـ وـإـنـ مـنـ الـجـنـاهـ عـلـىـ الـأـدـبـ
أـنـ يـحـارـبـ وـيـنـتـلـفـ مـاـ يـخـالـفـ بـيـةـ مـعـيـةـ أـوـ عـصـرـ قـدـرـاـ مـنـ الـعـصـورـ
وـيـسـتـقـيـ مـاـ يـرـضـيـهـ وـيـلـالـهـاـ وـلـوـ كـانـ الـأـوـلـ أـسـمـيـ قـدـرـاـ مـنـ الـوـجـهةـ الـقـيـةـ.
فـالـفـكـرـ الـإـنـسـانـيـ يـجـبـ تـسـجـيلـهـ عـلـىـ عـلـاتـهـ،ـ فـانـ مـاـ قـدـ نـظـنـهـ صـالـحـاـ فـيـ وقتـ
مـاـ قـدـ يـحـكـمـ عـلـيـهـ التـارـيـخـ بـالـعـكـسـ فـيـ عـصـرـ آـخـرـ..ـ إـنـ الشـعـرـ الـأـنـدـلـسـ هوـ
نـتـيـجـةـ التـفـاعـلـ بـيـنـ شـعـرـ الـغـوـطـيـنـ وـالـإـبـرـيـنـ مـنـ نـاحـيـةـ وـالـشـعـرـ الـعـرـبـيـ
الـكـلاـسيـكـيـ مـنـ نـاحـيـةـ آـخـرـىـ،ـ فـكـلاـهـماـ أـثـرـ فـيـ الـآـخـرـ وـكـلـ مـنـ الـعـربـ
وـالـمـسـتـعـرـيـنـ أـسـهـمـ فـيـ إـيـادـيـ الشـعـرـ الـعـرـبـيـ الـجـدـيدـ الـذـيـ تـأـلـقـ فـيـ سـمـاءـ
الـأـنـدـلـسـ،ـ وـلـاـ يـتـمـيزـ تـمـيـزـاـ وـاضـحـاـ فـيـ بـدـاـيـةـ الـعـصـرـ الـأـوـلـ.ـ وـلـكـنـ أـمـرـاـ وـاحـدـاـ
كـانـ جـلـياـ مـنـ الـبـداـيـةـ فـيـ ذـلـكـ الشـعـرـ وـهـوـ الـحـرـصـ عـلـىـ الإـيقـاعـ فـيـ أـدـقـ صـورـةـ
دـوـنـ أـيـ تـسـاهـلـ فـيـ ذـلـكـ قـدـ لـاـ نـرـاهـ فـيـ بـعـضـ الشـعـرـ الـمـعاـصـرـ،ـ كـبـعـضـ الشـعـرـ
الـلـبـانـيـ وـبـعـضـ شـعـرـ الزـهـاوـيـ وـفـيـ الشـعـرـ الـجـاهـلـيـ،ـ وـهـنـاـ مـوـضـعـ تـنـاـولـهـ بـعـضـ

الكتاب في مجلة (المقتطف) تناولاً فلسفياً بدليعاً، كما تناوله كتاب «بدائع العروض». ولكن جمال الإيقاع — على أي حال — ليس إلا عنصراً من عناصر الشعر وليس روح الشعر ولا الشعر كله.

ومن بين شعاء العصر الأندلسي الأول الطرفاء المجددين : عبد الملك ابن شهيد. وهو الآخر شاعر قرطبي صار فيما بعد حاججاً أو وزيراً للناصر وبقي في بلاط الحكم المستنصر ثم نال أكبر حظوة في بلاط المنصور إذ كان أقرب المقربين إليه من الوزراء. ومن أطرف شعر ابن شهيد الآيات التالية التي ارتجلها في مجلس المنصور، وقد استفرق المجلس في الشراب والمرح ورقص الوزراء دون تحفظ، فنهض ابن شهيد على الرغم من تقدم سنه وإصابةه بالقرس، نهض من محفظته متکأً على ذراع الوزير أبي عبدالله ابن عباس، وحاول هو أيضاً أن يرقص منشداً ومخاطباً المنصور :

هاك شيخاً قاده السكر لكان
قام في رقصته مستهلكاً
لم يطق يرقصها مستيناً
فاثنى يرقصها مستيناً
عاقة عن هزها منفرداً
نقرس أخرى عليه فاتكما
من وزير فيهمو رقصة
قام للسكر يناغي ملكاً
ففمه الإبريق متى ضاحكاً
ورأى رعشة رجل فيكي !

وهذا من أنس الشعر الوصفي المطبوع في الأدب العربي. وقد كان أحد الطرفاء بمجلس المنصور فبهر بما رأى وقال لابن شهيد مزارحاً : يا الله يا سيدى الوزير إنك لترقص واقفاً بينما تصلي الله جالساً ! فأغارب المنصور في الضحك ومن شعره الارتجمالي الذي يتم عن ذكائه الواقاد يتباه اللذان وجههما إلى الوزير عبد الملك بن جوهر الذي كان يلقب بالحمار (لأن جده ابن هشام كان يطارأ في سوريا) وكانت بينهما منافسة شديدة، فاتفق يوماً أن مر ابن شهيد بدار ابن جوهر فاستأذن في رؤيته، ولكن ابن جوهر ادعى بـ لسان خادمه أنه غائب

عن داره، فكتب إليه ابن شهيد :
أتبناك، لا عن حاجة عرضت لنا إليك، ولا قلب إليك مشوق
ولكتنا زرنا بضعف عقولنا حماراً تولي برنا بعقول !

ولكن ابن جوهر لم يكن أقل ذكاء منه فرد عليه قائلاً :
حجيناك لما زرتنا غير تائق بقلب عدو في ثياب صديق
وما كان يطار الشام بموضع يأشر فيه برنا بخليق

وثمة شاعر موهوب : هو أبو هارون بن عبد الملك بن حبيب،
الذى كان إمام المذهب المالكى فى زمانه كما كان مؤرخاً عظيماً
وعلمياً جللاً، يتسابق إلى حلقات دروسه، ويبلغ من إجلاله العلم والتعليم
أنه كان يلبس أفخر الملابس خلال التدريس. لقد كان أبو هارون
شاعراً أصيلاً موهوباً ولذلك كان شعره ذو نفحة تختلف جد الاختلاف
عن طابع شعر الفقهاء بل نظمهم المحصور غالباً في أساليب خيرية
تعليمية بعيدة كل البعد عن روح الشعر. فأبو هارون مثل باهر لتجلي
الشاعرية على الرغم من أنه مهنة يحترفها الشاعر معينة على توسيع
افق تأملاته وتجاربه وقد زار أبو هارون الشرق حيث تبحر في دراسة
المذهب المالكى قبل أن يصبح داعيه الأكبر في الأندلس، وثمة في
أحد المجالس حاول أحدهم انتقاده لصغر جسمه فرد عليه بقوله :

لا تنظرن إلى جسمى وقلتـه وانظر لصدرـي وما يحوى من السنـ
غرب ذي منظر من غير معرفـة وربـ من تزـيرـه العـينـ ذوـ فـطنـ
وربـ لـؤـلـؤـةـ فـيـ قـعـرـ مـذـبـلـةـ لمـ يـلـقـ بـالـ لـهـ إـلـىـ زـمـنـ !

ونادى أبو هارون برعاية الأدباء حتى يتفرغوا لإنتاجهم النافع، إذ
كثيراً ما جنى الفقر عليهم فشغلتـهم أهونـ شـوـونـ العـاـشـ عنـ الـابـداعـ
الفنـيـ الـذـيـ يـكـسـبـ أـمـتـهـنـ وـلـغـتـهـ ثـرـوـةـ.

وقد عرض هنا الشاعر بالمعنى الموسيقى الشهير (زرياب) صاحب

الفضل الكبير في إنهاض الموسيقى الأندلسية، فقال أبو هارون من قصيدة وجهها إلى عبد الرحمن الثاني يهشه بيوم عاشوراء :

قد طاح أمري والذى أبغى هن على الرحمن في قدرته
ألف من الحمر^(١)، وأقلل بها لعالِم أربى على بغيه
(زرياب) قد أعطياها جملة وحرفي أشرف من حرفه !

وهذه حماسة المحامي المدافع عن قضية عامة وعن حق خاص، إذ لا ينكر أن الموسيقى والغناء من أشرف الفنون الجميلة وإنما وجه الاعتراض المغalaة في تكريمه فن من الفنون على حساب غيره. كما يغالى عصرنا الحاضر في تكريم الرياضة البدنية على حساب النوع الذهنى ! ولهذه الروح كتب أبو هرون إلى الزجالي :

كيف يطبق الشعر من أصبحت حاله اليوم كحال الغرق !
والشعر لا يسلس إلا على فراغ قلب واتساع الخلق
فافقع بهذا القول من شاعر يرضى من الحظ يادنى العنق^(٢)
أما ذمام السود مني لكم فهو من المحظوم فيما سبق !
وهكذا على رغم طاقه الشعرية الرفيعة حالت بيته هذا الشعر الموهوب دون العناية الكبرى التي كان يود أن يمنحها الشعر، والقليل الذي تركه لنا على الرغم من شواغله الجمة عميق المعانى جميل الترسّل، شاهد بالمعينه الفنية.

ويذكر ابن خلدون في ختام مقدمته نبذة شائقة عن الموشحات والأزجال للأندلس قال فيها : اعلم أن الأذواى كلها في معرفة البلاغة إنما تحصل لمن خالط تلك اللغة. وكثير استعماله لها ومحاطته بين أجيالها حتى يحصل ملكتها كما قلنا في اللغة العربية، فلا يمترى الأندلسي بالبلاغة التي في شعر أهل المغرب، ولا المغربي بالبلاغة التي في شعر

(١) هي الدنائر.

أهل الأندلس والمشرق، ولا المشرقي بالبلغة التي في شهر الأندلس والمغرب لأن اللسان الحضري وتراثيه مختلفة فيهم، وكل واحد منهم مدرك لبلاغة لغته، وذائق لمحاسن الشعر من أهل جلدته، وفي خلق السموات والأرض والاختلاف المستكم والوانكم آيات.. ونحن — ورثة العربية في جميع عصورها — علينا إذا أقدمنا على النقد الأدبي، وعلى الأخص نقد الشعر أن تكون متزودين أولاً باطلاع كاف على نماذجه الرفيعة في عصورة المختلفة، وثانياً بقدرة على الاندماج في شخصية الشاعر المنقود وفي بيته، وثالثاً بالقدرة على الموازنة التي يساندها النحو الأدبي المكتسب والطبع الشعري وروح الإنصاف. فإذا قدرنا الشعر الأندلسي فانما يعتمد تقديرنا على أنس تتفق وتختلف مع ملاحظات ابن خلدون — تتفق معه في الفكرة العامة، وتختلف من ناحية الشمول والأدب المقارن وعدم الاعتراف بتحديد الفن. فعندينا أن الشعر الفني الصحيح الذي يعتمد على روحه الأصلية لا على عكاز من تواعده قابل للتقدير — كيئما كانت لغته — أهل للتنويم به في كل زمان ومكان. وكلما كانت روح الشعر الفنية عالية جبارة استقلت أو كادت عن جميع العناصر المعاوزرة لها كالإيقاع الموسيقي والانتقام اللغظي، وهذا ما نجده في شعر الفحول، ولو كان ثرثراً مترجمأ مثل شعر تاجور وشعر إقبال أو ثرثراً شعرياً عربي الأصل كالكثير من الشعر الفني لمصطفى صادق الرافعي، فإنه تحفة ومتعة روحية في ذاتها لا يعزها النظم ليتألق جمالها، وعلى ضوء هذا المذهب الذي تدين به نقد الشعر الأندلسي نقد المتذوق المقدر.

وبين الشعراء الممتازين في الإمارة والخلافة بالأندلس الذين يغفل مدرسون الأدب العربي ذكرهم : الشاعر البليغ ابن دراج القسطلي الذي عده ابن حزم قريباً لأبي تمام والمتيني، وهو بربري الأصل سكت أسرته الموسورة في قسطلة وتعلم في قرطبة وبلغ بفضل مكانته الاجتماعية

وعلى وفاته منزلة كاتب الإنشاء في أواخر عهد الحكم المستنصر. وكان ابن دراج مشهوراً ببلاغته وامتلاكه ناصية العربية، وبإشراف أسلوبه ثرأ ونظمأ : وله شعر متين في مدح المنصور، بعضه مرتجل. وبلغ منزلة الاعتراف به كأحد شعراء البلاط المعدودين المخصصة لهم الرواتب. وقد تعرض لمحض كبير، مما جنى على إنتاجه الوفير، فضاع معظم شعره. وقد عد ابن حزم قصيده في فتح ساناغور (الذي وقع في العاشر من أغسطس سنة سبع وستين وتسعة وسبعين للهجرة) من روائع الشعر العربي. وبعد وفاة المنصور صار ابن دراج شاعر البلاط في عهد المظفر. وفي أواخر أيامه كان متصلًا ببلاط المنذر بن يحيى في سرقسطة.

وهناك نماذج من شعره البديع في (بيمة الدهر). وأقل ما تتصف به هذه النماذج السلامة البيانية والموسيقى العذبة وسلامة اللغة، ولكنها ليست قوية العاطفة، ولذلك لم نضعها نحن في منزلة شعر ابن خفاجة أو شعر ابن زيدون مثلًا، ومع ذلك فليس من الإنفاق الحكم الراقي الصادق على شاعر مكثر ضاع أكثر شعره ولم يبق منه إلا القليل الذي حرص عليه بعض الحكام كهذه الآيات التي يمد بها المنصور والتي تذكرنا برائحة أبي نواس في مدح الخصيم :

ألم تعلمي أن التواء هو التوى^(١) وأن بيوت العاجزين قبور؟
وأن خطيرات المهالك ضمن لراكيها أن الجراء خطير؟
يخوفني طول السفار وإنه بتقبيل كف العاصري جديير
مجير الهدى والدين من كل ملحد تلاقت عليه من تميم ويعرف
شموس تلاقي في العلا وبدور هم يستقلون الحياة لراغب
ولما توافقوا للسلام ورفعت عن الشمس في أفق الشروق ستور

(١) التوى : الهلاك.

صفوف، ومن بعض السيف سطور
وآيات صنع الله كيف تثير
وقام بعء الرائيات سرير
وولوا بطاء والتواظر صور
وحارت عيون ملأها وصدره :
وقدر فيك المكرمات قدير »

وليس في هذا الشعر كما يرى كثيرون ابداع ولا قليله، وأنما جماله
في السلسة وحسن التناول البياني، ومثله هذه الآيات في الوداع لولا
ومعنى العاطفة يلمح فيها :
قالت، وقد مزج الفراق مدامعاً
يمدامع، وتراءاً يتراءى :
« أتفرق حتى يمنزل غربة
ولئن جئت عليك نزهة راحل
فأنا الرعيم لها بفرحة آيب
في الأفق إلا من هلال غارب ؟ »

فكيف يمكن التوفيق بين مستوى الشعر وبين المدح الذي أسبغه
عليه ابن حزم وابن خلدون والمراكمي والمعربي وأمثالهم من الأدباء
النقاد المؤرخين ؟ إذا قام هذا المدح على الشعر الباقى لابن دراج
القسطلني فهو مدح توحي به بلاغته البيانية فحسب، لا طاقته الفنية،
وإذا قام على سجل شعره المعروف في زمانه، فلا بد لنا من الاستنتاج
أن خير شعره — أي ما تناول وحدانياته ومشاهداته وتأملاته وحياة الناس
— قد فقده الأدب العربي.

من أعلام الشعراء الأندلسيين

تُنْجَ في الأندلس من الشعراء كثيرون، منهم : ابن عبد ربه الأندلسي (٢٤٦-٣٢٨هـ)، وأبن هانئ (٣٢٦-٣٦٣هـ) والغزال (١٥٦-٢٥٠هـ)^(١) وأبن زيدون (٣٩٤-٤٦٣هـ)، وأبن خفاجة (٤٥٠-٤٥٣هـ)^(٢)، وأبن وهبون المتوفى قبل عام ٥٣٣هـ. والأعمى النطيلي المتوفي قبل عام ٥٤٢هـ، وأبن برد الأصغر الذي قُتل عام ٤٣١هـ، وأبو حفص الأكبر المتوفي عام ٤٤٢هـ، ابن دراج القسطلني (٣٤٧-٤٢١هـ)، ولسان الدين بن الخطيب (٧١٣-٧٧٧هـ)، وأبن الحداد المتوفي عام ٤٨٠هـ، والفتح بن خاقان المتوفى عام ٥٢٩هـ، وسواهم كثيرون.. أما من نُجَّ من الأدباء المشهورين فقليل منهم : ابن شهيد (٣٨٢-٤٢٦هـ)، وأبن سهل (٦٠٩-٦٤٩هـ)، وأبن بسام المتوفى عام ٥٤٢هـ وسواهم.

(١) يُنْجَةُ الْمُلْكِسُ - وَاسِمُ الْغَزَالِ يَحْيَى بْنُ حَكِيمٍ وَهُوَ شَاعِرٌ مُطْبَعٌ.

(٢) راجع ٢١٢-١٩٠ بلاقة العرب في الأندلس.

الشعر الأندلسي وتياراته

- ١ -

عندما دخل العرب الأندلس واسترحاوا من الفزو، رجعوا إلى طبيعتهم المتأصلة فيهم وهي قرض الشعر، فالشعر هو متعتهم النفسية وغذاؤهم الروحي، ومرأة لحياة العربي الاجتماعية والنفسية ينبعى به في حله وترحاله. ويدرك فيه ما يمر بخلده من حب وبغض، ويرسم ما يحيط به من جمال الطبيعة وما تلهمه روحه من خيال بديع، فأخذوا يقولونه في أغراضه التي فشت في الشرق وفي أغرض أخرى جديدة، وكان من الأسباب التي دعت إلى نهضة الشعر في الأندلس :

١ - طبيعة بلاد الأندلس وما فيها من المناظر المختلفة؛ والأمطار المتصلة والأدوات الظليلة، والأنهار الجارية، والسهول الخصبة، والجبال المكسوة والمروج الموسأة بألوان الزهر، والقصور الشاهقة، والرياض الغاء، والغوانى الحسان. كل ذلك أكسب الوجدان لطفاً، ومعانٍ دقة، والألفاظ جمالاً وروعة.

٢ - عنابة الملوك الأمراء بفرض الشعر حملت الشعب جميعه على الإقبال عليه، حتى أصبح قول الشعر زينة لكل أديب، وجمالاً لكل عالم. أولئك به الفقهاء والنحاة وال فلاسفة، والرياضيون، والأطباء،

والموئخون. كما أولع به كثير من النساء حتى نبغ فيه، وبأربين الرجال
وقلن الجيد الممتع منه : كقول حمدونة الأندلسية تصف وادياً :
وقاتا لفحة الرمضاء واد سقاه مضاعف الغيث العجمي
حلانا دوجه، فحنا علينا حنو المرضعات على القطييم
٣ — كلبة جمهرة العرب في الأندلس. وتمكن السلطان في أيديهم،
وشدة محافظتهم على تقويم لسانهم.

— ٤ —

ميزات الشعر الأندلسي وخصائصه :

أما مميزاته من حيث الأغراض : فإنه لما طاب للعرب العيش في
الأندلس يتمكن سلطان بنى أمية، ونقلت دواوين المشرق أخذنوا يعنون
بالشعر في أغراض شتى شملت قنونه كل مراقب الحياة، فنظموا في
كل ما نظم فيه شعراء المشرق : من مدح وهجاء وفخر وحماسة،
وتنهيدة، ورثاء، ووصف، وغزل ومحنة وندمان ونساء وغلمان وعيت
ومجنون، وزهد وتصوف، غير أنهم فاقوا المشارقة في بعض أغراضه،
ونقصوا عنهم في أغراض أخرى، لأنسباب اقتضتها طبيعة إقليمهم، ونظام
معيشتهم، وطريقة تثقيفهم.

ومن الأغراض التي فاقوا فيها المشارقة : الوصف، ولا سيما وصف
مناظر الطبيعة وجمال الكون . فوصفو الرياض والبساتين والأشجار والشمار
والأزهار والطبيور، ووصفو السحاب والرعد والبرق وقوس قزح والبرك
والأنهار والمغار، وتوسعوا في ذلك حتى أحلوه محل التسبيب في صدور
القصائد، ووصفو أساطيل البحر لكتير اتخاذها لحرب العدو، وسير
الجيوش ونشوب المعارك، والقصور والتمايل والغوارات ومحالس اللهو
وآلاته والطرب والسمر.

ومن الأغراض الجديدة التي نظموا فيها :

١ — رثاء الممالك الزائلة : وذلك حينما تخلص ملك المسلمين واستولى أعداؤهم على مدنهم وحصونهم: كقول صالح بن شريف الرندي م ٨٩٨ هـ يرثي الأندلس :

لكل شيء إذا ما تم نقصان فلا يفر بطيب العيش إنسان
هي الأمور كما شاهدتها دول من سره زمن ساعته أزمان

٢ — الاستغاثة والاستجاجاد بالنبي ﷺ وكبار الصالحين، وترغيب ملوك الإسلام في إنقاذ البلاد، وقد كثر ذلك في القرنين : الثامن والتاسع، حين تواتت عليها غارات الإسبان، ومن ذلك قصيدة ابن الأبار يخاطب ملك المغرب ومنها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى مجاتها درسا
٣ —نظم العلوم والفنون : وذلك لشدة عنايتهم بالعلوم وحرصهم على استظهارها.

ومن الأغراض التي قصر فيها الأندلسيون عن المشارقة ولم يجاروهم فيها :

١ — الشعر المشتمل على الحكم التي تسير مسيرة الأمثال.

٢ — الشعر المتضمن الآراء الفلسفية من نقد الشرائع ونظام الحكم وأخلاق الناس .

وأما مميزاته في ألفاظه وأساليبه : فإننا نرى في الشعر الأندلسي سهولة في الألفاظ وسلامة في التراكيب. ويرجع ذلك إلى أن الشعراء لم يحملوا الألفاظ ما لا تطيق من المعاني المزدحمة، فالسر في هذه السلامة والعذوبة : سهولة طبعهم وبين أخلاقهم وإرسالهم القول من غير تكلف ولا تصنع، فجاء أكثره جارياً مع الطبيع، ولم يبالغوا في الأخذ بفنون البديع من توربة وجناس وطبقاً وغيرها، وما كان يقع لهم منه في

عاراتهم جميل مقبول، لأنهم كانوا يأخذون من الأنواع البدعية ما تجود به القرىحة من غير تعامل ولا إجهاد خاطر.

وأما مميزاته في معانه : فإننا نجد معانى الشعر الأندلسي واضحة جلية بعيدة عن تعمق الفلسفة وتدقيق الحكماء لقلة المشتغلين منهم بالحكمة. وبغض العامة لها.. وغلب على الشعر الأندلسي الخيال البدع الذي نشأ فهم من ضرورة الجمال المنتشرة في شبه جزيرتهم، وساعدتهم ذلك على أن يجودوا التشبيه، ويكتروا من استعمال المجاز والكتابة في شعرهم.

— ٣ —

وعندما أقام العربي في الأندلس ظهر الشعر العربي في هذه البيئة، لما رأه العربي من جمال تلك البلاد. فكان عقله وخياله بمثابة حياتين : حياة البدو وحياة الحضر. وكان شعره متبعاً من هذين الأثنين، فظاهر فيه جمال الفطرة، ونضارة الحضارة، وجزالة البداعة، ورقة الخيال، والافتتان في الجد والهزل والمحاجن، ووصف العواطف والأهواه. وكان لحضارة تلك البلاد وجمال الطبيعة أعظم أثر في نفوس الشعراء، فجالوا في كل شيء وقع عليه نظرهم ومر بخاطرهم حتى كان ذلك من مميزات الشعر في الأندلس ومن أظهرت خصائصه.

وقد ذاع الشعر في كل طبقات الناس، فكان في الشعراء : الخلفاء والأمراء والوزراء والنساء والفقهاء والحكماء الذين كانوا يتضمنون في جميع المعاني.

ولما قام ملك بني أمية هناك فسح الخلفاء صدورهم للشعراء والأدباء في مجالس الأدب والفناء، وأفضوا عليهم الأموال، فاتخذ الشعراء ذلك

وسيلة للتقارب إلى الحكام وكبار القوم بمدحهم والتملق إليهم، ووصف مجالسهم وقصورهم، ومعالم الحضارة في بلادهم حتى كان الشعر صناعة ووسيلة إلى كسب المال، وبالغوا في مدح هؤلاء الخلفاء والأمراء استدراكاً لمعطياتهم. وقد ظهر في هذا العصر جماعة من كبار الشعراء، منهم : محمد بن هانئ؛ وابن دراج القسطلاني، وأحمد بن شهيد.

وكان عصر ملوك الطوائف من أزهى عصور الشعر والأدب، ظهر فيه كثير من فحول شعراء الأندلس : كالوزير ابن زيدون، وابن خفاجة، وابن سهل، وعبد الجليل بن وهبون، والوزير ابن عمار، وملك قرطبة واشبيلية المعتمد بن عباد. وظهر في دولة بني الأحمر لسان الدين ابن الخطيب وغيره من كبار الشعراء. وقد يغدو الشعر زاهياً إلى خروج العرب من هذه البلاد. وقد كان الشعر أسيق أنواع الأدب ظهوراً، لأنه مظهر الثقافة العربية، ومراة لحياة العرب العقلية والاجتماعية، يشدو به العربي حيشما نزل وأينما ارتحل، فيذكر فيه ما يمر بخاطره من حب وبغض، ويصف فيه ما يجول بنفسه من أثر ما يحيط به من جلال الطبيعة وجمالها؛ فكان لجمال بلاد الأندلس أثر في عقله. ولكن أخلاقه العربية كانت تسيطر عليه، وعزته القومية وذكريات بلاده وأهله ما فتئت تلازمه. فكان عقله يمثل حياته، حياة البدو وحياة الحضر. ولقد احتفظ الشعر في الأندلس بطابعه العربي كما انحدر من الجاهلية، فاقتصر في مصادر إلهامه على المدح والرثاء والغزل والفخر. ذلك أن العرب بأسبانيا عاشوا في حين دائم إلى البلاد التي أبىتهم واعتبروا أنفسهم مهاجرين. وكان الملوك منهم يزدحمن الشعراء على أبوابهم كما كانوا يفعلون في الشرق، وكثير عددهم بين رجال الحاشية والبطانة، وكانتوا ينظمون في المدح والفخر، لأنهم نقلوا معهم أيضاً إلى بلاد الغرب العصبية.

على أن العرب امتهنوا بسكان البلاد، واعتنق الإسلام فريق من الأسبانيين المسيحيين، فنشأ جيل جديد من المؤلفين خفت لديه المصيبة،

ولكنها لم تترك الفخر، فظل يحتل مكانة بارزة في الشعر؛ وظل قلوب العرب تتضرّم حيناً إلى بلادهم الأصيلة، وظلّ القوم يحافظون بالتراث العربي. وصاروا يتبادلون مع المسلمين بالشرق آثار القراءات من شعر وتألّيف. ففي عهد الرحمن الثاني سافرتبعثة علمية من الأندلس إلى العراق وعادت منه يكتب العلم والفلسفة المنقوله إلى العربية. ورحل المعني زريراً من بغداد إلى إسبانيا فعلم الطبقة الارستقراطية فيها الموسيقى والنقاء. وظهر حييلٌ في الموسّحات، ومخترعه مقدم ابن معافر التبريري فانتشر الشعر بالأندلس إلى شطرين: اثناعي، وجديد، وانحرف الشطر الثاني عن تقاليد القصيدة، ولكنه احتفظ بالقصبي.

نشأت في أواخر خلافة الأمويين مدينة جديدة تقام على العرب والمولددين والأسپانيين الذين تعلموا العربية؛ وكان مركزها قرطبة؛ وكانت مزيجاً من الحضارتين العربية والرومانية، فنشاعت في قرطبة ألوان من اللهو والمرح تشبه ما كان في بغداد مما يمثله كتاب ألف ليلة وليلة، ولكن هذه الحياة الجديدة كانت تتقصها أبهة الشرق وفخامتها، ولكنه يضاف إليها تبسط في المعالش، وترهف في إحساس العامة.

وكان عبد الرحمن الناصر قد أنشأ قصر الزهراء ومدينته. ولم يجد العرب في الأندلس عهداً كذا العهد. عم في الرخاء وسادته الرفاهية والبغطة، حتى صبح فيه المثل العامي : مثل « أيام العروس ». *

فلا عجب إذا ازدهر الشعر على أنواعه وأخذت ترق حاشية الشعراء
ويترهف إحساسهم. فهذا ابن عبد ربه صاحب « العقد الفريد » يجمع
تراث العرب في كتابه : العقد الفريد. وظل الملوك والخلفاء على عادتهم
من نظم الشعر وقرره، فمن ذلك قول المستظر :

طال عمر الليل عندي
يا غزالا نقض العهد
منذ تولعت بصدى
ـ د و لم يعرف يوعد

أنسيت العهد إذا بـ سـا على مفروش ورد
واعتنـنا في وشـاح وانتظمـنا نظم عـقد
ونجـوم اللـيل تحـكـي ذهـباً في لـازـورـد
وانصرفـ الغـزل عن المـادـة، وصارـ يـنـجـرـدـ منـ الـمـحـسـوـسـاتـ مـتـسـامـيـاـ
إـلـىـ الـعـاطـفـةـ الـمـنـزـعـةـ. وـوـضـعـ ابنـ حـزمـ، فـقـيـهـ الـأـنـدـلـسـ وـعـالـمـاهـ، كـاتـبـهـ
«ـ طـرقـ الـحـمـامـةـ »، وـضـمـنـهـ تـحـلـيـلاـ نـفـسـياـ لـلـحـبـ مـازـجاـ بـينـ النـظـريـاتـ
الـمـجـرـدةـ وـالـأـقـاصـيـصـ الـمـرـوـيـةـ، وـأـكـثـرـهـاـ مـشـاهـدـاهـ وـتـجـارـبـهـ السـخـصـيـةـ.
وـأـسـمـاءـ ابنـ حـزمـ «ـ الـحـبـ الـمـهـذـبـ » أوـ «ـ حـبـ الـمـرـوـعـةـ ».

عـلـىـ أـلـوـانـ الـحـيـاةـ بـالـأـنـدـلـسـ وـجـوـ الـبـلـادـ وـإـلـاطـارـ الـذـيـ كـانـ يـحيـطـ
بـحـيـاةـ النـاسـ كـلـ هـنـاـ كـانـ أـقـوىـ شـاعـرـةـ وـأـبـرـعـ جـمـالـاـ وـأـعـظـمـ أـثـرـاـ فيـ
الـنـفـسـ مـنـ الشـعـرـ الـذـيـ أـلـهـمـهـ، وـلـيـسـ مـعـنـىـ هـنـاـ أـنـ ذـلـكـ الشـعـرـ كـانـ
ضـعـيفـاـ، وـلـكـهـ ظـلـ فـيـ أـغـلـبـهـ اـتـيـاعـاـ لـاـ يـسـطـعـ أـنـ يـسـوـ إـلـىـ جـمـالـ
الـأـشـيـاءـ الـتـيـ تـقـيـضـ إـلـاهـاـمـ عـلـىـ الشـاعـرـ.

وـفـيـ الـقـرـنـ الـخـامـسـ الـهـجـرـيـ صـارـ الشـعـرـ يـجـرـيـ عـلـىـ كـلـ لـسانـ حـتـىـ
قـالـ ابنـ حـيانـ : «ـ إـنـهـ كـانـ باـسـطـاعـةـ الـفـلـاحـ الـذـيـ يـجـرـتـ الـأـرـضـ أـنـ
يـرـتـجـلـ الشـعـرـ فـيـ أـيـ مـوـضـعـ يـعـنـ لـهـ، وـظـلـ الـمـدـحـ الـنـوـعـ الـبـارـزـ فـيـ
الـشـعـرـ. لـأـنـهـ مـاـ كـادـتـ الـخـلـافـةـ الـأـمـوـيـةـ بـإـسـبـانـيـاـ تـهـنـهـرـ حـتـىـ انـقـسـمـ الـدـوـلـةـ
إـلـىـ دـوـبـلـاتـ صـغـيرـةـ عـلـىـ رـأـسـ كـلـ وـاحـدـ مـنـهـ مـلـكـ أـوـ أـمـيرـ، وـقـدـ
عـرـفـواـ فـيـ التـارـيـخـ بـاسـمـ مـلـوكـ الـطـوـافـقـ، وـكـانـ كـلـ وـاحـدـ مـنـهـ يـحـتـفـيـ
بـالـشـعـرـ وـيـضـمـهـ إـلـىـ بـطـانـتـهـ فـيـنـظـمـونـ لـهـ الـمـدـبـحـ وـيـسـطـرـونـ مـحـامـدـهـ
فـلـاـ بـدـعـ إـذـاـ كـثـرـ شـعـراءـ ذـلـكـ الـعـصـرـ وـعـظـمـ شـعـرـ الـمـدـبـحـ.. وـكـانـ الـكـثـيرـونـ
مـنـ أـولـئـكـ الـمـلـوـكـ وـالـأـمـرـاءـ يـنـدوـقـونـ الشـعـرـ أـوـ يـنـظـمـونـ، وـكـانـ أـبـرـزـهـمـ
أـبـوـ القـاسـمـ بـنـ عـيـادـ الـمـعـتمـدـ عـلـىـ اللهـ صـاحـبـ اـشـيـلـيـةـ، فـقـدـ كـانـ شـاعـرـاـ،
وـعـاـشـ فـيـ حـيـاةـ فـيـهـ أـلـوـانـ الـشـعـرـ وـمـظـاهـرـهـ؛ وـقـرـبـ الـشـعـراءـ. بـلـ لـمـ
يـسـتـوزـرـ إـلـاـ مـنـ كـانـ أـدـيـاـ.

وكان أبرز شعراء ذلك العصر ابن زيدون، الذي استوزر لابن عباد، ولولادة بنت المستكفي، وكانت بينهما صلات ومحاضرات شعرية. وإذ ذخر شعرهما بالمحاضرات الفقهية امتاز أيضاً بجودة الإلهام وبراعته. ويحدر التوبيه باسم ابن عمار، صديق ابن عباد أيضاً. وهو من الشعراء في ذلك العهد وقد نظم في سائر أبواب الشعر وفنونه، وكان شعره قوي الإلهام.

وفي عهد المرابطين ظهر ابن قرمان. واستحدث في الشعر فن الرجل ولكن القصيدة القليلية ظلت في ذلك العصر، وفي عهد الموحدين، محفوظة بمسكانها الأول في الشعر الاتياعي الذي ظل أحداً مجرأه. وكان من أشهر رجاله : ابن خفاجة وابن زمرك.

وأخذت دولة العرب بأسبانيا تنهار شيئاً فشيئاً. وتقع المدن بأيدي المسيحيين واحدة بعد الأخرى، حتى لم يبق إلا غرناطة التي انحصر فيها النشاط الأدبي وتکاثر الشعراء في بلاطها، وكان أشهرهم لسان الدين بن الخطيب. على أن هذا المعلم الأخير للعرب لم يليث أن استسلم للاسبانين في عام ١٤٩٢ هـ - (١٤٩٢ م).. فانتهت العربية وأدابها في الأندلس.

- ٤ -

وقد حافظ العرب في الأندلس على تقاليد الشعر العربي وأوزانه وقيود القافية فيه. ويقول البعض إن شعراء الأندلس تأثروا بطبيعة البلاد، فاختطف شعرهم عن شعراء المشرق من حيث الإلهام والصور، ويقول الآخرون : إن هذا التأثر قليل لم يمز فيه إلا نفر من الشعراء من أمثال ابن حزم. ولكن الأكثريّة الغالبة نسجت على غرار شعراء المشرق فلم تخرج على الشعر الاتياعي. وتأثرت على النظم في موضوعاته المختلفة

كالغزل والنسيب والمدح والرثاء والفخر. وقد كان عدد شعراء الأندلس كثيراً، وكان شعرهم طيباً ناضجاً يعبر عن الإسلام في ذلك العهد، ولكنهم على كثرة عددهم لم ينفع فيهم شاعر عبقري يعادل أبي الطيب المتنبي أو أبي العلاء المعري.

ولم يستطع الشعر العربي الاتباعي أن يخلق جوًّا خاصاً بالأندلس لأنَّه ظل خاضعاً لنقاليد الشعر في الشرق العربي « كما ظلت قرطبة محافظة على تقاليد دمشق وبغداد في الحكم والحياة العامة .. » أما ذلك الجوُّ الخاص الذي يتأثر بطبيعة البلاد الجديدة التي امتلكها العرب، فهو موجود في الموشحات والزجل. وهذا الفنان — فضلاً عن ميزتهما — يثيران مشاكل لغوية وأدبية عديدة.

وكان جديراً بعرب الأندلس أن يوقفوا إلى خلق أنماط من الشعر خاصة بهم، وقد وقفوا إلى ذلك في الموشحات التي كانت تنظم باللغة الفصحى، والأزجال التي كانت تنظم بالعامية، وهما بمثابة دم جديد يلقي به الشعر العربي؛ ويستمد منه حياة نابضة قوية لأنَّ فيما انفكاكاً من قيود القصيدة.

وتتألف القصيدة عادة، سواء الموشح منها أم الرجل « من بيت أو أكثر إلى ثلاثة أبيات في مستهلها تسمى « المركز » وتأتي بعدها المقاطعات من خمسة إلى ثمانية أبيات من الشعر تتألف من « الأغصان »، وهي ذات قافية أو قوافٍ مستقلة. وتنتهي بيت من الشعر يقال له « الس茗ط » توافق قافية قافية « المركز ». وكانت هذه الموشحات والأزجال، وخاصة الأزجال، تنظم للغناء، وكانت آلات الطرب تتألف من المزمار والقيثارة والصاجات. وكان المغني يفتح الغناء بالمركز ثم بالمقاطعه ثم يعيد المركز. ويشترك معه في غناء هذا الأخير جمهور من الحاضرين. وكانت قافية « الس茗ط » إيداناللجمهور بأن يشتراكوا مع المغني في إنشاد « المركز ».

أما الموشح الذي كان المستشرق الالماني « هارتمن » من توفر على دراسته في بحث ظهر له سنة ١٨٩٧، فقد استبطه مقدم بن معافر الفريزي. وكان أعمى. وسيرة مقدم هذا فكادت تكون مجهولة. فلم يصلنا من أخباره إلا النذر القليل. ولم يلمس الموشح أن ذاع وانتشر وتناوله كثيرون من الشعراء فنظموا فيه، ومن هؤلاء : ابن عبد ربه، صاحب « العقد الفريد ». وعيادة الفزار والأعمى الطليطلبي وابن شهيد. وابن بقى، وابن بكر الأبيض، وأبو بكر بن ياجة. وابن سهل. وابن الخطيب. وابن زمرك. وانتقل في أوائل عهده إلى الشرق، فكان من أوائل المبرزين فيه : ابن سناء الملك : ويعتبر الموشح وسطاً بين الشعر الاتباعي العربي — أي القصيدة — وبين الرجل. لأن الشاعر يتلزم فيه اللغة القصحي، أما الرجل فنظم بالعامية. وقد استحدثه أبو بكر بن قرمان. ولم يلمس الرجل أيضاً أن اشتهر وذاع فيسائر البلاد العربية حتى قال ابن سعيد : إن أزجال ابن قرمان رویت ببغداد أكثر مما رویت في حاضر المغرب وكان محب الدين بن عربي — وهو أندلسي ولد بأشبيلية وتوفي بدمشق حيث دفن فيها وقبره هناك معروف — أول من استخدم الرجل في نظم الأوراد والأناشيد الصوفية. وكذلك تجد في الشعر العربي في ذلك العهد نوعاً ينظم على طريقة الرجل العربي وأخذ غليوم التاسع « دوق أكتيانيا » الرجل ونظم على غراره باللغة البروفنسية.

ولا نعرف كثيراً عن سيرة ابن قرمان صاحب فن الرجل. ويجب أن نعتمد على ديوانه في ذلك. وهو لم يكن عربياً خالصاً بل من طبقة المولدين وله عم عرف باسمه، وكان مثله شاعراً. وكثيرون حلطوا بين الاثنين فقالوا إنه ولد في أوائل القرن الخامس الهجري فإذا صح ذلك كانت حياة ابن قرمان قد طالت مائة وأربعين سنة. أما الحقيقة فإنه ولد بعد معركة « الزلاقة » بقليل أي في نحو سنة ١٠٨٦ م ٤٨٠ هـ بمدينة قرطبة، وطاف بأشهر مدن الأندلس فزار أشبيلية وغرناطة واتصل

بأمرائها وتوفي في سنة ١١٥٩-٥٥٣هـ، وكان يعرف اللغتين العربية والرومانية. وقد نظم في صباح الشعر العربي على الطريقة الاتباعية، ثم لم يلبث أن صدف عنه إلى الرجل الذي استبطط طريقة نظمها، وقد أشار إلى ذلك ابن سعيد وابن خلدون وغيرهما، وقيل فيه أنه عمد إلى طريقة لا يمارسها فيها أحد من شعراء عصره.

أما ديوانه فوصلت منه إلينا نسخة واحدة كتبت بمدينة صفد بفلسطين في القرن الثامن الهجري، هي محفوظة بمكتبة لينتجراد. وقد توفر على نشرها في سنة ١٩٣٣ تشكيلي ضليع باللغة الرومانية يدعى «نيكل» ولكنه نقل الأزجال كما وجدها في النسخة الخطية، وهي رديمة الخط كثيرة الأخطاء، دون أن يعني بتصحيحها فجاءت فيها مقطوعات مبهمة غير واضحة المعاني. فابتدى لها المستشرق «كولان» فاصلح أخطاءها وقوم ألقاظها حتى وضحت معاناتها إلا فيما ندر، وبذلك سهلت دارسة الديوان من ناحية اللغة على الباحثين، وهو حفيون بأزجال ابن قرمان، حررها على تحيصها ودرسها، أما من حيث اللغة، أما من ناحية قيمة الديوان الشعرية فتظهر واضحة قوية من أشعاره نفسها، وقد تناول فيها ابن قرمان موضوعات كبيرة، وصور نفسه تارة حسن العاشرة يشرب الخمر ويغازل النساء، وطوراً آفاقاً قغيراً كغير الأسفار للتكتب وطلب الرزق. ويبلغ عدد قصائد الديوان ١٤٩ قصيدة تختلف في شكلها، أكثرها مننظم على طريقة الرجل المعروفة، أي أن المركز يدل على موضوع القصيدة، ثم يتناول الشاعر هذا الموضوع في المقطوعات التالية.

أما موضوعاته فمختلفة أيضاً. وللنا قصائد الديوان في المدح؛ جرى فيها الشاعر الرجال على طريقة الشعر العربي من حيث استهلالها بالغزل والنسيب، ثم ينتقل إلى المدح. فكان بين الذين أكثر من مدحهم ابن قرمان أبو القاسم أحمد بن حمدين، وأخوه حمد بن حمدين القاضيان بقرطبة. وله تعريف بالمرابطين الذين كانوا يحكمون الأندلس.

وله ثلاثون زجلاً في الغزل وعشرة في الخمر وربما مزج بين الخمر والسيب، فأطلقنا على أنماط من هزله ونرقة وإدمانه الخمر وبؤسه وفقره. ولكن هذا الشعر أقرب مثلاً، وأبرع تصويراً وأكثر دلالة على شخصية صاحبه من غيره من أزجال الديوان، وقد جرى ابن قرمان في خمرياته على طريقة أبي نواس، ولكنه طبع شعره بطابعه الشخصي القوي. وهكذا استطاع هذا الأديب المسلم أن يزيد في ثروة بلاده الفنية، وأن يستحدث فيها فناً جميلاً جديداً، لم يليث أن اجتاز حدود تلك البلاد إلى الغرب وانتشر فيها كلها. وقد أخذ شيوخ الصوفية وأهل الذكر ينظمون أورادهم وأناشيدهم أزجالاً يضمونها ألوان الوجد التي اشتهروا بها، وهي لا تقل جمالاً وروعة عن شعر التصوف الذي جرى به بعد ذلك لسان بعض القدسين بأوروبا وقد كان ابن عربي أول من نظم الأزجال الصوفية. ثم جرى مجرأه كثيرون نذكرون منهم الشستري.

ولما استحدث شعاء الأندلس الموشح والرجل في القرن الثالث الهجري كان ذلك تحفيفاً لبناء القصيدة الاتباعي وقيودها في الوزن والقافية. إذ خرجنوا به على قيود القافية الواحدة والوزن الواحد، وصاروا يتصرفون في الوزن والقافية معاً. والموشح لا يختلف في أساليب نظمه عن الرجل، إلا أن الشاعر في الأول يستخدم اللغة الفصحي، وفي الثانية ينظم بالعامية، أما في تأليف القصيدة فكلما الفنين يدرجان على نمط واحد من حيث «المرcker» و«الأغchan» و«السمط»، وقد وضع الرجل في أصله للغناء وقد أرادوا بنظمه وغنائه إخضاع الشعر للنغم.

وقد تأثر الإسبانيون بطريقة الموشحات العربية الأندلسية وبالرجل وذلك في القرن الثامن الهجري في حين لم يكُن يُعرَف فجر القرن السادس الهجري حتى أصبح منتشرًا بين شعراً « لانجدونوك » و « بروفانس » بفرنسا وقد عني « جوليان ريبيرا » الأسباني بدراسة هذا الموضوع ونشر في سنة ١٩١٢ بحثاً قال فيه : إن ظهور هذا النوع من نظم الشعر بفرنسا لم يكن ولد المصادقة، بل علينا أن نبحث عن أصله في الموشح وشعر الرجل العربي، من حيث الإلهام والوزن وتوزيع القافية، بعد أن انقضى العهد الذي كان الشعراء فيه ينسجون على متوال الشعر اليوناني اللاتي. ولا شك في أن الشعر طاف شواطئ البحر المتوسط حتى انتهى إلى أوروبا سالكاً طريقه من بلاد اليونان إلى أوروبا فاسپانيا، ومنها — بواسطة العرب — إلى فرنسا.

ومن مؤيدي رأي قيام الصلة بين الرجل العربي باسبانيا وشعر التروبيادور بفرنسا : « نيكل » و « تالجرين » و « روبيير بريفو » وقد نشر هذا الأخير كتاباً في هذا الموضوع ومن معارضيه المستشرق البرتغالي « رودريجيزلابا » الذي قال إن هذا النوع من نظم الشعر كان موجوداً باللغة الرومانية في شبه جزيرة إسبانيا قبل ابن قرمان، ولكنه لم يقدم دليلاً واضحاً على نظريته، وكذلك قال بعض المستشرقين الألمان^(١) والباحثة الفرنسي « جابرروا » الذي يدعى أن البراهين التي يقدمها مؤيدو الرأي ليست قاطمة للدلالة عليه، ويقول : إن شعر « التروبيادور » قد يكون في أوزانه وقوافيها مأخوذاً عن بعض الشعر اللاتي المستحدث.

(١) يذكر الألمان تلك الصلة بين الرجل وشعر « التروبيادور » لأنهم يدعون أن القوط أخذوا طريقة نظمهم للشعر عن قدماء الألمان وأنهم جاءوا بها من ألمانيا.

ولا يخفى « مينذر بيدال » عقيدته بأن طريقة نظم الرجل انتشرت في مقاطعة البروفانس وفي أوروبا منذ أخذها غليوم التاسع أمير أكيتانيا عن الأنجلسيين. ولكن يلاحظ أن شعراء التروبادور — في أول عهدهم بالنظم على هذه الطريقة — لم يعنوا بنظم « المركز » في مستهل القصيدة وهو اعتراض لا يعترض « مينذر بيدال » بأصله، لأن المركز وضع في الرجل العربي ليردده الجمهور مع المغني بعد انتهاءه من كل مقطوعة. وكان الجمهور كبير العدد باسبانيا؛ أما في مقاطعات فرنسا فقد كان الشاعر (التروبادور) يعني بشعره عادة في القصر أيام الأمير وزوجته وبعض بطاته من نساء ورجال، وهذا جمهور قليل العدد لا يمكنه ترديد المركز مع الشاعر بعد كل مقطوعة. على أنه لم يلث شعراء التروبادور أن استهلاوا قصائدهم بالمركز في القرنين السادس والسابع الهجري.

وإذا كان تجانس الأوزان في الرجل العربي وشعر التروبادور الفرنسي وتتنظيم القوافي على نمط واحد فيما لا يقiman الدليل القاطع في نظر البعض على صلة التجانس بينهما، فإن بعض المستشرقين يرى في الأدلة التاريخية والموضوعية شهادة حاسمة على ذلك.

أما من حيث الموضوع فإن شعراء الرجل العربي وشعراء التروبادور لم يكتفوا بنظم ذلك النوع من الغزل الرقيق الحاشية الذي كانوا يستهلهونه بما أسموه بالعربية « حب المروءة » ذلك الحب الذي أخذه شعراء البروفانس الفرنسيين عن إسبانيا الإسلامية، ووسط أصوله ومصيره ابن حزم في كتابه « طرق الحمام »، بل إن الفريقين تعديا هذا الحب المجرد إلى الحب الشهوانى، وقد خلق شعراء التروبادور حول المرأة نفس الجو الذي خلقه شعراء العرب، وأحاطوها بالأشخاص الذين أحاطها بهم هؤلاء الشعراء، فعندهم أسماء خاصة كالتي عندنا للدلالة على الرقيب والواشي والعندي والحسود. وعند شعراء العربية أن الطاعة من

شروط الهوى، ولهم في ذلك الشيء الكثير. وعند ابن حزم أن من أحب أطاع، وهذا ما نجده عند غليوم الناسع وزمرته من آنوا بعده، فهم يخاطبون المعشوة بقولهم : مولاي و (سيد) كما كان يفعل شعراء العرب؛ ويحيطون حذوهم في مخاطبة المرأة أو التحدث عنها في شعرهم بضمير المذكر، ويصفون مثلهم تاريخ الجوئ وألام الحب واللوعة.. ويرى بعض المستشرقين أن كلمة (تروبادور) — التي أطلقت على أولئك الشعراء؛ والتي لا يعرف مصدرها في الفرنسية — مأخوذة من الكلمة « الطرب » العربية لأنهم كانوا يغفرون بشعرهم فكيف نفسر كل هذا الذي أخذه شعراء التروبادور عن العرب، إلا أنهم اتصلوا بهم في إسبانيا في أثناء رحلاتهم إليها فسمعوا أزجالهم وحفظوها وتأثروا بها فنظموا على متواهها !؟.

وعلى أي حال فإن غليوم الناسع هو أول شعراء التروبادور وأول من قلد الأزجال العربية في الشعر البروفانسي؛ وكان يعرف العربية وكان غليوم هذا في عفوان الشباب عندما رحل إلى الأندلس سنة ١١٠١ م - ٩٤٤ ورحل إليها مرة أخرى عام ١١٢٠ م - ٩٣٥.

ومن أوائل شعراء « التروبادور » : الكونت « دي بواته » الفرنسي وكان معاصرًا لابن قرمان، وقد اشتراك في حملات كثيرة قام بها الفرنج ضد المسلمين في إسبانيا، وكان قبل اشتراكه في هذه الغزوات ينظم أشعاراً لا قائمة لها تختلف كل الاختلاف عن الأشعار التي نظمها على نسق الأزجال الأندلسية عقب اتصاله بالعرب في الغروب التي اشتراك فيها ضدهم. وشعراء « التروبادور » هم الذين وضعوا أساس الشعر الفرنسي وأدخلوا فيه تلك الألوان الغزلية التي نقلوها من زجل ابن قرمان وغيره ومن أشعار العرب في الأندلس. ويقول المؤرخ الانكليزي جورج كولان : « إن للأندلسيين مواضيع وأزجالاً هي أقرب إلى أن تكون أصل أغاني « التروبادور » التي انتشرت حتى عمت أوروبا ».

ويقول نيكلسون في كتابه « تاريخ آداب العرب » : « إن الشعر الأوربي كان قبل اتصال الأوربيين بالعرب شعراً ساذجاً لا قافية له، فلما اتصلوا بعرب الأندلس ظهرت فيه القافية، وسائر الأشعار الأوربية على العموم كانت حالية من القافية، حتى الشعر اليوناني الذي لم تمهد فيه القافية على الرغم من ازدهاره ورقه منذ القدم ». ويقول المستشرق ماكيل : « إن أوزان الشعر الشعبي القديم في إيطاليا — كما في أناشيد جاكوبوني وفي أغاني المراكع — لا تختلف عن أوزان الشعر العربي الأندلسي »، ويقول الكاتب الإيطالي كيتاني في كتابه « نصيبي الإسلام في تدريج المدنية » : « إن الذي كان لدى الشاعر الإيطالي من واسع الخيال وجمال التصوير في شعره ليس إلا أثراً لما كان في قرطبة وبغداد من أدب زاهر أيام كانت أوروبا تخبط في جهالتها ».

— ٦ —

وقد تأثر الشعراء في إسبانيا وفرنسا وجنوب إيطاليا بالشعر العربي في الأندلس تأثيراً كبيراً، وأثر الشعر الأندلسي في الشعر الغنائي، وكان له الفضل في ظهور المقطوعات الشعرية المقففة التي تحاكي الشعر العربي في أفكاره وأحاجيه، والطابع الذي اتسم به الشعر الفرنسي من وصف مناظر الطبيعة وتصوير جمال الحياة لا يختلف عن طابع الشعر الأندلسي مما يشهد أن الأوربيين نهلوا من معين الشعر الأندلسي. يقول لويس قارادو في كتابه « تاريخ العرب والبربر في إسبانيا » : كان الشعر الفرنسي على مثال الشعر الإسباني المأخوذ عن الشعر العربي لا عن اليوناني ولا عن الروماني، لأنهم لم يقفوا على هذا ولا ذاك قبل القرن الثامن الهجري حتى يقلدوه.. ولقد أخذنا صناعة الشعر والقوافي عن العرب، وهذه الصناعة جاءتنا من الأندلس عن طريق مرسيليا وطولون مع التجار الأسبان الذي كانوا يقصدون اليهـما ». ويقول ريرـا الذي

عن بدراسة التراث الإسلامي في أوروبا: إن الملاحم القشتالية احتوت ألقاطاً عربية كالغارة والدليل والقاضي والمفتر والطلائع وغيرها مما يثبت أثر الأدب الأندلسي وشعره في صميم هذه الملاحم. وجاء في خطبة للمسيو «لاجير» بمؤتمر المستشرقين في مرسيليا عام ١٨٧٦ : إن العرب تركوا في الأندرس أثراً لا يزالون يذكرون به إلى الآن في العلوم والأداب والفنون، ولقد أخذت عنهم فرنسا كثيراً من ذلك. وقال المؤرخ الأسباني «كوند» : إن من أدب أهل إسبانيا ما هو مأخوذ من أدب العرب متأثر به، ولا شك أن الإسبانيين مدربون للعرب بلغتهم وأدابهم، ويقول باحث^(١) : إن معظم ما جاء به دانتي الشاعر الإيطالي كان قد ألفه قبله محيي الدين العربي، وهذا الشيء لم يقف هنا بل هو شامل للصور والأمثال والاصطلاحات حتى الأساليب الفنية.

(١) ١٢٣ التصوف الإسلامي — الطيباوي.

الشعر الأندلسي بين التجديد والتقليد

يرغب بعض الكتاب أن الأدب الأندلسي أدب تقليدي محض، لم توح به عاطفة، ولم ينبع به إحساس؛ وإنما أهله عالة على المشارقة فيما يقولون وما يفعلون، فما هم بشيء إلا صدى لآثار المشرق وأدابه وأبواق تتجاوיב فيها تلك الأصوات المنبعثة من الشام أو العراق، فلا ملكة ولا وجдан، ولا مواهب ولا استقلال، وإنما هي مشاعر تهمج فغريب الحواس^(١).

ويقول أحد أساتذة الجامعة المصرية: «والحق أن تأثير الأدب العربي بالأقاليم كان ضئيلاً، بالرغم من اختلاف هذه الأقاليم وتبانيها في الخصائص الجغرافية والميزات الجنسية والعقلية والشعرية، لأن الأدباء كانوا يخرجون عن حياتهم في أقاليمهم إلى حياة عامة في الأدب العربي، يعيشون فيها على تقليد المثل الأبية التي خلفها العباسون، فالأديب حين كان يحاول أن يكتب أو ينظم يريد أن يكون مثل الأدباء العباسين، فهو يكتب ثرثراً كثراً كثراً ابن المقفع أو الجاحظ أو ابن العميد، وهو ينظم شعراً كشعر البحري أو أبي تمام أو ابن المعتر أو المتنبي...».

(١) من مقال للعقاد.

فقد جمد شعراء الأقاليم عند الأزياء الفنية القديمة التي نسجها البحري وأبو تمام والمتنبي وأبو العلاء... ولعل الأندرس هي أهم الأقاليم في تاريخ الشعر العربي، غير أن من يتعقب الحركة الأدبية هناك يلاحظ أن الشعراء عاشوا على تقليد المشرق في قوته ومناهجه الأدبية، فلم تؤسس الأندرس لنفسها نهضة مستقلة. إنما كانت تستمد من بغداد، ولو أنها بدأت حركة مستقلة عقلية لأمكن أن توجد الفوارق بينها وبين غيرها من الأقاليم، ولكنها غرقت إلى آذانها في الثقافة العربية العامة، التي نهضت بها بغداد، وأية ذلك أنها لم تقم بها حركة ترجمة كالتي قامت في العراق، وإن الإنسان ليخل إله أن الأندرس كانت تقلد المشرق في جميع نواحي الحياة... ونحن إذا رجعنا إلى نماذج الشعر نفسها وجدنا كثيراً منها يصاغ على أنماط مشرقية خالصة، لا تقتصر على المشابهة في الوزن والروي، بل في كثير من المعاني والأساليب، وكانت القصيدة كلها ليست إلا تلقيقاً للمسودات الفنية التي تركها الجاسيون... ولذلك لم يستطع الشعراء أن يتحولوا بالشعر إلى وجهات جديدة، فلم تحدث فيه مناهج أو مذاهب غير تلك المناهج والمذاهب العباسية..^(١).

— ٩ —

كانت الترجمة عملاً أساسياً في الحياة العقلية بالمشرق، فقد نقلت ثقافات الأمم المختلفة التي امتنج العرب بها كل الامتناج. وأخذوا عنها من الحياة المادية والحياة العقلية ما صبغهم بصبغة جديدة في مظاهر حياتهم العامة، من الحضارة والترف والنظم السياسية في الإدارة والحكم، والعادات والتقاليد، وما جدد من ثقافتهم وتفكيرهم وأرائهم

(١) الفن ومناهجه في الشعر للدكتور شوقي ضيف.

تجديداً واضحاً كان أثره أوسع مدى في الشعر والأدب، فقد صبفت عقلية الفنانين من الأدباء والشعراء بأصياغ جديدة من العمق والدقة والتحليل وطراوة التفسيم والبعد في التفكير والخيال، حتى أصبحنا بإزاء صفات عقلية جديدة متأثرة بالفلسفة والمنطق وعلوم النجيم والرياضية والحكم ونحوها من ثقافات اليونان والهند والفرس.

وقد تجلت مظاهر هذا كله واضحة جلية في الشعر، ظهرت في جوانبه الحسية، وطرق صياغته، وظهرت كذلك في صياغته الذهنية من تناول الأفكار وتحليلها، وما يحدث فيها من طراوة، وما يشيع من عمق ودقة.

وكانت البيئة إلى هذا ميداناً طليقاً يجيش بالتحول المختلفة والفرق والمذاهب الدينية المتعددة. فكانت هذه إكلها عوامل أحدثت هذا التغيير في الطابع المادي والعقلي للفن العربي، وكان الشعر العربي (وهو صورة الحياة) خليقاً بأن يمثلها وأن يتأثر بها.

أما في الأندلس فقد كانت هناك عناصر فينية ورومانية وقوطية، ولكن هذه العناصر لم تكن أصحاب تراث علمي أو أدبي حتى يتأثر به العرب، ولو كان لهم شيء من ذلك لما استطاعوا أن يفرضوه على العزة العربية التي احتفظت بكينها في هذا الإقليم، باعتبارها السلطة المحاكمة القاهرة، فلم يكن لهذه العناصر إذن أثر من ناحية الثقافة أو الأدب في الشعر العربي.

وكذلك كانت هذه البيئة بيئة محافظة واعتاز، تنتز بكل ما هو عربي، وتحفظ في عقيدتها وتفكيرها من فنون الفلسفة، وأهواء التحلل والعقائد المختلفة، فلم تخرج عن هنا التحفظ إلا شذوذ، أو حين انحلت رابطها العربية، وحلت الفوضى، وأصبح ما كان محظياً.

بيد أن الأدب الأندلسي في جملته، أو الأدب الذي تعدد به وهو

ما يصور بيته، ويصدق في تصويرها، لم يتناول شيئاً من تلك المذاهب أو المعتقدات أو الفلسفات التي كانت تأبى الأندلس وتنفر منها.

كانت طبيعة الأندلس في جمالها، وحضارتها في عظمتها، خلقتان بأن تلهمان الشعراء الوصف، فوصنفوا وأبدعوا، وكانت البيئة في عروبتها وتحفظها مؤثرة فممن تنشئهم من الشعراء، فكانوا مثلاً صادقاً لها. فكيف نطلب منهم إذن أن يصورو ما لم يحسوا به، وما لم يعتفقوه؟ وكيف نلزمهم أن يكتدو على بيتهم، فتحذثروا عن المذاهب والتخل والمنطق والفلسفة، وعن مظاهر حياة الفرس والروم والهنود.

إن الشعر تعبير جميل عن الشعور الصادق، وقد عبر الشعراء الأندلسية بأجمل تعبير عما يحسونه وما يشعرون به، ولو طلبناهم بأكثر من هذا لخرجوا «عن حياتهم في إقليمهم إلى حياة عامة في الأدب العربي يعيشون فيها على التقليد والمحاكاة» فما هذه المذاهب التي قصرروا فيها أو التي تقتصهم؟ إن حمل الشاعر على أن يقول غير ما يفيض به شعوره حمل له على أن يحطم «قيثارة» الشعر، وأن يقول كلاماً لا تفيض به عنده عاطفة. ولا ينبع له به قلب.

— ٤ —

مدى التقليد :

لا شك أن الدولة العربية بالأندلس كانت مناهضة لمعتقداتها بالشرق فكان من الطبيعي أن ينافسوا في حياتهم السياسية الحياة السياسية في بغداد. وكان من الطبيعي كذلك أن تستلزم هذه المنافسة السياسية المنافسة في مظاهر الحياة العامة، فهم يطلقون على كثير من بلدانهم أسماء مشرقية، كما أنهم يحملون بالغناء والموسيقى على نحو ما كان في بلاط الرشيد والمأمون، ويتأثرون في حياتهم العقلية والأدبية بالشرق،

ولعل هذا كما يقول الراافي « لأن الأدب العراقي متذبذب بمنطقة اللغة لقربه من الباشية ولاستفحال الرواية هناك ولكونه أصلًا ».^(١)
ولست نذكر أن كثيراً من الكتب الأدبية عند الأندلسيين قد صيغت على شكل الكتب الأدبية عند المغاربة.

هذا هو مدى التقليد عند الأندلسيين : منافسة في الملك والسياسة تبعتها المنافسة في مظاهر هذا الملك وما يستلزمها من الحياة العلمية والأدبية، وهذا ما عنده ابن سام حين يقول : « إلا أن أهل هذا الأفق أبووا إلا متابعة أهل المشرق، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة رجوع الحديث إلى قادة؛ حتى لو نزع بذلك الآفاق غراب، أو طُن بأقصى الشام أو العراق ذباب، لجهوا على هذا صنماء، وتلوا ذلك كتاباً محكماً »^(٢). أما الشعر فإنه لم يقصده كما زعم الراغبون، فهو يقول قبل هذه الفقرة في وصف أهل أفقه « لعبوا بأطراف الكلام المشقق لعب الدجي بمحفون المؤرق، وحدوا بفنون السحر المتنمّ حداء الأعشى ببنات المسلح، نثر لو رأه البديع لنسي اسمه، ونظم لو سمعه كثير ما نسب ولا مدح، أو تبعه جرول ما عوى ولا نبع » . ويقول بعد ذلك : « إنهم رعوس شعر وكابية، تدققوا فأنسوا البحرور، وأشرقوا فباروا الشموس والبدور »^(٣).

فنن زعم أن شعر الأندلسيين — ككل مظاهر حياتهم — ينبع في سواد التقليد، ويدخل في شعر الأقاليم الأخرى، بحيث يشبه النسج، وتتشتم الدبياجة، فهو لا يعرف الشعر إلا بأوزانه، ولا يميز غير ظاهره، فإن للشعر نوع خاص دون سائر العلوم والمعارف « روحًا كروحة

(١) تاريخ الأدب العربي للراافي جـ ٣ - ٢٦٢.

(٢) الذخيرة جـ ١ - ٢.

(٣) الذخيرة جـ ٢ - ٣.

الإنسان تستوي مع الجنس كله في جملة الأخلاق، وتختلف في مفرداتها، حتى لقد يجد الليب الحاذق من التفاوت بين أنواع الأشعار، إذا هو استقرأها، وتنصص تواريخ أصحابها، ما يصح أن يخرج منه علم يسمى علم الفراسة الشعرية^(١).

الشعر ملكة طبيعية لا تتأتى بالمحاكاة، وموهبة من المawahب التي لا يختص الله بها جيلاً دون جيل، ولا إقليماً دون إقليم، فحيث جرت مع الدم في جسم صاحبها، ونبض بها حسها، وفتحت لها نفسه، انطلق كالطائير الفرد، يصدر عنه الشعر دون تكلف، كما لا بد لابن الدوح أن يترنم.

ثم إن معظم الشعراء الاندلسيين عرب جرى الشعر في دمائهم، وهاجر منهم إلى هذه الجزيرة، وأية بيئة أصلح للتغريد من الأندرس؟ وأي روض يبعث على الشعر أجمل من رياض الأندرس؟ لقد كانت آفاقها العاطرة؛ ومقانها الزاهرة، وحضارتها الساحرة، جمالاً يهز المشاعر، ويوقظ العواطف، ويبني غافي الحسن، ويهرك خواطر النفس — وكانت (الظروف) التي تحيط بالشاعر ككل (الظروف) التي تحيط بهم في كل أرض وكل إقليم، فلو أنهم عاشوا في عزلة تامة عن المشارقة، فهل تستطيع أن تحررهم عاطفة الحب مثلاً وهي عاطفة يوحى بها الطبع، وتدعوا إليها حرارة الشباب، فلا يكون الغزل غرضاً من أغراضهم؟ أو هل تستطيع أن تغفل إحساسهم بظاهر الجمال التي يشعرون بها في هذا الأفق؟ هل تمنعهم من المدح وهو أمر تقتضيه الحياة؛ وتدعو إليه صلة الشعراء بالملوك؟ وهل تكذب شاعراً كابن زيدون مثلاً في إحساسه بالحب، أو شعوره بألم السجن، وتقول إنه مقلد لأن في المشارقة من أحب فغير عن الحب، ومن سجن فصور ظلمة السجن؟.

(١) تاريخ الأدب العربي للرافعي جـ ٣ ٣١١.

الحق أن الشعر من حيث هو شعور النفس، وأغنية الحس، موهبة طلقة، لا يحدها زمان ولا مكان، ومن أولى من الأندلسين به ويتهم هي في نفسها معانٍ للشعر وينبئ عنه؟.

يقول ياقوت في الحديث عن مدينة (شلب) : وسمعت من لا أحصى أنه قل أن ترى من أهلها من لا يقول الشعر، ولا يعاني الأدب، ولو مررت بالفلاح خلف فدائه وسألته عن الشعر قرض من ساعته ما اقتربت عليه، وأي معنى طلت منه^(١)، فهل كان ذلك الفلاح متأثراً في هذا بالمشاركة أم هو الإحساس الطبيعي في نفسه، والداعف الغريزي في دمه؟.

يقول سائل يوöl : « وبظاهر أن العالم الإسلامي اتجه بروحياته إلى آلهة الفتن، فمن الخليفة في عرشه إلى التوتي في سفيته. كنت تسمع النظم الفاتحة في مشاهد الأندلس، وجمال مدنها، ثم في روعة خرير الأنهر وسحر الليل الساجي وقد هدأت فيه النجوم؛ ثم في نشوة الحب والآخر ومجتمع الآنس، وقد اختلس المحب ساعة لقاء بفاتنه التي ترمي بقوس حاجتها القلوب »^(٢).

يقول المعتمد بن عباد في محنته المقمعة، وقد كتب للوزير أبي العلاء زهر ليعالج زوجته، فكتب له الوزير بالإجابة، ودعا له بطول البقاء :

دعاك لي بالبقاء وكيف يهوى	أسيـر أن يطـول بـه الـبقاء
أليس الموت أرـوح من حـياة	يـطـول عـلـى الشـقـى بـهـا الشـقـاء
آرـغـب أـن أـعـيش أـرـى بـنـاتـي	عـوارـي قد أـضـرـ بـهـا الـحـمـاء
خـوـادـم بـنـتـ من قـدـ كـانـ أـعـلـى	مـرـابـيـهـ إـذـا يـسـدوـ الـسـاءـ
وـلـكـنـ الدـعـاءـ إـذـا دـعـاهـ	ضـمـيرـ مـخلـصـ نـفعـ الدـعـاءـ

(١) الحلول السنديّة لشكيب أرسلان حد ١ ص ٢٢١.

(٢) قصة العرب في إسبانيا ترجمة الحارم.

ما أمر الذلة بعد العز، وما أقسى الشقاء بعد النعيم، لقد عرف المعتمد كيف يصدع القلوب بآياته الكسيرة، وكيف أن الألم يفجر بناء النفس بالكلام، وهناك منظراً آخر أشد ألماً ولوعدة.. دخل عليه وهو في تلك الحال ولده أبو هاشم والقيود قد عضت بساقيه عض الأسود، وهو لا يطيق إعمال قدم، ولا يربق دمعاً إلا مزوجاً

بدم فلما رأه بكى وقال :

قيدي أما تعلمني مسلماً أبكيت أن تشدق أو ترحا
دمي شراب لك واللحم قد أكلته لا تهشم الأعظم
يصرني فيك أبو هاشم فيتشي القلب قد هشما
ارحم طفلاً طائشاً له لم يخش أن يأتيك مسترحماً
وارحم أخيات له مثله جرعنهم السم والعلكما

أليست هذه نفس شاعر عرف كيف يعبر عما يجول في نفسه من المعانى، ويصف آلامه وأحزانه بلا تكلف أو تعلم؟ وهل كان يقلد في هذا الأحسان، أو يكذب في هذا الشعور؟ لقد برح به الألم فانقطعه هذا الشعر وأذله القيد، فسكب تلك الدموع، ونحن في هذا المقام إنما ندلل فقط على صدق الأحسان وصحة الشعور، وقد تم لنا هذا في شعر المعتمد، بقطع النظر عن (بساطة) التعبير ولبن الأداء.

- ٣ -

القوافي والأوزان :

وعجب أمر هؤلاء الواهمين، حين يتعلقون بالقصور، ويستندون إلى المظاهر. وأعجب العجب أن يتحكموا في القوافي والأوزان، فيحاولون أن يقصروها على فريق من الشعراء دون فريق، ولو كان الأمر أحرهم لوقف الشعر العربي عند العصر الجاهلي، لأن الشعراء الجاهليين قد

استندوا الأوزان والقوافي فلا يصح لشاعر أن ينظم بعدهم.
فهم يقولون إن كثيراً من قصائد الأندلسين قد صيغ على نمط
القصائد المشرقية.

ويقصدون بالضبط التقليد في كل شيء في القصيدة تبعاً للتقليد في
الوزن والروي، حتى لو كان الغرض مختلفاً، والمعانى متباعدة، فهم
يكفون بالنظر العجلى التي تقع على نوع البحر والروي، ليحكموا
على كل عناصر القصيدة بالتقليد.

ولو أتنا قبلنا دواوين الشعراء منذ وجد الشعر لوجدنا الكثير من
هذه المشاهدات في الوزن والروي، إما عن غير قصد تكون عفواً ومن حق
الشاعر، أو عن قصد تكون معارضة ومناسبة يعتد بها الشاعر ويضمر،
لا محاكاة أو تقليداً.

والحق أن الشعر لا يقياس بالوزن ولا بالروي. فإن البحور والقوافي
ملك الشعراء جميعاً، وإنما الشأن للصياغة والمعنى والشعور.

ولو كان الأندلسيون جامدين على التقليد، واقفين عند حدوده، لما
أحدثوا هذا الحدث الجديد في الأوزان الشعرية؛ فقد عاشت الأندلس
في ترف أحدث عندها اهتماماً بشعر الطبيعة، كما أحدث عندها نهضة
واسعة في الغناء، نشأت مع رحيل زرباب وغيره من أمثال فضل وعلم
وكلم، وقمر والمجفاء^(١). فشاع الغناء وشاعت الموسيقى؛ وكثُر المفنون
والمعنفات، فأحدث ذلك في الشعر تلك الموشحات والأزجال، لأن
أوزانها أحلل باللحين من الأوزان المعروفة، وبذلك استطاعوا أن يجذبوا
مع بيتهم، وما كان فيها من ترف ولذة ونعم، فقد كان منهم من
ينظم ويلحن ويغني كأبي الصلت أبيه بن عبد العزيز الأشبيلي المتوفى

سنة ٥٢٣هـ، وهو الذي لحن الأغاني الأفريقية^(١)، وكالفيلسوف أبي بكر بن باجه الغرناطي صاحب كتاب الموسيقى وغيرها. وهكذا كانت عنایتهم بالألحان واحتراز الأوزان المناسبة لها، بما أتته من لطف ذوق، ورهافة حس، وهذه الألحان هي التي جعلت شعرهم — كما يقول الراافي — كأنه نفوس تنظر أو تسيل.

— ٤ —

المعاني :

ويعودون إلى المعاني فعيرون الأنجلوسيين في تناولهم معاني السابقين من الشعراء، ونحن نعلم أن أمراً القيس كان يكتب كما يكتي ابن خدام، وأن زهيرأً كان يرى أن الشعراء لا يقولون إلا المعارض، وأن عترة كان يعترض بأن الشعراء لم يقدروا من متقدم، وإنذا تداول المعاني بين الشعراء أمر ليس بالجديد ولا بالغريب. وقد نشأ عن هذا التداول ذلك البحث الواسع الذي نجده في كتب النقد العربي، ونجد النقاد يحسنون بأن هذا الجانب ضروري في الشعر، حتى إن صاحب الصناعتين يقول : «ليس لأحد من أصحاب الفائلين غنى عن تداول المعاني من تقدمهم، والصب على قولهما»^(٢) . ويقول الجاحظ، «نظرنا في الشعر القديم والحديث فوجدنا المعاني تقلب ويؤخذ بعضها من بعض»^(٣) . ولا يعلم في الأرض شاعر متقدم في تشبيه مصيبة، أو معنى غريب، إلا وكل من جاء من الشعراء من بعده إن هو لم يقدر على لفظه فسرقة أو يدعيه، فإنه لا بد أن يستعين بالمعنى^(٤).

(١) الفتح ج ١-٢٧٢.

(٢) ص ١٨٣.

(٣) الحيوان ج ٣-٩٦.

وعلى هنا تداول الشعاء المعانى من قديم الزمان.

ولست أطيل في هذا النوع من التداول الذى لا يحدث جديداً فى المعنى أو تحويراً فيه، وإنما أريد أن أغرض لنوع آخر مهما اتسم به بعض الشعراء، فإنه كان السمة العامة للمعنى الأندلسية، ذلك هو عرض المعنى في ثوب جديد، والتألق في رسه وتلويته، حتى إنك لتشى أصله وتحسبه معنى جديداً، وإحساساً طريفاً. فهم يأخذونه بالتحوير أو النقص أو الزيادة أو الشرح، حتى تحس بشخصيتهم فيه واضحة جلية، وتتعرف لهم بالتجدد في هذا التصرف وماذا نطلب منهم غير ذلك؟

يقول أمرق القيس :

سموت إليها بعد أن نام أهلها سمو حباب الماء حالاً على حال
فيقصر عنده ابن أبي ربيعة، ولا يسمى هذا السمو حيث يقول :
ونغصت عنى النوم أقبلت مشية الـ حباب وركبى خيفة القوم أزور

وأنشد بعضهم لأبي دهيل الجحمي :
قالت لقد أعيتنا حجة فات إذا ما هجع السامر
واسقط علينا سقوط الندى ليلة لا ناه ولا زاجر.

ومع أن قوله (كسقوط الندى) في غاية الجمال، إلا أن الندى مع لطفه وصفاته ورقته قد يوقظ السامر الهاجع، كما أزعجه (حباب) ابن أبي ربيعة فانظر إلى ابن شهيد الأندلسى كيف يخلط في التوصيل، فيدب دبيب الكرى الذي لا يحسن ويسمى سمو النفس الذي لا يرى :
ولما تملأ من سكره ونام ونامت عيون العرس
دنوت إليه على بعده دنو رفيق درى ما التمس
أدب إليه دبيب الكرى وأسموا إليه سمو النفس

ويقول أبو نواس :

عرضن للذى تحب بحب ثم دعه يروضه إيليس
فبوجه ابن حزم هذا المعنى توجهاً حسناً في طريق الخير، شارحاً
ومعللاً :

أبن قول وجه الحق في نفس سامع ودعه فنور الحق يسري ويشرق
سيؤنسه رفقاً فنيسى نقاره كما نسي القيد الموثق مطلق

ويقول أبو العلاء في ذكر السيف :
ودبت فوق حمر العنابيا ولكن بعدما مسحت نملاً

فيقله ابن وهبون الأندلسي إلى وصف العذار حيث يقول :
ومعذرين كأنما يخدوهم طرق العيون ومنهج الأرواح
وكأنما صقلوا الجمال وأظهروا مشي النمال على متون صفات

ويقول ابن الرومي :
تأمل العين منها محاسناً ليس تنخد

فلا يفيد أن العين أدامت النظر حتى تتحقق من عدم نفاد المحاسن.

ويقول أبو نواس :
يزيدك وجهه حسناً إذا ما زدته نظراً

فلا تفهمنا (إذا) تكرار النظر والتغرن فيه لإدراك المحاسن المتتجدة.
وكلا البيتين يفيد أن المحاسن على كثرتها لا تستعصي على النظر؛
ولا يصعب عليه استيقاؤها وللاحتقها. ولكن ابن زيدون يدق في هذا
المعنى، حتى يربينا الحسن ألواناً وأفانين تقصّر عنها ألوان النظر وأفانيه
فلا يلاحقها خطوة خطوة كما في بيت أبي نواس، بل يكل فيقف
في الطريق :

حسن أفانين لم تستوف أعيناً غاياته بأفانين من النظر
ولم يفت الأندلسيين أنفسهم أن يتلاعب بعضهم بمعانٍ بعض، كما

قال ابن وهيون في أمرد التحي :
دعوت دعاء مظلوم عليه وكان الله مستمعاً مجيناً
فطريقه الرمان بما جناه وعلق في عذاريه الذنوب

قال أبو بكر الداني :
وليس ذاك العذار شمراً لكنما سره عجيب
لما أرق الدماء ظلماً بدت على خده الذنوب

وهكذا كان حسن التعليل والفن والإبداع فيه والإكثار منه سمة
من سماتهم، وباباً من أبواب تجديدهم في المعانى وافتانهم في
التشبيهات، وإمعانهم في الخيال. قال ابن سارة الشتربي :
لم يكس عارضه السواد وإنما ثارت عليه سوادها الأحذاق

وقال ابن حمديس بصف نهراً :
جريح بأطراف الحصى كلما جرى عليه شكاً أوجاعه بخريسه
وكثيراً ما يمدون إلى التشبيه العادى المكرور، فيضفون عليه أزياء
جديدة تريحه جديداً طريفاً.

على أن طبيعتهم الجميلة أبت عليهم حين وصفوها أن تلبس ما
خلفه الشراء من قديم المعانى، منها أبدعوا في تحطيمها وتتجديدها،
فالهمتهم من حسنهما البكر معانى عذراء، يقول ابن عمار :
روض كأن النهر فيه معصم صاف أطل على رداء أحضرها

ويقول ابن خفاجة في مثل هذا النهر :
متعطف مثل السوار كأنه والزهر يكتفه مجر سماء
وغدت تحف به الفصون كأنها مهدّب تحف بمقلة زرقاء

ويقول أبو بكر الداني في (ميرقه) :
بلد أغارته الحمامات طوفها وكفاء حلة رئيسه الطاووس
فكأنما الأنهر فيه مدامه وكان ساحات الديار كثؤوس

وقال الأعمى التطلي يصف أسدًا يموج ماء في فمه :
أسد ولو أني أنا قشة الحساب لقلب صخرة
وكانه أسد الماء يموج من فيه العجرة

ويقول ابن خفاجة في وصف نهر :

وأدهم من جياد الماء نهر يساعر جله ريح رحاء
إذا بدت الكواكب فيه غرقىرأيت الماء تحسده السماء
ومن مظاهر التحرر لشعر الطبيعة في الأندلس ما رأيت من الفتنة
بالبحر والتفنن في أوصاف المياه، كما أن النزعة القصصية التي امتازت
بها الأندلس في الأدب تظهر بوضوح في شعر الطبيعة، ومن ذلك
صورة السفرجلة في شعر جعفر بن محمد المصطفى، وهذه الصورة
عبارة عن تاريخ حياة السفرجلة، منذ كانت تخال على شجرتها بألوانها
وريحها وروحها إلى أن ذلت في كف الشاعر. يقول :

ومصنفة تخال في ثوب نرجس وتعيق عن مسك ذكي التنفس
لها ريح محبوب وقوة قلبها ولون محب حلة السقم مكتسي
فلما استمت في القضيب شبابها وحاكت لها الأوراق آتوناب سندس
مددت يدي باللطف أثني اجتناعها لأجعلها ريحاتي وسط مجلسي
فيزرت يدي غصباً لها ثوب جسمها وأغرتتها باللطف من كل ملبس
فاذبلتها في الكف حر التنفس ذكرت بها من لا أبوح بذلكه

- - -

وأخيراً نستطيع أن نقول إن للأندلسيين شخصية واضحة في شعرهم،
استمدوها من بيتهم، وتجاوبيها فيها مع طبيعة بلادهم، التي كانت مصدر
إلهامهم، وأفق خيالهم، فقد صفت أذهانهم، وسما وجذانهم، وعذب
بيانهم، فهذبوا الشعر وتألقوا في الفاظه، وتصرفوا في معانيه، وتنوعوا

في قوافي، وتفتوا في خياله، ودبجوه تدبيج الزهر، وسلسلوه سلسلة النهر، وأكثروا من نظمه في البحور الخفيفة القصيرة.
وليس بعيدهم تناول المعاني القديمة في شعرهم، فقد لونوها تلويناً
بصور بيتهم، وأبرزوا بالتجدد فيها شخصيتهم، وليس الفن في الإبداع
والاختراع بقدر ما هو في حسن التأليف ودقة الانسجام، وإنما يمتاز
الشاعر على الشاعر، إذا اشتراكاً في معنى، بما يدعه أحدهما من الألوان،
وما يوفق إليه من التعبير عن ظلال المعاني ودقائقها.

ولقد شهد المستشرق الإنجليزي (نيكلسون) للشعر الأندلسي وما
فيه من وجdan رقيق، وتلوين للإحساس يجعله جديداً حيث يقول :
« ولعل أمنع ميرات الشعر الأسباني هي ذلك الوجدان العاطفي الرقيق
الذي يندر وجود مثله في السيب، والذي ظهر كثيراً في أغانيهم عن
الحب، وهو وجدان لا يقتصر على تصوير فروسيّة القرون الوسطى،
بل ينطوي ذلك إلى حد أن تحسبه جديداً بمحاسن الطبيعة التي
جملته »^(١).

والحق أن الشعر الأندلسي كما يقول الراهن « يمتاز بتجسيم الخيال
التحفيف، وإياحاته بالمعاني المبتكرة التي توحى بها الحضارة، والتصريف
في أرق فنون القول، واختيار الألفاظ التي تكون مادة لتصوير الطبيعة،
وإياداعها في جمل وعبارات تخرج بطبيعتها كأنها التوقع الموسيقي،
بل هي تحمل على التلحين، بما فيها من الرقة والرنين، ولا يشاركونهم
في ذلك إلا من ينزع مزتعهم ويتكلّف أسلوبهم، لأن جرالة النفط
في شعرهم إنما هي روعة مواقعة، وحلوة ارتبطه بسائر أجزاء الجملة،

(١) نظرات في تاريخ الأدب الأندلسي ص ٣٤٠ وقد توفي المستشرق المذكور في نهاية هذه الحرب العالمية وكان حجّة في تاريخ التصوف الإسلامي وكتابه في تاريخ الأدب العربي مشهور.

وتلك فلسفة الجزالة ومن أجل ذلك أحكموا التشيه، وبرعوا في الوصف، لأنهما عصران لازمان في تركيب هذه الفلسفة الروحية التي هي الشعر الطبيعي^(١).

بحسب الشعراء الأندلسيين أنهم عبروا عن عواطفهم، وترجموا عن مشاعرهم، وتفنوا بالطبيعة، وشدوا بالحب، وكل ذلك في حلاوة لفظ وطريف معنى، ورقة أسلوب، ودقة صنعة.. وبحسب الأدب العربي ما كان لهم من الفضل في إدانة الأدب الغربي له، واستمداده منه، وتتأثره به، حتى قال قائلهم : « كانت أشعار شعراء جنوب فرتيسا خلؤا من القافية، فاقبسوها من عرب الأندلس، بطبيعة الجوار والخلالط، كما اقبسوا في النظم أنواع الغزل والمدح والهجاء »^(٢).

وقال لويس فياردو : « كان الشعر الفرنسي على مثال الشعر الأسباني المأخوذ عن الشعر العربي لا عن اليوناني ولا عن الروماني، ولقد أخذنا صناعة الشعر والقوافي عن العرب »^(٣).

ويقول استانلي بول : « أما الأدب العربي فإن أوروبا لم تر في عهد من عهودها حفاوة بالأدب وأهله كما رأت في الأندلس، حين كان الناس من كل طبقة ينظمون الشعر، ويظن أن هذا الشعر هو الذي أوحى للشعراء المغنين بأسبانيا بآناشيدهم القصصية وأغانيهم، وهو الذي حاكاه شعراء (بروفاتس وإيطاليا) »^(٤).

والمسو كور ناشر ديوان ابن زيدون وجارثيا جوميز مترجم قصائده إلى الشعر الأسباني بريان « أن ابن زيدون وأترابه الأصل البعيد لشعر

(١) تاريخ الأدب للرافعي ج ٣ ٣١٠-٣.

(٢) تاريخ الأدب للزيارات ص ٣١٠.

(٣) ترجمة الزيارات في كتابه المذكور ص ٣١٠.

(٤) قصة العرب في أسبانيا ص ١٣٣.

مؤلاء المغنين الجوالين (التروبادور) لأن فيها وقاراً وتساماً يقربانها من الحب المحشش الذي يشيع في الأشعار التي ذاعت في جنوب أوروبا منذ القرن الثاني عشر^(٣).

(١) مجلة الثقافة يناير سنة ١٩٤٦.

الفصل الثاني

صور من الشعر الأندلسي

١ — قال ابن زيدون متغراً في ولادة بنت المستكفي :
إني ذكرتكم بالزهراء مثناقاً
والافق طلق وجه الأرض قد راقاً^(١)
كأنما رق لي فاعتل إشقاقاً^(٢)
والروض عن مائه الفضي مبتسماً
كما حللت عن البات أطواقاً^(٣)
بتنا لها — حين نام الدهر — سراقاً
جال الندى فيه حتى مال اعتقاداً
بكثت لما بي فجال الدمع رغرقاً
فازداد منه الضحى في العين إشراقاً
وسنان نبه منه الصبح إشراقاً
إليك لم يعد عنها الصدر أن ضاقاً
لukan من أكرم الأيام أخلاقها
فلم يطر بجناح الشوق خفافاً
سرى ينافحه نيلوفر عبق
كل يميج لنا ذكرى تشوقنا
لو كان وفي المنى في جمعنا بكم
لا أسكن الله قلياً عقْ ذكركم

(١) طلق الوجه : ضاحكه مشرقة، واليوم الطلق الوجه : هو الذي ليس بحار ولا بارد.

(٢) اعتل النسم : هذا ولم يشتد، والأصالل : جمع أصيل وهو الوقت قرب الغروب.

(٣) الباٰ : موضع القلادة من العنق.

وافاكم بفتى أضناه ما لاقا
ميدان أنس جربنا فيه اطلاقا
سلوتهم وبقينا نحن عشاقا

لو شاء حملني نسم الريح حين هنا
كان التجاري بمحض الود من زمن
فالآن أحمد ما كا لهدكم

٢ — وقال أبو زيد عبد الرحمن بن مقاتلة الأشبواني يمدح إدريس:
ابن يحيى أمير غرناطة بعد سنة ٤٣٤ هـ وكان إدريس من ملوك الطوائف:
ذرفت عيناك بالدموع المعين؟
كمخاريق بأيدي اللاعيبين
ولقلبي زفرات وأنيين
ويك لا أسمع قول العاذلين
إن هذين لدين العاشقين
فاسقينها قبل تكير الأذين
لبثت في دتها بضع سين
يهدادين رياحين العجون
نور الورد به والياسمين
سبج الشعر على عاج الجبين
بأباريق وكأس من معين
فاثنت عنها عيون الناظرين
سي بن حمود أمير المؤمنين
خاشع لله رب العالمين
ادخلوهها سلام آمنين
حافت بين جناحي جرائين
صدع الشك بمصباح اليقين
وينهاد لواء السابعين
لأيكم كان وفدى المعتقدين
في الدجى فوقهم الروح الأمين

خلقوا من ماء عدل وتقى
وجميع الناس من ماء وطين
انظرونا نقيس من نوركم
إله من نور رب العالمين

٣ — وقال الداخل من أبيات بعث بها إلى أخيه بالشام :
أيها الراكب اليمم أرضي
أقر من بعضى السلام لبعضى
إن جسمى كما علمت بأرض وفؤادي وساكته بأرض
قدر اليمن يبتنا فافتقتا
وطوى اليمن عن جفونى غمضى
قد قضى الله بالفرقان علينا
نفسى باجتمعنا سوف يقضى !

٤ — وقال عبد الرحمن الداخل يخاطب نخلة :
يا نخل ! أنت فريدة مثلى
في الأرض، نائية عن الأهل
تحكى، وهل تحكى مكحنة
عجماء، لم تجل على جلي !
ماء القرات ومنبت النخل
بغضى بني العباس عن أهلي
ولو أنها عقلت، إذن ليكت
لكرها حرمت، وأخرجتى

٥ — وقال كذلك :

تبدت لنا وسط الرصافة نخلة
فقلت : « شبيهي في التغرب والنوى
نشأت بأرض أنت فيها غريبة
ستقتل غواصي المزن في المتنائي الذي

يسبح ويستمرى السماكين بالوبيل

٦ — وقال الداخل أيضاً :
لا يلف متنن علينا، قائل :
سعدى، وحرمى، والمهند، والقنا
إن الملوك مع الزمان كرواكب
والحزم كل الحزم ألا يغفلوا
ويقول قوم : « سعده لا عقله »
أبني أمية : قد جبرنا صدوعكم
ما دام من نسلى إمام قائم

لولاي ما ملك الأيام الداخل
ومقادير بلغت، وحال حائل
نجم يطالعنا ونجم آفل
أيروم تدبر البرية غافل ؟
خير السعادة ما حماه العاقل !
فالملك فيكم ثابت متواصل

٧ — وقال أيضاً :

شأن من قام ذا امتعاض
متضى الشفرين نصلا
سامياً لجة ومحلاً
ومنبراً للخطاب فصلاً
دبر ملكاً، وشاد عزاً
وتجدد الجندي حين أودى
ثيم دعا أهله إليه
فجاء هنا طريد جوع
شيد روع، يخاف قلاً
فنال أنا، ونال شيئاً
ألم يكن حق ذا على ذا
أعظم من منعم ومولى

٨ — وكان عبد الرحمن الثاني (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ)، كثير الولد أعقب
مائة وخمسين من الذكور وخمسمائة من الإناث، فقيهاً فيلسوفاً شاعراً،
كتب مرة إلى طروب وهو في حلقة يغزو :

عداني عنك مزار العدا وقودي إليهم سهاماً مصباً
فكم قد تخطيت من سبب ولاقيت بعد دروب دروباً
سر إذ كاد منه الحصى أن يندوا
تدارك بي الله دين الهدى فأحيته وأمت الصليباً
وسرت إلى الشرك في جحفل

٩ — وقال عبدالله بن محمد الحاكم الأموي (٢٧٥ - ٣٠٠) :
يا مهجة المشتاق ما أوجعك وبأمير الحب ما أخشعك
ويارسول العين من لحظها بالرد والتليغ ما أسرعك
في مجلس يخفى على من معلمك
تبارك الرحمن ما أطوعك
كم حاجة أنجزت إبرازها

١٠ — وقال في صباح :

ويحيى على شادن كحيل في مثله يخلع العذار
كأنما وجتاه ورد خالطه السور والبهار

قضيب بسان إذا شئ
فصفو ودي عليه وقف
ما اطرب الليل والنهار

١١ - وقال :
يام من يواعنه الأجل
حام لا تخشى الردى
أغفلت عن طلب النجا
هيئات تشغلك المدى
حام يلهيك الأمل !
وكأنه بك قد نزل !
ة ولا نجاة لمن غفل !
عنن ليومك يشتغل

١٢ - وقال :
أرى الدنيا تصير إلى فناء
فيادر بالإنابة غير وان
كأنك قد حملت على سرير
فنافس في التقى واجمع إليه
وما فيها لشيء من بقاء
على شيء يصر إلى عباء
وغير حسن وجهك في الهباء
لملك ترضين رب السماء

١٣ - ويقول صاحب نفع الطيب : « لما استوزر باديس، صاحب
غرناطة اليهودي الشهير باين نفاللة، وأفضل داوه المسلمين، قال زاهد
أبيه وغرناطة : أبو إسحق الأبيري، قصيده التونية المشهورة التي منها
في إغراء صنهاجة باليهود.... الخ. »

« وهي قصيدة طويلة، فارت صنهاجة على اليهود وقلوا الوزير
المذكور، فأراح الله البلاد والعباد، ببركة هذا الشيخ، الذي نور الحق
على كلامه باد، وهذا بعض من القصيدة :
ألا قل لصنهاجة أجمعين بدور الزمان وأسد العرين
مقالة ذي مقة مشفق بعد الصبحة زلفي ودين
لقد زل سدكم زلة تقر بها أعين الشامين
تخير كاتبه كافراً ولو شاء كان من المؤمنين
فعز اليهود به، وانتخوا و كانوا من الأرذلين

ومنها :

فكم مسلم راغب راهب
وما كان ذلك من سعيهم
فهلا اقتدى فيهم بالأولى
وأنزلهم حيث يستأهلون
فلم يستخفوا بأعلامنا

ومنها يخاطب السلطان :
أباديس^(١) أنت أمرؤ حاذق
فكيف عفى عنك ما يعشون
وكيف تحب فراغ الزنا
وكيف يتم لك المرتقي
وكيف استمنت إلى فاسق

ومنها :

وإني حللت بغرناطة
وقد قسموها وأعمالها

ومنها :

وهم أمراك على سرकم
ويأكل غيرهم درهما
وقد ناهضوك إلى ربكم

لأرذل قرد من المشركين
ولكن هنا يقوم العين
من القادة الخيرة المتفقين
وردهم أسفل الساقلين
ولم يستطعوا على الصالحين

تصيب بظنك نفس اليقين
وفي الأرض تضرب منها القرون
وقد بغضوك إلى العالمين
إذا كنت تبني لهم يهدمون
وقارته وهو بين القررين

فكتت أراهم بها عائين
فمنهم بكل مكان لعين

وكيف يكون أميناً عزون؟
فيقصى ويدنوون إذ يأكلون
فما يمنعون وما ينكرون؟

(١) وباديس هو باديس بن حيوس صاحب غرناطة، وكانت بيته وبين المحتشد حرب شديدة، قال ابن خلدون : « ولد (باديس) ملك غرناطة بعد أبيه، واستولى على سلطنته اسماعيل بن نعنة الذي، ثم نكبه وقتلته سنة تسع وخمسين واربعمائة، وقتل معه خلقاً من اليهود، وتوفي باديس سنة سبع وستين وأربعمائة.

ومنها :

ورخسم قردهم داره
وأجمرى إلها نمير العيون
وصارت حوالجنا عنده
ونحن على بابه قائمون
فإننا إلى ربنا راجعون
ويضحك منا ومن ديننا

٤ — وقال ابن هانئ الأندلسي من قصيدة يمدح بها القائد جوهراء،
ويصف الجيش الذي غزا به مصر، وودعه عند خروجه من القبروان
رأيت بعيني فوق ما كنت أسمع وقد رأعني يوم من الحشر أروع^(١)
غداة كان الأفق سد بظله فماد غروب الشمس من حيث تطلع^(٢)
ولم أدر إذ شئت كيف أودع^(٣) فلم أدر إذ سلمت كيف أشيع
وكيف أخوض الجيش والجيش لجة^(٤) وإنني بين قاد الجيوش المولع^(٥)
وأين؟ وما لي بين ذا الجمع مسلك^(٦) ولا لجوادي في البسيطة موضوع^(٧)

(١) رأعني : هالني وأدهشتني. يوم الحشر : يوم القيمة. أروع : أكثر هولاً ودهشة وفرعاً.
المعنى : كنت أسمع عن عظمة جيش المعر لدين الله الذي يقوده القائد جوهراء
وقوته، ولقد رأيته اليوم بعيني وأinsi فتعجبت لقوته وعظمته، ودخلت إلى لكترة عدده
وازدحام الخلق فيه أن اليوم الذي رأيته مجتمعـاً فيه أشد هولاً وفرعاً من يوم القيمة،
وكان ما سمعه عنه أقل مما رأيته عليه.

(٢) الغداة والغدوة : أول النهار المبكر.
المعنى : رأيت الجيش في الصباح المبكر وقد أحدث بيبره طبقة من الضباب في
الجور أخفت الجو الطبيعي، ومحبت الشخص عن الناس فقبل إليها أن الشخص غربت
من مكان طلوعها :

(٣) المعنى : قد حير عقلي هول الموقف وروعة المنظر، فلم أدر كيف أسلم ولا كيف
أشبع من أردت تشيعهم وتوديهم.

(٤) المعنى : وكيف أصل إلى من أريد توديه في وسط هذا الجيش العظيم وكيف اجتاز
ذلك الكيل البشرية إلى القائد العظيم لأودعه؟ وأين أذهب ولا طريق لي في هذا
الجمع العظيم، ولا يستطيع جوادي أن يشق طريقه في هذا الزحام الهائل.

ألا إن هذا الحشد من لم يدق له
 نصيحة للملك سدت مذاهبي
 فقد ضرعت حتى الرواسي لما رأت
 فكيف قلوب الإنس والإنس أضرع^(١)
 تخب المطاييا فيه عشراً وتوضع^(٢)
 فلا عسكر من قبل عسكر جوهر
 وتسجد من أدنى الحفيظ وترکع^(٣)
 تسير الجبال الجامدات لسيره

(١) الفرار : القليل. الكري : اليوم. يهجع : ينام.
 المعنى : ولقد جمع هذا الجيش العظيم شخص لم يدق طعم الراحة، لأن هذا الاستعداد الهائل يعطي مجهوداً ممتنعاً وعملاً متواصلاً، وهذا ما فعله جوهر.

(٢) مذاهبي : طرقني. القيد : القدر. وقد الرمح والرمح. أي بين الرمحين.
 المعنى : المقصود بالنصيحة هنا الشتورة غزو مصر وإخلاصه لدولة المعر، قصيرة جوهر على المعر وإخلاصه لدولة المعر كانا سبباً في حشد هذا الجيش الكبير الذي سد على طرقى في السير، فلا يستطيع المرء أن يشق لنفسه طريقاً وسط هذا الجموع الذي بلغ من شدة زحامه أن المسافة التي بين الرمحين لا تسع لأكثر من إربعين، وهذا كثابة عن شدة الرحام.

(٣) ضرع : خضع وذل واستكان. الرواسي : الجبال الراسيات.
 المعنى : ليس لدينا من مظاهر ذات الجبال وخصوصها لهذا الجيش العظيم إلا انهيارها وعدم ثباتها أيام قوره، فكان الشاعر يقول : إن الجبال الرواسي لا تقوى على الثبات أيام هذه القوة الكبير فكيف بالإنس وهو أقل احتداماً من الجبال؟ وكانه أيضاً يقول : لقد فزع الجبال مسارات من قوة الجيش، ومن الطبيعي أن فزع الإنسان الذي له قلب وعاطفة يكون أعظم من فزع الجنادل الذي لا عاطفة له، وفي هذا كله مبالغة في قوة جيش جوهر.

(٤) الخب : ضرب من العدو. والإسراع : الأسراع في السير.
 المعنى : لقد بلغ من كبر المسافة التي يتحلها الجيش على الأرض أن الدواب تقطع هذه المسافة وهي مسرعة في عشر ليال، وفي هذا مبالغة في تقدير الكثرة.

(٥) الحفيظ : الصوت. وأدنى الحفيظ : أقل الصوت.
 المعنى : أن الجبال تسير لسيره وتسجد وترجع لأقل صوت منه، وأقل صوت وأقل حركة من الجيش تكون كبيرة لكتلة عدد الجيش وضخامته، وفي هذا كثابة عن عظمة الجيش وشديده هيته.

إذا حل في أرض بناها مداشنا وإن سار في أرض ثوت وهي بلقع^(١)
١٥ — وقال ابن هاني الأندلسي في الرثاء :
إنا، وفي آمال أنفسنا طول وفي أعمارنا قصر^(٢)
لترى بأعيننا مصارعنا لو كانت الألياب تعتبر^(٣)
مما دهاناً أن حاضرنا أخفاننا، والغائب الفكر^(٤)
إذا تدبرنا فاكلهم جوارحنا العين والنظر^(٥)

١٥ — وقال ابن هاني يصف أسطول المعر الفاطمي :
أما والجواري المنشآت التي سرت لقد ظهرتها عدة وعديدة^(٦)

(١) ثوت. أقامت. البلقع : الأرض التي لا شيء بها. المعنى : لا يزال الشاعر يعطيها صورة عن كثرة عدد المحاربين وضخامة الجيش، فهو يقول إن الجيش إذا قام في جهة احتاج إلى مساكن كبيرة، ونكات للأجناد، فبني مداشن توقي هذا الجيش الضخم، وإذا لم يجعل في جهة بل سار عنها ولم يقم فيها تركها قفرأ لا أثر فيها للمران ولا للنبات.

(٢) المصارع : جميع مصرع وهو الهلاك : الألياب : جمع لب، وهو العقل. تعجب : تحظى. المعنى : آمال الإنسان كبيرة لا تتفق عدد حد مع أن أحجله قصير ولا يسع لتحقيق هذه الآمال كلها، ولو انتظم المرء بمصارع غيره وعلم أن دوره آت لا محالة لحد من هذه الآمال وزهد في الحياة، وجملة، لترى : غير إن في البيت الأول.

(٤) دهاناً : أساساً بداهية وهي الأمر العظيم والمصيبة. المعنى : مما أوقتنا في المصائب وجلب علينا الشر أتنا نفع ما تراه عيوننا، ونقصر رغباتنا على ما تراه في دنيانا من متاع ومال وجاه وغيرها من الدنيويات. نفع ذلك ولا تفكر فيما بعد الموت ولا نعمل للأخرة.

(٥) الجوارح : الحواس ومنها النظر.
المعنى : يريد الشاعر أن يذكر أن ما يجعل علينا الشر هو النظر، ولو تأملنا بالنسبة لغيره من باقي الحواس لوجدناه أضعفها.

(٦) اللقة : الجواري : السفن، وسميت بذلك لأنها تجري في الماء، وسرت : سارت ليلاً، وظاهرتها : عوتها. يقول : قسماً بالسفن التي تشق البحر شقاً في تنفسها لقد عوتها على ذلك لأنها والجند الوسائل الذين تقلهم ومعهم ذئابتهم ومعداتهم.

ولكن من ضمت عليه أسود^(١)
مسومة تحدو بها وجندو^(٢)
كما وقفت خلف الصفواف رددو^(٣)
وأن النجوم الطالمات سعوذ^(٤)
تشير أعلام لها وبنود^(٥)
له بارقات جمة ورعدو^(٦)
لزملك باس أو لكتك جود^(٧)
بناء على غير العراء مشيد^(٨)

قباب كما ترجي القباب على المها
وثلث — مما لا يرون — كتاب
أطاع لها أن الملائكة خلفها
وأن الرياح الذاريات كتاب
وما راع ملك الروم إلا اطلعها
عليها غمام مكفر صبره
مواحر في طامي القباب كأنها
أنافت بها أعلامك: وسمى لها

(١) اللغة : قباب : جمع قبة، وسفن الأسطول الفاطمي كانت تشبه القباب من سقفها،
(٢) وترجي : تدفع، والمها جمع مهاة وهي الشمس والقرة الوحشية، والمراد هنا الحسان
اللائي يشهين المها، يقول : لقد أشتئت في مظهرها هادج الحسان مع أنها لا
تضم إلا أسوداً من الجنود.

(٤٣) اللغة : الكتاب المسومة : المراد بها الملائكة، وأطاع لها : دان لها ونهياً واتقاد،
وأن الملائكة وما عطف عليه فاعل أطاع، والردد : جمع رد يكسر النال وهو
ما يحدده عليه ويرجع إليه، والذاريات : من ذرت الريح التي ذرها، وأذرته، وذرته
أذارته وأذنته، والكتاب : جمع كتبه، وهي الفرق من الجيش، يقول : وإلى جانب
هذا الأسطول وجندوه المحرارة، وجند آخرون من الملائكة شد الله بهم أزر جيش
السر، وهياً له القوة أن الملائكة تقفت من خلفه تربط على قلبه بل إن كل شيء
كان يقف إلى حوار الجيش الفاطمي، فالطبيعة تناصرهم وطالع السعد بحالهم.

(٦٥) اللغة : راع : أترع، والبرود : جمع بند وهو العلم الكبير، والصبر السباحة فوق
آخرى، أو السحاب المتراكم، يريد به دخان مقلوباتها وثيرانها وأسوانتها، يقول :
إن هذه السفن التي أتقت مضجع ملك الروم وأفرعه والتي تحفظ أعلامها وبنودها
لو شاهدت قدالها ودورها الشبيهة بالبرود وكرات ثيرانها — وكأنها البرود — لراحت
هذا الاستعداد.

(٦٧) اللغة : الطامي : المرتفع، والعباب معظم السبل وكثرة المراد به البحر، وطامي العباب
من إضافة الصفة للموصوف أي العباب الطامي أو المراد بطامي الأنواع : أمواج
البحر المرتفعة، وأنافت : غلت، وسمى : ارتفع، والعراء الخلاء، ومشيد مبني بالشيد
على وزن العيد وهو الجس، يقول : إن سفن الأسطول التي تتحرر بالعباب قد ارتفعت
أعلام البحر فوقها عطاقة تطاول بيانها كأنها قصور أئست على الأرض الثانية لا
سفن تسير على سفوحات الماء.

وليس من الصفاح وهو صلود^(١)
فمنها قنان شمخ وربود^(٢)
فليس لها إلا النقوس مصيد^(٣)
فليس لها يوم اللقاء حمود^(٤)
كماشب من نار الجحيم وقود^(٥)
فأفاوهن الحاميات صواعق
وأنفاسهن الزافرات حديد^(٦)
وما هي من آل الطريد بعيد^(٧)

وليس بأعلى شاهق وهو كوكب
من الراسيات الشم لولا انتقالها
من الطير إلا أنهن جوارج
من القادحات النار تضرم للصلى
إذا زفت غيطاً ترمت بمارج
فأفاوهن الحاميات صواعق
يشب لآل الجاثليق سعراها

(١) اللغة : الصفاح : كرمان : المحجارة العراض ، والصلود : الصلب.

(٢) اللغة : الراسيات : الجمال ، والشم : العالية ، وقنان : جمع قنة وهي العالية ، وشمخ :

علية ، وربود : جمع ريد وهو الحرف المازر في الجبل .

يقول : وما أشهها في ضخامتها بالجمال الراسيات لولا تقلتها وسركتها .

(٣) اللغة : من الطير : مما كاد يطير ، وجوارج : جمع جارحة وهي ذات الصيد من

الساع والطير ، والمراد تحرج خصوصنا ، ومصيد : صيد . يقول : وما أشهها في سرعتها

بالطير لولا أنها تفترس أعدانا ولا تصطاد إلا ثغورهم .

(٤) اللغة : تضرم : تسعن ، اللصان : الشوي خصوصنا .

المعنى : من هذا الأسطول من السنن المجازة التي توجه شرائعها لتأديب الأعداء

واحرافهم إذا ما دعا الأمر ، التي لا يجرؤ أحد أن يحمدوها إذا حمى الوطيس .

(٥) اللغة : زفت : أخرجت زفتها أي نفقة والمراد به بخارها الحبيس ، والمارج : النار

بلا دخان ، وصواعق : جمع صاعقة وهي الموت وكل عذاب مهلك وصيحة العذاب ،

ونار تسقط من السماء وصعثهم السماء : أسمائهم بالصاعقة . يقول : وإذا ما أرسلت

بدعائنا وقدائفها إلى السماء خلت أنها ترسلها للندة طيفها أو أنها قطع من جهنم

تسعرت تبرانها وكان قدائفها صواعق تزيد أن تقضى عليهم .

(٦) اللغة : يشب : يوقد ويسمر ، والجاثليق : كلمة أعمجمة والمراد به الرئيس الديني

للمسحيين في بغداد ، وهو أكبر من المطران ، والطريد : المطراد الهارب ولا يراد

به شخص يعني بل كل حصن للقاطنين يستحق أن يطارد .

يقول : وما كان اشتغالها إلا لأعداء الدين كالجاثليق وشيعته وسائر الهاريين هنا

بعد أن آمنوا بقوتنا .

لها شعل فوق الغمار كأنها
تعانق موج البحر حتى كأنه
ترى الماء فيها وهو قان عيشه
فليس لها إلا الرياح أعنده
وغير العذاكى نجرها غير أنها
سالفة تحت القوارس قود^(١)
ترى كل قوداء التليل إذا انتت
سوالف غيد بالها وقدود^(٢)

(١) اللغة : الغمار يضم الغن وتحتها : الرحمة والمراد به هنا البحر. يقول : وما أرعب
كرافتها النارية، التي إذا ما سقطت فوق لجة الماء، كأنها الدماء حمرة استقبلتها ملاحف
سود.

(٢) اللغة : السليط : الربت، والذبال : جمع ذبالة وهي التليل يدل على طرف منه في الربت
ويشمل الآخرين، وهذا ما كان من مصايب القدماء قبل إشغال زيت البترول بقل الكهرباء.
وعيده : حاضر منهاً بعد لهذا الفرض. يقول : ألا تظن وهي تعانق موج البحر الأبيض
أن الموج زيت وأن هذه الفدائل المتتابعة لسرعة البرق هي خالل المصايب المتعلقة.

(٣) اللغة : قان : أحمر شديد الحمرة والعياب : الموج، والردع : الزعفران، والخلوق :
نوع من الطيب. يقول : وإن لون مائه وقد امترج بدماء الصرعى من خصومنا أشبه
بلون الزعفران.

(٤) اللغة : العياب يفتح الحاء : الموج، والكديد : الأرض الصلبة الورقة. يقول : ومن
عجب أن لا أعنده لها سوى الرياح، وليس لها سوى الموج تسلكه إلى غاياتها.

(٥) اللغة : العذاكى : الخل، والنجر كالنجار : الأصل، والقود : جمع أقود وهو التلول
المقادير، أي تسب لغير العيل مع أن ركابها فرسان، وسموحة : معلمته يقول : إنها
ليست خيلا، ولكنها سومة لؤلؤ مقادة للقوارس وإن كانت غير عيل.

(٦) اللغة : قوداء التليل : طوبية العن، والسوالف : جمع سالفة وهي نهاية مقدم العنق
من لدن معلم القرط ومن الفرس هاديه أي ما تقدم من عنقه. يقول : إذا انتت
شحور سالفة الهدى الحال الشبيهات بالها على أعقاقهن، أو تمثلت قدوهنهن كانت
السفينة من هذه السنن تشيمها باشتاء عنقها على صدرها وكانتا يحملون في مقدم
السفينة صورة رأس ثور أو كبش أو نعامة.

رحبية مد الباع وهي نضجحة
تكبرون عن نفع بشار كأنها
موال، وجرد الصافتات عبيد^(١)
مغوفة منها النصار جسمد^(٢)
أو التفعت فوق المنابر صيد^(٣)
ليوث تكف الموج وهو غطامط
فمنه دروع فرقها وجواشن
ومنه خفاتين لها و برو^(٤)

(١) اللغة: الباع، يراد بها هنا: المجاديف فهي تمد باعها، والشوى: الأطراف، وقوله وهي بلوى أي أنه ينبعها أو يكون لها زوارق مخار. يقول: وأن مجاديفها عريضة طوبلة ليس لها أرجل تسير عليها أو أيدٍ تطش بها، وأنها تم تفترعها عدو في لا تزال عذراء وزوارقها التي أخذت للنجاة تحملها فوقها كما تحمل الأم أولادها.

(٢) اللغة: القبح: البشار، وموال: عبيد، والصالفات: الخيل يقول: وإنها تأسف أن يكون البر وما فيه من غبار موضعاً لنشاطها، اكتفاء بالخيول الأصيلة والفتنة القوية، فالصلة بين سفن الأسطول وبخورها في البر أشبه بالصلة بين السادة وعبيدهم.

(٣) اللغة: الشفوف : الأصل فيها الباب الشفافة الرقيقة التي تكاد تشف عن تحتها، والمراد بالنقوش الجميلة الألوان التي زيت بها سفن الأسطول والعبرى : نسبة إلى عصر وهي أرض تسکن الجن، والمراد هنا الفنان الذي نقش هذه النقوش، والجسید : المصصن، والضار : القبح. يقول: وما يمتلك القلوب روعة نقوشها البدية على جوانها فهي تحاكي ما رق من الباب المزدادة بصاصيرها وألوانها المتعددة المسجمة.

(٤) اللغة : الحرد : جمع عربدة وهي البكر لم تنس أو المخفرة المختارة الصوت، وصوت عزيد : ابن عليه أثر الحياة، والجسید : جمع أصيده وهو الأسد والملك. يقول: إنها تشتمل بهذه النقوش كما تشتمل العواري الحرد بالباب، وهن جالسات على الأرائك أو كما يلتف الخطاء الصيد وهم فوق المنابر.

(٥) اللغة : ليوث : جمع لب و هو الأسد، وغطامط : عظيم هائل، وبأس اليم : شدته.

(٦) اللغة : الدروع : جمع درع وهو ما يدرع به الإنسان ويوقن، والجواشن : جمع جوشن وهو الدرع والصدر، والخفاتين : جمع خفاتن وهو نوع من الباب والبرود : جمع برد وهو ثوب مخطط، وكأسية يلتف بها. يقول: إن اليم ترتفع أمواجه الراخرة فوق السفن كالدروع وتلتف بها كأنما هي خفاتين وببرود مخططه وكأسية التحافت بها، فلم تنتصر على دروعها الجديدة، بل تتوعد دروعها.

ألا في سبيل الله تبذل كنه ما
فلا غزو إن أعزرت دين محمد
فانت له دون الملك عقید^(١)
١٦ — ويقول الحكم بن عبد الرحمن أمير الأندلس

(١٨٠ - ٢٠٦ هـ) :

وقدما لأمت الشعب مذكنت يافعا
أبادرها مستنقضي العزم دارعا
كأقحاف شربان الهبيد لوعا
بروان، وأني كتت بالسيف قارعا
فلم أك ذا حيد عن الموت جازعا
ومن لا يحامي ظل خربان ضارعا
سقيتهمو سما من الموت ناقعا
فوافقوا منها قدرت ومصارعا
مهادأ ولم أترك عليهما منازعا
١٧ — وقال ابن برد الأصفر من شعراء الأندلس يصف السحب
والبرق^(٢) :

ونار بوارقها تلتهب
بخاتي توضع في سيرها
وقد قرعت بسياط الذهب
١٨ — وقال أحمد بن عبد ربه الأندلسي^(٣) يصف حماماً :

(١) اللغة : كنه الشيء : جوهره وغایته وقدره ووجهه، وكنه إذا بلغ كنهه والأنواء :
جمع نوه وهو سقوط نجم من النازل في المغرب مع المحر وطلوع رفيه من
المشرق بقابلة من ساعه في كل ثلاثة عشر يوماً، وكانت العرب تصف الأمطار
والرياح والحر والبرد إلى الساقط منها، ولا غزو : لا عجب، وعديد : معائد من
العدد يعني المهد والمياق.

(٢) هو كاتب بليغ، وشاعر ممتاز، توفي في الصيف الأخير من القرن الخامس الهجري.
(٣) هو الأديب الذي كتب الشاعر والشاعر المؤلف أحمد بن عبد ربه صاحب كتاب العقد
الفرد الذي يعد من أركان الأدب العربي توفي سنة ٥٣٢ هـ.

ونائع في غصون الدوح أرقني
مطسوقة بعقوبة ما ترايله
قد بات يكفي بشجو ما دريت به

١٩ — وقال في المدح :
كريم على العلات جزل عطاوه
وما الجود من يعطي إذا ما سأله

٢٠ — وقال يصف سيفاً :
وذى شطب تقضى العنايا بحكمه
فرند إذا ما اعن للعين راكمد
يسلل أرواح الكحمة انساله
إذا ما التقت أمثاله في وقعة

٢١ — وقال أيضاً :
 بكل مأثور على متنه
يرتد طرف العين عن حده

٢٢ — وقال ابن زيدون في ولادة^(١) :
أضحي الثنائي بدليلاً من تدانيا
واب عن طيب لقيانا تجافينا
بضم، وبنا، فما ابتلت جوانحنا
شوقاً إليكم، ولا جفت مآقينا^(٢)

(١) يزيد بالعقود ما يرى من الألوان في عنقه.
(٢) الشطب : الحزوز في جانبي السيد طولاً.
(٣) اعن : ظهر وبداء.
(٤) أي ما تظنه النفس من الهاك واقع لا محالة.
(٥) أي يلوح ويتراءى لمن ينظر إليه أمثال مذاب النحل من انكساره
على صفحاته. وذلك بين في السلاح المحشو من المولاذ الذكر.
(٦) مرت ترجمته بعد الكلام على تره.
(٧) الجوانح. جمع جائحة : وهي الضلوع، والمراد بالجوانح : ما تجنه من القلب والحناء
الملنهم بالحب وقوله : ولا جفت مآقينا، أي ما جفت عيوننا من الدمع والبكاء عليكم.

يقضى علينا الأسى لولا تأسينا^(١)
سوداً، وكانت بكم يضأ ليالينا^(٢)
ومورد اللهو صاف من تصافينا
قطوفها، فجئنا منه ماشينا^(٣)
كتم لأرواحنا إلا رياحينا
حزناً مع الدهر لا يلي ويلينا^(٤)
أنساً يقريكم قد عاد يكينا
بنا، ولا أن تسرروا كاشحاً فيينا^(٥)
بأن نفخ، فقال الدهر : آمنا !
وابت ما كان موصولاً بأيدينا
فأليوم نحن، وما يرجى تلاقينا
رأينا، ولم تقلد غيره دينا
إن طالما غير النائي المحينا
منكم ولا انصرف عنكم أمانينا
ولا اتخذنا بدلاً منك يسلينا
من كان صرف الهوى والود يسقينا
من لو على بعد حيا كان يحيينا
ورداً جلاه الصبا غضاً وتسرينا^(٦)

يكاد حين تاجيكم ضمائركا
حال فقدكم أيامنا فقدت
إذ جانب العيش طلق من تألفنا
وإذ هصرنا غصون الآنس دائنة
ليسق عهدهم عهد السرور فما
من مبلغ المليسينا ياتزاحهم
إن الزمان الذي ما زال يضحكنا
ما حقنا أن تقرروا عين ذي حسد
غيط العدى من تساقينا الهوى فدعوا
فانحل ما كان معقوداً بأنفسنا
وقد تكون، وما يخشى تفرقا
لم نعتقد بعدكم إلا الوفاء لكم
لا تحبسوا نأيكم عنا يغيرنا
والله ما طلبت أهوازننا بدلاً
ولا استقدمنا خليلاً عنك يشغلنا
يا ساري البرق غاد القصر فاست به
وما نسم الصبا بلغ تحبيتنا
يا روضة طالما أجيتن لواحظنا

(١) التأسي : النصر.

(٢) حالت : استحالت من بضم إلى سود.

(٣) هصرنا : أسلنا إلى ناحتنا.

(٤) الانزاح من الأفارق.

(٥) أقر الله عليه بالسلامة : حد أسلحتها بالرجع، والمراد أن تسرروا الحاسد. والكاشح :

المضر العداوة. والواشي : المبغض.

(٦) التسرعن : نوع من الورود وأكثر ما يكون أبيض الزهر عطر الرائحة.

مني ضربوا ولذات أقلينا
في وشي نعمي سحبنا ذيلها حيناً^(١)
وقدرك المعطنى عن ذاك يغينا
فحسبنا الوصف إيقاصاً وتبينا
والكثير العذب زقماً وغلينا^(٢)
والسعد قد غض من أحجاننا وأشينا
حتى يكاد لسان الصبح يفشينا
مواقف الحشر تلقاً كم ويكتفينا
عنه النهي وتركتنا الصبر نامينا
مكتوبة، وأخذنا الصبر تلقينا
شرياً وإن كان يزورينا فيقطئينا
سالين عنه، ولم تهجره قالينا
لكن عدتنا على كره عواديها^(٣)
فيها الشمول وغانما معنينا^(٤)
سيما ارتياح، ولا الأوتار تلهينا
فالحر من دان إنصافاً كما دينا

ويا حيَا تملينا بزهرتها
ويا نعيمَا خطرنا من غضارته
لسان سميكة إجلالاً وتكرمة
إذا انفردت وما شوركت في صفة
يا جنة الخلد أبدلنا بسلسلتها
كائننا لم نبت والوصل ثالثنا
سران في خاطر الظلماء يكمننا
إن كان قد عز في الدنيا اللقاء ففي
لا غرور في أن ذكرنا العزآن حين نهت
إنا قرأتنا الأسى يوم النوى سوراً
أما سواك فلم تعد بمثله
لم نجف أفق جمال أنت كوكبه
ولا اختياراً تجنبناك عن كثب
تأسّي عليك إذا حلت مشعشعنة
لا أكؤس الراح تبدي من شمالتنا
دومي على المهد ما دمنا محافظة

(١) تعلينا، استمعنا، والمعنى جمع منه، والمصروف هنا: الأنواع، والأفاني هنا جمع أقواف، وهو النوع والضرب أي للذات مختلفة الشكل.

(٢) ينطر الرجل في ميثلة رفع يديه ووضعهما عجبًا وبهذا، والضارة: النعمة والسعادة والخصب والواشي نوع من الشاب الحريرية المتفوقة.

(٣) السلسل : النساء العذب البارد . والكوثر : الكثير من كل شيء ، والتهير . وتهير في الجنة . والزقوم المذكور في القرآن الكريم ، عزاد به ضرب من العذاب في النار ، جاء تشبيهه

بأنه يعلم شعرة تكون في أصل الجحيم هنا اسمها، والشقيقين: ما يصل من الكتاب وتحروا، وغلبيان النار: ما يصل من حلوى الكفار ثيرا.

(٤) الشّارع: من أسماء الخير والمشتملة على المزاجة بالباء.

فما ابغينا خليلاً منك يحبنا
ولو صبا نحونا من علو مطلعه
أبكى وفاء، وإن لم تبذل صلة
فالذكر يقمعنا، والطيف يكفينا
وفي الجواب افتتاح لو شفعت به
يُبَشِّرُ الأيدي التي ما زلت توْلِيَا
عليك مني سلام الله ما بقيت
صباية منك تخفيها فتحفينا

٢٣ — وقال في الذكرى متوجعاً :
ودع الصبر محب ودعك
ذائع من سره ما استودعك
يقرع السن على أن لم يكن
زاد في تلك الخطى إذ شيعك
حافظ الله زماناً اططلعك
ما أخاكا البدر سناء وسنى
إن يظل بعدهك ليلي فلكلمك

٢٤ — وقال أبو بكر محمد بن عمار^(١) :
وهويته يسى السدام كأنه
قمر يطوف بكوكب في حدس
متارج الحركات تندى ريحه
كالغضن هزته الصبا يتفس
تسعى بكأس في أنامل سوسن
ويدير أخرى في محاجر ترجس^(٢)

٢٥ — ومن قوله في الاستعطاف :
سجاياك إن عاقت أندى وأنسج
وعذرك إن عاقت أجيلى وأوضج
فأنت إلى الأدنى من الله أجنح
ولأن كان بين الخطرين مزية
حانياك في أخذني برأيك لا تطبع
عدائي، وإن أثروا على وأقصوا
وماذا عسى الأعداء أن يتزيدوا
سوى أن ذنبي واضح متضح
نعم لي ذنب ! غير أن لحلكم
صفاة بزل الذنب عنها فيسفع^(٣)

(١) هو أبو بكر محمد بن عمار وزير المحضد بن عبد الله أشبيلة، ثم وزير ابنه
المحضد، ويد المحدث قيل بعد خيانته له في الملك والسياسة سنة ٤٧٧هـ. وكان
شاعراً يليها يشبه بالمعنى في مطامعه في الملك والدولة.

(٢) السوسن والترجس : زهران أيضان من القصيدة البصلية.

(٣) أي أن حلمه كالصخرة الملاس بزل وبزل عنها النتب.

يخوض عدو اليوم في ويمرح
 يكران في ليل الخطايا فتصبح
 أما تفسد الأعمال ثم تصلح^(١)
 له نحو روح الله باب مفتوح !
 بهبة رحمى منك تمحو وتصفح
 فكل إباء بالذى فيه يرشح^(٢)
 بزور بيى عبد العزيز موشح^(٣)
 إذا ثبت لا أنفك آسو واجر^(٤)
 أشاروا تجاهى بالشماس وصرحوا^(٥)
 فقلت : وقد يعمو فلان ، وبصفح !
 ولكن حلمأ للمؤيد أرجح
 ستفتح لو أن الحمام مجلح^(٦)
 إلى فيدتو ، أو على فينزح^(٧)
 وان رجائي أن عندك غير ما
 ولم لا ؟ وقد أسلفت ودا وخدمة
 وهنى قد أعمقت أعمال مفسد
 أقلى بما بيني وبينك من رضا
 وعف على آثار جرم جنiste
 ولا تلتفت رأى الوشاة وقولهم ،
 سياتيك في أمري حديث وقد أتى
 وما ذاك إلا ما علمت ، فلانتى
 نخيالهم ، لا در الله درهم ،
 وقالوا : سيجزىء فلان بعمله !
 إلا إن بطشاً للمؤيد ينقى
 وبين ضلوعي من هواه تيمية
 سلام عليه كيف دار به الهوى :

(١) ثبت : هي (تم) العاطفة لحقتها تاء التأنيث كما تلحق (رب) فقال : (ربت)
وأسلاها أن تكون ساكة، ولكنها تفتح معهما كثيرا.

(٢) تلتفت مضمون معنى فعل متعدد تدبره : (تعبر أو تقبل).

(٣) كانوا من موالي المنصور بن أبي عامر، ورثوا أبناه وأحفاده في شرق الأندلس.
وكانت لهم به دولة دامت رحما من الزمان.

(٤) إذا ثبت : إذا رجعت إلى ما كنت عليه من وزارتكم. وآتسو : من أسا الجرح أي
دواه وعالجه. والمراد لا أنفك ألمع وأسر، فبالهم مني شر.

(٥) تخليتهم : أي هذه نخيالهم. والتطهارة : الطبيعة الصистة. وكل المعنين لأنى. ودر
هنا فعل ماض من در البن. ودرهم فاعله على نحو جد جده وجل جلاله، والجملة :

دعاء عليهم، أي لا كان درهم الله يمuni لا وفقهم الله للخير.

(٦) التيمية : خروزة وقطاء كان الأعراب يملئونها في أغصان أطفالهم لتقيهم شر العين
والشياطين. المجلح : الأكول. والمعنى في قلبي له حب سيفعني ويشفع عنده إذا
أراد الموت أكلي.

(٧) ينزح : يهدى.

ويهنيه ان مت السلو، فائتني أموت، ولی شوق اليه مبرح
٢٦ — وقال الأديب أبو محمد عبد الجليل بن وهيون المرسي
الأندلسي من شعراء شرق الأندلس، وكان خدم المحمد بن عياد من
ملوك الطوائف يعلم وشعره، يصف النيلوفر :

وبركة ترهسو بيلوفر نسيمه يشه روح الحبيب^(١)
حتى اذا الليل دنا وقنه ومالت الشمس لعين المغيب
أطيق جفنيه على إلشه وغاص في الماء حدار الرقب

٢٧ — وقال ابن خفاجة الأندلسي :
ربما استضحك العباب حبيب نفخت ثوبها عليه الدام
كلما مر قاصراً من خطاه يهادى كما يمر الغمام
سلم الفصن والكتيب علينا فعلى الفصن والكتيب السلام

٢٨ — وقال في طول الليل :
يا ليل وجد بجدد
أما لطيفك مسرى
وما معنى طليقاً
 وأنجم الجو أسرى
وقد طوى بحر ليل
لم يعقب المد جزرا
لا يعبر الطرف فيه
غير المجرة جسرا

٢٩ — وقال ابن سهل الأندلسي^(٢) :
سل في الظلام أخاك البدر عن سهري تدرى النجوم كما يدرى الورى خبرى
أيست أهتف بالشكوى وأشرب من دمعي وأنشق ريا ذكرك العطر
حتى أحيل أني شارب ثمل بين الرياض وبين الكأس الوتر

(١) النيلوفر : ضرب من الرياحين يهت في المياه الرائفة.

(٢) هو الشاعر الرقيق الوشاح ابراهيم بن سهل الأشبيلي الأندلسي وكان يلقب قبل إسلامه بالإسرائيلى. كان يهودياً وأسلم، ومات غرقاً سنة ٦٤٩ هـ.

أومت إلى غيره ليماء محضر^(١)
تغنى الدراري عن التقليد بالدرر^(٢)
كلامها أبداً يدمي من النظر^(٣)

من لي به؟ اختلفت فيه الملاحة إذ
معطل فالحللى منه محللة
بخدعه لفؤادي نسبة عجب

٣٠ — وقال ابن سهل في توشيح له :
هل درى ظبي الحمى أن قد حمى
قلب صب حله عن مكبس
 فهو في حر وخفق ملما
لعب ريح الصبا بالقنيص
غراً تسلك بي نهج الفرر^(٤)
منكم الحسنى ومن عيني النظر
أجتني اللذات مكلوم الجوى
كلما أش��وه وجدي بما
إذ يقيم القطر فيها مائماً
وهي من يهجنها في عرس^(٥)
لي جزاء الذنب وهو العذاب
أخذت شمس الضحا من وجنتيه
مشرقاً للشمس فيه مغرب^(٦)

(١) أي تناولت فيه الملاحة عن نقشها عبد الناس غهي فيه كاملة وفي غيره بمنزلة إشارة عقيقة كاثاراة المحضر عند الموت.

(٢) محللة، متعدة.

(٣) أي فؤادي يدمي من نظارات المحظوظ الراية بهمام التأثير، وعده كأنه يدمي من حمرة الخجل عند نظرى إليه.

(٤) الفرر، الفربر والخطر.

(٥) أي وإنما الناذري من حبيب بالتفكير فيه.

(٦) أي كايسام الريا المشتركة بالأزهار بعد أن ساقها العارض المتبعج: أي السحاب الهائل.

(٧) أي أن زرول القطر الشبه بقطارات الدفع يقيم في الريا مائماً ومناحة يكاهه على حين أن الريا في أغراض من يهجنها.

(٨) أي أن حمرة المشرق قبل ظهور الشمس على الأفق وحمرة شفقها بعد الغروب مستعارة من وجنتيه الحمراوين.

وله حد يلحظي مذهب^(١)
 لاحظه مقلتي في الخلس
 ذلك الورد على المفترس
 غادرتني مقلتيه دفنا
 أثر النيل على صم الصفا^(٢)
 لست أحباء على ما ألتقا
 وعذولي نقطه كالخرس
 حل من نفسي محل النفس
 تتلظى كل حين ما تشا
 وهي حر وحريق في الحشا
 أمسداً ورداً، وأهواه رشا
 وهو من أحاظه في حرس
 اجعل الوصل مكان الخامس^(٣)

ذهب الدمع بأشواقى إليه
 بدت الورد بغرسى كلما
 ليت شعري أي شيء حرما
 كلما أشكوا إليه حرقى
 تركت أحاظه من رقى
 وأنا أشكراه فيما يقى
 فهو عندي عادل إن ظلما
 ليس لي في الأمر حكم بعد ما
 منه للنار بأحتائى ضرام
 هي في خديه برد وسلام
 أتقى منه على حكم الغرام
 قلت — لما أن تبدي معلما
 أنها الآخذ قلبى مقىما

وقد عارض هذه الموشحة كثيرون منهم لسان الدين بن
 الخطيب^(٤):

(١) أي مذهب من الخجل. وهذا المعنى مكرر جره إلى جناس الاشتغال بين (ذهب)
 في أول البيت و (منه) في آخره.

(٢) أي أثراً ضعيفاً لأن النيل لا يوزع منه في الصحراء المساء.

(٣) أي أن الجيش القاتل لا يأخذ كل الفئمة بل يكون حسمها للدولة تفقه في صالح
 الناس وصدقائهم.

(٤) هو أبو عبدالله محمد بن عبد الله بن سعيد الغرناطيي الأندلسي المعروف بلسان الدين
 ابن الخطيب وزير بي الأحمر ملوك غرناطة. وكان وزيراً لأبي الحجاج يوسف من
 عظامه ملوكهم، ثم لابنه، فاتهم بالخيانة في السياسة والزندقة، ففر إلى المغرب،
 وسي أعداؤه به حتى أسلمه قتل سنة ٧٧٦هـ. وكان شاعراً كاتباً مؤرخاً مؤلفاً
 فقهياً مقلطاً. له عدة كتب وشعر رقيق وكابية، يروي صاحب نفح الطيب وصاحب
 سج الأعشى منها كثيراً.

٣١ — وقال ابن دراج القسطلي بصف وداعه لزوجته وابنه الصغير :

ولما تدانت للوداع وقد هـا بصبرى منه آنة وزفير
تباشدنى عهد المودة والهدى
وفي العهد ميفوم النساء صغير
عين بمرجوع الحواب ولفظه
بموقع أهواه النسوس خبير
لـه أذرع محفوفة وتحور
 وكل مفداة التراب مرضع
وطار جناح الـين بي وهفت بها
لـن ودعت مني غـوراً فـانتـي
على عزمـي في شـجـوـها لـغـيـورـاـ
علـى ورـقـرـاقـ السـرـابـ يـمـورـ
علـى حـرـ وجهـيـ والأصـيلـ هـجـيرـ
وـاستـوطـنـ الرـمضـاءـ وهـيـ تـفـورـ
كـوسـ مـهاـ والـىـ بهـنـ مدـيرـ
علـى مـفـرقـ اللـيلـ البـهـيمـ قـبـيرـ
وـلـلـدـعـرـ فـيـ سـمعـ الجـريـءـ صـغـيرـ
وـأـنـيـ عـلـىـ مـضـ الخـطـوبـ صـبـورـ
وـلـلـأـسـدـ مـنـ غـيلـ الضـبابـ زـئـيرـ
كـواـكـبـ فـيـ خـضـرـ الـحـدـائقـ حـورـ

٣٢ — وقال ابن زيدون :

ما على ظني بـأـسـ
يـجـرحـ الـدـهـرـ وـيـأـسـ^(١)
ـرـبـماـ أـشـرـفـ بـالـمـرـ
ـءـ عـلـىـ الـآـمـالـ بـأـسـ^(٢)

(١) اللغة: يأسو بالخفيف: يأسو أي يداوي، الآسي، الطيب والجمع آساه، وباس: بـأـسـ: أي شدة، المعنى، لا تربـ على أن طاش سهمي ونـاحـبـ رـجـاتـ وكـذـبـ
حدـسـ، فقد يستهدف المرء للأخطـارـ وتحـدـقـ بهـ الشـادـلـ حينـ يـشـرـبـ منهـ الأـمـلـ
ويـشـرـفـ الرـجـاءـ.

ل ويؤذيك احراس^(١)
ولكم أكدى التماس^(٢)
عن ناس ذل ناس
ف سراة و خسas^(٣)
متنة ذاك اللباس^(٤)
واك في فهم إلماس^(٥)
غض الخطب اقباس^(٦)
لم يخالفه القياس^(٧)
سر وضوح والتبايس^(٨)
إن عهدي لك آس^(٩)

ولقد ينجيك إغدا
ولكم أجدى قصود
وكان الحكم إذا ما
وبنحو الأيام أحيا
تلبس الدنيا ولكن
يا أيها حفص وماسا
من سن رأيك لي في
وودادي لك نص
أنا حيران وللامـ
لا يكن عهدهك وردا

(٤١) اللغة : احتراس ، تحفظ ، وأكدي : يقلل وقل خبره والمراد لم يقدر .
 المعنى : قد يتحفظ المرء الحقيقة ويختلس فحقيق به البلاء وبخصوصه العداء على حين سلم من النايل من لم يتعجب من المصائب ، وإن ثمة معاذ لستة الجنان قد

(٣٠) اللغة : أعياف، مخطفون، وأنواع أعياف، أنهم واحدة وآباء لهم شيء، وسرقة : العزاد بها هنا الاشراف، وال vadisa، وأصحاب المرودة، وتلمس الدنيا : يرباد بها الإقبال عليها، ومداراتها والسير في ركابها.

المعنى: الناس يباشرون فنونهم الفنية وهم جمجمةً يهتفون على عرض الدنيا الحالى وظلهما البالى، ولا تزب عليهم في ذلك فرطاهة الحياة وألاوه فى التمثيل يتعالجها ويتدارسها والاحتطاب فى حلتها.

(٥٠) اللغة : أبو حفص : هو الوزير ابن برد الذي استحدث به الشاعر، وإلياس يصرخ به المثل كثيراً في الدكاك، فيقال : هو إلياس ذاك أبو هو أذكي من إلياس، والتي بالقصص : الضوء، والقصص. ظلمة أول الليل، والخطب : الشأن والأمر صفر أو عظم والجمع خطلوب، واقتباس : أحد.

(٧) اللغة : نص : شاهد.
المعنى : إن موظفي تلك تشهد بصدق ما أقول وتحفظ لغاياتي وإذالي من كبوتي.
(٨-٩) اللغة : حربان : حار يحار كمحير واستحرازاً إذ نظر إلى الشيء فتشى عليه،
ولم يهد لسلله فهو حربان وحاتر، وهي حرباء، وأس : شجر معروف والمواحدة آلة.

وأدر ذكري كأساً
 فعسى أن يسمع الده
 واغتنم صفو الالي
 إلما العيش اخلاس
 ما ترى في عشر حا
 لواعن المهد وخاصوا
 ورآني ساريماً
 يتقى منه المسار
 فانهاب واتهام
 أذوب هامت بلحمي
 كلهم يسأل عن حا
 لي وللذئب اعتساس

- المعنى : إنني — وقد غشت السنن — أحبط خط عشواء في ليلة طيبة، ولكن لي وطيد الأجل أن تقضي عن الفمه وتتحسر الكربة، فكل أمر ينجلي بعد النباس.
 (٢،١) اللغة: انتطت: اتخذتها معلبة والمراد ما انتصرت بكتفك كأس والشسان: السنع وأصله من شمس الفرس شمساً وشمساً منع ظهره فهو شامس وشمس.
 المعنى : واذكرني أنها الصديق كلما قيلت آية الكرم وتملت رضاها وحملت كأسها، فاني مقرب بها صب، ثبت قوادي وملكت على أنظار نفسي، وقد حبل بي وبيتها وانحرس عن رداء البهجة والسرور فهل يجمع الدهري بينا وتحسني السلاق وتنسى أوصاب الحياة ونوابتها.
 (٣) اللغة: اغضم: انتهز، وصفو الالي. يراد بها عهود المساعدة، والاخلاص السلب على غرة، والاخلاص أيضاً: انتهز الفرصة.
 المعنى : واعيل القرمة حين تستمع ومعن نفسك بانتهز ما يحيى لك الظرف به من أطباب الحياة ولذاللهها.
 (٤،٥) اللغة: عشر كمسكن: الجماعة وأهل الرجل، وحالوا: مالوا أو تهربوا، وخاصوا: تقضوا، والسامري : الذي يهد المجل من بي إسرائيل، وعفن : عجب.
 المعنى : يستنكرون ابن زيدون على ابن جهور وحاشيته لتكبرهم له وتغترفهم عليه وتفغضهم العهد وذكرائهم المعروف فقد ثبتوه تقد الموارد في كتب الصحاري، وفروا منه فرار الظاهر من الأرجاس والأجساش، كأنما هو سامي دنسه عيادة المجل.
 (٦،٧) اللغة: الاتهام: أخذ اللحم بقدم الأسنان، والاعتساس: الطواوف بالليل.
 المعنى : إن ابن جهور وبطانته إن هم إلا كالذباب التي ولدت بهوش لحمي والفتنه بي، يتساءلون عن حالي ويطهرون لي الصحة والإعفاء مع أنهم يسقطون أبيائي ويحسسون أموري ليهدموا صرحي ويشوهوا سيرتي.

إن قسا الدهر فلما
ء من الصخر انجاس^(١)
ولكن أسمىت محبو
سا فلقيث احتباس^(٢)
وبقت المسك في التر
ب فيوطا ويداس^(٣)

٣٣ — وقال ابن خفاجة في وصف جبل :

بعيشك هل تدري أهوج الجنائب
تبخ برحلي أم ظهور الجنائب^(٤)
فما لاحت في أولى المشارق كوكبا
فأشرت حتى جلت أخرى المغارب^(٥)
وحيناً تهادى في الفيافي فأجحل^(٦)
وجوه العنايا في قاع الغيايب^(٧)
ولا جار إلا من حسام مصمم
ولا أنس إلا أن أضاحك ساعة
نفور الأماني في وجوه المطالب^(٨)

(١) اللغة : الأنجاس : الصخر والبروج.

المعنى : إن اغطشت لي الليل وساه حالياً فيما قرب تمحّر اللمة والماء قد يضر
من الصخر، ولكن كنت أرسف اليوم في أغلال السجن فلذا أبغدا حرفاً طليقاً،
فالجليث — وهو أعم الأشياء تفعلاً — يختلس ويختلف، وإذا انتهكت كرامتي ونكست
هاتني فإن المسك كثيراً ما يفت في البرى فخطوه العمال وتدوس الأقدام.

(٢) اللغة : هوج الجنائب. الرياح الجنوية الهوجاء، والجنائب : جمع نحبة وهي الناقفة
الكريبة. يقول لست أدرى : أهي الرياح الهوج التي تحمل رحلي وتقلن لم الترق
الكريبة (وهو كتابة عن نشاطها وسرعتها).

(٣) اللغة : لحت : نظرت، والفيافي : جمع فياء وهي الصحراء، وأجعلي : أتبر، والقردة:
أختتاب الرجال. المعنى : يصف رحلة عينة في الصحراء قد لف فيها الليل بشملة،
وشعر بالخطر يدتو منه وأنه يوشك أن يفقد حياته، فليس له من جار يستجير به
سوى سيفه المصمم، وليس له دار يعصم بها وبفتحها إليها سرى أختتاب الرجال.

(٤) اللغة : وجوه المطالب : شئ المطالب. يقول إنه غالباً فريداً وحياناً لا يجد من يؤمن
وحده وينصب وحشته سوى آماله التي تعيش بخاطره فسلاً نفسه قوة ونضر قواده
رجاء وترتبط على قلبه فتفقد من مخلوقه وأوهامه.

وليل إذا ما قلت : قد باد فانقضى
صاحت الديباجي فيه سود ذواب
فخرقت جيب الليل عن شخص أطلس
رأيت به قطعاً من الفجر أغشاً
وأرعن طماح الذؤابة باذخ
يسد مهب الربيع عن كل وجهة
وقرر على ظهر الصلاة كأنه
يلوث عليه الغيم سود عمامٍ
أصخت إليه، وهو آخرس صامت
وقال : إلى كم كنت ملجاً قاتل

٤١) تكشف عن وعد من الوطن كاذب
 لأعشق الآمال بيض ترابٍ^(٢)
 تطلع وضاح المضاحك قاطبٍ^(٣)
 تأمل عن نجم توقد ثاقبٍ^(٤)
 يطأول أعنان السماء بغاربٍ^(٥)
 ويزخم ليلاً سهبه بالمناكبٍ^(٦)
 طوال الليالي مفكّر في العواقبٍ^(٧)
 لها من ويمض البرق حمر ذواتٍ^(٨)
 فحدشي ليل السرى بالمحاجاتٍ^(٩)
 وموطن أواه تتسلل تائبٍ^(١٠)

(٤٢١) اللة : تكشف ظهره ، واللواط : جمع ذواقة وهي الخصلة من الشعر المحتلى ، والرثاء : عظام الصدر أو ما وفى الرثوقتين منه أو ما بين الثديين غرة إلى سواد ، ووضاح المضاحك : أي تبراء في عللاته أشعة الفجر ، وقاطب : أي أنه لا يزال عليه من غرش الليل بقية . . والرثوقين : عظامان في موضع الكتف أو موضع الفلاحة ، وأنطلس : شخص أنطلس ، والأنطلس الذي في لونه غير .

(٤) اللقة : ثاقب : لامع.
المعنى : رأيت به قطعاً أغيش من الفجر لا يزال يمدو فيه نجم متقد ثاقب، وهو الزهرة أو عطارد، لأنهما من كواكب الصبايج يكوتان بالتبادل على الأفق عند طلوع الفجر.

(٥) اللقة : وأورن : ورب جبل أرعن مرتفع القمة، ويأخذ عال، والشارب: الكاهل، والمناكب: جمع منك : وهو مجتمع رأس الكتف والعنق.
يقول : ورب جبل على القمة يطأول السماء يكاهله، يحول دون سير الرياح وهو بها، ويزحم الكواكب بالمناكب.

(٨٧) اللقة: **الصلة:** الفقر تو المفارقة لا ماء فيها أو الصحراء الواسعة، يلوث: يلف
ويضم على رأسه من التهم عظام سوداء لها بروق حمر.

(٩٤) اللقة: **اختفت:** اختفت، والسرى: السير ليلًا.

(١٠) اللقة: **الألوان:** النايل وتبيل إلى الله: انقطع للعبادة.

المعنى: كثيرة ما اتجأ إلى القاتلتين وأوى إلى العابدين من الرهان الذين ينون
سوامعهم في رؤوس الرجال.

وقال بظلي من مطلي وراكب^(١)
وزاحم من خضر البحار غواربي^(٢)
وطارت بهم ريح النوى والتواب^(٣)
ولأنوح ورقى غير صرخة نادب^(٤)
ترفت دموعي في فراق الصواحب^(٥)
أودع منه راحلاً غير آب^(٦)
فن طالع أخرى الليلى وغارب^(٧)
يمد إلى نعامك راحة راغب^(٨)
يترجمها عنه لسان التجارب^(٩)
وكان على عهد السرى غير صاحب^(١٠)
سلام فانا من مقيم وذاهب^(١١)

٣٤ — وقال أبو الحسن بن الحباب يرثى ثانى ملوك بني الأحر
أبا عبد الله (٦٧١—٦٧٠هـ) ويمدح ولده بتقلد أمره بعده :

- (١) اللغة : الدلنج : من الدلنج وهو السير من أول الليل، والمؤوب : من الأدب والإياب هو الرجوع، وقال : أى نام وقت القبرولة وهي نصف النهار.
- (٢) اللغة : النكب يضم النون واسكان الكاف. جمع نكماء، وهي الريح تهب بين مهني ريحين، ومعاطفي وغواربي : يريد بهما جوانبي وأظهربي.
- (٣) اللغة : طوتهم : أخفقهم والمراد أناتهم، والنوى : العراق والعد.
- (٤) اللغة : خفق أيكي : أى خلق غصون أيكي، والأيك : اسم جمع لايكه والأيك : الأشجار المتكلفة، والورق : جمع ورقاء وهي الحسامه.
- (٥) اللغة : غرض الدمع : نقصه وحبسه، وبقال : غاض الكرام أى قلوا، والسلوان : النسان والسلى، وزفت : سكت واستفدت.
- (٦) اللغة : ويطعن : يرحل، وأرعى الكواكب : أراعيها وأساعدها.
- (٧،٨) اللغة : الضارع : الخاشع، والراحة : كف السيد، والعبرة : العلة.
- (٩) اللغة : فنسى : فنسى، وسرى : أزال، وشحي : ألمرب.
- (١١) اللغة : نكتب عنه : ملت عنه، والنصرفت، والطبة : الحاجة والقصد ووجهة المسافر، ومن غي « ومن مقيم » زائدة أو بיאنة، أى فانا من بين مقيم وهو أنت وذاهب وهو نحن.

وصاب جليل وصنع جميل
فذاك يميج بحر الأسى
وكل الأنام له باهت
فند غاض بحر الندى لم تزل
وحق لأجيالنا أن تصسو
لعن ساعنا خطب ذاك المصا
فمن قصره وإلى قصره
تبدل من نعمة تتقضى
وعوض من زائل باقى
فقفل للمعادين : موتوا أسى
فقد حل حيث اشتهى، وارتقى
أولاه مولاه ما اختاره
فما زال حزب الهوى في اعترا
ظهوراً يسر إلى حرفهم
وطوراً يجهز جيشاً لهم
وخلف فيما الرضا العادل الـ
به ألف الله شمل الـ
ضللاً فقد إمام الهوى
قال لإعزاز دين إلا
صبراً لخطب بهد القوى
فلولاك يا محيي المكرما
ولولاك من للعلى بعده
ومن للكفاح وسر الرما
ومن للعياد ومن للبلاد
ومن للأيادي وقتل الأعداء
وقد جبر الله صدع القلوب

بغيت العفة وسم العدا
فأشرت الأرض من بعد ما
والجس أندلس عدله
فدم للأئم كما يتغى
عليك من النصر ظل ظليل
وقابل جميع جيوش الأسى
بصبر يرد شاهما فليل
ولا زلت في ملكك المعنى
وفي نعم ضافيات الذيل

٣٥ — وكان ثالث ملوك بني الأحرر بن محمد بن يوسف (٧٠٨-٢٠١هـ) شاعراً بليغاً، وكان شعره مستطرفاً من مثله. لا، بل يفضل به الكثير من يتحل من الملوك الشعر. وكان له مجموع منه ألمه بعض خدامه. فمن بعض المخطوطات :

واعدنني وعداً وقد أخلفاً أقل شيء في الملاج الوفا
وحال عهدي ولم يرعه ما ضرره لو أنه أنصفاً
ما بالها لم تتعطف على صب لها ما زال مستعطفاً
يستطاع الأبناء من نحوها ويرقب البرق إذا ما حفا
خفقت سقماً عن عياد الورى وبان حبي بعد ما قد خفا
له كم من ليلة بتها أدير من ذاك اللهي قرقعاً
متعنتي بالوصول منها وما أخلفت عهداً خفت أن يخلقاً
ومنها :

ملكتك القلب وإنني أمرؤ
أوامرني في الناس مسموعة
وليس مني في الورى أشرفاً
ويتقى عزمى إذا أرهقاً
تخالها السحب غدت وكفناً
جزناً تليد الفخر والمطرفاً
نخاف إقداماً ونرجى ندى
له ما أرجى وما أخوفنا
لي رأية في الحرب قد غادرت
ربع العدى قاعاً بها صفصفاً

يا ليت شعري والمني جمة والدهر يوماً قد يرى منصفاً
هل نرتاحى اليوم تدانيكم أو يصبح الدهر به مسخفاً

٣٦ - وقال الشيخ القاضي أبو بكر بن شهرين برئي السلطان اسماعيل
أحد ملوك بني الأحمر (٧٢٥-٧٣٤هـ)، ويعرض بعض من حمل عليه
من خدمته :

طائفًا بين المغاني
لا أرى ما ترمي
ثانية تستفيان
ما له في الملك ثان
مدره الحرب العوان
ني على شجو عنانى
جمة فيما تذكّر ان
ما عليه أذنان
فأقضيا ما تقضيان
من فلان وفلان
وعلينا شاهدان
قف : من قاص ودان
ملوب في كل أوان
ذو مقامات حسان
حائل دون المغاني
ود اخوان الخوان
ء على الرمل حوانى
ني ولا بالمعانى

(١) القمع : الموت المعجل.

وينادي : علاني
ولأ الفخر المدآن
والردى أحمر قان
أى رمح لطعنان
حتمى سامي المكان
ض إلى أقصى عمان
خلف سرج أو عنان
يهه تعزاف القيان
ر إليها غير وان
ليس بالقلب الجيان
لا نحوس في القرآن
بالردى في العتفوان
عشر الا بثمان
من هضاب ومحانى
سرع من لمع العيأن
في الثرى ملقى الجران
ـ تهاداه الغوانى
ـ ثم ثبور الأقحوان
ـ بين سحر وليان
ـ من ثراه بليان
ـ أغمد السيف اليماني
ـ د القميص الأرجواني
ـ ن عليه عاطيانى
ـ للثرى مما شجاني
ـ عون أعقاب الأذان ؟
ـ ن بأهل للهوان

٣٧ — وقال ابن عبليون، المتوفى سنة ٥٢٠هـ، في رثاء بني الأفطس من ملوك الطوائف :

فما يكاء على الأشباح والصور^(١)
 عن نومة بين ناب الليث والظفر
 والبيض والسمير مثل البيض والسمير^(٢)
 يد الضراب وبين الصارم الذكر^(٣)
 فما صناعة عينها سوى السهر
 وكان عصباً على الأملالك ذا أثر^(٤)
 ولم تدع لبني يونان من أثر^(٥)
 ولا أجرت ذوي الغایات من مصر^(٦)
 فما التقى رائق منهم بمعتکر^(٧)

الدهر يفعع بعد العين بالأثر
 أنهاك أنهاك لا أنهاك واحدة
 فالدهر حرب وإن أبدى مسالمة
 ولا هوادة بين الرأس تأخذه
 فلا يفترث من دنياك نومتها
 هوت بدارا، وقلت غرب قاتله
 واسترجعت من بني ساسان ما وهبت
 وما أفال ذوي الهیئات من يمن
 ومزقت سأـ في كل فاصية

(١) فجمعه كمعنـ : أصـنه بـصـيـة : عن الشـيـ : نفسهـ . الأـثـرـ : بـقـيـهـ . الأـشـبـاحـ جـمـعـ شـيـ : وهو الشخصـ أي سـوـادـ الإنسانـ وـغـيرـهـ . الصـورـ جـمـعـ صـورـةـ : وهي شـكـلـ الشـيـ . وقد جـمـلـ الشـاعـرـ الأـشـبـاحـ في مقابلـةـ العـيـنـ وـالـصـورـ في مقابلـةـ الأـثـرـ ، والمـعـنىـ أنـ الـدـهـرـ لا يـقـيـ شـيـاـ ، فـاـنـ بـقـيـتـ منهـ صـورـةـ آثـرـىـ عـلـىـ عـلـيـهـ ، فـاـنـ كـانـ هـذـاـ فـعـلـ الـدـهـرـ فـلاـ مـعـنىـ للـكـاءـ عـلـىـ شـيـ .

(٢) رـجـلـ حـرـبـ : آثـرـ عـدوـ للـذـكـرـ وـالـأـثـرـ وـالـجـمـعـ وـالـوـاحـدـ ، لـأـنـ فـيـ الأـصـلـ مـصـدرـ فـنـاـ وـصـفـ بـهـ يـقـيـ عـلـىـ إـفـادـهـ . الـبـيـضـ وـالـسـمـيرـ الـأـولـانـ ، يـصـحـ أـنـ يـرـادـ بـهـماـ النـسـاءـ الـبـيـضـ وـالـسـمـيرـ . وـيـكـونـ قـدـ ضـرـبـهـماـ مـثـلـ لـقـدـ الرـمـانـ ، يـرـيدـ أـنـ النـسـاءـ ، وـإـنـ كـانـ شـائـعـاـ الـبـنـ وـالـضـعـفـ ، وـمـسـرـةـ الـإـنـسـانـ ، يـجـعـفـ مـنـ نـاحـيـهـ الشـرـ ، فـيـكـنـ كـالـسـيـرـوفـ وـالـرـمـاحـ .

(٣) الـهـوـادـةـ : الرـفـقـ وـالـلـيـلـنـ . الـذـكـرـ : الـقـوـيـ . يـشـيرـ إـلـىـ أـنـ الـدـهـرـ لـأـنـهـاـ هـوـادـةـ ، فـلاـ يـمـرـ

مـنـ بـرـ ، إـلـاـ وـالـحـرـبـ فـيـ مـسـتـرـةـ .

(٤) دـارـاـ : آثـرـ مـلـكـ مـنـ مـلـوـكـ الـقـرـسـ الـأـوـلـىـ ، وـقـاتـلـهـ هـوـ الإـسـكـنـدـرـ . الـعـضـ : الـسـيفـ .

(٥) بـنـ سـاسـانـ : هـمـ الـقـرـسـ الـأـوـلـىـ . وـأـبـوـهـمـ الـذـيـ يـسـبـونـ إـلـيـهـ هـوـ سـاسـانـ الـأـسـفـ وـهـوـ

أـرـدـشـيـرـ بـنـ بـاـيـكـ .

(٦) الـهـيـئـةـ : الشـارـةـ وـالـعـلـامـةـ . الـقـاـيـةـ : مـعـانـيـهـ الـرـاـيـةـ . يـقـالـ أـقـالـ اللـهـ عـرـشـكـ وـأـفـلـكـهاـ .

(٧) وـأـجـارـهـ : قـيـلـهـ فـيـ جـوـارـ وـحـمـاءـ ، وـمـعـنـىـ أـنـ الـأـيـامـ وـالـبـالـيـالـيـ لـمـ تـمـعـ ضـرـرـهـاـ عـنـ

مـلـوـكـ الـبـنـ وـمـصـرـ .

(٨) سـأـ : هـوـ اـنـ يـشـجـبـ بـنـ يـعـربـ بـنـ قـطـطـانـ ، وـسـيـ يـذـكـرـ لـأـنـهـ أـولـ مـنـ دـخـلـ السـيـ

فـيـ بـلـادـ الـبـيـنـ ، وـقـدـ ذـكـرـ اللـهـ تـمـرـيقـ أـلـوـادـ سـأـ بـقـولـهـ تـعـالـيـ : »لـقـدـ كـانـ لـسـأـ فـيـ مـكـنـهـ =

مهلاً بين سمع الأرض والبصر ونفذت في كلب حكمها ورمت

٣٨ — ومن شعر الوصف :

شجرة ذهبية نزعت إلى
وكأنما تأبى لوقع طيرها
أن تستقل بهضها وتطيرا
من كل واقعة ترى منقارها
ماء كسلسال اللجين نميرا
خرس تعد من الفصاح فإن شدت
وكانما في كل غصن فضة لانت فارسل خيطها مجرورا

٣٩ — ومن نظم الفنون — وقد كثر عندهم، فنظموا قواعد العلوم
والفنون كالتأريخ، والعروض، والنحو، والصرف، والبديع، والنفقة، ولابن
عبد ربه أرجوزتان، إحداهما في العروض، والأخرى في تاريخ المندر
ابن محمد، (٢٧٣ - ٢٧٥) من خلفاءبني أمية — قول ابن عبد ربه
في أرجوزته الأخيرة وهي طويلة، منها :

بالمندر بن محمد شرفت بلاد الأندلس
فالطير فيها ساكن واللوحش فيها قد أنس

٤٠ — وقال أبو البقاء صالح بن شريف الرندي المتوفى سنة ٦٩٨هـ
برثي الأندلس :

آية جننان عن يمين وشمال، كلوا من رزق ربكم، واشكروا له، بلدة طيبة ورب غفور،
فاغرضوا، فأرسلنا عليهم سيل الغرم، وبذلناهم بعثتهم جنحين ذواتي أكل عصطف
وأثل وشيء من سدر قليل ^{هـ} إلى قوله تعالى [﴿]ومرقاهم كل مسرق [﴾]،
وقد وصفوا عمارة هذه الأرض فقالوا : إن المرأة كانت إذا أرادت أن تجتني من
ثمارها شيئاً وضفت مكانها على رأسها وخرجت تحت الأشجار وهي تنزل،
أو تحمل ما شاءت فلا ترجع حتى يمتليء مكانها، ولما تمرق أولاد سأ كانوا عشرة،
سكن الشام منهم أربعة : وهم لخم، وحنام، وغضان، وعلامة، وسكن الذين ستة هم
كندة وندمح وحمير والأزد وأشمار والأشبريون، والراوح الوقت من الزوال إلى الليل،
والسر فيه، وراح إلى أهلها أي رفع في هذا الوقت، والابتكار أو البكر : الخروج
وقت البكرة، وهي من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس.

فلا يغُر بطيب العيش إنسان
من سره زمن ساعته أزمان
ولا يدوم على حال لها شان
إذا نبت مشرفات وخرسان^(١)
كان ابن ذي يزن والحمد لله مدآن^(٢)

لكل شيء إذا ما تم نقاصان

هي الأمور، كما شاهدتها دول

وهذه الدار لا تبقى على أحد

يمزق الدهر حتماً كل ساقية

ويختفي كل سيف للفتاء ولو

ومنها :

دهى الجزيرة أمر لا عزاء له
أصابها العين في الإسلام فارتؤت
فاسأل بلنسية ما شأن مرسية
وأين حصن وما تحويه من نزه
قواعد كن أركان البلاد فما
عسى البقاء إذا لم تبق أركان
هوى له أحد وإنهد ثهلاً^(٣)
حتى خلت منه أنظمار وبلدان
وأين شاطئة أم أين جهان
ونهرها العذب فياض وملأن
ـ ٤١ ـ وقال ابن الأبار القضاوي المتوفى ٦٥٨هـ وكان قد أرسله
زيان صاحب بلنسية إلى أبي زكريا صاحب افريقيا يستجده
أدرك بخيلك خيل الله أندلسـ إن السبيل إلى مناجاتها درساً^(٤)

(١) السابقة : الدرع الثامة الطويلة، بها السيف : أحطأ الضربة، المشرفات : جمع مشرف، وهو السيف وإنما سميت كذلك، نسبة إلى المشارف وهي قرى من أرض العرب، تندو من الريف في بلاد الفرس، وكانت العرب تجلب منها السيف فنسبت إليها، والسبة كما تعلم للواحد، الخرسان، بضم الخاء وكسرها، جمع عرض بالضم، وهو الفتاة أو السنان.

(٢) التضي السيف : جرده من غصنه كضوء... ذو يزن : من ملوك اليمن، غسان : قصر يصنهاء باليمن، بهاء يشرح بأربعة وجود : أحمر وأبيض وأصفر وأخضر، وهي داخله قصرأ بسبعة سقوف، بين كل سقوف أربعون دراعاً، أو قبة سيف ابن ذي يزن، أو حصن في رأس جبل صماء.

(٣) أحد : جبل أحمر قرب المدينة مع شعاليها، وعنه كانت الواقعة الفطيمية، التي قتل فيها حمزة عم النبي عليه السلام، ولثلاثة وسبعين صحابياً، وكسرت رياضة الرسول، وشج وجهه الشريف وكلمت شفته : ثهلاً : جبل من جبال نجد.

(٤) درس الطريق ودرسته الريح كلامها من باب قعد : يعني خطب معلمه.

فلم يزل منك عز النصر ملتمسا
قطالما ذاقت البلوى صباح مسا^(١)
للحداثات وأمسى جدها تمسا^(٢)
يعود مأتمها عند العدا عرسا
تشتى الأمان حذاراً والسرور أنسى^(٣)
ما ينفع النفس أو ما ينزع النفس^(٤)
مدائن حلها الإشراك مبتسماً
جدلان وارتحل الإيمان مبتسماً

٤٢ — وما كتب به آخر ملوك الأندلس، أبو عبدالله محمد، إلى سلطان فارس يتسلّل إليه، وهي من إنشاء كاتبه البليغ، أبي عبدالله محمد القيلي :

رعياً لما مثله يرعى من الذم
مولى الملوك ملوك العرب والجم^(٥)
جار الزمان عليه جور متقم
بك استجرنا ونعم الجار أنت لمن
حتى غدا ملكه بالرغم مستيناً^(٦)

(١) يقال حاشى فلاناً من القوم أن استقام، والمعنى: أفقد حشانته الأندرس (بقية روحها) بما تعانيه وتقاشه من العناب.

(٢) اللام في للجزيرة، داخلة على المستفات له، فهي للملك مكتوبة، والمستفات به مقدر والأصل ما ذلك أنها السلك للجزيرة، الجزء: بالتحريك الشاء السميحة ومعنى كون أهل الجزيرة صاروا شيئاً مساماناً، أنهم أعدوا للذبح، كما تعدد هذه الشاء له.

(٣) الشارق: الجانب الشرقي فتكون الشارقة الشرقية، وكذلك القاربة النامية العربية، البارقة: السوق. الشالية: واحدة الشاليب وهي الأنساس والأقطار، يقول: في كل ناحية شرقية من هذه البلاد تدنو سوق يكون من آثار قطعها مأتم عند أهل البلاد وعرض عند المغيرين المهددين كما قال النبي (صايب قوم عند قوم فوالد)، وكذلك في كل جهة غربية تحدث أمور دنسة مخجنة من فعل الأعداء، تقلب الأرض للأهلين خوفاً، والسرور حزنأً.

(٤) نصف الشيء: اقتله من أصله. نرف البر: نرج ما يعلمه. النفس: من معانها الجسد والدم. وظاهر أنه يجب ارادة المعنى الأول في قوله ينصف النفس، والمعنى الثاني في ينزع النفس، ومع ملاحظة أن الأخيرة وردت في البيت محركة، والأصل تسكيتها.

وهل مرد لحكم منه منجم
تصول حتى على الأسد في الأجم
نمنا بها تحت أفنان من النعم
يرمى بأفعع حتف من بهن رمي

حكم من الله حتم لا مرد له
هي اللالي وقاك الله صولتها
كنا ملوكاً لنا في أرضنا دول
فأيقطتنا سهام للردى صب

٤٣ — ولابن هاني في الرثاء:

ربما جاد بخييل فحمد
يد شيئاً تلقاه ييد
بعد ما أومض برق ورعد
تعرف البأساء منه والنكد
إذا ما طيب الزاد نقد
ولقد تبه من كان رقد
وقناة ليس فيها من أود

وهد الدهر نقيساً فاسترد
كلما أعطى فوقى حاجة
كاذب جاء جهاماً زيرجاً
حاب من يرجو زماناً دائمًا
فيإذا ما كدر العيش نعا
فلقد أذكر من كان سها
أبداً يعجم مني نعمة

٤٤ — ولسان الدين بن الخطيب من موضع له :

يا أهيل الحي من وادي الفضا
ضاق عن وجدي بكم رحب الفضا
لا أبالي شرقه من غربه
فأعيدوا عهد أنس قد مضى
تعقروا عائيكما من كربه
واتقوا الله وأحيوا مغرماً
حبس القلب عليكم كرماً

٤٥ — وكانت الأندلس — كما يقول باحث معاصر — ميادة الخيال
ومسرحه، بما ركب الله في طبيعتها من فنون السحر والجمال. لذلك
أتي شعراء الأندلس منه بالعجب العجاب في أشعارهم، فلهم التشبثيات
البدعة، والتوليدات العجيبة، والأختيلة الرائعة. وكان ابن هاني يطرق
المعاني المعروفة. ولكنه بما يولد وي الفلسف ويغريب، ويبدع في الصناعة،
يخيل للناظر أنه أتي بالجديد المبتكر، وإنما المبتكر التوليد والخيال،
والمعاني الجزئية. هذا مع ما لابن هاني من المعاني الجديدة، التي

سلكه في عدد الشعراء المبتكرین. انظر إلى قوله يتغزل :

قمن في مأتم على العشاق ولبسن السواد في الأحداق
ويكين الدماء، بالعنم الرطب المقنی، وبالخدود الرقاد^(١)
ومنحن الفراق رقة شکوا هن، حتى عشت يوم الفراق

ومن روائع التشبیهات قول حمدة بنت زياد :

ولما أبى الواشون إلا فراقنا وليس لهم عندي وعندك من ثار
وشتوا على أسماعنا ككل غارة وقل حماتي عند ذاك وأنصاری
غزوتهم من مقتنیك وأدمعی، ومن نفسي بالسيف والسيل والنار

وقول ابن خفاجة يصف السرى في غلاة :

ومقارنة، لا نجم في ظلماتها يسري، ولا فلك بها دوار^(٢)
تلهم الشعری بها، وكأنها في كف زنجي الدهجی دینار^(٣)
قد لفني فيها الظلام وطاف بي ذئب يلزم مع الدجى زوار
والليل يقصر خطوه ولربما طالت ليالي الركب وهي قصار
قد شاب من طرف المجرة مفرق فيه، ومن خط الهلال عنار^(٤)

ومن إمعانهم في الخيال فثنا في كلامهم هذا النوع البديهي المعروف
بحسن التعليل، فقل أن تجد شاعراً لم يستعمله. ومن أمثلة قول أبي
بكر بن زهر :

وموسدين على الأكف خدوهم قد غالهم نوم الصباح وغالني
ما زلت أستقيهم، وأشرب فضلهم حتى سكرت ونالهم ما نالني
والآخر تعرف كيف تأخذ ثارها إني أملت إناءها فآمالني

(١) العم : شجر له ثمرة حمراء يشهي بها البستان المخصوص. المقنی : الشديد الحمرة.

(٢) المقارنة : الغلاة لا ماء فيها.

(٣) الشري : كوكب يظهر في شدة الحر.

(٤) المجرة : منطقة في السماء ذات نجوم كثيرة لا يميزها البصر فترى بقعة بيضاء.

وقول ابن هانئ :

أثترت رمحك من رؤوس ملوكهم
لما رأيت الغصن يعشق مشمرا
وصبّت درعك من دماء كماتهم

وقول ابن حمديس يصف نهراً صافياً :

ومطرد الأمواج يصقل متنه
صبا أعلنت للعين ما في ضميره
جريح بأطراف الحصى كلما جرى عليه، شكا أو جاعه بخبره

وقول محمد بن البين البطليوسى يصف سرب نساء :

غصبوا الصباح، فقسموه خدوذا
واستهبا قبض الأراك قدودا
ورأوا حصا اليقوت دون نحورهم
فاستبدلوا منه التجموم عقدوا
فسوا بهن ضراغماً وأسودا
واستودعوا حدق ألمها أجنفانهم
حتى استعاروا أعينا ونهودا
ضوء النهار بليلها مقودا
وتضافروا بضفائر أبدوا لنا
صاغوا الغور من الأقاخي بينها
ماء الحياة لو اغتصى بيها

وقالت حمدة بنت زياد تصف وادياً :

وكان لفحة الرمضاء واد
سقاه مضاعف الغيث العريم
حلانا دوجه، فحننا علينا
حتى المرضعات على القطييم
وأرشقنا على ظلماً زلالا
أذ من العدامه للنديم
يصد الشمس أنى واجهتها
فيحجها ويأخذن للنسيم
بروع حصاه حالية العذاري
فلمس جانب العقد النظيم

٤٦ — وقال بعضهم يصف ناعورة :

وذات حينين ما تفيض جفونها
من اللحج الخضر الصوافي على الشط
وبتكي فتحي من دموع جفونها
رياضاً تبدت بالأزهر في بسط
 فمن أحمر قان، وأصفر فاقع
وأزهر ميض، وأدكن مشمسط
كان ظروف الماء من فوق متها
لآلئ جمان قد نظمن على قرط

وقال أبو عبدالله الشبل الشيباني القائد يصف موقعة بينه وبين أعدائه :

ولما تلاقينا، جرى الطعن بيتنا فتنا و منهم طائعون عديد
 وحال غرار الهند فيما وفيهم فانا و منهم قائم و حصيد
 فلا صدر إلا فيه صدر مشفف
 صبرنا ولا كهف سوى البيض والنار
 ولكن شدنا شدة فليلدوا
 فولوا وللسمر الطوال بهامهم ركوع وللبيض الرقاد سجود

٤٧ — وقال ابن سهل الاسرائيلي يصف جمال الطبيعة :

الأرض قد ليست رداء أحضراء والطفل يشر في رياها جوهرها
 هاجت فخلت الراهن كافراً بها وحسبت فيها الترب مسكاً أذفرا
 وكأن سوسنها يصافح وردها نغير يقبل منه خداً أحمراً
 والنهار ما بين الرياض تخاله سيفاً تعلق في نجاد أحضراء
 وجرت بصفحتها الرياح فحسبتها كما ينم في الصحيفة أسطرا
 وكانت — إذ لاح — ناصع فضة
 والطير قد قات به خطباؤه لم تخد إلا الأراكمة منيرا

٤٨ — وقال أبو عبدالله بن الأزرق قاضي الجماعة بقرطبة :

عم باتصال الزمان ولا تialisى بمن
 وهو بواسي بالرضا من سمع أو حسن
 أو من عجوز تحظى والظهور منها منحنى
 أو من مليح مسعد موافق في الزمن
 مهما تبدى خده يبدو لك الورد الجنى
 والغضن في ثوابه اذا تمشى يتشنى
 لا ألم لي، لا ألم لي إن لم أبرد شجنى
 وأخلمن في المحو ن والتصابي رسننى
 وأجعل الصبر على هجر الملاح ديننى

و منها :

فإنتي لـا صـحـ
فـلا تـكـنـ لـيـ لـاحـيـ
فـلـمـ أـزـلـ أـعـرـبـ عـنـ
وـانـ تـسـفـهـ نـظـرـيـ
فـالـصـفـعـ تـسـتـوجـهـ
وـبـعـدـ هـذـاـ أـشـفـيـ
وـأـضـرـبـ الـكـفـ أـمـاـ
قـدـ كـانـ أـولـىـ بـكـ عـنـ
الـفـيـ تـسـتـوجـهـ
عـرـضـتـ بـالـفـسـ كـذـاـ
أـنـدـيـ صـدـيقـاـ كـانـ لـيـ
فـتـارـةـ أـنـصـحـهـ
وـتـارـةـ أـلـهـ
وـرـبـمـاـ أـصـفـعـهـ
أـسـقـرـ اللـهـ فـهـ
يـاـ لـبـتـ هـذـاـ كـلـهـ
أـضـحـكـ وـالـلـهـ يـذـاـ
دـهـرـ تـولـىـ وـانـقـضـىـ
يـاـ لـيـتـيـ لـمـ أـرـهـ
دـنـسـتـ فـيـ جـانـيـ
وـبـعـتـ فـيـ عـيـشـتـيـ
كـائـنـيـ وـلـستـ أـدـ
وـالـلـهـ مـاـ التـشـيهـ عـنـ
لـكـمـ أـنـطـقـتـيـ
وـاحـسـرـتـيـ،ـ وـأـسـفـيـ!

لو أنصف الدهر لما
 وليس لي من جنة
 أسرح الطرف وما
 وليس لي من فرس
 يا ليت شعري وعسى
 هل أنعطي يوماً إلى
 وأجعلي ما شئت
 حيثذا أخلع في
 من منقذني أقدبه من
 وعلة قد استوى
 هل للثريد عودة
 تفوص فيه أنملي
 لا تسبوا لي سفها
 وبعد أن مضى يعدد ألوان الطعام التي يشاهدها قال :
 إيه خليلي هذه
 مطاعم لكتسي
 أعجب من ريقك اذا
 يسمى فوق الذقن
 هل نلت منها شيئاً
 ذذكرها أشعبني
 صاح فكل بالأذن
 فليس عند شاعر
 غير كلام الألسن
 سي أبدأ لم تكن
 بصور الأشياء وهـ
 قوله يربك ما
 ليس برى بالمكان
 ولتنصرف، فقصدنا
 أطراف هذا الوطن

٤٩ — وقال ابن عبد ربه :
 يقول لي العاذل : تب عن هوى
 من ليس يدنيك إلى مطلب
 وكيف لي، والدين دين الهوى
 فلا أرى أرجح من مذهبى ؟

أليس باب التوب قد سده طلوعه شمساً من المغرب؟

٥٠ — وقال ابن شهيد، وقد عرضت له جارية :
أمساك لاح، ألم يسر بـذا
مـسـلـلـكـمـ، مـرـخـلـلـرـداـ
صـائـدـ فـيـ كـلـ يـوـمـ أـسـداـ
تـشـفـ فـيـ حـيـكـ تـبـرـيـعـ الصـدـىـ
قـالـلـاـ: لاـ، ثـمـ أـعـطـانـيـ الـبـداـ
فـهـوـ مـاـ قـالـ كـلـامـاـ رـدـاـ
فـرـانـيـ الدـهـرـ أـجـرـيـ بالـكـدـاـ^(١)
قـالـ لـيـ يـمـعـلـ: ذـكـرـنـيـ غـدـاـ
شـربـتـ أـعـضـاؤـهـ خـمـرـ الصـباـ
رـشـأـ، بـلـ غـادـةـ مـسـكـورـةـ
عـمـتـ صـبـحـاـ بـلـيلـ أـسـوـدـ^(٢)

٥١ — ولشاعر اندلسي لما استولى المسيحيون على بلنسية يخاطب صاحب إفريقية ابا زكريا عبد الواحد بن أبي حفص :

نـادـتـكـ أـنـدـلـسـ فـلـبـ نـداءـهـ
وـاجـلـ طـوـاغـيـتـ الـصـلـبـ فـنـاءـهـ
مـنـ عـاطـفـاتـكـ مـاـ يـقـيـ حـوـيـاهـ
تـرـدـدـ عـلـىـ أـعـقـابـهـ أـرـزـاءـهـ
وـاعـقـدـ بـأـرـشـيـةـ النـجـاةـ رـشـاءـهـ
فـاستـبـقـ لـلـدـيـنـ الـحـنـيفـ ذـمـاءـهـ
قـصـرـتـ عـلـىـ تـنـاءـهـ وـرـجـاءـهـ
تـرـجـوـ بـيـحـيـ الـهـدـىـ آـمـالـهـ

(١) الكنا يضم الكاف : الصحراء.

(٢) المسکورة من النساء : المستبرة الساقين، أو المطروبة المخلق، بقال : امرأة مسکورة الساقين أي جدلاه النساء.

عقدت لنصر المستضام لوعها
شم الهوى نحو الضلال هناعها
يمري الشفون : دماءها لا ماءها
شب الأعاجم دونها هيجانها
حلل الريم، مصيفها وشانها
وتعلمت غرر المنى أثناها
نسخت تواقيس الصليب نداعها
في خاله الرائي اليه مساءها
وغدت ترجع نوحها وبكاءها
منها تمد عليهم أثياءها
عن محكمات لم نطق إحصاءها
لا عيدها تخفي ولا إباءها

واستشرفت أمصارها لإمارة
با حرستي لمقابل مقوله
لبيه بلنسية، وفي ذكراك ما
كيف السبيل إلى احتلال معاهد
والى ربا وأباطح لم تعر من
طاب المurus والمقبيل خلالها
بأبي مدارس كالطلول دوارس
ومصانع كتف الضلال صياحها
ناحت بها الورقاء تسمع شدوها
عجبأ لأهل النار حلوا جنة
صفحاً جميلاً أنها المولى الرضى
تقف القوافي دونهن حسيرة

الفصل الثالث

فن المoshحات في الأدب الأندلسي صور من المoshحات

الموشحة المنسوبة لابن المعز:

أيها الساقى، إليك المشتكى قد دعوناك وإن لم تسمع
ونديم همت فى غرته
وشربت الراح من راحته
كلما استيقظ من سكرته
جذب الرزق اليه واتكا وسقانى أربعاء فى أربع
ما لعنى عشيت بالنظر؟
أنكرت بعده ضوء القمر
وإذا ما شئت فاسمع خيري
عشيت عيناي من طول البكا وبكى بعضى على بعضى معي
غচن بان مال من حيث التوى
مات من يهواه من فرط الجوى
خفق الأحشاء موهون القوى

كلما فكر في الين بكي ما له يكفي لما لم يقع؟
 ليس لي صبر، ولا لي جلد
 يا لقومي عذلوا واجهدوا
 أنكروا شكوكاي مما أجد
 مثل حالى حقه أن يشتكى كمد المأس وذل الطمع
 كبدى حرى ودمى يكف
 ينرف الدمع ولا ينذرف
 أنها المعرض عما أصف
 قد نما حبى بقلبي وزكا لا تقل في الحب : إنى مدعى

موشحة ابن سهل:

وهي على وزن الرمل المحنوف، قال ابن سهل الإسرائيلي:
 هل درى ظبي الحمام، أن قد حمى قلب صب حله عن مكث
 فهو في حر وخفق متلما
 لم بتريح الصبا بالقبس
 غرراً أطلعت يوم النوى
 ما لقلني في الهوى ذنب سوى
 أختنى اللئات مكلوم الجنوى
 كلما أشكوه وجدا بما
 إذ يقيم القطر فيها مائما
 غالب لي، غالب بالشوده
 ما رأينا مثل ثغر نضده
 أخذت عيناي منه العربده
 فاحم اللمة، معاذل المسى
 وجهه يتلو الضحى مبتسمـا
 أكحل اللحظ، شهي اللعنـ
 وهو من إعراضه في عبسـ
 لي جراء الذنب. وهو العذنبـ
 أخذت شمس الضحى من وجنتيه
 مثرقاً للصب فيه مغربـ

وله خد بلحظي مذهب
لاحظته مقلتي في الخلس
ذلك الورد على المفترس

غادرتني مقناته دفنا
أثر التمل على صم الصفا
لست أحـاه على ما ألتـا
وعنوليـ نطقـ كالخـرس
حلـ في النفس محلـ النفس
تـلـ كلـ حينـ ما تـشـا
وهي ضـ وحرـ في العـثـا
أـسـ الغـابـ وأـهـواهـ رـشاـ
وهو منـ الـاحـاظـهـ في حـرسـ
اجـلـ الوـصـلـ مـكانـ الخـمسـ

والـهـرـ والـروـضـ لـيـ نـديـمـ
فـظـلـ فـيـ نـصـحـهـ مـلـيمـ^(١)
ما قـامـ لـيـ العـنـرـ بـالـشـبابـ
فـلـسـ أـصـغـيـ إـلـىـ عـتابـ
وـالـكـاسـ تـفـتـرـ عنـ حـبـابـ
إـذـ هـنـاـ فـوـقـهـ النـسـيمـ
وـاخـتـالـ فـيـ بـرـدـهـ الرـقـيمـ
وـمـنـ بـهـ هـمـتـ مـعـدـيـ

ذهب الدمع بأشواقـيـ إـلـيـهـ
بـطـلـعـ الـبـدرـ عـلـيـهـ كـلـمـاـ
لـيـتـ شـعـريـ،ـ أـيـ شـيءـ حـرـماـ

كـلـمـاـ أـشـكـوـ إـلـيـهـ حـرقـيـ
تـرـكـتـ الـحـاظـهـ مـنـ رـمـقـيـ
وـأـنـاـ أـشـكـرـهـ فـيـماـ يـقـيـ
فـهـوـ عـنـديـ عـادـلـ إـنـ ظـلـمـاـ
لـيـسـ لـيـ فـيـ الـحـبـ حـكـمـ بـعـدـمـاـ
مـنـهـ لـلـنـارـ بـأـحـشـائـيـ اـضـطـرـامـ
وـهـيـ فـيـ خـدـيـهـ بـرـدـ وـسـلـامـ
أـتـقـيـ مـنـهـ عـلـىـ حـكـمـ الـفـرامـ
قـلـتـ لـمـاـ أـنـ تـبـدـيـ مـعـلـمـاـ
أـيـهـ الـآـخـذـ قـلـبـيـ مـغـمـاـ

موشحة أبي الحسن العربي^(٢)
في نفمة العود والسلافـهـ
أـطـالـ مـنـ لـامـيـ خـلـافـهـ
دـعـنـيـ عـلـىـ مـنـهـجـ التـصـابـيـ
وـلـاـ تـنـطـلـ فـيـ الـهـوـيـ عـابـيـ
لـاـ تـرـجـ رـدـيـ إـلـىـ صـوـابـ
وـالـغـصـنـ يـدـيـ لـنـاـ اـنـعـاطـافـهـ
وـالـرـوـضـ أـهـدـيـ لـنـاـ قـطـافـهـ
يـاـ جـنـاـ عـهـدـيـ الـقـدـيمـ

(١) تولى عرش فاس أكثر من عشرين عاماً (٧٣١ - ٧٥٢ م) بعد والده ابن سعيد العربي، وتولى بعده ابنه أبو عنان العرش.

(٢) آلام : ألم : ألم ما يلام عليه .

مولىع بالتسوود
 طوعاً على رغم حسدي
 أسمعني طرفه السقيم
 فخذ من خده الكليم
 أخل من الأمان والأمل
 حلو اللئي ساحر المقل
 لم يخش رداً بما فعل
 إن حاد عن نهجه القوي
 فحق لي فيه أن أهوم
 بالسد^(١) والبنبر الهمج
 وشوقه دائمًا بهمج
 وللصبا مسرح أريج
 حتى انقضى شربه الكريم
 وهكذا الدهر لا يدوم
 عرج على حضرة الملوك
 من مدمع عاطل سلوك
 واحدك صدأ، لا فض فوك
 وأذكر له عهدي القديم
 وفقة بها وفقة العريم

ريم عن الوصل لا يرم
 ما تم إلا به التعم
 معندي القد ذو تحافه
 ورام طوفي به اتصافه
 غض الصبا عاطر المقابل
 ظامي الحشا مقعم المخلخل
 لكل من رامه توصل
 أشكوا، فيدي لي اعترافه
 لا أعدم الدهر منه رافه
 الله عصر لنا تقضي
 أرى ادكاري اليه فرضي
 فكم خلعننا عليه عضاً
 ورد أطال المنى ارتشافه
 الله ما أسرع انحرافه
 يا من يبحث المطبي غرباً
 وانثر بها إن سفتح غرباً^(٢)
 واسمع إلى من أقام صبا
 بلغ سلامي قصر الرصافة
 وهي عنى دار الخلافة

موشحة ابن باجة :

روى ابن خلدون أن الحكيم أبا يكر بن باجة حضر مجلس مخدومه ابن تيفلوبت صاحب سرقسطة، فألقى على بعض قيناته موشحة :

(١) من مترهات قرطبة.

(٢) الغرب : الدلو الكبيرة.

جسر الذيل أيماء جر وصل الشكر منك بالشكر
 خصب الرند منك باللهب
 من لجين قد حف بالذهب
 تحت سلك كجواهر الحب
 مع أحوى أغذب الشب
 أودعت كفه من السحر جامد الماء، وذائب التبر
 هاك نور الصباح قد لاحا
 ونسم الرياض قد فاحا
 فأشعب وشعشع الراحا
 لا تقد في الظلام مصباحا
 حين تنهل أدمغ القطر فقل الروض فاسم عطري
 فهموم راحت بأفراح
 في مساء عند إصباح
 والفسادي تحود بالراح
 وهي تسقى الريا بأقداح
 وقدود الأغصان بالسكر تتشى في غاليل حضر
 واستمر فيها إلى أن ختمها بقوله :
 عقد الله راية الصر لأمير العلا أبي بكر
 فلما طرق ذاك التلحين سمع ابن تيفوليت، صاح : واطرباه، وشق
 ثيابه، وقال : ما أحسن ما بدأت، وما ختنت، وحلف بالإيمان المفلترة،
 لا يمشي ابن ياجة إلى داره، إلا على الذهب، فخاف الحكم سوء
 العاقبة، فاحتلال بأن جعل ذهبا في نعله ومشى عليه.

موشحة لابن زهر :
 قال ابن زهر الفيلسوف المتوفى سنة ٥٩٥هـ.

ما للملوء من سكره لا يفيق يا له سكران
هل تستعاد أياماً بالخليج ولاليلا
إذ يستفاد من التسميم الأريح مسك دارينا
إذ يكاد حسن المكان البهيج أن يحيينا
نهر أظلله روح عليه أسيق موتنق فينان
والماء يجري وعائم وغريق من جنى الريحان

موشحة ابن البانة :

قال ابن البانة الأندلسي المتوفى سنة ٥١٧ هـ :
أذاب الأشواق، روحي على أجساد، أغارها الطاووس، من ريشه أبراد.

كوابع أثراب	تشابهت قدا
عضت على العتاب	بالبرد الأندي
أوصست بي الأوصاب	وأعرت الوجدا
وأكثر الأحباب	أعدى من الأعداء ^(١)

موشحة لأبي حيان :

ولأثير الدين أبي حيان النحوي الأندلسي الغرناطي المتوفى بمصر
سنة ٦٥٤ هـ :

عادلى في الأهييف الآنس لو رآه الأسد قد عذر^(٢)
رشاً قد زانه الحور

(١) الكوابع جمع كابع : البنت نهد ثديها. العتاب : ثمر أحمر تشبه أطراف الأنامل.
البرد : الثلج وعني به الأسنان.

(٢) الأهييف : الضامر البطن الرقيق الخاصرة.

غضن من فوقة قمر
قمر من سحبه الشعير
تغز فيه أم درر
جال بين الدرر واللمس^(١) خمرة من ذاقها سكرا
رجة بالردد أم كسل
ريقة بالغدر أم عسل
وردة بالخد أم خجل
كحل بالعين أم كحول
يا لها من أعين نعس جلبت لاظيري سهرا
مد نأى عن مقلتي حسن
ما أذيفها لذة الوسمن
طال ما ألقاه من شجن
عجبها ضدان في بدن^(٢)
بغدادي جنة القيس يعني الماء منجرأ

موشحة لسان الدين بن الخطيب:
جادك الغيث إذا الغيث همى
لم يكن وصلك إلا حلما
اذ يقود الدهر أسباب المنى
زمرة بين فرادى وثوى
والعجا قد جلل الروض سنى
وروى التuhan عن ماء السما
فكفاء الحسن ثواباً معلما
في ليال كتمت سر الهوى

^(٣) المعرى : سيرة متحفية في الشقة.

^(٤) التوسن : النعاس. الشجن : العزوف.

سنتيم السير سعد الأثر
 انه مر كل مع الضر
 هجم الصبح نجوم الحرس
 أثربت فينا عيون الترجم
 فيكون الروض قد كن^(١) فيه
 أمنت من مكره ما تفه
 وحلا كل خليل بأخيه
 يكتسي من غطمه ما يكتسي
 يسرق السمع ياذني فرس
 وقلبي سكن أقسم به
 لا أبالي شرقه من غربه
 تقدروا عائلكم من كربه
 يتلاشى نفساً من نفس
 أفرضون عفاء الحبس
 بأحاديث النبي، وهو بعيد
 شقة المغري به، وهو سعيد
 في هواه بين وعد ووعيد
 جال في النفس مجال النفس
 بفؤادي نهبة المفترس
 وفؤاد الصب بالشوق تدوب
 ليس في الحب لمحبوب ذنوب
 في ضلوع قد برها وقلوب
 لم يراقب في ضعاف الأنفس
 وبجازي البر منها والمسى

مال نجم الكأس فيها وهو
 وطر ما فيه من عيب، سوى
 حين لذ النوم منه، أو كما
 غارت الشهب بها، أو ربما
 أي شيء لأمر قد خلصا
 تهب الأزهار فيه الفرصة
 فإذا السماء تاجى والحلقا
 تبصر الورود غيرور تدما
 وتسرى الآنس ليابفهمها
 يا أهل الحي من وادي الغضى
 ضاق عن وجدي يكم رحب الفضا
 فأعذدوا عهد أنس قد مضى
 وانقوا الله، وأحيوا مفرما
 حبس القلب عليكم كرما
 ويقلبي فيكم مقترب
 قمر أطلع منه البغرب
 قد تساوى محسن أو مذنب
 ساحر المقلة، معمول اللمنى
 سدد السهم وسمى ورمى
 إن يكن جار وخاب الأمل
 فهو للنفس حبيب أول
 أمره محتمل ممثلا
 حكم اللحظة بها فاختكما
 ينصف العظالمون من ظلما

(١) استر.

موشحة الوشاح :

وقد أبدع أبو بكر الأبيض الوشاح في قوله من مoshحة له :
مالذلي شرب راح على رياض الأفراح لولا هضم الوشاح إذا أنسى في الصباح
أو في الأصيل أضحي يقول ما للشمول ؟ لطمت خدي
والشمال هبت فمال غصن اعدها ضمه بردي
رميأباد القلوب يمشي لنا مستريبا يا لحظه رد ثوبها ويا لام الشنبها
برد غليل صب عليل لا يستحيل فيه عن عهد
ولا يزال في كل حال يرجو الوصال وهو في الصد

ومن أبدع مoshحات عبادة القرز مoshحته التي فيها قوله :
لا جرم من لمحنا قد عثقا قد حرم

من مoshحة التلمساني :

قال التلمساني من مoshحة له :
ما مذيا مهجني كمدا فقت في الحسن البدور مدي
ما كحيلا كحله اعتمدا عجا أن تبرئ الرمدا
وبسم الناظرين كسى جفنك السحار وانكسرنا

من مoshحة لأبي حيان :

قال الشيخ أثير الدين أبو حيان، من مoshحة له :

إن كان ليل داج وحاننا الإصلاح
فبورها الوهاج يعني عن الصباح
سلافة بيدو كالكتوك الأزهر
مزجهما شهد زعرفهما عنبر
وجندا الورد منها وإن أسكر

و فيها يقول في وصف حبيه :
بلحظه المرهف يسطو على الأسد
كقطوة الحجاج في الناس والسفاج
فما ترى من ناج من لحظه السفاج

من موضحة :
هل يصح الأمان من شيء البدر ؟
وهو مثل الزمان متسم للغدر ؟

وهي معارضة للموشحة التي أولها :
ضاحك عن جمان سافر عن بدر
ضاق عنه الزمان وحواه صدري

موضحة لابن بقى :
من موشحات ابن بقى قوله :
ما ردنى لابس ثوب الضنا الدارس
الأقمر
في غصن مائى شاععه عاكس
ضوء البصر

وقوله أيضاً :
خذ حدث الشوق عن نفسى وعن الدمع الذى هى
ما ترى شوقى قد وقدا
وهما دمعى واطردا
واغتنى قلبي عليك سدى ؟

آه من ماء ومن قيسن بين طرفي والحسنا جمعا !
بأبي ريم إذا سفرا
أطلعت أزواجه قمراً
فاحذروه كلما نظرا
فتألحوط الجفون قسي
أنا منها بعض من صرعا

موشحة لابن بقي :

وقد قلد ابن بقي ابن المعتز في موشحه فقال :
غلب الشوق يقلبي فاشتكى ألم الوجد فلبت أدمعي
أيها الناس فؤادي شغف
وهو من بني الهوى لا ينصف
كم أداريه ودمعي يكف
أيها الشادن من علمكا بهمام اللحظ قيل السبع
بدر تم تحت ليل أغسطش
طالع في غصن بان متشرى
أهيف القد بخد أرقش
ساحر الطرف وكم ذا فنكا بقلوب الأسد بين الأصلع
أي ريم رمنه فاجتبها
واثنى يهتر من سكر الصبا
كفضيب هره ريح الصبا
قلب هب لي يا حبيبي وصلكنا واطرح أسباب هجري ودع
قال : خدي زهرة مذ فوفا
جردت عيناي سيفاً مرهقاً
حزراً منه بآن لا يقطعا

إن من رام جناء هلكا فتأذل عنك أغلال الطمع
ذاب قلبي في هوى ظبي غرير
وجهه في الدجن صبح مستبر
وفؤادي بين كفيه أسر
لم أجد للصبر عنه ملكاً فانتصاري يanskاب الأدمع

فن الموشحات الأندلسية

الموشحات^(١) بين المشرق والمغرب :

الموشح فن جديد من فنون الشعر العربي يمتاز بجماله الفتى، وكثرة صوره الشعرية وتعقيدها في صناعة الشعر وكثرة قوافيه وأدواره، وبأوزانه الكثيرة التي تلائم الذوق، وتواتم الموسيقى والغناء، وتنتمي مع التراث وجمال الفن، والموشح جار على طريقة أهل الروم، جاء من بلادهم غالباً من الكلام، ليس فيه سوى النغمات المخصوصة، ثم تأمل العرب أدواره ونظموا الموشحات على مقتضاه، ويقال إن أول التواشيح هو المنسوب إلى أولاد التجار عند قدوم النبي عليه السلام المدينة، فاستقبلوه والجواري ينشدن :

(١) الموشحة من القباء والشاء والطير : التي لها طرتان من جانبيها، قال الشاعر :

أو الأدم الموشحة العاطلي بأيديهن من سلم الناف

والطرتان من الحمار وغيره مخطط الجبين، وديك موشح إذا كان له عطنان كالوشاح والخطة كالخط ، ونوب موشح ذا كان فيه وهي .. وسي الموشح موشحاً لأن خرجاته وأعصابه كالوشاح له، والوشاح والإشاح كرسان من لائق وجهر مظومان مختلفين، مطروف أحدهما على الآخر توشح به المرأة، والكرس : القلالد المضموم بعضها إلى بعض.

أشرقت أنوار محمد وانحنت منه البدور
يا محمد يا محمد أنت نور فوق نور^(١)

على أن هذا هو صورة بدائية للموشحات، والصلة بينه وبين الموشحات كما عرفها المتأخرون بعيدة أو منقطعة.. وقد جدد الشعراء العباسيون في القصيدة العربية تخلصاً من قيد القافية. ولكن يلائم الشعر الغناء، فاخترعوا المسمط والمخمس والمزدوج والدوبيت والمواليا والسلسلة والمخمسمات، نظم عليها بشار ومحمد بن أبي بدر السلمي^(٢) ومحمد بن عيسى التميمي^(٣)، وسواهم من الشعراء العباسيين، ويراهما ابن رشيق هي والمسمطات دالة على عجز الشاعر وقلة قوافيه^(٤)، وتسب لامرئ القيس مسمط، وينفي كثيرون من النقاد نسبة إليه^(٥).

والسبب الأول في اختراع الموشحات هو الغناء^(٦)، لأن أوزانها أحفل بالغناء والطلعين، الذي كان ضرورياً عند شعراء الأندلس من أوزان الشعر^(٧)، واتخذ في أول الأمر آداة للهو والمجون، ثم استعمل بعد ذلك في أغراض الشعر الأخرى^(٨).

وتسب لابن المعتر (٢٤٧-٢٩٦هـ) أول موشحة من الموشحات

- (١) ١٣٤ وما بعدها الموشحات لعلام خليل — مخطوط بكلية اللغة — وهذا النص عن كتاب «القصيدة البروبيشية في تحرير السبع الفنون الأدية» للشيخ أحمد البروبيش — وهو مخطوط بدار الكتب المصرية.
(٢) ٤٤٩ معجم الشعراء.
(٣) ٤٥٢ المرجع نفسه.
(٤) ١٥٧ : ١ العدة.
(٥) ١٥٧ : العدة ٩٠-٦٣ رسالة الفرقان.
(٦) ١٦٣ : ٣ تاريخ آداب لغة العرب للراعن.
(٧) ٣١٢ : ٣ المرجع نفسه.
(٨) ١٥٣ الموشحات.

الفنية المعروفة، وهي موجودة في ديوانه المخطوط والمطبوع اذ كانت صحيحة النسبة لابن المعتر تكون أول موشحة عرفت في الأدب العربي، والباحثون يختلفون في ذلك :

فيتردد بعض الباحثين فيمن سبق إلى اختراع المoshحات : فهو ابن المعتر أم مقدم بن معافر الفريزي الأندلسي^(١). ويرى آخر أنه مع ذلك لا يستبعد أن تكون روح ذلك العصر التي أوجت إلى أحددهما بهذه الفكرة هي التي أوجت إلى الآخر بها دون تقيد^(٢)، ويرى آخرون أن المoshحات فن أندلسي خالص سبق إلى اختراعه الأندلسيون^(٣)، وهناك من يزعم أن ابن المعتر هو مبتدع المoshحات.

وفي رأيي أن هذه المoshحة ليست لابن المعتر، بل هي بعيدة عن روح الشاعر وعواطفه وفقه الأدبي ولا تمثل شيئاً من نظراته في الحياة، وليس فيها تشبيه واحد من التشبيهات التي عرف بها ابن المعتر، إنها بعيدة عن جو ابن المعتر وسماته الفنية، وهو الأندلس أغلب عليها.. وقد كتلت أظن أنها لابن معتر الأندلسي مروان بن عبد الرحمن الأمير الشاعر المشهور (٤٠٣-٥٢٤)^(٤)، ولكن وجدت في بعض المصادر نسبتها لأبي بكر محمد بن عبد الملك بن زهر الأندلسي الأشبيلي

(١) ٢٧٨ تاريخ الأدب العربي للزيارات.

(٢) ٢٧٢ نظرات في الأدب الأندلسي للكامل كيلاني.

(٣) ٣٩ و ٤٢ و ٢٢٣ بلاطة العرب في الأندلس لضيف، ٢٢٥ و ١٩٥ و ٤ : نفح الطيب ط ١٣٠-٢، ٢٤٣ سلالة العصر، ٥٨٣ مقدمة ابن عجلون ١٦٦١ : ٣ الرافعي، ٩٨

و ٩٩ : ٣ الأدب العربي وتاريخه لمحمود مصطفى، ١٠٢ البرجع نفسه، ١٠٢-٣ البرجع نفسه، ١٠٣ و ٣ الذخيرة لابن بسام، ٤٩ الفتن و مذابحه في الشعر الشوقي ضيف.

(٤) راجع ترجمته في ص ٤٤٧ بقية المتنفس في تاريخ رجال الأندلس للضي و هو الجزء الثاني من المكتبة الأندلسية، وترجمته برقم ١٣٤٣، وهي نفسها في هامش ١٨٦ : ٣ نفح الطيب للمقربي — نشر فريد رفاعي، وقد ترجمنا لهذا الأمير و ذكرنا بعض شعره في كتابنا (ابن المعتر وتراثه في الأدب والفن والبيان ص ٣٢٢ و ٣٣).

(٥٩٥—٥٠٧). وإذا كان صحيح النسبة لابن زهر فإنه من المشكوك فيه حيث : من هو السايك إلى ابتكار نمط هذه الموشحة، فهو ابن زهر أم ابن يقى الأندلسي المتوفى عام ٥٤٠هـ، والذي تروى له موشحة عارض بها الموشحة المنسوبة لابن المعتر، ولشاعر آخر موشحة، على نمط الموشحة المنسوبة لابن المعتر، وأولها :
 هلك الصب المعنى هل لكا في تلافيه يوعد مطعم^(١)
 ويدرك ابن معصوم كذلك في كتابه السلقة أن الموشحات من ابتداع مقدم بن معافر^(٢).

ابن خلدون ورأيه في الموشحات :

يقول ابن خلدون : « أما أهل الأندلس، فلما كثر الشعر في ديارهم وتهذبت مناجيه وفنونه، وبلغ التتميق فيه الغاية استحدث المتأخرون منهم فناً منه، سموه بالموشح، ينظمونه أسماطاً أسماطاً، وأغصاناً يكترون منها ومن أغصانها المختلفة، ويسمون المتعدد منها بيتاً واحداً ويلزمون قوافي تلك الأغصان وأوزانها متالياً فيما بعد إلى آخر القطعة، وأكثر ما تنتهي عندهم إلى سبعة أبيات. وينسبون فيها ويمدحون، كما يفعل في القصائد. وتجاروا في ذلك الغاية؟ واستظرفه الناس جملة : الخاصة والكافلة، لسهولة تناوله، وقرب طريقه، وكان المختروع لها بجزيرة الأندلس مقدم بن معافر الفريزي من شعراء الأمير عبدالله بن محمد

(١) ٢٢ : ١ معجم الأدباء، وابن زهر ثنا بالأندلس وبرع في العربية والشعر وكان يحفظ شعر ذي الرمة واقتصر بالاجادة في نظم الموشحات (٧١ : ٢ معجم الأدباء، ١٠ : ٢ وقيات الأعيان ط. ٣١٣ هـ ٣١٣ : ٣ الرامي، ١١٧ : ٤ نفح الطيب ٥ و ٥٨ مقدمة ابن خلدون).

(٢) ٩٦ و ٩٧ المoshحات لعلام خليل.

(٣) ٢٤٣ سلقة العصر لابن معصوم من أعيان القرن الحادى عشر، وقد ألقها عام ٦١٠٨٢هـ.

المرؤاني، وأخذ ذلك عنه عبدالله أحمد ابن عبد ربه صاحب كتاب العقد الفريد، ولم يظهر لهما مع المتأخرین ذكر. وکسدت موشحانهما فكان أول من برع في هذا الشأن عبادة القراء شاعر المعتصم بن صمادح صاحب المربیة، وقد ذکر الأعلم البطلیوسی، أنه سمع أبا بکر ابن زهر يقول: كل الوشاحین عیال على عبادة القراء فيما اتفق له من قوله :

يدر تم شمس ضحى غصن نقا مسك شم
ما أتم ما أوضحا ما أورقا ما أتم
لا جرم من لمحنا قد عثقا قد حرم

وزعموا أنه لم يسبق عبادة وشاح من معاصره الذين كانوا في زمن الطوائف؛ وجاء مصلیاً خلفه منهم ابن رافع رأسه، شاعر المؤمن ابن ذي التون صاحب طلیطة، قالوا: وقد أحسن في ابتدائه في موشحته التي طارت له، حيث يقول :

العود قد ترنس بأبدع تلحين
وسقط المذانب رياض البساتين^(١)

وفي انتهاء حیث يقول :

تخطر ولا تسلم عساك المؤمنون
مرروع الكتاب يحيى بن ذي التون

ثم جاءت الحلبة التي كانت في دولة الملثمين، فظهرت لهم البدائع، وسابق حلبيهم الأعمى التطيلي، ثم يحيى بن بقی .*

(١) المذانب جمع مذنب وهو سبل الماء إلى الأرض والجدول سبيل عن الروحة بهما إلى غيرها.

شعراء الموشحات في الأندلس :

إن أول من ثار على الأوزان القديمة وابتدع الموشحات كما يروى هو مقدم ابن معافر الغربي من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني^(١) في القرن الثالث الهجري وهو الذي نوع أوزانها وأدوارها، وعنه أخذ أحمد ابن عبد ربه صاحب المقد القريد المتوفى عام ٣٢٨ هـ، وكان ذلك في القرن الرابع الهجري، وعن هذين أخذ الناس، ثم سال سيل الموشحات في المغرب والمشرق فبرع بعدهما عبارة الوشاحين في الأندلس، ومقدمهم : عبادة القراز المتوفى سنة ٤٢٢ هـ، شاعر المعتصم ابن صمادح صاحب المرة من ملوك الطوائف، وجاء بعده « ابن راقع رأسه » شاعر المأمون ابن ذي التون صاحب طليطلة من ملوك الطوائف أيضاً، وقد حكم بنو ذي التون طليطلة في القرن الخامس ٤٢٧—٤٧٨ هـ). ثم جاءت الحلبة التي كانت في زمن الملوك وعلى رأسها فارسها الأعمى الططلي المتوفى عام ٥٢٠ هـ، ووراهه يحيى بن يقى، وأبو بكر الأبيض، وابن باجة الفيلسوف الطيب الملحن المتوفى عام ٥٣٣ هـ وابن البانة المتوفى عام ٥١٧ هـ، واشتهر بعد هؤلاء في فجر دولة الموحدين : ابن شرف، وابن هردوش، وابن مؤهل، وابن زهر الفيلسوف.

وبعد هذه الطبيقة طبقات جاءت بالغرائب، ومنهم : ابن سهل الإسرائيلى الشيبلى المتوفى عام ٦٤٩ هـ وأبو حيان النحوى، ولسان الدين بن الخطيب م ٧٧٦ هـ وابن زمرك وتلميذه، وبرع في العدة نفر منهم : ابن خلف الجزائري، وفي المشرق كثيرون منهم : ابن سناء الملك المتوفى عام ٦٠٨ هـ، صاحب كتاب « دار الطراز » في الموشحات وأنواعها.

(١) تولى الحكم مدة طويلة (٢٧٥—٢٠٠ هـ).

الفن الشعري للموشحة :

ذكر ابن سناه الملك في كتابه « دار الطراز » عدة مناهج فنية في نظم الموشحات، وترتيب أبياتها، وأظهر طريقة في نظمها هي كما ذكرها ابن سناه وابن خلدون وسواهما أن تألف الموشحة من أقسام وأبيات فالأقسام هي ما اتفقت وزناً وأجزاء وقافية، والأبيات هي ما اتفقت وزناً وأجزاء واحتللت قافية غالباً، وينقسم الموشح باعتباره جزأيه إلى :

١ — تام: وهو ما تألف من ستة أقسام وخمسة أبيات وابتدئ فيه بالأقسام.

٢ — والى أقرع، وهو ما ترکب من خمسة أقسام، وخمسة أبيات، وابتدئ فيه بالأبيات، فمثال الأول، قول ابن اللمسانى :

قمر يحلو دجي الشلس بهر الأنصار منذ ظهرا
آمن من شيبة الكلف
عذت من حبيه بالكلف
لم يزل يسعى إلى تلفي
بركاب الدل والصلف

فالقليل « قمر الخ » والبيت من « آمن » إلى « الصلف »، والموشح تام لأنّه مبدأ بالقليل. ومثال الثاني قول الآخر :

سطوة الحبيب أحلى من جنى النحل
وعلى الكثيب أن يخضع للذل
أنا في حروب مع الحدق النجل
لي لي يدان بأحور قنان من رأى جفونه فقد أفسد دينه

فمن قوله : « سطوة » إلى قوله « النجل » بيت. ومن « ليس لي » إلى « دينه » قفل، والموضع أقمع، لأنه بدأ بيت.

وأقل ما يتركب منه القفل جزءان، وقد يصل إلى أحد عشر جزءاً وتنقسم الأبيات إلى : مفردة، ومركبة، والأولى ما تركبت من أجزاء فقط، والأخرى ما تألفت من أجزاء وفقر.

ومثال الأولى :

شمس فارت بدرأ راح ونديم
أدر كؤوس الخمر
عنبرية النشر
إن الروض ذو بشر

ومثال الأخرى :

عقارب الأصداع في السوسن الغض تسيي تقى من لاذ بالنسك والوعظ

من قبل أن يعدو على لم أحسب
أن تخضع الأسد لجؤذر رب
ظبي له خد سفاض منه
وشادن يلدو في صدغه عقرب

فالبيت في المثال الأول مركب من أجزاء فحسب، أما في الثاني فمركب من أجزاء وفقر، كما ترى^(١).

(١) القفل الأخير من الموضع يسمى عرجة، وهي أساس المنشمة، وعليها تبني، كما أنها جماع سر جمالها وبلاطتها عند الأدباء، والغالب كما يقول الباحثون أن يكون الفروع إليها وثنا واستطراداً، وأن تكون قولاً مستمراً على بعض آلة الناطق أو الصامت، وبكثير أن تكون على آلة النساء والصبيان، والسكرى والسكران، ويجب حيطة أن يكون في البيت الذي قيلها قال : لو قلت أو قالت لو عنى أو غبت أو نحو ذلك.

والقفل كما ذكرنا آنفًا يتركب من جزأين فأكثر إلى ثانية أو عشرة، وقد أوصله ابن سناه الملك إلى أحد عشر.

مثال المكون من جزأين، قول الشاعر الطريف :

قمر يجلو دجا الغلس بهر الأنصار مذ ظهرا
ومثال المكون من ثلاثة أجزاء :

حلب به الأمطار أزرة التوار، فبا خدını

وهكذا...

ومثال المركب من أحد عشر قول ابن سناه الملك :
مظلوم، المسواك، ثغر هداك، بالابسام، الى الغرام، فيا خلي، لا تعذلي،
دعني فلن، أصبر عن، سحار، وفناك.

والبيت قلنا إنه بسيط ومركب، فالبسيط يكون من ثلاثة أجزاء أو
أربعة أو خمسة، ومثاله فيما ترکب من ثلاثة :

أرى لك مهند أحاط به الإندم فجرد ما جرد
في ساحر الجفن حسامك قطاع

فالأجزاء الثلاثة الأولى، والأخيران قلة مركبة من فقرتين.

والمركب من الآيات، ما كان كل منه مركبًا من فقرتين، أو ثلاثة،
أو أربعة، أو خمسة، وبملاحظة أن البيت نفسه يكون مكونًا من ثلاثة
أجزاء أو أكثر، نرى أنه يحدث من ذلك صور كبيرة، ولنضرب لها
أمثلة توضحها. فمثال البيت المركب من فقرتين وثلاثة أجزاء :

أقسم عذرني فقد آن أن أعكف
على حمر يطوف بها أوطف^(١)
كما تذرني هضم الحشى مختلف

(١) الوطف كثرة شعر الحاجين أو العين.

إذا ما ماد في مخضرة الأبراد رأيت الآس بأوراقه قد ماس
ويلاحظ في هذا المثال، أن قفلته مكونة من أربعة أجزاء.
ومثال ما ترکب من ثلاث فقر وثلاثة أجزاء :

من لي به يرنو بمقتضى ساحر إلى العياد
ينأى به الحسن فيتشي نافر صعب القياد
وتارة يدنو كما حاتمى الطائر ماء الشماد
فجيده أغيد والخد بالحال، منق، تكمه الحجب، فلي إلى الكلة
تشوق.

ويلاحظ في هذا المثال أن قفلته مكونة من ستة أجزاء.

ومن أمثلة التام قول الأعمى التطيلي :

ضاحك عن جمان سافر عن بدر ضاق عنه الزمان وحواه صدري
آه مما أجد شفني ما أجد
قام بي وقعد يساطش مشهد
كلما قلت قد قال لي : أين قد ؟
فمن « ضاحك » إل « صدري » قفلة؛ ومن « آه » إلى « قد » الثانية
بيت.

وهناك طريقة ثانية آتية في نظم المושع، هي أن يجعل الموشع
أساطلاً وأساطلاً وأغصاناً وأغصاناً، وتلتزم عدد الأغصان التي في كل
سط وآخر قوافيها إلى آخر الموشع، ومن أمثلة ذلك قول عبادة
القرزاز :

٤	٣	٢	١
بدر تم	شمس ضحا	غضن نقا	مسك شم : سط
ما أنس !	ما أوضحا !	ما أورقا !	ما أنس : سط
لا جرم	من لمحـا	قد عشقـ	قد حرم : سط

فكل سطر من هذا المنشود يسمى سطراً، وهو يشتمل على أربعة أنسان والأغسان التي تحت كل رقم متحدة القافية في جميع الأسطر.
ومن طرق نظم المنشود : كذلك أن تأتي ببيتين تسميهما اللازمة؛ يتفق الحرفان اللذان في صدريهما « عروضيهما » كما يتفق الحرفان اللذان في عجزيهما « ضربيهما » ثم تتبع اللازمة بأدوار مركبة من خمسة أبيات، ثلاثة منها تتفق الحروف التي في صدورها كما تتفق الحروف التي في أعجازها، أما البیتان الأخيران فيكونان مثل بيتي اللازمة، ومن أمثلة ذلك منشودة ابن سهل الإسرائيلي المتوفى سنة ٦٤٩هـ ومنها :

أيها السائل عن جرمي لديه لي جراء الذنب وهو المذنب
أخذت شمس الضحا من وجيته مشرقاً للشمس فيه مغرب^(١)
ذهب الدمع بأشواقى إليه وله خد يلحظى مذهب^(٢)
ومنها :

فهو عندي عادل إن ظلماً
وعذولي نطقه كالخرس
ليس لي في الأمر حكم بعدما حل في نفسي محل النفس

دور:

منه للنار باحشائي ضرام
هي في خديه برد وسلام
أنقى منه على حكم الغرام أسدًا ورداً وأهواه رشا^(٣)

(١) حمرة الشّرق قبل طلوع الشّمس في الأفق وحمرة شفقها بعد الغروب، مستعارة من وجيته الحمراءين.

(٢) لونه كلون الذهب من الجبل.

(٣) ضرام اشتعال. وتناظلي: تنهب.

(٤) أسد ورد: لونه بين الكبالت والأقرن، والرثا: الطبي إذا غوى ومشى.

قلت لما أن تبدى معلماً وهو من الحاظه في حرس^(١)
 أيها الآخذ قلبي مثمنا أجعل الوصل مكان الخامس^(٢)
 ومن أمثلة ذلك أيضاً موشحة لسان الدين بن الخطيب وزير بي
 الأحمر المتوفى سنة ٧٧٧٦هـ، وقد عارض بها ابن سهل، ومنها :
 وروى النعمان عن ماء السما كيف يروي مالك عن أنس^(٣)
 فكاه الحسن ثوباً معلماً يزدهري منه بأيهى ملبس
 في ليال كتمت سر الهوى بالدجى لولا شموس الغرر
 قال نجم الكأس فيها وهو مستقيم السير سعد الأثر
 وطر ما فيه من عيب سوى أنه مر كلمخ البصر
 حين لذ الأنس شيئاً أو كما هجم الصبح هجوم الحرس
 غارت الشهب بها أو ربما أثرت فيما عيون الترسجس

ومن الطرق كذلك أن تأتي بموشحة تجعل أولها بياناً تلتزم فيه
 التقافية في صدر الشرط الأول وعروضه، وصدر الشرط الثاني وضربه،
 وتسمى هذا البيت منهياً، ثم تأتي بثلاثةأشطر أخرى تلتزم فيها التقافية
 أيضاً لكن على حرف آخر، وتسمى هذه الأشطر دوراً ثم تعود وتأتي
 بيت مقفى كالأول ومتعدد معه في حرف التقافية ويسمى قفلاً، ثم
 تأتي بدور وقلة أخرى، وهكذا إلى سبعة أدوار في الأكثر.. ومن
 أمثلة ذلك موشحة ابن سناء الملك، ومنها :

(١) لابساً التوب المخططف.

(٢) يأخذ الجيش القاتل أربعة أحاسيس الخيمة وبترك الخامس للدولة تتفق في صالح، وهو يطالب محبوه بالعدل.

(٣) في النعمان وماء النساء توربة إذ النعمان إما الشقاقي وهي زهر أحمر، وماء النساء : ماء المطر، وإما النعمان وماء النساء من ملوك الحيرة، والثاني جد الأول، ومالك هو الإمام مالك بن أنس صاحب المذهب، والمراد أن من شقاقي النعمان والمطر من الشبه ما بين مالك وأنس من أن الأول في كل الجانبيين ناضئ عن الثاني وأثير منه.

قلة

واحل : حتى تراني عنك في معزل قلل : فالراح كالعشق إن يزد يقتل دور

من ظلم : في دولة الحسن إذا ما حكم فالسم يحول في باطنه والندم^(١)
والقلم يكتب ما سطر فوق القسم

قلة

من ولی : في دولة الحسن ولم يعدل يعزل إللا حاظ الرشا الأكحل دور

لأريم: عن شرب صهباء وعن عشق ريم فالنعم : عيش جديد ومدام قديم^(٢)
لا أحيم : إلا بهذين فقم يا نديم

وهذه المناهج الأربع هي أسهل الكيفيات وأقربها اتصالاً بالأذهان،
وهناك طرق أخرى لا يأتى عليها العد، وحسبك من القلادة ما أحاط
بالعنق.

أوزان المoshحات :

لم يلتزم الأندلسيون في الموشح قافية واحدة أو وزناً واحداً لأنهم
وجدوا أن إيجاد وزن يناسب النغم أسهل من إيجاد نغم يناسب الوزن،
ومن أجل ذلك كان الموشح تابعاً لما تقتضيه الأنغام، فنارة يوافق
أوزان الشعر العربية التي ابتكرها الخليل، وتارة يخالفها، ويقول ابن
سناه الملك المتوفى عام ٦٠٨هـ في كتابه «دار الطراز» المخطوط
بدار الكتب المصرية : المoshحات تنقسم إلى قسمين :

١ — ما جاء على أوزان أشعار العرب وهو قسمان : أحدهما ما

(١) السم : الهم.

(٢) لا أريم : لا أعدل، والريم : الطني.

لا يخلل أفعاله وأياته كلمة تخرج تلك الفقرة التي جاءت فيها عن الوزن الشعري، وما كان من المושحات على هذا النسج فهو المرذول المخدول، وهو بالمخمسات أشبه منه بالموشحات، ولا يفعله إلا الضعاف من الشعاء وذلك كقول القائل :

يا شقيق الروح من جسدي أهوى بي منك أم لم ؟

فهذا من المديد، وكقول الآخر (وهو ابن المعتر) :

أيها الساقى إليك المشتكى قد دعوناك وإن لم تسمع

فهذا من الرمل. والثاني تخلله كلمة أخرجه من الوزن مثل قول ابن بقي :

صبرت والصبر شيمة العاني ولم أقل لمطلب هجراني معدني كفاني
٢ — والثاني وهو ما لا مدخل فيه لشيء من أوزان الشعر، هو
القسم الكبير، والجم الغير، والقدر الذي لا ينحصر، وأوزانه كبيرة
منها : « مستفعلن فاعلن فعييل » مرتين، ومنها : « فاعلاتن فاعلن مستفعلن
فاعلن » مرتين.

أسلوب الموضحة وأخراجه :

أما أسلوبه فعربي، في الفاظه وترابكيه، وقد تكون بعض ألفاظه غير معربة، وكان كلما تقدم الزمن به زاد عدم العناية بالإعراب فيه^(١)، وإن كان لا يخرج في جملته عن الأسلوب العربي، وذلك عدا الخرجة وهي آخر قفل من الموضحة، وهي غالباً تكون فكاهة عذبة ونادرة حارة، ملحونة اللفظ، جارية على لسان ناطق أو صامت. يقول ابن خلدون : ولما شاع الموضحة وأخذ به الجمهور لسلامته نسجت العامة من أهل الأمصار على متواه ونظموا في طريقه بلغتهم الحضرية

(١) راجع ٤٤٣ سلامة المصر لأن مقصوم.

من غير أن يلتزموا فيها إعراباً وهو الرجل. ويرى بعض النقاد اشتراط خلو المושح، من اللحن وأنه كالشعر في إعرابه، قال ابن سنا : اللحن لا يجوز استعماله في شيء من ألفاظ المoshح إلا في الخرجة خاصة، ويقول أحمد ضيف في كتابه: بلاغة العرب في الأندلس نقلأً عن بعض المتأخرين : إن المoshحة كالشعر في إعرابه، وإن كانت تخالفه في أوزانه.

وأما أغراض المoshحات فقد كانت تنظم أولى للغاء، والمعانى الوجданية المتصلة بالتلحين كالغزل والوصف، ولما شاع المoshح وانتشر بين الشعراء شاع نظمه في شتى أغراض الشعر، من الفخر والمدح والرثاء والهجاء والوصف والتهنئة والوعظ والشكر. وسواها.

ألوان من المoshحات : لابن زمرك مoshحة منها :

والحب ذو عدوان يجهد في ظلم البري
وصارم الأفغان مؤيد بالحمور
رحماك في صب ذكرته عهد الصبا
بسواعد الحب قادت إليه الوصبا
لم تهف بالقلب ريح الصبا إلا ها^(١)

وقد انتقل التوشيح — بعد شيوخه بالأندلس — إلى بلاد المغرب والشرق، فنبغ فيه كثير، على رأسهم ابن سنا الملك، المتوفى سنة ٦٠٨هـ وقد قطع فيه فتحاً جديداً، وأحدث أنواعاً وأوزاناً لم يسبق إليها، ومن مoshحاته المشهورة :

كللي، يا سحب تيجان الربا بالحلبي
واجعلني، سوارك منعطف الجدول

(١) ها يهو : مات.

يا سما، فيك وفي الأرض نجوم وما^(١)
 كلما، أغربت نجماً أشرقت أنجها^(٢)
 وهي ما، تهطل إلا بالطلى والدما^(٣)
 فامطلبي، على قطوف الكرم كي تمثلي
 وانقلني للدن طعم الشهد والقوقل^(٤)
 تقد كالكتوك الدرى للمرتصد
 يعتقد بها المجنوسي بما يعتقد
 فاتقد يا ساقى الراح بها واعتمد

ونظم كثير من الشعراء في المشرق الموشحات؛ ولا يزال بعض
 الشعراء إلى اليوم ينظمون الموشح، ومنهم أبو الوفا رمزي نظم الشاعر
 المصري المعاصر والرصافي الشاعر العراقي المشهور المتوفى عام ١٩٤٥.
 ولا شك أن الموشحات نمط جديد ولون متبدع في الأدب، وأنها
 طوّعت الشعر للغناء إلى حد كبير، وقربت أسلوب الشعر للجماهير،
 وقصّرت المسافة بين العربية والعامية، وارتقت بأذواق الجماهير، وكانت
 ذات أثر كبير في الشعر العربي القديم والحديث.

-
- (١) ماء السماء في سحابها وماء الأرض في غدرانها وأنهارها.
 (٢) يقول : إن غياب نجوم السماء يتنا عنده ظهور نجوم الأرض وهي نباتها.
 (٣) يقول : إن الأرض لا تهطل إلا بأعناق الثقلين ودمائهم.
 (٤) ثغر نخلة : وهو صلب كأنه الخشب.

الزجل في الأدب الأندلسي

الزجل في اللغة : التطريب ورفع الصوت، زجل فهو زاجل وزجل. والزجل كذلك اللغة : الصوت، وسمى هذا اللون من ألوان الأدب زجلاً لرفع الصوت فيه وترجيجه به في الإنجاد، ويسمى الشعر العامي، والأندلس بيئة الرجل الأولى كالموشح، وإن كان تأخر عن الموشحات وهو نوع من الشعر العامي، وقد ذاع في الزجل وتعددت لهجاته بعده الأماكن التي نشأ بها، واشتغل على أنواع من الشعر كالغزل والوصف، وكثيراً ما كان الرجل أصدق في التعبير عن النقوس من الشعر الفصيح لقربه من تعبير العامة، واحتتماله على عباراتهم المألوفة، وعدم احتياجه للتكلف في الصناعة واحتياط الأنفاس.

ولما شاع في التوسيع في أهل الأندلس، وأخذ به الجمهور لسلامه وتنميق كلامه، وترصيع أجزائه، نسخت العامة من أهل الأمصار على متواه ونظموا في طريقة بلغتهم الحضرية، من غير أن يلتزموا فيها إعراباً ، واستحدثوا فناً سموه بالزجل. والتزموا النظم فيه على مناجيهم إلى هذا العهد. فجاءوا فيه بالغرائب، واتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم المستجمعة. وأول من أبدع في هذه الطريقة الرجلية، أبو بكر ابن قرمان. فلم تظهر حلاه، ولا انسكبت معانيها واشتهرت رشاقتها، إلا في زمانه، وكان له مد المثلمين، وتوفي عام ٥٥٥ هـ وهو إمام الرجالين على الإطلاق.

ويقال : إن أول من اخترعه رجل يقال له راشد ، وكان لابن قرمان فضل الشهرة والتجويد ، وعاصره مخلف الأسود ، وجاءت بعدهم حلبة مدغليس ، وبعدتها ظهر ابن جحدر باشبيلية ، ثم أبو الحسن سهل بن مالك ، ثم ابن الخطيب ، والألوسي ، قال ابن سعيد :

« ورأيت أزجاله مروية ببغداد ، أكثر مما رأيتها بمحاضر المغرب ، قال : وسمعت أبي الحسن بن جحدر الاشبيلي ، إمام الزجالين في عصرنا يقول : ما وقع لأحد من أئمة هذا الشأن مثل ما وقع لابن قرمان شيخ الصناعة ، وقد خرج إلى منزله مع بعض أصحابه فجلسوا تحت عريش ، وأمامهم تمثال أسد من رخام ، يصب الماء من فيه ، على صنائع من الحجر مدرجة ، فقال :

وعريش قام على دكان بحال رواق
وأسد قد ابتلع ثعبان فيه غلظ ساق
وفتح فمه بهال إنسان فيه القوالق
وانطلق يجري على الصفاح ولقى الصباح

وكان ابن قرمان نسيجاً وحده أدباً وظرواً ولوذعة وشهرة ، حلو الكلام ، مبرزاً في نظم الرجل ، وهذه الطريقة ، الزجلية ، بدعة تحكم فيها ألقاب البديع ، وتتفسح لكثير مما يضيق سلوكه على الشاعر ، وبلغ فيها ابن قرمان مبلغاً كبيراً ، فهو آيتها المعجزة ، وحاجتها البالغة ، وفارسها العلم ، والمبدئي فيها والمنتقم ، أحرز السبق عند تسابق الأعيان ، واحتفل عليه المตوكل على الله المتوفى عام ٤٨٤ هـ فرقاه إلى مجالس الملك ، وخلقه في منتهيه ابن حاج ، وقد كان أبو عبدالله بن حاج المعروف بمدغليس صاحب الموشحات يشرب مع ندماء طراف ، في جنة بهجة ، فجاءتهم ورقة من ثقيل يرغب في الإذن ، وكان له ابن مليح فكتب إليه مدغليس :

سیدی : هذا مكان ، لا يرى فيه بلحية
أوله ابن شافع فيه
أيها القائل بادر

وكان مدغليس هذا مشهوراً بالانطباع والصناعة في الأرجال، خليلة ابن قرمان في زمانه، وأهل الأندلس يقولون ابن قرمان من الرجالين بمنزلة المتنبي في الشعراء، ومدغليس بمنزلة أبي تمام. بالنظر إلى الانطباع والصناعة فابن قرمان ملتفت للمعنى ومدغليس ملتفت لللفظ، وكان أديباً معرياً لكلامه مثل ابن قرمان، ولكنه لما رأى نفسه في الرجل انجذب اقتصر عليه.

صور من الزجل

١ - يقال : إن آبا يكر بن قومان القرطبي حين كان صغيراً في المكتب، دخل عليه صبي صغير مثله، فناداه وأجلسه بجانبه، وصار يحبيه، فرأى القمي على ذلك فضريه فكتب في أعلى اللوح هذا المطلع :

فاطلע القibile على اللوح، فرأى هذا المطلع، فقال: هجوتنا بكلام مزحول — يعني مقطعاً يترنم به — فسمى زجاجاً.

٣ — وقد جاء بعده عبد الله بن الحاج المعروف بمدخليس فأجاد أيضاً، ومن أزجاله :

ورذاذ دق ينزل وشعاع الشمس يضرب
فترى الواحد يفضض وترى الآخر يذهب
والنبات يشرب ويسكر والغصون ترقص وتطرد
وتريد تيجي إلينا ثم تستحي وتهرب

٤ — وقال قاسم بن عمود الرياحي في ختام زجل له :
ما أعجب حديثي إيش هذا الجنون ؟
نطلب وندبر أمري لا يكون ؟
وكم ذا نهون أمري لا يهون ؟
لبعد الحبيب ؟ واش مقدار ما نصبر

٥ — وقال بعضهم :
يا حاجي العيس ازجر بالمعطايا زجر
وقف على منزل أبيه قبيل الفجر
ينهض يصلى على ميت قبيل الهجر
وصبح في حيهم : « يا من برد الأجرا »

٦ — وقال آخر :
عني التي كنت أرعاكم بها بات
ترعى النجوم وبالشهيد افاقت
وسلوتي — عظم الله أجراكم — ماتت وأسمهم البين صابتي ولا فاتت

٧ — وقال آخر :
لي دهر يعشق جفونك وستين وأنت لا شفقة ولا قلب يلين
إلى أن يقول في ختام زجله :
خلق الله النصارى للغزو وأنت تنزو قلوب العاشقين

٨ — وما اختاره ابن خلدون، من زجل أهل مصر القاهرة، وأحسن في اختياره كل الإحسان، قول بعضهم في ذلك العصر :

هذا جراحي طربا
والدماء تنضح
وقاتلي يا أخيا
في القلا يمرح !
قلت: «أناخذ ببارك»
قالوا: «ذا أبغى!»

وقد عم فن الرجل في الأندلس، حتى كان العامة يتظمون فيه بطريقتهم
العافية في سائر البحور الخمسة عشر.

٩— ولقاسم بن عبود زجل وهذه منه بعض أبيات :

بالت الله أي نصيب
ليس لي فيه نصيب
محبوباً مخالف
معرو رقيب
حين قصد مكانو
يقيم في المقام
ويدخل علينا
برد السلام
أدخلت يا قلبي
روحك في زحام
هي شيء عجيب
من هو في لهيب
أترك هذا النفر
في هذا النهار
لشرب العقار
تم نهارنا
في الأرض والا
وفي حبك أمشيت
إلا حين تغيب
وكان فظ جسور
 وإن رأيت فضولي
فكان راك نفور
كمش عنى وجهك
يهرب عنك خائف
ويقى مربوب
وامش إنت موقر
كأنك خطيب

ما أتعجب حديثي
ليش هذا الجنون
نطلب وندبر
أمراً لا يكون
وكم ذا نهون
شيئاً لا يهون
وليش مقدار ما نصبر
ليعد الحبيب
رب اجمعوني معو
عاجلاً قريب

الفصل الرابع

تراجم لأشهر الشعراء الأندلسيين ابن هانئ الأندلسي — ٣٢٠ — ٣٦٢ هـ

نشأته وثقافته :

١ — ولد أبو قاسم محمد بن هانئ بن محمد الأزدي في قرية من قرى إشبيلية تدعى « سكون » عام ٩٣٢هـ، من أسرة ذات حسب ومجده، وأدب وعلم، يتصل نسبها بسلالة المهلب بن أبي صفرة الأزدي القائد الإسلامي المشهور في دولة النبي أمّة؛ وسواء كان من سلالة يزيد بن حاتم بن قبيصة بن المهلب الذي وطد للمنصور ثاني خلفاء بني العباس دعائم مملكته في شمال إفريقيا إلى أن توفي عام ١١٧٠هـ، أو من أحفاد أخيه روح بن حاتم الذي ولّ فلسطين ثم شمال إفريقيا بعد موت أخيه يزيد، وسواء كان هذا أو ذاك، فإن ابن هانئ على أي حال ينحدر من سلالة أزدية قحطانية يمنية، لها ماضيها الحافل، وتاريخها المجيد، ولها آثارها في نفس الشاعر وفي أدبه.

٢ — وقد ملا ذلك نفسه شعوراً بهذا الماضي، وفخراً به، وعزاً على مواصلة الجهاد لتجديد ذلك العهد الذي أتعاه على الأيام أن يتجدد،

وكان يقرنـه الشاعـر بـمـجـده الـذـي شـادـه بـكـفـاحـه فـيـالـحـيـاة :
 ذـرـني أـجـدـدـذـلـكـالـمـهـدـالـذـيـ أـعـيـ عـلـىـالـأـيـامـ أـنـيـقـشـبـاـ
 وـلـمـيـقـلـ الشـاعـرـ أـنـيـعـيشـ كـلـاـ عـلـىـالـمـاضـيـ فـيـمـسـتـقـلـ حـيـاتـهـ
 أـوـيـحـيـ عـيـالـاـ عـلـيـهـ،ـ بـلـسـعـىـ وـنـاضـلـ فـيـالـحـيـاةـ :
 وـلـمـأـجـدـإـلـاـ إـلـاـ بـعـدـهـ فـمـنـ كـانـأـسـعـيـ كـانـبـالـمـجـدـأـجـدـراـ
 وـبـالـهـمـةـ الـعـلـيـاءـ يـرـقـىـ إـلـىـ الـعـلـاـ فـمـنـ كـانـأـرـقـىـ هـمـةـ كـانـأـظـهـرـاـ
 وـلـمـيـقـلـ بـتـأـخـرـ مـنـ بـرـيدـ تـقـدـمـاـ وـلـمـيـتـقدـمـ مـنـ بـرـيدـ تـأـخـرـاـ
 كـانـأـبـوـالـشـاعـرـ هـانـيـ مـنـ قـرـيـةـ مـنـ قـرـىـ «ـالـمـهـدـيـةـ»ـ عـاصـمـةـ مـلـكـ
 الـفـاطـمـيـنـ الـأـولـيـ،ـ وـكـانـشـاعـرـأـديـاـ،ـ كـمـاـيـقـولـذـهـيـ(١)ـ وـابـنـ
 خـلـكـانـ(٢)،ـ ثـمـ هـاجـرـ مـنـ قـرـيـهـ بـالـعـمـرـ إـلـىـ الـأـنـدـلـسـ،ـ وـعـاشـ فـيـ
 إـشـبـيلـيـةـ،ـ وـأـنـقـلـ مـنـهـ بـعـدـ ذـلـكـ إـلـىـ الـبـرـيـةـ،ـ وـفـيـ إـشـبـيلـيـةـ وـلـدـ اـبـهـ مـحـمـدـ
 اـبـنـ هـانـيـ،ـ فـنـشـأـ وـتـرـعـرـعـ فـيـ بـيـتـهـ الـحـافـلـ بـالـأـلـوـانـ الـحـضـارـةـ وـالـعـلـمـ وـالـأـدـبـ،ـ
 وـبـأـسـابـ الـمـجـدـ السـيـاسـيـ الـذـيـ كـسـبـ الـأـمـوـيـوـنـ فـيـ الـأـنـدـلـسـ،ـ وـخـاصـةـ
 فـيـعـهـدـ مـلـكـهـمـ الـعـظـيمـ النـاصـرـ (٣٠٠ـ٥٣٥ـهـ).

٣ — واختلف ابن هاني إلى مجامـعـ الـعـلـمـ وـالـأـدـبـ فـيـ إـشـبـيلـيـةـ،ـ
 يـنـقـفـ نـفـسـهـ،ـ وـيـهـذـبـ عـقـلـهـ وـيـكـونـ مـلـكـهـ تـكـوـنـيـاـ يـصـلـ بـيـهـ وـبـيـنـ الـحـيـاةـ
 بـأـسـابـ الـطـمـوحـ وـالـأـمـلـ.

ثـمـ رـحـلـ إـلـىـ قـرـطـةـ الـعـاصـمـةـ الـأـولـيـ لـمـلـكـ بـنـيـ أـمـيـةـ،ـ الـتـيـ كـانـتـ
 تـرـزـخـ بـالـجـامـعـاتـ وـالـلـمـاءـ،ـ وـبـأـسـابـ الـحـضـارـةـ وـالـأـلـوـانـ الـقـافـةـ،ـ فـعـكـفـ
 عـلـىـ تـزوـدـ نـفـسـهـ فـيـهـ بـأـكـبـرـ قـسـطـ مـنـ الـقـافـةـ وـالـعـرـفـ،ـ وـالـظـاهـرـ أـنـ
 رـحـيـلـهـ إـلـيـهـ فـيـ يـدـهـ حـيـاتـهـ كـانـ لـهـذـاـ الـغـرضـ وـحـدـهـ دـوـنـ سـوـاهـ.
 كـانـ الـقـافـةـ الـأـنـدـلـسـيـةـ فـيـ هـذـاـ الـعـهـدـ وـفـيـ ظـلـالـ النـاصـرـ تـنـالـ مـنـ
 عـنـيـةـ الدـوـلـةـ وـالـشـعـبـ،ـ وـرـعـيـةـ الـحـكـومـةـ وـالـمـلـكـ،ـ كـلـ مـاـ كـانـ يـطـمـعـ

(١) وـفـاتـ الـأـعـيـانـ،ـ صـ٨١ـ .ـ (٢) تـارـيـخـ إـسـلـامـ ٤٢٥ـ.

إليه محب للعلم والمعرفة، وكان الناصر وولي عهده الحكم يبذلان جهوداً جباراً لنشر العلم، وتشجيع العلماء، فأقيمت كثيرة من الجامعات، وفتحت كثيرة من دور الكتب التي تؤثر في اختصار مجموعاتها من شئي بلاد الشرق، وساعدت الدولة العلماء في رحلاتهم العلمية إلى بغداد وسواها من عواصم الثقافة الإسلامية في الشرق الإسلامي، واستقبل الناصر كثيراً من الواقفين على يلاحظه من العلماء والأدباء، كال قالبي وسواء^(١)، فشنت في آفاق الأندلس أضواء العلم والثقافة، وامتلأت مدنها وعواصمها بأسباب الحضارة والمدنية وال عمران، وأخذت مشاعل التور ترسل أشعتها القوية الجبارية، فتضيء ظلمات الحياة في الغرب، وتزيد اشتعال التور وتتألق الضوء في الشرق، وتملأ الحياة قوة ونشاطاً ومدنية وترفاً.

وكانت السمة الغالية على الثقافة الأندلسية حينذاك هي الدراسات الدينية واللغوية والأدبية الواسعة، أما الدراسات العقلية فقد تجهموا لها وناوأوها، وصرفتهم بيتهن المنفعة بالأوان الجمال عنها، فرأوها عيناً لا خير فيه، وحاولوا الحجز بين أنصارها وبين التفكير الحر، ولكن الحرية الفكرية التي غرس بذورها الناصر وابنه الحكم لم تحل بين آثار التفكير العقلي وانتقال عدوه من الشرق إلى الأندلس، على يد الراحلين عنها والواقفين إليها من العلماء والمفكرين، الذين أحصاهم صاعد الأندلسى في كتابه طبقات الأمم.

ومن ذلك نستطيع أن نحدد ألوان الثقافات التي تلقاها ابن هانئ في دراسته، وتفرغ ل تحصيلها، فهي ثقافة دينية واسعة، ألم بها الشاب

(١) ولد القالي عام ٢٨٨هـ، وحصل ثقافته اللغوية والأدبية في بغداد، ثم هاجر إلى الأندلس عام ٣٢٨هـ، فاسقبله ولی المهد ورحب به، وتلقى عليه كثيراً من المحاضرات، ودعاه إلى إلقاء محاضراته في مسجد قرطبة العظيم، والتي دونها في كتابه «الأمالي» وظل كذلك حتى توفي عام ٣٥٦هـ.

التاشي حين درس القرآن وعلومه، وأجاده حفظاً، مما نفعه في مستقبله الأدبي وصبح أسلوبه بصيغة القرآن القوية المطبوعة، حتى كان ابن هانى فيما بعد المجيد في الاقتباس من الذكر الحكيم وأياته فنجد له قوله :

ألا أيها الوادي المقدس بالطوى وأهل الندى إني إليك مشوق

ونجده يقول :

كانت جناناً أرضهم معروفة فأصابها من جشه إعصار

ويقول لأمير « الزاب » :

لعمري لقد أيدت يوم الوعى به كما أيدت كفاك بالأئم العشرين كذلك ناجى الله موسى نبيه

إلى غير ذلك مما يلاحظ القارئ فيه روح التأثر بأساليب الذكر الحكيم. وبجانب هذه الثقافة الدينية ثقافة لغوية واسعة، تراها في كل قصيدة من قصائد الشاعر واضحة ملموسة؛ ولعل ابن هانى كان من جلسوا إلى القالى وسمعوا محاضراته اللغوية في مسجد قرطبة، كما جلس إلى سواه من علماء اللغة وأساتذتها، ومما نهى فيه هذه الثقافة اللغوية أيضاً إدمان قراءاته للشعر الجاهلي في عهد دراسته الأدبية واحتداوه حذوه في نظم القريض وصياغته. فوق مخالطيه للقبائل العربية التي كانت نازلة في مدن الأندلس؛ ومحفظة بروحها العربية الأولى. ولا يكاد يضارع ابن هانى في هذا المحصول اللغوي الواسع شاعر سواه غير أبي الطيب المتنبي الشاعر الحكيم. وبجانب ذلك كله كانت الثقافة الأدبية الواسعة مكملة لجوائب هذه الثقافات في شخصية شاعرنا ابن هانى. فقد ورث عن والده حب الأدب والميل إليه، والشغف بالشعر والظهور في ميدانه وفي شتى أغراضه وتواجيه، وأuan ذلك دراسته وحفظه لأشعار العرب وأخبارهم وأيامهم وأديبهم وشعرهم. واتصاله بالبيئات الأدبية في الأندلس. وساعد على ظهور ملكة الشعر في نفسه :

روحه الأدبي الموهوب؛ وفطرته الشعرية الموروثة، وعناية والد الأديب الشاعر به؛ وتوجيهه إياه إلى كل ما يفيده في مستقبله الأدبي. وإلى كل ما ينمي ملكاته. وبخصر في قلبه بناءً الشاعرية والإلهام، هذا كله فضلاً عن حياة الشاعر في بيئة الأندلس الأدبية الحافلة بالأدباء والشعراء، والتي لقي الأدب والشعر فيها رعاية وتشجيعاً أمندهما بأسباب الحياة والقوة والتضيّع، وكما قرأ ابن هاني الشعر الجاهلي وتأثر به فقد أطلع على شعر كثير من المحدثين، وعلى شعر المتنبي، الذي عاصره وتأثر به، وقرأ ديوانه، كما ترشدنا إلى ذلك قصيدة الحادية والعشرون من ديوانه الذي نشرته مكتبة المعارف بتعليق الدكتور زاهد علي.

وفي قصيدة ابن هاني الفائية التي مطلعها:

أليلتنا إذ أرسلت وارداً وحفاً ويتنا نرى الجوزاء في آذنها شنقاً

وهي القصيدة الحادية والثلاثون في ديوانه، وصف دقيق للنجم وهيأتها وحركاتها في إشراقها وغروبها، وقد يدل ذلك على إمام ابن هاني بعض فنون من الفلسفة، ويروي لنا التاريخ الأدبي أن ابن هاني كان متهمًا في الأندلس بمذاهب الفلسفة^{١٨} وأنه تعرض بسبب ذلك للقتل، مما دعاه إلى الهجرة إلى المغرب، وتحزن نسبعد إمام ابن هاني بعض فروع الفلسفة لأن تراه الشاعر بعيد كل البعد عن روح الفلسفة ومذاهبها في التفكير، وقد يكون الشاعر قرأ أو درس شيئاً من ذلك، إلا أنه على أي حال لم يفرغ لهذا اللون من الثقافة، ولم يشرب قلبه حب مذاهب الفلسفة. وهجرته سنتين أسبابها الصحيحة فيما يلي من هذه البحوث.

وإذا بثقافة ابن هاني تستمد عناصرها من القرآن واللغة والأدب والشعر، ومن أثر الوراثة الذي كان له مظاهر في نفس الشاعر وعقله،

(١٨) النهي ١٨/٥.

ومن أثر البيئة التي كان يعيش فيها، ثم من تجارب الحياة الطويلة والكفاح المستمر، والرحلة الدائمة، التي تركت آثارها الكبيرة في عقلية الشاعر وتفكيره وفي أدبه وشعره.

حياة الشاعر في الأندلس :

أخذ ابن هاني الشاب يسير في غمار الحياة. ويخطو خطوات وديدة في ميدان الطموح والمجد، وكان قد نضجت روح الشاعرية في نفسه، فنظم الشعر يصور فيه عواطف الشباب وأماله وألامه في الحياة.

ثم دفعه همه و الماضي الحافل إلى السعي في طلب الشهرة والمجد، ورأى الحياة العامة في الأندلس تسمح له أن يطمح إلى أعلى مناصب الدولة. بعدها حصل ما حصل من ثقافة جعلته شاعراً لا يقل عن غيره من الشعراء الممتازين في بيته.

فيبدأ يصل برجالات الدولة، وخاصة أمير إشبيلية، بعد أن عاد إليها من رحلته الثقافية في قرطبة، وأعزه الأمير واصطفاه، ورفع منزلته لديه وأكرم مثواه، واتخذه شاعره ونديمه، ولعل الشاعر قد اضطر إلى هذا الانصال الأدبي اضطراراً، لفقر جامح ألم به، أو لموت والده صغيراً وذهب ما كان يعنيه على شؤون الحياة من مال.

وقدر ابن هاني بـدـ الأـمـيرـ عـلـيـهـ، فشكـرـهـ وـنـوـهـ بـهـ وـنـظـمـ قـصـائـدـ في الثناء عليه والإعجاب به، وإن كان ديوانه خلوأً من ذلك، وليس فيه بيت أو قصيدة في أمير إشبيلية، بل ولا في تصوير حياته في الأندلس، ولعل شعره الذي نظمه فيها ضاع في أثناء هجرته، أو أنه لم يعن الرواة الشعوبون الذي رووا شعره بمحمه مع ما جمده من شعره الذي نظمه وهو مقيم في دولة الفاطميين، فلم يلتقطوا إلا إلى شعره الذي أيد به هذه الدولة ورجالاتها.

واستمرت المودة بين الشاعر والأمير حيّاً من الزمان. ولكن ابن هانئَ كان بربما بالحياة في الأندلس؛ مبغضاً لملك الأمويين وملوكها، منكراً لحقهم في الخلافة الإسلامية، كان شيئاً يتشيع للفاطميين آل بيت رسول الله، ويُشيد بدعوتهم، ويذيع محامدهم، ويؤيدهم بروحه وقلبه ولسانه.

ولا شك عندي في أن ابن هانئَ ورث هذا الروح عن والده فيما ورثه عنه من ميراث، فقد كان هانئَ من قرية من قرى «المهدية» موطن الدعوة الفاطمية وعاصمة دولة الناشئة، ثم رحل عنها إلى الأندلس لظروف قاهرة لم يروها لنا التاريخ، فلا بدع إذا أن يكون هانئَ والد الشاعر شيئاً يهفو قلبه وروحه إلى مناصرة دعوة الفاطميين في جهادهم لاسترداد ميراث الرسول الكريم، ووضعه في موضعه، في البيت العلوى الظاهر. ولا بدع أن يغرس ذلك كله في صدر ابنه الشاب قبل أن يتوفاه الله. وإذا فقد عاش ابن هانئَ في حياة والده وبعد وفاته شيئاً، يستمع وهو في الأندلس لأحاديث جهاد الدولة الفاطمية الناشئة في المغرب. ويتفق أبناء مقاومتها لشنى ألوان الضغط السياسي الذي كان محاطاً بها، وأخبار ظفرها وتوفيقها في تأسيس متابعة صالححة حررة، وملاذ آمن مستقل، يلتحم إليه كل مضطهد من آل البيت العلوى، فيجد الأمان والطمأنينة والسلام، في ظل الراية البيضاء المرفوعة على المهدية وما يتبعها من بلاد. والتي تشير إلى معنى الخصومة السياسية للعلم الأسود المرفوع في بغداد، وللراية الحضراء التي تظلل بنى أمية في قرطبة والأندلس.

وعلى كل فقد تشيع ابن هانئَ ورأى المجتمع الأندلسي في إشبيلية حظره على نظامه الاجتماعي السياسي. فاضطهدوه وقاوموه، وكاد يفتت به أهل إشبيلية، لو لا مكانه من أميرها، وتحدث الناس عن الأمير وكيف يستبيح لنفسه أن يضم إليه أمثال هذا الشاب الناشر، ورأوا أن ينهموا

ابن هاني بالفلسفة التي كان قد شدا من بعض ألوانها حظاً يسيرأ.
وعاد فهجره ومله. ولم يستسغه عقله، وكانتوا يريدون أن ينالوا منه
تحت ستار هذا الاتهام الجائز ما يريدون وأكثر مما يريدون. لأن الوطن
الأندلسي لم يكن يسمح لأحد من رجال الفلسفة أن يعيش فيه سالماً.
فإما أن يقتل وإما أن يهاجر وإنما أن يتوب.

هجرة الشاعر إلى المغرب :

علم أمير إشبيلية بالأمر، ووصلته أحاديث الناس عنه وعن شاعره
الشاب، فأشار على ابن هاني أن يغيب عن المدينة مدة، حتى ينسى
في خلالها أمره، وتسكن فيها ثورة الناس عليه، فامتثل الأمر، وخرج
من المدينة خالقاً يترقب.

ترى أين تكون وجهة هذا الشاعر البائس، وإلى أي بلد يسير ؟
والناس إلى عليه، والدهر يتجهم في وجهه، والأحداث تتأمر عليه مع
المتأمرين، وهو لا يأوي بين هؤلاء القوم إلى ركن شديد.

ففكر الشاعر فلم يجد أمامه إلا غاية واحدة يجب أن يسير إليها،
ولَا ناحية واحدة لا مناص من أن يقصدها، ورأى نفسه تحدثه : هنا
إلى بلاد المغرب بلاد الفاطميين، ومقر العقيدة التي أُوذى في سبيلها
لما آمن بها، وإلى المهدية من بلاد المغرب خاصة، فهي بلاد الآباء
والأجداد التي تتلاقى فيها ذكريات الماضي الطويل.

وصمم الشاعر على الهجرة، ولم يجد سبيلاً إلى الحياة الآمرة سواها،
فهاجر إلى عدوة المغرب وهو في سن السابعة والعشرين أو السادسة
والعشرين على ما يقولون.

هاجر إذاً إلى المغرب عام ٣٤٧هـ، أو عام ١٩٦٣، وبذلك انتهت

حياته الأولى التي قضتها في الأندلس، وانتهى به المطاف إلى دولة الفاطميين.

لم يكن الشاعر يحمل على كتفيه في هجرته مالاً ولا ثباً، ولكنه كان يحمل في صدره عقيدة قوية، وعاطفة ملتهبة، وكان يحمل معه فنه وشاعريته ويسعى بهما قدمًا إلى أيدٍ غایات الطموح ومجد الحياة.

ويصور لنا ابن هانئ هذه الهجرة وذكرياتها وأسبابها وما لاقى خلالها من اضطهاد كاد يودي بحياته، في قصيدة من قصائده في المعر خليفة، قال فيها متحدثاً عن نفسه :

وستكير لم يشعر الذل نفسه أبى بأبكار المهاول فاتك ولو علقته من أمية أحيل لجب سلام من بني الشعر تامك ولما التقت أسياقها ورماحها شرعاً وقد سدت على المسالك أجزت عليها عابرأ وتركها كان الدنيا تحت جنبي أرائك وما نعموا إلا قدیس تشیعی فنجی هزيراً شده المتدارك

والشاعر في هذه القصيدة قوي العاطفة، متأنج الشعور، ولكن روحه الشعرية لم تخلص بعد من سمات التكلف الفني، ولم يخلص لها بعد الفن المطبوع. ويندفع ابن هانئ في تيار عواطفه، فيحمل على بني أمية الأندلسيين حملة ثانية ساخطة، ويرميهم بالبغل والجبن وشئ الرذائل، يقول فيما يقول :

ولم تدم في حرب دروع أمية ولكنهم فيها إلماء العوارك إذا حضروا المداح أخجل مادح وأظلم ديجور من الكفر حالك

إلى آخر ما يقول.

اتصال الشاعر بجوهر قائد المعرز :

استقر الشاعر أخيراً في المغرب، أو على الأرجح في المهدية وطن والده الأول، من بين بلاد المغرب كافة، وأخذ ينهر الفرس السانحة ليندمع شعره، ويظهر شاعريته، فساعدته الظروف على ما يريد.

كان ذلك على ما أرجح عام ٣٤٧هـ بعد انتصار جوهر على خصوم الدولة الفاطمية في سجلماسة وفاس ومكناة وسواها من بلاد المغرب، وبعد أن قضى على الثائرين ووطد دعائم مملك الفاطميين في أطراف هذه البلاد. ورجع من هذه الأعمال الحربية ظافراً منصوراً.

ونظم ابن هاني قصيدة ذكر فيها هذا الفتح وأثره، وجوهرأً وبطوله وحرمه، ومجدе العربي، وللاء للخليفة المعرز، واصطفاء الخليفة له، ويقول فيها :

وأيضاً من سر الخلافة واضح تجلى فكان الشمس في رونق الضحى أربك به نهج الخلافة مهيناً بيمن، وأعلام الخلافة وضحا

إلى آخر ما يقول، من قضائه على ثورات الثائرين، وفنن الخارجين على المعرز. وذهب الشاعر القائد فأنشد قصيده وسط جيشه ومعسكره، فسر بها القائد، ثم أمر للشاعر بهدية استقلها ابن هاني، ولكنه أخذها إجابة لداعي الحاجة الملحة، وأتى تبلغ العاشر درهم من نفس ابن هاني ما يريد؛ لقد كان يسمع أبناء الجواز الطائلة التي كان ينفع بها العظاماء الشعراء، والتي تقلب حياتهم رأساً على عقب، وتدعهم يعيشون في ظلال الترف والخفق والتعيم، ثم لم يجد ابن هاني عند جوهر شيئاً مما كان ينشده من آمال كبيرة، فعلم أنه لا يمت إلى أريجية العرب وسخائهم بصلة، وفكراً في عظيم آخر يعيش في ظلالة، ويستقر في المغرب في رعايته.

ولكنه مع ذلك لم يقطع صلته بجوهر، ولم يسكت عن الإشادة

والتنويه به في قصائده، وكيف وجهر بطل العقبة الفاطمية وموضع ثقة الخليفة، وقائد المظفر، ويده على الأعداء؟

وفي ديوان الشاعر ظل للصلة المستمرة بين الشاعر والقائد، قصيده في وداع جوهر وهو سائر لفتح مصر عام ٣٥٨هـ، وقصيده في فتح مصر وتهنئة المعر ب لهذا الفتح والثناء على جوهر قائد الفاتح المظفر، فيما أثر لقاء هذه الصلات.

وفي الديوان أيضاً قصيدة نظمها ابن هاني عام ٣٤٨هـ مدح بها المعر ووصف هدية قائد جوهر إليه، بعد تسخيره بلاد الغرب جميعاً، وتوطيد الملك الفاطمي فيها، ومطلعها:

ألا هكنا فليهد من قاد عسکراً وأورد عن رأي الإمام وأصدرا

وهذه القصيدة أرجح أن الشاعر نظمها أثناء اتصاله الأول بجوهر، فقد يكون جوهر بعد هذا الفتح سعى بجيشه، وفي حاشيته ابن هاني، لمقابلة المعر، وقدم إليه هديته، فنظم ابن هاني هذه القصيدة في مدح المعر وقائده، ووصف هدية قائد إليه.

نستطيع من ذلك كله أن نقول إن الشاعر اتصل بجوهر في أواخر عام ٣٤٧، وظل في حاشيته عدة شهور، إلى ما بعد مطلع عام ٣٤٨هـ، ولكن صلات جوهر القليلة، دعته إلى أن يقصد بشعره أحد الأمراء ليعيش في ظلاله، وفعلاً سار الشاعر ممماً وجهه أميراً عرف بالبذل والمسخاء، وبالاغدق على الأدباء والشعراء، فألقى رحالة في فنائه، وعاش أميراً لديه، مقرباً عنده، وذلك هو أمير « الزاب » و « المسيلة » جعفر ابن علي.

الشاعر في الزاب :

عهد الخليفة المنصور الفاطمي في بدء توليه العرش عام ٣٣٤هـ إلى جعفر بن علي القائد الفاطمي بولاية الزاب والمسيلة، وأنزل معه أخاه يحيى بن علي يساعده في ولايته، وعني جعفر بأمور إقليمية، فبني القصور والمتزهات، وأقام له فيه سلطاناً ومجدًا، وقصده العلماء والشعراء، وظل في ولاية هذا الإقليم حتى توفي الخليفة المنصور عام ٣٤١هـ، فاقرئ المعر على ولايته لما جلس على العرش بعد وفاته.

وسمع ابن هاني بأمر الأمير وجوده وأريحته، فهرع إليه عام ٣٤٨هـ يمدحه ويشيد بذلكه بقصيدة أرجح أنها القصيدة الخمسون في ديوان الشاعر، التي أفضى فيها في الناء عليه، والإعجاب به، ووصف جهاده وبطولته، وآدابه السامية التبلية، وما يقول فيها :

خلقت شهاباً تضيء الخطوب ولست شهاباً يضيء الظلم
 وإنك من عشر طففهم يتوج قبل بلوغ الحلم
 تشيع فيكم لسانى ومن ولست أبداً يتأي بدأ
 فشللي لشعلكم جامع وشعبي بشعيكم ملائم

وابن هاني في هذا البيت يريد أن يؤكّد الصيحة التي تجمع قومه الأزديين بقوم الأمير، ثم يقول :

حمدت لقاءك حمد الربيع وشمّت نوالك شيم الديم

ثم يذكر عسف الزمان به، وتحالف الخطوب عليه، ويصور عفافه وبعد همته، اللذين كانوا من أسباب محنته كما يقول، فيقول :

أذم إليك اعتوار الخطوب وصرف الحوادث فيما أذم
 وما أعنان على الزمان عفاف يدي وعلو الهم
 لسانى من العرب الأكرمين وفي أول الدهر ضاع الكرم

وتلقى الأمير الشاعر بالتقدير والمعطف، ودعاه إلى الإقامة في كنفه ورعايته، فامثل ابن هاني في نشوة من البشر والفرح، وأقام في ظلاله يمدحه ويشيد بذكره، أو يمدح أخاه يحيى، أو ابنه إبراهيم.

وفي ظلال جعفر وأسرته عادت الطمأنينة إلى نفس الشاعر، فقد كفى شر الحاجة، وأمن غائلاً الأحداث، وركن إلى ألوان من ترف الحياة ونعمتها وهدوئها وطمأنيتها، وفرغ الشاعر لفنه وشعره، بعد أن كان قلبه نهباً موزعاً لا يفيق من آلام الحياة وخطوبها، لقد كان قبل اتصاله بجعفر يزجي لأماله السحاب، فلا ينجلي إلا عن سراب خادع، وسحاب مبدد:

قد كنت قبل نداك أرجي عارضاً فأشيم منه الزيرج المنجاشا
لم تدنني أرض إليك وإنما جفت السماء ففتحت أبواباً
وصارت الراب عنده جنة النعيم :

إنما الزاب جنة الخلد فيها من نداء غضارة التفويف

ولم لا؟ وقد أخذ جعفر بضيعبه، وأنقذه من صولة الخطوب : صرفت عنان الشعر إلا إليكم وفيكم فاني ما استطعت له صرفاً أباً أحمد قد كان في الأرض موئل فلم أبع لي ركاناً سواك ولا كهفاً وما الشمس تكسو كل شيء شعاعها أخذت بضيعي والخطوب رواغم فسمت زمامي كله خطبة خسفاً أمنت بك الأيام وهي مخوفة ولو بديك الخلد أمنتني الحتفا

ويحدث الشاعر عن نفسه وصنيع يحيى معه :
وما زلت ترمي اللالي بيبلها وأرمي اللالي بالجلد والصبر وأنجدني يحيى على كل حادث وتوجني تاجاً من العز والفخر فلا تسألاني عن زمامي الذي خلا فو العصر إني قبل يحيى لقي خسر أخذت أمان الدهر دون عراضه ولما حطّلت الرحل دون عراضه فداوك حتى البدر في غرق الدجي منير أو حتى الشمس فضلاً عن البدر

إلى أن يقول :

آذعو إلهي بالسعادة عندكم
آبغى لدبه طالباً ما كفيته
أسرت بما أسدتمون من صنيعة
فمهلاً بني عمي وأعيان معشري
فلا ترهقوني بالمزيد فحببكم

ويقول فيه :

أطفالأت عنِي زمني بعد ما
فاليوم بدللت سناً من دجي
واعتنقت صفو العيش بالرنق
وماله غيرك من صاعداً
واليوم يرقى أملبي صاعداً
وما وفي شكري ببعض الذي
كسوتني من مخمر الصدق

وهكذا كانت مداعع ابن هاني في جعفر وأسرته، وكانت كذلك مراتبه البليغة في أمه وفي حفيده : ابن ابنه إبراهيم بن جعفر بن علي، والتي تبلغ كلها سبعة وعشرين قصيدة، كانت جميعها تفيض عاطفة وقوة وروحاً، وتصدر عن إخلاص ووفاء وشعور بأيادي هذه الأسرة الكريمة عليه، وتقدير بعيد لحديها به، ومعونتها الصادقة له في الحياة؛ ولعل في هذه الأبيات التي نظمها من قصيدة طويلة في جعفر، ما ينم عن روح ابن هاني وعطاشه نحو هذه الأسرة الكريمة :

خليلي أبن الزاب عنا وجعفر وجنة خلد بنت عنها وكوثر؟
فقبلني نأى عن جنة الخلد آدم فما رافقه في ساعة الأرض منظر
خليلي ما الأيام إلا بجعفر وما الناس إلا جعفر، دام جعفر

لقد كان ابن هاني قبل اتصاله بجعفر بائساً محروماً، ولا يجد له نصيراً يخفف عنه عباء الحياة، وكان كثير الشكوى من زمانه والأحداث التي كان يصيّها عليه؛ فبدل بالشقاء نعيمًا، ومحا بر أسرة

جعفر به ورعايتها له آلامه وبؤسه، فابتداً حياة جديدة فيها أمل ورجاء؛ وطمأنينة وصفاء، ونسمة ورخاء.

وكانت شاعريته في هذه الفترة بقطة قوية مشبوهة، يثيرها في نفسه إلهام الشباب وحوافر الأمل، والعزم على الظهور في هذا المجتمع الجديد، وكثرة أبيادي جعفر عليه. لقد كان في نصرة الشباب، ومتنة الحياة، وبهجة الأمل وكان يرى أن جعفر ليس بغرير عنه، ولا يقصي منه. فهو من عنصره ونجاره وأصله القديم، ثم كان مع ذلك يعيش وسط خصومات أدبية، أبطالها شعراء المغرب وأدباؤه الذين أحمل ذكرهم ابن هاني ونظمه الجيد الممتاز كانت كل هذه البواعث حافزاً له على تجويد فنه، وصقل شعره، والإبداع في ما يسرّه من فريض، فكان يخرج قصائده إخراجاً فنياً خلاباً. فتخرج وهي مستوية الأطراف، جميلة السبك، جزلة النفط في عدوية، يشع فيها أثر التائق والتهديب على أن الشاعر لم يكن مدفوعاً إلى ذلك كله ببواطن مادية صرفة، بل كان يصدر عن عقيدة قوية غلابة. كان جعفر من أشد الذائدين عن العقيدة الفاطمية وسلطانها السياسي، وهي العقيدة التي أخلص لها الشاعر متنه ما في وسمه من إخلاص. فمدحه وكأنه يمدح العقيدة التي آمن بها، وكافح من أجلها طول الحياة.

ومهما كانت الأساليب فإن إنتاج الشاعر في هذه الفترة القصيرة الحافلة كان بعيداً عن سمات التكلف، مصبوغاً بصبغة الشاعرية المطبوعة، وبدأت تظهر فيه شخصية الشاعر الفتية بوضوح وجلاء، وتظهر فيه كذلك صورة حياته التي خضعت لأنواع الحياة الجديدة المترفة في ظل جعفر وأسرته.

وعاش ابن هاني في الراب نحو عامين، لم يكن همه فيها إلا حضور مجلس الأمير والاتصال برجال الدولة، ومتنة بنعيم الحياة

وجمالها. وتصوير جوانب هذه الحياة كلها في شعره ومدائحه التي كان ينشدها الأمير وقومه.

ولم يكن ابن هاني يشعر بأنه غريب في البيئة، ولا كانت أيادي جعفر عليه توقفه مواقف الهران أو الذلة، ولا كانت قصائده فيه وسيلة للسؤال والاستجاء فحسب، بل كان يرى في صلات النسب بينه وبين جعفر حافزاً له على التوبيه به، والإشادة بـ«أمته»، ويرى فيها ما يعزز مكانته لديه، ويرفع مقامه عنده، أليس أسرة جعفر يمانية قحطانية يعربها، وأليست هي من يكرر أحلاف قومه الأولين؟ إنما تجمعنا وهذا الحب من يكرر أذمة سالف لم تخسر أخلاقنا فكأننا من نسبة ولداتنا فكأننا من عصر

وكانت هذه الصلة البعيدة بين الشاعر والأمير ابن هاني بروح ملؤها الشعور بالكرامة والعزيمة في ظل جعفر، وتزييه بأسباب الحياة والقوة في تلك البيئة، وبين خصوصه والحاقدين عليه من الأدباء والشعراء، كالوهرياني كاتب الأمير الذي أحمله ابن هاني، وصور الخصومات الأدبية التي نشأت بينهما في قصيدهاته التاسعة والعشرين التي هجا فيها الوهرياني شر هجاء.

وأصبحت هذه الخصومات وسواها لا تضرير الشاعر بشيء، ما دام قوم الأمير هم بتو عمه، وأعيان معشره، وأملاك قومه، والحضار من نحجه كما يقول.

وبعد فكت أود أن أعرض آثار الشاعر الفني في هذه الفترة القصيرة الزاهية في حياة الشاعر وفنه، وأحلل في إيجاز تراثه الفني في العهد الذي قضاه مع جعفر وأسرته، وأياته الحسان الرائعة في الإشادة به وبهم، ولكن كثرتها وضيق الكتاب عن أن يتسع لمثل هذا الاطناب يحولان بيني وبين ما أريد، فإذا ما أردنا أن نضع هذا الاتجاج الفني

موضعه في تراث الشاعر الأدبي، فإن حُكْمَتَا عليه أنه من روائع الآثار الأدبية في حياة ابن هانئ القافية.

ونحن لا نعلم بعد، هل استقرت حياة الشاعر استقراراً قائماً على أساس الحياة العائلية فتروج في هذه الفترة التي قضتها في الزاب أم لا؟ وعلى أي حال فقد سارت قصائد ابن هانئ في جعفر وأسرته، وتحدث بها الناس وروها الأدباء والرواة، وأنشدت في مجلس المعر وهو في القبروان، فأرسل إلى جعفر يطلب منه ابن هانئ، وامتلأ الأمير الأمر، وأعد للخليفة هدية نفيسة أرسلها إليه، وكان فيها ابن هانئ الشاعر . بل كان هو أغلى ما فيها من نفائس.

الشاعر في عاصمة المعر :

وفي عام ٣٥٠ هـ وصل الشاعر إلى القبروان عاصمة الخلافة الفاطمية، فسعى إلى الخليفة ومثل بين يديه، وأنشده شعره ومدائحه في الخليفة الخلافة وجلال الدولة وعظمة أيامها، وتصوير عزها الشامخ، ومجدها المكين.

والتاريخ الأدبي والسياسي لا يرشدنا بالتحديد إلى العام الذي اتصل فيه الشاعر بالمعز، ولكن دراسة تراث ابن هانئ الشعري مدائحة للمعز، تهدينا إلى هذه الحقيقة المجهولة في ثانيا تاريخ ابن هانئ الأدبي المجهول.

وكذلك لا ترشدنا المصادر الأدبية على القطع واليقن إلى أول قصيدة أنشدها ابن هانئ في مجلس المعر الفاطمي لأول عهده بالمشول بين يديه، وسأذكر رأيي الذي أرجحه في ذلك.

لابن هانئ في المعر إحدى وعشرون قصيدة من أطول القصائد

الفنية وأبلغها، وتبلغ نحو نصف تراثه الأدبي، وقراءة هذه القصائد قراءة واسعة وفهمها تفهمأً تاريخياً، وتدوتها تنوفاً أدبياً يهدينا إلى كل ما يريد. من بين قصائد الشاعر في الخليفة أربع قصائد تستوقف نظر الباحث المتهم وتعطيه الدليل الملموس على رأيه في هذه المشكلات الأدبية.

فأولى هذه القصائد نظمها الشاعر عام ٣٤٨ هـ في وصف هدية

جوهر للمعر وطلبتها :

ألا هكذا فليهد من قاد عسکراً وأورد عن رأي الإمام وأصدراً
وفيها يشيد بال الخليفة ويحوله ويصف هدية جوهر إليه، وهذه القصيدة
قد تدفعنا إلى القول بأن اتصال ابن هاني بالمعز كان عام ٣٤٨،
لا عام ٣٥٠ كما نقول، ورأي في ذلك أن هذه القصيدة نظمها الشاعر
حين كان في حاشية جوهر لما التقى القائد بال الخليفة بعد الظفر الحربي
الذي ظفر به، فقدم إليه هديته التقيسة التي وصفها ابن هاني في
هذه القصيدة. وهذا رأي وجهه مقبول، فضلاً عن أنه يبرك لابن هاني
عامين يقضيهما في الراب وفي نظم قصائده المأثورة في جعفر بن
علي وأسرته.

والقصيدة الثانية ذكر الديوان أنه قيل عنها إنها أول شعر مدح به
ابن هاني الخليفة المعز، وفيها يقول الشاعر :

ملك آثار على الزمان بكل كل فاذل صعباً في القياد جموحاً

ويحدّر أعداءه سطوطه ويُشيد بانتصارات جيوشه فيقول :

ونصرت بالجيش للهـام وإنـما أعددـته قبل الفتوحـ فـتوحـاـ

يرجـيهـ أـروـعـ لـوـ يـداـفعـ باـسـمـهـ عـلوـيـ أـقـلـاكـ السـماءـ أـزـبـحاـ

فـكـأـنـماـ مـلـكـ القـضـاءـ مـقـدـراـ فـيـ كـلـ أـوبـ،ـ والـحـمامـ متـبـعاـ

ويصف الأسرى وبؤسهم، وأسطول المعز وقوته، وتتبعبني أمية
لحركاته البحرية، ويدرك ماتهم الذي تجاوبت به الدنيا، ورزء فقيدهم

الذي فقدمه، ويدعو إلى القضاء على دولتهم في الأندلس فيقول :
وأمّة تحفي السؤال وما لمن أودى به الطوفان يذكر نوحًا ؟
تجاوب الدنيا عليهم مائماً فكأنما صبحتهم تصيحاً
ليسوا معايهم ورزاً فقيدهم كاللابسات على الحداد مسوحاً
أنفذ قضاء الله في أعدائه لتراح من أوتارها وترحباً

إلى أن يقول :

أعليك تختلف العناير بعد ما جنحت إيلك المشرقان جنوحًا ؟
أم فيك تختلط الخالق مرية كلاً وقد وضع الصباح وضوها
صورت من ملوكوت ربك صورة وأمدتها علمًا فكنت الروحاً

والقصيدة قوية رائعة. ويجلّى من قراءتها أنها نظمت على أثر انتصار حربى لجيوش المعز، ولكن لا تدرى في أي عام كان هذا الانتصار، وتساءل : من هو هذا الفقيد الذى لبست أمّة رزءه في الأندلس، وتجاوיבت بـ «أمّة الدنيا» ؟ لم يفصح الشاعر بشيء، ولا يبعد عندي أن يكون هو الملك الناصر الذى توفي عام ٣٥٠ هـ وإذا يكون تاريخ القصيدة هو هذا التاريخ، وإذا صح أنها أول ما أنسّده ابن هانى أمام الخليفة. فيكون إذا بدء اتصاله به هو عام ٣٥٠ هـ.

والقصيدة الثالثة هي الكافية التي ذكر فيها هجرته وبواطنها، والتي حللت جانباً منها في هجرة الشاعر، وفيها يقول :
سقى الكوثر الخلدي دوحة هاشم وحيث معز الدين عنا الملائكة
وما سار في الأرض العريضة ذكره ولكنه في مسلك الشمس سالك
وما كنه هذا النور نور جبيه ولكن نور الله فيه مشارك
ويذكر فيها ولاء للفاطميين وهجرته في سبيل عقيدته الشيعية، ويدعو المعز إلى القضاء على دولة بنى أمية في الأندلس، ثم يذكر نفسه وشعره، والخصومات الأدبية بينه وبين الشعراء والتي يصورها في قوله :

أرى شعراً الملك تحت جاني
تخب إلى ميدان سبق بطاوها
تسيء قوافيها، وجودك محسن
أبنت لي سبيل القوم في الشعر همة
طموح ونفس للدنية فارك
وما سرني تأمل غير خليفة
وحمول وإفتار وفي يدك الغنى
فمحيا فإني بين هاتين هالك
والقصيدة ليس فيها أي إشارة تاريخية تدل على تاريخها الأدبي،
ولكنني أرى أنها من أوائل القصائد التي نظمها ابن هانئ في المعر،
بل لا يبعد عندي أن تكون أول لها كلهما، لأن ذكر هجرة الشاعر ووصفه
لحالته، ودعاء الخليفة إلى العطف عليه والعنابة به، وبيان إخلاصه لعقيدته،
وأن هذا الإخلاص كان سبب محنته في الأندلس، كل هذا دليل على
ما أقول، وبؤيده تصويره لهذه الخلافات الأدبية التي نشبت بينه وبين
شعراء الدولة، مما يرشدنا إلى أن القصيدة نظمت قبل أن يدعم مركز
الشاعر في بلاط المعر.

أما القصيدة الرابعة فهي نونيته الساحرة، التي نالت إعجاب الخليفة،
وكوفئ عليها الشاعر مكافأة طاللة بلغت خمسة عشر ألف دينار.
وذكر الديوان أنه قد قيل إنها أول ما أشده الشاعر بالقبروان من شعر
في المعر ومطلعها :
هل من أعقنة عالج يربين أم منها بقر الحدوخ العين ؟

ويقول فيها :
هذا معنٌ والخلائق كلها هذا المعر متوجاً والدين
هذا ضمير النشأة الأولى التي بدأ الإله، وسرها المكون
ويحرض فيها المعر على العبور إلى الأندلس والقضاء على دولة
بني أمية فيها. والقصيدة رائعة، قوية في نظمها وفي روحها وفي العقيدة
التي تملأ جوانبها بالحياة الفنية المشبوهة : وهي على أي حال من

أوائل القصائد التي نظمها ابن هانئ في المعرز، إن لم نجزم بأنها أولها.

ونحن نرى أن القصيدة الأولى نظمت قبل اتصال الشاعر بالمعرز بعامين، وأما القصائد الثلاث الباقية فقد نظمت كلها عام ٣٥٠هـ وهو العام الذي اتصل فيه ابن هانئ بالمعرز، وأول قصيدة أنشأها في مجلسه هي الكافية ثم تلتها الحائمة ثم التونية؛ وهذارأي وإن كان لكل اختيار ما يريد بعد أن بسطنا البحث وفصلنا الكلام فيه.

وعلى أي حال فقد أقام ابن هانئ في فناء الخليفة، واستظل بظله، وعاش في القبور عاصمة دولته، يروج ويغدو كل يوم إلى الخليفة، ينشر أمامه الثناء المحرر والشعر الساحر، والقوافي البلية، التي يشيد فيها بالدولة وال الخليفة، ويدعم حقها في تراث الرسول، ويندو عنها أعداءها من الأمويين والعباسيين، ويندو بأيامها وانتصاراتها؛ كل هذا وال الخليفة يزيده عطفاً ورعاية وتمكيناً.

وبذلك ابتدأت صفحة جديدة في حياة الشاعر، فعاش في مجد العرش وظله، وبين سمع الزمان وبصره.

عصر المعرز الفاطمي :

لaci العلويون كثيراً من الاضطهاد في عهد الأمويين والعباسيين، وفر لفيف منهم إلى المغرب، فنشر دعاتهم الدعوة الشيعية في ربوعه، ودعوا الناس إلى بيعة المهدي المنتظر منهم، وأعلن أبو عبدالله الشيعي في آخر القرن الثالث الهجري عام ٢٩٦هـ ابتداء قيام الدولة الفاطمية، وأخرج عبدالله المهدي من الجيش وأقامه على ملك الفاطميين.

والدولة الفاطمية تنتهي في تسليها إلى فاطمة الزهراء، وكانت عاصمتها الأولى هي «المهدية» التي تسبّب إلى أول الخلفاء الفاطميين المهدي.

حكم المهدى هذه الدولة الجديدة نحو ربيع قرن (٣٢٢-٣٩٦) هـ، ولما توفي خلفه على العرش ابنه القائم بأمر الله (٣٢٢-٣٣٤) هـ، ثم خلفه بعد وفاته ابنه المنصور (٣٣٤-٣٤١) هـ.

وكان ملك الفاطميين في أول أمره يشمل كثيراً من تونس وبعض أقاليم الجزائر وطرابلس، كما يشمل صقلية من جزر البحر الأبيض، ولكن الخلفاء الفاطميين دأبوا على التوسيع والفتح، فضموا إلى دولتهم كثيراً من البلاد، ولقب المنصور نفسه بالقاب الخليفة لما رأى ضعف دولة بني العباس، وفي عام ٣٤١ هـ توفي المنصور خلفه على عرشه المعرز الدين الله الفاطمي.. ولد المعرز بالمهدية عام ٣١٨ هـ، وبويع له بولاية المهد في آخر حياة أبيه، ثم سلم عليه بالخلافة في ٧ ذي الحجة عام ٣٤١ هـ، ولقب نفسه أمير المؤمنين، وبابتداء حكمه ابتدأ عهد جديد للفاطميين، وأخذوا يتوسعون في بسط نفوذهم السياسي والروحي في شتى الأقطار، على حساب الدولة العباسية في الشرق ودولة بني أمية في الغرب، بالرغم من المقاومة السياسية العنيفة التي كان العابسيون والأمويون يداوون على إحاطة الدولة الفاطمية بها، وبرغم الجهود الحربية التي قام بها العابسيون والأمويون للحد من نشاط الفاطميين السياسي والحربي والقضاء عليهم كما كانوا يتمنون.

وجه المعرز عنائه في أول عهده إلى تقوية جيشه وأسطوله بلغ بهما ما أراد، وبدأ يناوش بأسطوله الأمويين في ثغور الأندلس، والروم في جزر البحر الأبيض، ثم حرك جيوشه بقيادة جوهر وسواء من القواد، فاجتاحت بلاد المغرب كافة ورفعت فوق ربوتها راية الفاطميين البيضاء، ووصلت إلى البحر المتوسط ظاهرة منصورة عام ٣٥١، وفي عام ٣٥٤ قامت معارك حربية وبحرية هائلة بين جيش المعرز وأسطوله وبين جوش الروم وأساطيلهم البحرية، في صقلية وجنوب إيطاليا، وانتهت هذه المعارك بظفر كبير لل المسلمين، وفي عام ٣٥٦ هـ مات كافور الأخشيدى وسيف

الدولة الحمداني، وبدأت الدولة الاختشيدية في مصر والحمدانية في الشام تسيران إلى الأضاحلال والفناء، مما مهد السبيل للتوسيع الفاطمي صوب الشرق، وفعلاً خرج جيش عظيم من القيروان عام ٣٥٨، بقيادة جوهر لفتح مصر، بلغ مصر ودخلها في منتصف شعبان سنة ٣٥٨هـ واخترط جوهر القاهرة، وبني الأزهر، وأرسل الجيوش إلى الشام، ودخل المعرق القاهرة في منتصف رمضان سنة ٣٦٢هـ، واتخذها عاصمة لملكه الواسع الذي يسرى من المحجوط الأطلسي إلى الفرات، وبذلك صار المعرق أكبر حاكم لأعظم امبراطورية إسلامية عرفها القرن الرابع وظل في مصر حتى توفي عام ٣٦٥هـ، وخلفه على العرش ابنه العزيز.

هذا خلاصة التاريخ السياسي لعصر المعرق الفاطمي، الذي كان كله عصر كفاح وجلاد، للفاطميين فيه أروع الذكريات وأمجاد الانتصارات، وقد شاهد ابن هانئ كثيراً من هذه الأحداث التاريخية العظيمة، واتصل بالمعز خلالها اتصالاً وثيقاً، ونظم فيها كثيراً من أروع قصائده وأعظم آياته، وتغنى بمجد الدولة، وناضل عنها خصومها السياسيين، فلتتحدث إذأ عن التاريخ الأدبي لابن هانئ في هذه الفترة فهو وحده صورة واضحة لعصر المعرق، وأحداثه التاريخية الحافلة.

ابن هانئ شاعر المعرق :

لم يكن ابن هانئ في بلاط المعرق شاعر الترف والتعميم الذي يستغرق في ملذاته وشهوانه، ولا شاعر الفن الخالص الذي ينظم الفن للفن، دون أن يلقى نظره على الحياة العامة حوله، دون أن يستمع لضجيجها، ودون أن تحدثه نفسه بأن يكون صورة للحياة التي يعيش فيها وللأحياء الذين يقومون بأداء رسالتهم في الحياة وفي تاريخ الإنسانية عامة. إنما كان شاعر الحياة بأوسع معاناتها. كان شاعر الخليفة، والشاعر السياسي لدولة الخلافة الفاطمية، ينطق بمجدها، ويتحدث عن عظمتها

الروحية والسياسة والحرية، وكان يجد في عظمة المعر وعصره مجالاً
فسيحاً ينظم الشعر فيه.

نعم إن قصائده كانت في أول اتصاله بيلات المعر تدور حول إيات وجود الشاعر والمعنى لنفسه ولشخصيته في الدولة، وتصوير آلامه والخطوب التي احتملها، وشكر أيادي الخليفة التي تغدق عليه المال والعطاء، ولكنها مع ذلك كلها لم تخل من الحديث عن مجد الخلافة والدولة وعاهلها العظيم. وفي انتصارات الفاطميين العربية والبحرية على الروم عام ٣٥١هـ إلى ٣٥٤هـ، نظم ابن هاني كثيراً من القصائد الرايعة التي صور فيها هذه الانتصارات الباهرة أبلغ تصوير، ثم كان فتح مصر عام ٣٥٨هـ فأله الشاعر بآيات ساحرة من القريض، ونظم ابن هاني بعد ذلك قصائد هي صورة صادقة لما تلا ذلك من أحداث حتى وفاته عام ٣٦٢هـ.

وأصبح ابن هاني في هذه الحقيقة، أي من عام ٣٥٠هـ إلى عام ٣٦٢هـ، شاعر الخليفة، بما كان ينظمه في مدحه من آيات الشعر الحالد، وشاعر الدولة الذي وقف نفسه وفنه وشاعريته، على الزياد عنها، والاشادة بمجدها وأيامها وبطولة جيشها، وانتصارات أساطيلها الباهرة، واحتل في دولة المعر مكاناً لم يحتله سواه من الشعراء، وصار حديث الناس في المحافل العامة والخاصة، كما صار شعره أنشودة في كل قم، وأغنية في كل لسان، وحصل به الشيعة الفاطميين، وأولوه عنائهم واعجاليهم البالغ، وكان لقصائده في المعر وأهل بيته العلوى منزلة خاصة في الأدب والتاريخ، لأنها سجلت أهم مظاهر الانتقال في حياة الدولة الفاطمية، وصورت الكثير من عقائد الفاطميين، وتقديسهم للخلافة وعاهلها، فوق مكانتها الأدبية الممتازة، وما امتازت به من الروعة والقرة وللد الخصومة، وقوة العقيدة وحرارة الإيمان وانشغال العاطفة، فوق طموح الشاعر واعتداده بفنه وشخصيته فيها، فضلاً عن

أنها تمثل الكثير من مظاهر الحياة الاجتماعية والعلقية والدينية والأدبية في عصر المعرز.

وبعد، فقد كان ابن هانى في هذه الفترة العظيمة التي قضاها في بلاط المعرز شاعر الخليفة، والشاعر السياسي، وشاعر العقيدة الفاطمية بمبادئها الروحية وأرائها السياسية ومعتقداتها الدينية، وصارت شخصيته في هذا العهد أظهر شخصية بين الأدباء والشعراء وبين رجال الدولة والسياسة، وأعد على المعرز المال إغداً، وحسبك أن نوبيه وحدها قد كفأه المعرز عليها بخمسة عشر ألف دينار، ولتنقل بعد ذلك إلى مرحلة جديدة من التحليل الأدبي لبعض قصائد الشاعر في هذه الفترة المحافلة.

لابن هانى كثير من القصائد التي نظمها في المعرز وتسمى « المعزيات »، و « معزيات » ابن هانى هي قصائد التي أنشدها المعرز، والتي بينما مكانها في الأدب والتاريخ والسياسة والاجتماع، وهي ثروة أدبية ضخمة، ومجد أدبي كبير لابن هانى وفن.

ومن هذه القصائد همزيته التي هي أول قصيدة في ديوان الشاعر، مدح بها المعرز هناك بشهر رمضان، وقد بدأها بغازل ظهر في مطلعه بمظاهر البداوة التقليدي في الغزل فصور الشاعر عزة قوم حبيبه، وغلوهم في الغيرة عليها، وأشار إلى ذكريات الثلاثي وماسي الفراق، وإلى بعض مظاهر الجمال في خلقها، ثم خلص من ذلك إلى نفسه وإلى مدح الخليفة ووصف عقيدة الفاطميين فيه.

ثم وصف أسطوله وقوته، وسطوته على الأعداء، ويقول في هذه القصيدة :

هو علة الدنيا ومن خلقت له ولعلة ما كانت الأشياء
من شعلة القبس التي عرضت على موسى وقد حارت به الظلماء
من معدن التقديس وهو سلالة من جوهر الملوك وهو ضياء

من حيث يقتبس النهار لمصر وتشق عن مكونها الأباء
ليست سماء الله ما ترونها لكن أرضاً تحويه سماء
نزلت ملائكة السماء بصره وأطاعه الإصباح والإمساء
ويستمر في الإشادة به، مدفوعاً بعقيدته الفاطمية، مسايراً لإيمانه
الاسعاعي، الذي يرى أن الأمام، أو قل الخليفة، سبب وجود
المخلوقات، وأنه من أكملها جسداً وروحاً، وأنه متصف بكل صفات
النبي، صلوات الله عليه، وهو معصوم عصمة الأنبياء، وأنه مظهر نور
الله، ويصبح اتصفه بصفات الله ويشرق نورها عليه وفيه، وأن معرفته
وطاعته واجبة على جميع الناس، وأنه من معدن الرسالة التي خلقت
قبل الخلق، وانتقل خلال القرون حتى ظهرت في مظاهرها العظيم في
شخصية محمد صلوات الله عليه، إلى غير ذلك من مظاهر تقديس
الشيعين لآل البيت ولأنتمهم العلوين، هذا التقديس الذي ارتفع إلى
مستوأ الروحي العظيم. والقصيدة فياضة بروح اليقين والعقيدة. ومن
الجدير بالذكر أن شعر ابن هانئ في المعز خاصة هو السجل الناطق
بقعيدة الفاطميين، وبآرائهم في الخلافة وتراثها، وشخصية الخليفة ونفوذه
الروحي والديني، فنراه يقول في هذه القصيدة :

هذا الشفيع لأمة يأتي بها وجدودها شفعاء
هذا أمين الله بين عباده وبلاده إن عدت الأماء
هذا الذي عطفت عليه مكة وشعابها والركن والبطحاء
هذا الأغر الأزهر العتائق المتدقق المتليج الوضاء
فعليه من سيماني دلالة وعليه من نور الإله بهاء

ويقول في المعز من قصيدة أخرى :
هذا ضمير النشأة الأولى التي بدأ الإله وسرها المكون
من أجل هذا قدر المقدور في أم الكتاب وكون التكوين
وبذا تلقى آدم من ربه عفواً وفاء ليونس اليقطين

ويقول :

وبه يحط الإسر والأوزار
حقاً وتحمد أن تراه النار
بئس اليهم ليس فيه فخار

هذا الذي ترجي النجاة به
هذا الذي تجدي شفاعته غداً
من آل أحمد، كل فخر لم يكن

ويقول :

فاحكم فأنت الواحد القهار
وكانما أنصارك الأنصار
في كتبها الأخبار والأخبار
الآرزاق والأجال والأعمار

ما شئت لا ما شاءت الأقدار
وكانما أنت النبي محمد
أنت الذي كانت تبشرنا به
شرف بك الآفاق انقسمت بك

ويقول فيه :

وتصدق التسورة والإنجيل
عدت ومن إحسانك التنزيل
ما يستوي المعلوم والمجهول

من يشهد القرآن فيه بفضله
فأفخر فمن إنشائك الفردوس إن
وأرى الورى لغوا وأنت حقيقة

إلى غير ذلك مما تراه واضحـاً في كل قصيدة من معزياته التي
صور فيها عقيدته الفاطمية أبلغ تصوير، وأظهر مبادئها بكل وضوح
وجلاء، وقد كانت أبياته هذه وما شابها مجالاً كبيراً لخصوص الفاطميين،
الذين غضوا من شعر ابن هانئ وأزروا به ورموا بالكفر والبهتان.

وقد مكث الشاعر نحو أربعين سنتاً ينظم الشعر في المعز، يضمنه
عواطفه نحوه ونحو دولته، وأماله الواسعة بملك الفاطميين العالم
الإسلامي، وقصائده في هذه الفترة حالية من ذكر المعارك الحربية
والانتصارات الظافرة؛ لأنه لم تقع فيها معارك ولا أحداث تاريخية كبيرة،
ومن بين قصائده هذه قصيدة مدح بها المعز وهناك بعد الفطر، ووصف
موكيه إلى المصلى، وجلاله هذا المركب، والمطلة التي كانت تطلله،
والخيل التي امتطاها، إلى آخر ما ألم به الشاعر في هذه القصيدة من
معاني وأغراض، ومطلعها :

ولبسن الحداد في الأحداق
هن حتى عشقت يوم الفراق
طريق ومهجة في وثاق
آذنوا بالفراق قبل التلاقي

قمن في مأتم على العشاق
ومثحن الفراق رقة شكوا
ومع الجيرة الذين غدوا دمع
حاربهم نواب الدهر حتى

ويقول فيها في المعر :
قد جلا الفطر منه عن نبوي أليس الوجه أليس الأخلاق

والقصيدة صادرة عن ذوق متزلف يناسب حياة الشاعر المترفة في
ظلال الخليفة بعد أن ألقى الأباء عن كاهله، ووطدت مكانته في
الدولة، وهي تصور عهد الاستقرار السياسي الذي انتهت إليه دولة
المعر، بعد توطيد دعائمها في المغرب، وبعد انتصاراتها العظيمة على
الروم في صقلية والبحر الأبيض، أي عام ٣٥٤هـ.

ثم يدخل عام ٣٥٨هـ، فتبدئ مرحلة جديدة في حياة القاطمين،
وكيانهم السياسي، ويسر جوهر بجيشه لحب لفتح مصر؛ فيودعه ابن
هاني متمنيا له التوفيق في أغراضه الحربية والسياسية الكبيرة، فإذا
ما عاد من تشيع جوهر وجشه العظيم دخل على المعر ينشد آية
من آياته، ينشد قصيده التي مطلعها :

سقتني بما مجت شفاه الأرقام وعاتبني فيها شفار الصوارم
بدأها بالغزل التقليدي، ثم خلص منه إلى أناشيد في المعر فيقول :
تشيعت جيش النصر تشيع مزمع وودعته توديع غير مصارم
ثم يذكر الجيش وبنوه بقائه تورباً بالغاً.

وبعد قليل يصل إلى المعر نباً فتح مصر على يد قائد جوهر فيصور
ابن هاني الفتح وأنباءه وتائجه السياسية تصويراً باهراً في قصيدة بالغة
نهاية الروعة والسرور والبلاغة، وهي المثل الأول لقوة العقيدة في نفس

الشاعر، ولأثر هذه العقيدة في فنه الشعري المهووب، ومطلعها :
 يقول بنو العباس : هل فتحت مصر ؟ قفل لبني العباس : قد قضى الأمر
 وقيل إن الشاعر بدأها بدعوة المعز إلى فتح بغداد :
 تجهز إلى بغداد قد فتحت مصر وأنجز صرف الدهر ما وعد الدهر
 تقول بنو العباس هل بلغ المدى قفل لبني العباس قد قضى الأمر
 وهو يدل على طموح الفاطميين السياسي أبعد غايات الطموح،
 ويسترسل ابن هانئ في قصيده استرسلاً جميلاً، فيصور الفتح وأثره
 ومداه وما ترتب عليه من نتائج ويقرر حق الفاطميين في تراث الرسول،
 ويندد عنهم خصومهم السياسيين، ويصف الجيش الفاتح، ودخوله
 الإسكندرية، ورسول القاهرة إلى جوهر، ثم سيره إليها، وقضاءه على
 الدولة الإخشيدية، ويدعو الشاعر العالم الإسلامي إلى أن يستظل بنوء
 الفاطميين، وأن يدخل في نطاقهم السياسي ولا فالويل لمن يقف في
 طريق السيل المنهر، ويهكم ببني العباس إلى أن يقول :
 لا تلكم الأرض العريضة أصبحت وما لبني العباس في عرضها فخر
 فقد دلت الدنيا لآل محمد وقد جررت أذلالها الدولة البكر
 ويشيد بالمعز ويهدي على العلوين :
 من انتاشهم في كل شرق وغرب فيدل أمّنا ذلك الخوف والذعر
 فكل إمام يجيء كأنما على خده الشعرى وفي وجهه البدر
 ويشر بهذا الفتح العالم الإسلامي، لا سيما قوله الخافق، البيت المحرم،
 الذي يراه عما قريب سيكون في قبضة المعز وسلطانه، إلى أن يقول :
 حبيب إلى بطحاء مكة موسم تحني « معداً » فيه مكة والحجر
 ويصور آثار الفتح، ويشيد بال الخليفة، ويهنته به، في حرارة وقوة إيمان
 ويصف الأمن والعدل اللذين سادا مصر على يد جوهر، وينوه بجوهر
 وأعماله ومجده وولاته إلى أن يقول :

رضينا لكم يا أهل مصر بدولة
 لكم أسوة فينا قديماً فلم يكن بأحوالنا عنكم خفاء ولا ستر
 إلى أن يقول :
 لا إنسا الأيام أيامك التي لك الشطر من نعمائها ولـي الشطر
 والقصيدة من أروع شعر ابن هانئ، ومجازة من معجزات فنه الحالـ.
 ولما وطـد الفاطميون مكانتهم في مصر عزموـا على التوغل في الفتح
 لأأخذ العـجاز والشـام والعـراق، ويصـور ابن هـانئ ذلك في قصـيدة لهـ،
 أشار فيها إلى اندفاع الفتح الفاطميـ، وسـيره في طـريقه دون هـواـدة
 وبـشر الشـرق بالـمستقبل المرتقب على يـد الفاطـميـنـ، وحـفـر عـزـيمـةـ المـعـزـ
 لـفتحـ العـراقـ والـسـيرـ إلـيـهـ، وأـخذـ العـجازـ منـ أيـديـ الـعبـاسـيـنـ، ويـقولـ فيهاـ:
 فـربـصـواـ فـالـلهـ مـنـجـزـ وـعـدهـ قدـ آـنـ لـلـظـلـمـاءـ آـنـ تـكـشـفـاـ
 هـذـاـ المـعـزـ اـبـنـ النـيـ المصـطـفىـ سـيـذـبـ عـنـ قـبـرـ النـيـ المصـطـفىـ
 وـكـائـنـيـ بـلـوـاءـ نـصـرـكـ خـاقـاـ قدـ حـامـ بـيـنـ الـمـروـتـينـ وـرـفـقـاـ
 والـقصـيدةـ طـوـيـلةـ جـمـيلـةـ، وـتـارـيـخـهاـ الأـدـبـيـ يـمـكـنـاـ آـنـ نـحدـدـ لـهـ عـامـ
 ٥٣٥٩ـ.

وفي عام ٣٦٠هـ قضى المـعـزـ علىـ اـبـنـ الـخـرـزـ الثـائـرـ فـيـ الـمـغـرـبـ؛
 وـالـذـيـ نـقـضـ عـهـدـ الطـاعـةـ لـلـمـلـخـلـقـةـ، وـعـاثـ فـيـ الـأـرـضـ فـسـادـاـ نحوـ عـامـينـ،
 وـلـمـ قـلـ جـلـسـ المـعـزـ يـسـتـقـبـلـ نـهـانـيـ رـجـالـ دـولـتـهـ ثـلـاثـةـ أـيـامـ، وـكـانـ
 مـنـ بـيـنـ النـهـانـيـ قـصـيدـ اـبـنـ هـانـئـ الـيـ مـطـلـعـهـاـ :
 كـدـأـبـ اـبـنـ نـيـ اللهـ لـمـ يـزـلـ قـلـ الـمـلـوـكـ وـنـقلـ الـمـلـكـ وـالـدـوـلـ
 ذـكـرـ فـيـهـ مـصـرـ الـثـائـرـ، وـصـورـ الـاستـقـرارـ السـيـاسـيـ لـلـدـوـلـةـ فـيـ الـمـغـرـبـ
 بـعـدـ القـضـاءـ عـلـىـ ثـورـتـهـ، وـأـشـادـ بـالـمـعـزـ وـلـيـ عـهـدـهـ، إـلـيـ آـنـ يـقـولـ :
 لـيـقـدـ الـتـاجـ هـذـاـ الـيـوـمـ مـفـخـراـ إـنـ كـانـ تـوـجـ يـوـمـ سـاـئـرـ الـمـشـلـ
 فـيـ الـرـيـبـانـ :ـ مـنـ فـصـلـ الـرـبـيعـ وـمـنـ وـقـائـعـ النـصـرـ تـشـفـيـ مـنـ جـوـيـ الـغـلـلـ

والقصيدة طويلة، تقارب المائة مع جودة وسحر، وهي كسابقاتها
دعابة قوية للدولة وبادتها.

وفي عام ٣٦١هـ انتصرت جيوش المعرز على القرامطة في الشام،
وبلغ هذا النصر المعرز، فنظم ابن هانىٰ فيه قصيدة :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار
وكائناً أنت النبي محمد وكائناً أنصارك الأنصار

وهي قصيدة قوية مشرقة الديباجة وصف فيها الشاعر جيش المعرز
وانتصاره في « قرافس » بالشام على القرامطة، ووصف المعركة والخيل
التي اقتحمتها، والأبطال الذين كان لهم شرف النصر فيها، وأشاد
بالمعرز إشادة ساحرة، ونافع عن حق الدولة، وذاد عنها أعداءها من
العباسيين، وهي على أي حال من عيون الشعر، وتحتل مكانها الممتاز
في فن ابن هانىٰ، وقد نظم كثير من الناس على مطلعها، ولكن الشاعر
كان كما تليه عقيدته عليه، وفي آخرها يقول للمعرز : إن مصر صارت
محسودة منذ أن صرت قطبيها :

ها إن مصر غداة صرت قطبيها أخرى لتجسدتها بك الأقطار
ولكن كيف ذلك مع أن ابن هانىٰ قتل والمعرز سائر في طريقه
إليها عام ٣٦٢هـ ولما يبلغها بعد ؟ قد يكون الشاعر أراد غداة صرت
ملكيها أو حاكمها مثلاً، وليس هنا بعيد، بل هو أقرب من أن نذهب
إلى أن البيت متصل على الشاعر وعلى الشعر، أو إلى أن القصيدة
نظمت والمعرز سائر في الطريق.

بقيت من « معزيات » ابن هانىٰ قصيدة طويلة جداً، تبلغ مائتي
بيت، وهي أطول قصائد الشاعر، وقد قيل إنه نظمها وبعث بها إلى
المعرز بالقاهرة وهو مقيم بالمغرب، وأنها آخر قصائده.. ومطلعها :

أصاحت فقالت : وقع أجرد شيط

وقد نقد ابن رشيق هذا المطلع في عمدته^(١)، والقصيدة يبدأها الشاعر بالغزل ثم يخلص إلى المعز ومدحه، ووصف جيشه وسيادته وبطوله ومحنته العريق، إلى أن يقول :

ألا إنما الأقدار طوع بناه فخاريه تحرب أو فسالمه تسلم
وما التمع الناج المفضل نظمه على ملك منه أجل وأعظم
ولا عجب أن كت بالبطحاء خير متوج فج فجتك بالبطحاء خير معجم
واشهد أن الدين أنت منارة وعروته الوثقى التي لم تصمم
قصاراك ملك الأرض لا ما يرونها من الحظ فيها والتنصيب المقسم

ويستمر في تفاؤله للدولة المعز بسيادة العالم الإسلامي، ويصور حالة الشرق وضعفه، واستبداد بي بيروه بأمر الخلافة ال巴斯ية، إلى أن يقول :

سوان رناع بين جهل وحيرة وملك مضاع بين ترك وديلم
ويهدد بي بي أمية بانتقام الفاطميين، ويطلب من الخليفة أن يجسم داءهم، ويستمر في تهكمه بهم، وفي الإشادة بآل البيت، إلى أن يقول :

لعن كان لي عن ودكم متأخر فما لي عن التوحيد من متقدم ولولا قطرين في قصى من النوى لما كان لي في الزاب من متلوم

يقول : لو لا أهلي بالزاب لما كان لي دائمًا مستقر سوى مستقركم..
وعندى على بعد المزار ونایه قصائد ترى كالجمان المنظم
إذا أشامت كانت لبابة معرق وإن عرقت كانت لبابة مشتم
تطاول عن أقدار قوم جلاله وتصغر عن قدر الأئمّة المعظم

ثم يقول :

ولما تلقتك المواسم انفا
تربيصت حتى جئت فردا بموسم
بنفسي لا بالوفد كان تقدمي
لعلم أهل الشرق والغرب أنتي

(١) الصدقة لابن رشيق ٨١/١.

والقصيدة قوية جميلة مبدعة وأستبعد أنها أرسلت للمعز في مصر، لأن المعز وصل الاسكندرية في شعبان، والقاهرة في رمضان عام ٦٢٣، والشاعر كان مصرعه في رجب من هذه السنة، فلما أن يكون ابن هاني أرسلها بعد فراقه المعز وقبل أن يصل المعز مصر، وإنما أن يكون قد أرسلها إليها والمعز في برقة يرتب أمور الدولة قبل رحلته إلى القاهرة، وقد دخل المعز برقة في شوال عام ٥٦١ هـ. ولم يرحل عنها إلا بعد أربعة أشهر أو يزيد، واعتذر الشاعر للمعز في القصيدة عن عدم مصاحبته له في رحلته إلى مصر بأن أهله تركهم في الراب، ولو لا ذلك لما كان له في الراب أمل ولا حاجة، وذلك غير بعيد، ولا يبعد أيضاً أن يكون الشاعر نظمها وهو مسافر إلى الراب لزيارة أهله وأصدقائه، وأرسلها إلى المعز في عاصمته بالقيروان قبل أن يرحل إلى مصر، وذلك أيضاً غير بعيد.

وأخيراً فهذا أهم معزيات ابن هاني الساحرة، التينظمها في الإشادة بالمعز ودولته وفي الدفاع عن حق الفاطميين في الخلافة، ومناضلة أعدائهم من الأمويين والعباسيين وسواهم من التائرين والروم، وهي قصائد تحتل في الأدب العربي مكانها الرفيع.

شاعرية ابن هاني وشعره :

- كان لبيبة الأندلس المترفة، وحضارتها الزاهية في عهد الناصر، وللمنافسة السياسية بين بغداد وقرطبة والمهدية، كان لذلك أثر في ازدهار الأدب والشعر في الأندلس الوطن الأول للشاعر، ثم كان لتنوع مظاهر الحياة والطبيعة في الأندلس أثر في تلوين الشعر بلون خاص، شاع فيه الوصف، ودقة التصوير، وتنقل الخيال، وسلامة الأسلوب، والتأنق في الأداء، وأوحىت هذه الحياة الشاعرة إلى الأندلسيين روح الشعر والهم التريض فنظموه فناً يتحدث عن البيئة ومشاهدها، والمواطف

وأسرارها، والمجتمع وحياته، والشعراء وحياتهم الخاصة التي كانوا يبحون بها، والأمال والذات والمشاعر التي كانت تجيش بها نفوسهم، وتختلخ بها صدورهم. وأصبح هذا الشعر يمثل جانبي واضحين في الشعر الأندلسي : أحدهما طبيعة البادية التي كانت ما تزال نفوس العرب في الأندلس تحن إليها، وتؤمن بها، وتسير على نهجها في التفكير والمعرفة والأخلاق؛ والثاني طبيعة الحضارة التي كانوا يعيشون فيها، والتوف الذي يملأ حياتهم، والجمال الذي كان يتم قلوبهم ويسحر أبعادهم في كل واد وبقعة من بقاع الأندلس الغارقة في الشعر والسر والجمال.

ويمثل هذا الاتجاه الفني في الشعر الأندلسي قبل ابن هاني بقليل، ابن عبد ربه أديب الأندلس وشاعرها ومؤلفها، المتوفى عام ٣٢٨هـ في عهد الناصر، أي بعد ثمانية أعوام من ميلاد ابن هاني. وقد حفل «العقد الفريد» لابن عبد ربه بشتى المقطوعات والقصائد الشعرية، التي نظمها، والتي صور فيها ألوان الجمال في بيئة الأندلس الساحرة، والتي صيغت في أسلوب عذب جميل، يكاد يسيل رقة وجمالاً وخصوصاً.

وفي هذا الوسط الأدبي نشأ ابن هاني ، واستمد ثقافته الأدبية، ونظم القريض، واتصل بالحياة في إشبيلية وفي قصر أميرها، فهل كان شعره صورة لهذه البيئة الاجتماعية والأدبية التي نشأ فيها وعاش في ظلالها؟

لا يستطيع الباحث الإجابة على هذا السؤال، لأن شعر الشاعر في الفترة التي قضتها في وطنه حتى هجرته منه إلى بلاد المغرب وهو في سن السابعة والعشرين، قد ضاع كله ولم يبق منه أثر قليل أو كثير.

ومع هذا فنستطيع أن تقيس فن ابن هاني، قبل هجرته بفنه الذي نظمه بعد هجرته مباشرة، ونستطيع أن نقول على ضوء هذا القياس : إن الفن الأدبي للشاعر في الأندلس لم يكن يصور بيته، ولا يجارى

فن أمثاله من الشعراء الأندلسيين ولا يساير روح التراث الأدبي والحضارة الفنية في الأندلسي وطن الشاعر، فما السر في ذلك وما السبب فيه؟

لعل مرجع ذلك إلى أن شخصية الشاعر الفني لم تكن ظهرت بعد في إنتاجه الفني، وإنما كان مقلداً لسواء من الشعراء، لم يقلد المحدثين منهم، الذي يجاري أدبهم وفهم روح الحياة والحضارة في القرن الرابع الهجري، وإنما قلد الشعراء الجاهليين الذي عكفت على حفظ أشعارهم، وتتأثر بها في إنتاجه ونزعاته في فهم الفن؛ وفي نظم القريض، طول هذه الفترة.

٢— وهاجر الشاعر إلى المغرب فقضى في ربوعه خمسة عشر عاماً، كل ثروته الشعرية هي من إنتاجه الأدبي في هذه القرفة الصغيرة في حياة الشاعر، وليس من المعقول أن يكون ابن هانئ قد تأثر في شعره وشاعريته بشيء ما في حياته بال المغرب، نعم، لم يتأثر بأي مؤثر أدبي فيه؛ وإنما تأثر بأشياء أخرى لا تمت إلى طبيعة الفن بصلة، تأثر بالحياة السياسية والاجتماعية في المغرب، وظهر هذا الأثر في شعره واضحاً جلياً، أما فنه وروحه الشعري واتجاهه في نظم القريض فلم يتغير بأي حال، ذلك أن بيئة المغرب لم تكن إلى ذلك الحين بيئة أدب وفن، يقونان على اتجاهات أدبية مستمددة من عوامل البيئة وأثيرها وإنما كانت بيئة كفاح وجلاٰد بين شتى القوى السياسية في العالم الإسلامي إبان ذلك. وكان الأدب والفن فيها يسران على نهج الأدب والفن في قرطبة وبغداد؛ وقد وفدت الشاعر على هذه البيئة وهو تام الأداء، موفور الملكات، ناضج الاستعداد، فشدا بالشعر في المغرب كما كان يشدو به في الأندلس فناً وبياناً وأسلوباً وخيالاً ومعانٍ ونزعات، اللهم إلا أن الشاعر قد بدأ شخصيته الفنية تأخذ مكانها الأدبي الواضح في إنتاجه وشعره، وأخذت سمات التكلف الفني تتلاشى من قصائده بتلاشي روح التقليد الأدبي من نفسه، وبعد قليل من هجرة الشاعر

إلى المغرب كانت شخصيته الأدبية قد استكملت عناصر استقلالها الفني، فظهر ذلك واضحاً ملحوظاً في شعره وقصائده، فليس إذاً بنا حاجة إلى البحث عن الحياة الأدبية في المغرب ومبلغ أثرها في نفس ابن هانئ، وإنما سبحث عن مدى أثر ابن هانئ فيها. ذلك هو الملام لاتجاه البحث في تراث ابن هانئ وزرعاته الأدبية.

إن شخصية الشاعر الفنية لم تتأثر بالحياة الأدبية في الأندلس، لأنه كان مشغولاً عن يقنه بروح التقليد المتلاصلة في ثقافته الأدبية في شبابه ولم تتأثر كذلك بالحياة الأدبية في المغرب، لأنه كان قد ترك عصر التأثير الأدبي في حياته، ولأن هذه البيئة التي هاجر إليها لم تكن لها شخصيتها الأدبية المستقلة التي تتمثل منها أدبياً خاصاً.

٣ — ووفد ابن هانئ على المغرب، فوجد في شعراء اتخذهم أنداداً لا أساندة. كان من شعرائه علي التونسي الشاعر، الذي قال فيه ابن هانئ لما هاجه شعراء المغرب بعد هجرته: «لا أجيئ منهم أحداً إلا أن يهجوني على التونسي فأجيئيه»^(١). وكان منهم عبدالله بن الحسن الجعفرى، ومقداد بن الحسن الكتامي وسواهم من الشعراء. فماذا كان موقفه منهم؟ وماذا كان موقفهم منه؟

لقد بد ابن هانئ بفنه جميع هؤلاء الشعراء، فحسدوه ونقموا عليه ثم أخذلوا في هجائه والزراية به وبفنه. ولكن ابن هانئ عصف بهؤلاء الشعراء جميعاً. وأخمل مكانتهم، فصاروا بعد قليل من بقائه في المغرب رعاعاً في دولة القریض من حيث صار ابن هانئ أمير الشعر في المغرب كافية، وكان هجاء خصومه الشعراء له لا يزيده إلا إجاده وإبداعه؛ وفنن الأمراء وال الخليفة بفنه، ورأوه الشاعر مؤلفاً من نظام كواكب: صنع مؤلف من نظام كواكب طلعت لغير كثير والأحوص

(١) العدة لابن رشيق ٧١/١.

ويصور الشاعر اختلاف ترعرعاته الفنية والنفسية عن ترعرعات سواه من

الشعراء فيقول :

أبىت لي سبيل القوم في الشعر همة طموح ونفس للدنيا فارك

ويقول للمعز :

فإن أك محسوداً على حر مدحكم فغير نكير في الزمان الأعاجيب
أني كل عصر قلت فيه قصيدة على لأهل الجهل لون وتتربي
أبن موضعى فيهم ليغدر غالباً بين بسماء، ويدحر مظلوب
وقد أكثروا فاحكم حكومة فيصل ليعرب رب في القريض ومربوب

وقد حكم المعز له فأصبح شاعر الخليفة والدولة. وملك القريض
في دولة الفاطميين. وجميع نقاد الأدب يسلّمون لابن هانى زعامة
الشعر في المغرب كافية، ويقولون إنه لم يبنه أحد من الشعراء في
المغرب أو الأندرس، ومن سبقوه أو جاءوا بعده. ويرون أن فنه ارتفع
بميزاته الخاصة والعامة عن مستوى الفن والشعراء في المغرب والأندلس،
 وأنه كان طبقة وحده في البلاغة الأدبية وفي الانتاج الشعري في شتي
عصور المغرب الأدبية، وإن كان يرى بعض المحدثين أن ذلك أحجاف
بأنثال ابن زيدون.. ورأي في ذلك أن ابن زيدون كان صورة من
صور ينته الأدبية، أما ابن هانى، فقد كان وحده بيته أدبية خاصة،
وشخصية فنية مستقلة بعيدة عن شخصية ابن زيدون وغير ابن
زيدون، كما كان المتنبي شخصية فنية مستقلة، ولذلك قال النقاد :
«ابن هانى متنبي المغرب، وأبو الطيب متنبي الشرق».^٤

٤ — وقد وضع الشعراء في المغرب والأندلس من ابن هانى — بعد
عصره — موضع الإكبار والتقدير، ونهجوا نحوه في مذاهب الشعر
ومعانبه وحالاته وأساليبه، وجعلوه مذهبًا أدبياً لهم على مر العصور
الأدبية، ونبغ شعراء في الأندرس والمغرب كابن الحداد وابن عائشة
وسواهم من الشعراء الذين كانوا تلامذة له في فن الشعر ونظمه، مما

تراث مفصلاً في الذخيرة ونفع الطيب، وذلك مظهر لمحاته الرفيعة
في الشعر في بلاد المغرب طول عهده بالحياة الأدبية.

مذهب الشعرى :

١ - الاتجاه الفني عند ابن هانئ ينبع إلى روح البداءة، التي تأثر بها فيما قرأ من شعر الجاهلين والإسلاميين، وهو كما يقول في أبي الفرج الشيباني كان ولا شك من لا يحذى حلو المحدثين في اتجاههم الفني فينظم القريض، بل كان يرجع إلى الشعر الجاهلي يأنس به وينزع متزوجه وبمحاكيه، ويقول من قصيده في الشيباني، وقوله في مندوحة صورة لنفس نزعاته الأدبية التي سار عليها، يقول :

من لا يفاجر بالطالي^(١) في زمن ولا الخزاعي^(٢) في عصر الخزاعي
ولا الفرزدق أيضاً، والفارخار له ولا جرير ولا الراعي التميري
لكن بعلقة الفحل الذي زعموا في الشعر أو بأمرى القيس المراري
 فهو لا يفاجر بالمحدثين كأبي تمام ودبعل، ولا بالإسلاميين كالفرزدق
وجرير والراعي، ولكن يجعل فخره في الفن بعلقة وبامرى القيس،
وإن كان الفتح بن خاقان يذكر في مطعم الأنفس^(٣) أنه كان يبيع
في أغراضه الفرزدق وجرير.

وبعد فشعر الشاعر صورة لهذا الروح، وذلك بالاتجاه والتزعة الفنية، فهو لا يمثل ترف المحدثين ولهوهم وخيالهم الفني وإنغرائهم في التصوير، وتهويتهم في التمثيل والخيال، وإنما يمثل روح الجد والإقدام والبداءة

(١) هو أبو تمام الشاعر م ٢٢١.

(٢) هو دجل الشاعر م ٢٤٩.

(٣) ٨٤ المطبع.

والقوة والصدق في التصوير والتعبير. ومنهجه التي مطلعها : أصاحت فقالت : وقع أجرد شيطم وشامت فقالت : لمع أبيض مخدم

التي حاكى بها ملقة عترة في روحها وأسلوبها واتجاهها الفني، هذه المذهبة صدى لهذا الاتجاه. كما أن خلو شعره من آثار الإيمان في المعاني والأخيلة كذلك أثر لهذا المذهب الشعري الذي نزع إليه الشاعر، وكذلك هو في أسلوبه ينبع منه الجاهلين في قوة الطبع وضخامة الأسلوب وجزالة الألفاظ وإشراق الديباجة، وفي كثرة الأساليب المختارة التي تمثل روح البداوة في التعبير والأداء، ولعل هذا الروح أثر من آثار الوراثة فيه.

٢ — ومعنى الشعر عند ابن هانئ قرية واضحة تشبه معانى المسلمين، وإن كان الشاعر يحاول في أحياناً كثيرة أن يبرزها بأسلوبه وصنعته في مظهر جديد مبتكر.

وفي شعره ألوان من الخيال الواقعى المجرد. وقد يحيد الشاعر أحياناً عن نهج الفن الواضح، فيمدح مدوحه بالجمال، كما يقول في جعفر ابن علي :

وسنان من وسن الملاحة طرفه وجفونه، سكران من خمر الصبا
يقول في أبي الفرج الشيباني وكأنه يغازله :
أهواه والصدفة السمراء تعذلى والقلب يدللي بعدر في عذرى
وقد يقبح أحياناً في صوغ معانيه وتصویرها، كما يقول :
وأحمل أيامى على ظهر غارة وتحملى منها على مركب وعر
ويأخذ عليه كثير من النقاد وبالغاته، وإسرافه في معزياته، وقد سبق
أن أبناً أن هذه المبالغة لا ترجع إلا إلى شيء واحد هو نفس العقيدة
الفااطمية التي اتخذها الشاعر مذهبًا له في الدين والسياسة والمجتمع.

٣ — وأسلوب ابن هانئ له ميزاته الخاصة التي تميزه عن أساليب

من سواه من الشعراء.

هو فيه بدوبي جزل، يرق حيناً، ويبلغ في الجزالة والقوة والوحشية
مبلغاً كبيراً أحياناً أخرى.

وكان في طبع ابن هانئ ميل إلى نوع من الغرابة والتكلف، حتى
حسبه بعض النقاد من الشعراء الذين يهرون بألفاظهم، ومن هؤلاء
النقد المعرفي وابن رشيق وابن خلkan.

وكثيراً ما ترى الشاعر قد عمد إلى التهويل والتخفيم، أو إلى الصنعة
وتتكلف أساليب البديع في شعره، فيجيد وتحفي قوة أسلوبه مظاهر
التكلف في صناعته الفنية أحياناً، ويشذ عن الجودة طبعه وصناعته في
أحياناً أخرى.

وظاهرة واضحة في أسلوب ابن هانئ هي كثرة إطنابه وتفصيله،
مما كان يؤدّي به في بعض الأحيان إلى التزول عن مستوى الشعري،
فراه يكرر كثيراً من الصفات التي لا طائل تحتها والتي لاحظ فيها
إلا إظهار مقدرة الشاعر اللغوية. وهذه الظاهرة سبب من أسباب طول
نفسه في شعره، الذي امتاز به ابن هانئ، ويشارك فيه ابن الرومي،
إلا أن مشاهدة عند ابن الرومي المعنى وبسط الحديث فيه، وعند ابن
هانئ الأغراض والبواعث الفنية التي نظم فيها وجائب اللفظ الذي
كان يؤثره.

وأسلوبه على العموم سليم مطبوع، لا يشد منه عن سلامة الطبع
إلا القليل جداً من أبياته، مثل قوله :

« لو كنت قبل تكون جامع شملنا » مما تلحظ فيه أثر التعقيد،
ومثل قوله :
ما كنت أحسب أن أرى بشرأ كنا ليشا ولا درعا يسمى غابا

كلمة «كذا» هنا نازلة مردودة في حكم الذوق الأدبي.

وهذا القليل النادر من الآيات التي خان فيها ابن هاني طبع الشعر واستواء التأليف وقوة النظم، لا يكاد يقاوم بشذوذ المتنبي في فنه، ولا بشذوذ غير المتنبي من الشعراء الممتازين.

وجودة ابتداءات القصائد، وحسن انتهاءاته فيها، سمة لابن هاني في شعره، حتى ضرب المثل بمطلعه :

فقط لكم ريح الجлад بغير وأمدكم فلق الصباح المسفر
وقرن بمطلع معلقة امرى القيس « قفا بك من ذكرى حبيب ومتزل »
في الجودة والجمال، وابن هاني فوق ذلك مجيد في اقتباسه من أساليب القرآن الكريم، ومجيد في حسن تخلصه إلى المدح في كثير من قصائده، وبمثابر أسلوبه بقوه البيان، وحسن السبك والتأليف، وقوه الارتباط بين أجزاء البيت الشعري، وتلائم أحجزاء القصيدة في شعره، كما يتمثّل بخلوص شعره من سمات التقيد والغموض معاً، وتشيع في إنتاجه روح الطبع والشاعرية القوية، وفي أسلوبه كثير من الجمال في صوره البيانية في الاستعارة والتشبّه والمطابقة والمقابلة، وبشيء المندوح بهذه الصور الشعرية المجتمعنة فيقول :

كيدر الدجي، كالشمس، كالفجر، كالضحى كصرف الردى، كاللث، كالنث، كالبحر

وفي شعره أساليب مختارة كثيرة جيدة، تسير الطبع وتستدعي الإعجاب.

٤ — موضوعات شعره، وأغراض القصيد عنده، كثيرة متعددة :

فمن مدح سياسي يشيد فيه الشاعر بالدولة ورمادها ورجالاتها وأعمالها وأيامها ونفوذها الروحي ومستقبلها الباسم، مما كان يصدر عن عقيدة قوية، وعاطفة ممتلئة إيماناً بمبادئ الفاطميين، ولقد امتاز هذا « الشعر

السياسي » يكثير من المعاني الخصبة، كما امتاز بالقوة وسعة خيال الشاعر فيه. وهو في هذا الجانب الفني يضارع المتنبي.

ومن وصف رائع لجيوش الدولة وأساطيلها، ولأيامها وانتصاراتها، والمعارك العظيمة التي خاضتها، وللخيول التي كانت تتحمّها، وللأبطال المعلمين الذين كانوا يسيرون بالدول من مجد إلى مجد، وبكللول هامتها فخاراً على فخار. نعم لم يكن ابن هانئ وصافة للطبيعة، كما كان ابن المعتز وابن خفاجة، ولم يكن وصافاً للمواصف الإنسانية كما كان المتنبي وأبو العلاء، إنما كان وصافاً مجيناً

لحياة النضال السياسي والحربي الذي شغل الدولة والناس في عصره وفي بيته، أما أوصاف الشاعر التي لا تصل بهذه الناحية، فهي كلها من الأوصاف القليدية التي لا تمت إلى نفس ابن هانئ بصلة، وهو في كثير منها ناب عن الذوق والإجادة. كما في وصفه لرجل أكول، وكما في وصفه للراوح ومجالسها وآلات الغناء التي تكون فيها، وهذه الأوصاف وسوها لا تبلغ شيئاً من وصفه الممتع البالغ حداً كبيراً من الجمال والسرور، عندما يصف الجيوش وآلات القتال والمعارك الحرية الضخمة. والشاعر في هذا يضارع أبي الطيب، فهما في هذه الناحية صنوان. ووصف ابن هانئ مقنع بألوان الخيال وصورة التي كان يستعين بها في تصوير المعنى الذي يريد.

للشاعر هجاء ولكنه هجاء ضعيف، لأن الهجاء بعيد عن نفسه التبليلة في الحياة، وكان إذا أراد أن يهجو صور من يهجوه بالتفاق والكيد للدولة ومبادئها كما فعل مع الوهرياني كاتب أمير الرايب، فهو هجاء سياسي لا غير، أما الهجاء الفني الذي نراه عند ابن الرومي مثلاً فليس للشاعر فيه نصيب.

ولابن هانئ غزل يبدأ به قصائده، ولكنه في جملته غزل تقليدي مختلف مألف المعاني والأساليب، يكرر فيه ما سبق إليه من : تصوير

موقف الوداع وهول الجفاء والشكوى والرجاء، والأرق والبكاء، ويؤس المحب في حبه، وذكر طيف الخيال من محبيه الذي يزوره أحياناً، وتشبيه حبيته بال إليها والظباء والغصون، وذكر الحاظها وأثر فكها، وغيره أهلها عليها، إلى غير ذلك من المعانى المألوفة التي للشاعر فيها حسن الصوغ، ونظمها في أسلوب خلاب وعارضات بلية، وفي الحق أن حياة ابن هانى وجهاده فيها وشغله بعقيدته والدفاع عنها كان يحول بينه وبين الإجاده في النسب، شأنه في ذلك شأن المتني، ومع بداؤه في غزله التقليدي، فقد يرق حتى يأتي بالجديد الساحر، كما في قصيده :

امسحوا عن ناظري كحل السهاد وانقضوا عن مضجعي شوك القناد

أو قصيده :

قمن في مأتم على العشاق ولبسن الحداد في الأحداد

أو قصيده :

هل من أعقنة عالج يبرين أم منها يقر العدوخ العين؟

أو قصيده :

أنس أفقها ذاك السنما وتألقها يُورقاً لسو أن وجداً يُورقه

وقد يتفلسف في حبه، فيذكر الشمل المبدد، والسعادة الذاهبة، كما

في قصيده : هل آجل مما أُوْمِل عاجل؟.

فليس ابن هانى من رجال الهوى العتري ولا من شعراء الحسن واللهمة المترفين، وإنما هو في منزلة مقلد كغيره من الشعراء المقلدين، الذين قد يجيدون فيه وقد لا يجيدون.

ولابن هانى ثلاث قصائد جيدة في الرثاء، منها مرثياتان في والدة

جعفر بن علي أمير الزراب، ومطلعهما :

صدق القناء وكذب العمر وجلا العظات وبالغ التذر
ألا كل آت قريب المدى وكل حياة إلى متنهى
والمرثية الثالثة رثى بها طفلاً صغيراً من أحفاد جعفر بن علي،
ومطلعها :

وهب الدهر نفياً فاسترد ربما جاد ليم فحسد
والمرثيات الثلاثة فيها جودة، وفيها حكمة، وقد حاول بها ابن هانى
أن يصل إلى منزلة المتنبي في حكمته الخالدة، ولكن المتنبي في ذلك،
لا يضارعه شاعر من الشعراء.

والحكمة على أي حال في شعر ابن هانى قليلة متفرقة، وتذكر
في مراتبه، وهي حكم إجتماعية قريبة التناول مستمدّة من أثر التجارب
العامة في الحياة..

وقصاري الحديث أن ابن هانى أجاد في شعره السياسي، وفي مدحه،
وفي وصفه الحربي، وفي رثائه، ووقف متخلقاً في غزله وهجائه، وفي
خمرياته، وهو في حكمته لا يصل إلى منزلة حكمة أبي الطيب الخالدة
 وإن كان يرسم لنا صورة كاملة لفلسفة الحياة العملية التي سبق أن
أشرنا إليها فيما مضى من بحوث.

٥ — وفي ابن هانى يقول الفتح بن خاقان م ٥٢٦ هـ في كتابه
مطبع الأنفس : له نظم تمنى الثريا أن تتوج به، وبدائع يتحير فيها
ويحار، وي الحال لرقتها أنها أنسحار، اعتمد فيها التهذيب والتحرير، واتبع
في أغراضه الفرزدق وجرير، وتشبيهاته خرق فيها المعناد ^(١).
ويقول فيه المعري م ٤٤٩ هـ في رسالة الغفران : « كان من شعراء
المغرب المجيدين وكان يغلو في مدح المعر علواً عظيماً » ^(٢) :

(١) ٨٤ مطبع الأنفس.

(٢) ١٥٤ رسالة الغفران نشر البازجي.

ويقول ابن خلkan م ٦٨١ هـ : ليس في المغرب من هو في طبقته،
لا من متقدميه ولا من متأخربيهم بل هو أشرفهم على الإطلاق، وهو
عندهم كالمنسي عند المشارقة^(١)، ثم نوه ببنيته « هل من أعنفة عالج
يمرين^(٢) وأخذ عليه إفراطه في المدح^(٣)، ويفتخر الشقدي أديب
الأندلس به في مناظرة أدبية رواها نفع الطيب^(٤).

وأشاد به لسان الدين بن الخطيب في الإحاطة^(٥)، وابن شرف في
مقامته : « أعلام الكلام »^(٦).

وجعله ابن الأبار هو وابن دراج الشاعر الأندلسي نظيرين للمتنبي
وأبي تمام^(٧) ونوه الحميدي بشعره، وأخذ عليه قمعة الفاظه^(٨)، وذلك
رأى السعري فيه، وإن حمله ابن خلkan على فرط تعصبه للمتنبي^(٩).

وجعله ابن رشيق من الشعراء الذي يهرون بالفاظهم أكثر مما يهرون
بمعانيهم^(١٠). ونوه به النهي في تاريخ الإسلام^(١١).

ويعجب ابن حجة الحموي في خزانة الأدب^(١٢) بقصيدة :

فتق لكم ريح الجлад يتعبر وأمدكم فلق الصباح المسفر

(١) ٢ : ٥ ابن خلkan.

(٢) ٢ : ١٤٠ النفع

(٣) ٢ : ٢٢٢ الإحاطة.

(٤) أعلام الكلام ص ٢٦.

(٥) ١٠٣ تكملة الصلة.

(٦) ٤١ جنوة المقبس.

(٧) ٢ : ٥ ابن خلkan.

(٨) ١ : ٨٠ المسدة.

(٩) تاريخ الإسلام ص ٨١.

(١٠) راجع باب تحامل العارف في الخزانة.

ويراه ياقوت أشعر المغاربة ويجعله في المغرب نظير المتنبي في المشرق^(١).

وذكره ابن أبي الحديد في نهج البلاغة، والعاملي في الكشكول والمقرى في نفح الطيب^(٢)، وكثير من مؤرخي الأدب في مصر الحديث.

وترجم فان كريمر شعره إلى الألمانية، ورأى فيه قوة بيان وكثرة تسليات وجودة ألفاظ مما يعتبر من خصائص وأوصاف شعره؛ وذكره أيضاً هامر، وهوارت، وسواعها من المستشرقين.

وقد عني بشرح ديوانه شرحاً لغوياً واسعاً الدكتور زاهد على الهندي، وطبع هنا الشرح في مطبعة المعارف عام ١٣٥٢هـ في نحو تسعين صفحة، قدمها بمقدمة في حياته وتاريخه^(٣).

هذا هو كل ما كتب عن ابن هانئ في الأدب العربي على مر القرون.

(١) ٧ : ١٢٦ وما بعدها معجم الأدباء.

(٢)

٤٤٣—٤٥٠ : نفح الطيب.

(٣) ومن ديوان ابن هانئ نسخة خطية في مجلد يقلم نسخ في ١١٧ ورقة في مكتبة الأزهر (رقم ٥٠٠ آياطلا ٧٠٩٦)، راجع فهرس المكتبة الأزهرية ص ٩٢ ج ٥.

مختارات من شعر ابن هاني الأندلسي

قال في الحكم :

طول، وفي أعمارنا قصر
لو كانت الألباب تعبر
أجفانا والغائب الفكر
فأكلهينَ العين والنظر
ما عد منها السمع والبصر
من بعد علمي أنتي بشر؟
لما تكلم فوقاً القدر
وحجولها، واليمن والغرر
ولسانى المصحمة الذكر
لا ملجاً منها ولا وزر
شافت ولا سطوا فنصر؟
في حين تقذفها فتشجر؟
لا البيض نافعة ولا السمر
شذر على أحكامها مذر
انا نراها كيف تأتمر
هفواته وهناته الكبر

إنا - وفي آمال أنفسنا
لسرى بأعينا مصارعنا
مما دهانا أن حاضرنا
وإذا تدبرنا جوارحنا
لو كان للألباب متحن
أي الحياة أللذ عيشتها
خرست لعمر الله ألسنا
هل ينفعني عز ذي يمن
ومقالى المحمود شارده
ها إنها كأس بشمت بها
أنحرك الأيام فتعل ما
هلا بأيدينا أنسنا
فانيذ وشيجا وارم ذا شطب
دنيا تجمعنـا، وأنفسنا
لو لم تربنا ناب حادتها
ما الدهر إلا ما نحاذره

وفيها يقول :

متلنج وأحسم معنكر
والثيران : الشمس والقمر
منظومة فلسوف تشر
فلسوف يسلّمها وتنتظر

أقسمت لا يبقى صاحب غد
تفني النجوم الزهر طالعة
ولكن تبدت من مطالعها
ولكن سرى الفلك المدار بها

وفيها يقول :

صفو، فهوين بعده الكدر
دركا، فيوم واحد عمر
عيش جنى ثماره الكبير
ولكل نهلة وارد صدر
يسمو صعوداً ثم ينحدر
وتثال منه الهم والقمر
والقيء يحرسه فتحضر

وإذا صحبت العيش أوله
وإذا انتهيت إلى مدى أمله
ولخير عيش أنت لابسه
ولكل حلبة ساق أسد
وتجدد تعمير المعمر أن
والسيف يليل وهو صاعقة
والمرء كالظلل المديد ضحي

ثم يقول في ختامها :
غرض ترامي في الخطوب، فإذا
فجزعت، حتى ليس بي جزع

٢ — وقال في النسب :

امسحوا عن ناظري كحمل السهاد
لا أحب الجسم مسلوب الفواد
أو تكونون أسيراً من صقاد؟
قلما يسلو عن الماء الصوادي
فعدتا عنكم احدى العوادي
ما على الظلماء من ليس الحداد
أن أرى أعلام هضب أو نجاد
لا مزار منكم يدنو سوى

و منها :

يقطن بين جفون و سهاد
فرضينا بالثانية والبعاد
برقيب أو حسود أو معاد

قل تنويمل خيال منكم
لم يزدنا القرب إلا هجرة
وإذا شاء زمان راسا

أحلقه لهوات أم ميادين؟
جهنم، قلت فيها الشياطين
كأنما كل ذلك منه طاحون
مما أعدته للرسل الفراعين
أين الخاجر أم أين السكاكيين
ذو التون في الماء لما عصمه التون
كأنما افترستهن السراحين
كأنما احطفتهن الشواهين
وللبلاعين تطريب وتلحين
نار، وفي كل عضو منه كاتون
قرنفل وجواريش وكمون
وجاذبتها أعنتها البراذين
أولاً، فأنتم سويق في مطحون

٣ - وقال يصف أكول :
يا ليت شعري، إذا أومى إلى فمه
كأنها - وخبيث الزاد يضرها -
تبارك الله ما أمضى أسته
كأن بيت سلاح فيه مختزن
أين الأسنة أم أين الصوارم أم
كأنما الحمل المشوى في يده
لف الجداء بأيديها وأرجلها
وغادر البط من مشى وواحدة
يحفض الرز من قرن إلى قدم
كأنما كل ركن من طبائعه
كأنما في الحشا من حمل معداته
قوموا بنا فلقد ريعت خواطern
نصححكم، فخنعوا من شدقة وزرا

هضب، ولا اليد الحزون حزون
علفت بها يوم الرهان عيون
مررت بجانحبه وهي ظنون

٤ - وقال في وصف الخيل :
وصواهل، لا الهضب يوم مغارها
عرفت بساعة سبقها، لا أنها
وأجل علم البرق فيها أنها

٥ - وقال يمدح المعز :
فقل لبني لباس: «قد قضي الأمر»
تعالمه البشري، ويقدمه النصر

تقول بنو العباس: «هل فتحت مصر»
وقد جاوز الإسكندرية جوهر

ومنها :

إمام رأيت الدين مرتبطاً به
أرى مدحه كال مدح الله إنه

وفيها يقول :

وما ضر مصرًا حين ألقت قيادها
غداً جواهر فيها غمامات رحمة
كأنني به قد سار في القوم سيرة
ستحسدها فيها المشارق، انه

قطاعته فوزه وعصيائه خسر
قوته وتسبح يحط به الوزر
إليك، أند النيل أم غاله جزر؟
يقفي جانبها كل جانبية تصرّو
تود لها بغداد لو أنها مصر
سواء إذا ما حل في الأرض والقطر

ابن زيدون الشاعر

٣٩٤ - ١٥ رجب ٤٦٣ هـ: ١٠٠٣ - أبريل ١٠٧١ م

- ١ -

هو أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون المخزومي القرطبي^(١)، ولد بقرطبة ونشأ بها، وكان أبوه من وجوه الفقهاء وكبار القضاة، وكانت قرطبة في ذلك الوقت تزخر بالعلم والأدب، فدرس على أبيه وعلى علماء قرطبة وأدبائها الأدب، وحفظ كثيراً من الشعر والأغمار والسير والأمثال والحكم ومسائل اللغة ومباحتها، وأنحدر يعالج فنون الأدب حتى برع فيها، فتم فضله، وذاع صيته، وارتفعت مكانته. واتصل ب ابن جهور أحد ملوك الطوائف، فاتخذنه كاتباً ومشيراً، ثم أخذ يترقى في دولة ابن جهور حتى قلده منصب الوزارة واعتمد عليه في السفارات بينه وبين ملوك الأندلس فلقب بذلك الوزارتين، وصار يعمل على تحسين الصلات بينهم وبينه بذلك ودهاته، إلى أن دبت عقارب الساعة بينهما، فقام عليه ابن جهور وسجنه، فكتب إليه رسالة فريدة

(١) راجع: ابن زيدون للأستاذ حسن جاد، وابن زيدون للدكتور شوقي ضيف، وابن زيدون للأستاذ علي عبد العظيم، وديوان ابن زيدون - نشر كاميل كيلاني.

يستطر بها عقوه، فلم يلن له قلبه، فقر من سجهه ولحاؤه إلى المعتصد ابن عباد صاحب إشبيلية سنة ٤٤٨هـ، فاستخلصه لنفسه، وعول في أمره عليه، ثم وزر لابنه المعتمد، وقضى في إشبيلية بقية عمره. وقد ابلي ابن زيدون وهو في قرطبة بحب ولادة بنت المستكفي أحد خلفاء بنى أمية، وكانت مشهورة بالجمال والأدب، شاعرة سافرة؛ تراجل الشعراً، وتجادل العلماء، وكانت دارها نادياً من نادية قرطبة، يغشاها الأمراء والوزراء والأدباء والقادة، ومن هؤلاء ابن زيدون، وكانت فيه عفة روح وحسن دعاية وبراعة أدب، فسيق المتنافسين إلى قلب ولادة فاحتله، وبادله هي هذا الحب، فإذا ذكرى هذا الفوز نار الحسد في قلوب منافسيه ومزاحميها. فسعوا في إفساد ذاتيهما، وانشهر منهم الوزير ابن عبدوس فترافق إلى ولادة في ساعة من ساعات مللها من ابن زيدون، وظفر برضاهما ثم عاد الحب إلى مجراه الأول فرجعت إليه، فكتب ابن زيدون إلى ابن عبدوس رسالة هزلية على لسان ولادة أشبعه فيها تفريعاً وسخرية، ضممتها كثيراً من الملحق في الأدب والتاريخ.

ولابن زيدون طريقة في الكتابة متميزة جعلته في صدر الكتاب، وقد سبق ذكرها في الجزء الثالث، حين ذكرنا نثره والأدباء وقوامها :

- ١ — تضمين كتابة الأمثال والحكم والأشعار مع التاليف والتناسق.
- ٢ — الإشارة إلى الحوادث التاريخية وأسماء الرجال المشهورين من الحكماء والأدباء والعلماء خلال كتابته.
- ٣ — استخدام الصناعة النفعية في كتابته محاكاة لابن العميد زعيم هذه الطريقة في الشرق.

أما شعر ابن زيدون فتميز بما يلي :

١ — شعره أنيق الوishi رقيق النسج قليل التكلف ينزع عن قوس الملكة السليمة، مشرق الدبياجة، م المسؤول الأنفاظ متباوب العبار، خلعت عليه الملاحة أنواهها، وأغارته البراعة أبرادها، فجاء رشيقاً طلياً، وأنيناً بيهياً، يخلب العقول ويعجز الفحول، قد عرى من الغرابة والوحشية، وارتدى مظارف الإبانة السنية.

٢ — معانيه سنية دائنة القطوف قرية المورد لا يكدر الذهن في فهمها، ولا يعتص على العقل أمرها؛ لأنها معان متبعثة من أعماق الوجودان، قبض بها أوتار المشاعر المثلثة والأحساس القياضة، وإذا أجلت في رياض شعره نفحك عبر شاعرته، وفن فؤادك جمال عبقريته، تقرأ في شعره أجود ما خصت به الطبيعة الأندلسية من وصف وخيال وتصوير دقيق وعرض أنيق.

٣ — يتجلى في شعر ابن زيدون خفة الروح والوزن الراقص المتباوب، مع المعانى العاطفية والأفكار الوجданية، فهو يتلطف باختيار الأوزان العذبة الجرس العالية الموسيقى، مما يجعل لشعره وقع الزلال من ذي الغلة الصادي.

٤ — سهولة قوله وعنوبة أسلوبه ورقة كلماته التي تجيئ مساوية للطبع متباوبة مع السليقة. وقد تلامست عباراته مع أفكاره ومعانيه، من شكوى وأنين ولوغة واحتراق وبعد وفارق وجفوة وشقاق.

٥ — ومن ثم شبها ابن زيدون بالبحري، كما شبها ابن هاني بالمتني فقالوا : بحري الغرب، كما قالوا متني المغرب، ومرد ذلك إلى تلك المنازع المشتركة بينهما من رقة الأسلوب واختيار الأوزان القصيرة الراقصة وصدق العاطفة والتزاوج بين المعانى والعبارات.

ولم يكن شعر ابن زيدون ضرباً من التقليد والمحاكاة، بل كان من نمو ملكة الشعر في نفسه، ومن رغبته في التعبير عن كل ما يشعر به، وعما له صلة بحياته الخاصة. ولم تلبث الحوادث التي نزلت به، والأيام التي قضتها في السجن أن هاجت من نفسه، وولدت فيها تلك المعانى التي ذكرها. فكان شعره صحيحة من حياته النفسية، وصورة لما كان يجول بها من آلام وأحزان وحب وغرام. وكثيراً ما تقرأ شعره فترى فكره المضطرب، ونفسه الوبابة الحائرة، وتکاد تلمس كبره وخياله وسخطه على أعدائه، وتجلده وصبره وهو يشكو وين من بلواء. كما في قصيده التي يقول فيها :

ما على ظني يأس بجرح الدهر وباس
ربما أشرف بالمرء على الآمال يأس

وكثيراً ما كان يفخر بفضله، ويرأ بنفسه عن أن يكون أفعوبة في يد الحوادث، ويرى أن سبب تعشه حقد أعدائه عليه، لما اتصف به من فضل وعلم كبير من شعره في هذا المعنى، كقوله :

لا يهنى الشامت المرتاح خاطره أي يعني (١) الأماني ضائع الخطير (٢)
هل الرياح بنجم الأرض عاصفة أم الكسوف لغير الشمس والقمر؟
إن طال في السجن ليداعي فلا عجب قد يودع العفن حد الصارم (٣) الذكر
قد كنت أحسبتني والتجم في قرن (٤) ففي أصبحت منحطأ إلى العفر؟ (٥)

ويمدح فيمزح مدحه بالاستعطاف والعجب، وكثير من قصائده في استعطاف ابن جهور وهو في السجن صورة من صور البؤس الذي

(١) منصب بأمانة.

(٢) الخطير قدر الرجل و منزله.

(٣) الصارم : القاطع. وسيف ذكر : ذو ماء وبريق.

(٤) أي في منزلة واحدة.

(٥) التراب.

فرق من لسانه، وأثار في نفسه هذه العاصفة الشعرية المظلمة، التي
 هبت عليه فعلاً هماً وغماً، إذ يقول وكانت تسمع آنيه :
 ألم يأن أن يكفي الغمام على ملني ويطلب ثاري البرق منصل التصل
 وهلا أقمت أنجم الليل مائماً لتندب في الآفاق ما ضاع من نيلي
 ولو أصنفتني وهي أشكال همني لأنقت بآيدي الذل لما رأت ذلي
 ولو أنتي أسطيع أن أرضي العدا شربت بعض الحلم حظاً من الجهل
 أما غرله فكثير، وكله يدل على سعة خياله وإخلاصه في حبه،
 وبث عواطفه وما يجعل في نفسه، وأكثر معانيه مبتكر كقوله :
 يا ليت شعرى وعندك في الحب ما ليس عندك
 هل طال ليلك بعدك كطول ليلي بعدك
 سلنى حياتي أهياها فلست أملك ربك
 الدهر عبدي لما أصبحت في الحب عبدك

وقوله :

ما راحتني وعدابي ؟	مني أبشك ما بي
في شرحه عن عتاني	مني بنسوب لساني
عن ناظري بالحجاب	الشمس أنت توارت
على ريق السحاب	ما البدر شف سناء
أضاء تحت النقاب	إلا كوجهك لما

— ٣ —

وديوان ابن زيدون ضخم الحجم، متناول لجميع أغراض الشعر من
 مدح ورثاء، وهجاء واستعطاف، ووصف وغزل، والغزل فيه قد ظفر
 بنصيبي كبير، حتى لم يخل مطلع قصيدة منه، وقد يطول نفس الشاعر
 فيه، حتى يكاد يستغرق نصف القصيدة، وقد تكون القصيدة في

الاستعفاف، وهو إلى البكاء وندب الحظ أقرب منه إلى السرور واللهو اللذين يعيثان الغزل، ويعيثن ذكرى الوصال، فيستهلها بالغزل ويطيل فيه على عادته، هذا إلى غزل مستقل لم يقله تابعاً لغرض آخر، وذلك كثير في شعره. وأشهر مثل له قصيدة التونية.

ونستخلص من ذلك، غلبة هنا النوع من الشعر عليه، وكثرة دواعيه عندئذ، فهذه شارك فيها أبو الوليد بن زيدون، أبي عبادة البحري، إذ أن البحري — كما تعلم — مكثر من الغزل، يصدر به أغلب قصائده.

وخاصية أخرى يشتهر بها في شعره وأطالت ترداد اسمها في قوافيه، فإن زيدون أغرم بولادة التي ملكت عليه مشارعه، وكان صدراً عن حزمه من مجلسها، إحدى نحباته التي أطالت منها الشكوى، وأكثر فيها الآنين، كما أغرم أبو عبادة بعلوة حبيبه بالشام. وليس يهمنا أن يكون حب البحري صادقاً أو متصنعاً، وإنما يعنينا، أن يصدر الشاعر عن صورة ماثلة يرى بها ضروب الجمال، وأفانين الفتنة، فيحسن تصوير ذلك، فأما أن يكون خياله جامحاً شارداً غير قادر عن حقيقة، فذلك جدير أن يكون فيه صورة للفرام الجاد: وما مثل الشاعرين في ذلك إلا كمثال المصورين، يصور أحدهما من خياله فيكون حالاً في كل ما يأتي، وقد يخلط من الألوان ما لا يتناسب فيه، ويصور الآخر من جمال ملموس له ظل في الوجود: فيحاكي في صورته الطبيعة ويعكس ظلها، وما أعظم الفرق بين الطبع والتتكلف.^(١).

وجهة أخرى قد توافق عليها الشاعران، وهي أنهما اشتراكاً في خفة الروح المناسبة للغزل فكانا يتلطثان باختيار الأوزان المرقصة لقصصها، كما في قول أبي الوليد:

(١) راجع الجزء الثالث من الأدب العربي وتاريخه — محمود مصطفى.

أني أضيع عهدي
أم كيف أخلف وعدك
رضا فلم تتعذر
من الهوى لي عندك
يا ليت مالك الأمازي
قطول ليلاً بعدك
فطال ليلاً بعدك
سلبي حياتي أهياها
الدهر عبدي لما
أصبحت في الحب عبدي

ومن قول أبي عبادة في مثل هذا :
عذيري من تنبئه إذا أدبر أو أقبل
ومن ورد بخدشه إذا جمثته يخجل

وما اتفقا كذلك فيه، أن سهولة قولهما « وعدوة لفظهما، قد
واقتنا مقام الغزل، فجاء شعرهما مساواً للسلقة، متمشياً مع الطبع،
ولم تحل قساوة اللفظ وخشونته بينهما وبين ما يريدان، من إظهار
اللوعة وذل الغرام والاحتراق بنار الجفوة.

— ٤ —

ومن مدح ابن زيدون لبني جهور، قوله في أبي الوليد، وهو نظم
سري اللفظ، سري المعنى، دل في جملته على آنفة القائل واعترافه بالجميل،
في عزة لم يطأطِّ معها رأسه، ولم يتبدل ذلك التدلي، الذي يكون
عند أكثر الشعراء، قال :

يا بني جهور الدنيا بكم حلت أيامها بعد العطل
إنما دونكم واسطة أهدت الحسن إلى عقد المول
نحن من نعمائكم في زهرة جددت عهد الربيع المقتول^(١)

(١) اقتل المرء أمره : استأنفه، والربيع المقتول (بصيغة اسم المفعول) : المستأنف أي المستطر.

فكان الشمس حلت بالحمل
كابتسام الورد عن لؤلؤه طل
بالتدى يمناه فالبحر وشل
تحدر العين إذا الفضل كمل^(١)
مثل ما يعني عن الكحل الكحل
أبطأت سقاك عنه لذبل
نابه ود حسود لو حمل
أدبه سير الناس الأول
«ألزم الصحة يلزمك العمل»
لم أرع حظي منها بالحيل
ظهورها الدهر محل للقيل
قابلع الغاية من كل أمل
وإذا رمت الأمانى فتل

إلى جانب تأوي اليه العلا سهل
تناديك من آداب أفناني الهدل^(٢)
تعمطر فاسطولي على أحد الخصل^(٣)
ثوى صافنا في مربط الهون يشتكي^(٤)

طاب كانون لنا أثناءها
زهرت أخلاقكم فابتسمت
أيها البحر الذي مهما تعنى
من لنا فيك بعيوب واحد
شرف تعنى عن المدح به
أنا غرس في ثرى العلياء لو
لي ذكر بالذى أسدبه
فليتم بالداء من حال خى
فروعى الحكمة عن قاتلهم :
أقبلت نعامك تهدي نفسها
قبيلت اليد من بطن يد
كلنا بلغ ما أمله
وإذا ما رامت الدهر فلت

وقال يستعطف ابن جهور :
أبا الحزم ! إني في عتابك مائل
حمام شكوى صبحتك هوادلا
جواد إذا استن الجياد إلى مدى
ثوى صافنا في مربط الهون يشتكي

- (١) المعنى أن العين تخشى على المرء إذا كمل، فعن تعجب فيك عيناً لنا من عليك العين.
 (٢) هوادل : جمع هادلة أي حمامات ذات هديل، هديل : جمع أهدل أي غصن متسل،
 يشه شكاوه إليه بحمامات تهدل على أغصان شجرة متهدلة.
 (٣) استن الجواد : أسرع، تعلقت الخيل جاءت يسبق بعضها بعضاً، يقال : أحجز خصمه
 وأصاب خصمه أي غالب، وأصل الخصل أن يقع السهم بارق القرطاس.
 (٤) الصافن من الجياد : الذي يقوم على ثلاثة قوائم، وطرف حافر الرابعة وهو علامة
 الحق، الشكل : شديد قوائم الدابة، وهي معنى البيت يقول أبو الطيب.
 وإن تكون محكمات الشكل تمنعني ظهور جري ظلي فيها نسماء

أفي العدل أند وافتلك تترى رسائل
أعدىك للجلبي وأأمل أن أرى
وما ذاك وعد النفس لي منك بالمعنى
لعن زعم الواشون ما ليس مزاعما
وأصدى إلى اسعافك السائع الجنبي
ولو أني واقعت عمدا خطيبة
فلم أستحر بحرب الفجار ولم أطع
ومثلي قد تهفو به نشوة الصبا
ولاني لتهانى نهائى عن الشي

ويقول :

يبني وبينك ما لو شئت لم يضع
سر إذا ذاعت الأسرار لم يذع
لي الحياة بحظي منه لم أبع
يكفيك أنك لو حملت قلبي ما
لا تستطيع قلوب الناس يستطلع
ته أححمل واستظل أصبر وزعاهن
وول أقبل وقل أسمع ومر أطع

وقد أبدع في الغزل حيث يقول :

(١) عذر كقدم : لم يثبت له عذر، والمعنى تصر فلا يكون لك عذر تدبه، وأعذر
من الأصداد يعني ثبت له عذر أو قصر، والمراد هنا هو الثاني.

(٢) يقول : هل يمكن جرائي أن أعطش، وذلك إسعاف سائع وأبرز للشمس، أو أعرض
للضرر وذلك ظل سائع وارف ؟

(٣) الفجار : أربعة أيام كانت بين كثناه وهو زدن. وإنما سميت فجارة لأن العرب فجروا
فيها غاحلوا القتال في الأشهر الحرم. وأشهر أيام الفجار الرابع، وكان سبب قتل الراس
الكتاني لعروة الرحال لما فضله كسرى عليه وأرسد إليه إجارة غير الطيبة، وهي
تجارة من القطيف والطيب كان يبعث بها كسرى إلى بلاد العرب ويستبدل بها حاصلات
ذلك البلاد. وقد حضر النبي حرب يوم الفجار الرابع وكانت سنه أربع عشرة سنة،
وقال فيها : « كتب أئبل على عمومتي يوم الفجار ورميتك فيه بأسمهم، وما أحب
أني لم أكن فعلت ».

والأفق طلق وجه الأرض قد راق^(١)
كأنما رق لي فاعتل اشفاقا^(٢)
كما حلت عن الليل أطواقا^(٣)
يتنا لها حين نام الدهر سراقا
جال الندى فيه حتى مال اعتناقا
إليك لم يعد عنها الصدر أن ضاقا
لكان من أكرم الأيام أخلاقا
فلم يطر بمحاج الشوق خفافا
لا سُكُنَ الله قلباً عنْ ذكركم

ويقول : يصف موقف الوداع لولادة، وما في صدره من ألم، على

رضاء بالفرار حين ودع، ولم يبع :
ودع الصبر محب ودعك
يقرع السن على أن لم يكن
يا أخا البدر سناء ومني
حافظ الله زماناً أطلع^(٤)
ان يظل بعدهك ليلي فلكم

وانظر إليه، وقد تلاع比 باللفظ، وأتي بالقياس المحال ليرضي محبوبه،
فجعل نفسه مذنبأ وهو مجني عليه، وطالب الجاني بالصفح، مجاهر
باتهامه. وذلك في قوله :

يا قسرا مطلعه المغرب
أرمتهي الذنب الذي جنته
صدقت فاصفح أيها المذنب
وإن من أغرب ما مر بي
قد ضاق بن في حبك المذهب

(١) الرجل الطلقوجه : الضاحك المشرق، واليوم الطلق الذي ليس بحار ولا بارد،
والمعيان صالحان هنا.

(٢) اتعل التسم : هذا ولم يشتد. الأصالل أصليل وهو الوقت قرب الغروب.

(٣) اللبة : موضع اللادة من العنق.

(٤) السناء : الشرف والرغمة، والمني : الضوء.

أما قصيدة المعاوية لمعاني حبه، المسجلة لشاعر آلامه، الممثلة لأماله في الحب وأحلامه، التي هي في شعر الأندلس كله نجم يتألق، وعلم يتحقق، فهي قوله يخاطب ولادة، ومطلعها :

أضحى الثنائي بدليلاً من تدانيا
وناب عن طيب لقيانا تجافينا

ويقول في آخرها :

فالذكر يقنعنا والطيف يكفينا
بعض الأيدي التي ما زلت تولينا^(١)
صيابة منك تخفيها وتخفيها^(٢)

ومن مختارات شعره قوله :
أولي وفاء وإن لم تبذلني صلة
وفي الجواب « متاع » لو شفعت به
عليك مني سلام الله ما بقيت

كماء تشاء قتل لي لست متنقلًا
وكيف ينساك من لم يدر بعده ما
طعم الحياة ولا بالبعد عنك سلا
أثلفتني كلفاً، أليقنتني أسفًا
إن كنت خدت وأصررت السلو فلا
والله لا علقت نفسى بغيركم
ولا اتخذت سواكم منكم بدلا

وقوله في بعض مجالس الأنس :
بل بكل ألسنا جلالك
يا بها المثلج الجلي

(١) هذه رواية الديوان، الذي نشره الأستاذان : عبد الرحمن حلبي وكامل كيلاني. أما رواية فؤاد العقباني فهي « قناع » ولا معنى لها، إذ يكون أصلها قاعدة فحذفت الناء، ولكن ذلك غير مأوف، لذلك ترجح الرواية الأولى.

(٢) تخفيها وتخفيها : الفعل الأول رباعي أو ثلاثي بمعنى ستر، والثاني ثلاثي بمعنى أظهر، والمحتوى إنما يحاول كتم ما عدنا من عشق وصيابة، ولكنهما يدللان علينا، بما يتناولها من اضطراب وسم ولونة، فتحن تخفي الحب وهو يعلن أمرنا للناس.. ويكون أقرب إلى الفهم، وأجرى على طريقة الشعراء في القول، أن يكون رباعين بمعنى ستر، والمراد من إلغاء الصياغة لهم أنها تحمل عليهم الهراء والقسم حتى لا تبين أشخاصهم !! وقد تناول الشعراء هذا المعنى كثيراً، فقال النبي :

كفى بمحامي نحو لا أني رجل لولا مخاطبتي إيمانك لم ترني

انظر إلى محتلنا
نهر وروض نحن بـ
قد زان ساحه احلاك
نهمـا تقـيـأـنا ظـلاـك

أدرها فقد حسن المجلس
ولا يأس إن كان ولـى الربيع
فإن خلال أبي عامر

: و قوله

عن تمادي الأسى والشوق سلواناً
أم جنته عاماً ظلماً وعدواناً
ولا أطمعتك الا زدت عصياناً
لحظها وأعطر أنفاساً وأرداها
ما خير ذي الحسن إن لم يول إحساناً
جازيتني عن تمادي الوصل هجراناً
بالله هل كان قتلي في الهوى خطأً
ما صبح ودي إلا اعتقل ودك لي
يا ألين الناس أعطاها وأفتهم
حست خلقاً فاحسن لا تسو خلقاً

وقوله:

ولما التقينا للوداع غدية وقد وقررت الجرد العتاق وصفقت بكينا دمًا حتى كأن عيوننا وكنا نرجي الأوب بعد ثلاثة

وقوله :

ووضع الحق العيين
ورأى الأعداء ما غـ
أملوا ما ليس يعني
وتعلموا أن يخوضوا
فإذا الغيب سليم

وقد

وقوله :

يا ظبية لففت مني منازلها
حي للك الناس طرا يشهدون به
لم يعزب الوصل فيما بينا ابداً

وقوله :

الا ليت شعري هل أصادف خلوة
رعى الله يوماً فيه أشكو صبابتي

وقوله :

يا غرلا أصارني
إنني مذ هجرتني
ليت حظي إشارة
شاقعي يا معدسي
كنت خلوا من الهوى
كان سري مكما
ليس لي عنك مذهب

وقوله :

خت عهدي ولم أخرن
قالاً هل مزايده
عدتني كنت للزما
أرخص البيع كيف شد
سوف تلسي بغيرنا

وقوله :

ليل أدمنا فيه شرب مادة
وجاءت نجوم الصبح تضرب في الدجا

فحزنا من اللذات أطيب طيبها
ولم يعرنا هم ولا عاق تكدير
ولكن ليالي الوصول فيهن تقصر

خلا أنه لو طال دامت مسرتي

وقوله :

كم ذا أريد ولا أراد؟
يا سوء ما لقي الفؤاد
أصفى الوداد مدللا
لم يصف لي منه الوداد
يقضى على دلاته
في كل حين أو يكاد
منواه من قلبي السواد؟
كيف السلو عن الذي

محنة ابن زيدون كما يصورها في شعره

- ١ -

ألف عام أو زيد...

مضت على ميلاد الشاعر الخالد، وابن قرطبة العظيم، أبو الوليد أحمد
ابن زيدون...^(١)

ويا لها من ذكرى، ويا له من تاريخ، كل صفحاته مشرقة بالطموح
والأمل، وبالحرمان والألم، وبالمسجد والمعبرية.
شاعر حاربه الأيام، وجللت صفحات حياته وشعره أقسى المحن
والآلام وعاش يطوي سني حياته عاماً بعد عام، في محن وعذابات
وغرابة عن الوطن^(٢).

وكائن رامت الأيا م ترويعي فلم ارتع
إذا صاثسي الجلى بجلت عن فني أروع
على ما فات لا يأسى وما ناب لا يجزع

وقد ظلت المحن تلاحق الشاعر طيلة حياته يوماً بعد يوم، وعاماً
أثراً عام وكان لهذه المحن القاسيات أثراًها الكبير في حياة الشاعر وفنه.

(١) الديوان من ٧١، ٧٢ تحقيق سيد كيلاني - طبع مصطفى الحلى بالقاهرة.

أما في حياته : فهذا واضح كل الوضوح مما سذكر نياً بعد قليل
ويقول الشاعر فيه :
وهو الدهر ليس ينفك ينجو بالمحاسب العظيم نحو العظيم
وأما في فنه :

ففقد انطقته بأروع الشعر في الحنين والأنين، والهمته خوالد القصائد
العذربية الرومانسية الجميلة في الحب والغزل وأوحت إليه بأدب وجداً
عميق عبر فيه الشاعر عن نفسه وذاته ومشاعره وعواطفه أبلغ تعبير،
وكذلك انطقته بروائع القصائد في المدح والاعتذار والشكوى، وجعلته
أرق الناس دياجة واعذتهم صياغة وأجملهم أسلوباً، بل جعلت منه
أعظم شاعر قديم انجيجه الأندلس كما يراه غوموس وجوب وفليب^(١)
حتى، عد أكبر شعراء العصر الكلاسيكي الأندلسي الثاني وتميز شعره
بنزعة إنسانية عالية كما يرى ليفي برفسال^(٢)، وصار مثلاً لأنقى
أسلوب عربي في الأندلس ومن الممكن موازنته بالمتني والبحري كما
يقول نيكل.

— ٤ —

لقد عاش ابن قرطبة النبيل وشاعرها الكبير طفولة متفرقة في حياة
والديه الرؤومين: أبيه الجليل، فقيه قرطبة وعالمه، عبدالله بن أحمد
ابن غالب بن زيدون المخزومي الذي وصفه المؤرخون بالباهة والجلالة
والمعروفة باللغة والأداب^(٣) وامه الحنون السيدة التقدية الجليلة، ابنة

(١) ٦٦٤/٢ تاريخ العرب المطلول حتى

(٢) ١٥ سلسلة محاضرات في تاريخ الأندلس

(٣) ٢٥٤ الصلة لابن بشكوال (— ٥٧٨هـ) طبع مدرید ١٨٨٢، ٤٤٥/٢ التكملة لكتاب
الصلة لابن الأبار (— ٦٥٩هـ) طبع مدرید ١٨٨٧

القاضي أبي بكر محمد بن إبراهيم بن سعيد القيسي (٣٥٥-٤٣٢هـ)،
والتي رضع منها أقاويف الحنان وابتسم له في ظلها وجه الزمان.
ولكن القدر لم يترك له هذا الصفاء، ولا تلك السعادة، فمات الأب
الحانى وابنه الطفل في الحادية عشرة من عمره عام ٤٠٥هـ.
وكان لذلك الitem العبرى أثره العميق في حياة الشاعر، كما كان
أحد الأسباب في فسلقة الألم الذي نجده ماللاً في شعره.

انه أول محنة امتحن به الشاعر في أول حياته... وعاش في كفالة
جده لأمه القاضي أبي بكر القيسي يزوره من مختلف ألوان الثقافة براد
واسع من المعارف والعلوم والأداب، على يد هذا الجد الجليل أبي
بكر (٣٥٥-٤٣٢هـ) وعلى يد استاذه أبي بكر مسلم بن أحمد التحوي
الأديب القرطبي المشهور (٤٣٣-٣٧٦هـ).

ومرت الأيام وابن زيدون الشاب يصعد نجمه ويتألق حظه، وترتفع
في دواوين الثقافة والأدب والشعر متزنته يوماً بعد يوم.

وفي الأزمات السياسية العنيفة التي مرت بقرطبة، وانتهت بانتهاء
الخلافة الأموية في الأندلس ويقيام عصر ملوك الطوائف فيها، عام ٤٢٢هـ
نجد ابن زيدون يشارك في الأحداث، وتقوم في قرطبة الدولة الجمهورية،
ويصبح الشاعر أحد أركانها يؤازره في ذلك كرم محتده، وشرف مولده،
وجلال مواهيه، وحدة ذكائه، وسعة ثقافته، وبلاحة أدبه وسحر شعره
وقوة شاعريته.. وأصبح أحد وزراء أبي الحزم بن جهور (٤٢٢-٤٣٥هـ)،
والصديق الحميم لولي عهده أبي الوليد بن حزم، وصار الملك القرطبي
أبو الحزم يدليه منه، ويقربه إليه ويخصه بوده، ويمزجه بنفسه، وكتب
الشاعر فيه قصائد بلية دائمة، وظلت صلة الشاعر بملكه على قوتها
ووثاقتها عدة أعوام.

وفي هذه الأثناء بدأت صلته بولادة بنت الخليفة المستكفي (٣٩٠-٤٨٤هـ) ونظم ابن زيدون في قصة حبه أروع القصائد، وكانت ولادة فتاة مغامرة لها أهداف سياسية بعيدة خففت على كل الباحثين، أنها لم تكن تشنّد الحب، بل كانت تشنّد تدبير بعض المؤامرات من أجل بعث الخلافة الأموية من جديد، ووُجِدت في الوزير ابن زيدون عوناً لها على تحقيق مآربها السياسية في مساعدة الأمويين على إعادة عرش الخلافة الأموية الذي هوى، ولابن زيدون كذلك مآرب سياسية بعيدة وقد تمعن بالقب الورزير دون أن يُسند إليه عمل، ودون أن ينال ما كان يعنده من أمل، حتى لقد مدح الملك القرطبي أبي الحزم فقال:

ما قام في جواركم الذليل وحدي في رجائكم الكليل
نصيب من ولایتكم كثير وحظ من عنایتكم قليل
اتحيا أنفس الآصال فيكم ولی اثناءها أمل قليل
واعجب حادث نظري لدیکم الى غلٰ^(١) النجاح وبی غلٰ
وقدحی في ودادکم معلى ویاعی في اعتمادکم طویل
آلیاس من مساعدة الليالي وانت الى نهايّتها سیل^(٢)

مما يدل على أن صلته بملكه بدأ الوهن يطرأ إليها، ولابن زيدون كذلك صلات بالبيت الأموي، وله في تاريخ الخلافة الأموية في الأندرس كتاب^(٣) ثم كان هواه هو ولادة الأميرة الشاعرة الساحرة:

(١) الغلٰ: السبيل الضعيف.

(٢) الديوان من ١٧ و ١٨ تحقق محمد سيد كيلاني — ونشر مطبعة مصطفى الحلبي.

(٣) سعاد التبيين (٢/١٢٣) نصح الطيب، طبع ليدن ١٨٥٥-١٨٦١ (١٨٦١) — ويدرك بروكمان

أن في المتحف البريطاني نسخة منه برقم ١٠٧٤ وإن في مكتبة بودليانا باكسفورد نسخة أخرى برقم ١٣١٨ (رائع الملحق الأول لكتاب بروكمان في تاريخ الأدب العربية) — ولكن الدكتور علي عبد العليم يقرر أن الموجود بالمتاحف البريطاني =

ربّي ملك كأن الله أنشأه
كانت له الشمس ظلرا في أكلته
كانما أثبتت في صحن وجهته
ويقص ابن زيدون قصة حبه لولادة، من بدئها لختامها فيقول^(٣) :
لما اتصلت اتصال الخلب بالكبد
سأء الوشاة مكانني فيك وانقدت
فليسخط الناس لأهدى الرضا لهمو
ويقول^(٤) :
والله ما ساعني أن يرى بالضي غلن
لو كان أمري في كتم الهوى بيدي
ويقول^(٥) :
ما كان حبك إلا فتنة قدرت
وكان ذلك الحب محة ثانية امتحن بها الشاعر امتحاناً شديداً حتى
صار يرسل شعره العذري في الشكوى والأنين والحنين، وكتب رسالته
الهزيلة المأثورة حول ذلك بل صار موضع اشراق المشقين، وتبع
الرواة والشعراء وكل طبقات مجتمع قرطبة الأدبي يقول ابن زيدون
في ولادة فيما يقول^(٦) :

= بهذا الرقم هو رسالنا ابن زيدون وشرح الصنف على الرسالة الجدية وكذا الأمر
في مكتبة بوديليانا راجع ص ٤٣١ و٤٢٢ من كتاب « ابن زيدون لعلى عبد العظيم »
— طبعة عام ١٩٥٥ ونشر مكتبة الأنجلو المصرية.
(١) ١٦٧٠ الديوان — ط الحلبي.
(٢) ١٧٥٠ الديوان — الخلب بكسر الخاء لحمة رقيقة لاصفة بالكبد.
(٣) ص ١٨١ الديوان.
(٤) ١٩٣ الديوان.
(٥) ١٧٥ الديوان.

مني ابتك ما بي يا راحتي وعذابي
مني ينوب لسانى في شرحه عن كتابي
ما البدر شف سناء على رقيق السحاب
الا كوجهك لما اضاء تحت القاب

ولكن الوزير ابن عبدوس (٤٧٢هـ) وهو المنافس اللدود لابن زيدون استغل فرصة اغفال الملك القرطبي أبي الحزم لشاعره ووزيره، فأخذ يشي به عنده، ويكشف له عن ميل الشاعر السياسية نحو البيت الأموي، فوضع ابن زيدون تحت المراقبة، وأخذت ولادة تواري اهدافها السياسية، وتظهر الحب لابن عبدوس تكون في حمايته، وفي مأمن من انتقام الجمهوريين ولظهور للوزير ابن حزم بعدها عن السياسة ومؤامراتها، وساء ذلك الشاعر، واشتعلت عواطفه، واضطربت مشاعره، وكان أول الأمر يشك في أن يكون لولادة هوى في أبي عامر ابن عبدوس :
قالوا : أبو عامر اضحي يلم بها . قلت : القرasha قد تدفو من النار^(١)
وبعد قليل يعتقل ابن زيدون، ويرجع به في السجن، بتهمة التآمر على إعادة الخلافة الأموية، وكان ذلك بعد عشر سنوات من قيام حكم الجمهوريين في قرطبة برعاية أبي الحزم بن جهور، وكان اعتقاله في أوائل المحرم من عام ٤٣٢هـ حيث ظلل فيه حتى شعبان من عام ٤٣٣هـ.

— ٤ —

وكان اعتقال الشاعر وجيه محة ثلاثة من المحن التي تكب بها في حياته بل كان أقسى محة نزلت به على نفسه . وفي السجن عومل ابن زيدون معاملة سيئة ونكل به تنكلاً شديداً، ولم يجد أمامه عزاء

(١) ٢٢٠ . الديوان .

الـا في الشعر ينظمـه آهـات حزـينة، وعـبرـات تـصـف آلامـه وشـقاءـه وأـئـنه
وـحـينـيه، ويـكـبـ بهـ إلىـ اـصـدـقاـلـهـ يـتـحدـثـ فـيـهـ، عـنـ مـحـنـتـهـ، كـتـبـ منـ
الـسـجـنـ لـصـدـيقـهـ أـيـ حـفـضـ بـنـ بـرـدـ يـقـولـ^(٣):

^(٢) ويذكر وهو في السجن أيام حياته، فيقول من موشحة:

خليلي ان أجزع فقد وضع العنبر
وان استطع صبرا فلن شمتي الصبر
وان يك رزعا ما أصاب به الدهر
فقي يومنا أمر وفي غنه خمر
رميتي الليالي عن قسي التواب

٦٥ ص ٦٥ الديوان.

^{٢)} راجعها باكملها في الديوان من ٢٠٠، وهي طويلة.

فما اخطأتني مرسلات المصائب
اقضى نهاري بالأمانى الكواذب
وأوى الى ليل بطيء الكواكب
أقرطبة الغراء هل فيك مطعم؟
وهل كبد حرى ليتك تقنع؟
وهل للياليك الحميده مرجمع؟
اذا الحسن مرأى فيك واللهو مسمع

ثم يقول منها :

أخواتنا للوارديين مصادر
ولا أول الا سيلوه آخر
وانسي لأعاتب الزمان لاظهر
فقد يستقبل الجد والجد عائز
ظمنت وكان الحر يجفني فيظعن
وأصبحت اسلو بالأسى حين احزن
وقر على اليأس الفؤاد المواطن
وان بلادا هنت فيها لأهون

ويرسل وهو في السجن الى أبي الحزم مدائح رائعة واعتذاريات،
رفيعة، تصور همومه وأحزانه وألامه النفسية العميقة... كتب اليه
يقول^(١) :

ألم يأن ان يبكي الغمام على مثلـي ويطلب ثأري البرق منصلـ التصلـ
وهلا أقامت أنجم الليل مائـا لتندب في الأفق ما ضاع من نـلـي^(٢)

(١) ص ١٢ الديوان.

(٢) نـلـ الكـانـة : استخرج نـلـها غـثـرهـا، وفي المـذـعـرـة ص ٣٠١ ، نـلـي ، بضمـ الـونـ.

أخص لفهمي^(١) بالقلبي وكأنما
بيت لذى الفهم الرمان على ذخل
وأجفى على نظمي لكل قلادة
مفصلة السمعتين بالمنطق الفصل
ولو اتنى اسطيع كى ارضي العدا
شريت بعض الحلم حظا من الجهل
ثم يناجي والدته المكلومة من أجل وحيدها المرزاً فيقول من القصيدة

نفسها :
ألم تُرك الأيام نجماً هوى قلبي ؟
أقلني بكاء لست أول حسنة
طوت بالأسى كشحاعلى مضض التكل
إلى أليم في النابوت فاعتبرى وأسلى
وهلة فينا علم غيب وحسينا
ثم يأخذ في مدح الملك والاعتذار إليه والامتناع لديه وتبرئة
ساحته عنده فيقول :

لما كان بداعاً من سجاياك ان تعلمي
رسيلمة اذ قال اني من الرسل
ومثلث من يغفو، وما لك من مثل
أشاد بها الواشى ويعقلي عقلى
ولا بالمسيء القول في الحسن الفعل
ولو اتنى واقت عمداً خطيبة
فلم استر حرب الفجرار ولم اطلع
ومثلي قد تهفو به نشوة الصبا
وانى لتهانى نهاي عن التي
وما كنت بالمهدي الى السؤدد الخنا

وفي القصيدة نفسها يقول الشاعر :
أني العدل ان وافتكم ترى رسائلي فلم ترك وضعاً لها في يدي عدل
أعدك للجليل وأأمل أن أرى بتعماك موسماً وما أنا بالغفل
والقصيدة جميلة تقف مع رواية النابقة في الاعتذار في منزلة واحدة :
وكتب الشاعر من السجن الى ولی العهد أبي الوليد بن جهور يستعطفه
ويطلب شفاعته فيه، وساعدته الحظ واصدقاؤه ومنهم ولی العهد على

(١) أي ذكائي، والدخل : الحقد أو الناز أو العداوة.

الهرب من السجن فخرج من المدينة — قرطبة خائفاً يترقب، وكتب إلى صديقه أبي بكر مسلم بن أحمد قصيدة بعد فراره من السجن يصور فيها أحداث حياته فيقول :

الحالياً ألوت بمحادث عهداً
حوادث لا عقد عليها ولا شرط
لعمركمو أن الزمان الذي قضى
بشت جميع الشمل ما لمشط
ألا هل أنتي الفتيان أن فناهم
فريسة من يبعدهونهزة من يسطو
عليك أباً بكر يكرت بهمة
ورهطي، فذاه، حين لم يبق لي رهط
على ولا جحد لدبي ولا غلط
ولكن لشيب الهم في كيدي وخط
أسيراً، وإن لم يجد شد ولا قمع

ثُمَّ يقول :
فُرِرتْ فَانْ قَالُوا : الْفَرَارُ ارَابَةٌ

فقد فر موسى حين هم به القبط
ويحرضه على الشفاعة له عند أبي الحزم فيقول :
فما لك لا تختصني بشفاعة يلوح على دهري لميسها غلطُ
فإن يسعف المولى فنعمي هنية تنفس عن نفس الظل لها ضغط
وأن يأب إلا قبض مبسوط فضله ففي يد مولى فوقه القبض والبسط
وبذلك انتهى فصل طويل من محنة ابن زيدون هذه المحنة التي
يصورها فيقول :

نَارٌ بَغَى سَرِي إِلَى جَنَّةِ الْأَمْنِ لِظَاهِرِهِ، فَاصْبَحَتْ كَالصَّرَبِينَ

وما أكثر ما يذكر الشاعر كلمة (الأمن) في شعره تنويعاً بضرورته
لحياة الإنسان، هذا الأمن الذي شعر بخسارة فقده له وهو في الجبس،
يقول ابن زيدون فيما يقول منها بمعنى الأمن والأمان :
بحيث مقيل الأمن ضاف ظلاله وفي منهل العيش العنوبة والبرد

ويقول في المحض بعد ذلك :
 لقد جدت حتى ما ينفس خصاصة وامتنت حتى ما يقلب تخوف
 ويقول في محمد :
 لبستا لدیه الأمان تتدى ظلاله وزهرة عيش مثلاً اينع الزهر
 وعادت لنا عادات دنيا كأنها بها وسن او هر اعطافها سكر

- ٥ -

حط الشاعر رحاله بعد فراره من سجن أبي الحزم في اشبيلية،
 يلخص الأمان في ظلالبني عياد، وأخذ يرسل آهاته الحارة الى بني
 جهور في قرطبة وكانوا قد وضعوا اهله وقرابته تحت المراقبة، يقول
 الشاعر فيما يقول :
 ببني جهور احرقتم بجفاتكم فؤادي فما بال العذائق تعيق
 نظنوتنى كالعنبر الورد انما فمود لكم انفاسه حسن يحرق
 أحد الشاعر يحيا مفترباً في ظلال دولة بني عياد، ولازم الاغتراب
 الشاعر طيلة حياته، فكان محة أخرى أشد من أثر محة الحبس في
 نفسه، فلم تزل الأيام (تدنيه وتبعده، وتسوءه وتبعده، وتقدف به
 الى كل نازح) كما يقول ابن خاقان.^(١)

ويبدو أن أصدقاء الشاعر استطاعوا أن يطلقوا بهدف امان لابن زيدون
 ان عاد الى قرطبة ليحيا فيها سيرته الأولى، وهي وطنه الحبيب وفيها
 امه الحنون، وأجياله الأعزاء على نفسه، وعاد الشاعر في آخر أيام
 أبي الحزم، قبل وفاته ب نحو سبعة أشهر، ليقيم فيها من جديد، وليطغى

(١) ٧٤ غلالة المق yan للفتح من خاقان.

غلة اشواقه الى معاهدها وملاءع صباحه وجهه وشبايه فيها، ونظم نوينته
الرائعة^(١) التي تحدث فيها عن هواه العنزي لمحبوته ولادة.
اضحى الثاني بديلا من تدانيا وناب عن طيب لقيانا تجافينا

ومدح ابن زيدون أبا الحزم بقصائد عديدة، اعلاناً منه لوفاته لاميره
وتعلقه بوطنه ومات أبو الحزم فرثاه الشاعر، ووضع كل آماله لدى
أبي الوليد :

أبا الحزم قد ذابت عليك من الأسى قلوب منهاها الصبر لو ساعد الصبر
دع الدهر يفجع بالذخائر أهلها فما لنفيس مذ طواك الردى قدر

ثم يقول في القصيدة نفسها يعلق كل آماله بالملك الجديد :
لنك الخير اتي واثق بك شاكر لمتشي أياديك التي كفرها الكفر
فصدق ظنونا لي وفي فانشي لأهل اليد البيضاء منك ولا فخر

ويمدح أبي الوليد في مبالغة شديدة وهو يهبه بولاية، فيقول في
قصيدة أخرى^(٢) :

فرح الرياسة اذ ملكت عنانها فرح العروس بصحة الأملاء
من قال انت لست أوحد في النهي والصالحت فدان بالاشراك

ويطالبه بولاية أو منصب كبير فيقول :
قلدني الرأي الجميل فانه حسي ليومي زينة وعراء
وعلت منزلة الشاعر عند أبي الوليد، وقدمه الملك وأسني خطته،
ونوه به، وجعله في الذي اصطنعهم لدولته، وجلله الكرامة كما يقول

(١) ١٦٩-١٧٥ المليون.

(٢) ٣٨-٣٦ المليون.

(٣) ٤٤-٤١ المليون.

ابن حيان معاصره^(١) :

ولكن الشاعر كان يريد أن يكون مكانه بجوار أبي الوليد في ذلك حتى جفاه، وهانت مكانته لديه، وخرج الشاعر من قرطبة مرة أخرى يجوب البلاد، ويسير بين عواصم ملوك الطوائف، فمن بلنسية إلى بطليوس، إلى طرطوشة، وفي كل مكان يحل به يرسل الشكاوة والآهات، فيقول وهو في بطليوس :

يا دمع صبت ما شئت أن تصوبي
ويا فؤادي آن ان تندوبيا
اذ الرزاما اصحت ضربها
لم ار لي، في أهلها، ضربها
قد ملا الشوق الحشا ندوبيا
في الغرب اذ رحت به غربها
علييل دهر سامي تعذيبها
ادنى الضنى اذ أبعد الطيبها

ولكنه عاد بعد قليل إلى قرطبة بعد أن وصله صك أمان من الملك الجمهوري أبي الوليد، فعاش فيها بعيداً عن الأضواء، ولم تلبث قرطبة أن شهدت عام ٤٤٠ هـ ثورة عارمة هواها أموي، والقائمون بها هم بنو ذكون، وكانوا من قبل أصدقاء للشاعر وكاد يزوج بابن زيدون في هذه المؤامرة، ولكنه أسرع في إعلان ولاته للملك ونقمته على المتأمرين وبراءته منهم :
ان الآلى كنت من قبل اقضائهم مثل الشجا في لهاهم ليس يتزع
لم أحظ اذ هم عدى باد نقاهم الا كما كنت احظى اذ هم شيع

(١) راجع للذخيرة في ج ١ ص ٢٩١ — أصدرته جامعة فؤاد (القاهرة) — ونشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٩—١٩٤٢ (٢) ص ٢٠٨ الديوان.

أودعت نعمك منهم شر مفترس
لن يكرم الغرس حتى تكرم البقع
لا تستجزر وضع قدرى بعد رفعكه (١)
فإله لا يرفع القدر الذي تضع
ولكن آبا الوليد انصرف عن ابن زيدون وجفاه، فعاد الشاعر إلى المهرة
والاغرب من جديد، حيث رحل إلى بطليوس عام ٤٤١ هـ ومر به العيد
وهو وفي اغترابه قال (٢) يحن إلى قوطية ومعاهدها:
خالي لافطر يسر ولا أضحي فما حال من أمسى مشوقا كما أضحي
ويقول :

الا هل الى الزهراء أوبة نازح تقضى تائياها مدامع نرحا
وبعد قليل وفي العام نفسه ٤٤١ هـ سقط رحاله من جديد في أشبيلية
ونزل بيلات ملكها المعتصد بن عياد (٤٣٣ هـ) ومدح المعتصد
بقصائد بلغة ومتها جاء في احدى هذه المدائع يلوح به إلى الملك
الجهوري من بعيد (٣) :

الا هل جاء من فارقت أني بساحات المنى رفل البراح؟
وانني من ظلالك في زمان ندى الأصال رراق الضواحي
ورفعه المعتصد إلى منصب ذي الوزارتين، وجعله سفيره إلى ملوك
الطوائف وصار أمير الشعراء في أشبيلية التي كانت تجع بالشعراء،
وفي هذه العاصمة الجميلة وفي ظلال المعتصد عاش الشاعر نحو العشرين
عاماً، ومع مناصبه وجلالة محله منبني عياد، فقد ظلل يذكر قوطية
وأحبابه فيها، فنراه يقول :

هل تذكرون غريبا عاده شجن من ذكركم وجفا أجفانه الوسن
ينخفي لوعجه والشوق يفضحه فقد تساوى لديه السر والعلن

- (١) ٥٧-٥٥ الديوان.
(٢) ٢٠٥ الديوان.
(٣) ١٠٦-١٠٣ الديوان.

فُؤاده وهو بالاطلال مرتئن
ورقاء قد شفها اذ شفني حزن
وبات يهفو ارتياحاً بينما الغصن
كنا و كانوا على عهد فقد ظلموا
ان الكرام بحفظ العهد تمتحن
بالشوق قد عاده من ذكركم حزن
فيات يشدتها مما جنى الزمن
« به التعلل لا اهل ولا وطن ولا سكن »

... وهي لوعة غريب، وآهة حبيب الى حبيب ...

ويسموـت المعـضـدـ عـامـ ٤٦١ـهـ، ويـقـومـ بـالـصـلـكـ بـعـدـ الـمـعـتمـدـ
(٤٦١—٤٨٤ـهـ)، ويـقـرـرـ الـمـلـكـ الـجـدـيدـ الشـاعـرـ عـلـىـ مـاـ كـانـ عـلـيـ فـيـ عـهـدـ
أـلـيـهـ، وـيـزـيدـ فـيـ تـكـرـمـهـ^(١).

ويـعـيشـ ابنـ زـيـدـونـ مـحـتـهـ الـأـخـيـرـةـ، مـحـتـهـ بـالـلـوـاـشـينـ وـالـحـاسـدـينـ
وـالـحـاقـدـينـ وـماـ كـانـ أـشـدـهـ مـنـ مـحـنةـ عـلـىـ نـفـسـهـ، وـكـمـ كـانـ فـيـ حـيـاةـ
الـشـاعـرـ مـنـ مـحـنـ قـاسـيـاتـ، فـمـنـ تـكـرـرـ الـأـصـدـقـاءـ إـلـىـ تـهـجـمـ الـأـعـدـاءـ، وـتـهـجمـ
الـلـوـشـةـ، وـكـمـ يـقـولـ ابنـ زـيـدـونـ :
كان الوشاة وقد منيت بافكهم اسياط يعقوب وكنت الذينا

وكما يقول :

اذْوَبْ هَامَتْ بِلْحَمِيْ فَانْتَهَاشْ وَانْتَهَاسْ

فـمـنـ خـصـوـمـةـ ابنـ عـبـدـوسـ، إـلـىـ عـدـاـوـةـ شـاعـرـ اـشـيـلـيـةـ عـلـىـ بـنـ غالـبـ
ابـنـ حـصـنـ، إـلـىـ خـصـوـمـةـ كـاتـبـ الـمـعـضـدـ أـلـيـ مـحـمـدـ عـبـدـالـلـهـ بـنـ يـوسـفـ
ابـنـ عـبـدـ الـبـرـ إـلـىـ حـسـدـ وـزـيرـ الـمـعـتمـدـ اـبـنـ عـمـارـ — ٥٨٠ـهـ، وـحـقـدـ قـائـدـ
جيـشهـ فـيـ فـقـحـ قـرـطـبةـ اـبـنـ مـرـتـنـ...ـ وـسـوـاهـمـ.

(١) ٩٧ اعتاب الكتاب لابن البار (٦٥٩ـهـ) مخطوط ٧٧٨ تاريخ تيمور.

وفي مطلع ملك المعتمد هاج حсад الشاعر وكتبوا قصيدة بعنوانها
الى الملك يغرونه فيها بابن زيدون، ليصلوا الى مأربهم من ابعاده عن
الحياة السياسية في اشبيلية، وفيها يقولون :

أيها الملك العلى الاعظم اقطع وريدي كل باع يشم^(١)
واحسم بسيفك داء كل منافق ييدي الجميل وضد ذلك يكتم
واذكر صنيع أبيك أول أمره في كل منهم فانك تعلم
لم يق منهم من توهם شره فصفت له الدنيا ولذ المطعم
فعلام تتكل عن صنيع مثله ولأنك امضى في الخطوب واشهم
لا تركن للناس موضع تهمة واحزم فمثلك في العظام احرز

ولكن المعتمد رمى بالقصيدة عرض الحائط، وهو يرد :
كذبت مناكم صرحوأو جمجموا الدين امن والضحية أكرم
ختنم ورمتم ان أخون واتسما حاولتمو ان يستخف بعلمكم^(٢)

وعلم الشاعر بما حدث فقتل بين يدي الملك يشكروه على هذا الموقف
النبيل بقصيدة طويلة جاء فيها :

لي منك فليذب الحسود تلظيا لطف المكانة والمحل الأكرم
وشفوف حظ ليس يفتا يحتلني غض الشباب وكل حظ بهرم

وفي شعبان من عام ٤٦٢هـ يفتح جيش المعتمد قرطبة ويضمها الى
اشبيلية بفضل تدبير ابن زيدون، فنال من الملك تقديرأ وحمدأ، وعاد
الشاعر الى وطنه يقبل ثراه، وبشهه هواء. ولكن السياسة الزمرة ان يعود
الى اشبيلية في مهمة سياسية، وأقام فيها عدة شهور مسه فيها الوصب،
 وأنضنه التعب وأعياه المرض، وأخيراً مات الشاعر الغريب في اشبيلية بعيداً
عن مسقط رأسه، وهوئ نفسه قرطبة الجميلة، وكان ذلك في صدر رجب

(١) أي يهم.

(٢) اسم جل.

من عام ٤٦٣ هـ الثالث من أبريل عام ١٩٧١، وسكت الصوت الذي كان يهز الجماهير، وخبا النجم الذي كان يضيء الدياجير، ومات في الأدب، وعمدة الظرف، والشاعر البديع الوصف والوصف، أبو الوليد أحمد ابن زيدون، ذو الآية الشبيهة بقرطبة، والوسامة والدرابة، وحلوة المنظوم والمثور، وقوة العارضة والافتان في المعرفة كما يقول معاصره ابن حيان^(١).

وحمل جثمان الشاعر العظيم فدفن فيها بين يكاء الشعب واحلاله وأكبار الوطن واعظامه، وسجلت صفحات التاريخ اسم الشاعر في حالة من التور والمجده والخلود ومرت المحن، وغربة الشاعر عن الوطن، وبقيت الذكرى الحالدة، ذكرى عقرية شاعر، عاش مجته وغريبه، مرفوع الرأس، أبي النفس، كريم الخلق، ممتد الذكر في كل أفق، الشاعر الذي كان يعني للدنيا آلامه، ويشدو بالشعر احلامه فيقول :

فان يجذب من الدنيا جناب طالما امرع
فما ان غاض لي صبر ولا ان غاض لي مدمع

والذى طالما شكا دهره الى الناس :

من عذيري من رب دهر خوون كل يوم اراع منه بغدر

والذى قاسى في حياته ما لو قاست مثله المجال لانهد شاهقها :

ما لي وللليام لح مع الصبا عدوانها فكما العذار مشيا

لألم بي ما لو ألم بشاهق لأنهال جانبه فصار كثينا

وإذا كانت غربة الشاعر ومحنته قدرأ قدر عليه، حتى لا يوجد في

حياته الأمان والطمأنينة الا بعيداً عن وطنه قرطبة، فقد قدر له كذلك

بعد حياته الا يجد المحظفين بعقربيه وبشاعريته، الا بعيداً عن قرطبة،

حيث عاصمة الملك العربي المسلم الحسن الثاني، تحفل بالذكرى الألفية،

(١) الدخيرة قسم ١ ج ١ ص ٢٩١.

لميلاد شاعر عظيم، وهب العربية اسمى كنوزها، ومنح الأدب أجل ذخائره،
وتوج الشعر بارفع قلالده وأبلغ خوالده وأجمل آوابده.
سلام عليه في الخالدين، وسلام عليه في الأولين، وسلام عليه في
الآخرين.

ابن خفاجة الأندلسي^(١)

٤٥٠ — ٥٣٣

أسرته :

لما فتحت الأندلس عام ٩٢ هـ واستقر بها المسلمين أقبلت القبائل العربية على الهجرة إليها أفراداً وجماعات، وكان من هاجر إلى الأندلس جماعة من القيسين والعامريين والعياليين والخفاجيين، ومنهم : محمد بن عبد الملك العبسي^(٢) وكان يعيش في القرن الخامس الهجري، ومحمد بن غريب العبسي وكان يعيش في القرن السادس^(٣)، وأبو بكر محمد بن عمر العقيلي المتوفى عام ٥٣٠ هـ^(٤)، ويقول ابن حزم :

(١) راجع : له ترجمة طويلة في قلائد العقبان للفتح بن عاصان الأندلسي (٢٥٣-٢٤١)، وفي وفات الأعيان لابن خلكان ص ٢٣ و ٢٤ ج ١٩٠، ٢٠١-١٩٠ بлагة العرب في الأندلس.

وقد ولد ابن خفاجة جزيرة شقر من أعمال بلنسية عام ٤٥٠ هـ وتوفي سنة ٥٣٣ هـ وهو كما يقول المقري، أديب الأندلس وشاعرها، وأوحد الناس في وصف الأنهار والأزهار والرياحن والحياض والرياحن والسبعين، وبلقب بصنوبري الأندلس (٣٧٨) .
٥ وما يعنينا نفع الطيب — نشر فريد رفاعي).

(٢) ١٢٣ التكملة لكتاب الصفة لابن الأبار م ٥٦٩ هـ.

(٣) ٢٢٢ التكملة لكتاب الصفة لابن الأبار.

(٤) ١٢١ المعجم لابن الأبار، ١٦٦ التكملة لابن الأبار.

وخفاجة بطن ضخم منهم النحوي محمد بن معاذ المعروف بالعقيلي بقرطبة^(١).

ورأيت نصاً آخر عثرت عليه في المكتبة الأندلسية يؤيد نسبة ابن خفاجة الأندلسي إلىبني خفاجة، قال صاحب بقية الملتمس ما نصه : ابراهيم بن الفتح بن عبدالله بن خفاجة، أبو اسحاق الخفاجي، شاعر مشهور متقدم، ميرز، حسن الشعر جداً، خبيث الهجاء، وشعره كثير مجموع، وكانت له همة رفيعة^(٢) وتوفي سنة ٥٣٣ لأربع بقين من شوال^(٣)، وله ترجمة في المعجم لابن الأبار^(٤).

حياته وشاعريته :

ابن خفاجة علم من أعلام الشعراء العرب، المجددين، وهو بحق شاعر الأندلس ووصافها، وابن طبيعتها الساحرة.

ولد أبو إسحاق إبراهيم بن الفتح بن خفاجة سنة ٥٤٠ هـ ببلدة شقر وتوفي بها سنة ٥٣٣ هـ، فعاش زمن ملوك الطوائف وإبان دولة المرابطين. وهذه العصور أزهى عصور الأندلس : فيها قامت دولة الأدب والشعر، وغصت مجالس الأمراء بالشعراء، فكانت بيوتهم أسواقاً للعلماء، وأندية للأدباء، وكانت الحياة إذ ذاك حياة ترف ورخاء. وتبع هذا الترف العيل إلى اللهو والمجون وأنواع السرور، وتغلبت هذه الحال على عقول الأدباء والشعراء، فكان الشعر ضرباً من التفكك، وملهاة للأمراء، وزينة

(١) ١٧٤ أنساب العرب لابن حزم.

(٢) ٢٠٢ بقية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس للضبي.

(٣) ٢٠٣ المرجع نفسه.

(٤) ٦١-٦١ المعجم لابن الأبار من أجزاء المكتبة الأندلسية. وفي هامش الترجمة أنه توفي عصر يوم الأحد السادس والعشرين من شوال سنة ٥٣٣ هـ.

العقل، وحليمة العلماء. وكان الترف وبهاء الطبيعة يولدان في النفس حب الجمال، وسعة الخيال، وقد كان لابن خفاجة حظ في مناجاة الطبيعة وجمالها، لأن بلدته التي عاش فيها ومات بها كانت من أجمل البلاد وأحسنتها بهاء.

ولقد انقطع ابن خفاجة للنظر في جمال الطبيعة، فكان كثير التأمل في المشاهدات، وكانت نظراته تقود عقله، وترسم له طرق التفكير وأنواع الخيال. فكانت كل معلوماته وأرائه من طريق النظر والتأمل في جمال الألوان وتناسق الأشياء، فأصبح عقله أشبه بخزانة منظورات. وقد حملته دقة النظر على دقة التعبير. وكان لا يحب إلا الجمال، ولم يميز من الأشياء التي يراها إلا ما يتفق مع صفاته النفسية. فكان دائماً فرحاً مسروراً، لا تكاد تجده يصف منظراً محزناً، أو شيئاً قبيحاً، أو يصف نفساً منقبضاً أو يتكلم عن بؤس الأيام وأهوال حوادثها؛ فشعره صورة لحياته النفسية المعلوقة بالسرور والإعجاب بالجمال. وكانت نفسه مطمئنة هادئة، ميالة إلى اللهو والمجون، فكان شعره أيضاً به هذا الاطمئنان النفسي والهدوء الفكري، والمجانة الخلقية، فلا ترى في كلامه شيئاً يدل على الشك أو الحيرة، أو الخروج من العالم الخيال إلى عالم الحقيقة، أو ما يدل على تفكيره في الحياة وأهوالها، والناس وأخلاقهم والوجود وما فيه من خير وشر ليتوصل بذلك إلى ذكر حكمة أو عبرة، أو رأي يدل على كد فهمه. ولا تكاد تجد له صورة صحيحة تدل على نفسه وشعوره الخفي، سوى ميله للجمال وحب الطبيعة. وليس ذلك لأنه يشعر بشيء، أو لأن نفسه حالياً مما يملئ بالتفوس عادة كالحب والبغض، والهم والحزن وغيرها من أهوال الحياة وحوادثها. ولكنه لم يكن يعني ذلك، لأن هذا يدعو إلى الهموم والأكذار، ولم يكن هو يميل إلى ذلك، لأنه كان يريد أن يعيش في نوع من الأحلام اللذينة، لذلك كان أثر هذه الحياة عظيماً في نفسه،

فولدت فيها كثيرةً من المعاني الشعرية، واندفع إلى تصويرها وإلى التعبير عنها بما فطر عليه من دقة الإدراك، شأن جميع الشعراء المقتنيين، الذين تتسلب نقوشهم في خفايا الجمال وأسراره. فكان الجمال مثار شعره ويعيث خياله وافتاته، يتبع روائعه. فإذا امتلأت به نفسه، أخذ في وصفها ورسمها. وكان يتبع مظاهر جمال الطبيعة، ويخرج إلى البساتين ليسع خرير الماء، وليلعم بمشاهدة جريانه، وبصف ذلك في شعره، ويهاري الشعراء أحياناً في أوصافهم.

ويشمل شعر ابن خفاجة على المدح، والعتاب والرثاء والشكوى والوصف والمداعبات. ولكن أجود شعره في الوصف فإن الخيال هو كل شيء في شعره ولكنه خيال يدعى إلى حب الجمال ورقة الشعور، وبهذب الذوق، ويملا القلب بهجة وسروراً، لأن ابن خفاجة مصور ماهر، ووصاف مبدع للمشاهدات، وأكثر معاناته مأخوذة من مشاهداته. وقد امتلأت نفسه بذلك حتى في المدح والرثاء. فنجد أنه اذا مدح يصف الثناء بأنه ثناء رطب، وأن الصباح ضحل فكشف عن ثناءه البيض، وأن مدوحه وضاح المحي، وأنك حين تنظر إلى بهائه :
تشيم^(١) بصفحتيه ببرق بشر تعيد بشاشة الروض الجديد

ويقول :

وقد ضحلت الصباح بمحتلاه وراء الليل عن ثغر شب^(٢)
أشيم به سنا برق يمان يحفرني إلى المرعى الخصيب

فإذا تحدث عن أيامه الماضية فتح صفحات تلك الأيام وأخذ يستعمل عنده ذكرياته، ويغنى بها وبأوصافها، كما قال يذكر أيام شبابه. وقد نيف على السنتين :

(١) شام البرق نظر إليه.

(٢) أي ذي أسنان بعض.

فاذكرنا ليلة باللوى وعهداً ل المصر الصبا أطريا
وماء بوادي الغضى سلاساً ومرتبعاً بالحمى معشباً
وما كان أغطر تلك الصبا وأندى معاطف تلك الربا
وأطيب ذاك الجنى روضة ورشفة ذاك اللumi^(١) مشرباً

فإذا رثى لا يغيب عنه الوصف حتى في موقف البكاء، لأنه يمزج بكاءه بوصفه الجميل، وبما في نفسه من المعانى التي ملكت منه كل شيء، فيقول :

في كل ناد منك روض ثاء وبكل خد فيك جدول ماء ولكل شخص هزة الغصن الندى غب البكاء^(٢) ورنة المكاء^(٣)

وهو في ذلك الوصف يشبه الدموع السائلة على الخدود بجداروا العاء، ويشبه اضطراب أجسام الباكين وانسكاب دموعهم بهزة الفصن الذي غمرته السماء بالماء، ويشبه أنبيتهم وإجهاشهم بالبكاء بصوت قيرة تصفر وتتوح.

وإذا أقسم أقسم بالثلفات الروض عن زرقة النهر، وإشراق جيد الفصن في حلية الراهر، ويقول وهو سائر في جوف الليل :
وخضت ظلال الليل يسود فحمه ودست عرين^(٤) الليث ينظر عن جمر أو يقول : « والصبح يمسح عن جبين نهار ».

ويذكر المعانى المستملحة، فيشبه أوراق الشجر بالعنادى، والنصارة بالضحك، واعتزال الفصون في مهب الريح بمعازلة التسميم لها، وأن الريح يلثم خدها الخجل. وهو القائل هذه الآيات الشهيرة يصف نهراً :

(١) اللumi : سمرة في باطن.

(٢) غب البكاء بعد البكاء.

(٣) طائر أبيض اللون له صفير حسن.

(٤) العرين : بيت الأسد.

أَنْهَى وَرَوْدًا مِنْ لَمِ الْحَسَنَ
مُتَعْطِفَ مُثْلِ السَّوَارِ كَانَهُ
وَالْوَهْرُ يَكْنِهُ مُجْرِ سَمَاءٍ^(١)
مِنْ فَضَّةٍ فِي بَرْدَةٍ حَضْرَاءٍ
وَغَدَتْ تَحْفَ بِهِ الْفَصُونَ كَانَهَا
هَدْبٌ يَحْفَ بِمَقْلَةٍ زَرَقاءٍ
وَالرِّيحُ تَبْيَثُ بِالْفَصُونَ وَقَدْ جَرَى
ذَهْبُ الْأَصْبَلِ عَلَى لَجَنِ الْمَاءِ

ويصف السرى في ظلمة الليل الحالك المتبعثة في كل ركن من أركان القضاء، وما يوحدها هذا المنظر من خوف ورهبة، وما يلاقيه السائر من حيوان مفترس، فيخيل إلى القارئ أنه في جوف الفلاة يلقه الليل بمخاطرها، أو كأنه أمام لوح مصور يرى فيه تلك المعاني مصورة بالألوان البدية، إذ يقول :

يَسْرِي لَا نَجْمُ فِي ظُلْمَائِهَا
وَمَقَازَةً^(٢) لَا نَجْمُ فِي ظُلْمَائِهَا
تَلْهَبُ الشَّعْرِي^(٣) بِهَا وَكَانَهَا
فِي كَفِ زَنْجِي الدِّجَاجِ دِينَارٍ
قَدْ لَقْنَي فِيهَا الظَّلَامُ وَطَافَ بِهِ
ذَئْبٌ يَلْمُ مَعَ الدَّجَاجِ زَوارٍ
وَاللَّيلُ يَقْصُرُ خَطْرَوْهُ وَلَرِبِّا
طَالَتْ لِيالي الرَّكْبِ وَهِيَ قَصَارٌ
قَدْ شَابَ مِنْ طَرْفِ الْمَجْرَةِ مُفْرَقٌ
فِي هِيمَانٍ خَطْهُ الْهَلَالُ عَذَارٌ

أَوْ يَقُولُ :

وَلَلَّيلُ كَمَا مَدَ الْغَرَابَ جَنَاحَهُ
وَسَالَ عَلَى وَجْهِ السَّجْلِ مَدَادَ
كَانَيْ وَأَحْشَاءَ الْفَلَاجِ تَجْسِي
سَرِيرَةَ حَبٍ وَالظَّلَامَ فَوَادَ

وأسلوب ابن خفاجة يتجمع فيه قوة الخيال وسعة، وحضور الذهن، وسلامة العبارة، وسهولةها، مع ميله أحياناً إلى الأنماط الغريبة، وإلى المعاني الخفية، وإلى شيء من التكلف والتعمل في ذكر أنواع البديع.

(١) المجرة : منطقة في السماء ذات نجوم كثيرة لا يميزها البصر فترى بقعة بيضاء.

(٢) المقازة : الفلاة لا ماء فيها.

(٣) كوكب يظهر في شدة الحر.

بل قد يتغلب عليه ذلك، فتمتنع بذلك عباراته، وأكثر وصفه في الليل وسواه، والصبح وبياضه، والرياض والبساتين، والأزهار والأشجار وغضونها، والمياه وجريانها، ولو أنها الفضي وأشعة الشمس عليها، والنسم وسريرانه، وغير ذلك من مثل هذه المعاني. وقد خالف أكثر الشعراء في نظم القصيدة من حيث البدء بالغزل والنسيب. إذ أكثر قصائده مبدوء بالوصف، ولو لا استسلامه إلى الصناعة لعد من الشعراء المقطورين. ولكنه بمعانه في تتبع أنواع البديع والبيان صار كثير التكلف في معانه وألفاظه، حتى لا تكاد تجد شيئاً من كلامه إلا استعارة أو مجازاً أو تشبيهاً. وقد يدعو ذلك أحياناً إلى استغراق المعنى على القارئ ولكن شعره في جملته يعتبر معجماً لأنفاظ مختاراة، وعبارات جميلة، وتشبيهات بدعة، ومعرضًا يجد فيه القارئ خبر أنواع المجاز، وكل ما يمكن من ضروب الصناعة النقطية المختاراة. ومعانه تشبه أسلوبه لأنها لا تهدو أن تكون تشبيهات أو استعارات.

يقول الفتح بن خاقان عنه في كتابه «قلائد العقىان» : تصرف في فنون الإبداع كيف شاء. فجاء نظامه أرق من النسيم العليل، وأنق من الروض البليل، يكاد يمترج بالروح وترتاح إليه النفس، ملك أعناء المحسنين، وناهج طرائقها، العارف ببرصيمها وتسقيتها، الناظم لمقدوها، الراقم لمرودها، المجيد لارهافها، العالم بخلالها وزفاها.. تصرف في فنون الإبداع كيف شاء، وأبلغ دلوه من الإجاده الرشاء.. فتشعشع القول وروقه، ومد في ميدان الإعجاز طلقه !. فجاء نظاماً أرق من النسيم العليل، وأنق من الروض البليل !. إن شب فعمرات الجفون، وإن وصف فناهيك من غرض انفرد بمضماره، وإن مدح فلا مدح الأعشى للمحلى، ولا حسان لأهل جلق ! وإن تصرف في فنون الأوصاف، فهو فيها كفارس خصاف.

وذكره القاضي ابن حلkan فقال : ذكره ابن سام في الذخيرة وأثنى

عليه. وذكره المقري في نفح الطيب فقال فيه : أديب الأندلس وشاعرها، أبو سحق بن خفاجة، وشهرته تغنى عن الاطناب فيه. مفرى يوصف الأنوار، والأزهار ! وأهل الأندلس يسمونه « الجنان »، وأورد له ثرأ كالدر المنشور .^٤

وذكره مؤلفو كتاب « العجمل في تاريخ الأدب العربي » فقالوا عنه : « من أشهر وصاف الطبيعة. تکثر في كلماته الاستعارات، وتراحم المعاني، وقلما تکسب بالشعر » — ومن شعره :

سقيا لها من بطاخ أنس ددوح حسن بها مطل
فما ترى غير وجه شمس أطل فيه عذار ظل

وقال عنه صاحب كتاب « المنهل في تاريخ الأدب العربي » جزء ثان : « كان أبي النفس، لا يتعرض للتكلب بأدبه. يرز في وصف الطبيعة أیما تبريز. وبلغ في الرثاء والغزل الغاية. ومن جيد شعره : ومائسة تردهي وقد خلعت الحيا عليها حل حمرا وأردية خضرا يذوب لها ريق القمائم فضة ويحمد في أعطاها ذهبا نضرا

وقراءة شعره تحتاج إلى التأمل، لأن الرجل عميق الفكر : يمتاز بوصف الطبيعة. وبأنه من انطقوval الجماد بالحكمة والمعونة والعبرة، وبأنه جميل التخيلات بديعها. وبأنه بارع في الرثاء، والمدح. مع نفوره من الاستجداء والتکسب. ويمتاز في الشعر بأنه يجيد « الإخوانيات من الرسائل »، وكتب الأستاذ عبد الرحمن جبر عدة مقالات في مجلة الرسالة السنة الأولى، عنوانها : « الطبيعة في شعر ابن خفاجة ».^٥

ألوان من حياته :

نشأ الشاعر في زمن تبللت فيه الأفكار في الأندلس، وتعددت فيه الدول وكثرت العداوة والمحروب بين ملوكها العرب حيناً، وبينهم وبين

الأسباب حيناً آخر. فانطلت عروش وتقلبت دول، وضاعت بهذا السبب
من أيدي ملوك العرب، بلاد إثر بلاد !

وقد مدح^(١) الشاعر أمراء ووزراء، فلم يعرض في مدحه، لتصبح
أو زجر أو تحذير !. حتى قصيده التي قالها في استرداد بلنسية من
ال العدو لم يتعرض فيها شيء مما أشرنا إليه. وهي التي يقول فيها :
الآن سع غمام النصر فانهملأ وقام صفو عمود الدين فاعتدلا
ولاح للسعد نجم قد خوى فهو
وبات يطلع نقع الجيش متكترا
حتى كأن به من وطنه وهلا
جوراً ولث شرى يدعونه بطلأ
قد استعار رداء الليل واشتملا
كأنما خاض ماء الصبح فاغتسلا
يجري، وجاص نار البايس مشتعلة
سرع العوالى إلى أحياته رسلا
بحراً يلطم من أعطاوه جيلاً
وللظاً أنسن قد انصحت حدقـا
وناطخ الموت حتى شق بردته
وكانـا كانـا ابنـا خفاجـة مـفرغاً لـوصف طـبيـعة الأندلس دونـ ما عـدا
ذلكـ، وـكانـهـ كانـ يـسـيرـ علىـ قولـ : أبيـ بـكرـ محمدـ بنـ عـيسـيـ رـاثـياـ
بنيـ عـيـادـ - بـعـدـ أـنـ دـالـتـ دـولـتـهمـ، وـعـظـمـتـ نـكـبـتهمـ - :
لـكـلـ شـيـءـ مـنـ الـأـشـيـاءـ مـيقـاتـ وـلـلـمـنـىـ مـنـ مـنـيـاهـنـ غـابـاتـ
وـالـدـهـرـ فـيـ صـبـغـةـ الـحـربـاءـ مـنـقـمـسـ أـلوـانـ حـالـاتـ فـيـهاـ اـسـتـحالـاتـ

(١) بـنـوـ خـفـاجـةـ صـ ١٤ـ جـ ٦ـ مـنـ كـلـمـةـ لـلـأـسـنـادـ مـحـمـدـ رـضـوانـ.

ونحن من لعب الشطرنج في يده وربما قمرت بالبيدق الشاة
فانقضى يديك من الدنيا وساكها فالأرض قد أقفرت والناس قد ماتوا
فضلاً عن ضياع أكثر شعره. وروى القاضي علكلان في ترجمته
قال : قال ابن خفاجة :

٦ خرجت يوماً بشاطئه إلى باب السمارين، ابتغاء الفرجة على خبر
ذلك الماء بتلك الساقية، في سنة ٤٨٠ هـ، وإذا بالفقير أبي عمران
ابن أبي تليد رحمة الله قد سبقني إلى ذلك. فالفقيه جالساً على دكان
كانت هناك، مهنية لهذا الشأن، فسلمت عليه، وجلست إليه، مستأنساً
به، فجرى أثناء ما تناشدناه ذكر قول ابن رشيق :

يا من يمسر ولا تمسر به القلوب من الفرق
بعمامنة من خيره أو خده منها استرق
فكأنه وكأنها قمر تعمم بالشفق
فإذا بدا وإذا انتهى وإذا شدا وإذا نطق
شغل الخواطر والجوا نع والمسامع والحدق

فقلت : وقد أعجب بها جداً، وأثنى عليها كثيراً. أحسن ما في
القطعة، سياق الأعداد، وإنما فائت تراه قد استرسل فلم يقابل بين ألفاظ
البيت الأخير والبيت الذي قبله، فينزل بازاء كل واحدة منها ما يلامها.

وهل ينزل بازاء قوله : وإذا نطق، قوله : شغل الحدق، وكأنه نازعني
القول في هذا غاية الجهد، فقلت بيديها :

ومهنهف طاوي الحشا خنث المعاطف والنظر
ملا العيون بصورة تلبت محاسها سور
فإذا رنا وإذا مشى وإذا شدا وإذا سفر
فضح الغزالة والغما مة والحمامة والقمر

وكان شديد الحب لوطنه، وتعلقه به وحنينه إليه يدلنا عليه قوله :

يا أهل أندلس الله دركم ماء وظل وأنهار وأشجار
ما جنة الخلد إلا في دياركم ولو تخيرت هذا كنت أختار
لأنختشوا بعد ذا أن تدخلوا سقرا

ولهذه الآيات حكاية طريفة، تروى ترويحاً للنفس، ومثلاً على الإحسان في الجواب، وهي : حكى أن الخليل قدم رسولاً، إلى سلطان المغرب، فاتشد بحضوره السلطان أبيات ابن خفاجة منه، فقال السلطان : كذب هذا الشاعر يشير إلى قوله : جنة الخلد وأنه لو غير لاختارها — فقال الخليل : يا مولانا، بل صدق الشاعر، لأنها موطن جهاد، والرسول عليه السلام يقول : الجنة تحت ظلال السيف. فاستحسن السلطان قوله، ورفع عن الشاعر لومه، وأجزل صلته ».

ونظر في المرأة فبدت له أول شعرة بيضاء في شعر عنده، فشمله شعور غريب وهو مزيج بين الأسف على ذهاب الشباب والحزن على الحرمان من عطف الحسان، فصور ذلك تصوير ماهر فقال : أرقت على الصبا لطلوع نجم أسميه مسامحة مشيا
كتفاني رزء نفسي أن تبدي وأعظم منه رزعاً أن يغشا
ولولا أن يشق على الغواي للاقتلت الفتاة به خضيا
فلم أعدم هناك به شفيعاً إلى أهل ولم أبرح حبيا
واسתר في تعداد بواعث شعوره، حتى جعل ذلك نذير دنو أجله،
إلى أن قال :

فأحسن من حمام الشيب عندي غراب شيبة ألف العيم
يطيب بنفسه عند الغواي فيعني عن قبة المسك طيبا

نماذج من شعره :

قال ابن خفاجة في مدح القائد أبي الطاھر تميم ابن أمير المؤمنين :
ولا كف إلا للأمير كريمة تبسم فيها النصل عن مسم التصر

شهاب بها ينقض أو قدر يجري
صقيل فرنـد الحمد والمجد والبشر
وألا يغضـن السيف ضـنـنا على وتر
بـذـلـلـيـدـالـفـراءـوـالـفـتـكـةـالـبـكـرـ
لـعـدـتـبـهـدـهـمـالـلـيـالـيـمـنـ الشـقـرـ
تـهـزـقـدـودـالـسـمـرـفـيـالـحـلـلـالـحـمـرـ
كـمـاـشـفـرـقـاقـالـفـيـامـعـالـبـدـرـ
تـرـاءـىـهـلـالـمـنـيـبـطـلـعـمـنـبـحـرـ
سـرـىـبـيـنـنـوـارـلـزـرـقـأـسـنـةـ
وـهـبـبـهـاـيـضـنـفـيـفـرـىـكـائـنـاـ

تلـوـذـالـمـنـىـمـنـهـبـأـصـيدـأـمـجـدـ
عـلـيـهـيـمـيـنـأـنـتـفـيـضـيـمـيـنـهـ
يـعـبـعـابـالـبـحـرـفـيـالـسـلـمـوـالـوـغـىـ
لـهـرـايـةـلـوـزـاحـمـالـدـهـرـتـحـتـهـاـ
وـعـزـمـيـذـلـلـطـرـوـدـهـنـاـوـنـجـدـهـ
وـوـجـهـوـضـيـهـشـفـعـنـهـلـامـهـ
إـذـاـكـتـمـتـهـبـالـمـفـاضـةـدـرـعـهـ
سـرـىـبـيـنـنـوـارـلـزـرـقـأـسـنـةـ

وقـالـفـيـالـوـزـيـرـالـحـسـنـبـنـرـحـيمـ:

وـصـرـخـتـ:ـيـلـبـنـيـرـحـيمـصـرـخـةـ
فـالـلـفـتـأـلـجـادـحـولـيـعـسـكـرـاـ
مـنـكـلـطـلـقـالـوـجـهـشـاهـجـوـادـهـ
زـهـوـاـبـعـزـرـبـهـفـيـخـنـرـاـ
طـلـقـالـمـحـيـاـوـالـلـدـيـنـكـائـنـاـ
قـمـرـتـلـطـلـعـفـيـغـمـامـأـمـطـرـاـ
فـوـقـالـقـيـصـمـنـالـحـيـاةـمـصـفـرـاـ
لـبـسـالـرـدـاءـمـنـالـثـنـاءـمـطـرـزاـ

وـمـنـشـرـهـقـوـلـهـفـيـوصـفـمـنـتـرـهـ:

وـمـجـرـذـيلـغـمـامـقـدـنـمـتـ
وـشـىـرـبـيـعـبـهـيـدـالـأـنـوـارـ
الـقـبـيـتـأـرـحلـاـهـلـاـكـبـقـيـةـ
مـضـرـبـةـمـنـسـرـحـةـغـنـاءـ
مـخـضـرـةـوـقـرـارـةـزـرـقـاءـ
وـشـرـبـهـعـذـرـاءـتـحـسـبـأـنـهـاـ
مـعـصـورـةـمـنـوـجـتـسـيـعـذـرـاءـ

وـمـنـشـرـهـفـيـالـزـهـدـقـوـلـهـ:

أـلـأـقـصـرـكـلـبـقـاءـذـهـبـ
وـعـمـرـانـكـلـحـيـاةـخـرـابـ
وـلـاـخـطـةـغـيـرـإـحـدـىـاثـتـيـنـ
فـإـمـاـنـعـيـمـوـإـمـاـعـذـابـ
وـزـلـفـاـكـيـاـمـنـإـلـهـالـمـآـبـ

وـقـوـلـهـفـيـوصـفـالـفـرـسـ:

أـلـفـتـمـعـاطـفـهـنـجـيـعـخـضـابـاـ
وـمـطـهـمـشـرـفـالـأـدـيمـكـائـنـاـ

طرب إذا غنى العجاج ممزق ثوب العجاجة حية وذهابا
قدحت يد الهجاء منه بارقا متلهما يزجي القنام سحابا
ورمى الحفاظ به شياطين العدا فانقض في ليل الغبار شهابا
بسام ثغر الحلبي تحسب أنه كأس أثار بها المزاج حبابا

وقوله يصف ظلمة الليل ومخافة الشكوى فيه :
ومفارزة لا نجم في ظلماتها يسري ولا فلك بها دوار
تلعب الشعرى بها وكأنها في كف زنجي الدجا زوار
والليل يقصر خطوه ولربما طالت ليالي الركب وهي قصار

وقوله في صفة قوس : آلة رمي التبل :
عوجاء تعطف ثم ترسل تارة فكأنما هي حية تساب
وإذا انحنت والسمم منها خارج فهي الهلال انقض منه شهاب

والقوس عند جذبها لرمي السهم، تكون نصف دائرة، فشبها عند ذلك بالحبة عند انطواها، والهلال قبل استكمال استدارته، فانظر كيف أحسن التشبيه بالحبة عن الانطواء، والهلال قبل الاستكمال، ثم كيف أحسن تشبيه التبل عند خروجه من القوس حال انطواها بالشهاب انقض من الهلال.

وقوله في وصف سفينة :

وجارية ركبت بها ظلاما يطير من الرياح بها جناح
إذا الماء اطمأن فرق خصرا علا من موجه ردد رداع
وقد فغر الحمام هناك فاه وأنفع جده الأجل المتاج
فما أدرى أمواج أم قلوب وأنفاس تصعد أم رياح

فمن ذا الذي يقرأ هذه الآيات ولا يقشعر بدهنه من حول الموقف،
بل من هذا الذي لا يخيل إليه أنه راكب في بحر لجي، عظم اضطرابه،
وتلاطم أمواجه، في ليل اشتئ ظلامه، وتراكب غمامه، فجس عن

العيون مسالك الأمان، فبدا شبح الموت فاستسلم المقلاء، لفصل القضاء،
إما بالنجاة أو الفناء.

وقوله يصف معركة حرية :

ركض الجياد إلى الجلاد صباحا
 واستقبلوا أفق السماء بمحفل
 نشر القتام على السماء جناحا
 قد ماس في أرجائه شجر القنا
 مطر الأعاجم منه عارض سطوة
 حتى إذا قضم المهندي نسمة
 برق الحديد بجانبيه فلا حما
 واندق صدر السمهري فطاها
 زحمت مناكب الأعادى زحمة
 فتحت حرير المسلمين مصارع
 تركت حريم المشركين مباحا

إلى أن قال :

وأقام فوقهم العجاجة كلة
 فانجذب ليل الخطب عن أفق الهدى
 وتطلع الفتح المبين صباحا

وقوله يصف شجرة على نهر :

وسرحة خاض منها ظلها نهرا
 أوفت عليه ولم تقص ولم ترد
 كما تدانت من ثغر لمترشف
 ثم انتابت ولم تصدر ولم ترد
 كأن افانها طيبا حمي ملك
 أعطى وأعطي فلم يبعد ولم يعد

وهذا تصوير آخر لسيل جارف، دهم البيوت، فاجتاز بعضها وهدم
بعضها، فيدت بدؤ الوقود استقبلت ملكاً، بعضها راكع وبعضها
ساجد ! وذلك قوله :

وأهدوت تخر هناك النبي كما تلقى الملوك الوقود
 وباتت كأن عليها صلاة فبعض ركوع وبعض سجود

فمن ذا الذي يقرأ هذا ولا يتصور سلماً عظيماً دهم الديار فجعلها
خاوية على عروشها، بين زائل لم يبق سوى آثاره، ومنهم امتنج عاليه

بأنفشه : ومن الرثاء في شعره قوله في الوزير أبي محمد بن ربيعة :
شراب الأماني لو علمت سراب وعقي الليالي لو فهمت عتاب
إذا ارتجعت إيندي الليالي هباتها فغاية هاتيك الهبات ذهاب
وهل مهجة الإنسان إلا طريدة تحوم عليها للحمام عقاب
يحب بها في كل يوم وليلة مطاما إلى دار البلى وركاب
وكيف يغيب الدمع أو يرد الحشا وقد ساد أقران وفات شباب
فما ناب عن حل الصبا حل شيء ولا عاض عن شرغ الشباب خضاب

ويشير بذلك في طريق سرد هذه الحكم الفالية إلى أن يقول :
فيا لهم من ركب صحب تابعوا فرادى وهم ملد الفصون شباب
دعا بهم داعي الردى فكأنما تبارت بهم خيل هناك عراب
فناهم وسلم الدهر حرب كأنما جثا بينهم طعن لهم وضراب
هجود ولا غير التراب حشية لجنب ولا غير القبور قباب

ولا يزال يأخذك بهذا الكلم الحق إلى أن يقول في المتوفى :
فيا عجبا للدهر كيف سطا به وقد كان يرجى تارة وبهاب
وكيف استلات صولة الموت عوده فلم يتب عنه للمبنية ناب
ولو ان غير الله كان أصحابه لجاشت نفوس لا تقاد صعب

وتستمر مأخذوا بروعة ما تسمع حتى تصل إلى قوله :
تولى حميد الذكر لم يأت وصمة فبقى ولم تدنس عليه ثياب
أغر طليق الصفحتين كأنما وراء تراب القبر منه شهاب
الا إن جسما يستحيل لترية وإن حياة تنتهي لخراب
فلا سعي إلا أن يكون لآجل ولا ذكر إلا أن يكون ثواب

فهل رأيت سهولة لفظ ، وسمو معنى ، وجمال تعبير ، وشرق وضوح ،
في موسيقية وتوقع — حتى في أوقات تصارب موجات الحزن ، وتلاطم
بحار الآلام ، أحسن وأجود من هذا .

وهذا هو رثاؤه للوزير أبي محمد عبدالله بن ربيعة، وتأمل كيف
غلب عليه حب الطبيعة فأباي الا أن يمزجها برثائه مزجاً غريباً، كامتنانج
دموع العزن بالفرح فجمع بين جمال الطبيعة، ولوحة الفراق. فلم يترك
 شيئاً من الروض ولا الجدول ولا الفصن ولا الطير المفرد ولا مطلع
الأنوار، ولا الأنواء، ولا معهد الشيبة ولا الرسم الداير، ولا السماء
ولا الأرض ولا القمر ولا الظلماء ولا الآرام، ولا الفرقدين ولا الجوزاء،
إلا ذكره، وذلك حيث يقول :

في كل ناد منك روض شاء وبكل خد فيك جدول ماء
ولكل شخص هزة الفصن الذي
يا مطلع الأنوار إن بعشقني
وكفى أسا ألا سفير يبتنا
فيم التحمل في زمان هزني
فغيرت الا من قناع كابة
فإذا مررت بمهد لشيبة
جالت بطرقي للصباية عمرة
ورفت كفني بين طرف خاشع
ويسقط في الغراء خدي ذلة
متسللاً ألا لمصرع سيد
لا والذي أعلقت من تقدسيه
وخررت بين يديه أعلم أنه
لا هزني أهل وقد حل الردى
في حيث يذكر ورد ذلك المحجلي
وكفى اكتساباً أن تحيط يد البلى
فطالما كان تزيح بظله
نفت على حكم البشاشة نورها
تنفرج الغماء عنه وكأنه
قمر يمزق شملة الظلماء

فمضى ينوء بأنقل الأعباء
ويمرن طوراً رنة الورقاء
وتفجرت في وجنة عن ماء
فكفاك شهرة سُود وعلاء
حسناً ونملاً ناظر العلياء
نسقى هناك قلادة الجوزاء

قاسمت فيه الرزء أكرم صاحب
يهفو كما هفت الأراكة لوعة
عجبأ لها وقدت بصدرى جمرة
ولعن تراءى الفرقدان بنا معاً
فلطالما كنا نروق المحظى
يزهى بنا صدر الندى كأننا

أما الغزل في شعره فكثير، ومنه يخاطب محبوبة له :
يا رب ليل يه
وكأنه من وصف شعرك
تهل مزننة دمعتي
فيه ويندي نور ذكرك
أنسيت فيه وقد بكيت
عقيق خدك در ثغرك
وشرقت فيك بعيرة
فكأنما ينفض عن
قد وردتها نار هجرك
حب لها رمان صدرك
ولرب ليل قد صدع
ولهوت فيه بسدة
تتدى شفائق وحيثي
لك به وتتفتح ريح نشرك
وقد استدار بصفحتي
سوسان جيدك طل درك
حيث الحباية دمعة
تجري بوجة كأس خمرك
وتهز منك فتشتني
بكضيب قدك ريح سكرك
وتعب من رجراج رد
فلک موجة في شط خصرك

وقد تناول ابن خفاجة في شعره الأغراض التي كانت تدور في
محيط الناس، وعرض إلى ما عرض له شعراء عصره، ولكن الميدان
الذى جال فيه، فنال قصب السبق وغداً فارس الحلبة لا يشق له فيه
غبار ولا يزاحم في مضمار، هو ميدان الوصف الذي انقاد له زمامه
ودانته شوارده وأوابده، وهو ينزع عن قوس الطبيعة في سائر أغراضه
الشعرية، فإذا مدح يصف الثناء بأنه رطب وأن الصباح ضحل فكشف

عن ثياب البيض وأن ممدوحه وضاح المحيا، وإذا رثى لا ينسى الوصف
حتى في موقف البكاء فيقول :

في كل ناد منك روض شاء وبكل حد فيك جدول ماء

وهو في أسلوبه كثير التصنّع، لغزمه بالصور البينية من تشبيه واستعارة
وكتابه وألوان بديعية، فقد كان مولعاً بذلك حتى جاء أكثر شعره يختال
في مطاراتف التشبيه والمجاز، وربما جره الإيمان في هذا إلى غموض
المعنى واستغراق الفكر، وكان يعني باصطفاء الألفاظ الجزلة والعبارات
الفعالة والتركيب الرصين، ويتقدّم المعنى العميق بعيد الغور ويتجنّح
إلى المبالغة في أكثر صوره الشعرية.

وقد فتن ابن خفاجة بحب الطبيعة وكان لمشاهدتها أثر عظيم في
نفسه، فوصفها وأبدع في الوصف وعرض صوراً رائعة حافلة بالمتافي
الأبيقة والأفكار الرشيقية، بل إننا نراه يغوص إلى الأعمق ويستخرج
درر المعاني ولآلئها، ويذكر من الأوصاف ما يعد به شاعر الطبيعة
غير منازع ووصاف معالمها غير ملائق.

تجاوب مع الطبيعة في رقتها وجمالها، فجاء أسلوبه عذباً رائعاً
واختار الألفاظ الناعمة الملمس والأساليب السهلة الرشيقية والعبارات
المشرقة الأبيقة، وعرف عن الغريب عزوفاً تاماً، فلستنا نجد في قصيدة
كلمة يكدى لها الذهن ويستغلق معناها على الفهم.

وهو كثير التصنّع في أسلوبه يتبع ألوان البيان من تشبيه واستعارة
حتى لا يكاد يخلو بيت من شعره من هذه الصور البينية الرائعة التي
تسترعى الأنظار وتستلتفت الخواطر بأناقتها وجمالها، فليس لديه سوى
الشرف من التشبيهات والطريف من الاستعارات.

نثر ابن خفاجة :

لابن خفاجة قطع ثانية سلك فيها مسلك الشعر من حيث الوصف والخيال، وسار في أسلوبه على نحو أسلوب ابن العميد والهمذاني، من حيث اتباع السجع والتعمل، والقصد إلى ذكر أنواع البيان والبديع، وكأن نثره شعر مشور.

يقول وهو من الكتابة المتممة المملوقة بالألقاظ المختارة والتشبيهات الكبيرة : « ذهبت في لمة من الأخوان ، تستيق إلى الراحة ركضاً ، ونطوي للنفراج أرضاً ، فلا تدفع إلا إلى غدير نمير ، قد استدارت منه في كل قراره سماء سحائبها غماء ، وانساب في كل ثلاثة حباب ، جلده حباب ، فرددنا بذلك الأباطح تهادي أغصانها ، وتضاحك تضاحك الأغصان . وللنسم أثاء ذلك المنظر الوسيم ، تراسل مشى ، على بساط وشي ، فإذا مر بقدير نسجه درعاً ، وأحكمه صنعاً ، وإن عشر بجدول شطب منه نصلاً ، وأخلصه صقلأً ، فلا ترى إلا بطاحاً مملوقة سلاحاً ، كأنما انهرمت هناك كنائب ، فالقت بما ليسه من درع مصقول ، وسيف مسلول ، فاحتلتنا قبة عضراء ممدودة أشطان الأغصان ، سندسية رواق الأوراق . وما زلتا نتحف منها ببرد ظليل ، وتشمل عليه براء نسيم عليل ، ونجيل النظر في نهر صقيل ، صافي لجين الماء ، كأنه مجرة سماء ، مؤتلق جوهر العباب ، كأنه من ثور الأحباب . وقد حضرنا مسمع يجري مع التفوس لطافة ، فهو يعلم غرضها وهوها ويفني لها مفترحها ومنها ، فصيح لسان النقر .

ومن ذلك قوله لمن كانت بينه وبينه مقاطعة : « أطل الله بقاء سيدي ، التبيهة أوصافه ، الزيبة عن الاستثناء ، المرفوعة إمارته ، الكريمة بالابداء ما انحدفت ياء يرى للجزم ، واعتلت واو يغزو بموضع الضم . كثبت عن ود قديم هو الحال لم يتحققها انتقال . وعهد كريم ، هو الفعل ، لم يدخله اعتلال ، والله يجعل هاتيك من الأحوال الثابتة الازمة .

ويحسم هذا بعد من الحروف الجازمة. وإنما استنهض طولك إلى تجديد
عهلك بمعطالية الف الوصل، وتمدبة فعل الفصل، وعدولك عن باب
الف القطع، إلى باب الوصل والجمع. حتى تسقط لدرج الكلام بيتا
هاء السكت..

ابن سهل الأندلسي

٦٤٩-٦٠٩

هو إبراهيم بن سهل الإسرائيلي الأشبيلي الشاعر المشهور، ولد سنة ٦٠٩هـ، وتوفي غريباً مع حاكم مدينة سبتة سنة ٦٤٩هـ. وكان يهودياً ثم أسلم، سكن آباءه الأندلس منذ زمن بعيد، ثم صاروا من ذوي الجاه والشأن، وقد اتصل ابن سهل ببعض الأمراء فكان كاتباً لصاحب سبتة، وتعلم اللغة والأدب على أشهر علماء زمانه، ومنهم أبو علي الشطوبين — ولد بإشبيلية سنة ٥٥٦٢هـ وتوفي بها سنة ٦٤٥هـ وهو من أكبر علماء التصوّر واللغة — ثم أخذ في معالجة الشعر حتى برع فيه، فسموه شاعر إشبيلية ووشاحها، وبعد أن أسلم مدح الرسول بقصيدة من أشهر قصائد: وقد عاش ابن سهل في أواخر أيام العرب في الأندلس، أيامبني هود والمرابطين والدولة الحلة في الزوال؛ ولكن العلوم والأدب والتزف قد دب في كل ناحية من نواحيها العقلية والاجتماعية وتمكنت الأهواء من النفوس. وهذه البيئة أصلح ما تكون لشاعر مثل ابن سهل؛ لأنه كان كأكثر شعراء زمانه ماجناً امتلاً نفسه بمعاني الغزل.

وأغلب الأغراض في شعر ابن سهل الغزل والرثاء والمدح والوصف وله أبيات في التهانى وأبيات في الزهد؛ ولكن أكثر شعره في الغزل.

ولقد حام حول كل ما قيل في ذلك، ولم يدع صغيرة ولا كبيرة مما خطر بمنه وأملأه عليه خياله؛ أو مما عرف في شعر غيره وجادت به أحيلة الشعراء في ذلك إلا ذكره في شعره، وكساه لفظاً من عنده، ونظمه في كلامه حتى لقد يجد العاشق في شعره كل معنى يدب في نفسه، أو شعور يحسه، أو صورة لمن يحبه.

أما معانيه فأكثرها مأخوذة من كلام غيره. وهي أجمع للأوصاف الظاهرة منها للمعاني النفسية؛ كتشيبة حبيبه بالغزال، أو بالغصن التضير، وعيونه بالسيوف، والحرارحدود بالجمر. قوله : إن الحب علمه السهد، وجعله يألف السلام، كما قال :

أهواه حتى العين تألف سهدنا فيه وتطرف بالسلام جوارحي

ويقول :

وعذب بالي نعم الله باله وأشهدني لا ذاق طعم الشهد
ويرق في كلامه فيدخل إليك أنه يتكلم بقلبه، وأن ملاقة حبيبه

هي كل أمنية له، ويلتمس له ذنباً كي يجد وسيلة لعناته. فيقول :

تدنيك زور الأمانى مني وتأى طلاما
كأنسى حسن أغنى رضاك أبغى الشياجا
حتى إذا كان ذنب فتح للعذر يابسا
ظمئت منك لوعد فكان وردي الشرابا
لا خاب سؤلك أما سؤلي لديك فخابا

ولقد يمعن في الخيال فتخليه الألوان بيهاتها، وتملاً نفسه المناظر الجميلة كقوله في وصف الأصيل :

انظر إلى لون الأصيل كأنه لا شك لون مودع لفارق
والشمس تنظر نحوه مصفرة قد خمسست^(١) خدا من الإشراق

(١) خمس الوجه : خدشه ونظمه.

خجل الصبا ومداعع العشاق
 كالخمر خرت من أنامل ساق
 سقطت أوان غروبها محمرة
 ومن بكاه في شعره قوله :
 أبىت أهتف بالشكوى وأشرب من
 حتى أخيل أني شارب ثم
 ومن معانه وأخيته قوله :
 بخدء لفؤادي نسبة عجب كلامها أبدا يدمي من النظر
 أما أسلوبه فيكاد يكون من السهل الممتع، ولا يؤخذ عليه إلا بعض
 عبارات، ذهب فيها مذهب التكلف في الاستعارة وصورها، محاكيًّا
 بذلك بعض كبار الشعراء كقوله في الرثاء :
 لن سود الأفاق يوم حمامه لقد يضط صحف الحساب فضائله
 وهكذا تجده يمزج السهولة بالتصنع. ولكنه بعد كل هذا شاعر
 مغطط على سلامة الأسلوب ورقة الألفاظ، كما تجد ذلك في موشحاته
 الشهيرة التي تغير من أجمل الموشحات. وربما أغرب من الخيال،
 كما شبه ابتسام حبيبه له وهو يكفي بالرود المنور تمعظه السماء،
 وكأن القطر بكاء في مأتم، وكان الروض في جماله عرس جمع أنواع
 السرور إذ يقول في موشحته :
 كلما أشکوه وجدي بسما كالربا بالعارض المت Burgess
 إذ يقيم القطر فيها مأتما وهي من بهجتها في عرس

ابن حزم الشاعر :

قد سبق أن تحدثنا عن ابن حزم الفيلسوف المتكلّم، ولا يعرف الأدباء عنه أنه كان شاعراً مجيداً، قال عنه التسيمي المراكشي أبو محمد محيي الدين عبد الواحد بن علي في كتابه تاريخ الأندلس المسمى « المعجب في تلخيص أخبار المغرب » :

سكن ابن حزم هو وأبوه قرطبة، وكان أبوه من وزراء المنصور محمد ابن أبي عامر ومن وزراء ابنه المظفر بعده، وكان هو المدير لدوتهما، وكان ابنه أبو محمد الفقيه وزيراً لعبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار ابن الناصر الملقب بالمستظر بالله أخي المهتمي، ثم إنه نبذ الوزارة واطرحتها اختياراً وأقيل على قراءة العلوم وتقيد الآثار والسنن فتال من ذلك ما لم يبن أحد قبله بالأندلس وكان على مذهب الإمام الشافعى أقام على ذلك زمناً ثم انتقل إلى القول بالظاهر وأفروط في ذلك حتى أربى على أبي سليمان داود الظاهري وغيره من أهل الظاهر، وله مصنفات كثيرة جليلة القدر شريقة المقصد في أصول الفقه وفروعه على مذهب الذي يسلكه ومنذمه الذي يقتله، ومذهب داود بن علي بن خلف الأصبهاني الظاهري ومن قال بقوله من أهل الظاهر ونقاوة القياس والتعليل ومبين تصانيفه في الفقه والحديث والأصول والتحل والصلل وغير ذلك من التاريخ والنسب وكتب الأدب والرد على المخالفين نحو من أربعين مجلداً تشمل على قريب من ثمانين ألف ورقة، ولا يقاربه في ذلك إلا أبو جعفر محمد بن جعفر الطبرى فإنه أكثر أهل الإسلام تصنيفاً، فقد ذكر أبو محمد عبدالله بن محمد بن جعفر الفرغانى في كتابه المعروف بالصلة وهو الذي وصل به تاريخ أبي جعفر الطبرى الكبير أن قوماً من تلاميذ أبي جعفر لخصوا أيام حياته منذ بلغ الحلم إلى أن توفي في سنة ٣١٠ هـ وهو ابن ست وثمانين سنة ثم قسموا عليها أوراق مصنفاته فصار لكل يوم أربع عشر ورقة وهذا لا يتهاجم المخلوق إلا بفضل الله.

ولأبي محمد بن حزم بعد هذا نصيб واخر من علم النحو واللغة
وقد صالح من قرض الشعر وصناعة الخطابة، فمن شعره :
هل الدهر إلا ما عرفنا وأدركنا فجائعه تبقي ولذاته تفني
إذا أمكنت فيه مسيرة ساعة
تولت كمر الطرف واستخلفت حزنا
نود لديه أنتا لم نكن كنا
حصلنا على هم واثم وحسرة
وفات الذي كنا نقربه عينا
خنين لما ولى وشغل بما أتى
وغم لما يرجى فيشك لا يهنا
إذا حققته النفس لفظ بلا معنى
كأن الذي كنا نسر بكونه

وله من قصيدة طويلة :

ولكن عيبي أن مظلumi الغرب
لجد على ما ضاع من ذكري النهب
ولا غرو أن يستوحش الكلف الصب
فحينئذ يبدو التأسف والكره
فكم قائل أغفلته وهو حاضر
هناك يدرى أن للبعد قصة
ولو أتني من جانب الشرق طالع

أنا الشمس في جو العلوم متبرة
ولو أتني من جانب الشرق طالع
ولى نحو أكناf العراق صيابة
فإن ينزل الرحمن رحلي بينهم
وقال الحق والصدق إنني

ومنها في الاعتذار عن مدحه لنفسه :

وليس على من بالنبي إثتس ذنب
حفيظ عليهم ما على صادق عتب

ومن المختار له قوله :

فالدهر ليس على حالين يترك
وتارة في ذرى تاج على ملك

ومن ذلك قوله :

لمن أصبحت مرتجلا بشخصي فروحى عندكم أبداً مقى
ولكن للعيان لطيف معنى له سأل المعاينة الكليم

ومن أجود ما أحفظ له بيان قالهما في رجل نمام :
أنم في المرأة في كل ما درى وأقطع بين الناس من قصب الهند
كأن المنايا والزمان تعلمها تحيله في القطع بين ذوي الود
وقد ولد الأربعاء بعد صلاة الصبح وقبل طلوع الشمس آخر يوم
من شهر رمضان سنة ٣٨٤ وتوفي في شعبان سنة ٤٥٦، وحسبه أنه
أشهر علماء الأندلس وأكثرهم ذكرًا في مجلس الرؤساء وعلى السنة
العلماء، وذلك لمخالفته مذهب مالك بالمغرب واستشهاده بعلم الظاهر،
ولم يشهر به قبله أحد.

ابن عبدون الشاعر :

كان من ملوك الطوائف^(١) ابن الأقطس الملقب بالمنظفر، وكان له
ابن اسمه عمر يكنى أبياً محمد لقب بالمتوكل على الله كان يملك
بطليوس وأعمالها وبابر وشترين والأشيونة، وكان المنظر هذا أحرص
الناس على جمع علوم الأدب خاصة من النحو والشعر ونواذر الأخبار
وعيون التاريخ، انتخب مما اجتمع له من ذلك كتاباً كبيراً ترجمه
باسمه على نحو الاختيارات وعيون الأخبار لابن قتيبة، وجاء هذا الكتاب
في نحو من عشرة أجزاء ضخمة، وكان للمتوكل قدم راسخة في
صناعة المنطق والثرث مع شجاعة مفرطة وفروسيّة تامة وكان لا يضي
الغزو ولا يشغل عنه شيء، وانصلت مملكته إلى أن قتله المرابطون أصحاب
يوسف بن تاشفين وقتلو ولديه : الفضل والباس صبراً، ضربوا أنفاسهم
في غرة سنة ٤٨٥ هـ وكانت أيامبني المنظر بمغرب الأندلس أعياداً
ومواسم، وكانوا ملحاً لأهل الأدب، خلدت فيهم قصائد شادت بما ترجم
وأبقت على غير الدهر حميد ذكرهم، وفيهم يقول الوزير الكاتب

(١) راجع ٤١ المعجب للمراكشي.

ذُو الْوَزَارَتِينَ أَبُو مُحَمَّدِ عَبْدِ الْمُجِيدِ بْنِ عَبْدِوْنِ مِنْ أَهْلِ مَدِينَةِ يَابْرَةِ
 قَصِيْدَتِهِ الْفَرَاءُ، لَا بَلْ عَقِيلَتِهِ الْعَذَراءُ، الَّتِي أَزَرَتْ عَلَى الشِّعْرِ، وَزَادَتْ
 عَلَى السُّحْرِ، وَفَعَلَتْ فِي الْأَلْيَابِ فَعْلَ الْخَمْرِ، فَجَلَتْ عَنْ أَنْ تَسَامِي
 وَأَنْفَقَتْ مِنْ أَنْ تَضَاهِي فَعْلَ لَهَا النَّظِيرِ، وَكَثُرَ إِلَيْهَا الْمُشَيرِ، وَتَساوَى
 فِي تَفَضِيلِهَا وَتَقْدِيمِهَا بِأَقْلَلِ وَجْهِرِ، فَلَلَّهُ هِيَ مِنْ عَقِيلَةِ خَدْرِ قَرْبَتِ
 بَسْهُولَتِهَا حَتَّى أَطْعَمَتْ، وَبَعْدَ حَتَّى عَزَّتْ فَامْتَحَتْ، وَهِيَ مَشْهُورَةُ
 لَصْحَةِ مِيَانِيهَا، وَرِشَاقَةِ الْفَاظُلَّهَا وَجُودَةِ مَعَايِّهَا. وَسَلَكَ فِيهَا أَبُو مُحَمَّدٍ
 رَحْمَهُ اللَّهُ طَرِيقَةً لَمْ يَسْقُ إِلَيْهَا، وَوَرَدَ شَرْعَةً لَمْ يَزَّاحِمْ عَلَيْهَا فَلَذِلْكَ
 قَلْ مُثْلَهَا لَا بَلْ عَدْ، وَعَزْ نَظِيرَهَا فَمَا تَوْهَمْ وَلَا عَلِمْ، وَهِيَ :
 الدَّهْرُ يَفْجُعُ بَعْدِ الْعَيْنِ بِالْأَثْرِ فَمَا الْبَكَاءُ عَلَى الْأَشْيَاءِ وَالصُّورِ
 أَنْهَاكَ أَنْهَاكَ لَا آلُوكَ مَوْعِدَةُ
 عَنْ نَوْمَةِ بَيْنِ نَابِ الْبَيْتِ وَالظَّفَرِ
 فَالدَّهْرُ حَرْبٌ وَإِنْ أَبْدَى مَسَالَةً
 وَالْبَيْضُ وَالْسَّوْدُ مَثْلُ الْبَيْضِ وَالسَّوْدِ
 يَدُ الضَّرَابِ وَبَيْنَ الصَّارِمِ الْذَّكْرِ
 وَلَا هَوَادَةُ بَيْنَ الرَّأْسِ تَأْخِذُهُ
 فَمَا صَنَاعَةُ عَيْنِيهَا سَوْىِ السَّهْرِ
 فَلَا تَغْرِنُكَ مِنْ دُنْيَاكَ نَوْمَهَا
 مِنْ الْبَيْالِيِّ وَخَاتَهَا يَدُ الْغَيْرِ
 مَا لِلَّيَالِيِّ أَقْسَالُ اللَّهِ عَزَّزَتِهَا
 كَالْأَيْمَنُ ثَارَ إِلَى الْجَانِيِّ مِنْ الْزَّهْرِ
 نَسَرَ بِالشَّيءِ لَكُنْ كَيْ نَفْرَبَهُ
 لَمْ تَقِنْ مِنْهَا وَسَلَ ذَكْرَكَ مِنْ خَيْرِ
 كَمْ دُولَةً وَلَيْتَ بِالنَّصْرِ خَدْمَتَهَا
 هَوْتَ بِدَارَا وَقُلْتَ غَرْبَ قَاتِلَهُ
 وَاسْتَرْجَعْتَ مِنْ بَنِي سَاسَانِ مَا وَهَبْتَ
 وَالْأَحْفَتَ أَخْنَهَا طَسْمَاً وَعَادَ عَلَى
 وَمَا أَفَلَتْ ذَوِي الْهَيَّاَتِ مِنْ يَمِنِ
 وَكَانَ غَضْبَاهُ عَلَى الْأَمْلَاكِ ذَا أَثْرِ
 بَنِي الْمَظْفَرِ وَالْأَيَّامِ لَا نَزَلتْ
 وَلَمْ تَدْعُ لَبَنِي يَوْنَانَ مِنْ أَثْرِ
 عَادَ وَجَرَهُمْ مِنْهَا نَاقْضُ الْمَرْرِ
 سَحْقًا لِيَوْمَكَمْ يَوْمًا وَلَا حَمْلَتْ
 وَلَا أَجَارَتْ ذُوِي الْغَيَّاَتِ مِنْ مَضَرِّ
 مَنْ لَلَّأَسْرَةَ أَوْ لَلَّأَعْنَةَ أَوْ
 مَرَاحِلَ وَلَوْرَى مِنْهَا عَلَى سَفَرِ
 أَطْرَافَ أَسْنَهَا بِالْعَيْ وَالْحَصْرِ
 وَطَوَقَتْ بِالْمَنَابِيِّ السَّوْدَ بِبَضْعِهِمْ
 بِمَثَلِهِ لَيْلَةَ فِي غَابِرِ الْعَمَرِ
 فَاعْجَبَ بِذَكَرِهِ وَمَا مِنْهَا سَوْىِ الْذَّكْرِ

من للسماحة أو للنفع والضرر
 أو قمع حادثة تعي على القدر
 وحسرة الدين والدنيا على عمر
 تعزى اليهم سماحة لا إلى المطر
 عنى مضى الدهر لم يربع ولم يحر
 حتى التمتع بالأصال والبكر
 قلوبنا وعيون الأئم الراهن
 على دعائم من عز ومن ظفر
 فلم يرد أحد منها على كدر
 عنه استطارات بين فيها ولم تقر
 هذى الخلقة يا الله في سدر
 منه بأحلام عاد في خطى الحضرة
 منهم بأسد شرارة في الوعى صبر
 ولم يكن ليها يفضى إلى سحر
 وأخفقت السن الآثار والسير
 ولم يكن وردها يدعو إلى صدر
 سلام مرتفق للأجر متظر
 والدهر ذو عقب شنى وذو غير
 على الحسان حصى الياقوت والدرر
 على المسامع ما لم يقض من وطر

من للبراعة أو من للبراعة أو
 أو دفع كارثة أو ردع رادفة
 وب السماح وويب الباس لو سلما
 سقت ثرى الفضل والعباس هامية
 ثلاثة كنوات الدهر متذ ناؤا
 ومر من كل شيء فيه أطييه
 أين الجلال الذي غضت مهابته
 أين الإباء الذي أرسوا قواعده
 أين الوفاء الذي أصفع شرائعه
 كانوا رواسي أرض الله متذ مضوا
 كانوا مصايحها فعد خبوا عثرت
 كانوا شجى الدهر فاستهورتهم خدع
 ويل أمه من طلوب التأر مدركه
 من لي ولا من بهم ان أفلمت نوب
 من لي ولا من بهم ان عطلت سنن
 من لي ولا من بهم ان طبقت محن
 على الفضائل إلا الصبر بعدهم
 يرجو عسى وله في اختها أمل
 قرطت آذان من فيها بفاضحة
 مطاعة الأمر في الباب قاضية

وكان ابن عبدون يكتب للمتوكل على الله ونم حالي معه، وهو
 أحد كتاب المغرب، ومن جمع منهم فضيلة الكتابة والشعر على أنه
 مقل من النظم لم يثبت له منه إلا يسير النسبة إلى غزارة آدابه ونهاية
 قوله، وحکى عن نفسه رحمة الله أنه كان بين يدي مؤديه وسن
 إذ ذاك ثلاث عشرة سنة، فعن للمؤدب أن قال (الشعر خطبة خسف)

وجعل يردد هذا القول؛ قال الوزير ابن عبدون فكتب في لوحٍ مجيزاً
له : لكل طالب عرف، ثم خطر لي بيت ثان وهو :
للشيخ عية عيب وللفتى ظرف ظرف

قال: فنظر إلى المؤدب وقال: يا عبد المجيد ما الذي تكتب فأريته
اللحوح. فلما رأه طمني وعرك أذني وقال لا تشغل بهذا، وكتب البيتين
عنه، ومن غزارة حفظ ابن عبدون ما حدث الوزير أبو بكر محمد
ابن عبد الملك ابن زهر قال: بينما أنا قاعد في دهليز دارنا وعندي
رجل ناسخ أمرته أن يكتب لي كتاب الأغاني فجاء الناسخ بالكريensis
التي كتبها قلت له: أين الأصل لأقابلك معك به؟ قال: ما أتيت
به معي فيماينا أنا معه في ذلك إذ دخل الدهليز علينا رجل بد الهيئة
عليه ثياب غليظة أكثرها صوف وعلى رأسه عمامة قد لأنها من غير
إنقاذ لها، فحسبته لما رأيته من بعض أهل الباشية، فسلم وقد وجد وقال
لهم: يا بني استأذن لي على الوزير أبي مروان، قلت له، هو نائم
هذا بعد أن تكلفت جوابه غاية التكليف، حملني على ذلك نزوة الصبي
وما رأيت من خشونة هيبة الرجل، ثم سكت عن ساعته وقال ما
هذا الكتاب الذي بأيديكم؟ قلت له ما سؤالك عنه؟ فقال أحب
أن أعرف اسمه فاني كنت أعرف أسماء الكتب، قلت هو كتاب
الأغاني فقال إلى أين بلغ الكتاب منه؟ قلت بلغ موضوع كذا وجعلت
أتحدث معه على طريق السخرية به والضحك على ما قاله فقال: وما
لكتابك لا يكتب؟ قلت طلب منه الأصل الذي يكتب منه لأعراض
به هذه الأوراق فقال لم أجيء به معي فقال: يا بني خذ ريشتك
واعرض قلت بماذا وأين الأصل قال: كنت أحفظ هذا الكتاب في
مدة صباعي قال: فنيست من قوله فلما رأى تبسّمي قال يا بني أمسك
على. قال: فامسكت عليه وجعل يقرأ فوالله إن أخطئوا ولا غاء
قرأ هكذا نحواً من كراسين ثم أخذت له في وسط السفر وأخرجه
فرأيت حفظه في ذلك كله سواء، فاشتد عجبي وقمت مسرعاً حتى

دخلت على أبي فأنجيرته بالخير ووصفت له الرجل. فقام كما هو من فوره، وكان ملتفاً برداء ليس عليه قميص، وخرج حاسر الرأس حافي القدمين لا يرقق على نفسه وأنا بين يديه، وهو يوسعني لوماً حتى تراهم على الرجل وعائقه وجعل يقبل رأسه ويديه ويقول : يا مولاي اعذرني فواه ما أعلمته هذا الخلف إلا الساعة وجعل يسبني والرجل يخضض عليه ويقول : ما عرفني وأي بقول هبه ما عرفك فما عذره في حسن الأدب، ثم أدخله الدار وأكرم مجلسه وخلال به فتحدثا طويلاً، ثم خرج الرجل وأي بي يديه حافياً حتى بلغ الباب وأمر بدارته التي يركبها فأسرجت وخلف عليه ليركبها ثم لا ترجع إليه أبداً. فلما انفصل قلت لأبي : من هذا الرجل الذي عظمته هذا التعظيم قال لي استك وبحلك هذا أديب الأندلس وإمامها وسيدها في علم الأداب هذا محمد عبد المجيد بن عبدون، أيسير محفوظاته كتاب الأغاني وما حفظه في ذكاء خاطره وجودة قريحته.

أبو بكر بن زهر الشاعر :

أديب الأندلس وشاعرها وعالماها، روى له شعر كثیر، منه:
الشیب والغیب لا والله ما اجتمعوا
لاح المشیب على رأسي فقلت له يا ساقی الكاس لا تعدل إلى بها
فقد هجرت الحمايا والحميم مما

ومن شعره :

لاني نظرت إلى المرأة إذ جلست
فانكرت مقلتي اي كلاما رأي
وكنت أعرف فيها شيئاً لست أعرفه
وله شعر كثير أجاد في أكثره. وأما المoshجعات خاصة فهو الامام
المقدم فيها، وطريقته هي الغاية القصوى التي يجري كل من بعده
اليها، وهو آخر المجيدين في صناعتها.

بنو عباد في إشبيلية ونهاية الشعر في دولتهم

١ — عاشت إشبيلية في عهد ملوك الطوائف تحت حكم بنى عباد، وأول من تولاها منهم بعد بنى جهور هو أبو القاسم محمد بن اسماعيل ابن عياد اللخمي وقد أجمع أهل إشبيلية على اختياره لما يعلمهونه من حصافة عقله وعلو همة وحسن تدبيره، يقول المراكشي في كتابه « المعجب »^(١) : تهيب أبو القاسم الاستبداد، وخاف عاقبة الانفراد، وأوى ذلك (أى الإمارة) إلا على أن يختاروا له من أنفسهم رجالاً سماهم لهم، يكونون له أعونانا ووزراء، وشركاء لا يقطع أمراؤ دونهم ولا يحدث حدثاً إلا بمشورتهم^(٢) ، ومنهم: الوزير أبو بكر محمد ابن الحسن الزبيدي، ومحمد بن بريم الألهاني، وأبو الأصين عيسى ابن حاجاج الحضرمي، وأبو محمد عبدالله بن علي الهازني وسواهم، ففعلوا ذلك، وأجابوه إلى ما أراد؛ وظل يدير الأمور إلى أن مات سنة ٤٣٩ هـ.

٢ — فولى بعده ابنه أبو عمر وعباد بن محمد بن اسماعيل بن عياد المعتصد بالله، فسار على نهج أبيه في إثمار الإصلاح، وحسن التدبير، وبسط العدل، ثم استبد بالأمور وحده، وكان شهماً صارماً حذيد القلب شجاع النفس بعيد الهمة ذا دماء وواته مع هذا المقاصير فلم يزل يعمل في قطع هؤلاء الوزراء واحداً واحداً فنتم من قتلهم صبراء، ومنهم من نفاه عن البلاد ومنهم من أمانه عمولاً وقرأءاً إلى أن تم له ما أراده من الاستبداد بالأمر ولقب بالمعتصد بالله. ولم يزل المعتصد يدوخ المماليك وتدين له الملوك من جميع أقطار الأندرس، ويبلغ من قسوته أن قتل ابنه وولي عهده « اسماعيل » صبراً، وظل كذلك حتى توفي عام ٤٦٤ هـ.

(١) المعجب من ٤٩.

(٢) هذه هي مجالس الوزراء في الدول العربية في الديمقراطية.

٣ — وقام بالأمر بعده علي إشبيلية ونواحيها ابته أبو القاسم محمد ابن عباد بن اسماعيل بن عباد الملقب بالمعتمد على الله.

حكم المعتمد :

وكان المعتمد هذا يشبه بهارون الواقت بالله من ملوكبني العباس: ذكاء نفس وغزارة أدب، وكان شعره كأنه الحل المنشرة، واجتمع له من الشعراء وأهل الأدب ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك الأندلس، وكان مقتضراً من العلوم على علم الأدب وما يتعلق به وينضم اليه وكان فيه مع هذا من الفضائل الذاتية ما لا يحصل كالشجاعة والبسخاء والحياء والتراة إلى ما يناسب هذه الأخلاق الشريفة، وفي الجملة فلا أعلم خصلة تحمد في رجل إلا وقد وهي الله منها أوفر قسم وضرب لها فيها بأوفى سهم، وإذا عدت حسنت الأندلس من لدن فتحها إلى أيامه فالمعتمد هذا أحدها بل أكبرها.

ولي أمر إشبيلية بعد أبيه وله سبع وثلاثون سنة واتفقت له المحنـة الكـبرـى بـخلـعـه وإـخـرـاجـه عنـ مـلـكـه فـيـ شـهـرـ رـجـبـ الكـائـنـ فـيـ سنـةـ ٤٨٤ـ فـكـانـ مـدـةـ وـلـايـهـ إـلـىـ أـنـ خـلـعـ وـأـسـرـ عـشـرـينـ سنـةـ كـانـ لـهـ فـيـ أـسـعـافـهاـ مـاـتـ أـعـيـاـ عـلـىـ غـيرـهـ جـمـعـهـ فـيـ مـائـةـ سنـةـ وـأـكـثـرـ مـنـهاـ.

وـكـانـ لـهـ هـمـةـ فـيـ تـحـلـيـدـ الشـاءـ وـابـقـاءـ الـحـمدـ وـكـانـ مـنـ جـمـلةـ شـعـرـاءـ الشـاءـ شـاعـرـ مـنـ أـهـلـ مـدـيـنـةـ مـرـسـيـةـ اـسـمـهـ عـبـدـ الجـلـيلـ بـنـ وـهـبـونـ كـانـ حـسـنـ الشـعـرـ لـطـيفـ الـمـأـخذـ حـسـنـ التـوـصـلـ إـلـىـ دـقـيقـ الـعـانـيـ،ـ أـنـشـدـ يـوـمـاـ بـيـنـ يـدـيـ الـمـعـتمـدـ بـعـضـ الـحـاضـرـينـ بـيـتـنـ لـعـبـدـ الجـلـيلـ بـنـ وـهـبـونـ قـالـهـماـ قـدـيـماـ قـلـ وـصـولـهـ إـلـىـ الـمـعـتمـدـ وـهـماـ :

قل الوفاء فـماـ تـلـقـاهـ فـيـ أـحـدـ ولاـ يـمـرـ لـمـخـلـوقـ عـلـىـ بـالـ وـصـارـ عـدـهـمـ عـنـقـاءـ مـغـربـةـ أوـ مـثـلـ مـاـ حـدـثـوـاـ عـنـ أـلـفـ مـثـقـالـ

فأعجب المعتمد بهما وقال : لمن هذان البيتان ؟ فقالوا : هما لعبد الجليل ابن وهبون . فقال المعتمد عند ذاك : هذا والله اللوم البحث ، رجل من خدامنا والمتقطعين إلينا يقول : أو مثل ما حدثوا عن ألف مثقال ، وهل يتحدث أحد عنا بأسوأ من هذه الأحداثة وأمر له بآلف مثقال ، فلما دخل عليه يشكروه ، قال له : يا أبا محمد ، هل عاد الخبر عيانا ؟ قال : اي والله يا مولاي ، ودعا له بطول البقاء ، فلما هم بالانصراف قال له : يا عبد الجليل الآن حدث بها لا عنها .

ولain عياد شعر كثير يرث في أكثره وأجاد . ومنه قوله :

على فتوادك قد ايل علىيل واغضم حياتك فالبقاء قليل
لو أن عمرك الف عام كامل ما كان حقاً أن يقال طويلاً
أكلذا يقود بك الأسى نحو الردى والعود عود والشمول شمول
لا يستويك الهم نفسك عنوة والكأس سيف في يديك صقيل
بالعقل تزدحم الهوس على الحشا فالعقل عندي أن تزول عقول
ومن شعره قوله في مملوكه له صغير كان يصرخ بين يديه أهداه
له صاحب طبلطة وكان اسم المملوك (سيفا) :
سموه سيفا وفيه عينه سيفان هنا لقتلي مسلول وهذا
أما كفت قتلة بالسيف واحدة حتى أتيح من الأجهان ثنان
أسرته وثاني غنج مقلته أسره فكلانا أسر عانى
يا سيف أمسك بمعرفه أسرى هو لا يتغنى منك تسريحا باحسان
ومن شعره الرشيق الخفيف الروح الذي حكم الماء سلامه والصخر
ملasse قوله في هذا المملوك :

تم له الحسن بالعذار واقتربن الليل بالنهار
اخضر في أبيض تيدي ذلك آسى وذا بهاري
فقد حوى مجلسي تماماً ان كان من ريقه عقاري
وبينا هو يوماً في قبة له يكتب شيئاً أو يطالع وعنه بعض كرامه ،

دخلت عليه الشمس من بعض الكوى الكائنة فيها فقامت جارية دونه
تسراه من الشمس فقال :
قامت لتجعجب ضوء الشمس قامتها عن ناظري حجيت عن ناظر الغير
علماً لم يدرك منها أنها قمر هل تكشف الشمس إلا صورة القمر
وكانت جارية من كرائمه قائمة على رأسه تسقيه والكأس في يدها
إذ لمع البرق فارتاعت فقال :
ربعت من البرق وفي كفها برق من الفهوة لمساع ؟
عجبت منها وهي شمس الضحى كيف من الأسوار تر ساع
وله مقاطع حسان كان يرتجلها في مجالس أنسه، وله شعر قاله
في أيام محنته.

وزراء المعتمد :

كان المعتمد لا يستوزر وزيراً إلا أن يكون أديباً شاعراً حسن
الأدوات، فاجتمع له من الوزراء الشعراء ما لم يجتمع لأحد قبله :
١ - فمن جملة وزرائه الوزير الأجل ذو الرياستين أبو الوليد أحمد
ابن عبد الله بن أحمد بن زيدون ذو الأدب البارع والشعر الرائع أحد
شعراء الأندلس المجيدين وفحولها المبرزين كان إذا نسب أنساك كثيراً،
وإذا مدح أزرى بزهير وإذا فخر أثاف على أمرى القيس. ومن جملة
مقاطعه التي شهد له بجودة الطبع واتقان الصنعة قوله :
يبني وبينك ما لو شئت لم يضع سر إذا ذاعت الأسرار لم يدع
يا يائعاً حظه مني ولو بذلك لي الحياة بحظي منه لم أبع
يكفيك أنك إن حملت قلبي ما لا تستطيع قلوب الناس يستطيع
ته أحتمل واستططل أصر وعزائم وول أقبل وقل أسمع ومر أطع
وهو القائل يخاطببني جهور، وكان قد وزر لهم قبل وزارته للمعتمد،

لأن أصله من مدينة قرطبة فناله منهم محن، فخرج عن قرطبة إلى
أشبيلية وأقلاً على المعتمد فعلت رتبته عنده، فكان يبلغه عن بني جهور
ما يسوؤه في نفسه وقرباته بقرطبة، فقال يخاطبهم :
بني جهور أحرقتمو بمحفاثكم فؤادي فما بال المدائح تعقد
تعدوني كالعتبر الورد إنما تفوح لكم أنفاسه حين يحرق
ومن نسيبه الذي يختلط بالروح رقة ويمتزج بأجزاء الهواء لطافة :
قصيدته التي قالها يتשוק ابنة المهدى : ولادة، وهي بقرطبة وهو
باشبيلية :

بتنم وبنا فما ابتلت جوانحنا شوقا إليكم ولا جفت ما آقينا
نکاد حين تاجيكم ضمائرا يقضى علينا الأسى لولا تأسينا
حال فقدكم أيامنا فقدت سودا وكانت بكم يبضا ليالينا
إذ جانب العيش طلق من تألفنا ومورد اللهو صاف من تصافينا

٢ — ومن وزراء ابن عباد كذلك الوزير أبو بكر محمد بن عمار،
ذو النفس العصامية والأداب الرفيعة، كان أحد الشعراء المجيدين على
طريقة أبي القاسم محمد بن هانئ الأندلسي، وربما كان أحلى مزيعاً
 منه في كثير من شعره، وله ديوان يدور بين أيدي أهل الأندلس، ولا
ترى شاعراً أندلسيّاً غاصراً إلا وكان مقدماً له مؤثراً لشعره، وربما
تعالى بعضهم فشيئه بأبي الطيب وهيبات، فمن قصائده المشهورة التي
أجاد فيها ما أراد : قصيده التي كتب بها من سرقسطة حين فرق
المعتضد بالله بينه وبين المعتمد لأنه شغله عن كثير من أمره فنفاه وهي :
علي ولا ما بكاء الغمايم وفي ولا ما نواح الحمام
وعني آثار الرعد صرحة طالب لثار وهر البرق صفحة صارم
وما ليست زهر النجوم حدادها لنغيري ولا قامت له في ماتم
وفي هذه القصيدة يقول مدح المعتضد بالله :
أبى أن يراه الله إلا مقلدا خميلة سيف أو حمالة غارم

ومن جيد نسيه قوله في قصيدة يمدح بها المعتمد بالله :
 لا تطلبوا في الحب عرا إنما عبداته في حكمه أحراوه
 قالوا أضر بك الهوى فأججهم يا جناده وجنتاً أضراره
 قلبي هو اختار السقام لجسمه زيناً فخلوه وما يختاره
 غير تعوني بالتحول وإنما شرف المهند أن ترق شفاره
 ووشيتم لفراق من آفته ولربما حجب الهلال سراره
 أحسبتكم السلوان هب نسيمه أو أن ذلك النوم عاد غراره
 إن كان أغيا القلب من حرب الجوى
 من قد قلبي إذ تنسى قده وأقام عندي إذ أطل عنده
 وأحاط بالليل بهيم حماره غصن ولكن النفوس رياضه
 سخرت بيبر الشم غرته كما وأزرت على آفاته أزاره
 تسري إلى يعرفه أشجاره ما زال ليل الوصول من فكاهه
 فسكت سكراً لا يفيق حماره حتى سقاني الدهر كأس فراقه
 ووقفت في مثل المحصب موقفاً للبين من حب القلوب جماره حيران أعمى الطرف وهو سماؤه
 وأذاب فيه القلب وهو قراره ولكن يذهب وهو مشواه فكم قد أحرقت عود القناب ناره
 إن ينهي أني أضعت لحبه قلبي وذاعت عنده أسراره فليهن قلبي ان شكاها وشاحه
 لسوارة فاقتصر منه سواره فوحشه لقد انتدب لوصفه بالجمل لولا أن حمسا داره
 بلد رمتني بالمنى أغصانه وتغجرت لي بالسدى أنهاره

ولابن عمار مع المعتمد أخبار عنى يجمعها أهل الأندلس. وابن عمار هو محمد بن عمار... وبكتى أبي يكر، أصله من شلب، من قرية من أعمالها يقال لها شبوس، وكان مولده ومولد أبياته بها كان خامل البيت ليس له ولا لاسلافه في الرياسة في قديم الدهر ولا حديثه

حظ ولا ذكر منهم بها أحد، ورد مدينة شلب طفلاً فشاً بها وتعلم الأدب على جماعة منهم أبو الحجاج يوسف بن عيسى الأعلم، ثم رحل إلى قرطبة فتآدب بها ومهر في صناعة الشعر فكان قصاراه التكبس به فلم يزل يجول في الأندلس مسترفاً، لا يخص ب مدحه الملوك دون غيرهم، بل لا يبالي من أخذ ولا من استعطاف من ملك أو سوقة وله في ذلك خبر ظريف، وذلك أنه ورد في بعض سفراته شلب لا يملك إلا دابة لا يجد علقها، فكتب بشعر إلى رجل من وجوه أهل السوق، فكان قدره عدد ذلك الرجل أن ملأ له المخالة شعيراً ووجه بها إليه، فرأها ابن عمار من أجل الصلات وأنسى الجوائز. ثم اتفق أن علت حال ابن عمار وساعده الجد ونهض به الحظ وانتهي أمره أن ولاه المعتمد على الله مدينة شلب وأعمالها، وأول ما أفضى الأمر إليه فدخلها ابن عمار في موكب ضخم وحملة عبيد وحش، وأظهر نخوة لم يظهرها المعتمد على الله حين ولها أيام أبيه المعتصد بالله، فكان أول شيء سأله عنه صاحبه صاحب الشعر، فقال ما صنع فلان أبو حي قالوا نعم، فأرسل إليه بمخالاته بعينها بعد أن ملأها دراهم وقال لرسوله قل له : لو ملأتها برأ لما لأتها تبراء، ولم يزل ابن عمار على الحال التي ذكرناها من التقلب في بلاد الأندلس للاستجادة والاستعطاف إلى أن ورد على المعتصد بالله أبي عمر فامتدحه بقصيدته المشهورة التي أولها :

أدر الزجاجة فالسميم قد اتبرى والنجم قد صرف العنان عن السرى
والصبح قد أهدى لنا كافوره لما استرد الليل منا العبرا
وفيها يقول يمدح المعتصد :
قداح زند المجد لا ينفك من نار الوعى إلا إلى نار القرى
يختار أن يهب الخريدة كاعبا والظرف أجرد والحسام مجورها
وفي هذه القصيدة يقول في وصف وقمة أوقعها المعتصد بالبرير :
شققت بسيفك أمة لم تعتقد إلا اليهود وإن تسموا بربا

أنمرت رمحك من رؤوس كماتهم
وخطبتك سيفك من دماء نحورهم
لما عهدت الحسن يليس أحلاً
من أبيات هذه القصيدة :

السيف أوضح من زياد خطبة في الحرب ان كانت يمينك متبرأ
ولما أنشد هذه القصيدة استحسنتها وأمر له بمال وثياب ومركباً،
وأمر أن تكتب في ديوان الشعراء، فكان ذلك، ثم تلقى بالمعتمد على
الله وهو إذ ذاك شاب لم تزل حالي معه تزيد، وأسباب خدمته له
تفوي وتأكد إلى أن صار ابن عمار الصق بالمعتمد في كل شيء،
وأدنى إليه من جبل وريده، كان المعتمد لا يستغنى عنه ساعة من
ليل ولا نهار، ثم اتفق أن ولـيـ المعتمـدـ على الله شـلـبـ منـ قـبـلـ أـيـهـ
فاستوزر ابن عمار هذا في تلك الولاية وسلم إليه جميع أموره، فغلب
عليه ابن عمار، فرأس المعتمد التفريق بينهما ونفي ابن عمار عن بلاده،
فلم يزل ابن عمار مغترباً في أقصى بلاد الأنديس إلى أن توفي المعتمد
بالله، فاستدعاه المعتمد وقربه أشد تقريب حتى كان يشاركه فيما لا
يشترك فيه الرجل أخاه ولا أباه، وله معه أيام كونهما بشتب أخبار
طريفة، وذلك أن المعتمد استدعاه ليلة إلى مجلس أنسه على ما كانت
العادة جارية به، إلا أنه في تلك الليلة زاد في التحقيق به والبره على
المعتمد، فلما جاء وقت اليوم أقسم المعتمد عليه لتضعن رأسك معي
على وساد واحد، فكان ذلك. قال ابن عمار فهتف بي هاتف في
النوم يقول : لا تغير أيها المسكون انه سيقتلك لو بعد حين، قال :
انتبهت من نومي فرعاً وتعودت ثم عدت فهتف بي الهاتف على حالته
الأولى، فانتبهت ثم عدت فسمعته ثلاثة فتجزرت من أثوابي والتفت
في بعض الحصر وقصدت دهليز القصر مسخفيأ به وقد أزممت على
أني إذا أصبحت خرجت مستخفياً حتى آتي البحر فاركه واقتضي بلاد
العدوة فاكون في بعض جبال البرير حتى أموت، فانتبه المعتمد فاقتنعني
فلم يجدني فأمر بطلبي فطلبته له في نواحي القصر، وخرج هو بنفسه

يتوكاً على سيفه والشمعة تحمل بين يديه، فكان هو الذي وقع على، وذلك أنه أتى دهليز القصر يفتقد الباب هل فتح فوق بذاء الحصیر الذي كنت فيه فكانت مني حرکة فأحس بي وقال ما هذا الذي يتحرك في هذا الحصیر، ثم أمر به فنقض فخرجت عرياناً، ليس علي إلا السراويل، فلما رأني فاضت عيناه دموعاً، وقال : يا أبا يكر ما الذي حملك على هذا، قلم أر بدأ من أن صدقته فقصصت عليه قصتي من أولها إلى آخرها فضحك، وقال : يا أبا يكر أضخأت أحلام هذه آثار الخمار ثم قال لي : وكيف أغلقك ؟ أرأيت أحداً يقتل نفسه، وهل أنت عندي إلا كنفسي، فشكراً له ابن عمّار ودعا له بطول البقاء وتناسى الأمر فسيه ومررت على ذلك الأيام والليالي.

ولما أقضى الأمر إلى المعتمد سأله ابن عمّار ولایة شلب وهي كانت بلده ومنشأه كما تقدم، فأجابه المعتمد إلى ذلك، وولاه إياها أئمه ولایة، وجعل إليه جميع أمورها وخارجها وداخلها، فاستمرت ولایة ابن عمّار عليها إلى أن اشتد شوق المعتمد إليه وضعف عن احتمال الصبر عنه، فاستدعاه وعزره عنها واستوزره، فكانت حاله معه شبيهة بحال جعفر بن يحيى مع الرشيد، ولم يزل المعتمد يعده لكل أمر جليل ويؤهله لكل رتبة عالية، وكان ابن عمّار مع هذا لا يناظر به أمر الا اضططلع به، واشتهر أمره ببلاد الأندلس حتى كان ملك الروم اذ ذكر عنده ابن عمّار قال هو رجل الجزيرة، وكان ابن عمّار هو الذي رده عن قصد إشبيلية وقرطبة وأعمالهما، وذلك أن خرج من جيوش ضخمة يقصد بلاد المعتمد طاماً فيها فخافه الناس وامتلأت صدور أهل تلك الجهات رعباً منه، وتيقنوا ضعفهم عن دفاعه فتولى ابن عمّار رده بالطف حيلة وأسر تدبیر، وذلك أنه أقام سفرة شطرنج في غاية الاتقان والإبداع لم يكن عند ملك مثلها جعل صورها من الآبنوس والعود الرطب والصندل وجلاها بالذهب وجعل أرضها في

غاية الأتقان، فخرج من عند المعتمد رسولًا إلى ملك الروم فلقيه في أول بلاد المسلمين، فأعظم الملك قدوته وبالغ في اكرامه وأمر وجوه دولته بالتردد إلى خياله والمسارعة في حوالجه، فاظهر ابن عمار تلك السفارة فرأها بعض خواص الملك فنقل خبرها إليه، وكان الملك مولعاً بالشطرنج، فلما لقى ابن عمار سأله كيف أنت في الشطرنج؟ وكان ابن عمار فيه طبقة عالية بمكانة منه فقال له : يلغني أن عندك سفرة في غاية الأتقان، قال ابن عمار نعم، فقال : كيف السبيل إلى رؤيتها؟ فقال ابن عمار لترجمانه : قل له أنا آتيك بها على أن ألعب معك عليها، فإن غلبتني فهي لك، وإن غلبتك فلي حكمي، فقال له الملك : هلم لتنظر إليها، فأمر ابن عمار من جاء بها فلما وضعت بين يدي الملك تعجب وقال : ما ظنست أن أتقان الشطرنج يصلح إلى هذا الحد. ثم قال لابن عمار : كيف قلت، فأعاد عليه الكلام الأول، فقال له الملك لا ألعب معك على حكم مجاهول لا أدرى ما هو ولعله شيء لا يمكنني، فقال ابن عمار لا ألعب إلا على هذا الوجه، وأمر بالسفرة فطربت، وكشف ابن عمار سر ما أراده لرجال وثق بهم من وجوه دولة الملك وجعل لهم أموالاً عظيمة على أن يؤازروه على أمره ففعلوا، فتعلقت نفس الملك بالسفرة وشاور خاصته فيما رسمه ابن عمار، فهوноا عليه وقالوا له : إن غلبه كانت عندك سفارة ليس عند ملك مثلها، وإن غلتك فما عساه أن يحکم، وقبعوا عنده إظهار الملك بالعجز عن شيء يطلب منه، وقالوا له : إن طلب ابن عمار مالاً يمكن فتحن لك تردد عن ذلك، ولم يزالوا به حتى أجاب، وأرسل إلى ابن عمار فجاء ومعه السفارة فقال له : قد قبلت ما رسمته فقال له ابن عمار فاجعل يبني وبينك شهوداً سماهم له، فأمر الملك بهم فحضروا وأخذنا يلعبان، وكان ابن عمار طبقة بالأندلس لا يقوم له أحد فيها، فطلب الملك غلبة ظاهرة لجميع الحاضرين. فلما حلت الغلبة قال له ابن عمار : هل صح أن لي حكمي قال نعم، فمال هو؟ قال : أن ترجع

من هنا إلى بلادك؛ فاسود وجه الملك وقام وقد و قال لخواصه قد كنت أخاف من هذا حتى هو تموه على، وهم بالتأكيد والتمادي لوجهه قبحوا ذلك عليه، وقالوا : كيف يحمل بك الغدر وأنت ملك ملوك النصارى في وقتكم، فلم يزالوا به حتى سكن وقال لا أرجع حتى آخذ أثابة عامي خلاف هذه السنة، فقال ابن عمار هذا كله لك وجاءه بما أراد فرجع، وكف الله بأسمه؛ ودفعه بحوله وحسن دفاعه عن المسلمين ورجع ابن عمار إلى إشبيلية وقد امتنع نفس المعتمد سروراً به.

وأخيراً تغيرت نفس المعتمد من ابن عمار فقبض عليه أعدائه، ودخلوا به قرطبة؛ ووافق ذلك كون المعتمد به، فدخلها ابن عمار أشبع دخول وأسوأه على بغل بين عدليتين وقيوده ظاهرة للناس، وقد كان المعتمد أمر باخراج الناس خاصة وعامة حتى ينظروا إليه على تلك الحال، وقد كان قبل هذا إذا دخل قرطبة اهتزت له وخرج إليه وجوه أهلها وأعيانهم ورؤساؤهم، فالسعيد منهم من يصل إلى تقبيل يده أو يرد عليه ابن عمار السلام، وغيرهم لا يصل إلا إلى تقبيل ركباه أو طرف ثوبه، ومنهم من ينظر إليه على بعد لا يستطيع الوصول إليه.

ودخل ابن عمار قرطبة — بعد العزة القصاء والمملكة الشامخ والريادة الفارغة — ذليلاً خائفاً فقيراً لا يملك إلا ثوبه الذي عليه، وآخر بعض الم وكلين به ما اتفق لهم من فرط ذكائه وسرعة فطنته قال : لما قربنا من قرطبة بحيث يرانا الناس خرج فارس من البلد يركض يقصدنا، فلما رأه ابن عمار وكان معه أزال العمامة عن رأسه فجاء الفارس حتى وصلينا فنظر إلى ابن عمار ودخل معنا في الصفة فمشى، فسألناه فيما جاء فقال : الذي جئت فيه صنعته هذا الرجل قبل أن أصل إليه فعلمنا أنه أرسل ليزيل عمامته، فادخل على المعتمد على الله يرسف في قيوده، فجعل المعتمد يعدد عليه أيديه ونعمه وابن عمار في ذلك

كله مطرق لا ينبع، إلى أن انقضى كلام المعتمد، فكان من جواب ابن عمار إن قال : ما أنكر شيئاً مما يذكره مولانا أبااه الله، ولو أنكرته لشهدت علي به الجمادات فضلاً عن ينطق، ولكنني عثرت فأقل، وزلت فاصلق، فقال المعتمد هيهات أنها عشرة لا تقال، وأمر به فاحذر في النهر إلى إشبيلية فدخل به إشبيلية على الحال التي دخل عليها قرطبة وجعل في غرفة على باب قصر المعتمد المعروف بالقصر العبارك، فطال سجنه هناك، وكبّت عنه في هذا السجن تصائد لو توسل بها إلى الدهر لنزع من جواره، أو إلى القفل لكتف عن دواره، فكانت رقى لم تنجع، ودعوات لم تسمع، ونمائم لم تنفع، فمنها قوله : سجياياك ان عفيت أندى وأسجح وعذرلك ان عافت أجيلى وأوضج وان كان بين الخطيبين مقامة فاتت الى الأدنى من الله تجتمع حنانيك في أحذني برأيك لا تطبع عدائي ولو أثروا عليك وأفصحوا يخوض عدوي اليوم فيه ويمرح يكران في ليل الخطايا فيصبح أما تقدس الأعمال ثمت تصلح له نحو روح الله باب مفتح بهبة رحمى منك تمحو وتصبح فكل ابناء بالذى فيه يرشح بزور بني عبد العزيز موشح اذا ثبت لا انفك آسو وأجرح وأشاروا تجاهي بالشممات وصرحوا فقلت وقد يعقو فلان ويصفح ولكن حلماً للمؤيد برجمي سوى أن ذنبي واضح متصحح نعم لي ذنب غير أن لحمله صفة يزل الذنب عنها فيسفع عليه سلام كيف دار به الهوى إلى فيدنسو أو على فينزح

وان كان بين الخطيبين مقامة حنانيك في أحذني برأيك لا تطبع فان رجائي ان عندك غير ما ولم لا وقد أسلفت وداً وخدمة وهبني وقد أعقبت أعمال مفسد أقلني بما يبني وبينك من رضى وعف على آثار جرم سلكتها ولا تلتفت قول الوشاة ورائهم سلائيك في أمري حديث وقد أتى وما ذاك الا ما علمت فانتي كأنى بهم لا در درهم وقالوا سيجريمه فلان بفعله الا أن بطشاً للمؤيد برتجى وماذا عسى الواشون أن يتزبدوا

ويهشـه ان مت السـلو فانـسي أموـت ولـي شـوق إلـي مـيرـح
وبي ضـلـوعـي من هـواه تـيمـة سـتفـع لـو أـن الحـمام يـجلـح
ولـما بلـغـتـ المـعـتمـدـ هـذـهـ القـصـيـدةـ وـأـنـشـدـتـ بـيـنـ يـديـهـ كـانـ بـحـضـرـتـهـ
رـجـلـ منـ الـبـغـادـيـنـ فـجـعـلـ يـزـرـيـ عـلـىـ الـبـيـتـ «ـوـيـ ضـلـوعـيـ»ـ وـيـقـولـ
ـمـاـ أـرـادـ بـهـذـاـ الـعـنـيـ فـكـانـ مـنـ جـوـابـ الـمـعـتمـدـ رـحـمـهـ اللـهـ اـنـ قـالـ اـمـاـ
ـلـكـنـ سـلـيـهـ اللـهـ الـمـرـوـعـةـ وـالـلـوـفـاءـ لـمـ اـعـدـهـ الـقـطـنـةـ وـالـذـكـاءـ اـنـماـ نـظـرـ الـىـ
ـبـيـتـ الـهـذـلـيـ مـنـ طـرـفـ خـفـيـ وـهـوـ :ـ
ـوـاـذاـ الـمـنـيـةـ اـنـشـتـ اـنـظـفـارـهـاـ اـلـفـيـتـ كـلـ تـيمـةـ لـاـ تـفـعـ
ـوـلـمـ يـزـلـ اـبـنـ عـمـارـ بـسـجـنـ الـمـعـتمـدـ إـلـىـ اـنـ قـلـهـ صـبـراـ فـيـ شـهـورـ.
ـسـنـةـ ٤٧٩ـ

ـمـنـ تـارـيـخـ الـمـعـمـدـ :ـ ظـلـ الـمـعـتمـدـ وـالـدـهـرـ يـواـزـرـهـ وـيـعـاضـدـهـ،ـ إـلـىـ أـنـ
ـاـنـظـمـ لـهـ فـيـ مـلـكـهـ مـنـ بـلـادـ الـأـنـدـلـسـ مـاـ لـمـ يـنـظـمـ لـمـلـكـ قـبـلـهـ مـنـ الـمـتـفـلـيـنـ،ـ
ـوـدـخـلـتـ فـيـ طـاعـهـ مـدـنـ مـنـ مـدـاـتـهـ أـعـيـتـ الـمـلـوـكـ وـأـعـجـزـهـمـ،ـ وـامـتـدـ
ـمـلـكـتـهـ إـلـىـ أـنـ بـلـغـ مـدـيـنـةـ مـرـسـيـةـ،ـ وـبـيـنـهاـ وـبـيـنـ اـشـبـيلـيـةـ نـحـوـ مـنـ اـنـشـيـةـ
ـعـشـرـةـ مـرـحـلـةـ وـفـيـ خـلـالـ ذـلـكـ مـدـنـ مـتـسـعـةـ وـقـرـىـ ضـخـمـةـ،ـ وـكـانـ تـغـلـيـهـ
ـعـلـىـ قـرـطـبـةـ وـاـخـرـاجـهـ اـبـنـ عـكـاشـةـ مـنـهـاـ يـوـمـ الـثـلـاثـاتـ لـسـبـعـ بـقـيـنـ مـنـ صـفـرـ
ـسـنـةـ ٤٧١ـ،ـ ثـمـ رـجـعـ إـلـىـ اـشـبـيلـيـةـ وـاسـتـخـلـفـ عـلـيـهـ وـلـدـهـ عـبـادـ وـلـقـبـهـ
ـبـالـمـأـمـونـ،ـ وـهـوـ أـكـبـرـ وـلـدـ لـهـ فـيـ حـيـةـ أـيـهـ الـمـعـتـضـدـ وـسـمـاهـ عـبـادـ،ـ فـكـانـ
ـالـمـعـتـضـدـ يـضـمـهـ إـلـيـهـ،ـ وـيـقـولـ يـاـ عـبـادـ يـاـ لـيـتـ شـعـرـيـ مـنـ الـمـقـتـولـ بـقـرـطـبـةـ
ـأـنـاـ أـوـ أـنـتـ؟ـ فـكـانـ الـمـقـتـولـ بـهـاـ يـادـ هـذـاـ فـيـ حـيـةـ أـيـهـ الـمـعـمـدـ.

ـوـفـيـ سـنـةـ ٤٧٩ـ جـازـ الـمـعـتمـدـ عـلـىـ اللـهـ الـبـرـ قـاصـدـاـ مـدـيـنـةـ مـرـاـكـشـ
ـإـلـىـ يـوسـفـ بـنـ تـاشـفـيـنـ مـسـتـنـصـرـاـ بـهـ عـلـىـ الرـومـ،ـ فـلـقـيـهـ يـوسـفـ أـحـسـنـ
ـلـقـاءـ وـأـنـزلـهـ أـكـرمـ نـزـلـ،ـ وـسـأـلـهـ عـنـ حـاجـتـهـ،ـ فـذـكـرـ أـنـهـ يـرـيدـ غـزوـ الرـومـ
ـوـأـنـهـ يـرـيدـ اـمـادـ أـمـيـرـ الـمـسـلـمـيـنـ إـلـيـهـ بـخـيـلـ وـرـجـلـ لـيـسـتـعـيـنـ بـهـمـ فـيـ حـرـبـهـ
ـفـأـسـرـ أـمـيـرـ الـمـسـلـمـيـنـ الـمـذـكـورـ إـلـىـ إـجـاـبـهـ إـلـىـ مـاـ دـعـاهـ إـلـيـهـ وـقـالـ لـهـ :

أنا أول منتسب لنصرة هذا الدين ولا يولي هذا الأمر أحد إلا أنا
بنفسي، فرجع المعتمد إلى الأندلس مسروراً باسراف أمير المسلمين
إيه في طلبه ولم يدر أن تدميره في تدميره، وسل سيفاً يحسب له،
ولم يدر أنه عليه فكان كما قال أبو فراس :
إذا كان غير الله للمرء عدة أتته الرزایا من وجوه الفوائد
كما جرت الحنفاء حتف حذيفة وكان براها عدة للشدائد

فأخذ أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين في أهية العبور إلى جزيرة
الأندلس وذلك في شهر جمادى الأولى من عام ٤٧٩ هـ فاستقر من
قدر على استئماره من القواد وأعيان الجناد ووجوه قبائل البربر، فاجتمع
له نحو من سبعة آلاف فارس وعدد كثير، فعبر البحر بعسكر ضخم
وكان عبوره من مدينة سبتة، فنزل المدينة المعروفة بالجزيرة الخضراء،
وتلقاه المعتمد في وجوه أهل دولته وأظهر من بره وأكرامه فوق ما
كان يطنه أمير المسلمين، وقدم إليه من الهدايا والتحف والذخائر المملوكية
ما لم يقطنه يوسف عند ملك، فكان هذا أول ما ألقته إلى ملك
جزيرة الأندلس. ثم فصل عن الخضراء بجيوشه قاصداً أشبيلية دار ملك
المعتمد ليستريح فيها أيامً حتى تزول عنه وعاء السفر، ثم يقصد
قصده ولكنه عاد وقال إنما جئت ناوياً جهاد العدو فحيث ما كان
العدو توجهت وجهه، وكان ملك الأسبان محاصراً لحصن من حصون
المسلمين يعرف بحصن البيط، فلما بلغه عبور البربر أفلع عن الحصن
راجعاً إلى بلاده مستنفراً عساكره ليلقى بهم البربر، وتوجه يوسف إلى
شرقي الأندلس يقصد ذلك الحصن المحاصر، والإصلاح بين المعتمد
على الله وبين رجل كان تغلب على مرسيه يقال له ابن رشيق، فأصلاح
بيهema يوسف أمير المسلمين على أن يخرج له ابن رشيق عن مرسيه
ويعرضه المعتمد على ذلك مالاً جعله له، ويوليه في جهة أشبيلية أضخم
ولاية، فأجابه ابن رشيق إلى ذلك، وتسلم المعتمد مرسيه وأعمالها،

ولقي يوسف أمير المسلمين ملوك الأندلس الذين كان عليهم طريقة
كصاحب غرناطة والمعتمد ابن صمادح صاحب المرية وابن عبد العزيز
أبو بكر صاحب بلنسية، ثم إن يوسف استعرض جنده على حصن
الرقة فرأى منهم ما يسره، فقال للمعتمد على الله : هلم ما جتنا له
من الجهاد وقدد العدو وجعل يظهر التألف من الاقامة بجزيرة الأندلس
ويتشوق إلى مراكش وبصفر قدر الأندلس، ويقول في أكثر أوقاته :
كان أمر هذه الجزيرة عندها عظيماً قبل أن نراها فلما رأيناها وقعت
دون الوصف، وهو في ذلك كله يظهر الداء، فخرج المعتمد بين
يديه قاصداً مدينة طليطلة واجتمع للمعتمد أيضاً جيش ضخم من أقطار
الأندلس واتدب الناس للجهاد من سائر الجهات، وأمد ملوك الجزيرة
يوسف والمعتمد بما قدرها عليه من خيل ورجال، وسلاح تكامل عدد
المسلمين من المتطوعين والمحاربين زهاء عشرين ألفاً والتقوهم بأول
بلاد الروم وكان ملك الإسبان لم يدع في أقصى مملكته من يقدر
على النهوض إلا استنهضه وجاء بجيش ضخم يرهب به ملك البربر.
فأما ملوك الأندلس فلم يكن منهم أحد إلا يؤدي إليه الأتواء، وهم
 كانوا أحقراً من عبيه وأقل من أن يحتفل لهم، ولما ترافق الجماعان
 من المسلمين والنصارى رأى يوسف وأصحابه أمراً عظيماً هالهم من
 كثرة عدد وجودة سلاح وخيل وظهور قوة، فقال للمعتمد : ما كنت
 أطمن هذا الملك يبلغ هذا الحد، وجمع يوسف أصحابه وندب لهم
 من يعظهم ويذكرونهم، فظهر منهم صدق النية والحرص على الجهاد
 واستهلال الشهادة ما سر به يوسف وال المسلمين، وكانت المعركة يوم
 الخميس الثاني عشر من شهر رمضان ٤٨٠هـ.

فلما كان يوم الجمعة تأهب المسلمين لصلاة الجمعة ولا امارة عندهم
 للقتال وبني يوسف بن تاشفين الأمر على أن الملوك لا تغدر، فخرج
 هو وأصحابه في ثياب الرينة للصلوة، فاما المعتمد فإنه أخذ بالحرم

فركب هو وأصحابه شاكبي السلاح وقال لأمير المسلمين : صل في .
 أصحابك فهذا يوم ما تعطيب نفسى فيه وها أنا من ورائكم وما أظن
 العدو إلا قد أضمر الفتى بال المسلمين ، فأخذ يوسف وأصحابه في الصلاة .
 فلما عقدوا الركعة الأولى ثارت في وجوهم الخيل من جهة النصارى ،
 وحمل العدو في أصحابه يظن أنه قد انتهوا الفرصة وإذا المعتمد وأصحابه
 من وراء الناس فاغتنى ذلك اليوم غناء لم يشهد لأحد من قبله ، وأخذ
 المرابطون سلاحهم فاستوروا على متون الخيل واحتلّت الفريقيان ظاهر
 يوسف بن تاشفين وأصحابه من الصبر وحسن البلاء والثبات ما لم
 يكن يحسبه المعتمد ، وهزم الله الأعداء واتبعهم المسلمين يقتلونهم
 في كل وجه ، ونجا ملك الآستان في تسعه من أصحابه ، فكان هذا
 أحد الفتوح المشهورة بالأندلس وتسمى هذه الواقعة عندهم وقمة الراقة ،
 وكان لقاء المسلمين عدوهم في يوم الجمعة الثالث عشر من شهر
 رمضان سنة ٤٨٠ ، ورجع يوسف بن تاشفين وأصحابه عن ذلك
 المشهد منصورين فسر بهم أهل الأندلس ، وأظهروا التين بأمير المسلمين
 والتبرك به ، وكثُر الدعاء له في المساجد وعلى المنابر ، وانتشر له من
 الثناء بجزيرة الأندلس ما زاده طمعاً فيها .

وكان من اختص بأمير المسلمين من ملوك الجزيرة وحظي عنده
 وأشتد تقريب أمير المسلمين له : أبو يحيى بن معن بن صمادج المعتصم
 صاحب المريدة ، وكان المعتصم هذا قديم الحسد للمعتمد كثير النفاسة
 عليه ، لم يكن من ملوك الجزيرة من ينأوه غيره ، وربما كانت بيتهما
 في بعض الأوقات مراسلات قبيحة وكان المعتصم يعييه في مجالسه
 وبنال منه ويمتنع المعتمد من فعل مثل ذلك مروعته وزراحته نفسه وطهارة
 سريرته وشدة ملوكيته ، وقد كان المعتصم قبل عور أمير المسلمين
 يسيراً توجه إلى شرق الأندلس يتطلّف على مملكته ويطالع أحوال
 أعماله ورعايته ، فلما داني أول بلاد المعتصم خرج إليه في وجوده

أصحابه وتلقاء لقاء نبلاً وعزم عليه ليدخلن بلاده فأُتي المعتمد ذلك، ثم اتفقا بعد طول مراودة على أن يجتمعوا في أول حدود بلاد المعتصم وأخر حدود بلا المعتمد، فكان ذلك واصطلحوا في الظاهر، واحتفل المعتصم في إكرامه وأظهر من الآلات السلطانية والذخائر الملكية المعدة لمجالس الأئم. ما ظنه مكمداً للمعتمد مثيراً لغمه، وقد أعاد الله المعتمد من ذلك وصان خلقه الكريم عنه، وعصمه بفضله منه، ثم افترقا بعد أن أقام المعتمد عنده في ضيافه ثلاثة أسابيع ورجع المعتمد إلى بلاده، وبعد ذلك عبر إلى مراكش ولم يزل ما بينه وبين المعتصم معموراً إلى أن عبر أمير المسلمين كما ذكرنا، فلقيه المعتصم بهدايا فاخرة وتحف جليلة وتلطف في خدمته حتى قربه أمير المسلمين أشد تقربه لثناء المعتمد عليه ووصفه إياه عنده بكل فضل ولم يكن المعتصم بعيداً من أكثر ما وصفه به، ولما اشتد تمكّن المعتصم من أمير المسلمين بدا له أن يسعى في تغيير قلبه على المعتمد وقاده ما بينهما؛ وعبر أمير المسلمين إلى العدو وقد وغر صدره، وتغيرت نفسه.

هذا مع طمعه في الجزيرة وتشوقه إلى ملكها وظهرت للمعتمد قبل عبوره أشياء عرف بها أنه غير عليه ورجع أمير المسلمين إلى مراكش وفي نفسه من أمر الجزيرة المقيم المقعد، حتى قال بعض ثقائه من وجوده أصحابه : كنت أظن أنى قد ملكت شيئاً فلما رأيت تلك البلاد صغرت في عيني مملكتي، فكيف الحيلة في تحصيلها، فاتفق رأيه ورأي أصحابه على أن يرسلوا إلى المعتمد يستأذنوه في رجال من صلحاء أصحابهم رعوا في الرباط بالأندلس ومجاهدة العدو ببعض الحصول المصاقبة للروم إلى أن يموتو، ففعلوا وكتبوا إلى المعتمد بذلك فاذن لهم بعد أن وافقه على ذلك ابن الأقطس المتوكّل صاحب التغور، وإنما أراد يوسف وأصحابه بذلك أن يكون قوم من شيعتهم ميثوبيين بالجزيرة وببلادها فإذا كان أمر من قيام بدعوتهم أو اظهار لملكهم وجدوا في كل بلد لهم أعوناً، وقد كانت قلوب أهل الأندلس كما

ذكرنا قد اشربت حب يوسف واصحابه فجهز يوسف من خيار اصحابه رجالاً انتخبهم وأمر عليهم اجلأ من قرابته يسمى بلجين واسر إليه ما أراد، فجاز بلجين المذكور وقصد المعتمد من ملوك الجزيرة. فقال له أين تأمرني بالاقامة فوجه معه المعتمد من اصحابه من ينزله ببعض الحصون التي اختارها لهم فنزل حيث ازلوه هو واصحابه واقاموا هناك إلى أن ثارت الفتنة على المعتمد.

ولما أخذ المرابطون جزيرة طريف ونادوا فيها بدعة أمير المسلمين انتشر ذلك في الأندلس ورحب القوم الذي قدمنا ذكرهم الكائدون في الحصون إلى قرطبة فحاصروها وفيها عياد بن المعتمد الملقب بالسائمون، وهو من أكبر ولده فدخلوا البلد وقتلوا عياد هنا بعد أن ألبى عذرًا واظهر في الدفاع عن نفسه جلدًا وصبرًا، وذلك في أول صفر سنة ٤٨٤، وظهرت المحنة في إشبيلية.

وفي ذلك يقول المعتمد بعد أن نزل بالعدوة أسرًا :

قالوا الخضوع سياسة فليهد منك لهم خضوع
وأنذ من طعم الخضوع على فمي السم التقيع
ان تستلب عنى الدنيا ملكي وتسلمني الجموع
فالقلب بين ضلوعه لم تسلم القلب الضلوع
لم استلب شرف الطبا ع، أيسأل الشرف الرفيع؟
قد رمت يوم نزالهم
الآ تحصتنى الدروع
وبرزت ليس سوى القمي
عص عن الجھى شيء دفع
ويذلت نفسي كي تسيل
إذا يسيل بها النجيع
أجلني تأخر لم يكن
بهواي ذلى والخشوع
ما سرت قط إلى القتال
وكان من أملبي الرجوه

ولم يزل أعونان ملك البربر يعيشون، حتى نهبو قصور المعتمد، وقتلوا أسرته، وقضوا على المعتمد وتقوه إلى مراكش، ولما نزل المعتمد

من العدو بطنجة أقام بها أياماً ولقيه بها الحصري الشاعر، فجرى معه على عادته فرفع اليه أشعاراً قديمة، قد كان مدحه بها وأضاف إلى ذلك قصيدة استجدتها عند وصوله إليه، ولم يكن عند المعتمد في ذلك اليوم مما زود به فيما بلغني أكثر من ستة وثلاثين مثقالاً، فطبع عليها، وكتب معها بقطعة شعر يمتد من قلتها، ولما اتصل بزعانفة الشعرا، وملحفي الناس ما صنع المعتمد رحمة الله مع الحصري، تعرضوا له بكل طريق، وقد صدوه من كل فج عميق. فقال في ذلك :

شُعَرٌ طنجه كلامهم والمغرب ذهروا من الأغراب أبدع منذهب
سألوا العسير من الأسير وإنه بسؤالهم حق فاعجب واعجب
لولا الحياة وعزه محمية طي العشا ساواهم في العطلب
قد كان ان سقل الندى يجزل وان نادي الصريح يباوه اركب يركب

وله كذلك :

كُلْمَا أُعْطِيَ تَفِيساً نَزَعا
قِبْحَ الْدَّهْرِ فَمَاذَا صَنَعَا
أَنْ يَنْادِيَ كُلَّ مَنْ يَهْوِي لِمَا
قَدْ هُوِيَ ظَلَّمَا يَمْنَعُ عَادَتِه
أَخْجَلَهَا كَفَهُ فَانْقَطَعَا
مِنْ إِذَا الْفَيْثُ هُمِيْ مِنْهُمْ رَا
عَصْفَتْ رِيحُهُ فَانْتَعَشَا
مِنْ غَمَّ الْجُودِ، مِنْ رَاحَتِه
مِنْ إِذَا قَبْلَ الْخَاصِصِ وَانْ
نَطَقَ الْعَاقُونَ هُمْ سَعَا
قَلْ لَمَنْ يَطْمَعُ فِي تَالِه
قَدْ أَزَالَ الْيَأسَ ذَاكَ الظُّمُرَا
جَرَّ اللَّهُ الْعَفَاهَ الضَّيْعَا

وأقام المعتمد بطنجة أياماً، ثم انتقل إلى مدينة مكناسة فأقام بها أشهراً إلى أن نفذ الأمر بتسفيرهم إلى مدينة أغدام فأقاموا بها إلى أن توفي المعتمد رحمة الله ودفن بها، وقبره معروف هناك، وكانت وفاته سنة ٤٨٧هـ، وقيل سنة ٤٨٨هـ، وسنة يوم توفي إحدى وخمسين سنة، وما رثي به المعتمد على الله مقطوعة من شعر ابن الباردة أولها : لكل شيء من الأشياء ميقات وللمنى من ميائين غایات

ألوان حالاته فيها استحالات
وربما قمرت بالبيدق الشاة
فالأرض قد أنفقت والناس قد ماتوا
سريرة العالم العلوي أغمات
من لم تزل فوقه للعز رايات
هندية وعطایا هنيدات
وكيف تذكر في الروضات حيات
من رأسه نحو رجله النوايات
عذرتهم فلعلوی الليث عادات

والدهر في صيغة الحرباء منغمس
ونحن من لعب الشطرنج في يده
فانقض يديك من الدنيا وساكنها
وقل لعالماها الأرضي قد كتمت
طوت مظلتها لا بل مذاتها
من كان بين الندى واليأس أنسنه
أنكرت الآنسوء للقيود به
وقلت من ذؤابات فلم عكست
رأوه ليشا فخافوا منه عادية

وهي جيدة، وأولها :
على البهاليل من أبناء عباد
وكانت الأرض منهم ذات أوتاد
أثارها فقدت في خفاض أوهاد
أساود لهم فيها وأساد
فاليم لا عاكف فيها ولا باد
خطب الرمان ثقافاً غير معناد
أيدي الردى وتشها دون أعمال
 وكل شيء لم يقات ويمجاد
هناك من درر للمجد أفراد
ذوى وذاك حبا من بعد إيقاد
في ضم رحلتك واجمع فضلة الزاد
خف القطن وجف الزرع بالوادي
غير قصد فما يهديك من هادي

ولهذا الشاعر قصيدة يرثيه بها
تبكي السماء بدمع رائع غادي
على الجبال التي هدت قواعدها
والرايات عليها اليانعات ذوت
عربة دخلتها الناثبات على
وكعبة كانت الآمال تغمرها
تلك الرماح رماح المحظ تغفها
والبيض بيسط الطبا فلت مضاربها
لما دنا الوقت لم تختلف له عدة
كم من دراري سعد قد هوت ووهت
نور ونور فهذا بعد نعمته
يا ضيف افتر بيت المكرمات فخذ
ويا مؤمل واديهم ليسكفهم
ضلت سبيل الندى بابن السبيل فسر

وفيها يقول :
نَسِيْت إِلَّا غَدَة الْنَّهَر كُونَهُم
فِي الْمُنْشَات كَأَمْوَات بِالْحَاد

من لولو طافيات فوق ازيد
ومزقت أوجه تمزيق أبراد
أهلاً بأهل وأولاداً بأولاد
وصارخ من مقداً ومن فادي
كأنها إيل يحدو بها الحادي
تلك القطاع من قطعات أجاد
ماء السماء أني سقيا حثا الصادي

وابن الباة هو أبو بكر محمد بن عيسى من أهل مدينة دانية،
وهي على ساحل البحر الرومي، كان يملكون مجاهد العامري وابنه
على الموقف على ما تقدم، ولابن الباة أخ اسمه عبد العزيز، وكانا
شاعرين إلا أن عبد العزيز لم يرض الشعر صناعة ولا اتخذه مكتباً،
وانما كان من جملة التجار، وأما أبو بكر فرضيه بصاعة وتخيه مكتباً
وأكثر منه وقصد به الملوك، فأخذ جوازهم وتال أنسى الرتب عندهم،
وشعره نبيل المأخذ وهو فيه حسن المهيغ، جمع بين سهولة الألفاظ
ورشاقتها، وجودة المعانى ولطافتها، وكان منقطعنا إلى المعتمد معدوداً
في جملة شعرائه، لم يقدر عليه إلا آخر مدته فلهذا قل شعره الذي
يصحح به، وكان مع سهولة الشعر عليه وإكتاره منه قليل المعرفة بعلمه
لم يجد الخوض في علومه وإنما كان يعتمد في أكثره على جودة
طبعه وقوته قريحة، يدل على ذلك قوله في قصيدة له :

من كان ينفق من سواد كتابه فانا الذي من نور قلبي أتفق

ولما خلع المعتمد على الله وانحرج من إشبيلية لم يزل أبو بكر
هذا يقلب في البلاد إلى أن لحق بجزيرة ميرقة وبها مبشر العامري
الملقب بالناصر، فحفظي عنده وعلت حاله معه، وله فيه قصائد أجاد
فيها ما شاء :

فمنها قصيدة ركب فيها طريقة غريبة، وذلك أن جعلها من أولها

إلى آخرها صدر كل بيت فيها غزل وعجزه مدع، وأول القصيدة :
 وضحت وقد فضحت ضياء العنبر فكأنما التحفت يبشر مبشر
 وتبتسم عن جوهر فحسبه ما قلته محامدي من جوهر
 وتكلمت فكأن طيب حديها هرت بتنفسها لفظها نفسى كما
 هرت بذكرة أعلى المبر أذنيت واستغفرتها فخررت على
 جادت على بوصلها فكأنه سمعت بعنقى فقلت صنيعة
 نهد كقصوة قلبه في معرك ومعاطف تحت الذواب خلتها
 حسنت أمامي في خمار مثل ما وتوحشت فكأنه في جوشن
 غمرت بعض قسيه من حاجب اومت بمقصول اللحاظ فخلته
 وضعت حشايها فوق ارائك من رامة او رومة لا علم لي
 بنت الملوك فقل لكسري فارس عاديت فيها غر قومي فاعتلوا
 وكذلك الدنيا عهدنا أهلها طافت على بحيرة من خمرة
 فكأن أنملها سيف مبشر وقد اكتست على النجع الأحمر
 ملك ازرة بردہ ضمت على باس الوصي وعزمه الأسكندر

ومن نسيه قوله يتغزل وي مدح مبشرأ هذا :
 هلا ناك على قلب مشفق فترى فراشاً في فراش يحرق
 قد صرت كالمرق الذي لا يرتجي ورجعت كالنفس الذي لا يلحق

طرفي فهل سبب به أتعلق
 في جنب موعدك الذي لا يصدق
 ظل الغمامه والهجير المحرق
 لكن سنانك أكحل لا أزرق
 غنيت قبل هو الحمام الأورق
 سبقت جفونك كل سهم يرشق
 لجعلت قلبك بعض حين يعشق
 وترق لي مما تراه وتشفق
 لا يستثنى لطرف طيف يرمي
 فذرته في أنه لا يطريق
 فالدموع ينشع والصباية سورق
 نشرت على قلبي فاصبح يتحقق
 وغرقت في دمعي عليك وغمي
 هل خدعة بمحيبة مخفية
 أنت العنة والمعنى فيك استوى
 لك قد ذابلة الوشيع ولو أنها
 ويقال إنك ايكة حتى إذا
 يا من رشت إلى السلو فردني
 لو في يدي سحر وعندك أحده
 لتذوق ما قد ذقت من ألم الجوى
 جسدي من الأعداء فيك لأنه
 لم يدر طيفك موضعى من مضجعي
 جفت عليك مداععى ومنابعى
 وكأن أعلام الأمير مبشر

قوله فيها إحسان كثير، قوله من قصيدة يغزل:
 فؤادي معنى الحسان معنٍ
 وكل موقٍ في التصامي موقف
 ولكن جسمى منه أخفى وأخفت
 غرامي به حى وصبرى ميت
 جعلت فؤادي جفن صارم جفنه
 فياجر ما يصلى به حين يصلت
 وأسكن بالشكوى له وهو يسكن
 لريحان رباع الشيبة منبت
 ولـه فيها إحسان كثير، ولـه من قصيدة يغزل:

ومن جيد ما له من قصيدة يدخل بها مبشرًا ناصر الدولة أولها:
 رق الريبع ورق طبع هوائه
 فانتظر نضارة أرضه وسماته
 يحكى مشتملها مصعب مائه
 خد الحبيب عليه صبغ حياته
 لا يستحيل عليك عهد وفاته
 هيهات أين الورد من خد الذي
 الورد ليس صفاتـه كصفاته
 والطير ليس غناـها كغنـاته

يتنفس الاصباح والريحان من
ويحول في الأرواح روح ما سرت
رياه من تلقاءه بلقائه
صوف الهوى جسمى شبيه خياله

ومن أحسن ما يستجاد له بيان يصف بهما خاله، وهما :
بذا على خده خال يربمه فزادني شفنا فيه الى شفف
كان حبة قلبى عند رؤبمه طارت فقال لها في الخد منه قف
ولابن اللبانة هذا احسان كبير.

وبلغ من حال المعتمد على الله أغامت أن آثر حظياته وأكرم بناته
الجحت الى ان تستدعي غرلاً من الناس تسد بأجرته بعض حالها وتصلح
به ما ظهر من اختلالها:

فقد نظرت اليه عيون نحس
مضت منه بمعدوم التضير
نحوس كن في عقبي سعود
كذاك تدور أقدار القدير
وكم شهرت علاه من شهرى
وكم شهرت علاه من شهرى
زمان تنافست في الحظ منه
ملوك قد تجور على الدهور
ويفنى ثم أرجح من ثير
بحيث يطير بالبطل ذعر

وقد امتنع ابن اللبانة من قبول هدايا المعتمد، وكتب مجيئاً له عن
شعره :

أنا أدرى بفضلك منك اني
ليست الطلل منه في الحرور
عني النفس أنت وإن أاحت
على كفيك حالات القمير
تصرف في الندى حيل المعالي
فتسمح من قليل بالكثير
أحدث منك من نبع غريب
تفتح عن جنى زهر نضير
وأعجب منك أنك في ظلام
وترفع للعنفة منار نور
رويدك سوف توسعني سروراً
إذا عاد ارتقاوك للسرير
وسوف تحلنني رتب المعالي
غداة تحل في تلك القصور

تزيد على ابن مروان عطاء
تأهّب أن تعود إلى طلوع
فراجعه المعتمد بهذه الأيات :
رد بري يغيا على وبرا
ومن شعر المعتمد في أسره :

أسير أن يطول به اللقاء
يطول على الشقى بها الشقاء
فإن هواي من حفني اللقاء
عواري قد أضر بها الحفاء
مراتبه إذا أبدوا السداء
وكفهم إذا غص الفناء
لنظم الجيش إن رفع اللواء
إذا احتل الإمام أو الوراء
ضمير خالص نفع الدعاء
نوى برأ وصاحب العلاء
بأن الكل يدركه الفناء

وورد عليه أغمات أبو بكر بن الليانة ملتزماً عهد الوفاء، فاضيأ
ما يجب عليه من شكر النعم، فسر المعتمد بوروده فلما أزمع ابن
الليانة على السفر استند المعتمد وسعه وجه إليه بعشرين مثقالاً وثوابين
وكتب إليه معها :

إليك النذر من كف الأسير
تقبل ما يذوب له حياء
ولَا تعجب لخطب غض منه
ورج لجره عقبى نداء
وكم حطت ظباء من حضيض
فإن تقبل تكون عين الشكور
وان عذرته حالات الفقير
أليس الخسف ملتزم البدور
فكם جررت يداه من كسر
وكم أعلت علاه من حضيض

أعلى مرقاوه ومن سرير
جياد الخيل بالموت العبر

وكم من متبر حنت اليه
زمان تراحت عن جانيه

عاد لومي في البعض سرا وجهرا
لا عدمناك في المغارب ذخرا
مت ضرا فكيف أرهب ضرا

وكب إليه كذلك :
إذا ما طويت في البعض حمدا
يا أمبا بكر الغريب وفاء
أي نفع يجدي احتباط شقيق

صرفي البر إنما كان برا
يشكى فقراً وكم سد فقرا
غدر الدهر بي لفن رمت غدرا
فشرى للوفاء منى سرا
ناهضت همي الكواكب قدرأ
عن أديمي بها والبس فخرأ
كيف ألقى درا واطلب تبرا
لا سقى الله بعدك الأرض قطرأ

فأجايه ابن اللبانة :
أيها العاجد السميدع عدرا
حاش الله ان أجيع كريما
لا أزيد الخفاء فيه شقوقا
ليت لي قوة او آوى لركن
أنت علمتني السيادة حتى
ربحت صنقة أزيل برودا
وكفاني كلامك الرطب نيلا
لم تمت إنما العكارم مات

ومما قاله المعتمد من الشعر عند موته وأمر أن يكتب على قبره :
قبر الغريب سقاك الرايح العادي
بالحلم بالعلم بالنعمي إذا اتصلت
بالطاعون الضارب الراامي إذا قتلوا
بالدهر في ظلم بالصدر في النادي
نعم هو الحق حاباني به قدر
ولم أكن قبل ذاك النعش أعلم
كفاك فارق بما استودعت من كرم
يسكي أخاه الذي غيبت وابله

حتى يجودك دمع الطل منهراً من أعين الزهر لم تخال باسعاد
ولا تزل صلوات الله دائمة على ذفيتك لا تحصى بتعداد
وكان للمعتمد على الله ولد يلقب ببخر الدولة رشحه للملك من
بعده وحمله ولـي عهده، ولقبه بالمؤيد بننصر الله فعاقبه القتنة عن مراده.
وحالت الأقدار بينه وبين إصداره وإرادته، فما برح ببخر الدولة تغير
الأيام بعد القتنة إلى أن أسلم نفسه في السوق، وتعلم من الصنائع صنعة،
فقر به محمد بن الليانة شاعر أبيه فقال في ذلك :

خطب وجدناك فيه يشبه العدما
وعقد عروتنا الوثقى قد انقضها
والرءَّ يعظم فيمن قدره عظما
ضاقت عليك وكم طوقتنا نعما
من بعد ما كان في قصر حكى إرما
لم تدر إلا الندى والسيف والقلما
فاستقل الشريا أن تكون فما
حليا، وكان عليه الحلى منتظما
هول رأيتك فيه تنفع الفحاما
لو ان عيني تشكو قبل ذلك عما
ولا تحيف من أخلاقك الكrama
وقم بها ربوة ان لم تقم علما
من يلزم الصبر يحمد غب مالزما
ولو وفي لك دمع المزن لاسجما
يبحيك رهطاً وألفاظاً ومتسمها
حزناً عليك لأن أشتها شيمها
ريحاناتك الغض يذوي بعدما نعما
من ليس برحيم ذاك القضل لا رحاما
واتت في ظلمة فالصبح قد ظلما

أذكى القلوب أسى أبكي العيون دما
أفراد عقد المنى هنا قد انتشرت
شكباتك فيك يا فجر الهوى عظمت
طوقت من ناثيات الدهر محنة
وعاد كونك في دكان فارعة
صرفت من آلة الصواع أئمة
يد عهتدتك للنقييل تستطعها
يا صائعاً كانت العليا تصاغ له
لللنفع في الصور هول ما حكاها سوى
وددت اذ نظرت عيني اليك به
ما حطك الدهر لما حط من شرف
لح في العلي كوكباً ان لم تلح قمراً
واصبر له ايها أحامت عاقبة
والله لو أنصفتك الشهب لانكشفت
بكى حديثك حتى الدرجين غداً
ورووضة الحسن من أزهارها عربت
بعد التعميم ذوي الريحان حين رأى
لم يرحم الدهر فضلاً أنت حالمه
شقيقك الصبيح إن أضحي بشارقه

الأدباء في عصربني عباد

وقد نبغ في الأدب كثيرون في عصربني عباد وخاصة في عهد المعمتم، ومنهم :

أبو القاسم ابن الجد المعروف بالأحدب أحد رجال البلاغة، وأبو يكر محمد بن محمد المعروف بابن القبطنة، وأبو عبدالله بن أبي الخصال، وأنه أبو مروان، وأبو محمد عبد المجيد بن عبيدون، وجماعة يذكر ذكرهم، وكان من أنبيتهم وأكابرهم مكانة أبو عبدالله محمد بن أبي الخصال وحق له ذلك اذ هو آخر الكتاب، وأحد من انتهى اليه علم الآداب، وله مع ذلك في علم القرآن والحديث والأثر وما يتعلق بهذه العلوم الباع الأرجح واليد الطولى، ومن رسائله رسالة كتبها الى صديقه أبي الحسن علي بن يسأم صاحب كتاب الذخيرة : وصل من السيد المسترق والمالك المستحق، وصل الله انعامه لديه، كما قصر الفضل عليه : كتابه البلوغ، واستدراجه المريغ، فلولا ان يصلد زند اقتراحه، ويرقد طرف افتتاحه، وتفيض يد انبساطه، وتغدو صفة اغبائه، للزرت معه مركز قدرى، وصنت سريرة صدرى، لكنه بفتات سحره يسمع الصم ويستنزل العصم، ويقتاد الصعب فيصحب ويستدر الصخور فتحلب، ولما فجأني ابتداوه، وقرع سمعي ندائها، فرغت الى الفكر، وتحقق القلب بين الأمان والخذل، فطاردت من الفقر أوابد الفقر، وشوارد عفر، تغير في وجه ساقتها ولا يتوجه اللحاق لوجيهها ولا حقها، فعلمت انها الاهابة والهيبة، والاصابة والاسترابة، حتى أباستني الخواطر، وأخلفتني المواطن، الا زيرجا يعقب جواداً، وبهراجا لا يتحمل انتقاداً، وأباى لمثلي والقريحة مزجاجة، والبضاعة مرجاجة، ببراعة الخطاب، وببراعة الكتاب، ولو لا دروس معلم البيان، واستيلاء الغفاء على هذا الشأن لما فاز لمثلي فيه قدح، ولا تحصل لي في شوقه ربع، لكنه جو خال، ومضمدار جهال، وهي حكمة الله في الخلق وقسمته للرزق، وانا اعزك الله أرباً بقدر

الذخيرة عن هذه التف الأُخْبِرَة، وأرى إنها قد بلغت مداها، واستوفت حلاها، وانا اخشى القدر في اختيارك والاعلال بمحتررك. وعلى ذلك قوله ما من عادي ان اتيت ما أكتب في رسم ينقل، ولا في وضع المراتب عندنا مخاطب يحتقر له ويحتفل، وانما هو عفو فكر، ويسير ذكر، وعذرأً أعزك الله فاني خططت ما خططته والنوم مغازل والقر منازل والربيع تلعب بالسراج، وتصول عليه صولة الحاج، فطوراً تسدده سنان، وثارة تحرّك لسانا، وأونه طوطوه حباية وآخرى تنشره ذواة وتنيمه لبرة لهب وتعطفه برة ذهب، او حمة عقرب وتنوسه حاجب فناة ذات غمزات وتسليمه على سليمه وتزيله عن خليطه وتخلعه نجماً وتمده رجماً وتسـلـ روـحـهـ منـ ذـيـالـةـ وـتـمـدـهـ إـلـىـ حـالـهـ وـرـبـماـ نـصـبـهـ إـذـنـ جـوـادـ وـمـسـخـتـهـ حـدـقـ جـرـادـ وـمـشـقـهـ حـرـوفـ بـرـقـ، فـلـاحـظـ مـهـ لـلـعـينـ، وـلـهـ هـدـاـيـةـ فـيـ الطـرـسـ لـلـيـدـيـنـ، وـالـلـيـلـ زـنـجـيـ الـأـدـيـمـ تـبـرـيـ النـجـوـمـ، قـدـ حـلـلـنـاـ سـاحـهـ وـأـغـرـقـنـاـ أـمـوـاجـهـ، فـلـاـ مـجـالـ لـلـحـظـ وـلـاـ تـعـارـفـ إـلـاـ بـلـفـظـ لـوـ نـظـرـتـ فـيـ الزـرـقـاءـ لـاـ كـحـلـتـ أـوـ خـضـبـتـ بـهـ الشـيـبـ لـمـاـ نـصـلـتـ وـالـكـلـبـ قـدـ صـافـحـ خـيـشـوـمـهـ ذـنـبـهـ وـأـنـكـرـ الـبـيـتـ وـطـبـهـ وـالـتـوـىـ الـتـوـاءـ الـجـيـابـ، وـاسـتـدـارـ اـسـتـدـارـةـ الـجـيـابـ، وـجـلـدـهـ الجـلـيدـ وـصـعـدـ أـنـفـاسـهـ الصـعـيدـ فـحـمـاهـ مـيـاـحـ وـلـاـ هـرـبـ وـلـاـ نـيـاـحـ وـلـاـ تـارـ كـالـرـحـيقـ أـوـ كـالـصـدـيقـ كـلـاـهـمـاـ عـنـقـاءـ مـغـربـ، أـوـ نـجـمـ مـغـربـ، اـسـتـوـىـ الـفـصـلـ، وـلـكـ فـيـ الـأـعـضـاءـ الـفـضـلـ.

وكان لأبي عبد الله محمد بن أبي الخصال ديوان رسائل يدور بأيدي أبناء أهل الأندلس قد جعلوه مثالاً يحتذوه وتصبوه أماماً يقتفيونه، وكان أبو عبد الله وأخوه كاتبين لأمير المسلمين يوسف إلى أن آخر أمير بال المسلمين أبا مروان عن الكتابة لموجدة كانت منه عليه سببها أنه أمره وأخاه عبد الله أن يكتب عنه إلى جند بلنسية حين تخاذلوا وتوأكلوا حتى هزمهم العدو هزيمة قبيحة وقتل منه مقتلة عظيمة، فكتب أبو عبد الله رسالته المشهورة في ذلك، وهي رسالة كاد أهل الأندلس قاطبة

أن يحفظوها، أحسن فيها ما شاء، وكتب أبو مروان رسالة في ذلك الغرض أنسى فيها على المرابطين وأغلظ لهم في القول أكثر من الحاجة؛ فمن فصولها قوله : أبي بني الشيبة واعيال الهزيمة، إلام يزيفكم الناقد ويردكم الفارس الواحد، فليت لكم بارتباط الخيول ضئلاً لها حابل قاعد، لقد آن أن توسعكم عقاباً وألا تلوثوا على وجه نقاباً، وان نعيدكم إلى صحرائكم ونظهر الجزيرة من رحائبكم « الخ ».

فاحتق ذلك أمير المسلمين وأخره عن كابته وقال لأبي عبدالله أخيه : كما في شك من بعض أبي مروان المرابطين والآن قد صبح عندنا فلما رأى ذلك أبو عبدالله استغفاه فأغفاه ورجع إلى قرطبة بعدما مات أخوه أبو مروان براكسن وأقام هو بقرطبة إلى أن استشهد في داره في أول الفتنة الكاثمة على المرابطين :

الوزير ابن غالب :

قال الوزير الكاتب الشاعر أبي عبدالله محمد بن غالب البنسي المعروف بالرصافي وكان مستوطناً مدينة مالقة؛ يمدح عبد المؤمن ابن علي:

قيست ما شئت من علم ومن نور
لو جلت نار الهدى من جانب الطور
من كل زهاء لم ترفع ذؤابتها
ليلًا لسار ولم تشتب لمقصور
نور الهدایة تحلو ظلمة التور
فيضية القدر من نور البوة أو
نور طوى الله زند الكون منه على
ما زال يقضيها التقوى بموقدها
صوام هاجرة قوام ديجور
قد كان تحت رماد الكفر مكفور
حتى أضاءت من الإيمان عن قيس
سقط إلى زمن المهدى مذكور
نور طوى الله زند الكون منه على
واية كآيات الشمس بين يدي
غزو على الملك القيسى متذور
يا دار دار أمير المؤمنين بسف

على الأسasين من قدس وتطهير
قصر على مجتمع البحرين مقصور
فيها الخطى بين تسيح ونكير
فطيب كل موطوء ومعبور
لواء نصر على البرين منشور
على النقى وصفاء النفس مقطور
بعالق القدس مشهود ومحضور
نودين يا خير أفالك العلا سيري
بالله مستنصر في الله منصور
منها وبوليه حمنا كل تصريح
تركن شطبه في شك وتحبير
أم خاض من لجه أحشأه مذعور
في الأرض من مهج الآساف مقطور
وقد رمى نار ميجاها بتصغير
شكل الغدائر في سدل وتضفير
ما في سجاياه من لين وتعطير
ردعان : من عبير ورد وكافور
يغرون في مثل ماء الورد من جور
بمثل أجنهة الفتيخ الكواسير
في زاخر من يدي يمناه معصور
بساطع من سناه غير ميهور
معظم القدر في الأجيال مذكور
له من الغيم جيب غير مزور
مستمطر الكف والأكتاف مقطور
في الجو حائمة مثل الدنانير
بكل فضل على فوديه مجرور

ذات العمادين من عز وملكة
ما كان يأتيك بالوابي الكرامة عن
مواطي من نبي طال ما وصلت
حيث استقلت به نعلاه بوركها
وحيث قامت قنادة الدين برغل في
في كف من شهر البردين ذي ورع
يلاقاك في حال غيب من سريرته
تسنم الفلك من سخط المرار وقد
فسرن يحملن أمر الله من ملك
يومي له بسجود كل تحركة
لما تسايقن في بحر الرقاد به
أعز من موجه أشاء مسرور
كأنه سالك منه على وشل
من السيف التي ذات لسطوته
ذو المنشيات الجواري في أجرتها
أعدى المياه وأنفاس الرياح لها
من كل عذراء حبل في ترابها
نحالها بين أيدي من مجاذفها
وربما خاضت التيار طائرة
كأنما عبرت تخثال عائمة
حي رمت جبل القتحين من كتب
له ما جبل القتحين من جبل
من شامخ الأنف في سحانه ظلس
معراً بذراء عن ذرى ملك
تمسي النجوم على أكليل مفرقه
وربما مسحه من ذوابها

وساقها سوق حادي العبر للغير
 عجيب أمره من ماض ومنظور
 بادي السكينة مفتر الأسارير
 خوف الوعيدين من دك وتسير
 ان يطعنن غدا من كل محذور
 نعلا مليك كريم السعي مشكور
 ثرى إمام بأقصى الغرب مقبور
 يوم القيمة محشوم ومقدور
 يستاجر الوعد قبل النفع في الصور
 كأنه باهت في جو اسمير
 بالغرب من أفق البيض المشاهير
 إلى شفى من مضاع الدين متور
 يمر فيه بشيء غير محقوبر
 إلا تائى له من غير تعذير
 إلا هدى سهمه نجع المقادير
 سلطان رق على الدنيا وتسخير
 من كل مثلول عرش الملك مقهور
 لأمره بين منهى وأمسور
 إذ أمكن العفو ميسوراً لمحصور
 في الضرب والطعن سيماء لقصير
 بعض مغاليل أو سمر مكاسب
 ضربت وحدك أعناق الجماهير
 من الأمور ولا يركن لتكثير
 والأرض قد غرفت من فور تنور
 أقوى الهدأة يداً في دفع محذور
 قموضع الحد منه حد مشهور

محنك حلب الأيام أشطرها
 مقيد الخطو جوال الخواطر في
 قد واصل الصمت والإطراق مفتakra
 كأنه مكمد مما تعبد
 أخلق به وجبل الأرض راجفة
 كفاه فضلاً أن اتابت مواطنه
 مستنشقاً بهما ريح الشفاعة من
 ما أتفك آمل أمر منه بين يدي
 حتى تصدى من الدنيا على رقم
 مستقبل الجانب الغربي مرتفعاً
 لبارق من حسام سله قدراً
 إذا تألق قيسياً أهاب به
 ملك أني عظماً فوق الزمان فما
 ما عن في الدين والدنيا له أرب
 ولا رمي من أمانه إلى غرض
 حتى كأن له في كل آونة
 مميز الجيش ملتفاً مساكب
 من الأولى خضعوا قسراً له وعنوا
 من بعد ما عاندوا أمراً فما تركوا
 بقية الحرب فاتوها وما بهم
 لا ينكر القوم بما في أحدهم
 إذا صدعت بأمر الله مجهداً
 لا يذهبن لتقليل آخر سبب
 فالبحر قد عاد من ضرب العصا يسا
 وإنما هو سيف الله قوله
 فإن يكن بيد المهدى قاتله

والشمس ان ذكرت موسى فهانسيت فناء يوشع قماع الجماير

وكان الرصافي يوم أنشد هذه القصيدة لم تكمل له عشرون سنة
وهو من مجیدي شعراء عصره لاسمها في المقاطع، كالخمسة الآيات
فما دونها، ومن شعره، يصف نهر اشبيلية الأعظم :

ومهول الشطرين تحسب أنه متسلل من درة لصفائه
فأءات عليه مع الهجرة سرحة صدئت لفياتها صفيحة مائه
فتراء أزرق في غلالة سمرة كالدارع استلقى بظل لوائه

واجتمع مع اخوان له في بعض الأمسيات الجميلة في بستان لهم
فقال :

ما مثل موضعك ابن رزق موضع
فالحسن بنت في ثراه وينبع
والجو بالغيم الدقيق مقنع
والليل نحو فرaca يتطلع
من دون قرص الشمس ما يتوقع
فوددت يا موسى لو انك يوشع

وله يصف عشية :

محل ابن رزق جر فيه ذيوله
ذكرت عشايا فيك لا ذمّ عهده
وإن نحن لم نمنع بيهجهه لقيا
سوى عيق من مسك قينثك اللما
أناول كالدينار من ذهل الدنيا
على ساعة من أنسنا صحت الرؤيا

وله يصف صوانا :

وذى حنين يكاد شوقا
يختلس الأنفس اختلاسا
لما غدا للرياض جارا
قال له المحل لامسا

يتسنم الروض حين يكفي
بأندمع ما رأين بأسا
من كل جفن يسل سيفا
صار له غمده رئاسا

وله وقد رأى صبيا يتساكى ويجعل من ريقه على عينيه يبحكي بذلك
الدموع :

عذيري من جذلان يدي كاتبة وأصلعه مما يحاوله صفر
أمبلد ميساس إذا قاده الصبي إلى ملح الإدلال أيده السحر
يسل ماقسي زهرته بريقه ويبحكي البكا عندما كما ابتسم الزهر
ويوهم أن الدمع بل جفونه وهل عصرت يوما من الترجم الحمر
وقال يصف نالما قد تصبب العرق على عده :
ومهفهف كالغضن إلا أنه سلب الشني النوم عن أثائه
أضحي بنام وقد تحبب خده عرقا فقلت الوردرش بماه

ابن طفيل الشاعر

وألف ابن طفيل في الطبيعتيات والإلهيات وغير ذلك، فمن رسائله الطبيعتيات رسالة سماها رسالة حي بن يقطان، غرضه فيها بيان مبدأ النوع الإنساني على مذهبهم وهي رسالة لطيفة الجرم كبيرة الفائدة في ذلك الفن، ومن تصانيفه الإلهيات رسالة في النفس. وكان قد صرف عنايته في آخر عمره إلى العلم الالهي ونبذ ما سواه، وكان حريصاً على الجمع بين الحكمة والشريعة معظماً لأمر النبوات ظاهراً وباطناً، هذا مع اتساع العلوم الإسلامية، وكان يأخذ العطاء مع عدة أصناف من الخدمة من الأطباء والمهندسين والكتاب والشعراء والرماة الأجناد إلى غير هؤلاء من الطوائف. وكان يقول : لو تفق عندهم علم الموسيقا لانفقته عندهم، وكان أمير المؤمنين أبو يعقوب شديد الشغف به والحب له، بلغني أنه كان يقيم في القصر عنده أياماً ليلاً ونهاراً لا يظهر، وكان أبو بكر هذا أحد حسنان الدهر في ذاته وأدواته، وأنشد ابنه يحيى بمدينة مراكش سنة ٦٠٣ هـ. من شعر أبيه:

وأنسنت إلى وادي العقيق من الحما
فما زال ذاك الترب نهبا مقسما
ويحمله الداري أبيان يمما
وأن سراها فيه لن يكتما
فأبادت محايا يندهش المتوسما
كشمس الضحى يعشى بها الطرف كلما
وقد كاد حل الود أن يتصرما
فلم أدر من شق الدجنة منها
فلم أدر أينما كان أسمجا
قرآن أحوال أذعن المكتما
يهون صعبا أو يرخص مائما
ولكن رأيت الصبر أوفى وأكثرا

هلا بكيت فراق الروح للبدن
فانحاز علوا وخلى الطين للكفن
أظلهما هدنة كانت على دخن
فيما لها صفة تمت على غبن

للناس في ذا تباين عجب
بين المعانى، أولئك السحب
وليس يدرؤون لب ما طلبوا
منه، ولا ينقضى لهم أوب
قد قسمت في الطبيعة الرتب
عليهم، ويحظى على إكرامهم والتنويع بهم، وهو الذي نبه على ابن

آلمت وقد نام المشيش وهو ما
وجرت على ترب الممحصب ذيلها
تناوله أيدي التجار لطيبة
ولما رأت ألا ظلام يجهها
نضت عذبات الريط عن حر وجهها
فكأن تجليها حجاب جمالها
ولما التقينا بعد طول تهاجر
جلت عن ثيابها وأوْمض بارق
واسعدني جفن الغمام على البكا
فقالت وقد رق الحديث وأبصرت
تشدتك لا يذهب بك الشوق مذهبها
فأمكنت لا مستغيا عن نوالها

ومن شعره في الزهد :
يا باكيها فرقة الأحباب عن شحط
نور تردد في طين إلى أجل
يا شد ما افرقوا من بعدما اعتلقا
إن لم يكن في رضى الله اجتماعهما

وانشدني بعض الكتاب له :
ما كل من شم نال رائحة
قوم لهم فكرة تجول بهم
وفرقة في القشور قد وقفوا
لا غاية تجلبي لتأظرهم
لا يتعدى أمرؤ جلته
ولم يزل أبو بكر هنا يجلب إليه العلماء من جميع الأقطار، وبشه

الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد، فمن حيث ذكر عرفة ونبه
قدره عندهم، قال ابن رشد :

لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب وجده هو وأبو بكر
ابن طفيلي ليس معهما غيرهما فأخذ أبو بكر يشي علي ويدركري بيته
وسلفي ويضم يفضله إلى ذلك أشياء لا يبلغها قدرى. فكان أول ما
فاتحني به أمير المؤمنين بعد أن سأله عن اسمي واسم أبي ونسبي
أن قال لي : ما رأيهم في السماء - يعني الفلسفة - أقديمة هي
أم حادثة ؟ فأدركني الحباء والخوف فأخذت أتعلل وأنكر اشتغالى بعلم
الفلسفة. ولم أكن أدرى ما قرر معه ابن طفيلي، ففهم أمير المؤمنين
مني الروع والحياء، فالتفت إلى ابن طفيلي وجعل يتكلّم على المسألة
التي سأله عنها، ويدركر ما قاله أرسسطو طاليس وأفلاطون وجميع
الفلسفه، ويرد مع ذلك احتجاج أهل الإسلام عليهم، فرأيت منه غارة
حفظ لم أظنهما في أحد من المشتغلين بهذا الشأن المتفرغين له، ولم
يزل يسطعني حتى تكلمت فعرف ما عندي من ذلك، فلما انصرفت
أمر لي بمال وخلعة سنية ومركب، وقال ابن رشد :

استدعاني أبو بكر بن طفيلي يوماً فقال لي : سمعت اليوم أمير
المؤمنين يشكك من قلق عبارة أرسسطو طاليس أو عبارة المترجمين
عنه ويدركر عموم أغراضه ويقول : لو وقع لهذه الكتب من يلخصها
ويقرب من أغراضها بعد أن يفهمها فهماً جيداً لقرب مأخذها على
الناس، فان كان فيك فضل قوة لذلك فافعل، وإنني لأرجو أن تفي
به لما أعلمه من جودة ذهنك وصفاء قربحلك وقوه تروعلك إلى الصناعة،
وما يعنني من ذلك إلا ما تعلم من كبير سني واشتغالى بالخدمة
وصرف عنايتي إلى ما هو أهم عندي منه، قال أبو الوليد ابن رشد :
فكان هذا الذي حملني على التلخيص ما لخصه من كتب الحكم
أرسسطو طاليس في جزء واحد في نحو من مائة وخمسين ورقة .

الباب الثالث

النثر الأندلسى

تمهيد

النشر الأدبي في الأندلس

النشر الفني من مظاهر الحضارة والرقي العقلي، وأثر من آثار العناية باللغة، يقصد فيه إلى جودة العبارة وسلامة الأسلوب، حتى يجد القارئ من اللذة مثلاً يجد من يستمع إلى الشعر الجيد، فهو من مظاهر الجمال، وقد اقتصر في القرن الأول من دخول العرب الأندلس على ما تقتضيه الأحوال من الخطب والرسائل الإدارية والسياسية، لضبط أمور الدولة وإشعال الحماسة في أرواح الجندي، لأن ميدان الحياة الاجتماعية والسياسية لم يكن قد استقر واتسع، فلم يساعد على نمو ملكة الكتابة الفنية في الموضوعات الخيالية والاجتماعية، فكانت الكتابة عربية في موضوعاتها وعباراتها الجزلة، خالية من الصنعة والتكلف.

ثم اتسع المجال للنشر الفني، فشمل الموضوعات المعروفة لدى المغاربة؛ وأيّن الأندلسيون ما لم يكن شائعاً هناك، فشملت رسائلهم مدح الخليفة والتهنئة، والشوق والتعاب، والوصف: كوصف المحاير والمجالس والرياض والأزهار، والأنهار، والكتواف، والتعازى، والحكايات، والقصص، والمناظرات الخيالية بين بلدان الأندلس، أو بين السيف والقلم، وكتبوا في التوسل إلى الله وإلى الرسول، والتصوف والزهد والتقوى.

أنواع النثر الأندلسي :

للنثر الفني الأندلسي أنواع كثيرة أهمها :

١ - نثر الدواوين : وهو ما يصدر عن الملوك والأمراء في تصريف شئون الدولة وأعمالها، أو يصدر عن الكاتب بإرشادهم وتوجيههم، وكانوا إذا علت لديهم مرتبة الكاتب وناب عن الأمير أو الخليفة لقب بالحاجب وهو أشرف الألقاب في الدولة، وكان اسم الوزير يطلق على كل من يجالس الملوك ويختص بهم، أما الذي ينوب عن الملك في سياسة الدولة فكان يلقب « بذى الوزارتين » ويكون غالباً من أهل الأدب.

٢ - نثر الرسائل الخلقية والاجتماعية. ويتناول البحث في شئون الناس وأحوالهم، وما يجب أن يكونوا عليه من خلق فاضل وعدل، ومحبة وسلام.

٣ - نثر الرسائل الأدبية : وهو ما يصدر من الكتاب والأدباء، متناولاً أغراض الشعر من مدح وعتاب وتهنئة ورثاء ووصف ونحوها، ومصورةً عواطف الناس وأهواهم في حياتهم الخاصة وال العامة.

٤ - النثر الخيالي : ويقصد به الترفيه عن النفس بما يلذ قراءاته من القصص الموضوعية، وهو ما نسميه الآن النثر الروائي. وهو أنواع : فمنه ما يتناول شرح الحقائق في أسلوب قصصي خيالي، كرسالة ابن شهيد المسماة بالتوابع والزوابع، تناول فيها جمهرة من الأدباء، فعرض صوراً من شعرهم ونقدها، ومنه ما يتناول الأمور الخيالية كالمناظرة بين السيف والقلم، والمناظرة بين بلدان الأندلس، ومنه ما يتناول الموضوعات العامة الاجتماعية والفلسفية على شكل قصصي.

٥ - النثر العلمي : وإن كان الأدباء لا يغدونه من النثر الفني، ولكن الأندلسيين لما أبدعوا في التقني في أساليبه، ونمقوها عباراته، صبح

أن يعد عندهم من التراث الفني، وكتب : قلائد العقيان، ومطعم الأنفس، ونفح الطيب تؤيد ذلك.

أسلوب التراث :

كان الأندلسيون يقتفيون أثر المشارقة في أساليب الكتابة، لأنهم رأوا هم أنفسهم في صناعة الكلام، وكان التراث أول عهد العرب بالأندلس سهلاً جزلاً لا تكلف فيه، ولا أثر للصناعة اللغظية إلا ما يجيء منها عفواً. ولما ظهر ابن العميد وحلبه في الشرق، أخذ عنهم الأندلسيون طريقتهم في الكتابة فقلب على تراثهم الصناعة اللغظية، والتزم في السجع، حتى أصبح من خصوصيات التراث الأندلسي، وملأوه بالتشبيهات والاستعارة والكتابية وأشياء من المحسنات البديعية.

ولقد امتازت الكتابة الأندلسية بميزات اقتضتها طبيعة البلاد وأحوال أهلها، وما حل بدولها أخيراً. منها :

- ١ — كثرة الوصف لمشاهد الكون مما قد يخرج الكاتب عن الغرض الذي يكتب فيه.
- ٢ — غلبة الخيال الشعري على معانيهم.
- ٣ — كثرة المناظرات والمحاورات الخيالية بين السيف والقلم والربيع والخريف والمدن والأنهار والأزهار^(١).
- ٤ — التزام الأطناب في الرسائل السلطانية.
- ٥ — قلة الغلو والبالغة في تعظيم الملوك والأمراء، كما كان المشارقة يفعلون.
- ٦ — وقد ظل التراث الأندلسي محافظاً على عربته وفصاحته، لم تنسده العجمة إلى جلاء المسلمين عنها.

(١) كما في رسالة ابن برد الأصغر في تحضير الورد (راجع ١٥٠-١٦١ من كتاب بلاغة العرب في الأندلس).

الفصل الأول

صور من التراث الأندلسي

- ١ -

أ— وصف عبد الرحمن الداخل فراره من بطش العباسين فقال :

« إنتي لجالس يوماً في ظلمة بيت تواريت فيه، لمد كان بي، وابني سليمان، بكر ولدي، يلعب قدامي، وهو يومئذ ابن أربع سنين أو نحوها، إذ دخل الصبي من باب البيت فازعاً باكياً، فأهوى إلى حجري فجعلت أدفعه لما كان بي، وباي إلا التعلق وهو دهش يقول ما يقوله الصبيان عند الفزع، فخرجت لأنظر، فإذا بالروع قد نزل بالقرية، ونظرت فإذا بالرياحات السود منقطة، وأخ لي حدث السن كان معن يشتد هارباً، ويقول لي : « النجاء يا أخي ! فهذه رياحات المسودة » فضررت ييدي إلى دنائير تناولتها، ونجوت بنفسى، والصبي أخي معن، وأعلمت أخواتي بمتجهي ومكان مقتضدي، وأمرتهن أن يلحقنني ومولاي بدر معهن، وخرجت فكممت في موضع ناء عن القرية، فما كان إلا ساعة حتى أقبلت الخيل فأحاطت بالدار، فلم تجد أثراً، ومضيت، ولحقني بدر، فأتيت رجلاً من معارفي بشط القرارات، فأمرته أن يبتاع لي دواب وما

يصلح لسفرى، فدل على عبد سوء له، فما راعنا إلا جلة الخيل تحفتنا، فاشتدنا في الهرب، وسبقناها إلى الفرات، فرمينا فيه بأنفسنا، والخيل تناهينا من الشط : « ارجعا ! لا بأس عليكم »، فسبحت حاتاً لنفسي وكانت أحسن السبع، وسبيح الغلام أخي، فلما قطعنا نصف الفرات، قصر أخي ودهش، فالتفت إليه لأقوى من قلبه، وإذا هو قد أصفعنا إليهم، وهو يخدعونه عن نفسه، فناديه « تقتل يا أخي ! إلى إلى ! » وإذا هو قد اغتر بأمانهم وخشي الغرق، فاستعجل الانقلاب نحوهم، وقطعت أنا الفرات، وبعضهم قد هم بالتجدد للسباحة في أثري، فاستكفهم أصحابه عن ذلك، فتركوني، ثم قدمو الصبي، أخي، الذي صار إليهم بالأمان، فضربوا عنقه، ومضوا برأسه، وأنا أنظر إليه، وهو ابن ثلاث عشرة سنة، فاحتفلت فيه ثكلا ملائني مخافة، ومضيت إلى وجهي أحسب أني طائر، وأنا ساع على قدمي، فلجمأت إلى غيبة أشبة، فتواريت فيها حتى انقطع الطلب، ثم خرجت هارباً أروم المغرب، حتى وصلت إلى إفريقية.

ب — وروي أن الداخل كان في بعض مجالسه، فمثل بين يديه رجل من جند قسرى يستجديه، فقال له : « يا ابن الخالق الراشدين، والسدادة الأكرمين إليك فررت، وبك عذت من زمن ظلوم، ودهر غشوم، قلل المال، وكفر العيال، وشعثت الحال، فصبر إلى نداك المال، وأنت ولـي الحمد والمجد، والمرجو للرفد ».

فأجابه عبد الرحمن مسرعاً :

« قد سمعنا مقالتك، وقضينا حاجتك، وأمرنا بعونك على دهرك، على كرها لسوء مقالك، فلا تعودن ولا سواك لمثله، من إراقة ماء وجهك بتصریح المسألة والإلحاح في الطلبة، وإذا ألم بك خطب، أو حر بك أمر، فارفعه إلينا في رقمة لا تعدوك، كيما تستر عليك

خلتك، وتکف شمات العدو عنك بعد ر فعلك لها إلى مالکك ما لکنا
عزعوجهه — باخلاص الدعاء، وصدق النية.»

قالوا : « وأمر له بجائزه حسنة، وخرج الناس يعجبون من منطقه،
وببراعة أدبه. وكف فيما بعد ذُو الحاجات عن مقابلته بها شفافها في
مجلسه ».٤

جد — وحدث بعض موالي عبد الرحمن الخاصين به، أنه دخل
عليه، اثر قتله ابن أخيه بن الوليد^(١) وهو مطرق شديد الغم، فرفع
رأسه إليه وقال :

« ما عجبني إلا من هؤلاء القوم سعينا فيما يضجعهم في مهاد الأمان
والنعمة، ومحاطرنا فيه بحياتنا، حتى إذا بلغنا منه مطلوبنا، ويسير الله
أسبابه، أقبلوا علينا أيام السيف، ولما أُتيتناهم وشاركتناهم فيما أفردنا
الله به حتى أمنوا ودرت عليه أخلاف النعم، هزوا أعطافهم، وشمخوا
بأنافهم، وسموا إلى العظمى؛ فنازعونا فيما منحنا الله، فخذلهم بكفرهم
النعم، إذ أطمعنا على عوراتهم، فما عاجلناهم قبل أن يعاجلنا، وأدى ذلك
إلى أن ساء ظتنا في البريء منهم، وساء أيضاً ظنه فيما، وصار يتوقع
من تغييرنا عليه، ما تتوقع نحن منه، وإن أشد ما على في ذلك أخي؛
والد هذا المخدول، كيف تطيب لي نفسي بمحاورته، بعد قتل ولده،
وقطع رحمه، أم كيف يجتمع بصري مع بصره؟ اخرج إليه الساعة

(١) كان الداخل بعد أن استتب سلطنه بالأندلس، شديد الإزياح إلى وفود أقاربه من بي
مروان، ليشاهدو ما أنعم الله عليه فرواقدوا عليه، وكان منهم الريدي، وعيبد الله بن
ابن بن معاوية وهو ابن أخي الداخل، وكان تحت تدبير برمانه في طلب الأمر،
فوشي بهما أحد موالي الثاني، وما قاله بعد قتلهما : « أعظم ما أنعم الله به علي،
بعد تكفي من هذا الأمر، القدرة على إبراء من يصل إلى من أقاربي، والتوصي في
الإحسان إليه، وكيري في أعينهم وأسمائهم وتفوسيهم، بما منحني الله من هذا السلطان
الذي لا مثنه على فيه لأحد غيره ».٤

فاعتذر إليه، وخذ خمسة آلاف دينار وادفعها إليه واعزم عليه في الخروج
عني من هذه الجزيرة، إلى حيث شاء من بر العدو»^(١).

د — وللداخل الخليفة حين اشتد الكرب بين يديه، يوم حربه
مع النهرى :

« هذا اليوم هو أساس ما يبني عليه، إما ذل الدهر، وإما عز الدهر،
فاصبروا ساعة فيما لا تنتهي، تربعوا بها بقية أعماركم فيما تنتهيون.
هـ — وله خطبة حين عرض عليه إمارة الأندلس وفدى من السكان
أتي معه قائلاً :

« أجمع المسلمين الصادقون على انتخابك أمير الجزيرة، فيجعلك
أن تبني فيها ملكاً مشيد الأركان، موطداً الدعائم، على أساس أقوى
من الجبال، معتمداً على عزائمهم القوية، وطاعتهم الصادقة، لا ريب
أن يستجد مقاومة وبعض خطر، ولكنك لست وحدك بل بجانبك فتىان
أشداء من أبناء من فتحوا الغرب، وشعوب ترغب فيك وتدعوك إليها،
ونحن جميعاً نهب إلى الوغى، لنبدل الأرواح في سبيل ارتقائك إلى
عرش الإمارة التي تلقى مقاليدها إليك، وتحفظ بيتها من أن يسلمه»^(٢).
فسكت عبد الرحمن هيبة يتوقع منه أن يتمم خطابه، لكنه شعر

(١) قال « فلما وصلت إلى أخيه، وجده أنه بالأسوات منه بالأحياء، فاتسنه وعرفه ودفعه
له المال، وأبلغه الكلام، فأقره وقال : « إن الشئوم لا يكون بليغاً في الشئوم حتى
يكون على نفسه وعلى سواه، وهذا الولد العاقد الذي سعى في حفظ، قد سرى
ما سعى فيه إلى رجل طلب المافقة وقع بكسر بيت في كتف من يحمل عنه مسيرة
الزمان وكله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ولا مرد لما حكم فيه وقضاء في
الحركة إلى بر العدو »؛ قال : « فلما رجعت إلى الأثير، فأعلمه يقول قال : « إنه
نطق بالحق، ولكن لا يخدعني القول عما في نفسه، والله لو قدر أن يشرب دمي
ما عف عنه لحظة، فالحمد لله الذي أظهرنا عليهم بما نوبناه فيهم، وأذلهم بما نورنا فينا ».

ان الوفد يتضرر إيجاباته خطبتهم بقوله : أيها السراة الأمجاد ! إيجابة لرغابكم، وسعياً وراء أهانتكم في إصلاح شؤون مسلمي آسيا، أذهب معكم، ياذلاً النفس، في سبيل الدفاع عن هذه الغاية الحميدة، فإذا صدقت عزائمكم ودامت طاعنكم وفعح الله لنا باب الفوز، رأيت مني أحنا صدقأً يقاسمكم الشقاء والهباء ويعلم الله أني لا أخشى الشدائـ ولا أهواـ العروـب، ولا أرهـ الموـت الأـحـمر فقد عـركـي الدـهر وعـركـهـ، وـكـثـرـاـ ما رـكـبتـ متـونـ الأـخـطـارـ علىـ حدـاثـةـ سـيـ، وإذاـ كانـ ماـ يـدـعـونـتـيـ اليـهـ هوـ رـغـبةـ مـسـلـمـيـ الـأـنـدـلـسـ الـأـشـرـافـ، فـأـنـاـ أـلـيـ تـنـاءـعـهمـ وأـقـيلـ أـنـ أـكـوـنـ أـمـيرـهـ، وـحـامـيـ ذـمارـهـ إـنـ شـاءـ اللهـ .

- و کتب ملی بدر مولاہ:

«وقفت على رفعتك المنية عن جهلك، وسوء خطلك، وما فيها من إساءة أدبك وكيف معقدك، والعجب متى أنك ما أردت أن تبني لنفسك عندنا مقاماً، بل أتيت بما يهدم كل مقام مشيد. فما تمن به — مما قد أحضر الأسماع تكراراً، وقدح الفوس لإعادته، استحرنا الله من أجله. على أن أمرنا استصال مالك، وزدنا في هجرك وإعادتك، وهضنا جناح أغوانك، فعل ذلك يقمع منك ويردعك، حتى يبلغ بك ما نريد — إن شاء الله — فتحن أولى بتأديبك من كل أحد، إذ شرك مكتوب في مثاليبنا؛ وغيرك محدود في مناقبنا.

— وَبَعْثَ إِلَيْهِ بَدْرُ بْرَسَالَةٍ فَكَتَبَ يَجِيِّهُ :

«إن لك من الذنوب المترادفة، ما لو سلب معه روحك؛ لكن بعض ما استوجبه، ولا سبيل إلى رد مالك؛ فإن تركك بمعرض، في بلتهية الرفاهية وسعة ذات اليد، والتخلّي من شغل السلطان، أشيب بالنعمه منه بالقصة، فلما يأس من ذلك، فإن اليأس مريح». *

ح — وكتب اليه بدر يستعطفه، فكان جوابه عليه أن أمر بنفيه

عن قرطبة إلى أقصى الشفر، وكتب له في ظهر رقته :

« تعلم أنك لم تزل بمقتك، حتى ثقلت على العين طلعتك، وزدت إلى أن ثقل على السمع كلامك، ثم زدت إلى أن ثقل على النفس جوارك، وقد أمرنا بإقصائك إلى أقصى الشفر، فبالله إلا ما أصررت، ولا يبلغ بك زائد المقت إلى أن تضيق بك معي الدنيا. ورأيتك تشكو بفلان، وتألم من فلان وما تقولوه عليك، وما لك عدو أكبر من لسانك، فما طاح بك غيره، فاقطعه قبل أن يقطعك ».

— ٤ —

أ — واعتذر عبدالله بن محمد (٢٧٥ - ٣٠٠ هـ) يوماً إلى بعض مواليه فقال له عبدالله :

« إن مخايل الأمور تدل على خلاف قولك، وتبين عن باطل تصلك، ولو أقررت بذنبك، واستغفرت لجرمك، لكن أحمل بك وأسدل لستر العفو عليك ».

قال : « قد اشتعل الذنب علي، وحاق الخطأ بي، وإنما أنا بشر، وما يقوم لي عذر ! ».

فأجابه عبدالله : « مهلاً عليك ! رويداً بك ! تقدمت لك خدمة، وتأخرت لك توبة، وما للذنب بينهما مدخل، وقد وسعت الغفران ».

ب — وكتب إلى بعض عماله :

« أما بعد، فلو كان نظرك فيما خصصناك به، واهبناك به، على حسب متواترك بالكتب، واحتفالك بذلك على مهم أمرك، لكت من أحسن رجالنا غناء، وأنتم نظراً، وأفضلهم حزماً، فأقلل من الكتاب ».

فِيمَا لَا وَجْهَ لَهُ، وَلَا نَفْعٌ فِيهِ، وَاصْرَفْ هَمْتَكَ، وَفَكِرْتَكَ، وَعَنْيَاتَكَ،
إِلَى مَا يَبْدُو فِيهِ اكْتِفَاؤُكَ، وَيَظْهُرُ فِيهِ غَنَاؤُكَ — إِنْ شَاءَ اللَّهُ ! ».

— ٣ —

أ— ولما توفي السلطان أبو عبد الله محمد بن يوسف أول ملوك
بني الأحمر في منتصف جمادى الثاني من عام أحد وسبعين وستمائة
دفن بالمقبرة الجامعة العتيقة بستان السيدة ، وكتب على قبره منقوشاً
في الرخام :

هذا قبر السلطان الأعلى. عز الإسلام، جمال الأنام، فخر الليالي
والأيام، غيات الأمة، غبت الرحمة. قطب الصلة، نور الشريعة، حامي
السنة سيف الحق. كافل الخلق، أسد الهيجاء، حمام الأعداء، قوام
الأمور، ضابط الغور، كاسر الجوش، قائم الطفاية، قاهر الكفرة والبغاء،
أمير المؤمنين، علم المعتمدين، قدوة المتقين، عصمة الدين، شرف الملوك
والسلطانين، الغالب بالله، المجاهد في سبيل الله، أبي عبد الله محمد
بن يوسف بن نصر الأنصارى، رفعه الله إلى أعلى علين، وألحقه بالذين
أنعم الله عليهم من النبيين، والصديقين، والشهداء والصالحين، ولد رضى
الله عنه وآتاه رحمة من لدنها عام أحد وسبعين وخمسمائة. وكانت
وفاته يوم الجمعة بعد صلاة العصر التاسع والعشرين لشهر جمادى
الأخيرة عام أحد وسبعين وستمائة . فسحان من لا يفني سلطانه، ولا
يبيد ملكه ولا ينقضي زمانه، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم :

هذا محل العلي والمجد والكرم قبر الإمام الهمام الطاهر العلم
لله ما ضم هذا المهد من شرف جم ومن شيم علوية الهمم
فالباس والجود ما تحوي صفاتيه لا يأس عترة ولا ندى هرم
معنى الكرامة والرضوان يعمره فخر الملوك الكريم الذات والشيم

مقامه في كلا يومي ندى ووغر
ما شر تلست آثارها سورة
كأنه لم يسر في جحفل لجب
ولم يغاد العدى منه بسادره
يفتر منها الهدى عن ثغر مبسم
ولا تشرب الماء إلا من قليب دم
ولم يقم حكم عدل في مسايسة
تأوي رعيته منه إلى حرم
من كان يجهل ما أولاهم من نعم
وما حماه لدين الله من حرم
فذلك آثاره في كل مكرمة
أبدى وأوضح من نار على علم
سحائب الرحمة الوكافة الديم *
لا زال تهمى على قبر تضمنه
ب — وكتب على قبر السلطان نصر أحد ملوك بني الأحرmer.
(٧١٢—٧١٣هـ).

هذا قبر السلطان القاضي، الإمام العادل، علم الأتقياء، أحد الملوك الصالحة، المحبث^(١) الأول، المجاهد في سبيل الله، الرضي الأروع، الأخشى للأخشع، المراقب لله في السر والإعلان، المعمور الجنان بذكره والنسان السالك — في سياسة الخلق وإقامة الحق — منهج التقوى والرضوان، كافل الأمة بالكرامة والمحنان، القائم لها — بفضل سيرته وصدق سيرته وتور بصيرته، أبواب اليمن والأمان، والمنيب الأول، العامل بكل ما يجده نوراً مبيناً يوم الحساب، ذي الآثار السنية، والأعمال الطاهرة العلية، القائم في جهاد الكفار بماضي العزم وحالص النية، مقيم قسطناس العدل متبر منهج العلم والفضل، حامي الذمار، وناصر دين المصطفى المختار، المقتدى بأجداده الأنصار، المتسلل بما أسلفوه من أنصار البر والجهاد ورعاية البلاد والعباد إلى الملك الغفار، أمير المسلمين وظهير المؤمنين وقائم العتدين، المنصور بفضل الله أبا عبدالله ابن

(١) المطبع.

أمير المسلمين السلطان الأعلى، إمام الهدى، غمام الندى، محى السنة،
ومعزع الملة المجاهد في سبيل الله، الناصر للدين الله أبا عبد الله ابن
أمير المسلمين الغالب بالله أبا عبد الله بن يوسف بن نصر، كرم الله
مثواه، ونعمه برضاه.

ولد رضي الله عنه يوم الأربعاء الثالث لشعبان المكرم من عام خمسة
وخمسين وستمائة، وتوفي قدس الله روحه وبرد ضريحه ضحوة يوم
الاثنين الثالث لشوال عام ثلاثة عشر وسبعيناً، رفعه الله إلى أعلى
منازل أوليائه الأبرار، والحقه بأئمة الحق الذين لهم عقبي الدار. وصلى
الله على سيدنا ومولانا محمد وآل وصحبه وسلم تسليناً.

جـ - وكتب في الجانب الآخر هذا الشعر :

على قبر مولانا الإمام المؤيد
رضا الملك الأعلى بروحه ويتدلى
فقدس من معنى كريم ومشهد
مقر العلى والملك واليأس والندى
فبورك في مثوى زكي وملحد
ومنوى الهدى والفضل والعدل والتقوى
فيما عجبأ طود الوقار جلاله
ثوى تحت أطباقي الصفيح المنضد
واسطة العقد الكريم الذي له
ماثر مجد بين مشى وموحد
إمام الهدى نجل الإمام محمد
محمد الأرضي سليل محمد
فيا نخبة الأمالاك غير منازع
فبكلك بلاد كنت تحمي ثغورها
ويا علم للدين أوضحت رسنه
بعزم أصيل أو برأي مسدد
كأنك ما سست البلاد وأهلها
بني لك في الفردوس أرفع مصعد
بسيرة ميمون التقيية مهند
فচসিরতهم نهب القنا المتقصد(١)
فتحت بها باب النعيم المخلد

(١) في نسخة الاسكوربفال : « رهن القنا المتقصد ».

بتجدد غزو أو بتشييد مسجد
وإصراخ مذعور واسعاف مجند
تجادل عنها بالحسام المهدى
فذاك ثواب الله يلاقاك في غد
مقام منيب خاشع متبع
صريح الردى إن لم يجز فكان قد
يدار نعيم في رضا الله سرمد
في ليت شعري هل تصيح لمنشد
كأنك ما أنفقت عمرك في الرضا
وإنصاف مظلوم وتأمين خالق
كأنك ما أحيايت للحق سنة
فإن تحجل الدنيا عليك وأهلها
تعموست ذهراً من مقام خلافة
وكل الورى من كان أو هو كائن
فلا زال جاراً للرسول محمد
وهذا القوافي قد وفت بنظمها

- 4 -

أ— ومن الرسالة الجدية لابن زيدون^(١) وهي التي كتبها لأبي الحزم بن جهور أمير قرطبة وهو في سجنه يستعطفه :

« يا مولاي وسيدي الذي ودادي له، واعتمداني عليه، واعتداري
به، ومن أبقاء الله تعالى ماضي حد العزم، واري زند الأمل، ثابت
عهد النعمة. إن سلبتني — أعزك الله — ليأس إعماك، وعلقتك من
حلي إيناسك، وأظلمتني إلى برود^(٢) إسعافك، وتغضت بي كف
حياطنك؟ وغضبت عني طرف حمایتك، بعد أن نظر الأعمى إلى
تاميليك لك، وسمع الأصم ثانى عليك، وأحس الجمام باستحبابي إليك،
فلا غزو قد يغض^(٣) بالماء شاربه، ويقتل الدواء المستشفى به، وبؤتي

(١) هو ذو الوزارتين أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون القرطبي، وزير آل جهور بفترة عطية ثم آل عبد بأشليلة، وصاحب المسالك. - الحجدة والهداية، توفى سنة ٣٦٤ هـ.

(٤) البرود : الماء البارد، أي إسعافك الذي هو كالماء البارد في إرواء الله العطش.

(۲) پنجه : پیش رو.

الحدن من مأمه، وتكون منه المتمني في أمنيته، والحين^(١) قد يسبق
جهد الحريص :

كل المصائب قد تمر على الفتى وتهون غير شامة الحساد
ولاني لأتجدد، وأرى الشامتين أني لريب الدهر لا أتضعضع، فاقول :
هل أنا إلا يد أدماها سوارها، وجيئ عض به إكليله، ومشري^(٢)
القصه بالأرض صاقله، وسميري^(٣) عرضه على النار متفقه، وبعد
ذهب به سيده مذهب الذي يقول :

فتشا ليزدجروا، ومن يك حازماً فليس أحيانا على من برحم ؟

هذا العتب محمود عوقيه، وهذه النبوة^(٤) غمرة ثم تنجلی، وهذه
الذکية سحابة صيف عن قليل تقشع^(٥)، ولن يربيني من سيدی أن أبطة
سيبه^(٦)، أو تأخر غير ضئن غناوه، فابتلا الدلاء فيضاً أملوها، وأنقل
السحائب مشياً أخلفها، وأنفع الحياة ما صادف جدياً، وأذل الشراب ما

أصاب غليلاً، ومع اليوم غد، ولكل أجل كتاب. له الحمد على

اعتباره^(٧) ولا عتب عليه في إغفاله :

فإن يكن الفعل الذي ساء واحداً فاعماله اللاشي سررن السوف

وأعود فأقول : ما هذا الذنب الذي لم يسعه عفوك، والجهل الذي

لم يأت من ورائه حلمك ؟ والطائل الذي لم يستغرقه تطولك^(٨)،

(١) الحين : الهلاك.

(٢) المشري : السيد ينسب إلى مشارف الشام.

(٣) السميري : الرميم ينسب إلى سمير وهو صانع للرماد وزوجه ردينة كانت تحمل
معه السلاح وإليهما تنس الرماح.

(٤) النبوة : الجفوة.

(٥) تقشع : تكتشف وتزول.

(٦) السبب : العطاء.

(٧) الاعتبار : الاعتراض، أي اختنام معروفة.

(٨) التطول : التكرر.

والتحامل الذي لم يف به احتمالك ؟ ولا أخلو من أن أكون بريءا،
فأين العدل ؟ أو مسيعاً، فأين الفضل ؟
إلا يكن ذنب فعدلتك واسع او كان لي ذنب ففضلك أوسع
وهل ليس الصباح إلا بردأ طرزته بفضائلك^(١) ؟ وتقلدت الجوزاء
إلا عقداً فصلته بسأرك ؟ واستعملى الربع إلا ثاء ملائكة بمحاسنك ؟
وبث المسك إلا حديثاً أذعنه في محامدك ؟ ما يوم حلية^(٢) بسر ؟
 وإن كنت لم أكشك سليماً، ولا حلتيك عطلاً، ولا سمنتك غفلاً،
بل وجدت آجراً وجصاً فبنت ومكان القول ذا سعة قلت.
ب — وقال الفتح بن خاقان في كتابه قلائد العقيان في ترجمة
أبي الفضل بن حسديا^(٣):

ولما أعرض المستعين بالله بيت الوزير الأجل أبي بكر بن عبد
العزيز احتفل أبوه المؤمن بالله في ذلك احتفالاً شهراً، وأبدع فيه
إيداعاً راق من حضره وبهره، فإنه أحضر فيه من الآلات المبتدة،
والأدوات المخترعة، ما يهر الألياب، وقطع دون معرفتها الأسباب،
واستدعى إليه جميع أعيان الأندرس من دان وقادس، ومطفع وعاص،
فأتوه مسرعين، ولبواه متربعين وكان مدير تلك الإراغة^(٤) ومديرها،
ومنشئ مخاطباتها ومحبرها، الوزير الكاتب أبو الفضل، وصدرت عنه
في ذلك الوقت كتب ظهر إعجازها، وبهر اقتضابها وإيجازها، فمن

(١) يبالغ في أن يراضي الصبح مستعاراً من مشهور ثنائه عليه، وكذلك العبارات الآتية.

(٢) هنا مثل يضرب للأمر المتعال الشهور، وحلية هذه هي بيت الحارث من أبي
شمر العساني وجه أبوها جيشاً إلى المنذر بن ماء النساء فقسمتهم بالطبع جميعاً،
فقيل : ما يوم .. الخ.

(٣) ابن حسديا : كان وزيراً للؤلتن والمستعين من ملوك الطوائف، وكان يهودياً وأسلم،
وله كتابة لينة موجزة تظهر عليها مسحة الفلسفة.

(٤) الإراغة : الإرادة والطلب والدعوة.

ذلك : ما خاطب به صاحب المظالم أبي عبد الرحمن بن طاهر : « محلك أعزك في طي الجوانح ثابت وإن نزحت الدار، وعيانك في أحناه الضلوع باد وإن شط المزار، فالنفس فائزة منك بتمثيل الخاطر بأوفر الحظ، والعين نازعة إلى أن تمنع من لقائك بظفر اللحظ، فلا عالمة أسبغ بربداً، ولا موهبة أسوغ ورداً، من تقضيك باللحوق إلى مأنس يتم بمشاهدتك الشامة، وبفضل محاضراتك انتظامه، ولنك فضل الإجمال، بالإمتناع عن ذلك بأعظم الآمال، وأنا (أعزك الله) على شرف سؤدوك حاكم، وعلى مشروع سائلك حائم. وحسبي ما تتحققه من تزاعي وتشوقي، وتيقنه من تطليعي وتتوقني. وقد تمكن الارتفاع باستحكام الثقة، واعتراض الاقتراح، بارتقاء الصلة. وأنت وصل الله سعدك بسماحة شيمتك، وبارع كرمك، تنشئ للمواصلة عهداً، وتوري بالمكانة زندأ، وتقتضي بالمشاركة شكرأً حافلاً وحمدأً. لا زلت منهاً بالسعود المقبولة، ومسوغاً اجتلاء غير الأماني المتહلة بمنه ».

ج — وهذا فصل للأدب أبي عامر بن عقال^(١) :

كتب به عن الأمير إبراهيم يصف اجتياز أمير المسلمين البحر سنة خمس عشرة وخمسماة : في الساعة الثانية من يوم الجمعة، كان جوازه (أيده الله تعالى) من مرسي جزيرة طريف على بحر ساكن قد ذُل بعد استصعبه، وسهل بعد أن رأى الشامخ من هضابه، وصار حيه ميتاً، وهدره صمتاً، وجباله لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً، وضعفت تعاطيه، وعقد السلم بين موجه وشاطيء، فغير آمناً من سطوطه، متملكاً لصهواته، على جواد يقطع الجروف لمحاه، ويقاد يسبق الريح سباحاً، لم يحمل لجاماً ولا سرجاً، ولا عهد غير اللغة الخضراء مرجاً؛ عنانه في

(١) كان أبياً شاعراً كاتباً من كتاب بي قاسم من ملوك الطوائف، ولما ملك المرابطون الأندلس وأذروا ملك الطوائف انصل بالأمير إبراهيم بن يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين، فكان كتاب إنشائه.

رجله^(١)، وهدب العين يحكي بعض شكله، فلله دره من جواد، له جسم وليس له فؤاد، يخرق الهواء ولا يرهب، ويركب الماء ولا يشربه.

— ٥ —

صور من التراث العلمي :

أ— باب ما يهمز فيكون له معنى، فإذا لم يهمز كان له معنى آخر — من كتاب «المخصص»^(٢) :

يقال : قد رأيت في الأمر، وقد رويت رأسي بالدهن. وقد تملأ من الطعام والشراب، وقد تملأ العيش : إذا عشت ملياً أي طوبلاً، وتقول : قد تخطأت له في هذه المسألة، وقد تخطيت القدم، لأنك من الخطورة، وقد قرأت القرآن وما قرأت الناقة سلاقطاً، أي لم تلق ولدأ، أراد أنها لم تحمل، وقد قربت الضيف وقد سوأت عليه ما صنع، إذا قلت له : أَسأْت، وقد سويت الشيء. والعرب تقول : إن أصبحت فصوصي، وإن أحطأتك فخطبني، وإن أَسأْت فسوئ على. وقد خبأ الشيء يخبوه خبأ، وقد خبت النار خبوا : إذا ذهب لهما، وقد برأت من المرض أبراً براءاً، وقد بررت القلم، وقد بارأت شريكي — إذا فارقه — وقد بارأ الرجل امرأته، وباري فلاتاً إذا كنت تفعل ما يفعل، وفلان ياري الريح سخاء.

(١) رجل السفينة : سكانها (دقها) أي لأن له مجاذيف متراصة متقاربة من الجانحين كأنها الأهداب.

(٢) صاحبه أبو الحسن علي بن إسماعيل النحوي الفزير المعروف بابن سيده المتوفى سنة ٤٥٨هـ من ٦٠ سنة.

بــ افتتاح كتاب :

قال الشيخ الفقيه الإمام العالم المؤرخ ذو الوزارتين الكاتب البارع الأديب : لسان الدين أبو عبدالله محمد بن الخطيب السلطاني رحمة الله (٧١٣-٧٧٦) في مقدمة كتابه المحة البدرية في الدولة التصرية :

الحمد لله الذي جعل الأزمنة كالأفلاك، ودول الأملال كأنجم الأخلاق، تطلعها من المشارق نيرة، وتلعب بها مستقمة أو متبرجة، ثم تذهب بها غائرة متغيرة^(١). السائق عجل، وطبع الوجود مرتجل، والحي من الموت وجل، والدهر لا معندر ولا عجل؛ بينما ترى الدست عظيم الزحام، والموكب شديد الاتحاح؛ والوزعة تشير، والأبواب يقرعنها البشر، والسرور قد شمل الأهل والمشير؛ والأطراف يلشمها الأشراف، والطاعة يشهرها الاعتراف، والأموال يحوطها العدل أو يبيحها الإسراف؛ والرياح تعدد، والأعطيات تتفقد؛ إذ رأيت الأبواب مهجورة، والدسوت لا مؤملة ولا مزورة؛ والحركات قد سكتت، وأبدى الإدالة قد تحكت.

فكان لم يسم سامر، ولا نهى ناه ولا أمر آخر. ما أشبه الليلة بالنهار، والغادية بالرائحة «إنما مثل الحياة الدنيا كما أنزلناه من السماء فاختلط به ثبات الأرض فأصبح هشياً تذروه الرياح» .. فالويل لمن يترك حسنة تفعّه، أو ذكرًا جميلاً يرفعه. فلقد عاش عيش البهيمة، وأضاع جواهر عمره الرقيقة القيمة، في السبيل غير المستقمة، ويندر أمانه سبحانه في المساخط^(٢) العقيمة. وطوى لمن عرف المصير، وغافض الزمان القصير^(٣)، في اكتساب محمدة تبقى بعده شهاباً، وتخليد منقبة تفيده ثناء وثواباً، فالذكر الجميل كلما تخلد استدعي الرحمة وطلبه؛ واستدنى المغفرة واستجلبها، فلمثله فليعمل العاملون، وغايته فليأمل

(١) غالرة : المتربدة. وفي النسخة المراكشية : غالرة.

(٢) في نسخة الاسكوريات : المساقط.

(٣) غافضه : أبغذه على غرة.

الآملون، « والدار الآخرة خير لو كانوا يعلمون » .. والصلوة على سيدنا ومولانا محمد رسوله الذي شرح حقارة الدنيا على الله وبين، وحدد^(١) البلاغ منها وعین، وخفض الكلمة ولین، وحسن الدار الآخرة، وزین، وخفض^(٢) أمر هذه الدار الفرور وهین. وقال — صلاة الله وسلامه عليه — : « أكثروا من ذكر هادم اللذات » كيلا تثبت بها يد؛ « ولتضر نفس ما قدمت لغد ». .

والرضا عن آله الذين جازوا على جسرها الممدود ومرروا. ولقوا الله وهم لم يغتروا، فكانوا إذا عهدوا بروا، وإذا سمعوا اللغو فروا، وإذا تلقي عليهم آيات الله خروا. وكانت عن حدود تقواه لا يبرحون؛ وبسوى مواهبه الباقية لا يفرحون. « أولئك حرب الله، ألا إن حرب الله هم المقلدون ». .

أما بعد فإن في تاريخ الدول عبرة لأولي النهى، وذكرى لمن غفل عن الله وسهام تحول الأحوال، وتصير الرسوم إلى الزوال، وتلاعب زعزع الأموال، بالنفوس والأموال، إلى امتاع المجالسة، وإنحصار المؤانسة، عند الملابسة، لاسيما التاريخ الذي لم يهتم لضممه لديوان، لقلة عياب، أو تأخر زمان، فالنفوس إليه متطلعة، وباحتلاء أبياته^(٣) متولعة.

ولذلك ما جللت في هذا الكتاب ذكر (ملوك النصرية) على نسق، وأطلعت منهم في ليل الخبر بدور غسل. إذ كنت جهينة أخبارهم، وقطب مدارهم، وزمام دارهم. فذكرت نبدأ من أخبار وطنهم الذي سكنوه، وأفقمهم الذي حسنته بسيرهم الحميدة وزينوه. ومن دال به

(١) في نسخة الأسكوريال : « وحد ». .

(٢) كذا في النسخين؛ وفي هامش المراكشية بخط أحدث : « وحق ». .

(٣) في المراكشية : أغراضه.

قبيلهم من أمير، أو ذي حسب شهر، ثم تعاقبهم بحسب الزمان، وسعة الامكان، ومن اختص بهم من قاض، وكانت وزيراً، أو كان على عهدهم من ملك كبير، أو حادث يليق بخلد أو تسطير.. وسميته «لحمة البدرية، في الدولة النصرية»، فان كانت الإجاده فهو القصد، أو كانت الأخرى بذل الجهد، وحصلت البراءة من التقصير والله الحمد. وها أنا أبتدىء، وبالله أهتمي، وغفوه يتغمد ما خطنه يدي.

ج — ومن كلام أبي عمرو وأحمد بن محمد ابن عبد ربه القرطبي، صاحب «العقد الفريد» المتوفى سنة ٣٢٨هـ في مقدمة كتاب الأجوية، من كتابه العقد :

هي أصعب الكلام كله مركباً، وأعزه^(١) مطلبًا، وأغضنه مذهبًا، وأضيقه مسلكاً، أن صاحبه يجعل مناجاة الفكر، واستعمال القريبة^(٢) يروم في بيته نقض ما أبرم القائل في رؤيه، فهو كمن أخذت عليه الفجاج، وسدت عليه المخارج، وقد اعترض^(٣) الأسنة، واستهدف^(٤) للمرامي، لا يدرى ما يقرع به فيتأهّب له، وما يفجّوه من خصميه فيقرعه بمثله، ولا سيما إذا كان القائل قد أخذ بجماع الكلام، فقاده بزمامه بعد أن روى فيه واحتفل^(٥)، وجمع خواطره واجهه، وترك الرأي يغب^(٦) حتى يختمر، فقد كرهوه الرأي الفطير^(٧)، كما كرهوا

(١) هي من عز: يعني قوي بعد ذلك، أو يعني صار نادراً.

(٢) القريبة: الطبع، وهي في الأصل: أول ما يستطى من ماء البتر، وأول كل شيء.

(٣) وقف في طريقها.

(٤) سير نفسه هنفأ.

(٥) اجهد وبالغ.

(٦) أي يمكث، من قولهم غب عندها أي بات، ومنه: «رويد الشعر يغب»، أي لا تجعل بالشعر، ودعه حتى تأتي عليه أيام، فتنتظـرـ كـيفـ عـاقـلـهـ، أـبـحـمـ لـمـ يـذـمـ.

(٧) الذي لم يصدر عن رؤية.

الجواب الدبرى^(١)، فلا يزال في نسج الكلام واستئناسه^(٢) حتى إذا اطمأن شارده، وسكن نافر، صك به حصمه جملة واحدة، ثم قيل له : أجب ولا تخطي، وأسرع ولا تبطئ ! فنراه بجواب من غير أناة ولا استعداد، يطبق المفاسد، ويتفند المقالات^(٣)، كما يرمي الجندل بالجندل، ويقرح الحديد بالحديد، فيحل به عراه، وينقض مراجزه^(٤) ويكون جوابه على أكثر كلامه كمسحابة ليدت عجاجة، فلا شيء أعضل من الجواب الحاضر، ولا أعنف من الخصم الألد الذي يقع صاحبه، وبصرع منازعه، كمثل النار في الحطب الجzel.

د - وكتب الفتح بن خاقان المتوفى سنة ٥٢٩ في ترجمة الوزير الكاتب أبي العفيرة بن حزم : « وبنو حزم فية علم وأدب. وثنية مجد وحسب، وأبو العفيرة هذا في الكتابة أوحد، لا ينعت ولا يحد، وهو فارس المضمار، حامي ذلك النمار، وبطل الرعيل^(٥) »، وأسد ذلك الغيل. يسوق في المعجزات، ويسوق في المعضلات الموجزات، إذا كتب وشى المهارق^(٦) ودبح، وركب في بحر البلاغة الشيج^(٧). وكان هو وأبو عامر بن شهيد خليلي صفاء، وحليفي وفاء، لا ينفصلان في رواح

(١) الدبرى : رأى يفتح أخيراً عند فوت الحاجة، ولعله نسبة إلى الدبرة (بالتحرير)، وهو اسم من الإدبار، بمعنى الهرمة في القتال.

(٢) استئناس : فعل لازم بمعنى ذهب تروشه، والذي يلقى سياق الكلام هنا الثاني والإنسان وهو إذهاب الروحشة، فعل الكلمة محرفة عما ذكرنا.

(٣) أي يجعل السهام تتفقد منها؛ مبالغة في الاصابة، فهي لم تصب فحسب؛ بل مرت فيها وجائزتها.

(٤) المرالى : جمع مريرة وهي الجبل الشديد القتل.

(٥) الرعيل : اسم كل قطعة مقدمة من عجل وجراد وطير ورجال ونجوم وإبل وغير ذلك.

(٦) وشى التوب وشيا وثنية : حسنة، ووشاه نعمته ونقشه وحسنـه — والمهارق جمع مهراق : الصحبة البوهاء يكتب فيها فارسي مغرب، ودبح : نقش.

(٧) شيج كل شيء : معظمـه ووسطـه وأعلاـه، وجمعـه أثـاج وثـوج.

ولا مقليل، ولا يفترقان كمالك وعقليل. فكانا بطريقة رافعه الوجه الصبوة،
ويعارى أندية السلوة. إلى أن أخذ أبو عامر في حالة الردى وعلق،
وغدا رهنه فيما قد غلق^(١). فانفرد أبو المغيرة بذلك العيدان، واسترد
من سبيقه ما فاته منذ زمان، فلم يذكر له مع أبي عامر حسنة ولا
سرت له فقرة مستحسنة، تلذر ذلك وامتناع، بشفوف^(٢) أبي عامر
وامتداد باعه. وأما شعر أبي المغيرة فمرتبط بنثره، ومختلط بزهراه، وقد
أثبت له منها فنوناً، تجن بها الأفهام جنوناً. فمن ذلك قوله :

ظلت، وفي أحراجها من شكلها يمين فضحن بحسنها العينا
ما أنصفت في جنب توضيح إذ قرت ضعف الوداد بلا بلا وشجونا
أشحى الغرامقطين ربع فؤاده إذا لم يجد بالمرقيينقطينا

هـ — ومن كتابة ابن سام في الذخيرة : « وأما ولادة التي ذكرها
ابن زيدون في شعره، فإيتها بنت محمد بن عبد الرحمن بن عبيد
الله الناصري، وكانت في نساء زمانها واحدة أوانها، حضور شاهد،
وغزاره أوابد، وحسن منظر ومخبر، وحلوة مورد ومصدر، وكان
مجلسها بقرطبة متدى لأحرار مصر، وفناؤها ملباً لجihad النظم والثر،
يعشو^(٣) أهل الأدب إلى ضوء غتها، وبهالك
أفراد الشعراء على حلوة عشرتها.. إلى سهولة حجابها، وكثرة متابها،

(١) قال سبورة : غلق الرهن في بد العرتون « كفرج » يطلق غالقاً وغلوقاً فهو غلق : استحقه المرتهن، وذلك إذا لم يفتح في الوقت المشروط.

(٢) الشفوف : المفضل والزيارة، من شف عليه يشف شفوناً.

(٣) عشا يعشوا : إذا أتي ناراً للضيافة، وعشنا لي النار عشاً وعشوا واعشوا واعشنا
بهـ، كله يعني : رأها ليلـ على بد قصدها مستقبلاً قال الخطية :

مني تائه تعشو إلى ضوء ناره تجد خير نار عندها خير موقد
أي متى تائه لا تكتفين ناره من ضعف بصرك.

تخلط ذلك بعلو نصاب^(١)، وكرم أنساب وطهارة أنوار. على أنها — سمح الله لها وتقدم زللها — طرحت التحصيل^(٢)، وأوجدت إلى القول فيها السبيل، لقلة مبالغتها ومجاهرتها بلذاتها. كتبت — زعموا — على أحد^(٣) عاتقى ثوبها : أنا — والله — أصلح للمعالى وأمشى مشيتى وأتبىء تبها

وكتب على الآخر :

امكن عاشقى من لشم خدي وأعطي قبضى من يشهيما
هكذا وجدت هذا الخبر، وأبرا إلى الله من عهدة ناقليه، وإلى الأدب
من غلط النقل إن كان وقع فيه.

وذكر بعد ذلك : أن أباها بويع يوم قتل عبد الرحمن المستظر
يوم السبت لثلاث خلون من ذي العقدة سنة أربع عشرة وأربعين،
فسمى بالمستكفى بالله، وكان واهناً متخلقاً ضعيفاً، وكانت دولته
نحو عشر شهراً صعباً، نكبات سوداء، مشوهات مشوهات. ولولادة
في مداعة ابن زيدون، وكان له غلام اسمه علي :

ما لابن زيدون على فضله يغتابني ظلماً، ولا ذنب لي
ينظر لي شزرا إذا جنته كأنما جنت لأخصى علي !!!

و — ومن رسالة أبي يكر محمد بن عبد الملك بن الطفيل المتوفى
سنة ٥٧١ هـ، وهي الرسالة المعروفة بالحكمة المشرقة، أو « حي بن
يقظان »، التي جمع فيها بين الفلسفة والشريعة :

« ثم تأمل في جميع أصناف الحيوان : كيف أعطي كل شيء خلقه،
ثم هداه لاستعماله؛ فلو لا أنه هداه لاستعمال تلك الأعضاء التي خلقت

(١) النصاب والمنصب كمحبس، أي الأصل والمرجع.

(٢) التحصيل : تميز ما يحصل.

(٣) العائق ما بين المتك.

له في وجوه المنافع المقصودة به لما اتفق بها الحيوان، وكانت كلاماً عليه، فعلم بذلك أنه أكرم الكرماء، وأرحم الرحماء».

ز — ومن رسالة لأبي محمد علي بن سعيد بن حزم الفيلسوف صاحب كتاب «الفصل ! في الملل والأهواء والحل» وهي رسالة رد بها على رسالة رجل يدعى أحمد بن الريب القررواني، وقد أثبتت هذا في رسالته تقصير أهل الأندلس في تخليد علمائهم، وما ترجم لهم، وسير ملوكهم، فلما وقف ابن حزم على هذه الرسالة كتب رسالة طويلة، منها : «فأما ما ترجمنا فقد ألف في ذلك أحمد بن محمد الرازي التاريخي كتاباً جمة منها كتاب ضخم ذكر فيه مسالك الأندلس : مرواسيها وأمهات مدنها وأجنادها الستة، وضواحي كل بلد منها، وما فيه ليس في غيره، وهو كتاب مريح مليح».

ومنها في وصف أهل قرطبة : «فكان أهلها من التمكين في علوم القراءات والروايات والاطلاع على كثير من الفقه، والبصر بالنحو والشعر واللغة والجر والطبع والحساب والترجم؛ بما كان رحب الفناء واسع العطن متفاني الأقطار فسيع المجال». ومنها في ذكر مواد العلوم : «وأما الطب فكتب الوزير يحيى بن إسحاق مشهور، وهي كتب حسان رقمة، وكتب محمد بن الحسن المذحجي أستاذنا رحمة الله تعالى وهو المعروف بابن الكثائي، وهي كتب رفيعة حسان، وكتب التصريف لأبي القاسم خلف بن عياش الزهراوي».

ومنها : « ومن الأخبار تواريخ أحمد بن محمد بن موسى الرازي في أخبار ملوك الأندلس، وخدمتهم وزوجاتهم وبنكياتهم. وذلك كثير جداً، وكتاب له في صفة قرطبة وخططها ومنازل الأعيان بها».

ح — وترجم لسان الدين بن الخطيب لابن خلدون، «الإحاطة في أخبار غرناطة» فقال : عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن ذرية عثمان أخي كريب ابن عبد الرحمن بن خلدون الحضرمي، من ذرية عثمان أخي كريب

المذكور في نهاية ثوار الأندلس وينسب سلفهم إلى وائل بن حجر،
وحاله عند القدوم على رسول الله ﷺ معروفة. انتقل سلفه من مدينة
إشبيلية عن تباهره وتعين وشهرة عند الحادثة بها أو قبل ذلك، فاستقر
بنو نس منهم ثاني المحمددين : محمد بن الحسن، وتسلوا على حشمة
وسراوة ورسوم حسنة، وتصرف جد المترجم، به في القيادة.. وأما
المترجم به فهو رجل فاضل، حسن الخلق، جم الفضائل، باهر الخصال،
رفع القدر طاهر الحياة أصيل المجد وقرر المجلس، خاصي الري عالي
الهمة، عزوف عن الضيم، صعب المقادمة، قوي الجاش، طامن لفتن
السياسة، خاطب للحظ، متقدم في فنون عقلية ونقلية، متعدد المزايا،
سديد البحث، كثير الحفظ، صحيح التصور، بارع الحظ، مغري بالتجلة،
جواد حسن العشرة، مبدول المشاركة، مقيم لرسم التعين، عاكف على
رعاية خلال الإصالة، مفخر من مقابر التخوم المغاربية.

ط — وهذه مقامة بلسان الدين بن الخطيب (٧١٣—٧٧٦هـ) وصف
بها بلاد الأندلس والعدوة، ومنها :

قلت فمدينة سبتة؟ قال : تلك العروس المجلة، وثنية الصباح الأجللى
تبرجت تبرج العقلة، ونظرت وجهها في البحر في المرأة الصقلية،
وانحص ميزان حسانتها بالأعمال الثقيلة، وإذا قامت بعض أسوارها وكان
جيلاً ينبوشن شمامه أزهارها، والمنارة منار أنوارها، كيف لا ترغب
النفوس في جوارها، وتهيم الخواطر بين أنجادها وأغوارها إلى المينا
الفلكلية، والمرادي الفلكلية الذكية التركية، غير المزورة ولا المبكرة، ذات
الوقود الجzel المعد للأزل والقصور المقصورة على الجد والهزل، والوجه
الزهر السجن المضمون بها عن المحن، دار الناشية والحامية المضرمة
للحرب الناشية، والأسطول المرهوب المحنور الألهوب، والسلام
المكتوب المحسوب، والأثر المعروف المنسوب.. كرسي الأمراء،
والأشراف، والوسطية لخامس أقاليم البسيطة؛ فلاحظ لها في الانحراف.

بصرة علوم اللسان، وصناعة الحلل الحسان، وثمرة امثال قوله تعالى : «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ^(١) هُوَ الْأَمِينَ عَلَى الْإِحْتِرَاجِ، الْقَوِيمَةِ الْمَكِيَالِ وَالْمَيْزَانِ، مُحِشِّرَ أَنْوَاعِ الْحَيَّاتِ، وَمُحِيطُ قَوَافِلِ الْعَصِيرِ، وَالْحَرِيرِ، وَالْكَتَانِ، وَكَفَاهَا السَّكَنِيَّ بِيَنْبُوشَنِ فِي فَصُولِ الْأَزْمَانِ، وَوُجُودِ الْمَسَاكِنِ التَّبِيَّهِ بِأَرْخَصِ الْأَشْتَانِ، وَالدُّفُنِ الْمَرْحُومِ غَيْرِ الْمَرْحُومِ، وَخَرَانَةِ كِتَابِ الْعِلُومِ، وَالْأَثَارِ الْمُنْبَعَةِ عَنْ أَصْالَةِ الْحَلُومِ». إِلَّا أَنَّهَا فَاغْرَأَةُ أَغْوَاهِ الْجَنُوبِ، لِلْغَيْثِ الْمُصْبِرِوبِ، عَرْضَةُ الْلَّرِيَاجِ ذَاتِ الْهَبُوبِ، عَدِيمَةُ الْحَرَثِ فَقِيرَةُ مِنْ الْحَبُوبِ، ثَغَرُ تَبُو فِي الْمَضَاجِعِ الْجَنُوبِ وَنَاهِيكَ بِحُسْنَةِ تَعْدُ مِنَ الدَّنَوْبِ، فَأَحْوَالُ أَهْلِهَا رَقِيقَةُ وَتَكْلِفُهُمْ ظَاهِرُ مِهْمَا ظَهَرَتْ وَلِيْمَةُ أَوْ عَقِيقَةُ، وَاقْصَادُهُمْ لَا تَلْتَبِسُ مِنْهُ طَرِيقَةُ، وَأَسَابِيبُ نَفَقَاتِهِمْ فِي تَقْدِيرِ الْأَرْزَاقِ عَرِيقَةُ، فَهُمْ يَمْصُونُ الْبَلَلَةَ مِنْ الْمَحَاجِمِ، وَيَجْعَلُونَ الْخَبَرَ فِي الْوَلَامِ بَعْدَ الْجَمَاجِمِ وَفَتَنَتْهُمْ بِيَلْدَهُمْ فَتَنَةُ الْوَاجِمِ بِالْبَشِيرِ الْهَاجِمِ، وَرَاعِي الْجَدِيدِ بِالْمَطْرِ السَّاحِمِ، فَلَا يَفْضُلُونَ عَلَى مَدِينَتِهِمْ مَدِينَةُ الشَّكِّ عَنْدِي فِي مَكَّةِ الْمَدِينَةِ.

ي — ومن رسالة التوابع والزوایع^(٢) لأبي أحمد بن أبي مروان بن شهید حفید ذی الوزارتین أَحْمَدَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنَ شَهِيدٍ وَزَیرَ النَّاصِرِ. وقد توفي سنة ٤٢٦ هـ :

«وكنت أحن إلى الآداب، وأصبو إلى تأليف الكلام، فابتعدت الدواوين وجلست إلى الأسانيد، فنيض في عرق الفهم، ودر لي شريان العلم. وقليل الالتفاح^(٣) من النظر يؤيدني، ويسمِّي المطالعة في الكتب يهدِّنِي، إذ صادف شن العلم مني طبقة، ولم أكن كالبلج تقتبس منه ناراً، ولا كالحمار يحمل أسفاراً، فدعت ثغرة العلم دراكاً، وأعلقت أرجل طيره أشراكاً، فانتالت لي العجاجات، وانهالت لي الرغائب؟ وكان لي

(١) الروبة : الشيطان أو رئيس الجن.

(٢) النظر الخفيف.

أوائل صبوتي هوى اشتند له كلفي، ثم لحقني بعض ملل في أثناء ذلك الميل، فاتتفق أن مات من كنت أهواه مدة ذلك الملال، فجزعت، وأخذت في رثائه قلت :
تولي الحمام بظبي الحنور وفار الردى بالغزال الغير^(١)

إلى أن انتهت إلى الاعتدار من الملل الذي كان قلت :
وكنت مللت لا عن قلى ولا عن فساد ثوى في الضمير

فارتج على القول فإذا أنا بفارس بباب المسجد على فرس أدهم
كأنما يقل^(٢) وجهه، قد انكمأ على رمحه وصاح بي : أعجزا يا فني
الأنس ؟ قلت : لا وأويك للكلام أحيان، وهذا شأن الإنسان. فقال :
قل بعده :
كمثل ملال الفتى للنعميم إذا دام فيه، وحال السرور

فأثبتت إجازته وقلت : بأبي من أنت ؟ قال زهير بن نمير من أشجع
الجن. تصورت لك رغبة في اصطفائك، قلت : أهلا بك أنها الوجه
الوضاح. صادفت قليلاً إليك مقلوباً وهو نحوك مجعوناً وتحادثنا وتذاكرت
معه أخبار الخطباء والشعراء ومن كان يالفهم من التوابع والزوابع الخ.

— ٦ —

أ — وكتب ابن برد الأصفر في الاستارة. ويقال إن ابن برد هذا
أول من وضع المحاورات بين الورد وغيره من الأزهار :
هـ اليوم، يوم يكت أمطاره، وضحك أزهاره، وتنعمت شمسه، وتعطر

(١) المخدوع.
(٢) ثبت.

تسيمه. وعندنا بليل أرج، وساق غنج^(١)، وسلامقنا^(٢) سلامة أحدان،
وسلامة دنان. قد تشاركتنا في الطياع وأشتراكنا في إثارة السرور. فاخرق
إلينا سرادق الدجى، تجد مرأى لا يحسن إلا لك، ولا يتم إلا بك،
الزيارة بالليل أخفى، وبالزائر والمرور أخفى^(٣).

ب — ومن الشر قول ابن خفاجة من رسالة يصف فيها متنزهاً :
ولما أكب الغمام إكياباً، لم أجند منه إغياياً، وانصل المطر اتصالاً،
لم ألق منه انفصالاً، أذن الله تعالى للصحو أن يطلع صفحته، وينشر
صحفته، فتشعت الريح السحاب، كما طوى السجل للكتاب^(٤)،
وطفت السماء تخلع جبابها، والشمس تميط نقابها، وطلعة الدنيا تنهج
كأنها عروس تجلت وقد تحلت، ذابت في لمة^(٥) من الإشوان،
نستيق^(٦) إلى الراحة ركضاً، ونطوي للتفرج أرضًا، فلا أندفع إلا إلى
غير نمير، قد استدارت منه في كل قراره ماء^(٧) سحابة عماء^(٨)،

(١) الرجح : دقة في الحاجين وطول، وحاجب أرج ومرجح، والفتح في الجارية : تكسر وتندلل : وقيل ملاحة العينين، وقد غنجت المرأة كفرح، فهي مناج وغنجة، أما العن
فتح التون : فهو الرجل ولا معنى له هنا.

(٢) سلاف المخر وسلامقها : أول ما يضره منعاً، أو هو ما سال من غير عصر ولا
مررت، وهو أخلفها وأقضتها.

(٣) حني بالرجل حنلوة وحنلوة وحنلية وحنلي به وأخلفي : بالغ في إكرامه.

(٤) السجل : الطومار وهو ما يكتب فيه، ومعنى طيه للكتاب : أنه يطوي على ما فيه
من كتابة، فاللام للتعليل، أي يطوي بسبب أنه صار مكتوباً، تو الكتاب بمعنى المكتوب،
أي أن السجل يطوي ما كتب فيه ويضمره، فلا يدعيه أحد إلا بالقراءة.. والممعن
أن السحاب أخلفي كما يختفي المكتوب.

(٥) اللمة « بالضم » : الصاحب والأصحاب في السفر، والمؤنس للواحد والجمع.

(٦) نتساق.

(٧) القرارة : ما اطمأن من الأرض.

(٨) يقال جارية ونخلة عماء، أي طوبية.

وأنساب في تعلمه حباب^(١). ففردنا بذلك الأباطح تهادى تهادى
أغصانها، ونتضاحك تضاحك أخوانها، وللنسيم أثناء ذلك المنظر الوسيم،
ترسل^(٢) مشى، على بساط وشى، فإذا من يغدير نسجه درعاً، وأحكمه
صنعاً، وإن عثر بجدول شطب^(٣) منه نصلاً، وأخلصه صقلاء، فلا ترى
إلا بطاحاً مملوءة سلاحاً، كأنما انهزمت هناك كتاب، فألفت بما
ليسنه من درع مقصوق، وسيف مسلول.

ج — وكتب أبو اسحاق بن خفاجة إلى بعض أخوانه، وكانت
بينهما جفوة :

أطل الله يقاه سيدى، النبىحة أوصافه، التربىحة عن الاستثناء، المعرفة
إمارته الكريمة بالابتداء، ما انحدرت ياء يسرى للجزء، واعتلت واو
يغزو لموضع الفم. كتبت عن ود قديم هو الحال لم يلتحقها انتقال،
وعهد كريم هو الفعل لم يدخله اعتلال، والله يجعل هاتيك من الأحوال
الثابتة الالازمة، ويضم هذا من الحروف الجازمة.

(١) الحباب : بالضم والكسر : الحياة، والمراد أن الماء تلوى في جريانه، فكان كالحية.

(٢) الترسيل : التزدة والرفق.

(٣) الشطل : السيف، والشطب القطع. والمعنى في شطب السيف : تصوير الحديدة على
مثال، والمعنى في كون النسيم يجعل الجدول سيفاً، أنه يمر بصفحته، فيحدث فيه
طارات لامعة، كأنها صفحات السيف.

الفصل الثاني

الكتابة الفنية الأندلسية

نبغ في الأندلس كثير من الكتاب البلغاء، الذين كان من بينهم :
أحمد بن عبد ربه القرطبي صاحب « العقد الفريد » المتوفى عام ٣٢٨هـ،
وأبو عامر أحمد بن أبي مروان بن شهيد المتوفى عام ٤٢٦هـ، صاحب
الزوايع والتوايع، وهو حفيد ذي الوزارتين أحمد بن رشيد، وزير الناصر.
وكذلك : ابن زيدون ولسان الدين بن الخطيب، وابن بسام، والفتح
ابن خاقان، وأبو المطرف بن عميرة، وسواهم.

وصف الكتابة الفنية

- ١ -

أ— لم يكن للكتابة الفنية مجال واسع مدة حكم الأمراء الأولين
في الأندلس، لأن الحالة السياسية والاجتماعية لم تكن استقرت بعد،
فلم يكن هناك ما يساعد على نمو الكتابة في الموضوعات الاجتماعية
أو الخيالية أو الفنية. فاقتصرت في القرن الأول من دخول العرب في
الأندلس على ما تقتضيه الحال من الرسائل السياسية والإدارية، ليث الحمامة

في نفوس الجندي، وضبط أمرور البلاد، مما كان يلقىه الولاة، ويكتبه الأمراء أو الخلفاء للعمال وغيرهم. وكان كل ذلك تعلية الرغبة في تأييد الملك، ويسوده الروح العربي الذي كان يسيطر على العقول في دمشق مدة الأمويين. فكانت الكتابة إذ ذاك عربية في موضوعاتها، وفي أساليبها، وعياراتها الجزلة الرصينة، خالية من الصنعة والتكلف.

فمن ذلك ما كتبه بدر مولى عبد الرحمن الداخل إلى سيده وقد هجره :

« أما كان جزائي — في قطع البحر، وجوب القفر، والإقدام على تشتيت نظام سلالة وإقامة أخرى — غير الهرج الذي أهانني في عيون أكفارني، وأشمت بي أعدائي، وأضعف أمري ونهي عنده من يلوذ بي، وبتر مطامع من كان يكرمني ويخدموني على الطمع والرجاء، وأظن أن أعداءنا بني العباس لو حصلت بأيديهم ما يبلغوا بي أكثر من هذا، فإننا لله وإنما إليه راجعون ».»

فلما وقف عبد الرحمن على رقعته اشتد غضبه ووقع عليها : « وقت على رقعتك المنبعثة عن جهلك، وسوء خطابك، ودناءة أدبك، ولثيم معتقدك. مما قد أضجر الأسماع تكراره، وقدحت في التفوس إعادته، مما استخرنا الله تعالى من أجله على أمرنا باستصال مالك، وزدنا في هجرك وإبعادك وهضنا جناح إذلالك. فلعمل ذلك يقمع منك، ويردعك، حتى تبلغ منك ما تزيد إن شاء الله تعالى، فنحن أولى بتأدبك عن كل أحد، إذ شرك مكتوب في مثالينا، وخيرك معدود في مناقينا ».»

ومن ثر عبد الرحمن الداخل قوله في كتاب أملأه على كاتبه إلى رجل اسمه سليمان بن الأعرابي : « أما بعد قدعني من معاريف المعاذير، والتعسف عن جادة الطريق، لتمدن يداً إلى الطاعة، أو لأنقين بناها على رضف المعصية نكالاً بما قدمت يداك، وما الله بظلم للعبيد ».»

٢ — ولما جاء عهد الخلقاء وملوك الطوائف نهضت فنيه فذة،
ولسلكت مسلكاً جديداً في أغراضها ومعاناتها وأسلوبها :
فأما أغراضها : فقد اتسعت إلى أحد أنها تناولت أغراض المشارقة،
وقد علمنا أنها تعددت هناك بتنوع أعمال الدواوين، وبما زاد على
الرسائل الإخوانية من استعمالها في الهجاء والمفارقة وما إلى ذلك،
بل إن الأغراض هنا زادت على تلك في أكثر ما نجد من مناظرة
ومفارقة، وجد هزل وخیال شعري متسع الأنحاء.

وأما معاناتها : فقد ظهر فيها الخيال الفسيح من آثار ذلك الجمال
الأقليمي البديع الذي ينبع منها ثم يغدو فنميها، وإنما زراعة متجلياً
في كل شيء، حتى في بيان الحقائق العميقية، يقتربونها من العقول، في تصوير
ممتع راقٍ، كما في رسالة حي بن يقطان لابن الطفلي. وكان لزدهم
في علوم الفلسفة أثر في كون كتاباتهم فطرية ساذجة بعيدة عن التعمق.
ولكنها كانت تظهر في ثوب مهذب تهذيباً عربياً خالصاً من تلك
الشوائب.

وأما الأسلوب : فحدث ولا حرج، عن ألفاظها نسمات الأشجار
عذوبة ورق، في أساليب لا يشبهها إلا قاتلوها في خفة أرواحهم وفصاء أدوافهم.
قد اشتغلت على تشبيهات واستعارات حالفها التوفيق. لا تشعر فيها
بشيء من النبو مهما فتشت ورددت. لأنها وهي الصفاء المنزلي من
السماء. وهيهات أن يعيه إسفاف، أو يزري به تقصير — ولقد كانوا
يؤثرون السجع القصير لجمال وقمعه. إلا أنهم تفانوا فيه تفانياً كلياً
حتى تعدوا الأدب إلى الكتب العلمية والتاريخية. ومع ذلك فهو في الجملة يحف
به القبول لسلامة طبعهم. وصفاء ذهنهم. ولم تكن لهم تكلفات المشارقة
في التهالك على سائر أنواع البديع كالنورية والجناس، بل يتركون ذلك
لعفو الخاطر.

ولكثرة المحفوظ عندهم وعنائهم بجمع العلوم الإسلامية ظهرت في كتاباتهم عدة اقتباسات من الكتاب الكريم والسنة النبوية، إلى عدة تصميمات من الشعر العربي والأمثال، وقد بالغ بعضهم في هذا النوع، ولعل ابن زيدون فارس هذه الحلة، ففي رسالته الجدية والهزيلة العجب العجاب، مما أطّل بعض الألسنة بأنه لم يفعل في ذلك أكثر من جمع شتات أمثال وحكم. وكذلك كثرت الإشارة إلى الحوادث التاريخية والأيام العربية، وغالباً بعضهم فيه غلواً شديداً. ومن محاسن كتاب هذين العصررين : عدم تحفظه بقيود البدء والختام، ولا ألقاب التعظيم التي كان يخصّصها المشارقة تقليداً للفرس، فكان لكل من الخليفة والسلطان والعالم والقاضي والخطيب وغير هؤلاء لقب خاص به، ما أزال به من سلطان، ولا جاء في لسان العرب الأوائل، كما أنهم لم يحملوا بأنواع الدعاء وتدعيمها، ولا صبغ التعظيم وتفحيمها، وإنما كانوا أقرب شيء إلى فطرة الله التي فطر الناس عليها.

وعني أدباء الأندلس بمحاكاة أدباء الشرق واتباع طرفهم أولاً، ثم دب الترف في النقوس والمقول كما دب في الاجتماع، وتمشي هناك نوع جديد من التفكير، وظهرت آثار الثقافة العلمية والفنية، وتهذبت الأفكار، ونضجت العقول، بما نقل من علوم وفنون، وانتشرت مظاهر الحضارة في المجالس والجماعات. فامتلاك نقوس الكتاب بشتى الموضوعات التي وسعت من أختيالهم، وهذلت من إدراكيهم، وأكتسبتهم صبغة فنية، وبما كان من أبهة الملك، ووصف المباني الضخمة والقصور الفخمة، ومظاهر الترف ومجالس الخلفاء والأمراء. فكان ذلك من العوامل الجديدة في نمو ملحة الكتابة، فنشأ عن ذلك : النثر الإنساني الفني، وتشتمل على كل مظاهر الحياة العلمية والاجتماعية، فكتب الكتاب رسائل في المراسلات والأوصاف والسياسة، والمناظرات الخيالية، والمناقشتات العلمية، والقصص الاجتماعية والخيالية، ورسائل الاستعطاف والهجاء المملوكة بالحكم والأمثال، والرسائل الفكاهية، وكثيراً على ألسنة

البلدان والحيوان؛ وكتبوا في الدعوات والإرشاد والتسلل إلى الله، وفي شعائر الحج، كما كتبوا في الزهد والتصوف، وكما كتبوا في المجنون، فبرعوا في الترث، كما برعوا في أساليب النظم.

ومن كتب في الاستعطاف والهجاء أبو الوليد بن زيدون، ومن كتب في القصص والفكاهات أبو عامر بن شهيد. ومن كتب في المناظرات بين السيف والقلم ابن برد الأصغر، كما كتب أبو بحر صفوان بن إدريس في المناظرة بين بلدان الأندلس، وكتب ابن طفيل في القصص الفلسفية، ومن أطالت في الرسائل وشهر فيها لسان الدين ابن الخطيب. فكان الترث أكبر مظاهر الأدب العربي كالشعر سواء بسواء، بل فاق الشعر من حيث تجدد الموضوعات وتطورها، التي كان من أشهرها القصص الخيالية.

وكما كتبوا في الموضوعات الخيالية كتبوا في الزهد والتصوف والتصوف والتسلل إلى الله وإلى الرسول. كل ذلك بعيارات منمقة، وأحياناً متکلفة يسودها الخيال. لذلك كانت كل كتاباتهم بأنواع المحاجز من استعارة وتشبيه، مما لا تكاد تخلو جملة منه؛ حتى كانت هذه الصناعة اللفظية لديهم أول ما يقصدون إليه من أغراض الكتابة الفنية، ويوجهون إليه هممهم. وكان السجع أظهر ضروب الصناعة التترية في كلامهم. وقد كان هنا الأسلوب الفني في جملته أرق الأساليب وأجملها في تلك الأيام، حين كانت بلاد المشرق تفخر بكتابه ابن العميد والهمذاني، والخوارزمي والحريري ومن جراهم. وبقيت الكتابة الفنية سائرة على هذا المنهج الفني على ما كان فيها من التفاوت قوة وضعفاً على حسب تداول الدول التي انتابت حكم هذه البلاد. ومن ذلك رسالة ابن زيدون الجدية المعروفة.

ولما ذاع أمر الصناعة في المشرق زمن ابن العميد والبديع ومن على طريقتهما، وانتشر السجع والعمل في الكتابة، وكان الأندلسيون

يحاكون أهل المشرق في كل شيء؛ ذات الصناعة في الكتابة، وامتلاك
بأنواع البديع وطفي السجع على كل أنواعها، من رسائل وقصص جديدة
وهزلية، وكتب علمية وأدبية وتاريخية، وبالغ في ذلك أهل الأندلس
وأمعنا في ضروب الخيال، وجاء بكل غريب في ذلك. فكان في
نثرهم الكلام المسجوع، الذي يكون من السهل الممتع، مع دقة في
اللقط وجزالة في المعنى؛ ومرج الحقيقة بالخيال، كما في أسلوب
الذخيرة لابن بسام حيث يقول في ترجمة ابن شهيد :

« كان أبو عامر شيخ قرطبة وفناها، ومبدأ الغاية القصوى ومنتها.
ينبع آياتها، ومادة حياتها، ومبني أسمائها وسمياتها. نادرة الفلك الدوار،
وأعجوبة الليل والنهار، إن هزل فسجع الحمام، أو جد فزير الأسد
الضرغام، نظم كما انتسق الدر على التحور، ونشر كما خلط المسك
والكافور ». »

وكانوا أحياناً يتكلفون في كتاباتهم وكأنها شعر مصنوع، لا تسيغه
النفس ولا يتحمّله النون، كما في بعض رسائل لسان الدين بن الخطيب.
وقد يلتزم بعضهم السجع المتلطف، وكأنه مفظور على ذلك. فيمزجه
بأساليبه العلمية وكتاباته التاريخية، كما في كتب الفتح بن خاقان.

٣ — ولقد بقيت الكتابة في الأندلس فنية ناهضة عربية قوية إلى
آخر ملك العرب، على حين شاخت في المشرق، وقد استمسكت
فيها بكثير من فضائلها ومع ما أصابها هناك من انحلال وتفكك، ظلت
عربية بريقة تقية، على حين هاجمتها العجمة في مقرها الأصلي، ومنتفعها
الأول، ترى تلك الطواهر حين توازن بين كتاب من القرن السابع أو
الثامن — مثلاً — من أهل الأندلس، ونظرائهم من أهل المشرق، فإنك
ترى للأولين قولًا سائغاً، وأدباً رائعاً، وقوة تعبير، وقدرة على التصوير،
على حين ترى كتابة الآخرين — حتى فحولهم المعدودين — متهافتة،
ساقطة لا تكاد تن Hess معنى، ولا تقوى على أداء.

والسر في ذلك أن العرب بالأندلس نزحوا إليها، ولغتهم تامة السليمة
بربة الملكة، ثم كانوا بها جمهرة غالبة، وعصراً شائعاً، ولملوكيهم
الغلبة، وعر السلطان، وهم في الجزيرة في أمن من الطارئين الذين
كان يطغى سيلهم بالشرق على عربه، فوقاهم الله شر هذا الاختلاط
الذي جنى على غيرهم. ولا ننسى أن نوع ثقافتهم كان عربياً خالصاً.
ومع ذلك فلم تكن على ما كانت عليه في سابق عهدها : لغة السجع
عليها، وكثرة الإطناب البعيد عن الجادة في فهم المقصود ولا سيما
في رسائل الشكوى والمستشفع التي كانت ترسل إلى النبي ﷺ
والصالحين للاستجاد بهم على العدو الجبار، وظهرت الألقاب والرتب،
 واستعملت عبارات الاجلال والتعظيم، ولا سيما في عهديبني هود
وبني الأحمر، إلى أن استولى العدو على البلاد.

— ٤ —

وتمتاز الكتابة الأندلسية على العموم بعدة خصائص :
 منها غلبة الخيال الشعري وبروزه في كتابتهم. وذلك من آثار البيعة
 وجمال البقعة واستفاضة النعيم، وإن بقعة يقول فيها ابن خفاجة عفا
 الله عنه :

لل دركم يا أهل أندلس ماء وظل وأشجار وانهار
 ما جنة الخلد إلا في دياركم ولو تخترت هذا كنت أختار
 لا تختشو بعدها أن تدخلوا سقراً فليس تدخل بعد الجنة النار

لجدية أن توصف بأنها ميادة الخيال، ومسرح الجمال.. وكذلك
 كثرة القصص والحكايات والمناظرات بين أصناف الجماد. وأنواع
 الحيوان. ومن ذلك المناظرة بين بلاد الأندلس، التي خاطب بها أديب
 الأندلس أبو بحر صفوان بن إدريس، الأمير عبد الرحمن ابن السلطان

يوسف بن عبد المؤمن بن علي^(١)، ومقامة الديك، والتوازع والروابع لابن شهيد. ورسالة حي بن يقطان لابن طفيل، إلى غير ذلك. كما تمتاز بالإكثار من اقتباس الأمثال والحكم والآيات القرآنية والأئم النيوية وتراث الأبيات الشعرية. كما في رسالتي ابن زيدون : الجدية والهزلي، وبالبراعة في أساليب المجون والدعابة، فكانت لهم التوادر البدعة، والكلمات المستطرفة، ومن أشهر الرسائل في ذلك : الرسالة الهزلية لابن زيدون. وبالتوربة بمصطلحات العلوم، ولا سيما علوم العربية، لأنها كانت أساس ثقافتهم.

وكثرت الكتابة في الزهد والإرشاد والتوصيل إلى الرسول ﷺ، وفي شعائر الحج.

وشاع الإطناب في كتاباتهم. وقد يكون هذا الإطناب مقبولاً، وقد يكون مموجحاً مملوكاً كما في أكثر كتابات لسان الدين بن الخطيب والفتح بن خاقان. واتسمت الكتابة كذلك بغلبة السجع حتى في الكتابة الفنية والعلمية، من تاريخها وغيرها، ومن تراجم العلماء والأدباء ومن كتب جدية وهزلية، ومن أشهر ذلك : كتب الفتح بن خاقان، كفالائد العقيان، وكتب لسان الدين بن الخطيب، كالإحاطة في أخبار غرناطة. كما ظهر عليها كثرة الوصف في كتاباتهم. فوصفوا المباني الفخمة من كنائس ومساجد وقصور وأثار وما فيها من صور وتماثيل. ووصفوا الأشياء الجميلة التي غنموها أو عملوها بأيديهم. ووصفوا محافل الملوك والأمراء وأئمة الملك. ووصفوا الرياض والغياض ومجالس الشراب إلى غير ذلك. كما وصفوا نقوس الكبار والقواعد والعلماء ومجالس العلم والأدب.

على أن الكتابة في الأندلس لم تقتصر على كتابة الدواوين والرسائل :

(١) ٦٨٠ نفح الطيب.

قصيرة كانت أو طويلة، مسجعة أو مرسلة، في العشق والغرام أو في الندم واللوم أو في المدح والاستعطاف الخ. بل شملت كل شيء في الاجتماع هناك وكانت مظهراً لتلك المدنية، والحالة السياسية العقلية والعلمية.

- ٣ -

وكانت الكتابة الأندلسية كما يقول المقربي على ضربين : أعلاهما كاتب الرسائل، وله حظ في القلوب والعيون عند أهل الأندلس، وأشرف أسماءه الكاتب، وبهذه السمة يخصه من يعظامه في رسالة. وأهل الأندلس كثروا الالتفاد على صاحب هذه السمة، لا يكادون يغفلون عن عثراته لحظة. فإن كان ناقصاً عن درجات الكمال لم ينفعه جاهه ولا مكانه من سلطانه. من تسلط الأئس في المحاكل والطعن عليه وعلى صاحبه.

والكاتب الآخر كاتب الزمام. وهكذا يعرفون كاتب الجبهة. ولا يكون بالأندلس وغير العدوة نصراياً ولا يهودياً البتة. إذ هذا الشغل نبيل، يحتاج إلى صاحبه عظماء الناس ووجوههم. وصاحب الأشغال الخراجية في الأندلس أعظم من الوزير وأكثر اتقاناً وأصحابها وأجدى منفعة، فإليه تميل الأعناق، ونحوه تمد الأكف، والأعمال مضبوطة بالشهود والنظراء؛ ومع هذا إن ثالت حاليه، وأغتر بكثير البناء والاكتساب، نكب وصودر وهذا راجع إلى تقلب الأحوال، وتبدل السلطان.

صورتان من الكتابة الأندلسية

— ١ —

بيان إلى الشعب — بلقب الخليفة الناصر عام ٥٣٦ :

أما بعد، فإننا أحق من استوفى حقه، وأجدر من استكمال حظه، وليس من كرامة امة الله ما أبىسته — للذى فضلنا به، وأظهر أثرنا فيه، ورفع سلطانتنا إليه، ويسر على أيدينا دركه، وسهل لدولتنا مراحته — وللذى أشاد في الآفاق من ذكرنا، وعلو أمرنا، وأعلن من رجاء العالمين بنا، وأعان من انحرافهم إلينا، واستشارهم بدولتنا، والحمد لله ولـي الأئمـ — بما أنعم به وأهل الفضل، بما تفضل علينا فيه.

وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين، وخروج الكتب عننا، وورودها علينا بذلك. إذ كل مدعو بهذا الاسم متصل له، ودخل فيه، ومتسم بما لا يستحقه.

وعلمنا أن التمادي على ترك الواجب لنا من ذلك، حق أضعنـاه، واسم ثابت اسقعنـاه، فأمر الخطيب بموضعـك أن يقول به، وأجر مخاطبـتك لنا عليه، إن شاء الله، والله المستعان.

ومن رسالة للوزير أبي يحيى محمد بن عاصم^(١) في وصف فتنة سياسية قامت ثم أخمدت؛ وكان الوزير أبو يحيى شاعراً مفلاً وكاتباً مشرقاً، وكان يباري أساطين البلاغة وأرباب البيان، ويتمثل طريقهم، وهو في هذه الرسالة يسلك نهج ابن الخطيب ويترسم خطاه، ويحاول أن يبلغ مدها.

قال بعد حمد الله :

أما بعد فإن الله على كل شيء قادر، وإنه على عباده لخبير بصير، وهو لمن أهل بيته وأحصنه طويلاً، نعم العولى ونعم النصير، يده الرفع والخفض والبسط والقبض، والرشد والغاي، والنشر والطغي، والمنع والمنع، والضر والنفع، والبطء والعجل، والرزق والأجل، والمسرة والمساة، والإحسان والإساءة، والإدراك والفتور، والحياة والموت، إذا قضى أمرأ فإنما يقول له كن فيكون، وهو الفاعل على الحقيقة، وتعالى عما يقول الآفكون، وهو الكفيل بأن يظهر دينه على الدين كله، ولو كره المشركون، وإن في أحوال الوقت الذاهنة لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، وعبرة لمن يفهم قوله تعالى : « إن الله يفعل ما يشاء، وإن الله يحكم ما يريد »، بينما الدسوقي عامرة والولاة

(١) هو الإمام العلامة الوزير الرئيس الكاتب الجليل البليغ الخطيب الشاعر المفلق الناز، الموفق أبو يحيى محمد بن عاصم القمي الأندلسى الفزانىي قاضى الجماعة بها، كان رحمة الله من أكابر قتها وعلمائها ورؤسائها والمؤلفين فيها، ومن تأليفه شرح تحفة والده وذكر فيه أنه ولد القضاء سنة ثمان وثلاثين وثمانمائة هـ ومنها : كتاب « جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى »، وكتاب : « الروض الأبيض في تراجم ذوى السيف والأقلام والقريض، وقد ولع بمحفظة النساء ومحاربة الفصحاء، وقد وصفه ابن فرج البستي أحد أدباء الأندلس بأنه الأستاذ المعلم، الصدر، المفتى، رئيس الكتاب ومعدن المساحة، ومنبع الأدب.

آمرة والفتنة مجموعة، والدعوة مسموعة والإمرة مطاعة، إلى أن قال :
والسعيد من انتظ بغيره ولا يزيد المؤمن عمره إلا خيراً جعلنا الله
تعالى فيمن قضى عمره بغيره. وبينما الفرقة حاصلة والقطيعة فاصلة،
والمضرة واصلة، والجبل في البتات، والوطن في شبات، والخلاف يمنع
رعاية النبات، والقلوب شتى من قوم أش Bates، والطاغية يضعلي لقسم
الوطن وقضمه، ويلاحظ لحظ الخائف على هضمه، والأخذ بكظمه،
ويتوقع الحسرة أن يأخذ الله بجمع شمله ونظمها، على رغم الشيطان
ورغبته، إذا القلوب قد اختلفت، والنفوس المتألفة قد اجتمعت بعدما
احتفلت، والأهداء بالألفة قد اقتربت إلى الله تعالى وازدلت، والمتضرة
إلى الله تعالى قد ابتهلت، في إصلاح الحالة التي سفت، فأفاقت الحرب
أوزارها، فادنت الفرقة التافرة من مزارها، وجلت الألفة الدينية أنوارها،
ولوضحت العصمة الشرعية آثارها ورفقت الوحشة الناشية أظفارها
وأعذارها، وأرضت الخلافة الفلاحية أنصارها، وغضبت الفقة المترعرعة
أبصارها، وأصلح الله تعالى أسرارها، فجمعت الأوطان بالطاعة، والتزمت
الدين بأقصى الاستطاعة، وتسابقت إلى لزوم السنة والجماعة، وألقت
إلى الإمامة الفلاحية يد التسليم والضراوة، فتفقلا فيثاثهم، وأحمدت
جياثتهم، وأسعدت آمالهم، وارتضت أعمالهم، وكملت مطالبيهم، وتممت
ماربهم، وقضيت حاجاتهم واستمعت مناجاتهم، وألسنتهم بالدعاء قد
انطلقت، ووجهتهم في الخلوص قد صدقـت، وقوليـهم على جمع الجلمـة
قد اتفـقت، وأكـفهم بهذه الإمـامة الفلاحـية قد اعتـلـت، وكانت الإـdaleـة
في الـوقـت على عـدو الدـين قد ظـهرـت وـبرـقت، إلى أن قال : وكـفـت
الـقـدرـة الـقاـهرـة، والـعـزـة الـباـهـرـة، من عـدوـان الطـاغـية وـغـواـئـلـ الـداـهـيـة، باـعـازـ
دـينـ اللهـ المـوعـودـ بـظـهـورـهـ عـلـىـ الـدـينـ كـلـهـ فـوـاتـحـ وـأـوـالـ، وـمـعـلـومـ بـالـضـرـورةـ
أـنـ اللهـ تـعـالـىـ لـطـيفـ بـعـادـهـ حـسـبـاـ شـهـدـ بـذـلـكـ بـرهـانـ الـوـجـودـ، وـإـنـ
تـعـدـواـ نـعـمـةـ اللهـ لـاـ تـحـصـوـهـاـ دـلـيلـ عـلـىـ مـاـ سـوـغـ مـنـ الـكـرـمـ وـالـجـوـدـ.

كتاب أندلسيون
أحمد بن شهيد
٣٨٢-٤٢٦

كاتب من كبار الكتاب في آخر عهد الدولة الأموية في الأندلس، وهو أبو عامر بن أبي مروان عبد الملك.. الشهير بابن شهيد، شاعر طريف وكاتب مبتكر من كتاب الأندلس وأدبائها. ولد سنة ٣٨٢ هجرية، ومات بقرطبة سنة ٤٢٦ هـ، ولقد عاش ابن شهيد في ظلالبني عامر، وتربى في نعيمهم، وكانت أيامهم من أحسن أيام الرخاء، أقضى ملوكها عليه المال الكثير لمساكنه لديهم ومكانة أسرته؛ فقد كان أبوه متصلًا بالمنصور بن عامر، فنشأ ابن شهيد على مثال الملوك: كريماً، متلافاً، وكان ظريفاً خفيف الروح، مرح المجلس، به ميل إلى النكهة والدعابة، سجحاً للهزل والمجون، خليعاً كأهل عصره الأدياء، سريع البديهة، حاضر الذهن سديد الرأي، عارفاً بفنون الأدب، كاتباً بارعاً، يغلب الطرف على أخلاقه، فرحاً مسروراً كأكثر شعراء زمانه وأدبائه الذين كانوا يتزدرون على مجالس الخلفاء والأمراء، لذلك كان محباً للحياة ونعمها، كما يظهر ذلك من نظمه ونشره.

ولابن شهيد شعر رشيق في المدح والوصف والتشبيه، وقصائد طويلة كثيرة المعاني، تدل على سعة خياله، وأكثر شعره حال من أثر التفكير،

لا يكاد يجد القارئ فيه صيغة جديدة؛ لأنه كان هازلاً أكثر منه رجل جد، وأكثر شعره في الوصف والغزل.

أما أسلوبه، فتغلب عليه سلاسة العبارة، ليس به كثير من الغموض والخفاء؛ يجذب القارئ بأخلائه ومعانيه المستطرفة، ولا مزاج هذه المعاني يتفس الشاعر كان يعبر بلا تكلف. هنا إلى سهولة الموضوعات، وما تقتضيه من رقة ودعابة، لأنها موضوعات لهو. وأكثر لهوه ظريف مقبول، لا تكاد تجد فيه فحشاً أو هجراً.

ونثره متذبذب في موضوعاته وأساليبه ومعانيه؛ فلقد كتب موضوعات شائقة طريفة، نادرة في الشعر العربي، ككتاباته القصصية الخيالية، التي يصفها أدباء العرب بالكتابية الهزلية، فقالوا عنه: «إنه في تنسيق الهزل والنادرية الحارة أقدر منه على غير ذلك». ويبدو من هذه الموضوعات أنه ولع بقراءة القصص، واطلع على ما كتبه أهل الشرق في ذلك، وجاري بعضهم في أساليبه، كما في رسالته «النوابع والزوایع»، ورسالته في الحلوي وغيرها مما كتبه على ألسنة الحيوان.

وهذه الرسائل وإن لم تكن بدعة في نوعها، أو فريدة في أسلوبها، تدل على ميل خاص للكتابة القصصية، وبراعة في التصرف في المعاني وأساليب التعبير وسعة الخيال واطلاع واسع على كتب الأدب وآراء الأدباء. وما كان معروفاً لديهم في النقد الأدبي، على الرغم مما قالوه عنه من أنه كان لا يقرأ كثيراً. ورسالته: «النوابع والزوایع»^(١) أطول رسائل ابن شهيد وهيأشبه رسائلة الغفران لأبي العلاء المعربي^(٢).

(١) الروبة الشيطان أو رئيس الجن. وقد سمي رسالته: «النوابع والزوایع» لأن فيها لكل شاعر شيطاناً.

(٢) ألفت رسالة الغفران عام ٤٢٤هـ، إذ يقول المعربي فيها: «ولا يجوز أن يخبر مخبر منذ مائة سنة أن أمير حلب في سنة ٤٢٤هـ اسمه فلان بن فلان (٨٤ ج ٢ رسالة الغفران — تشر كامل كيلاني).

ويبدو أن ابن شهيد اطلع على رسالة أبي العلاء وعمل على محاكاتها. أما موضوعها، فقد تخيل فيه أن له شيطاناً ككل الشعراء، اتصل به وعرفه وسار به إلى العالم الآخر، وأركبه فرساً، وطاف به على الشراء الأقدسين وهم في حياتهم الآخرة، فصار يتشدد من شعره وينشدونه أشعارهم. وقد تخيل لكل شاعر شيطاناً وجهة ينزل بها، ومنزلأً يقيم به. فوصف هذه المنازل وصفاً شعرياً دقيقاً ووصف مجالس هؤلاء الشعراء وأتى في أثناء وصفهم و مقابلاتهم على كثير من نقد شعرهم تقداً بيانياً مبيناً على ما يعطيه اللفظ والعبارة من جمال وبلاهة؛ على حسب ما هو معروف في أساليب النقد الأدبي عند العرب. ووازن بين أشعارهم، وذكر في أثناء ذلك كثيراً من شعره الرقيق، و شيئاً من أشعار هؤلاء الشعراء. فكانت هذه الرسالة قصة أدبية خيالية.

وأسلوب الرسالة مسجوع، به كثير من محاكاة ما شاع من أسلوب المقامات، وكثير من العبارات المتکلفة الغامضة، والإشارة إلى بعض الأسماء والمسائل الأدبية، مما يحتاج إلى شرح وبيان... ولكن هذا الأسلوب يمتاز عن غيره بأنه أسلوب قصصي من الأساليب النادرة في الكتابة العربية. وقد برع ابن شهيد في هذا النوع.

ومن نماذج نثره في هذه الرسالة قوله : « كان لي أوائل صبوتي هوى اشتده له كلفي، ثم لحقني بعض ملل في أثناء ذلك العيل. فاتفق أن مات من كنت أهواه مدة ذلك الملل، فجزعت وأخذت في رثائه
قتل :

تولى الحمام^(١) بطيبي الخدور وفاز الردى بالغزال الغير^(٢)
إلى أن انتهيت إلى الاعتنار من العلل الذي كان، قلت :
وكنت ملتك لا عن قلبي^(٣) ولا عن فساد ثوى^(٤) في الضمير

(١) الموت. (٢) القلي البغض.

(٣) المخدوع لو الطالش. (٤) أقام واستقر.

فارتج^(١) على القول. فإذا أنا بفارس بباب المجلس على فرس
أدهم^(٢) كأنما يقل وجهه^(٣)، قد انكأ على رمحه وصاح بي: أعجزأ
يا قتي الإنس؟ فقلت: لا وأويك. للكلام أحيان؛ وهذا شأن الإنسان.
فقال قل بعده:

كمثل ملال الفتى للنعم إذا دام فيه وحال السرور

فأثبتت إجازته^(٤). وقلت: يا أبي من أنت؟ فقال زهير بن تمير، من
أشجع الجن. تصورت رغبة في اصطفائك. قلت: أهلا بك أيها الوجه
الوضاح، صادفت قليلاً إليك مقلوبأ^(٥)، وهو تحوك محبوبياً. وتحادثنا،
وتذاكرت معه أخبار الخطباء والشعراء، ومن كان يألفهم من التوابع
والروايع. وقلت له: هل حيلة في لقاء من نفق منهم؟ قال: حتى
استأذن شيخنا، وطارعني، ثم انصرف، وقد أدن له: فقال: جل
على متن^(٦) الأدهم، فسرنا عليه، وسار بنا كالطير يحباب^(٧) الجو
فالجو، ويقطع الدو^(٨) فالدو. حتى لمحت أرضًا لا كأرضنا. وشارفت
جواً لا كجوانا^(٩).. إلى أن قابل صاحب أمرى القيس، وجرت بينهما
مطارحة شعرية، ثم قال لي زهير: من تريد بعده؟ قلت صاحب أبي
نواس، قال هو يدير حنا^(١٠)... وسرنا حتى انتهينا إلى أصل دير حنا،

(١) أغلق.

(٢) أسود.

(٣) يريد ثبت عذرره.

(٤) كيست ما قاله.

(٥) يريد منصراً إليك.

(٦) المتن: الظهر.

(٧) يقطع.

(٨) الغلة.

(٩) كان يظاهر الكوفة بيت صغار تسكّنها الرهبان بالقرب منها ديران يقال لأحدّهما
دير عبد ولآخر دير حنا وهو موضع كثير البساين والرماسين.

فضرب زهير الأدهم. فسار بنا في قته^(١)، ففتح سمعي قرع النواقيس، فقلت : فصحت^(٢) عن منزل أبي نواس ورب الكعبة... وسرنا نجاتب أدباراً وكتائب وحانات، إلى دير عظيم تعمق روانحه وتصوتك نواحجه^(٣). فوق زهير بيابه وصالح : سلام على أهل دير هنا. فقلت : وصرنا بذات الأكيرا^(٤)؟ قال نعم. وأرقلت^(٥) نحو الرهابين، مشدودة الرنانير^(٦)، وقد قبضت على العكاكير، مبضة الحواجب واللحي. مكثرين للتسبيح، عليهم مدى المسيح. فقالوا : أهلاً بك يا زهير أبي عامر من زائر وصاحب. ما يغريك^(٧)؟ قال حسن الدينان^(٨) قالوا : إنه لفي شرك الخمرة، منذ أيام، وما نراكما متفقين به. فقال : وعلى ذلك^(٩)؟ وزلنا وقاد بنا إلى بيت اصطفت دناته^(١٠) وعكفت غزلانه، وفي دير هنا شيخ طويل الوجه والسبلة^(١١) قد افترش أضفاف^(١٢) زهر، واتكا على زق^(١٣) من خمر... فصاح به زهير : حياك الله أيها الإحسان. فجاوب جواباً لا يعقل لغلبة الخمر عليه. فقال لي زهير أقع ذئني بالحدى خمر ياتك، فإنه ربما تبه لبعض ذلك فصحت أشد :

(١) القنة أعلى الجبل.

(٢) يريد أن ما به يفصح ويدل على منزل أبي نواس.

(٣) صاك به الرعنان صوكاً لصق به. والمراد هنا تفوح وتشعر. والتوافع من نفح الطيب انتشرت رائحة.

(٤) هي بيت تسكّنها الرهبان بها ديراً عبد وحنا.

(٥) أسرعت.

(٦) الرنانير جمع زنار يضم الرأي وهو ما يشد على الوسط.

(٧) يريد أبي نواس.

(٨) جمع دن وهو وعاء الخمر.

(٩) الشارب.

(١٠) جمع ضفت قبضة حشيش يختلط فيه الربط بالبايس. ومنها أضفاف أحلام؛ وهي الأحلام المختلفة المتلازمة.

(١١) الزق : وعاء من جلد يستعمل لحمل الماء والخمر.

ولرب حان قد أدرت بديره خمر الصبا مزجت بصفو خموره
والى على طرفه وبكته فأمال من رأسي لعنة كبيرة
وترنم الناقوس عند صلاتهم ففتحت من عيني لرجع هديره
فصاح من جبائل نشونه، وقال أأشجعي؟ قلت : أنا ذلك. فاستدعى
ماء قراحأ، فشرب منه وغسل وجهه...

ابن زيدون ونشره الفنى

٣٩٤—٤٦٣

ابن زيدون هو الكاتب ذو الوزارتين أبو الوليد أحمد بن عبد الله المشهور بابن زيدون المخزومي الأندلسي.

ولد عام ٣٥٤، ونشأ في مدينة قرطبة^(١)، حيث كان أبوه من أعيان فقهائها، وتأدب على كبار أئمتها وقال الشعر وأجاده، وحفظ من مشهور شعر القدماء والمحدثين ما جرى مجرى الأمثال، ومن أخبار العرب وأيامها وأمثالها وحكمها شيئاً كثيراً، ولما تبه شأنه بين شعراء قرطبة وكتابها وأدبائها، اتصل بأبي الوليد بن جهور أحد ملوك الطوائف، فمحظى عنده، ومدحه بالقصائد الطنانة، وصدرت عنه في دولته الرسائل البدية حتى أصبح لسان دولته الناطق، وحسامها المسلول. فحسنه أعداؤه وأفسدوا ما بينه وبين مليكه، وأحسن منه ابن جهور دالة عليه ظنها مسالة لأعدائه فاعتقله، ومكث في مجلسه مدة استشفع فيها إليه بقصائد أبدعها ورسائل استند فيها جهده، فما ألات له قلباً، ولا ثنت له عطفاً، فأعمل الجبلة على فراره من سجنه وخلص إلى المعتصم بن عباد ملك

(١) مدينة عظيمة على نهر الوادي الكبير بالأندلس، وكانت قاعدة الدولة الأموية وآل جهور من ملوك الطوائف بعدهم.

إشبيلية^(١)، إذ كان أشد ملوك الطوائف رغبة فيه، وتولى الوزارة له، وظل على حاله كذلك في عهد المعتمد بن المعتصم، حتى مات بإشبيلية عام ٤٦٣ هـ.

وقد كانت ثقافة ابن زيدون ثقافة أدبية؛ فقد شب على القراءة والدرس، وحفظ كثيراً من مسائل الأدب، وكان متقد الذاكرة فامتلاط نفسه بالمعاني التي قرأها، وأسماء الناس الذين عرفهم في قراءته وكثير من الأمثال والحكم والأبيات التي جرت مجرى الأمثال. ثم كانت زعامة الأدب في المشرق، وقد ظهر ابن العميد ومن على طريقته في الكتابة، وكان أسلوبهم طريفاً، فتسرب إلى بلاد الأندلس، فأعجب ابن زيدون بهذا الأسلوب الأنيق كغيره من الكتاب الذي يالغوا في اتباع طريقة الصناعة اللفظية والشعر المشثور، ولكنه لم يعبأ بالسجع كثيراً لأنه لم يكن كغيره مدفوعاً إلى الكتابة بحب التائق، بل دفعه إليها الحوادث. وقد تولى الكتابة لابن جهور وابن عباد، فكان من كتاب الدواوين، واشهر في الكتابة الفنية الأدية برساليه الجدية والهزالية : كتب الأولى وهو في السجن يستعطف فيها ابن جهور. وكتب الثانية عن لسان ولادة بنت المستكفي (المتوفاة عام ٤٨٠ هـ) للوزير ابن عبدوس تهجوه وتقطع صيتها به؛ فاشتهر في عالم الكتابة بهاتين الرسالتين. وقد تكون هاتان الرسالتان من الرسائلات النادرة، في الأدب العربي. وأظهر ميزانهما أمران :

- ١ — ما تدلان عليه من نفس كتابها وأخلاقه وشيمه.
- ٢ — كثرة ما فيهما من مقتبسات في الحكم والأمثال؛ والأشعار وحوادث التاريخ وأسماء الرجال المشهورين، من الحكماء والأدباء والعلماء. كل ذلك جاء ميشنطاً في أثناء كلامه.

(١) مدينة عظيمة على نهر الوادي الكبير أيضاً بالغرب الجنوبي من الأندلس ولا تزال إلى الآن من أعمق مدنها.

وكتابه ابن زيدون كثيراً ما يحللها بأبيات متوردة، وتلميحات إلى حوادث مشهورة، وأمثال وحكم في فقار غير مسجوعة غالباً، سالكاً فيها طريق التهويل والبالغة في فروضه وأقيسته وتشبيهاته، وجرى على ذلك في رسالته : الهزلية والجدية.

وقد شرحهما الأدباء، وعنوا بتفصيل ما فيهما من الأعبار والأشعار والحكم وترجم الشعرا، وأشهر تلك الشروح شرح ابن نباتة للهزليه والصفدي للجدية. ولو لا جمع هاتين الرسائلتين لكثير من فنون اللغة والأدب والتاريخ ما نسخت شهرته بالكتابة عند المتأخررين شهرته بالشعر عند المتقدمين. فقد كان يلقب عندهم بمحترفي المغرب، ولا يقدر ذلك في بلاغته، وفصاحة عبارته، فمقام الرجل في سعة اطلاعه وسرعة خاطره أشهر من أن ينوه به، فقد قيل : إنه دفن بنتاً له، ووقف ليشكرون الناس لتشييع جنازتها، فما أعاد في ذلك الوقت عبارة قالها أحد السائرة وأسماء الرجال والحوادث، فكما دل في رسالته الهزلية على أنه عارف بأسلوب الهجاء، سباق في هذا الميدان أيضاً. فقد أقذع في ذم ابن عبدوس إقداعاً شديداً، وكأنه جمع كل ما يمكن أن يقال في الذم والتهمك وأفرغه على ابن عبدوس في أسلوب جميل خلاب يدل على تمكنه من النصرف في أسلوب الكلام، إذ على الرغم مما في هذه الرسالة من الطول وكثرة الاقتباس لأسماء الرجال والأمثال، والحوادث والأبيات الشعرية، والإطناب في كثير من المعاني، لا يكاد يشعر القارئ لها بشيء من الممل والابتدا، على أنها لا تخلو من العووب، فقد سرد أسماء أكثر من خمسين رجلاً، وأكثر من عبارات الذم مما يحسب ثرثرة ولغوأ. وجاء عبارات تدل على غلظة طبعه وشدة حقده للاتقام، وعلى قدرته على التهمك والاقتنان في أساليبه.

ورسالته الجدية جمع فيها كل ما يمكن أن يقال في الاستعطاف والمدح بعبارات ممزوجة بالأمثال والحكم. وأول شيء يسترعى النظر

في أسلوبها أن ألقائهما وجملها تكاد تكون كلها مقتبسة من كلام غير الكاتب، من آثار أدبية وأمثال سائرة وأبيات من الشعر. وهذا إن لم يشهد له بقعة الابتكار دليل على قدرته في تأليف الكلام ونظمها، وبراعته في صناعة الكتابة واطلاعه الواسع. وقد جمع في هذه الرسالة بين التناست في المعاني والألفاظ والتأليف والجمع. فبينما تجده يرق في الاستعطاف إلى أن يستصرخ نفسه، ويجمع من المعاني والألفاظ ما يناسب ذلك، تجده أنسلا من هذا الموقف إلى الفخر بنفسه والإشادة بشيمه. فهي رسالة بدعة في نظمها وأسلوبها، كثيرة القافية لما اشتتمت عليه من الأشعار والأمثال والحكم والحوادث وأسماء الرجال، جامعة لكثير من المعاني كالمحاجح والاعتذار، والاستعطاف والفخر والامتنان وذم الزمان، ولوم الأعداء والحقد عليهم والصبر والتجلد. كل ذلك بعيارات أكثرها بلغ سائق، يدل على طول باع الكاتب في الأدب ولللغة والتاريخ. ولكنها ليست على طريقة واحدة من التزام السجع أو الترسل؛ ثم إن كثرة الاقتباس بمناسبة وغير مناسبة ربما يهوش على القارئ وبصرقه عن الغرض من كتابتها، ويحمله على التفكير في البحث عن معانٍ الأمثال ومعرفة الرجال والحوادث التي أشار إليها الكاتب.

وأما رسالته الهزلية التي كتبها ابن عبدوس على لسان ولادة يهكم به ويندمه، فهي من هذا النوع أيضاً، من حيث الأسلوب، كذكر الأمثال. وفي هذه الرسالة شبه من رسالة التربيع والتدوير، التي كتبها الجاحظ إلى أحمد بن عبد الوهاب، وذلك مما يرجح أن ابن زيدون قدّه في لاذع تهكمها، والإكثار من ذكر أعلام عرقوها في التاريخ بصفات، ضرب بهم المثل فيها، ولكن بين الرسائلتين فرقاً ظاهراً، فإن الجاحظ لم يسف في الهجاء ولم يمض به، بل كان قوله كله تهكماً، يضحك من المكتوب إليه، وليس فيه من الشدة ما يحملك على رحمته، والحق

على الكاتب لشاعة حمله، وهذا من فضل الجاحظ، وبعكس ذلك
كان ابن زيدون في هذه الرسالة الهزيلة.
ومن الرسالة الجدية لابن زيدون :

هذا العتب محمود عوّقه^(١)، وهذه النبوة غمرة ثم تتجلي^(٢)، وهذه
النكبة سحابة صيف عن قليل تقشع، ولن يربيني من سيدني أن أبطأ
سيبه^(٣) أو تأخر غير ضئيل غناوه^(٤)، فابتلاه الدلاء فيضاً أملؤها، وأنقل
السحائب شيئاً أخلفها، وأنفع الحياة ما صادف جدياً، والذ الشراب
ما أصحاب غليلاء، ومع اليوم غد، ولكل أجل كتاب^(٥) له الحمد على
اهباله، ولا عتب عليه في اغفاله^(٦).

فإن يكن الفعل الذي ساء واحداً فاؤماله اللاشي سررن ألوف^(٧)
وأعود فأقول، ما هذا الذنب الذي لم يسعه عفوك؟ والجهل الذي

(١) من قول المتنى :

لعل عصبك محمود عوّقه وربما صحت الأجسام بالعقل

(٢) النبوة : إعطاء الضربة، الغمرة : الشدة، تتجلي : تكشف، وفي المثل : غمرات ثم ينجلى.

(٣) تقشع : أصلها تقشع، فخفف بمحض الناء الأولى، وتقطعت السحابة : أقامت، والجملة مثل نقله الميداني.

(٤) ضئيل : بخجل، غباء : نفع.

(٥) مع اليوم غد، أصله من المثل العربي : إن مع اليوم غداً، هو يعني المثل : إن غداً لناظره قريب، ولكل أجل كتاب : القیاس من القرآن. والأجل : مدة الشيء، والمعنى لكل أجل أجله الله تعالى كتاب أثبه فيه، أو هو من المقلوب، والمعنى لكل كتاب أجل ينزل فيه.

(٦) الضمير في له الحمد لابن جهور المستعطف، الاهبال : انتهاز الفرصة والتعميل بالأمر، الاغفال : ترك الشيء على تذكر له، والمعنى أنه يمدد الأمير على ما عجل له من خير، ولا يتعجب عليه فيما آخر.

(٧) البيت من قول المتنى.

لم يأت من ورائه حلمك ؟ والطّاول الذي لم يستفرغه طولك^(١) ؟
 والتحالم الذي لم يف به احتمالك ؟ ولا أخلو من أن أكون بريءاً
 فأين العدل ؟ أو مسبياً فأين الفضل ؟
 إلا يكن ذنب فضلك واسع أو كان لي ذنب ففضلك أوسع
 فهبني مسبياً كالذى قلت طالباً قصاصاً فأين الأخذ يا عز بالفضل
 حتى لا ينفعك ! قد بلغ السيل الزبى، وتألني ما حسي به وكفى، وما
 أراني إلا لو أمرت بالسجود لأدم فأيّت واستكريت، وقال لي نوح
 أركب معنا فقلت سأوي إلى جبل يعصمني من الماء، وأمرت بناء
 صرح لعلى أطلع إلى إله موسى، وعكتفت على الجبل، واعتدلت في
 السبت، وتعاطيت فقررت وشربت من النهر الذي ابلي به جوش طالوت،
 وقدت الفيل لأبرهة^(٢) وعاهدت قريشاً على ما في الصحفة^(٣)،
 وتآولت في بيعة العقبة^(٤)، واستفترت إلى العير بيدر^(٥)، وانخذلت بثلاث

(١) الطّاول : العددي، والطّلول : الفضل، والطّاول من الطول بالضم ضد العرض، والطلول : الطول بالفتح أي الفضل.

(٢) هو ابن الصباح ملك اليمن، من قتل أصححة النجاشي، وقد قصد إلى الكعبة بمحبس تقدمة البيلة، فأرسل الله عليه طيراً أيام، ترميهم بهجارة من سجل.

(٣) لما رأت قريش قوة النبي، بهجرة المسلمين إلى الحبشة، وإسلام حرمة وعمر، وفسروا الإسلام في القبائل : أرادوا قتلها، وقدموا لأنبي طالب عنده عمارة بن الوليد أعز في فهمهم، لتأخذه بدل ابن أخيه، فأيّى، وجمع بين هاشم وبني عبد المطلب. ودخلوا شعباً احتجوا به، مكتسبت قريش مسيحية، تماقت فيها على مقاطعتهم حتى يسلموا

رسول الله، فنكثوا ثلاث سنين، لا يصل إليهم شيء إلا سراء، وسلط الله الأرضة على الصحفة، فأكلت ما فيها من ظلم، ولم تبق فيها إلا اسم الله.

(٤) بيات القنة ثلاثة، ولم يرد أن أحداً من السابعين في إحداثها تأول، ونقض السبع، ف يقول كلام ابن زيدون على فرض حصول ذلك.

(٥) الذي نفر إلى قريش ليخرجهما بأمر العبر هو ضمحن بن عمرو الفقاري، بعده بذلك أبو سفيان.

الناس يوم أحد^(١) وتخلفت عن صلاة العصر في بي قريطة^(٢)، وحيث بالإفك على عائشة الصديقية، وأنفت من إمارة أسامة^(٣)، وزعمت أن خلافة أبي بكر كانت فلتة^(٤)، ورويت رمحي من كيبة خالد^(٥)، ومرقت الأديم الذي يباركه يد الله عليه^(٦)، وضجت بأশسط، عنوان السجود به^(٧)، وبذلت لقطام^(٨) :

(١) المتخلل يوم أحد، هو عبد الله بن أبي بن سلوان.

(٢) أي خالفت النبي في فعله، جاءه أنه عليه الصلاة والسلام، لما راجع من غزوة الخندق، ووضع المسلمين السلاح، جاءه جبريل ظهراً وقال له « وضعت السلاح وما وضعه»

السلاتكة بعد، إن الله يأمرك بالمسير إلى بي قريطة » فأمر رسول الله مؤذناً ينادي

في المسلمين : من كان ساماً مطيناً فلا يصلين العصر إلا في بي قريطة .

(٣) هو أسامة بن زيد، مولى رسول الله وجهه، وقد أمره رسول الله على بعث إلى الشام،

وأمره أن يرطبه الخل تجوم البقاء والداروم من أرض فلسطين، فتجهز الناس، ولو عب

مع أسامة المهاجرين الأولون .

(٤) هذه الكلمة عمر بن الخطاب، وقد قالها في معرض الحمد لله على حصولها، بعد تدبر أصحاب السفينة، وقد عيّب ابن زيدون بإيراده هذه العبارة، لأنه ساقها مساق

النهم، وهي ليست كذلك أصلاً، وستورد عليك في ترجمة ابن زيدون، جملة ما

تقدت به رسائله .

(٥) إشارة إلى قول أبي شجرة السلمي :

ورویت رمحي من كيبة خالد وإنني لأرجو بعدها أن أعمرا
وكان أبو شجرة هذا من تلك العرب، فعل ذلك مع جيش خالد في حرب أهل

الرقة، ثم أسلم .

(٦) يزيد بالأديم الممزق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قتله أبو لؤلؤة مولى المغيرة

بن شعبة، وهذا الاستعمال، من قول بعض من روى عمر :

جزى الله خيراً من إمام وباركت يد الله في ذلك الأديم الممزق

(٧) يزيد قتل عثمان، والأشسط : الذي في شعره بياض وسود، والاستعمال من قول حسان
رضي الله عنهما :

ضحو بأشسط عنوان السجود به يقطع الليل تسحا وقرانا

(٨) يشير إلى مقتل علي رضي الله عنه، وقد قتله الشقي عبد الرحمن بن ملجم وقطام =

ثلاثة آلاف عبد وقينة وضرب على بالحسام المسمى
وكتب إلى عمرو بن سعد، أن جمجم بالحسين^(١)، وتمثلت عندما
بلغني من وقعة الحررة^(٢) :
للتأشيري بيدر شهدوا جزع الخزرج من وقع الأسل
ورجمت الكعبة، وصلبت العائلة^(٣)، على الثانية، لكان فيما جرى
على ما يحصل أن يكون نكالاً ويدعى ولو على المجاز عقاباً.
ومن الرسالة الهزلية التي كتبها على لسان ولادة إلى الوزير ابن
عبدوس، وكان هنا أرسل إليها امرأة تستميلها إليه :
« كلامك تمتمة^(٤)، وحديثك غمقمة^(٥)، وبيانك فهفة^(٦) وضحكك
فهفة^(٧)، ومشيك هرولة^(٨)، وغناك مسألة^(٩)، ودينك زندقة^(١٠) » وعلمك

= هذه خطبته، التي اشتهرت عليه في زواجهما، أن يمهرها ثلاثة آلاف عبد وقينة وبقتل
علي، فأجابها باليت المذكور، وبعد ذلك :

فلا مهر أعلى من على وإن علا ولا فنك إلا دون فنك ابن ملجم

- (١) يشير إلى مقتل الحسين، وكان عبدالله بن زياد كتب إلى عمرو بن سعد بن أبي وقاص « أن جمجم الحسين » وذلك لما أتيأ عمرو عن قياده وجماعه به : ضيق عليه.
- (٢) يشير إلى ما فعله بزيد في وقعة المدينة عند حررة واقى بقيادة سلم بن عقبة الذي سمي مسرفاً، لشدة سرقته في سفك الدماء؛ وقد تمثل بزيد باليت المذكور وهو من قول عبدالله بن الزبيري : في وقعة بدر.
- (٣) رجم الكعبة كان من فعل الحجاج؛ لما حاصر بها عبدالله بن الزبير، وقطعه وصلبه، ورمي الكعبة بالحجاج، وسمى عبدالله « عائلاً » لأنه عاذ باليت العرام، واستجار به.
- (٤) التردد في الناء.
- (٥) أن يسمع الصوت ولا بين تقطيع الحروف.
- (٦) فهي في النطق.
- (٧) الضحك الشديد يستدللون به على ضعف العقل.
- (٨) بين الشهي والعدو.
- (٩) كدية.
- (١٠) إلحاد.

مخرقة^(١) :

مساو لو قسمن على الغواني لما أمهرن إلا بالطلاق^(٢)
حتى أن باقلأ^(٣) موصف بالبلاغة إذا قرن بك. وهيقنة^(٤)
مستوجب لاسم العقل إذا أضيف إليك. وطوبوسا^(٥) مأثور عنه يمن
الطالع إذا قيس عليك. فوجودك عدم^(٦). والاغتياط بك ندم. والخيبة
منك ظفر والجنة معك سقر. كيف رأيت لؤمك لكرمي وفاء. وضعتك
لشرفي كفاء^(٧) وأتي جهلت أن الأشياء إنما تتجذب إلى أشكالها.
والطير إنما تقع على آلاها^(٨) وهلا علمنت أن الشرق والغرب لا يجتمعان.
وشعرت أن المؤمن والكافر لا يتقاريان وقلت : الخبيث والطيب لا
يستويان^(٩) وتمثلت :

(١) من الحرق بالضم وهو جهل والمحمق يقال حرق الرجل يحرق فهو آخرى والأثنى حرقاء.

(٢) البيت لأبي تمام.

(٣) مضرب البطل في المي.

(٤) مضرب البطل في الخل وضعف العقل، رووا أنه وضع عقداً من الودع في عنقه
لثلا يضع، وأن أباه راهيه حتى نام فأخذ العقد ووضعه في عنقه، فلما تبه قال
لأخيه «أنت أنا، فأينا يا ترى من هو أنا»^(١٠) وكان يلقب ذا الودعات وهو جاهلي.

(٥) هو المعنى الماجن المعروف وكان يسكن المدينة، وهو أول من غنى بها على الدف
بالعربية، وبضرب به البطل في الشؤم، لأنه ولد يوم مات النبي عليه السلام، وفطم يوم مات
أبو يكر، وغضن يوم قتل عمر، وتزوج يوم قتل عثمان وكانت أنه نصيبي بالنيمة
بين الأنصار، وله قصص فيها أدب رائع.

(٦) إشارة إلى قول المتنبي :

يا من يعر علينا أن شوارقهم وجلانا كل شيء بعدكم عدم

(٧) وفاء وكفاء مصدراً وافي وكافياً، وكانتا أخداً من الأثر الشريف، اللهم إني أحمدك
حمدآ بواقي نعمتك، وبيكافي^(١١) مزيدك.

(٨) إشارة إلى قول علي كرم الله وجهه : الدنيا والآخرة كالشرق والمغرب كلما ازددت
من إدحاشا فربما ازددت من الأخرى بعدها، ومن قول الرسول عليه السلام : المؤمن أطيب
من عمله، والكافر أحيث من عمله.

أيها المنكح الثريا سهيلاء عمرك الله ! كيف يلتقيان؟^(١)
 وذكرت أني على لا يباع من زاد^(٢) وطار لا يصبهه من أراد.
 وغرض لا يصبهه إلا من أجاد ! ما أحسبك إلا كنت قد تهيأت للتهئة.
 ولولا أن جرح العجماء جبار^(٣) لليت من الكواكب ما لاقى
 يسار^(٤) فما هم إلا ببعض ما به همت، ولا تعرض إلا لأيسر ماله
 تعرضت^(٥)، أين ادعاؤك رواية الأشعار، وتعاطيك حفظ السير

(١) قال في اللسان : قال الجوهري : معنى لعمر الله، وعمر الله : أحلف بيقاء الله ودوامه، قال : وإذا قلت عمرك الله فكأنك قلت بعمرتك الله، أني بالقرارك له بالبقاء وقول ابن أرية.

أيها المنكح الثريا سهيلاء عمرك الله ! كيف يلتقيان؟
 يريد سألك الله أن يطيل عمرك لأنه لم يرد القسم بذلك.

(٢) المثل : النفس، وهو إشارة إلى قول الحبيب بن قحطان التميمي — وكانت له فرس

اسمها سكاب. أراد بعض ملوك اليمن أحدها مد فهرب بها.

أيتها النفس ! إن سكاب على نفسك، لا تumar ولا تباع
 مقدمة مكرمة عليك تجاع لها العمال ولا تجاع
 فلا تطبع — أيتها اللعن — فيها ومنكمها بشيء يستطاع

(٣) هدر، وفي الحديث المعدن جبار والبشر جبار، والعجماء جبار، ومنه أن تنقلت البهيمة
 العجماء فتصيب في انفلاتها إنساناً أو شيئاً فتجريها هدر، وكذلك البشر العربية يسقط
 فيها إنسان فيهلك قدمه هدر، والمعدن إذا انهار على حافره فقتلته قدمه هدر.

(٤) اسم عبد أسود ديم كان النساء يولعن به لقبيده وبخسهم لعقلته معجبات به، نظرت
 إليه مولاته يوماً فضحتك ظنها غازلة. فقال صاحب له أسود « قد والله — عشقتنى

مولانى فوززورنها الليلة » فقال له صاحبه : يا يسار اشرب لين العشار — الوبق —
 وكل لحم الحوار، وإلياك وبنات الأحرار » فقال له : « وائلش ما رائنى حررة إلا عنقتنى »
 فلما أمسى قال لصاحبه : « احفظ علىي إيلى حتى أتصرف وأعود إليك، وذهب فدخل
 على مولاته براودها عن نفسها فقالت له : مكان فلان للحرائر طيباً أشئت ليه ،
 فقال لها : هاتيه فائمه بطوط وموسى قاطمة وأجلسته على الطيب وأنحت بالموسي
 على هيه قطفته، فخرج يدرو حتى أتي صاحبه ودمه يسيل، فذهبت حادته مثلًا.

(٥) أي لأنك أقل مني ويسار غير منك.

والأخبار؟ أما ثاب إليك قول الشاعر :
بنو دارم أكتافهم آل مسمع ونكح في أكتافها الحيطات^(١)
وهلا عشت ولم تخر^(٢)؟! وما أثلك في أنك تكون وأنت
البراجم^(٣) أو ترجع بصحيفة الملتصس^(٤)، أو أفعل بك ما فعله عقيل
بن علقة^(٥) الجهنمي؛ إذ جاءه خاطباً. فدهن أنته بزب وآدناه من قرية
التمل. ومتي كثر تلاقينا، واتصل تراينا، فيدعوني إليك ما دعا آبنة

(١) البيت للفرزدق، يقوله لرجل من الحيطات بكسر الناء وفتحها، وهو بنو الحرت بن عمرو بن تيم، وبجمعهم البيت مع بنى دارم، وإنما نقص قدر الحيطات عنهم لقول الشاعر فيه :

رأيت الخمر من شر المطابا كما الحيطات شر بي تميم
 وإنما سموا الحيطات لأن أيام الحرت كان في سفر فأكل أكلاء اتفخ منه ومات،
وآل مسمع بيت يكر بن وائل في الإسلام.

(٢) مثل يقال : عش ليك ولا تخر، وعشت الرجل يساوي أطعمه العشاء، قال :

بات يعشها يغضب بات يقصد في أسوأها وجائز
وعشاء نعشة وأعشاء كعشاء، وفي المثل : سقط العشاء به على سرحان، يضرب
للرجل بطلب الأمر التائه فيقع في الهلاك، وأسئلته أن دابة طلبت العشاء ففهمت
علىأسد.

(٣) البراجم خمسة من أولاد حنظلة التميمي، زعموا أنه كان عمرو بن هند وتر عدد
تميم، فخلف ليرثون مائة منهم فأحرق تسعة وتسعين، وبينما هو يلتصن تمام المائة
إذ مر به رجل من البراجم يسمى عاصراً قادماً من سفر، فاشتم رائحة الفتثار، فظن
أن السلك أخذ طماماً، فعدل عنه. فقيل له من أنت؟ قال من البراجم فقالوا : إن
الشقي وأنت البراجم، ثم ألقى في النار، ومن هنا عبرت تميم بحسب الطعام.

(٤) صحيفه الملتصس وقصته وطريقه مع عمرو بن هند مشهورة.

(٥) علقة كسكنة والد عقيل البري الشاعر، كانت تصهر اليه ملوك بنى أمية وهو القائل
لعبد الملك بن مروان : جئني هجناه أبنائك.

الحس إلى عيدها، من طول السواد وقرب الوساد^(١) ! وهل فقدت الأرقم فأنكح في جنب^(٢)؟ أو عضلي همام بن مرة فاقول : « زوج من عود، غير من قمود ».

ومن نثر ابن زيدون الذي سار فيه على نهجه في الرسائلين ما أرسل به إلى أحد أصدقائه، وهو مختف بقرطبة بعد فراره من سجن ابن جهور، قال :

« وبلغني أنك أحد اللاتين لي » ومن أمثالهم « ويل للشجي من الخل^(٣) » « وهان على الأملس ما لافق الدبر^(٤) » وعلمت أن العاجز من لا يستند. فالمرء يعجز لا محالة، ولم استجز أن أكون ثالث الأذلين : العير والوتدة، وتذكرت أن القرار من الظلم، والهرب مما لا يطاق، من سنن المرسلين، وقد قال الله تعالى على لسان موسى : « ففترت منكم

(١) امرأة جاهلية، والوساد : المخدة، والسواد يكسر السين مشددة، مصدر ساودها ساوداك ومساودة، أي سارها مسارة ومساراً فاذني سواده من سوادها : أي شخصه من شخصها. قيل لابنة الحسن — وقد زرت بيدها — لم زيت وأنت سيدة قومك؟ فقالت « قرب الوساد، وطول السواد ». وبضرب مثلًا للأمر بلغ صاحبه فيما يكره.

(٢) الأرقم حي من تغلب، وجع حي من المحن. وهو إشارة إلى قول المهاهيل

أعزز على تغلب بما لقيت
أنت بين الأكرمين من جشم
أنكحها فندها الأرقم في جد
سب، وكان العباء من أم
لو بأباين جاء بخطيبها ضرج ما أتف خطيب بدم

وذلك لما حالت حرب اليوسوس هرب، وتزل في طريقه على حي من المحن، فخطبوا إليه ابنته وأجبروه على تزويجهما، وساقوا المهر جلوذاً.

(٣) الشجي كفرج : المشغول، وقد شدد في الشعر وبخوز الشديد في المثل أيضًا للمقابلة بالخلق. الخلقي كفني : الملازع، والذي قال هذا المثل، أكثم بن سيفي لما عاد له ابنه بخيز رضول الله عليه السلام، فجمع قومه ورغهم في الإسلام فقال له مالك بن نويره : قد عرف شيخكم ! فقال له أكثم « ويل للشجي من الخل^(٤) ».

(٤) الأملس : البريء من القروج. الدبر كفرج : من به فرحة الدبرة بالتحررك : يضرب هذا المثل في سوء اهتمام الرجل بشأن صاحبه وكذاك المثل قوله.

لما خفتكم ^{هـ} فنظرت في مفارقة الوطن، فقدمياً ضاع الفاضل
في وطنه، وكسر العلق في معدنه، كمال قال :
أضيع في معاشرى وكم بلد يكون عود الكباء من حطبه ^(١)
فاستخرت الله في إنفاذ العزم، وأنا الآن حيث أمنت بعض الأمان،
إلا أن الغي لم يرتفع، ومادة البني لم تقطع ».
ومن نثره الذي ترك فيه طريقة في رسالته :

« لقد كان من محسن الشيم، وشروط المروءة والكرم، أن يهب
لي ما أنكر لما عرف، ويغفر ما سخط لما رضي، ويدفع بالتي هي
أحسن، ويؤثر الذي هو أجمل وأرق، ويتوقف عندما تنص ^(٢) له من
سعادة، وزف إليه من وشایة، فإن كان باطلًا ألقاه، وفضح المتقرب
به وأقصاه، وإن كان حقاً صير صير الحليم، وأغضى إغضاء الكريم،
و قبل إثابة المعذب، واقتصر في مؤاخذة المذنب، فقدم التوقيف قبل
التحقيف، والتأنيب قبل التأديب، فإن الرفق بالجاني عتاب، والحر يلحى،
والعصا للعبد ^(٣) ».

ولا تكون مبعدين إذا قلنا ما قاله ابن نباتة في الحكم على ثر
ابن زيدون، قال :

« أما ثره، فإنه أكثر فيه من استعمال أمثال العرب، وحل أشعار
المتقدمين والمتاخرين، إلى أن قيل : إن رسالله أشبه بالمنظوم منها
بالمشور، وعلى ذلك فقد دل على اطلاق معجب، واستحضار معجز ».

(١) الكباء ككباء : عود البخور.

(٢) تنص الرجل الحديث : رفعه.

(٣) العتاب : التأنيب على الذنب. لحاء يلحوه : شتمه.

عبد الملك بن أبي الخصال المتوفى عام ٥٣٩هـ

عبد الملك بن أبي الخصال الغافقي كاتب من كتاب الأندلس البلغاء وأدبائها الكبار. سكن قرطبة، ثم اتصل بولاة لمتونة بمراكش وفارس، وكان كاتباً لهم. وقد اشتهر برسائله التي كانت من نماذج الكتابة في ذلك الوقت، توفي في سنة ٣٥٩هـ.

كتب إلى بعض أصدقائه : « الحذر أعزك الله يؤتى من الثقة، والجحيب يؤذى من المقدمة^(١). وقد كنت أرضي من ودك وهو الصحيح بلمحات، واقتنع من ثناياك وهو المسك بفتحة. فما زلت تعرضني للامتحان، وتطالبني بالبرهان وتأخذني بالبيان، وأنا بنفسي أعلم، وعلى مقداري أحبط وأحزن، والمعيدي يسمع به لا أن يرى^(٢) ». »

وكتب إلى وزير وقد خلع من وزارته : « مثلك — ثبت الله فؤادك، وخفف عن كاهم المكارم ما أوهى بك وآدك^(٣) — يلقى دهره غير

(١) المقدمة : المقدمة.

(٢) يشير إلى المثل المشهور : « تسمع بالمعيدي غير ما أنت تراه ».

(٣) آداء الأمر أوداً ولوهداً : بلغ منه المجهود. والأوادي : الدواهي.

مكثث، وينازله بصير غير منتكت^(١)، ويسم عند قطوبه، ويفل^(٢) شابة خطوبه، فما هي إلا غمرة^(٣) ثم تنحلي، وخطرة يليها من الصنع الجميل ما يلي. لا جرم أن الحر حيث كان حر، وأن الدر برغم من جهله در. وهل كنت إلا حساماً انتضاه^(٤) قدر أمضاه، وساعد ارتضاه، فإن أغمره فقد قضى ما عليه، وإن جرده بذلك فذاك إليه.».

(١) منقوص.

(٢) غل السيف : ثلمه. وغل القوم : هزهم، يريد أنه يتغلب على الخطوب.

(٣) الغمرة: الشدة.

(٤) انتضى السيف : استله من عمه.

لسان الدين بن الخطيب

٧٧٦-٧١٣هـ

- ٩ -

هو ذو الوزارتين، محمد بن عبدالله بن سعيد بن سعيد ابن علي بن أحمد السلماني. ولد بلوشة على عشرة فراسخ من غرناطة في ٢٥ رجب عام ٧١٣، وينسب بيته إلى سلمان، وهو حي من مراد من عرب اليمن، انتقل إلى الشام ثم هاجر إلى الأندلس فسكن قرطبة أولاً ثم طليطلة ثم لوشة.. وأخيراً استقر في غرناطة^(١).

و لا يعلم بالضبط الوقت الذي هاجرت فيه هذه الأسرة من اليمن إلى الشام، ثم من الشام إلى الأندلس، لكن الظاهر أن المهاجرين كانوا تبعاً للمهاجرين الكبارتين : الهجرة إلى الشام في مدة حكم الأمويين أيام كانت دمشق حاضرة للعرب والإسلام، وحيث كان فيها للبيهقيين خاصة مقام محمود ومتزلة كبرى عند ملوكها. والهجرة إلى الأندلس بعد أن فتحها العرب وأشاعوا في البلاد حديث رغدها فأسرع الناس إليها من كل حدب، وخاصة من الشام، بدليل تسميتهم بعض بقائهم

(١) راجع نفح الطيب (٣ : ٣) نقلأً عن ترجمة لسان الدين بقلمه في آخر الاحاطة.

الأندلس بأسماء البقاع الشامية. ومهما كان فقد كان بيت لسان الدين بيت شرف وعلم وسادة ونفوذ، وكان يعرف ببيت الوزير، حتى نشأ سعيد الجد الأعلى للسان الدين، وكان من أهل العلم والدين، بلوحة، وهو أول من استوطنها منهم، وكان خطيباً بها؛ فعرف هذا البيت منذ ذلك اليوم بيت الخطيب.

وكان جده سعيد الأدنى على خلال حميدة: من خط، وتلاوة، وفقة، وحساب، وأدب، توفي عام ٦٨٣؛ وأبوه عبدالله من انتقل إلى غرناطة وخدم ملوك بني الأحمر واستعمل على مخازن الطعام، وكان من العلماء بالأدب والطب: قرأ على أبي الحسن البليطي وأبي جعفر ابن الوزير وغيرهما وأجاز طالفة من أهل المشرق، وتوفي بطريق شهيداً عام ٧٤١.

وكان لوراثاته أثر كبير في انتصار لسان الدين إلى العلم والأدب، وتبريزه فيما.

— ٢ —

وكان لمحمد كذلك — من محیطه المنزلي والاجتماعي، ومن تراث أسرته وانصرافهم للعلم وعنابة أهل زمانه به، مع كثرة العلماء حوله وسهولة التحصل؛ — أكبر عون على بلوغه تلك المنزلة الرفيعة التي تالها بعد.

وكان أول من قرأ عليه القرآن أبو عبدالله بن عبد العولى العواد، فأنقذه كتابة وحفظاً وتجويداً، وقرأ أيضاً على أستاذ الجماعة أبي الحسن القيحاطي، وأخذ عنه العربية، وهو أول من اتفع به؛ وقرأ على الخطيب أبي القاسم، ولازم قراءة العربية والفقه والتفسير على الإمام أبي عبدالله

الفحار الابيري شيخ التحويين لعهده، وقرأ على قاضي الجماعة أبي عبدالله بن بكر، وتأدب بالرئيس أبي الحسن بن الحباب، وهو سلفه في الوزارة، وروى عن كثير من الأعيان، وأخذ الطب وصناعة التعديل عن الإمام أبي زكريا بن يحيى بن هذيل، ولازمه وألف فيه في هذين العلمين..

- ٣ -

وقد خلف لسان الدين مؤلفات جمة. وأثاراً قيمة في التاريخ والأدب وعلوم الشرع والطب، من أعنوها :

- الإحاطة في أخبار غرناطة.
- الإماطة عن وجه الإحاطة فيما أمكن من تاريخ غرناطة.
- اللهمحة البدرية في الدولة التصرية.
- طرفة العصر في دولةبني نصر.
- رقم الحلل في نظم الدول.
- الكتيبة الكامنة في أدياء المائة الثامنة.
- أعلام الأعلام فيمن بوضع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام.
- ستان الدول (أتم منه ٣٠ سفراً).
- نقاضة الجراب في علالة الاغتراب.
- خطرة الصيف، رحلة الشتاء والصيف.
- مفاوضات مالقة وسلا.
- معيار الأخبار.
- التاج المحلي في مساجلة القدر المعلى.
- الإكيليل الراهن فيما فضل عند نظم (التاج) من الجوادر.
- ريحانة الكتاب (عدة مجلدات).

السحر والشعر.
 جيش التوشيح.
 الصيب والجهام، وهو ديوان شعره.
 التشر في غرض السلطانيات.
 عائد الصلة.
 النقاية بعد الكفاية.
 المختصر في الطريقة الفقهية.
 الألقية في أصول الفقه، وله أراجيز أخرى في العلوم.
 روضة التعريف في التصوف.
 البوسني في علم الطب.
 المسائل الطبية.
 عمل من طب لمن حب.

— ٤ —

ولم يكدر لسان الدين يكمل دور الطلب حتى سطع نجمه متألقاً
 في سماء الشعر والثر، وبلغ في المدح مبلغاً جعل أعناق الأمراء تتطاول
 إليه؛ لكنه لم يلتفت إلى أحد منهم، وعكف على مدح السلطان أبي
 الحجاج «سابع ملوك بني نصر المعروفين ببني الأحمر» حتى امتنأ
 حوضه — كما يقول ابن خلدون — بنظمه ونثره مع انتقاء الجيد منه.
 فذاعت في الدولة مدائحه، وانتشرت في الآفاق رسائله. فرقاه السلطان
 إلى خدمته، وأثنى في ديوان الكتابة بيده مرسوماً بأسناده أبي الحسن
 ابن الجياب شيخ العدولين في النظم والثر وسائر العلوم الأدبية، وكاتب
 السلطان بغرناطة... واستقل ابن الجياب ببرئاسة الكتابة من يومئذ إلى
 أن هلك بالطاعون الجارف عام ٧٤٩.

وخلال الحر لسان الدين بن الخطيب بموت أبي الحسن، فولاه السلطان رئاسة الكتابة ببايه، وشاها بالوزارة ولقبه بها؛ فاستقل بذلك، وصدرت عنه غرائب من الترسل في مكانته جيرائهم من ملوك العدو، وقربه السلطان وبلغ به من المخالطة إلى حيث لم يبلغ بأحد من قبله، حتى سفر عنه إلى السلطان أخير عنان ملكبني مرين بالعدوة... فجلى من أغراض سفارته، وبقي أثيراً عن السلطان حتى توفي سنة ٧٥٥ قتولى من بعده ابنه محمد، فكان له ابن الخطيب كما كان لأبيه من حيث الوزارة؛ ولكنه اتخذ لكتابية غيره، وجعله رسيناً له، فأدار دفة الأمور معاً، فجرت الدولة على أحسن حال وأقوم طريقة. ثم أرسل ابن الخطيب سفيراً إلى السلطان أبي عنان ليمدّهم على عدوهم الطاغية ملك إسبانيا، فقام بهذه المهمة على أحسن ما يرام.

ودامت هذه الحال خمس سنين. ثم بدأ دور أ Fowler نجم لسان الدين يسقط سلطانه، وتضيق المتنقل عليه في مجده وهو يرسل الرقى إلى ولاة الأمور من قصالة منقة ورسائل بلدية؛ فلا تلين لهم قناعة ولا ترقى لهم قليلاً، حتى سعى له أحد أصدقائه عند ملك المغرب فشفع فيه. وفي أواخر اللمحات البدوية قصيدة له في مدح ملك المغرب والإشارة إلى هذا الدور من حياة لسان الدين.

ويقول لسان الدين يحدثنا عن نفسه بأسلوبه البديع المسجوع، واصفاً حياته عند ملك المغرب، حيث يقول في (الإحاطة) :

«وصل الشفاعة في مكتبه بخط ملك المغرب، وجعل خلاصي شرعاً في العقدة ومسألة الدولة، فانتقلت صحبة سلطاني المكفور الحق إلى المغرب. وبالغ ملكه في بري : منزل رحباً، وعيشاً حضاً، وأقطاعاً جمة، وجريبة ما وراءها مرمى. وجعلني بمجلسه صدرأً، ثم أسعف قصدي في تهيؤ الخلوة بمدينة سلا، منه الصكوك منها القرار، متفقداً باللها والخلع، مخول العقار، موفر الحاشية مخلبي بيني وبين إصلاح

معادي؛ إلى أن رد الله على السلطان أمير المؤمنين أبي عبدالله بن الحجاج ملكه.^٤

عاد لسان الدين إلى الأندلس وحظي عند ملكه، فولاه الوزارة وأعاده إلى منزلته، فهنا عيشه هناك إلا ما كان من بعض وجهاء البلاد من ساءهم نفود لسان الدين، فراحوا يكيدون له عند الملك الذي سخط عليهم ونكبهم، فخلال الجو لأن الخطيب ورفعه الملك إلى أسمى منزلة وخلط بيته بدمائه وأهل خلوته، وأفرده بتدبير الملكة فأصبح بيده الحل والعقد، وانصرفت إليه الوجوه وعلقت عليه الآمال، وغضبت به بطانة السلطان وحاشيته فتوافقوا على السعاية به. وقد أصم السلطان أذنه عن قولها، ولكن الخبر نما إلى ابن الخطيب فزرم على الرحيل.

- ٥ -

برم ابن الخطيب بدسائس القوم فاستأذن سلطانه في تفقد الشغور الغربي، فسار إليها في لمة من فرسانه وانحدر منها إلى المغرب حيث وجد فيه كل إكرام، ثم قدم على ملكه عبد العزيز عام ٧٧٣ في تلمسان فاهتزت له الدولة، واستقبل استقبالاً باهراً، وأحل من الدولة في أسمى محل. وأخرج السلطان لوقته كاتبه أبا يحيى بن أبي مدین إلى الأندلس في طلب أهله وولده، وقدم بهم على أحسن حال... ثم وشوا به إلى السلطان، وأحصوا خطيباته، واتهموه بالزنقة، وكان من أكبر العاملين على ذلك ملك الأندلس، لكن عبد العزيز أبى عليه عريته ووفاؤه أن يخفر جواره، فزاد في إكرامه وإكرام ولده حتى أنه منيته.

فقد لسان الدين بموت عبد العزيز أكبر رجل قادر على حمايته،

فأصبح غرضاً للمصائب والبلايا التي يسعى ليوقه بها أعداؤه الكثيرون.

ووقدت الحرب بين ملك الأندلس وأحد المغاربة على المغرب، فظفر فيها الأول وشرط على خصمه تسلم ابن الخطيب، فقبض عليه عدوه الألد سليمان بن داود وجبيه، ثم حاكموه على كلمات من الرندة وجدت في كبه، ورغمًا عن دفاعه عن نفسه وظهور براءته أرسل إليه سليمان في مجسه بعض حاشيته من السفلة فقتلوه خنقاً، ثم أحرجوه لل يوم الثاني وأضرموا حوله النار حتى احترق شعره وأسودت بشرته، ثم وضع في حفرة.

- ٦ -

ويقول عنه ابن خلدون في تاريخه : نشأ لسان الدين بغرناطة، وقرأ وتأدب على مشيختها؛ واحتضن بصحبة الحكم المشهور بمحى بن هذيل، وأخذ عنه العلوم الفلسفية، وبرز في الطب واتحل الأدب، وأخذ عن أشياخه، وكثر نظمه ونثره؛ ونبغ في الشعر والترسل بحيث لا يجارى فيما ، وامتدح السلطان أبا الحجاج من ملوك بي الأحمر لعصره، وملأ الدنيا ب مدائحه، وانتشرت في الآفاق، فرقاه السلطان إلى خدمته، وأتيه في ديوان الكتاب ببابه، مرعوباً يأتى الحسن بن الحباب شيخ العدوتين في النظم والشعر وسائر العلوم الأدبية، وكاتب السلطان بغرناطة، فاستبد ابن الخطيب ببرائحة الكتاب، مثناة بالوزارة ولقبه بها، فاستقل بذلك، وصدرت عنه غرائب من الترسل في مكابيات جيرانهم من ملوك المدورة... إلى آخر ما ذكره ابن خلدون من حياته ونشأته الأدبية.

وقد ساعد ابن الخطيب اطلاعه الواسع في اللغة العربية وفنونها على أن يكون كاتباً من كبار الكتاب، فألف في كثير من أنواع العلوم والأداب، وكتب كثيراً من الرسائل السياسية والإخوانية والسلطانية، وكتب في التاريخ والأدب والاستعطاف والوصف وغيرها، ورسائله طافحة بمعلوماته في الأدب والتاريخ والعلوم.

ويفترق أسلوبه العلمي عن أسلوبه الأدبي : فهو في أسلوبه العلمي لا يلتزم طريقة السجع، بل يسرد العبارات سرداً، وأحياناً يتغلب عليه السجع والمحسنات البديعية، وتغلب عليه الصبغة الأدبية في كتبه العلمية، فهو من أكبر الكتاب، وأوسعهم علمًا وأكثراهم تأليفاً.

وكانت عنايه في كتابته الأدبية وفي خصائص أسلوبه موجهة إلى الصناعة النقطية. إذ كان يعني باللغة عناية عظيمة ويقصد إلى التعميق وتعمل السجع، وله عناية خاصة بالفاظ المدح والثناء، وعبارات التمجيل والتعظيم. ولقد يطيل في ذلك إطالة تدعو إلى الممل، وتدل على التكلف؛ وأسلوبه على نحو أسلوب ابن العميد من حيث تعمل السجع وزاد عليه ميله إلى الإطناب؛ فكثيراً ما كانت معانيه قليلة وألفاظه وجمله كثيرة. فكانت الإجاده في الكتابة عنده في الإحاطة والإطناب.

ولسان الدين بن الخطيب له في الأدب منزلة عالية، ومكانة مرموقة، ومقام معروف، وله في الشعر والثر إجاده، وأكثر نثره في السياسة وما يتصل بها، وفي الرسائل السلطانية والإخوانية، وترجم الوزراء والعلماء والأدباء، من اتصل منه بحسب : كأسانذهه وتلاميذه ومعاصريه، وأكثر شعره في الملوك والسلطانين، ومقدمات السفارات، والاستجاد ورثاء العظماء من السلاطين وغيرهم، وله مدائح نبوية.

ومنزلة ابن الخطيب ترجع إلى أنه كاتب من أكبر الكتاب، وأوسعهم

علماء، وأكثراهم تأليفاً، فقد ترك من المؤلفات في أنواع العلوم والأداب ما يناهز الستين مؤلفاً. عقد لها المقربي الباب السادس من النفع؛ ناقلاً تعريف المؤلف بها عن (الإحاطة)، وله كثير من الرسائل السياسية والإخوانية والسلطانية وغيرها؛ وكلها تدل على اطلاع واسع، وفكرة خصيبة.

ويمتاز أسلوبه في الكتابة بالسجع والإطالة، والعنابة بالصناعة اللغظية والقصد إلى التعميق واستخدام المحسنات البديعية، وقد يترك السجع في كتاباته العلمية أحياناً، وقد تتغلب عليه الترعة الأدية، فيسجع فيها كما يسجع في غيرها.

وللنقد آراء كثيرة في شر ابن الخطيب. يقول عنه الأمير الأديب أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر : « هو شاعر الدنيا، وعلم المفرد والثناء، وكانت الأرض إلى يوم العرض. آخر من تقدم في الماضي، وسف مقوله ليس بالكمام إذ هو الماضي. وإلا فانتظر كلام الكتاب الأول في العصبة. كيف كان فيهم بالإفادة صاحب القصبة للبراعة باليراعة، وبه أشكت صائليهم. وما حدمت بكرهم وأصائلهم. للجزالة المشربة بالحلواة، الممكنة من مفاصل الطلاوة، وهو نفيس العدوتين، ورئيس الدولتين، بالاطلاع على العلوم ». هو شاعر مفلق، وخطيب مصفع. وكاتب متسلل بلينغ. لولا ما في إنشائه من الإكثار الذي لا يكاد يخلو من عتار، والاطناب الذي يقضى إلى الاجتناب والإسهاب الذي يقد الإهاب ويورث الاتهاب.. !

وبواعث المناقشات السياسية عرض ابن خلدون بذمه، فقال في مقدمته: «والمحمود في المخاطبات السلطانية وهو إطلاق الكلام وإرساله من غير تسبیح إلا في الأقل وحيث ترسّله الملكة أرسالاً من غير تكفل له.. وأما إجراء المخاطبات السلطانية على هذا التحو الذي هو على أساليب الشعر قدمون. وما حمل عليه أهل العصر إلا

استيلاء العجمة على ألسنتهم وقصورهم لذلك عن إعطاء الكلام حقه في مطابقته لمقتضى الحال. فلجأوا عن الكلام المرسل بعد أ منه في البلاغة، وانفسح خطوه، وولموا بهذا السجع يلفظون به ما نقصتهم من تطبيق الكلام على المقصود، ومقتضى الحال فيه، ويحررونه بذلك القدر من التزيين بالأسجع والألقاب البدوية؛ ويفغلون عما سوى ذلك وأكثرون من أحد بهذه الفن وبالغ فيه في سائر أنحاء كلامهم، كتاب المشرق وشراوئه لهذا العهد. حتى إنهم ليخلون بالاعراب في الكلمات والتصريف إذا دخلت لهم في تجensis أو في مطابقة. لا يجتمعان معها. فيرجحون ذلك الصنف من التجensis ويدعون الإعراب ويفسدون بني الكلمة، عساها تصادف التجensis.

وقال المقربي فيه : « أما شره فهو البحر الزخار بل الدر الذي به الأفخار .. »

وحدث هو عن نهر قال: «واما النهر في البحر زاخر، ومدى طوله
مستآخر، وإنك لم يفخر عليك كفافه». [١]

- 8 -

صور من نشرة :

قال لسان الدين في الحض على الجهاد :

أيها الناس رحمة الله تعالى. إخوانكم المسلمين بالأندلس، قد
دهم العدو - قسمه الله تعالى - ساحتهم، ورماهم الكفر - خذله الله
تعالى - استباحتهم. وزحفت أحزاب الطواغيت إليهم، ومد الصليب
ذراعيه عليهم وأديبكم بعزة الله تعالى أقوى، وأتم المؤمنون أهل البر
والنقوى، وهو دينكم فانصروه، وجواركم الغريب فلا تخربوه، وسبيل
الرشد قد وضع فلتتصوروه، الجهاد الجهاد، فقد تعين، الجار الجار،

فقد فرر الشرع حقه وبين، الله الله في الاسلام. الله الله في أمة محمد عليه الصلاة والسلام، الله الله في المساجد المعمورة بذكر الله. الله في وطن الجهاد في سبيل الله. قد استغاثت بكم الدين فأغشيوه. قد تأكد عهد الله وحاشاكم أن تنكروه. أعينوا إخوانكم بما أمكن من الاعانة أعادنكم الله تعالى عند الشدائـد، جددوا عوائد الخير يصلـ الله تعالى لكم جميل العوائد، صلوا رحم الكلمة، وأنسوا بأنفسكم وأموالكم تلك الطوائف المسلمة. كتاب الله بين أيديكم، والستة الآيات تناذـكم، وستة رسول الله ﷺ قالـة فيكم، والله سبحانه يقول فيه : يا أئـها الذي آمنـوا هـل أذـلكم على تجـارة تجـيـكم، وما صـحـ عنه قوله : من أـغـيرـتـ قـدـمـاهـ فيـ سـبـيلـ اللهـ حـرـمـهـ اللهـ عـلـىـ النـارـ، لا يـجـمـعـ غـيـارـ فيـ سـبـيلـ اللهـ وـدـعـانـ جـهـنـمـ، منـ جـهـزـ غـازـيـاـ فيـ سـبـيلـ اللهـ فـقـدـ غـرـاءـ، أـدـرـكـواـ رـمـقـ الدـينـ قـبـلـ أـنـ يـفـوتـ، يـادـرـواـ عـلـيـ اـسـلـامـ قـبـلـ أـنـ يـمـوتـ. اـحـفـظـواـ وـجـوهـكـمـ مـعـ اللهـ تـعـالـىـ يـوـمـ يـسـأـلـكـمـ عـنـ عـبـادـهـ. جـاهـدـواـ فيـ اللهـ بـالـأـلـسـنـ وـالـأـقـوـالـ حـنـ جـهـادـهـ :

ماـذـاـ يـكـونـ جـوـابـكـمـ لـتـبـيـكـمـ وـطـرـيقـ هـذـاـ العـذـرـ غـيرـ مـهـدـ؟
إـنـ قـالـ : لـمـ فـرـطـمـوـ فـيـ أـمـيـ وـتـرـكـمـوـهـمـ لـلـعـدـوـ الـمـعـتـدـيـ؟
تـالـلـهـ لـوـ أـنـ الـقـوـيـةـ لـمـ تـخـفـ لـكـفـيـ الـحـيـاـ مـنـ وـجـهـ ذـاكـ السـيـدـ

اللـهـمـ اـعـطـفـ عـلـيـاـ قـلـوبـ الـعـبـادـ، اللـهـمـ بـثـ لـنـاـ الـحـمـيـةـ فـيـ الـبـلـادـ،
الـلـهـمـ دـافـعـ عـنـ الـحـرـمـيـنـ وـالـضـعـيـفـ وـالـأـوـلـادـ. اللـهـمـ أـنـصـرـنـاـ عـلـىـ أـعـدـائـكـ،
بـأـحـبـابـكـ وـأـوـلـيـاتـكـ بـاـخـيـرـ النـاصـرـيـنـ، اللـهـمـ اـفـرـغـ عـلـيـاـ صـبـراـ وـتـبـتـ أـقـدـامـناـ
وـانـصـرـنـاـ عـلـىـ الـقـوـمـ الـكـافـرـيـنـ، وـصـلـيـ اللـهـ عـلـىـ سـيـدـنـاـ مـحـمـدـ وـعـلـىـ اللـهـ
وـصـحـبـهـ وـسـلـمـ تـسـلـيـماـ كـثـيرـاـ.

وـمـاـ كـبـهـ لـسـانـ الدـيـنـ إـلـىـ عـلـيـ بـنـ بـدرـ الدـيـنـ الطـوـسـيـ :
سـيـدـيـ الـذـيـ هـوـ فـصـلـ جـنـسـ، وـمـزـيـةـ يـوـمـهـ عـلـىـ أـمـسـهـ. فـإـنـ اـفـخـرـ
الـدـيـنـ مـنـ أـيـكـ بـيـدـهـ، اـفـخـرـ مـنـكـ بـشـمـسـهـ. رـحـلـتـ عـنـ الـمـنـشـأـ

والقرار^(١)، ومحل الصبوة^(٢) والغرارة^(٣) فلم تتعلق نفسي، بذخيرة، ولا عهد جرة خيرة، كتعلقها بذلك الذات التي لطفت لطافة الراح. واشتملت بالمجده الصراح. شفقة أن يصيبيها معرة. والله تعالى يقيها، ويحفظها ويعيها. إذ الفضائل في الأزمان الرذلة غوايل. والضد عن ضده متعرف بالطبع مائل فلما تعرفت خلاص سيدني في ذلك الوطن، وإلقاه وراء الفروضة بالعقلن^(٤)، لم تبق لي تعلة^(٥) ولا آخر ضئتي^(٦) له علة؛ ولا أني جمع من قلة. فكبت أهنيء نفسي الثانية بعد هذه نفسي الأولى، وأعترف للرمان باليد الطولي^(٧)، الحمد لله الذي جمع الشمل بعد شتاته، وأحيا الأنس بعد مماته. سبحانه لا مبدل لكلماته. وإلياه أسأله أن يجعل العصمة حظ سيدني ونصيه، فلا يستطيع حادث أن يصيبه.. وأما حالى فكما علمت : ملازم كن^(٨) ومهبط تجربة وسن، أرجى^(٩) الأيام، وأروم بعد التفرقة الانقسام. خالى اليد، مليء القلب والخلد^(١٠) بفضل الواحد الصمد، عامل على الرحلة الحجازية التي اختارها لكم ولنفسى، وأصل في النسas الإعانة عليها يومي بأمسى.

وقال لسان الدين بن الخطيب في ترجمة بعض مشايخه :

-
- (١) بريد المكان الذي نشأ واستقر به.
 - (٢) نوبة الشباب.
 - (٣) بريد بالغرارة للهوى واللصب.
 - (٤) بريد موطن.
 - (٥) الشلة : ما يتعلل به.
 - (٦) آخر ضه العزن أو المرض : أفسد بدنه.
 - (٧) بريد بعنجهة الخطيبة.
 - (٨) السكن : البيت.
 - (٩) أرجاء وزجاج : ساقه ودفعه برق.
 - (١٠) الخلد : البال والقلب.

صدر^(١) الصدور الجلة^(٢)، وعلم أعلام هذه الملة، وشيخ الكتابة
وبانيها وهاصر أفنان^(٣) البدائع وجانبيها. اعتمدتني الرياسة فناء بها^(٤)
على حيل ذراعه واستعانت به السياسة فدارت أفلاتها على قطب من
شباء يرعاها^(٥)، ففيا^(٦) للعنابة ظلاً ظليلًا، وتعاقبت الدول فلم تر به
بديلاً.. لا تمر مذاكرة في فن، إلا وله فيه التبرير، ولا تعرض جواهر
الكلام على محك الأفهام إلا وكلام الإبرير^(٧). حتى أصبح الدهر
رواياً لإحسانه، وناظماً بسانه. وغرب ذكره وشرق، وأشام وأخرق،
وتجاور البحر الأخضر والخليج الأزرق^(٨).

إلى نفس هذبت الآداب شمائلها، وجادت الرياضة خمائتها^(٩)،
ومراقبة لربه، واستنشاق لروح الله من مهبه، ودين لا يعمم عوده^(١٠)
ولا تخلف وعده. وكل ما ظهر علينا معاشر بنية من شارة تجلى
بها العين، أو إشارة كما سبک التجين^(١١)، فهي اليه منسوبة، وفي
حستاته محسوبة، فإنما هي أنفس راضها^(١٢) بأدابه وأعلها بأهدابه،
وهذب طباعها، كالشمس تلقى على النجوم شعاعها، والصور الجميلة
ترى في الأجسام الصقيقة انطلاعها. وما عسى أن أقول في إمام الأئمة،

(١) الصدر : مقدم كل شيء، يريد أنه أول المقدمين.

(٢) يقال قوم جلة أي سادة.

(٣) مصر الفصن : عظمه وجاذب، والأفنان مفرد فنون : وهو الفصن المستقيم.

(٤) نهض بها.

(٥) الشباء : حد كل شيء، والمراد بالرای القلم.

(٦) استظل وتنبع ظلال الشجر.

(٧) الذهب الخالص.

(٨) يريد أن ذكره طريق الآفاق.

(٩) جمع عصبة : وهي الشجر الكثيف المثلث.

(١٠) عجم العود : عضه ليعلم صلاحه من رجاوته. يريد أنه شديد الإيمان.

(١١) الفضة.

(١٢) ذلتها.

ونور الدياجي^(١) المدلهمة، والمثل السائر في بعد الصيت وعلو الهمة.

وقال من مقامة له تسمى مقامة البلدان يصف مدينة مكناة.

« مكناة مدينة أصيلة، وشعب للمحسن وفضيلة، فضلها الله تعالى ورعاها، وأخرج منها ماءها ومرعاها. فجناها مربع وغيرها سرير، اعتدل فيها الزمان وفاقت الفواكه فواكهها ولا سيما الرمان، وحفظ آقوانها الاختزان ولطفت فيها الأوانى والكثيران. ودنا من الحضرة جوارها نكثر قصادها من الوزراء وزوارها. وبها المدارس والفقهاء، ولقصبتها الأبهة والمقاصير والأبهاء... »

وهذه رسالة للسان الدين بن الخطيب وجهها إلى السيد الشريف

عبدالله ابن نفيس، قال :

جزى الإله شريف البيت يوم جرى
إن أعجز الشكر متى منه ضعفت عن بعض حنك شكر الله ما عجزا

سيدي، أبقي الله شرفك تشهد به الطياع، إذا بعدت المعاهد المقدمة والرابع، وتعترف به الأ بصار والأ سماع، وإن جحدت عارضها الإجماع... بأي لسان أنتي؟ أم أي الأقنان أهصر وأجني، أم أي المقاصد الكريمة أعني؟ أ茅طنت جوادك المبارك، وأسكتت دارك، وأوسعت مطلبني اصطبارك، وهضمت حنك، وبأوت جوارك، ووصلت للغرباء إشارتك، أشهد بأنك الكريم ابن الكريم، لا أقف في تعدادها عند حد، إلى غير جد، فإن أغان الدهر على مجازاة، وإن ترفع كرمك عن موازاة فحاجة نفسي قضيت، وأحكام آمالي أمضيت، وعلى كل حال؛ فالناء ذاتع، والحمد شائع، واللسان والحمد لله طالع، والله مشتر ما أنت باائع، وقد وجهت من يحاول لسيده ثمن ما اكتسبه مجده وسفر عنه

(١) الدياجي : الظلمات.

حمده، والعقيدة بعد التراضي وكمال التقاضي، وحميد الصبر وسعة التقاضي، وكوته الخصم والقاضي، إنه هبة سوغها إنعامه، وأكلة هنأها بطعامه، نسأل الله تعالى أن يعلى ذكره، ويتولى شكره وينهي ماله، ويرفع قدره، والولد حاره الغريب الذي يربز إلى مقارعة الأيام عن خبرة فاقصة وتجربة غير منجدة على الدهر وناصرة، قد جعلته وديعة في كرم جواره، ووضعته في حجر إثارة، فإن زاغ فيه العليا في تصويره، ومؤاخذته بتصويره، ومن به مثله نام، ومن استنام إليه بمهمة أكرم بمن إليه استنام، وإن تشوف سيدي لحال محبيه، فمطلق اللدنيا من عقال، ورافض أثقال، ومؤمل اعتياض، بخدمة الله تعالى وانتقال.

— ٩ —

وللسان الدين شعر لا يبلغ منزلة شره وكتاباته، فقد كان كاتباً أبلغ منه شاعراً، وشعره كثير، وله مoshahat أعلى في البلاغة طبقة من سائر أشعاره.

ومن صور شعره هذه القصيدة التي يرثى بها أحد ملوك بنى الأحرmer :

يا قبر جاد ثراك صوب غمام يهمي عليك برحمة وسلام
بوركت لحداً فيه أي وديعة ملك كريم من نجار كرام
ما شئت من حلم ومن خلق رضي وزكاء أعراق ومجد سام
فاسعد بنصر رابع الأملالك من أبناء نصر ناصري الإسلام
من خزرج الفخر الذين مقامهم في نصر خير الخلق خير مقام
يا أنها المولى المؤسس بيته في معدن الأحساب والأحلام
ما للمنية والشباب مساعد قد أقصدتك بصائبات سهام
عجلت على ذاك الجمال فقادرت رب المحاسن طامس الأعلام
فمحاردى من حسن وجهك آية محى النهار لسدفة الإظلام

ما كنت إلا بدر تم باهراً
فعلى ضريح أبي الجيوش تحية
كالمسلك عرفاً عند فض خاتم
وتغمدته رحمة الله التي

ومن شعره هذه القصيدة التي أنشدها سلطان المغرب عام ١٧٦٣ مـ :
 تأق نجدي — فاذكرني نجدا
 وهاج بي الشوق المبرح والوجذا
 فندر بـدا بالـبر أعلمـتـ البرـدا
 فـماـ بـذـلتـ وـصـلاـ، وـلـاضـربـتـ وـعـداـ
 فـأـهـوـيـ لـهـاـ نـصـلاـ، وـهـدـدـهاـ رـعـداـ
 ذـلـولاـ وـلـمـ تـسـطـعـ لـإـرـمـتـهـ رـداـ
 وجـتـ بـهـاـ الـقـبـرـ الـمـقـدـسـ وـالـلـهـداـ
 يـجـلـيـ الـقـلـوبـ الـغـلـفـ وـالـأـعـيـنـ الرـمـداـ
 وأـذـرـ بـهـ دـمـاءـ، وـعـفـرـ بـهـ خـداـ
 خـطاـهـ، وـأـسـحـيـ منـ أـحـيـهـ فـرـداـ
 سـوـىـ لـوـعـةـ تـعـادـ أوـ مـدـحـةـ تـهـدىـ
 فـجـودـكـ ماـ أـجـدـيـ، وـكـفـكـ ماـ أـنـدـيـ
 وـبـأـهـمـ ظـلـلاـ منـ الـأـمـنـ مـمـتـداـ
 وـتـوـجـكـ الـعـلـيـ، وـأـلـيـكـ الـحـمـداـ
 فـجـلـلـهـ نـورـاـ وـأـوـسـعـهـ رـشـداـ
 سـقاـهـ فـمـاـ يـظـلـماـ، جـلـاهـ فـمـاـ يـصـدـىـ
 قـدـ شـمـلـتـ عـلـيـأـكـ الـقـلـيلـ وـالـبـداـ
 أـعـادـ، فـأـنـتـ الـقـصـدـ مـنـهـ وـمـاـ أـبـداـ
 لـيـمـتـازـ فـيـ الـخـلـقـ الـمـكـبـ منـ الـأـهـدـيـ
 مـلـامـحـ نـورـ لـاحـ لـلـطـورـ فـانـهـاـ
 لـتـشـفـيـ مـنـ اـسـتـشـفـيـ، وـتـهـدـيـ مـنـ اـسـتـهـدـيـ
 فـمـاـ كـنـتـ لـوـلـاـ أـنـ ثـبـتـ هـدـاـيـةـ
 حـمـيـ دـيـنـكـ الدـنـيـاـ وـأـقـطـعـكـ الرـضاـ
 وـطـهـرـ مـنـكـ الـقـلـبـ لـمـاـ اـسـتـخـصـهـ
 دـعـاهـ فـمـاـ وـلـيـ، هـدـاهـ فـمـاـ غـوـيـ
 تـقـدـمـتـ مـخـارـاـ تـأـخـرـتـ مـيـعـاـ
 وـعـلـةـ هـذـاـ الـكـونـ أـنـتـ، وـكـلـ مـاـ
 وـهـلـ هوـ إـلـاـ مـظـهـرـ أـنـتـ سـرـهـ
 فـفـيـ عـالـمـ ذـائـكـ تـحـتـلـيـ
 وـفـيـ عـالـمـ الـحـسـ اـغـنـيـتـ مـبـوـاـ
 فـمـاـ كـنـتـ لـوـلـاـ أـنـ ثـبـتـ هـدـاـيـةـ

فماذا عسى يشي عليك مقصراً
يماذا عسى يجزيك هاو على شفا
عليك صلاة الله يا كاشف العمى

ولم يأْلَ فِيْكَ الذِّكْرَ مَدْحَأً وَلَا حَمْداً
مِنَ الْغَارِ قَدْ أُورْدَتَهُ بَعْدَهَا الْخَلْداً
وَمَذْهَبُ لَيلِ الرُّوعِ وَهُوَ قَدْ أَرْبَدَا

وقال يخاطب السلطان أبا عنان، وقد مزج الغزل فيها بالحكم :
 أبدى لداعي الفوز وجه منيب
 وأفاق من عدل ومن تأنيب
 والبان حن له خين التسب
 والشيب يلحظها بعين رقيب
 ما كان من غزل ومن تشبيب
 شائي الغذا أو التسب نسي
 للوطخ في القودين أي ديب؟
 مني، ووالى الوعظ فعل خطوب
 والآن يفضحني صباح مشيبي
 من لبنة الأعمار كل قشيب
 تسل المهلب عن حروب شيب
 مهما أعددت يبدأ إلى تقليل
 ما ضاق لف الرب عن مررور
 من يخيا المكروه في المحبوب
 لحوامل سيلدن كل عجيب
 ما كل رام سمه بمصيبة
 رام انتقال يملسم وعسيب
 رام انتقال يملسم وعسيب
 عاجلت عاته بطب محبوب
 غيث بروض ساح كل جديب
 ما كان يوماً صرفه بمشوب
 ذللأ على حسب الهوى المرغوب

كلف الجنان إذا جرى ذكر الحما
 والنفس لا تنفك تكلف بالهوى
 رحل الصبا فطرحت في أعقابه
 أترى التغزل بعد أن ظعن الصبا
 أتى لمعالي بالهوى من بعد ما
 ليس البياض، وحل ذروة متبر
 قد كان يسترن ظلام شيشي
 وإذا الجديدان استجدا ألباساً
 سلني عن الدهر الختون وأهله
 متقلب الحالات، فأخبر تقله
 فكل الأمور إذا اعتبرتك لريها
 قد يخجا المحبوب في مكروهها
 وأصير على مضض الليالي إنها
 واقع بحظ لم تله بحيلة
 يقع الحريص على الردى ولكم غداً
 من رام نيل الشيء قبل أوانه
 فإذا جعلت الصبر مفرع معضل
 بخلقة الله الذي في كفه
 المتنقي من طينة المجد الذي
 يرمي الصعب بصعبه فيقودها

ويرى الحقائق من وراء حجابها لا فرق بين شهادة وغيب
من آل عبد الحق حيث توشت شعب العلا وربت بأبي كثيب
ومن أبلغ ما صدر عن لسان الدين رحمة الله تعالى وأبدعه كما
يقول المقرئ في «نفع الطيب»^(١)، لامته المشهورة، التي خاطب بها
سلطانه حين عاد من المغرب إلى الأندلس، وأعاد الله تعالى عليه ملكه،
الذي كان خلع منه، ويقال إن السلطان أمر بكتابة هذه القصيدة على
قصوره بالحراء، إعجاضاً بها وإنها إلى الآن لم تزل مكتوبة بتلك القصور
التي استولى عليها الأسنان، وأول هذه القصيدة :

الحق يعلو، والأباطل تسفل والله عن أحکامه لا يسأل

قال لسان الدين رحمة الله تعالى : نظمها للسلطان أسد الله تعالى،
وأنا بمدينة سلا، لما انفصل طالباً حقه بالأندلس، وكان صنع الله تعالى
براعة استهلالها، ووجهت بها إليه إلى رندة قبل الفتح، ثم لما قدمت
أنشدتها بعد الفتح. وفاء بذرني؛ وسميتها : «المتح الغريب» في الفتح
القريب »، قال منها :

فإله عز وجل لا يتبدل فإذا استحال حالة وتبدل
واليس بعد العسر موعد به واليس بعد الفرج القريب موكل
وكفالة شاهد : قيدوا وتوكلوا والمستعد لما يؤمل ظافر
يجليلها دون الورى تتجمل محمد والحمد منك سجية
عقد بأحكام القضاء مسجل أما سعادتك فهو دون منازع
والله يأمر بالمحاب وبقبيل تاب الزمان إليك مما قد جنى
إن كان ماض من زمانك قد مضى إن كان ماض من زمانك قد مضى
هذا بذلك فشفع الجاني الذي أرضاك فيما قد جناه الأول
لما ارتضاك ولایة لا تمز والله قد ولاك أمر عباده
وإذا تعمدك الإله بنصره وإذا تعمدك الإله بنصره
وقضى لك الحسنى فمن ذا يدخل؟

(١) ٤٧٤ : ٤ نفع الطيب.

سد الشية عارض متهلل
يرمي الجlad به أغفر محجل
وإذا تخنى للصهيل فليل
أذن مشقة وطرف أكحل
من لفمه، وكأنما هو هيكل

صحبتم غرر العجاد كأنما
من كل منجرد أغفر محجل
زجل الجاح إذا أجد لغاية
جيد كما الفت الظليم وفوقه
فكأنما هو صورة في هيكل

وللسان الدين هذه الموشحة التي عارض بها موشحة ابن سهل :

يا زمان الوصل بالأندلس
في الكرى، أو خلسة المختلس
ينقل الخطوط على ما ترسم
مثلاً يدعوا الوفود الموسم
فتغور الزهر منه تسم
كيف يروي مالك عن أنس
يزدهي منه يأبهى ملبس
بالدجى لولا شموس الغرر
مستقيم السير، سعد الآخر
أنه مر كلمع البصر....
هجم الصبح هجوم الحرمس
أثرت فيما عيون السرجس
فيكون الروض قد مكن فيه
أمنت من مكره ما تفه
وخلأ كل خليل يأخيه
يكتسى من غيظه ما يكتسى
يسرق السمع بأذني فرسى
وبقلبي سكن أنتم به
لا أبالي شرقه من غربه

جادك الغيث، إذا الغيث همي
لم يكن وصلك إلا حلماً
إذ يقود الدهر أشتات المنى
زمراً بين فرادى وثنا
والحجا قد جلل الروض سنا
وروى النعمان عن ماء السما
فكساه الحسن ثوباً معلماً
في ليالٍ كتمت سر الهوى
مال نجم الكأس فيها وهو
وطر ما فيه من عيب سوى
حين لذ الأنس شيئاً، أو كما
غارت الشهب بنا، أو ربما
أي شيء لامرئ قد خلصا
تنهب الأزهار منه الفرضا
فإذا الماء تناجى والحسبي
تبصر الورد غيوراً برمـا
وترى الآس ليـاً فهماـ
يا أهيل الحي من وادي الغضـي
ضاق عن وجدي يكمـ رحب الفضاـ

فأعiedوا عهد أنس قد مضى
وأتقوا الله، وأحيوا مغرا
جس القلب عليكم كرما
وبقلبي منكم مقرب
قمر أطلع منه المغرب
قد تساوى محسن أو مذنب
ساحر العقلة ممسول المدى
سد السهم وسمى ورمى
إن يكن جار، وحاب الأمل
 فهو للنفس حبيب أول
أمره محتمل مستحل
حكم اللحظ بها فاختكما
منصف المظلوم من ظلما
ما لقلبي كلما هبت صبا
كان في اللوح له مكتبا
جلب الهم له والوصايا
لا يدع في أصلعى قد أضرما
لم يدع في مهجتي إلا ذاما
سلمي يا نفس في حكم القضا
دعك من ذكرى زمان قد مضى
وأصرفي القول إلى المولى الرضا
ال الكريم المنتهي والمتمم
ينزل النصر عليه مثلا
مصطفى الله، سمي المصطفى
من إذا ما عقد العهد وفي
حيث بيت النصر مرفوع العمد
وجنى الفضل زكي المغرس

تعتقوا عانيكم من كربه
يتلاشى نفسا في نفس
أفترضون عباء الحبس؟
بأحاديث المتن، وهو بعيد
شقة المغربي به وهو سعيد
في هواه بين وعد ووعيد
جال في النفس مجال النفس
ففسؤادي نهاية المفترس
وفؤاد الصب بالشوق يذوب
ليس في الحب لمحبوب ذنوب
في ضلوع قد برها وقلوب
لم يراقب في ضعاف الأنفس
ومجازي البر منها والمسى
عاده عيد من الشوق جديد
قوله : إن عذابي لشديد
 فهو للأشجان في جهد جهيد
 فهو نار في هشيم اليأس
كبقاء الصبح بعد الغلس
واعمري الوقت برجمي ومتاب
بين عتبى قد تقضت وعتاب
ملهم التوفيق في أم الكتاب
أسد السرج، وبدر المجلس
ينزل الوحي بروح القدس
الغنى بناة عن كل أحد
حيث بيت النصر مرفوع العمد
وجنى الفضل زكي المغرس

والهوى ظل ظليل خيما
والندى هب إلى المفترس
هاكها يا سبط أنصار العلا
والذى إن عثر الدهر أقال

غادة أليسها الحسن ملا
تهر العين جلاء وصقال

وبعث ملك غرناطة الوزير ابن الخطيب سفيراً إلى السلطان أبي
عنان، لينالوا العون منه على عدوهم الطاغية، على عاداتهم مع سلفه،
فلما قدم على السلطان ومثل بين يديه، تقدم الوفد الذي معه من وزراء
الأندلس وفقهائهم، واستأنفه في إنشاد شعر قدمه بين يدي نجواه، فأذن
له، وأنشد وهو قائم :

خلفة الله، ساعد القدر علاك، ما لاح في الدجى قمر
ودافعت عنك كف قدرته ما ليس يستطيع دفعه البشر
وجهك في الناثبات يدر دجي لنا، وفي المحل كفك المطر
والناس طراً بأرض اندلس لولاك ما أوطنوا ولا عمروا
وجملة الأمر أنه وطن في غير عليك ما له وظر
ومن به — مذوصلت حلهم — ما جحدوا نعمة ولا كفروا
وقد أهتمهم بأنفسهم فارسلوني إليك وانتظروا

فاهتر السلطان لهذه الأيات، وأذن له في الجلوس، وقال له قبل
أن يجلس : ما ترجع إليهم إلا بجميع طلباتهم، ثم أثقل كاهلهم بالاحسان،
وردهم بجميع ما طلبوا.

وعلى الجملة فبعد ابن الخطيب من كبار شعراء الأندلس، كما يحسب
من الكتاب والأدباء. وقد طرق في شعره جميع الأغراض المعروفة.
وله كثير من القصائد في التوسل والشكوى إلى الله ورسوله. وقد
جرى في شعره مجرى القدماء في ذكر المعانى البدوية وبเดء قصائده
بها. والصيغة الغالية على شعره هي صيغة العلماء والفقهاء الذي يميلون
إلى ذكر الحقائق صريحة جافة؛ فليس ابن الخطيب من يعتمدون في
شعرهم على الخيال أو الافتتان في القول. ومع هذا فله أحياناً شعر

رقيق في الغزل والوصف، الغالب عليه مسحة الصناعة. كما في مoshحته.
وأسلوبه في شعره جزل متين، ولكن به كثيراً من الألفاظ والعبارات
الجافة، مما كانت تقتضيه المعانى والموضوعات التي يعالجها في شعره.

الفصل الثالث

الخطابة في الأندلس

نبغ في الأندلس خطباء كثيرون منهم : عبد الرحمن الداخل، وأبو عثمان عبدالله، ومتذر بن سعيد البلوطي، وابن أبي الخصال المتوفى عام ٥٣٩هـ، وسهل بن مالك من أهل القرن السادس، وأحمد بن الحسن الزيات المتوفي عام ٧٢٨هـ، وابن أبي زندقة الطرطوشى المتوفى بالاسكندرية عام ٥٢٠هـ. وقد جمع في القرن السابع كثيراً من الخطب الأندلسية في مجموعة واحدة أبو الريبع الحافظ الكلاعي.

صور من الخطابة الأندلسية

خطبة طارق بن زياد^(١) :

بعد أن حمد الله وأثنى عليه، وذكر فضل الجهاد، ورغب في الشهادة
قال :

(١) عن رواية نفح الطيب ومن رواية ابن حلكان في ترجمة موسى بن نصر.

أيها الناس ! أين المفر^(١) ؟ البحر من ورائكم، والعدو أمامكم^(٢)،
وليس لكم والله إلا الصدق^(٣) والصبر، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة،
أضيع من الأيام في مأدبة^(٤) اللئام^(٥).

وقد استقبلكم عدوكم بجشه، وأسلحه وأقواته موفورة^(٦)، وأنتم لا
وزر^(٧) لكم إلا سيفكم، ولا أقوات إلا ما تستخلصونه من أبيدي
عدوكم، وإن امتدت بكم الأيام على افتقاركم، ولم تنجروا لكم أمراً،
ذهب ريحكم^(٨)، وتعمشت القلوب من رعها منكم الجراءة^(٩) عليكم،
فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة^(١٠) هذا

(١) يجوز أن تكون بكسر الفاء اسم مكان، كثنا فري قوله تعالى « أين المفر »، وقيل إن اسم الموضع بالفتح وعلى الجمهور.

(٢) ذكروا أن السنن التي نقلت العرب من سنته إلى الجزيرة كانت أربعاً، وأنها ظلت ذاتية آية تنقل الجنود حتى تم حصولهم جميعاً بغير الأندلس، وأنها كانت لبيان، ولبس للعرب؛ فاتخذ طارق من اتصافها واتحصارهم في الجزيرة بين العدوين : البحر والقرط، سبباً لحملهم على الاستسلام.

(٣) الصدق هنا الصبر في الشدة.

(٤) رواية ابن حلكان مأدب، وهي جمع مأدبة، والمأدبة بفتح الدال وضمها، وكذلك الآية كحجرة : طعام صنع للدعاة، أو عرس، والفعل أدب كضرب كأدب.

(٥) اللئام : جمع لئيم، وهو ضد الكريم.

(٦) شيء وافر ومحفور ومستور (اسم مفعول) يعني كثيراً ووفر كثيد ووعد صار كثيراً ووفره كثيف.

(٧) الوزر : بالتحريك الجيل المنبع، وكل معلم، والملحاج، وبطريق على السلاح لأنه يضم أصحابه، والوزير من الوزر بالكسر، وهو الحبل القليل لأنه يحمل ثقل الأمر ويحسن السلوك برأسه، أو من الوزر (التحريك) لأن الملحاً إليه في التدبير.

(٨) من معاني الريح : الفطنة والقوية والمؤولة، وكل هذه المعاني صالحة هنا، والربيع تذكر وتؤثر، لذلك وردت رواية ابن حلكان : « ذهب ريحكم ».٤

(٩) قال جرو ككرم يعني شجاع فهو جري، والمصدر جرأة كجرعة، وجراة كثيبة، وجراة ككرامة، وجراة ككرامة.

(١٠) المناجزة : المقابلة كالتجزء، ونجز كفرح ونصر : الفرضي وفي، ونجز (كتصر) الحاجة فقضها كأنجزها، وأنت على نجز من حاجتك : أي على شرف من قضائها،

الطاغية^(١)، فقد ألقت به إياكم مدتيه الحصينة^(٢)، وإن انتهاز الفرصة فيه لممكن إن سمحتم لأنفسكم بالموت، وإني لم أحذركم أبداً أنا عن بحيرة^(٣)، ولا حملتكم على خطة — أrixus متاع فيها النفوس — أرياً عنها ينفسي^(٤)؛ واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلاً، استمتحم بالأزرقة^(٥) الآلد طويلاً. فلا ترغبو بأنفسكم عن نفسي، فيما حظكم فيه أوفر من حظي^(٦)، وقد يلفككم ما أنشأت هذه الجزيرة من المور الحسان، من بنات الرومان، الراقلات في الدر والمرجان، والحلل المنسوجة بالعقبان^(٧)، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك، أمير المؤمنين، من الأبطال عربانًا^(٨)، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهاراً وأختانًا^(٩)، ثقة منه

وقولهم المحاجزة قبل المحاجزة : أي المسالمة قبل التمجيل بالقتال، يضرب في حزم من عجل الفرار، قبل قتال من لا قبل له به، ولمن يطلب الصلح بعد القتال. والمعنى :

قد فات أوان ذلك. كما يقال : الصيف ضيعت البن.

(١) الطاغية : ملك الصارى شأن العرب فرضوا الظلم لازمة هؤلاء الملوك، فألزموهم هذا الوصف، ثم غلبت عليه الأسمية، وفي رواية ابن حكيم : « هذه الطاغية » وهي خطأ.

(٢) رواية ابن حكيم : « المحسنة ». (٣) النحوة : المكان المرتفع.

(٤) في الأصل بدل أرياً عنها ينفس : أرياً ينفسي، والكلام عليه لا يصل ، ربنا : كمن ارتفع.

(٥) رقة عرش الرجل : ككرم، لأن، فالرجل رفيه ورفايه ورفاه ومرفة : مستريح متنعم، ورقة الرجل كمن يفتح رفها بالفتح والكسر ورقوها، لأن عيشه.

(٦) في رواية النفع : « فما حظكم فيه بأوفي من حظي » والمعنى لا يستقيم لأنه يريد أن يقول لهم إن حظكم من النفع أعلم من حظي، فانا وال قال للقلة، أما أنت فقد صارت لكم البلاد والأعراكم، لذلك تؤثر رواية ابن حكيم.

(٧) العيان : الشعب.

(٨) العرب : بالتحرير كالمعربة، والعرب من لا أهل له غير المترسخ، وعربانًا جمع عرب، كشجع وشجعان، وعرب كجند وجنادن، أو عازب كصاحب وصحاب،

أو آخر — على القول يوروده — فيكون كاعمى وعيان.

(٩) الصره : بالكسر القراءة، وزوج بنت الرجل أو أخيه، والختن : بالتحرير : الصره، أو ما كان من قبل المرأة كالأب والأخ.

بارتياحكم للطعن، وإسماحكم^(١) بمجالدة^(٢) الأبطال والفرسان، ليكون حظه منكم ثواب الله على إعلاء كلمته، وإظهار دينه بهذه الجزيرة، ولن يكون مغنمها حالصاً لكم^(٣) من دونه، ومن دون المؤمنين سواكم، والله تعالىولي إنجادكم على ما يكون لكم ذكراً في الدارين.

واعلموا أني أول مجتبى إلى ما دعوتكم إليه، وأني عند ملتقى الجمعين حامل بتنفسى على طاغية القوم لذريق، فقاتله إن شاء الله تعالى. فإن هلكت بعده فقد كفيت أمره، ولم يعوزكم^(٤) بطل عاقل تستندون بهم إلى الله. وإن هلكت قبل وصولي إليه فاخلقونى في عزيمتي هذه، واحملوا بأنفسكم عليه، واكتشفوا لهم^(٥) من فتح الجزيرة يقتله، فإنهم بعده يدخلون.

(١) في نفح الطيب وابن خلكان: «استماحكم» وليس في كتب اللغة افضل من هذه المادة، فلا بد أن تكون معرفة عن: إسماحكم، يقال سمح كمنع وأسمح بمعنى جاد وكرم أما سمح ككرم، فمعناها: صار من أهل السماحة، والوصف منه سمح كصحف ويختفي.

(٢) المساجلة من جالدوهم بالسوف: أي ضاربوا بهما، وتجالدوا واجتلدوا: تضاربوا بها.

(٣) هذه رواية ابن خلكان، ورواية نفح الطيب بإثبات الناء: (عالصنة) وتخريجها على جعل يكون تامة بمعنى بحصل، وتكون خاصة حالاً من الاء في مخنها.

(٤) رواية ابن خلكان: «ولم يعوزكم»، وهي كما تعرف أبلغ وأدخل في النفي من رواية الفتح.

(٥) في رواية الفتح: «واكتفوا بهم» وفي رواية ابن خلكان: «واكتفوا بهم» وأرى أن الروايين غير صالحين لأن صيغةاكتفى لم ترد إلا لازمةقولاكتفينا بكتنا بمعنى قفت به واستفدت، ولكن المعنى المراد هنا هو معنى رد ومنع، وكانت تؤديه كلمة كفى كما في قوله: كفى الله السوء، وكان يصح أن تحمل الكلمة في الخطبة معرفة عن هذا القول، فيكون الأصل اكتفوا بهم، أي ردوه وامنعوا، ويكون المعمول الأول لل فعل محدوداً، والأصل اكتفوا بأنفسكم بهم، ولكن أتسحس أن يكون التحرير عن اكتفوا كما أتبته في نص الخطبة، ويكون المعنى: أزحوا بهم عن أنفسكم بقتل هذا الطاغية.

ولهذه الخطبة نص في كتاب الإمامة والسياسة، ولكنه بعيد عن النصين اللذين رجعنا إليهما.

ويقول باحث معاصر^(٤) :

«تحيط الرواية الإسلامية ظفر طارق في سل شريش بطاقة من التفاصيل الشائقة، فنقول لنا أولاً إن طارقاً خطب جنده قبل الموقعة، وألقى فيهم خطبه الشهيرة التي ما زال يحفظها الطلاب كنموذج من نماذج الشر المختار والتي يفتحها بقوله : «أيها الناس ! أين المفر ؟ البحر من ورائكم، والعدو أمامكم، وليس لكم والله إلا الصدق والصبر». ثم يبحث فيها جنده على القتال والاستشهاد في سبيل الله، ويرغبهم في ثمار النصر، ويحذرهم من عواقب التخاذل والتفرق. وتتوه الرواية الإسلامية بما كان لهذا الخطاب من أثر قوي في إذكاء همم المسلمين وشجاعتهم، ودفعهم إلى طريق النصر؛ على أنه يسوغ لنا أن نرتّب في نسبة هذه الخطبة إلى طارق، فإن معظم المؤرخين المسلمين، ولا سيما المتقدمين منهم لا يشير إليها، ولم يذكرها ابن عبد الحكم ولا البلاذري، وهو أقدم رواة الفتوحات الإسلامية، ولم تشر إليها المصادر الأندلسية المقدمة، ولم يشر إليها ابن الأثير وابن حجلون، ونقلها المقري عن مؤلف لم يذكر اسمه، وهي على العموم أكثر ظهوراً في كتب المؤرخين والأديباء المتأخرین. ليس بعيداً أن يكون طارق قد خطب جنده قبل الموقعة، فنحن نعرف أن كثيراً من قادة الغزوات الإسلامية الأولى كانوا يخطبون جندهم في الميدان، ولكن في اللغة هذه الخطبة وروعه أسلوبها وعباراتها ما يجعل على الشك في نسبتها إلى طارق، وهو بربرى لم يكن عريقاً في الإسلام والعروبة، والظاهر أنها من إنشاء بعض المتأخرین صاغها على لسان طارق مع مراعاة ظروف المكان والزمان».

ومهما كان، فهذه الخطبة تعد من الأدب الأندلسي تجوزاً لأن

طارقاً لم يكن بعد قد عاش في الأندلس، أو تأثر بيبيتها، وإنما كان لأول مرة يضع قدميه على أرضها، فهي من الأدب العربي عامه لا الأندلسي خاصه، أو هي صورة للخطابة في المشرق وحده.

خطب للداخل :

١ - يروى أن عبد الرحمن الداخل كان بعض مجالسه، فمثل بين يديه رجل من جند قتسررين يستجديه قائلًا له : يا ابن الخلاف الراشدين، والسادة الأكرمين، إليك فررت، وبك عذت، من زمـن ظـلـومـ، وـدـهـرـ غـشـوـمـ، قـلـ الـمـالـ، وـكـثـرـ الـعـيـالـ، وـشـعـتـ الـحـالـ، فـصـيرـ إـلـيـ نـدـاكـ الـمـالـ، وـأـتـ وـلـيـ الـحـمـدـ وـالـمـجـدـ، الـمـرـجـوـ لـلـرـفـدـ... فـأـجـابـهـ عـبـدـ الـرـحـمـنـ عـلـىـ الفـورـ :

قد سمعنا مقالتك، وقضينا حاجتك، وأمرنا بعونك على درك، على كرهنا لسوء مقالتك. فلا تعودن — ولا سواك — لمثله من إراقة ماء وجهك، بتصریح المسألة، والإلحاح في الطلبة، وإذا ألم بك خطب، أو حزبك أمر، فارفعه إلينا في رقعة لا تدعوك، كيما تستر عليك خلائقك، وتکف شمات العدو عنك، بعد رفعك لها إلى مالكك وما لك، عز وجهه بإخلاص الدعاء، وصدق النية.

٢ - وحدث بعض مواليه الخاصين به، قال : دخلت عليه على إثر قتله ابن أخيه المغيرة بن الوليد، وهو مطرق شديد الغم، فرفع رأسه إلى، وقال :

« ما عجبي إلا من هؤلاء القوم؟ سعينا فيما يضجعهم في مهاد الأمان والنعمة ومحاطرنا فيه بحياتنا، حتى إذا بلغنا منه مطلوبنا، ويسر الله أسبابه، أقبلوا علينا أيام السيف، ولما أُوبن لهم، وشاركتهم فيما أفردنا الله به، حتى أمنوا، ودرت عليهم أحلاف النعم، هزوا أعطافهم، وشمخوا بآنافهم، وسموا إلى العظمى، فنازعوا فيما منحنا الله، فخذلهم بکفرهم النعم، إذ أطعننا على عوراتهم، فعالجناهم قبل أن يعالجونا،

وأدى ذلك إلى أن ساء ظننا بالبريء منهم، وأساء أيضاً ظنه فينا، وصار يتوقع من تغیرنا عليه ما نتوقع نحن منه، وإن أشد ما على في ذلك أخي، والد هنا المخدول، كيف تطيب لي نفس بمحاجورته بعد أن قتل ولده، وقطع رحمه، أم كيف يجتمع بصرى مع بصره، اخرج إليه الساعة، فاعذر إليه، وخذ خمسة آلاف دينار فادفعها إليه، واعزم عليه في الخروج عنى، من هذه الجزيرة إلى حيث شاء من بر العدو.

٣ — وحكوا عنه أنه لما فتح سرقسطة، وتم له ما أمله من الفوز على أعدائه أقبل بعض خواصه بهتئونه، فجرى بينهم أحد من لا يؤبه له من الجندي، فهناه بصوت عال، فقال له الأمير : والله لو لا أن هذا اليوم يوم أسيخ على فيه النعمة من هو فوقني، فأوجب على ذلك أن أعمم فيه على من هو دوني، لاصليتك ما تعرضت له من سوء النكال. من تكون حتى تقبل مهنتاً رافعاً صوتك غير متجلج، ولا متھب لمكان الإمارة، ولا عارف بقيمتها، حتى كأنك تخاطب آباك أو أباك؟! وإن جھلک ليحملک على العود لمثلها، فلا تجد مثل هذا الشاق في مثلها من عقوبة. فقال الجندي : ولعل فتوحات الأمير يقتربن اتصالها باتصال جھلی وذنوبی، فتشفع لي حتى أتيت بمثل هذه الزلة، لا أعدمنها الله. فنهل وجہ الامیر، وقال : ليس هذا باعتذار جاهل، ثم قال : نهونا على أنفسکم، إذا لم تجدوا من يبنينا عليها... ورفع مرتبته، وزاد في عطائه.

خطبة المنذر بن سعيد :

قالوا^(١) : رحل الناصر^(٢) لدين الله من قصر الزهراء^(٣) إلى قصر

(١) فتح الطيب ص ١٧٢ - ٤ - ١.

(٢) هو عبد الرحمن الناصر لدين الله ثالث ملوك الأندلس، وأول من تلقب بالخلالة منهم، وكانت أيامه أيام جهاد، وكان عادلاً محسناً محباً للعلم، شفوفاً، بالعبارة، توفى سنة ٣٥٠.

قرطبة^(١) للدخول وفود الروم عليه، وقد لهم في بهو المجلس الراهن قعوداً حسناً نبيلاً، وقد عن يمينه ولني العهد من بيته، وقد عن يساره متذر بن سعيد، وحضر الوزراء على مرأتهم يميناً وشمالاً، ووقف الحجاج من أهل الخدمة من أبناء الوزراء والموالي وغيرهم، وقد بسط صحن الدار أجمع بعنق البسط، وكرايم الدرانك^(٢)، وظلت أبواب الدار وحنایها يغالي الدبياج ورفع السotor.

فوصل رسل ملك الروم حائزين مما رأوه من بهجة الملك وفخامة السلطان ودفعوا كتاب ملوكهم صاحب قسطنطينية العظمى، وهو في رق^(٣) مصبوغ بلون سماوي، مكتوب بالذهب بالخط الإغريقي، وداخل الكتاب مدرجة^(٤) مصبوغة أيضاً مكتوبة بفضة بخط إغريقي أيضاً، فيها وصف هديته التي أرسل بها وعددها، وعلى الكتاب طابع ذهب وزنه أربعة مثاقيل، على وجه منه صورة المسيح وعلى الآخر صورة الملك وصورة ولده.

وكان الكتاب بداخل درج^(٥) فضة منقوش، عليه غطاء ذهب، فيه صورة الملك من الزجاج الملون البديع، وكان الدرج داخل جمة ملبسة بالدبياج.

ولما احتفل الناصر لدين الله هذا الاحتفال أحب أن يقوم الخطباء

(١) هي المدينة التي بناها الناصر.

(٢) قرطبة : حاضرة الخلافة بالأندلس، وكانت أنت بنداد عراً وعلواً وحضارة، وفيها المسجد الجامع الذي بناه عبد الرحمن الأموي سنة ٧٩٢م، وهو الآن الكنيسة الكاثدرالية.

(٣) الدرانك : الطنافس.

(٤) الرق : ما يكتب فيه، وهو مجلد رقيق.

(٥) أدرجت الكتاب طوبه.

(٦) أصل البرج : السفيط الصغير تضع فيه المرأة متاعها وطيتها.

والشعراء بين يديه ليذكروا جلالة مقدمه، وعظمي سلطانه، ويصفوا ما
تهماً من توطيد الخلافة في دولته.

وتقديم إلى الأمير الحكم ابنه ولـي عهده بإعداد من يقوم بذلك
من الخطباء، فأمر الحكم الفقيه محمد بن عبد البر الكيساني بالتأهب
لذلك، وإعداد خطبة بلية يقوم بها بين يدي الخليفة، وكان يدعى
من القدرة على تأليف الكلام ما ليس في وسع غيره. وحضر المجلس
السلطاني، فلما قام بمحاول التكلم بما رأى هاله وبهره هول المقام
وأبهة الخلافة، فلم يهتد إلى لفظة، بل غشى عليه وسقط إلى الأرض.

فقيل لأبي علي القالي — وهو حبيب ضيف الخليفة الوارد عليه من
العراق وأمير الكلام، وبحر اللغة — فم فارق هذا الوهي، فقام محمد
الله وأثنى عليه، ثم انقطع الغول بالقالي، فوقف ساكناً مفكراً في كلام
يدخل به إلى ذكر ما أريد منه؛ فلما رأى ذلك منتر^(١) بن سعيد،
قام، فوصل افتتاح أبي علي لأول خطبه بكلام عجيب، ونادى من
الإحسان في ذلك المقام كل مجيب، يسحح سحا كائناً كان يحفظه
قبل ذلك بمدة، وبدأ من المكان الذي انتهى إليه أبو علي فقال^(٢) :

« أما بعد حمد الله والثناء عليه، والتعدد لآلاته، والشكر لعماته
والصلوة والسلام على محمد صفيه وخاتم أنبيائه — فإن لكل حادثة
مقاماً، وكل مقام مقالاً، وليس بعد الحق إلا الضلال. وإن قد قمت
في مقام كريم، بين يدي ملك عظيم، فاصغوا إلى — عشر العلا —
بأسماعكم، وأنقتوا عني بأقدتكم، إن من الحق أن يقال للحق صدق،
وللمبطل كذبت، وإن الجليل تعالى في سمائه، وتقدس بصفاته وأسمائه،

(١) كان إماماً فقيهاً خطيباً شاعراً فصيحاً، ولـي الفضاء ببرطبة أيام عـد الرحمن
٢٦٥—٢٥٥هـ.

(٢) الخطبة في نفع الطيب ١٧٣—١٧٢ طبع المطبعة الأزهرية.

أمر كلامه موسى صلى الله عليه ونبيه عليه جميع أنبيائه أن يذكر قومه بأيام الله جل وعز عندهم، وفيه وفي رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة، وإنني أذكر لكم بأيام الله عندكم وتلافيه لكم بخلافة أمير المؤمنين، التي لمت شعثكم، وأمنت سريراكم، ورفعت قوتكم، بعد أن كنتم قليلاً فكثراًكم، ومستضعفين فقواكم، ومستذلين فنصركم، ولاه الله رعيتكم، وأسند إليه إمامتكم، أيام ضربت الفتنة سرادقها على الآفاق، وأحاطت بكم شعل النفاق، حتى صرتم في مثل حدة البعير، من ضيق الحال ونكد العيش والتغير، فاستبدلتم بخلافته من الشدة بالرخاء، وانتقلتم بین سياسة إلى تمهد كتف العافية، بعد استيلان البلاء، أنشدكم بالله معاشر الملأ، ألم تكن الدماء مسفوكة فحقنها؟ والسبل مخوفة فأمنها؟ والأموال متهمة فأحرزها وحصنتها؟ ألم تكن البلاد خراباً فعمراها؟ وغور المسلمين مهضمة فحمها ونصرها؟

فاذكروا آلاء الله عليكم بخلافتها، وتلافيه جمع كلمتكم بعد افراقها بأمامته، حتى أذهب الله عنكم عيظكم وشفى صدوركم، وصرتم يداً على عدوكم بعد أن كان يأسكم بينكم، فأنشدكم الله، ألم تكن خلافته قبل الفتنة بعد انطلاقها من عقالها؟ ألم يتلاف صلاح الأمور بنفسه بعد اضطراب أحوالها؟ ولم يكل ذلك إلى القواد والأجناد، حتى يباشره بالقوة والمهمجة والأولاد، واعتزال النسوان، وهجر الأوطان، ورفض الدعوة، وهي محبوبة، وترك الركون إلى الراحة، وهي مطلوبة، بطوية صحيفحة، وعزيمة واجة، وسلطان قاهر وجدع ظاهر، وسيف منصور تحت عدل مشهور، متحجلاً للنصب، مستقلاً لما ناله في جانب الله من التعب، حتى لانت الأحوال بعد شدتها، وانكسرت شوكة الفتنة عند حدتها ولم يبق لها غارب إلا جهه، ولا نجم لأهلها قرن إلا جده، فأصبخت بنعمة الله إخواناً، ويلم أمير المؤمنين لشعثكم على أعدائه أعواناً، حتى توأرت لديكم الفتوحات، وفتح الله عليكم بخلافته أبواب الخبرات والبركات، وصارت وفود الروم وافدة عليه وعليكم، وأمال الأقصرين

والآدرين مستخدمة إليه وإليكم، يأتون من كل فج عميق، وبلد سحيق،
لأخذ حيل بيته وبينكم جملة وتفصيلاً ليقضى الله أمرأً كان مفهولاً،
ولن يخلف الله وعده، ولهذا الأمر ما بعده، وتلك أسباب ظاهرة بادية،
تدل على أمور باطنية خافية، دليلها قائم، وجفتها غير نائم، **﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات. ليستخلفنهم في الأرض كما استخلفن الذين من قبليهم ﴾** الآية. وليس في تصديق ما وعد الله ارتياط،
ولكل ثناً مستقر. ولكل أجل كتاب. وليس في تصدق ما وعد الله
ارتياط. ولكل ثناً مستقر. ولكل أجل كتاب. فاحمدوا الله — أيها الناس — على آلامه. واسألوه المزيد من نعماته. فقد أصبحتم بين خلافة
أمير المؤمنين — أيده الله بالعصمة والسداد وألهمه خالص التوفيق إلى
سبيل الرشاد — أحسن الناس حالاً. وأنعمتم بالآء، وأعزتم قراراً. وأنعمتم
داراً وأكثتم جمعاً. وأجعلتم صنعاً. لا تهاجون ولا تنددون. وأنتم
بحمد الله على أعدائكم ظاهرون. فاستعينوا على صلاح أحوالكم
بالمناصحة لإمامكم. والتزام الطاعة لخليفتكم وابن عم نبيكم عليه السلام؛
فإن من نزع يداً من الطاعة، وسعى في تفريق الجماعة، ومرق من
الدين، فقد خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران العبيدين. وقد علمتم
أن في التعلق بعصمتها والتمسك بعروتها حفظ الأموال، وحقن الدماء،
وصلاح الخاصة والدهماء. وأن يقوم الطاعة تمام الحدود، وتوفى المهدود،
وبها وصلت الأرحام، ووضحت الأحكام. وبها سد الله الخلل، وأمن
السبيل، ووطأ الأكاف، ورفع الاختلاف. وبها طاب لكم القرار،
واعظمت بكم الدار، فاعتصموا بما أمركم الله بالاعتصام به. فإنه — تبارك
وتعالى — يقول : **﴿ أطاعوا الله وأطاعوا الرسول وأولى الأمر منكم ﴾**
الآية. وقد علمتم ما أحاطت بكم في جزيرتكم هذه من ضروب المشركين
وصنوف الملحدين الساعين في شق عصاكم وتفرق ملاكم. الآذين
مخالفة دينكم، وهتك حريمكم، وتوهين دعوة نبيكم صلوات الله وسلامه
عليه وعلى جميع النبيين والمرسلين. أقول قولي هذا وأختتم بالحمد

الله رب العالمين، مستغفراً الله الغفور الرحيم، فهو خير الغافرين».

قال ابن سعيد : فصلب العلج، وغلب على قلبه. وقال : هذا كبير القوم، أو ليس القوم، وخرج الناس يتحدثون عن حسن مقامه وثبات جنانه وبلاعنة لسانه، وكان الناصر أشدهم تحجاً عنه، وأقبل على ابنه الحكم ولم يكن يشتت معرفته، فسأله عنه فقال له : هذا منذر بن سعيد البلوطي، فقال : والله لقد أحسن ما شاء، ولكن آخرني بعد لأرفعن من ذكره، فقضى يدك يا حكم عليه واسخلصه، وذكوري بشأنه فما للصنيعة مذهب عنه، ثم لاه الصلاة والخطابة في المسجد الجامع بالزهراء، ثم توفي محمد بن عيسى القاضي فولاده قضاء الجماعة بقرطبة وأقره على الصلاة بالزهراء، ومن شعره في هذه الواقعة قوله :

مقالي كحد السيف وسط المحاير فرقت به ما بين حق وباطل
بقلب ذكي ترتمي جمراته كبارق رعد عند رعش الأنامل
فما دحست رجلي، ولا زل مقولي ولا طاش عقلني يوم تلك الزلازل
لخير إمام كان أو هو كائن لمقتيل أو في العصور الأوائل
ترى الناس أتواجاً يومون بابه وكلهموا ما بين راج وآمل
وفود ملوك الروم وسط فناه مخافة بأس، أو رجاء لنائل
فتش سالماً أقصى حياة مؤملاً فأنت رجاء الكل حاف وناعل
ستملكتها ما بين شرق ومغرب إلى درب قسطنطين أو أرض بابل

وقال الناصر لابنه الحكم بعد أن سأله عن منذر بن سعيد : لقد أحسن ما شاء، فلthen كان حبر خطبه هذه وأعدها مخافة أن يدور ما دار. فيتلقي الوهي. فإنه ليديع من قدرته واحتياطه. ولكن كان أتى بها على البديهة لوقته فإنه لأعجب وأغرب، ولما فرغ منذر من خطبه أنسد :

هذا المقام الذي ما عابه فند لكن قائله أزرى به البلد
لو كنت فيهم غريباً كنت مطرداً لكنني منهم فاغتالني التك

ويروى بدل هذا الشرط : ولا دهانى لهم بني ولا حسد.
لولا الخلافة — أبى الله حرمتها — ما كنت أرضى بأرض ما بها أحد
خطبة لابن الفخار :

ولما تأذل بنو حسون على القاضي أبي محمد عبدالله الوحيدى
قاضى مالقة البرى للدفاع عنه العالم الأصولى أبو عبدالله بن الفخار،
فقصد إلى حضرة الإمامة (مراكش) وقام في مجلس أمير المسلمين
يوسف بن تاشفين، وقد غص بأربابه فقال : « إنه لمقام كريم نبأ
فيه بحمد الله على الدنو منه، ونصلى على خيرة آئياته، محمد الهادى
إلى الصراط المستقيم، وعلى الله وصحابته نجوم الليل البهيم؛ أما بعد،
فإينا نحمد الله الذي اصطفاك للمؤمنين أميراً، وجعلك للدين الحبيبي
نصيراً وظهيراً، ونفرز إليك مما دهمنا في حماك، ونث إليك ما لحقنا
من الضيم ونحن تحت ظل علاك، ويا الله أن يدهم من احتمى
بأمير المسلمين، وصواب بضم من أدرع بحصنه الحصين، شكوى
قمت بها بين يديك، في حق أمرك الذي عضده مؤيد، لتسمع منها
ما تخبره برأيك وتنقده، وإن قاضيك ابن الوحيدى الذى قدمنه في
مالكة للأحكام، ورضيت بعدله فيما بها من الخاصة والعام، لم يزل
يدل على حسن اختيارك بحسن سيرته، ويرضى الله تعالى ويرضى الناس
بظاهره وسريرته، ما علمتنا عليه من سوء، ولا درينا له موقف حرسي،
ولم يزل جارياً على ما يرضى الله تعالى ويرضيك ويرضينا، إلى أن
تعرضت بنو حسون للطعن في أحكامه، والهدى من أعلامه، ولم يعلموا
أن اهتمام المقدم راجع على المقدم، بل جمحوا في لجاجهم، فعموا
وصموا، وفعلوا وأمضوا ما به همو، وإلى السحب يرفع الكف من
قد جف عنه مسيل عين أو نهر ». فعلاً سمعه بلاغة أعقبت نصره،
ونصر صاحبه ! .

خطبة مأثورة لابن تومرت :

يروي أن ابن تومرت قبل موته بأيام يسرة استدعي هؤلاء المسمين بالجماعة من المصاومة، فلما حضروا بين يديه قام وكان متكتأً فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهل وصلى على محمد نبيه ﷺ، ثم أثناً بضربي عن الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم، ويدرك ما كانوا عليه من الثبات في دينهم والعزم في أمرهم، وأن أحدهم كان لا تأخذ في الله لومة لائم، وذكر من حد عمر رضي الله عنه ابنه في الخمر وتصنيمه على الحق في أشياء لهذه الفصول، ثم قال: فانقضت هذه العصابة نصر الله وجهها وشكراً لها سعيها وجزاها خيراً عن أمّة نبيها، وحيطت الناس فتنة تركت الحليم حيراناً والعالم مجاهلاً مداهناً، فلم يتقنع العلماء بعلمهم بل قصدوا به الملوك واجتلوا به الدنيا وأمالوا وجوه الناس لهم في أشياء لهذا القول إلى هلم جرا، ثم إن الله سبحانه وله الحمد من عليكم أيتها الطافقة بتأييده، وخصكم من بين أهل هذا العصر بحقيقة توحيدك، وقيض لكم من ألقاكم ضلالاً لا تهتدون، وعمياً لا تبصرون، ولا تعرفون معروفاً ولا تنكرون منكراً، قد فشت فيكم البدع واستهلكم الأبطال وزين لكم الشيطان أضاليل وترهات أثره لسانى عن النطق بها، وأربأ بالفظ عن ذكرها، فهذاكم الله به بعد الضلال، وبصركم بعد العمى، وجمعكم بعد الفرقة، وأعزكم بعد الذلة، ورفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين، وسيورثكم أرضهم وديارهم، ذلك بما كسبتم أيديهم، وأضمرتمه قلوبهم، وما ربك بظلم العبيد، فجددوا الله سبحانه خالص نياتكم، وأروه من الشكر قولهً وفعلاً ما يزكي به سعيكم ويقليل أعمالكم وينشر أمركم، واحذرموا الفرقة واحتلال الكلمة وشتات الآراء، وكونوا يداً واحدة على عدوكم، فانكم إن فعلتم ذلك هابكم الناس وأسرعوا إلى طاعتكم وكثير أتباعكم، وأظهر الله الحق على أيديكم، وإلا تفعلوا شملكم الذل وعمكم الصغار واحتقرتم العامة فخطفتكم الخاصة، وعليكم في جميع أموركم بسراج الرأفة بالغسلة واللين بالعنف، واعلموا مع هذا أنه لا يصلح أمر آخر

هذه الأمة إلا على الذي صلح عليه أمر أولها، وقد اخترنا لكم رجلاً منكم وجعلناه أميراً عليكم، هذا بعد أن بلوناه في جميع أحواله من ليه ونهاره ومدخله ومخرجه، واختبرنا سيرته وعلاناته فرأينا في ذلك كله ثباتاً في دينه متبعراً في أمره، وإنني لأرجو أن لا يخلف الظن فيه، وهذا المشار إليه هو عبد المؤمن فاسمعوا له وأطيعوا ما دام ساماً مطيناً لربه؛ فإن بدل أو نكص على عقبه أو ارتقاب أمره ففي الموددين أعزهم الله بركة وخير كثير والأمر أمر الله، الله يقلده من شاء من عباده، فباقع القوم عبد المؤمن، ودعا لهم ابن تومرت ومسح وجههم وصدورهم، وتوفي ابن تومرت بعد عهده بيسير، واجتمع أمر المصامدة على عبد المؤمن.

خصائص الخطابة الأندلسية

كثُرت الدواعي للخطابة في الأندلس منذ دخُلها العرب فاتحين؛ فالعروبة والموهبة وفصاحة النسان والذكاء وكثرة الحفظ والحرية التي كانوا يعيشون فيها، وحاجتهم إلى الخطابة في تحميس الجندي والحضر على الجهاد حين الفتح، ثم في النضال والمبادرة والغدر والانتصار حين اشتدت المссنة في عهد الولاة، ثم في أمور الاجتماع والسياسة في عصر الأمويين، ثم في المحاضرة والمناظرة وما إليها في عصر الطوائف، ثم في الدعوة إلى قتال الإسبانيين والمسيحيين الذين كانوا يعملون على طرد العرب من الأندلس في عصر بنى الأحمر. كل ذلك ضاعف الحاجة إلى الخطابة، وتهضبها، وازدهارها، وقوتها، ونوع في أغراضها ومواضيعها، فشملت أغراضًا شتى من شؤون الحياة؛ فكان منها الخطابة السياسية التي تلقى في تفصيل خطبة يسرر عليها الخليفة أو الأمير، أو تحرير على قال وتغير من فرار؛ وكان منها الخطابة الاجتماعية، التي تقال في مختلف المناسبات العامة، والمحافل الجامعية، كخطب الاستقبال والنهضة والاستشارة والاعتذار، وتأييد القضايا الخلقية، ونشر العيادي السامة؛ وكان منها الخطب الدينية، التي تحت على التمسك بأهدايب الدين، والتخلص بتعاليمه، واتباع أوامره واجتناب نواهيه، والتي يكثر ورودها في المناسبات الدينية كالجُمُع والأعياد والمواسم؛

وكان منها «الوصايا» التي ترتبط مع الخطيب بأقوى رابطة، وتشابهها في أكثر الأمور. ثم ذاعت بعد ذلك المحاورات والمحاضرات والمناظرات وهي من فنون الخطابة وألوانها، وشملت كذلك الانتصار لرأي، أو لإسان، أو لمذهب، أو لعصبية، كما شملت الدفاع عن النفس بالبلية من الكلام.

ولقد كان للخطابة في الأندلس منزلة كبيرة، واحترام شديد، وكانت ترفع صاحبها إلى أعلى المناصب وأسمى المراتب، ولذلك كان تقب الخطيب من ألقاب التشريف والتعظيم، وأضيف القضاء إلى الخطابة. فيه شأنها، وعظم أمرها، وزادت الحفاوة بها.

وكانت الخطابة زمن الولاة الفاتحين، سهلة التركيب قليلة الاستعارة، بعيدة عن الصنعة والابتذال والتتكلف؛ فاما معانيها فكانت واضحة بعيدة عن تعمق الفلسفة والخيال الشعري، وكان الغرض فيها يدور حول أغراض الدين، من الحض على الجهاد والصبر على منازلة الخطوب وملاقة الحوادث بصدر رحب، وجحان مطمئن. وكان من أغراضها: الناصر بالعصبية لما حدثت الفتنة بين اليمتدين والمظريين آخر ذلك العهد.

وفي دولةبني أمية وملوك الطوائف دخلها الوشى والصنعة، حتى غلب عليها السجع، على أنه قليل التكلف، وغلبت عليها الاستعارة الرقيقة، وكثير فيها الاقتباس، وما إليه من مظاهر الكتابة. ولم يكن في معانيها تعمق ولا صورية، لأنهم كانوا إلى أدب العرب أقرب منهم إلى علم الفلسفة والمنطق. فاما الأغراض : فقد اتسعت حين كثرت العلوم، وعني الناس بدرسها، والمناظرة فيها، وزخرت بحور الحضارة، وكثرت منايجها، فلا يدع إذا تعددت أغراض الخطابة فقيلت في كل ما كان في المشرق من الدين والسياسة ومواقف المنازرة ومدارس العلم، ولم تفارقاها الدعوة

إلى العصبية، فقد بقي الخلاف بين أهل تلك البلاد في كل عهد وكل جيل.

وأما في زمن المراطين والموحدين : فقد ساءت حالها، وضعف شأنها، فدخلتها العبارات المقوية الضعيفة والتكلف المبتلى، من سجع غث واستعارة باردة مع الاستغناء عنها بالكتابية في بعض الأمر والاقتصار بها على ما يتصل بالدين من الجمعة والإملاك وما إلى ذلك، واستعيض عنها بالمنشورات والأوامر والمراسيم.

لذلك كانت الخطابة عندهم شائعة^(١)، دوت بها ميادين قتالهم، واهتزت متابر محالفهم، ومحالس ملوكيهم، وسفرت بها سفراً لهم، في إعلان حرب، أو عرض مهادنة أو صلح، وقد عرروا لها قيمها، فقدموها على الشعر في الحفل الجامع، والمقام المشهود، فقد تقدم الناصر إلى ابنه الحكم في إعداد الخطباء والشعراء، ليوم ملاقاة رسول ملك القسطنطينية، وأن يقدم الخطباء على الشعراء في الكلام، لذلك كان للخطابة شأن عند هؤلاء القوم، وبلغ من اهتمامهم بها أن تلقب علماؤهم بالخطيب، كما تلقبوا بالفقير.

وكان للخطابة مظهر آخر غير الحرب والصلح، وهو الوعظ الذي حرص عليه ملوكيهم، لإصلاح شؤون رعيتهم، وكان عندهم منزلة سامية، كما كان عند أسلامهم من ملوكبني أمية بالشرق، يحتفلون به ويكلونه إلى أعظم قضائهم، وكبار علمائهم. ولم يكن وعظهم فاتراً ضيق المجال، موزعاً على المناسبات التي تمر في أيام العام، من حج وفطر وأضحى، بل كان منبر المسجد مجتلي الحوادث العظام، من استبشار بنصر، أو حث على جهاد، أو ردع عن منكر حدث، وبذلة ظهرت، بل لقد أدت الخطابة ما تؤديه اليوم الصحافة الجريدة المطلقة من كل

(١) ٣/٥٢ الأدب العربي وتاريخه — محمود مصطفى.

قيد، فـإِنْ مَنْذُرٌ بْنُ سَعِيدٍ، قاضي قضاة عبد الرحمن الناصر، وإمام الصلاة بالمسجد الجامع بقرطبة، لما رأى انهمك الخليفة في العناية بالزهاء، وزخرفة قصورها، حتى عطل شهود الجمعة بالمسجد، خطب الناس في هذا المعنى، وعمد إلى تذكير الخليفة، ووعظه وتقييعه، على ما فرط في حسب الله، فابتدا خطبته بقوله تعالى: ﴿ أَتَيْنَاكُمْ بِكُلِّ رِيحٍ آتَيْنَاكُمْ مِّنْ كُلِّ شَيْءٍ فَمَمْنَعَنَّا أَنْ نَعْلَمَ لَعْلَكُمْ تَخْلُدُونَ إِذَا بَطَشْتُمْ جَارِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوهُنَّ وَإِنَّمَا الَّذِي أَمْكَنْتُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ أَمْكَنْتُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ وَجَنَّاتٍ وَعِبَوْنَ إِنِّي أَحَافِظُ عَلَيْكُمْ عِذَابَ يَوْمِ عَظِيمٍ ﴾^(١) ووصل ذلك بكلام جزل، وقول فصل، جاش به صدره، وقدف به على لسانه بحره، وأقضى في ذلك إلى ذم المشيد والاستغراق في زخرفه، والسرف في الإنفاق عليه، فجرى في ذلك طلاقاً^(٢) وتلا قوله تعالى: ﴿ أَفَمِنْ أَسْنَ بَيَانَهُ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانَ خَيْرٍ أَمْ مِنْ أَسْنَ بَيَانَهُ عَلَى شَفَاعَ جَرْفٍ ﴾ هار فانهار به في نار جهنم^(٣) والله لا يهدى القوم الطالمين. لا يزال بنيائهم الذي يتوارى في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم، والله علیم حکیم^(٤) وأنى بما شاكل المعنى من التخويف بالموت، والتحذير منه، والدعاء إلى الله عز وجل في الزهد من هذه الدنيا، والحضور على اعتزالها، حتى يكى الناس، وخشعوا وضجوا وتضروا، فعلم الخليفة أنه المقصود، فاستخدم، وبكي، وندم على ما كان منه، واستعاد بالله من سخطه، إلا أنه وجد على المنذر، وشكى ذلك إلى

(١) الريح : المكان المرتفع أو الطريق أو المترفع منه في الجبل. الآية هنا : برج الحمام، أو أي بناء مرتفع. المصانع : مآخذ الماء، أو القصور المشيدة، أو الحصون. التم (بالتحريك ويسكن) : الإبل والشاة، أو خاص، بالإبل والجمع أئباء، وجمع الجمع أناعيم، شيد البناء : رفعه، وكذلك شاده في بعض كلام العرب.

(٢) جرى طلاقاً (يسكون اللام) : غير مقيد. أما جرى الفرس طلاقاً أو طلاقين (بالتحريك) فمعناه شوطاً أو شوطين.

(٣) الجرف : يضمثن ويسكن ما جرقه السيل من الوادي، وهار من هار البناء : إن هدمه فهو هار، وهار مقلوب هار.

ومن أذيع الخطب الأندلسية شهرة خطبة منذر بن سعيد البلوطي^(٥)
أمام وقد الروم، وقد ذكرناها آنفاً.

(١) كان كما يقول ياقوت في مجمع الأدياء : كان تهويأ فاضلاً وخطباً مصقعاً، وشاعراً بلغاً، ولد سنة خمس وستين ومائتين، ورحل فلقي جماعة من العلماء والأدياء، وجلب في رحلته كتاب : الأشراف في اختلاف العلماء روایة عن مؤلفه ابن السندر التساحوري، وكتاب العين للخليل روایة أبي العباس ولاد، واتصل بعد الرحمن الناصر فخطى عنده، ولما توفى الناصر وولى ابنه الحكيم أقره على القضاء، واستقضى غير مرأة مما ألقاه، وكان وفراً صلباً في الحكم مقداماً في إقامة العدل والحق، وإزهاق الجحور، والباطل، وأمراً بالمعروف ناصحاً عن المنكر له كتب في السنة والورع، والرذ على أهل الآراء والبدع، ومن مصنفاته المداولاتة : أحکام القرآن، وكتاب الناسخ والمتضوع، وله رسائل وخطب مجموّعة وأشعار متفرقة مطبوعة. وتوفي سنة ابن سعيد سنة خمس وخمسين وثلاثمائة.

وكان كما يذكر الفتح بن خاقان في « مطبع الأقنس » : آية حرفة في سكون
وبوركة لم تكن معدة ولا تكون، آية سفاعة في تحمل، وجهة ورع في طي نسم
إذ جد تجرد، وإذا هزل نزل، وفي كلما الحالين لم ينزل للورع عن مرتفع، ولا
اكتسب إيماناً ولا احتسب.. وناهيك من عدل ظهره، ومن فضل اشهده، ومن جور
قضى، ومن حق رفع، ومن باطل خفض، وكان مهياً طلياً صارماً غير جان ولا
عاجز، ولا مراقب لأحد من خلق الله في استخراج حق ودفع ظلم. وكان كذلك
شاعرًا، ومن شعره يخاطب الغافل عن طاعة الله :

وتعاملي عدماً وأنت الليبي؟
إن يوم الحمام منك قريب؟
بعد ذاك الجيل يوم عصوب
لا يداويك — إن أثلك — طيب!
فاغسلن جاهدةً لها يا رب
إن من يذكر قسوة بباب
لمنانيا عليك فيها رقيب

ويغض بعض الباحثين من شأن هذه الخطبة، ويجعلونها قرية من الخطب الدينية.

ولمنذر خطبة أخرى مأثورة، يروى أنه أصاب الأندلس في عهد الناصر لدين الله أمير المؤمنين قحط شديد، فرأى القاضي الفقيه، الخطيب الواعظ الراهد، منذر بن سعيد البلوطي، أن يفرج الناس إلى ربهم طلباً للرحمة والسقيا، وأن يصلوا صلاة الاستسقاء، فدعاهم إلى أن يخبرجوا حفاة عراة أذلة إلى العراء، يبالغون في الرجاء، ويلحون في الدعاء، ويسألون الله من رحمته وفضله؛ وتأهب البلوطي لذلك فصام بين يديه ثلاثة أيام تقلاً وتطهيراً وإنابة واستجداء ورهبة، واجتمع خلق كثير من الأندلسين بالムصلى الجامع في قرطبة، واعلى الخليفة سطح قصره ليشارك الناس في الدعاء إلى الله تعالى، ووقف البلوطي الخطيب بين هذه الجموع المتراصة وقد شخصوا إليه بأيمانهم، فقال :

«أيها الناس ! سلام عليك، كتب ربكم على نفسه الرحمة، أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ثم تاب من بعده وأصلاح فانه غفور رحيم. أنتم القراء إلى الله، والله هو الغني الحميد، إن يشا يذهبكم ويأت بخلق جديد، وما ذلك على الله بعزيز.. فما أتم الخطبة حتى ظهر الغيث.

== ويقول في الزهد :

ثلاث وستون قد حرتها
فمساذاً تؤمل، أو تتضرر؟
وحل عليك نديم الشسب
فما ترعوي، بل وما تزدجر؟
تسر لاليك سراً حيناً
وأنت على ما أرى مستمراً
فلو كنت تقلل ما يقضى
من العمر ما اختضت حبراً بشر
فما لك لا تتعذر إذن
لدار المقام، ودار المقر؟
أترغب عن مواجهة الموت
أذ، وتعلم أن ليس منها وزر؟
ولاما إلى سقر تستمر؟

ولما انتشر العلم في بلاد الأندلس، وتعلق الناس بأهدايه، وأقبلوا على المناقشات والمناظرات في مجلس الخلفاء وغيرها مدة بني أمية وزمن ملوك الطوائف تعددت أغراض الخطابة، وتغيرت أساليبها، وتطورت إليها الصناعة، وامتلأت بالسجع على أثر انتشار ذلك في الكتابة الشفوية، وبقيت على هذه الحال إلى قيام ملوك البربر. ثم انطلقت شعلة الحماسة في النفوس، وخدمت قوة التفكير على أثر تعصب البربر وجعلهم. فانحطت منزلة الخطابة واقتصر فيها على الوعظ في المساجد...

وقد كان هناك جماعة من مشهورى الخطباء مثل: الوليد بن عبد الرحمن بن غانم من خطباء محمد بن عبد الرحمن الأموي، وعبد الله الفخار زمن المرابطين، وغيرهم من الأمراء.

ولكن شأن الخطابة لم يصل إلى ما كان عليه في بلاد المشرق، ولم يعرف من خطباء الأندلس مثل: زياد بن أبيه، والحجاج بن يوسف، أو الخليفة المنصور، من كان يحسب كلامهم من الكلام الجيد المشهور البليغ.

أعلام أندلسية

- ١ -

أحمد ابن عبد ربه الأندلسي
٢٤٦ - ٣٢٨ هـ

حياته وأدبه :

أديب الأندلس وشاعرها أبو عمرو شهاب الدين أحمد بن محمد ابن عبد ربه. ينتهي نسبه إلى سالم مولى هشام بن عبد الرحمن الداخل.

كانت ولادته في العاشر من رمضان سنة ٢٤٦ هـ. ونشأ بمدينة قرطبة حاضرة الأندلس في عهدبني مروان العصر الذهبي لتلك البلاد، وكان في شبابه لاهياً ولوعاً بالغناء. ولكن ذلك لم يمنعه الدرس والتحصيل، فقد درس علوم العربية وروي الشعر، وحفظ أيام العرب وأشعارها وتوازيرها، ونظر في اللغة وال نحو. فتبلغ في جميع ذلك، على أن درس علوم الدين كما كان الشأن في علماء الأندلس وأدبائهم، فهم لم يكونوا يقتصرن على باب واحد من العلم. ولكن امتياز في علوم الشريعة حتى عد فقيه الأندلس في زمانه، إلى جانب امتيازه الأدبي الذي قل أن يشارك فيه، مما خلده له كتابه العظيم : « العقد الفريد ».

وقد قال الشعر في حديثه يغدو به عاطفة اللهو التي حدثك في شأنها. وقد برع في نظمه لأشعار الصبا واللهو ما بين قصائد ومقاطعات في رقة وإمتناع كان يحمل المتنبي — على اعتداته وكبره — أن يقول في وصفه : « مليح الأندلس »، ولكن أحمد ألقع في كلامه عن ذلك وعارضه برهنديات سماها الممحضات، تفاؤلاً بأن الله سبحانه يمحض بها ذنبه.

وله في مدحه بني مروان الكبير، لقد عاصر أربعة منهم ومدحهم جميعاً. وقد يبقى بقريطة رئيساً سيداً حتى أصيب بالفالج. ثم مات بعد أن رزح تحت أعباله عدة سنين، وقد خلف ديوان شعر مفقود، وكتاب الباب، والكتاب الخالد الذي رفع رأس الأندلس : « العقد الفريد ».٦

وهذا الكتاب مشهور متداول، ولو لا ما خلقه عيت الساخ والمطابع لم يكن كتاب من كتب الأدب أحق منه بالاطلاع وكثرة الرد والنظر، ومهما يكن فإنه مصدر من أهم مصادر كتب الأدب قل أن تجد له نظيراً في ترتيبه وتوبيخه وحسن تخbir ما فيه من درر الأدب وروائعه — يرجع إليه الأدب واللغوي والنحوى، والعروضي، والمؤرخ والقصاص، والجاد والهازل.

فالكتاب موسوعة أدبية لا تكاد تغادر شيئاً مما يهم الباحث في الأدب وفي لغة العرب^(١). وإن تعجب فإن مؤلفه أندلسي يدون أدب الشرق بما لا يقل عن أهداف المشرق إن لم يزد عليهم — جمع فيه أخبار المشرق وكتابه وأدبياته ليتحف بها أهل وطنه، إلا أن اشتهره

(١) وقد دل البحث على أن كثيراً مما اجتمع في هذا الكتاب قد عصفت الأيام بمصادره الأولى وتقى العقد خلفاً منها، لا غنا عنه ولا كفاء له. فها هي ذي مشاورة المهدى لأهل بيته مثلاً وخطب الوغود وغير ذلك لا تجدها في كتاب قبل ذلك.

وجزالة فائدته، جعلاه مرجع أهل المشرق، حتى عدوه من أركان الأدب عندهم، فأقبلوا على دراسته بشغف، وهو يعد في عصرنا أستاذ الكثير من أدبائه هو ومقيدة ابن خلدون.. وفي الكتاب بعض ما تحدى على نقله لبعض أخبار المشرق، وعدوه أنه أديب راوية يستطرف ويختبر، وليس من موضوعه التحريات العلمية، ولا التمحیصات المنطقية، فهي غير مهمة الأديب، ولا سماها بين السايقين.

وكان ابن عبد ربه من العلماء المكثرين من المحفوظات والاطلاع على أخبار الناس، وكتابه «العقد الفريد» من الكتب الممتعة، حوى من كل شيء، وجزءاً إلى خمسة وعشرين كتاباً كل منها جزان فهو خمسون جزءاً، وقد سمى كل كتاب منها باسم جوهرة من الجوهر، وذكر فيه أخباراً عديدة عن تاريخ العرب السياسي والأدبي وكثيراً من الشعر والحكايات والتوادر وغير ذلك، ونذكر هنا عنوان كل كتاب :

- الكتاب الأول : **الرؤولة**، في السلطان.
- الكتاب الثاني : **الفريدة**، في الحروب.
- الكتاب الثالث : **الزبرجدة**، في الأجواد والأصفاد.
- الكتاب الرابع : **الجمانة**، في الوفود.
- الكتاب الخامس : **المرجانة** في مخاطبة الملوك.
- الكتاب السادس : **الياقونة**، في العلم والأدب.
- الكتاب السابع : **الجوهرة**، في الأمثال.
- الكتاب الثامن : **الزمردة**، في الموعظ والزهد.
- الكتاب التاسع : **الدرة**، في التعازي والمراثي.
- الكتاب العاشر : **اليقمة**، في النسب وفضل العرب.
- الكتاب الحادي عشر : **المسجدة**، في أعلام الأعراب.
- الكتاب الثاني عشر : **المجنحة**، في الأجرمية.
- الكتاب الثالث عشر : **الواسطة**، في الخطب.

الكتاب الرابع عشر : المجنية الثانية، في التوقعات والقصول والصدور وأخبار الكتبة.

الكتاب الخامس عشر : العسجدة الثانية، في الخلفاء وتاريخهم وأيامهم.

الكتاب السادس عشر : اليتيمة الثانية في أخبار زياد والحجاج والبرامكة والطاليين.

الكتاب السابع عشر : الدرة الثانية، في أيام العرب ووقائعها.

الكتاب الثامن عشر : الزمردة الثانية، في فضائل الشعر ومقاطعه ومخارجه.

الكتاب التاسع عشر : الجوهرة الثانية، في أغاريف الشعر وعلل القوافي.

الكتاب العشرون : الياقوتة الثانية، في الألحان واختلاف الناس فيها.

الكتاب الحادي والعشرون : المرجانة الثانية، في النساء وصفاتهم.

الكتاب الثاني والعشرون : الجمانة الثانية، في المتنبئين والسمورين والبخلاء والطفيلاين.

الكتاب الثالث والعشرون : الزبرجدة الثانية، في طباع الإنسان وسائر الحيوان وتفاصل البلدان.

الكتاب الرابع والعشرون : الفريدة الثانية، في الهيئات واللباس والطعام والشراب.

الكتاب الخامس والعشرون : اللؤلؤة الثانية، في الهيئات واللباس والتحف والفكاهات والملح.

ويقول ابن عبد ربه في مقدمة كتابه : « وبعد فإن أهل كل طبقة وجهابذة كل أمة قد تكلموا في الأدب، وتكلسوا في العلوم على كل لسان ومع كل زمان، وإن كل متكلم منهم قد استفرغ غایته وبذل مجده في اختصار معاني المتقدمين واختصار جواهر ألفاظ السالفين،

وأكثروا في ذلك حتى احتاج المختصر منها إلى اختصار والمتخير إلى اختبار، ثم رأيت آخر كل طبقة وواضعها كل حكمة ومُؤلّفي كل أدب أعدب الفاظاً وأسهل بنية وأحكم منها وأوضح طريقة من الأول، لأنّه ناقض متّعقب، والأول ياد متقدّم، فلينظر الناظر إلى الأوضاع المحكمة والكتب المترجمة بعين إنصاف ثم يجعل عقله حكماً عادلاً قاطعاً، فعند ذلك يعلم أنها شجرة باسقة الفرع طيبة المتّبت زكية التربة يانعة البصرة، فمن أحد بنصبيه منها كان على إرث من النبوة ومنهاج من الحكمة، لا يستوحش صاحبه ولا يضل من تمسّك به.. وقد ألفت هذا الكتاب وتخيّرت جواهره من متّخbir جواهر الآداب ومحصول جوامع البيان فكان جوهر الجوهر ولباب اللباب، وإنما لي فيه تأليف الآخيار، وحسن الاختصار وفرش لدور كل كتاب وما سواه فما خودة من أفواه العلماء ومؤثر عن الحكماء والأدباء.

وقد نظرت في بعض الكتب الموضوعة فوجدتها غير منقوقة في فنون الأخبار ولا جامعة لجمل الآثار فجعلت هنا كافياً جاماً لأكثر المعاني التي تجري على أنفواه العامة والخاصة، وتدور على ألسنة الملوك والسوقة، وحليت كل كتاب منها بشواهد من الشعر تجاس الأخبار في معانيها وتوافقها في مذاهبيها، وقرنت بها غرائب من شعرى لعلم الناظر في كتابها هذا أن لمغربينا على قاصيته وبلدنا على انقطاعه حظاً من المنتظوم والمتنثور، وسميته كتاب العقد الفريد، لما فيه من مختلف جواهر الكلام، مع دقة المسالك وحسن النظام، وجزائه على خمسة وعشرين كتاباً، كل كتاب منها جزآن، فتلت خمسون جزءاً في خمسة وعشرين كتاباً، قد انفرد كل كتاب منها باسم جوهرة من جواهر العقد، فأولها كتاب اللؤلؤة في السلطان، ثم كتاب الفريدة في الحروب ومدار أمرها، ثم كتاب الزبرجدة في الأجواد والأصفاد، ثم كتاب الجمانة في الوفود، ثم كتاب المرجانة في مخاطبة الملوك ثم كتاب الياقوتة في

العلم والأدب، ثم كتاب الجوهرة في الأمثال ثم كتاب الزمردة في الموعظ والزهد، ثم كتاب الدرة في التعازي والمراثي، ثم كتاب البييمة في النسب وفضائل العرب ثم كتاب المسجدة في كلام الإعراط، ثم كتاب المجنية في الأجوية ثم كتاب الواسطة في الخطب، ثم كتاب المجنية الثانية في التوقيعات والفصول والتصور وأخبار الكتبة، ثم كتاب المسجدة الثانية في الخلقاء وتواريختهم وأيامهم ثم كتاب البييمة الثانية في أخبار زياد والحجاج والطلابين والبرامكة، ثم كتاب الدرة الثانية في أيام العرب ووقائعهم، ثم كتاب الزمردة الثانية في فضائل الشعر ومقاطعه ومخارجه، ثم الجوهرة الثانية في أغراض الشعر وعمل القوافي ثم كتاب الباقوتة الثانية في الألحان واختلاف الناس فيه، ثم كتاب المرجانة الثانية في النساء وصفاتهم، ثم كتاب الجمانة الثانية في المتنبيين والموسمين والبخلاء والطفليين، ثم كتاب الزبروجة الثانية في بيان طبائع الإنسان وسائر الحيوان، ثم كتاب الفريدة الثانية في الطعام والشراب، ثم كتاب المؤلفة الثانية في الفكاهات والملح.

منزلته في الأدب الأندلسى :

يقول عنه ياقوت في معجم الأدباء : « كان لأبي عمرو بالعلم جلاله، وبالأدب رياضة وشهرة، مع ديانة وصيانته، واتفقت له أيام وولايات للعلم فيها نفاق؛ فساد بعد الخمول، وأثرى بعد الفقر، وأشار إليه بالفضل، إلا أنه غلب عليه الشعر .

وأكثر شعر ابن عبد ربه وأجمله في الوصف والغزل، وهو يجمع بين جرالة المشرقين وعنودية الأندلسين، ويذكر شعره وأدبه أدباء المغارقة، يروي ابن الخطيب أن الوليد الأندلسى لما حج عرج في منصرفة على مصر، فلقي بها أبو الطيب المتنبي في جامع عمرو، فافتضا في الحديث، ثم قال المتنبي : ألا تنشدني لملاع الأندرس ؟ يريد صاحبنا

ابن عبد ربه، فأنشده الوليد شيئاً من شعره، فاستجاده واستعاده، ثم قال : « يا ابن عبد ربه لقد تأثرك العراق حجاً ».

ولابن عبد ربه فضيلة السبق إلى اختراع الموشحات، هو و يقدم ابن معافر، وله طبع في الشعر القصصي، الذي كان من أروع ما نظم فيه بالعربية أرجوزته في تاريخ الخلقة الناصر الأموي (٣٥٠-٣٠٠ هـ)، وإن كانت تخلو من خيال القصص و عنديه الملحة وفن التصوير، وقد ذكرها ابن عبد ربه في الجزء الثاني من كتابه « العقد الفريد »، وله أشعار سماها « المحمصات »، وهي في الرهد والتوبية، وقد نقض فيها كل قطعة قالها في الغزل واللهم يقطعة من بحرها ورويها في الرهد والتوبية والموعظة، وكان ابن عبد ربه شاعراً مكراً، وشاهد الحميدى من ديوانه عشرين جزعاً ونيقاً من جملة ما جمع للحكم ابن عبد الرحمن الناصر وأكثرها بخطه، وفي كتابه « العقد » كثير من نماذج شعره، ويقول في مقدمة هذا الكتاب : « وحيث كل كتاب منها بشواهد من الشعر تجاس الأخبار في معانيها، وتتوافقها في مذاهبيها، وقررت منها غرائب من شعري، ليعلم الناظر في كتابنا هذا أن لمغربنا على قاصيته، وبيلدنا على انقطاعه حظاً من المنظوم والمثبور ».. وكتابه العقد صورة لأدب الشرق، وليس فيه عن الأندرس وأدبها شيء، ولما سمع الصاحب بن عباد بهذا الكتاب وطالعه قال : « هذه بضاعتنا ردت إلينا، ظنت أن هذا الكتاب يشتمل على شيء من أخبار بلادهم، فإذا به مشتمل على أخبار بلادنا ».

وفي ابن عبد ربه يقول الشاعري في كتابه « اليتيمة » : « ابن عبد ربه أحد محاسن الأندرس علمًا وأدبًا ونبلاً، وشعره في غاية الجزالة والحلابة، وعليه رونق البلاحة والطلابة ».

وقد ترجم لابن عبد ربه كثيرون منهم : ابن خلkan في الجزء الأول من كتابه « وفيات الأعيان »، وياقوت الحموي في الجزء الثاني

من كتابه « معجم الأدباء »، والضي في كتابه « بغية الملتمس » — ص ١٣٧ — والتعالى في الجزء الأول من بيضة الدهر، ولقي كتابه العقد الفريد عنابة العلماء والأدباء في كل جيل.

ألوان من أدبه :

١ — من نثر ابن عبد ربه ما ذكره عن كتابه ونهرجه فيه، فقال : « ألقت هذا الكتاب، وتخبرت جواهره من متخير جواهر الآداب، وممحض جوامع البيان، فكان جوهر الجواهر، ولب اللياب، وإنما لي فيه الاختيار، ومانور عن الحكماء والأدباء، واختيار الكلام أصعب من تأليفه.. وقد نظرت في بعض الكتب الموضوعة، فوجدتها غير متفوقة في فنون الأخبار، ولا جامعة لحمل الآثار، فجعلت هذا الكتاب كافياً جاماً لأكثر المعاني التي تحرى على أفوه العامة، وتدور على ألسنة الملوك والسوقة، وحللت كل كتاب منها بشواهد من الشعر، تجذس الأخبار في معاناتها وتوافقها في مذاهبها وقررت بها غرائب من شعرى ». »

٢ — ومن شعره قوله :
اشرب على المنظر الأنق وامزج برق الحبيب ريق
والحلل وشاح الكعب رفقا خوفا على خصرها الرقيق
وقل لمن لام في التصامي خل قليلاً عن الطريق

وله في الغزل :

بدمام الهوى أمت إليه وبحكم العقار أقضى عليه
بأنني من زها علي يوجه كاد يدمي لما نظرت إليه
كلما علني من الراح صرفا علني بالرضا من شفتيه
ناول الكأس واستحال بلحظ فسقنتي عيناه قبل يديه

ومن شعره أيضاً قوله :

وَدَعْتُنِي بِزُورَةٍ وَاعْتَسَاقٍ
وَبَدَتْ لِي فَأَشْرَقَ الصِّبَحُ مِنْهَا
يَا سَقِيمَ الْجَفَونِ مِنْ غَيْرِ سَقِيمٍ
إِنْ يَوْمَ الْفَرَاقِ أَفْطَعَ يَوْمَ

ثَمَ نَادَتْ: مَنِ يَكُونُ التَّلَاقِ؟
بَكْلَ رَدِيبِي كَانَ سَنَاهُ
شَهَابٌ هَذَا فِي ظُلْمَةِ اللَّيلِ سَاطِعٌ
تَقَاصِرَتِ الْآجَالُ فِي طُولِ مَتَهٍ

وَذِي شَطَبَ تَقْضِيَ الْمَنَابِيَّاتِ حُكْمَهُ

يُسْلِلُ أَرْوَاحَ الْكَمَاءِ اِنْسَلَاهُ

وَقَالَ فِي وَصْفِ رَمْحِ وَسِيفٍ :

وَرَشا بِتَقْطِيعِ الْقُلُوبِ رَفِيقًا

دَرَا يَعُودُ مِنَ الْحَيَاةِ عَقِيقًا

أَبْصَرَتْ وَجْهَكَ فِي سَنَاهِ غَرِيقًا

مَا يَالِ قَلْبِكَ لَا يَكُونُ رَفِيقًا

يَا لَوْلَوْا يَسِي العَقُولَ أَبْيَقَا

مَا إِنْ رَأَيْتَ وَلَا سَمِعْتَ بِمَثْلِهِ

وَإِذَا نَظَرْتَ إِلَى مَحَاسِنِ وَجْهِهِ

يَا مِنْ تَقْطِيعِ خَصْرِهِ مِنْ رَقَّةٍ

وَآخِرُ شِعْرٍ نَظَمَهُ قَوْلَهُ :

بَلِيتْ وَأَبْلَتْنِي الْلَّيَالِي بِكَرْهِهَا

وَمَالِي لَا أَبْلَى لِسَبْعِينِ حَمَّةٍ

وَعَشَرَ أَنْتَ مِنْ بَعْدِهَا سَنَانٌ

وَلَسْتُ أَبْلَى مِنْ تِبَارِيعِ عَلَيِّيِّ

إِذَا كَانَ عَقْلِيَ باِقْيَا وَلِسَانِي

وَتَوْفَى أَبْنَ عبدِ رَبِّهِ بِالْفَالِجِ عَامَ ٣٢٨هـ، عَنْ ٨٢ عَامًا وَدُفِنَ فِي قَرْطَبَةِ.

وَقَدْ تَرَجمَ الشَّاعِرُ فِي الْعَزْءِ الْأَوَّلِ مِنَ الْعَدْدِ لِأَحْمَدَ بْنِ عبدِ رَبِّهِ

الْأَنْدَلُسِيِّ، وَلِأَحْمَدِ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عبدِ رَبِّهِ الْأَنْدَلُسِيِّ، وَلِسَعِيدِ بْنِ أَحْمَدِ

ابْنِ عبدِ رَبِّهِ الْأَنْدَلُسِيِّ وَلِعَيْسَى بْنِ فَرَنَاسِ، وَلِمُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ الرَّيْدِيِّ

الْأَنْدَلُسِيِّ التَّحْوِيِّ الْلَّغْوِيِّ وَلَابْنِ دَرَاجِ الْأَنْدَلُسِيِّ^(١) :

(١) يَقُولُ فِيَهُ التَّعَالَى: كَانَ بِالْأَنْدَلُسِ كَالْمَتَنِيُّ بِالشَّامِ، وَهُوَ أَحَدُ الصَّحْوَلِ وَكَانَ يَجِدُ
مَا يَنْظَمُ — ٢/٩٠ الْبِيَهَمَةَ.

التجيبي القرطبي :

هو الشيخ أبو عبدالله محمد بن أحمد بن خلف بن إبراهيم التجيبي القرطبي، (٤٥٨-٤٥٢٩هـ)، الشهير بابن الحاج، قاضي الجماعة بقرطبة. روى عن أبي جعفر أحمد بن زرق الفقيه، وثقة عنده، وقيد الغريب واللغة والأدب عن أبي مروان عبد الملك بن سراج، وسمع عن أبي عبدالله محمد بن فرج الفقيه، وعن أبي علي الغساني وغيرهم. وكان من جلة الفقهاء، وكبار العلماء، معدوداً في المحدثين والأدباء، بصيراً بالفتيا، رأساً في الشورى، وكانت الفتيا في وقته تدور عليه، لمعرفته وفقته ودياته، وكان معتمداً بالحديث والآثار، جائعاً لها، مقيداً لما أشكلاً من معانها، ضابطاً لأسماء رجالها ورواتها، ذاكراً للغريب والأنساب، واللغة والإعراب، ولعلها بمعان الأشعار، والسير والأخبار. قال ابن بشكوال : قيد العلم عمره كلها، وعني به عنابة كاملة ما أعلم أحداً في وقته عنى كعنائه، فرأيت عليه وسمعت، وأجازني بخطه؛ وكان له مجلس بالجامع بقرطبة، يسمع الناس فيه، وتقلد القضاء بقرطبة مرتين، وكان في ذاته ليناً صابراً، ظاهراً حليماً، متواضعاً، لم يحفظ له جور في قضية، ولا ميل بهوى، ولا إصقاء إلى عنابة، وكان كثير الخضوع والذكر لله تعالى، ولم يزل آخر عمره يتولى القضاء بقرطبة، إلى أن قُتل ظلماً بالمسجد الجامع بقرطبة، يوم الجمعة وهو ساجد، لأربع يقين من صفر، من سنة تسعة وعشرين وخمسماة. وكتابه في نوازل الأحكام من الدلائل على تقدمه في المعارف وبراعته.

أبو بكر بن العربي :

هو القاضي الشهير الحافظ الإمام أبو بكر محمد بن عبدالله بن عبدالله بن أحمد بن العربي المعافري الإشبيلي، (٤٦٨ - ٥٤٣ هـ)، رحل إلى المشرق مع أبيه يوم الأحد، مستهل شهر ربيع الأول، سنة خمس وثمانين وأربعين، فدخل الشام، ولقي بها أبو بكر محمد بن الوليد الطروشي، وتلقى عنته، ورحل إلى الحجاز في موسم ستة تسع وثمانين، ودخل بغداد مرتين، وصحب أبو بكر الشاشي، وأبا حامد الطوسي الغزالي، وغيرهما من العلماء والأدباء، فأخذ عنهم، ثم صدر عن بغداد، ولقي بمصر والإسكندرية جماعة، ثم عاد إلى الأندلس سنة ثلاث وستين، وقدم إلى إشبيلية بعلم كثير، لم يدخل به أحد قبله، ومن كان له رحلة إلى المشرق، ولذا نقل عنه أنه قال : كل من رحل لم يأت بمثل ما أتيت به أنا والقاضي أبو الوليد الباجي، ولم يرجل غربى وغير الباجي، وأما غيرنا فقد تعب.

وكان من أهل التفنن في العلوم، متقدماً في المعارف كلها، متكلماً في أنواعها، حريصاً على نشرها. واستقضى بمدينة إشبيلية، فقام بما قلد أحمد قيام، وكان من أهل الصراوة في الحق، والشدة والقوة على الظالمين، والرفق بالمساكين، ثم صرف عن القضاء، وأقبل على نشر العلم وبثه.

وتوفي رحمة الله بالعدوة، ودفن بمدينة فاس في ربيع الآخر، سنة ثلاث وأربعين وخمسة.

ومن يديع نظمه، رحمة الله :

أنتسي تؤنسني بالكما
تقول وفي نفسها حسرة
أتيكي بعين تراني بها
فقلت إذا استحسنت غيركم
أمرت جفوني بتعذيبها

وقد وصفه ابن خاقان في «المطمح» فقال : علم الأعلام، الظاهر الأنوار الباهر الألياب، الذي أنسى ذكاء إيساس^(١)، وترك التقليد للقياس، وأنتج الفرع من الأصل؛ وغدا في يد الإسلام أمضى من النصل، سقى الله به الأندلس، بعد ما أجدبت من المعارف، ومد عليها منه الظل الوارف، فكساها رونق نبله، وسقاها ريق وبله، وكان أبوه أبو محمد بإشبيلية بدرأ في فلكها، وصدرأ في مجلس ملوكها، واصطفاه محمد بنى عباد، اصطفاه المأمون لابن أبي داود، ولد الولايات الشريقة، وبواه المراتب المنية، فلما أقررت حمص^(٢) من ملكهم وخلت، وألقتهم منها وتخلت، رحل به إلى المشرق، وحل فيه محل الخائف الفرق، فجال في أكتافه، وأجال قداح الرجاء في استقبال العز واستئافه، فلم يسترد ذاهباً، ولم يوجد كمعتمده باذلاً واهباً، فعاد إلى الرواية والسماع، وما استفاد من إجلالة تلك الأطعما، وأبو بكر إذ ذاك في ثرى الذكاء قضيب ما دوج، وفي روض الشباب زهر ما صوح، فألزمته مجالس العلم رائحاً وغادياً، ولازمه ساققاً إليها وحادياً، حتى استقرت به مجالسه، واطردت له مقاييسه، فجد في طلبه، واستجد به أبوه منخرق أربه، ثم أدركه حمامه، ووارته (هناك) رجامه، وبقي أبو بكر منفردأ، ولطلب متجرداً، حتى أصبح في العلم وحيداً، ولم تجد عنه الرياسة مجيداً، فكر إلى الأندلس، فحلها والنقوس إليه متطلعة، ولأنباءه متسمعة، فناهيك من حظوة لقى، ومن عزة سقى، ومن رغبة سما إليها ورقى، وحسبيك من مفاخر قلدها، ومن محاسن (أنس) أثبتها فيها وخلدها. وقد أثبتت من بديع نظمه ما يهر أعطاها، وترده الأوهام نطاها، فمن

(١) هو نواس بن معاوية قاضي البصرة لغير بن عبد العزيز، المعروف بالركانة والفقه، وتوفي عام ١٤٩ هـ.

(٢) المراد بها : إشبيلية من مدن الأندلس، سكن بها أهل حمص الشام عند الفتح، فسموها بها.

ذلك قوله يتلوك إلى بغداد، ويحاطب أهل الوداد :

أمنتك سرى الليل يخدع بالفجر خيال حبيب قد حوى قصب الفخر
جلا ظلم الظلماء مشرق نوره ولم يخطط الظلماء بالأئم الزهر
ولم يرض بالأرض البسيطة مسحبا فصار على الجوزا إلى ذلك يجري
وحيث مطايها قد مطاعها بعزم فصارت ثقلاً بالجلالة فوقها
وجرت على ذيل المجرة ذيلها ومررت على الجرباء توضع فوقها
واسفت أربع الخلد من جنة العلي فما حذرت قيساً ولا عجل عامر
سقى الله مصراء والعراق وأهلها وبغداد والشامين منهمل القطر

ومن تأليف الإمام أبي بكر بن العربي المذكور : كتاب « القبس »
في شرح موطأ مالك بن أنس »، وكتاب « ترتيب المسالك »، في شرح
موطأ مالك »، وكتاب « أنوار الفجر » (في تسعين سفراً)، وكتاب
« أحكام القرآن »، وكتاب « مراتي الرزف »، وكتاب « الخلافيات »،
وكتاب « نواهي النواهي »، وكتاب « سراج المهديين »، وكتاب
« المشكليين » : مشكل القرآن والسنة، وكتاب « الناسخ والناسخ في
القرآن »، وكتاب « قانون التأويل » وكتاب « التبرير، في الصحيحين »
وكتاب « سراج المهديين »، وكتاب « الأمد الأقصى، بأسماء الله الحسنى
وصفاته العليا »، وكتاب في الكلام على « مشكل حديث السبحات
والحجاج »، وكتاب « العقد الكبير، للقلب الأصغر »، و « تبيين
الصحيح، في تعين الذبيح »، و « تفصيل التفضيل ».

البطليوسى :

من أعلام الأندلس ابن السيد البطليوسى وهو الفقيه الحافظ، الإمام، أبو محمد : هو عبدالله بن محمد بن السيد البطليوسى، وشلبي بضمها، ومنها كانت حركة أبيه ونهايته؛ وفيها كان قراهم، ومنها تم آسهم وعراهم؛ وتنسب إلى بطليوس، لموالده بها؛ ومن حيث كان فقد طبق الأرض علماء، وملأها ذكاء وفهمًا. قال فيه الفتح بن خاقان^(١) في المطعم : لو أن للأيام ألسناً ناطقة، وأوصافاً متناسقة؛ تردد فنون بيانها، كالطير ترجع على أفنانها ما جرت إلى إنصافه، ولا درت بعض أوصافه؛ ولو أني أمددت بيان سحبان وأيدت تأيد لسان حسان، وأغارني ابن صوحان^(٢) الصصاحة، وعلمني خالد بن صفوان^(٣) إيضاحه، لما أغربت عن مقداره الرفيع، ولا أغربت بما أتحو له من التعظيم والترفع؛ فكيف بلسان (قد) فل غراره، وبنان قد ذوى زند وعراوه؛ وخاطر قد ارتمى في لجمع الأخطمار، ووخر بأطراف القنا الخطارة؛ فما تذر له عصى إحسانه، ولا تحل التواب عقدة من لسانه، فحسبي أن أقتصر من وصفه على لمحه، وأعطر من عرقه بفتحه، فأقول : إنه ضارب قداع العلوم ومجيلها، وغرة أيامنا البهيمة وتحجيلها، لو أدركه فيس لما قضى للحلم وتراً ولا شفعاً، ولو عاصره ابن العاص لما ادعى ضراً ولا نفعاً، حلب الدهر أشطره، وتلا حروفه وأسطره، وخدم الرياسات، وعلم طرق السياسات، ونفق وكسد، ووقف وتوسد، وهو اليوم شيخ المعارف وإمامها، ومن في يديه مقودها وزمامها، لديه تشد

(١) يريد مصطفى بن صوحان من أصحاب علي بن أبي طالب، وكان من خطيب النّاس.
(٢) انظر المعارف لأنّ قيبة.

(٣) خالد بن صفون بن عبدالله بن الأحثم المنقري التميمي المصري كان لسانه بياً خطيراً، عاش إلى قيام دولة بني العباس. (أنظر المعارف).

ضوال الأعراب، وتوجد شوارد اللغات والإعراب، إلى مقطع دمث، ومنزع في النقاية غير مت不克، وندى حرق به الموائد، وأورق عوده في يد الرائد، وعفاف كف، حتى عن الطيف، وحكي المحربين بالخيف، ولقد نزلت منه بالتفي الظاهر، ولقيت منه ما لقي عوف بن محلم من ابن طاهر^(١)، ورأيت نار مكارمه تتألق، وبت كأنما على النار الندى والمحلق، وله تحقق بالعلوم الحديثة والقديمة، وتصرف في طرقها المستقيمة، ما خرج بمعرقها عن مضمار شرع، ولا نكب عن أصل للسنة ولا فرع. وتواлиقه في الشروحات وغيرها صنوف، وهي اليوم في آذان الأيام شنوف. فعنها «المقتبس»، في شرح موطاً بن أنس^(٢)، و«الاقضاب»، في شرح أدب الكتاب^(٣). وكتاب «التبيه على السبب الموجب لاختلاف العلماء»، في اعتقاداتهم وأرائهم، وسائل أغراضهم وأنحائهم^(٤)، وغير ذلك مما يشتمل عليه هذا الموضوع وبخفيه، ويوقف على تفسيره فيه. وقد أثبتت من محاسنه التي تدور جريلاً، ما ينشي ويسكر، ويحمده الوسمى المبكر.

فمن ذلك أنه حضر مع القادر بالله بن ذي النون بمجلس التاعورة بعلويطة في المبة المتأهنة الباهء والإشراق، والمباهية لزوراء العراق؛ التي ينفع شذاها العطر، ويکاد من الغضارة يمطر، والقادر بالله رحمة الله قد التحف الوقار وارتداءه، وحكم العقار في جوده ونداه؛ والمجلس يشرق كالشمس في العمل، ومن حواه يتنهج كالنفس عند منال الأمل؛ والزهر العبق، وعلى ماء النهر مصطبخ ومتنق؛ والدولاب يهن كناقة إثر حوار، أو كنكلي من حر الأوار؛ والجو قد عبرته أنواوه، والروض قد بلته أنداؤه؛ والأسد قد فقرت أنفواهها، ومجت أمواهها؛ فقال —
يصف الحال :

(١) يشير إلى منزلة عوف بن محلم الشيباني عند عبدالله بن طاهر بن الحسين وإلى عراسان للمؤمن، وكان من المختصين به، المقربين إليه.

يا منظراً إن رمقت بهجته
ترى مسك وجو عنبرة
والماء كاللازورد قد نظمت
كأنما جائل العباب به
يلعب في حافيه بالبرد
تراه يزهى إذا يحيل به الـ
تخاله إن بدا به قمراً
كأنما أليس حدائقه
يلاعب في عزه مضاعفة
لـ زال في عزه مضاعفة

وله يصف فرساً، وهو ما أبدع في التمثيل له والتشبيه، وبه خاطره
فيه احسن تبیه، وخلع عليه شیات لاحق والوجه، وعمه بالمحاسن
وتوج، ونسبه إلى الخطأر وأعوج^(١) :

وأقب من آل الوجه ولاحق قيد العيون وغاية المتمثل
ملك التواظر والقلوب بحسنه
فمني ترق العين فيه تسهل
ذو منخر رحب وزور ضيق
وسمواه خصب وأرض محل
قصرت له تسع وطالت أربع
وترواه أحياناً لعزة نفسه
يرنو بلا قبل — بعين الأقليل
وكأنما سال الظلام بمعنه
وبدا الصباح بوجهه المتهلل
وكأن راكبه على ظهر الصبا

ودعى ليلة إلى مجلس قد احتشد فيه الأئس والطرب، وقع السرور
نبعه بالغرب؛ ولاحت نجوم أكواسه، وفاح نسيم رنده واسه؛ وأبدت
صدور أباريقه أسرارها، وضمت عليه المجالس أزرارها؛ والراح يديرها
أهيف وأوطف، والأمانى تجنى وتنطفف، فقال :

(١) لاحق، والوجه، والخطأر، وأعوج : أفراس مشهورة عند العرب بالعنق والكرم.

يا رب ليل قد هتك حجابه
 يسمى بها أحوى الجفون كأنها
 بدران : بدر قد أمنت غروبه
 فإذا نعمت برشق بدر غارب
 حتى ترى زهر النجوم كأنها
 والليل منخفر يطير غرايه
 وقال يمدح بعض الأعيان، وهي قصيدة اشتغلت على البلاعه :
 لما بان مني ما تجن الأضالع
 وهاجت لي الشوق الديار البلاع
 تلظى الحشا وارغض مني المدامع
 أم العزن في جفني باللودق هامع
 وفي الخد من ماء الشفون مرابع
 هو الدر أو بدر الدجى منه طالع
 وإن لاح يوما فالجيوب مطالع
 بخدمه من فتك الجفون وقائع
 سهم غدا من مهجتي وهو وادع
 ولكنه ما حم لا بد واقع
 إلى قلبه من قسوة الهمجر شافع
 فحاكت لمى الأحباب منه الطابع
 سجاياه أيام السرور الرواجع
 تنافسها زهر النجوم الطوالع
 ينير فعشى البارقات اللواسع
 فيصدق ظن أو يكذب طامع
 فتجده نحو الملوك المطامع
 يجادبني فيه الهوى وينازع
 تيدت لها فوق اللسان طالع

آرْعَم^(١) فِي نُظُم الْبَدِيع وَلَم يَرِزِّ
 لَكَ السِّبْق فِيهِ وَالوَرَى لَكَ تَابِعٌ
 وَأَيْ مَقَالٍ لَى وَقُولُك سَائِرٌ
 وَأَيْ بَدِيعٍ لَى وَمِنْكَ الْبَدَائِعُ
 وَقَالَ يَغْزِلُ، وَتَصْرِفُ فِيهِ تَصْرِفَ غِيلَانَ مِنِّي،
 وَوَصَفَ كُلَّ حَوَاءَ
 وَحِيٌّ، وَذَكَرَ الْعُشْقَ، وَارْتَادَ الْإِبْدَاعَ، حَتَّى عَدَا بِهِ مَصْرَهُ، فَأَجَادَ مَعَانِيهِ:
 تَأْوِيهٌ مِنْ هَمِّهِ مَا تَأْوِيَا
 قَبَاتٌ عَلَى جَمْرِ الْأَسْيِيِّ مِنْقَلِيَا
 مَرَتْ مِنْ عَيْنِهِ غَدَةٌ تَحْمِلُوا
 عَوَاصِفَ رِيحَ الشَّوْقِ حَتَّى تَصْبِيَا
 دَمْوعَ هَتَّكَنَ السُّترَ عَنْ مَضْمُرِ الْجَوَى
 خَلِيلِي مَالِيٌّ كَلِمَا لَاحَ بَارِقٌ
 أَوْنَسَ بِالثَّانِيَنْ نُومًا مُشَرِّدًا
 وَمِنْ لَيْ بَرَدَ الْخَلِ إِذْ جَدَتِ النَّوَى
 أَفِي كُلِّ حِينٍ أَمْتَرِي غَرْبَ مَقْلَةِ
 إِذَا عَنْ لَيْ طَبِي بِوْجَرَةِ شَادِنَ
 تَذَكَّرَتْ مِنْ عَيْنِ الْفَؤَادِ وَعَذِيَا
 وَتَتَنَاهِي عَنَانِي لِلصَّبَا نَفْحَةُ الصَّبَا
 لِأَمْرِعِ خَدِي بِالدَّمْوعِ وَأَعْشَيَا
 إِلَى مَصْرُوعِي طَوْعًا وَقَدْ كَتَتْ مَعْصِيَا^(٢)
 بَعْدَ رِضَابِ مِنْ حَمْيِ التَّغْرِي أَشْبَيَا
 وَخَدَ أَلَقَى دُونَ شَمَ رِيَاضَهُ
 يَجِدُ نَشَاطًا فِي ذَرِيِّ الْأَفْقِ أَهْدَيَا
 حَسْبَ الظَّلَامِ آتَوْسَا مَذْهَبَا
 تَرَدِينَ وَشِيَ الْعَقْرَبِيِّ الْمَخْلَبَا^(٣)
 كَانَ الشَّقِيقُ الْعَضُّ وَالْفَجْرُ سَاطِعٌ
 خَدُودَ زَهَاهَا الْحَسْنَ أَنْ تَتَقَبَّا

(١) يَقَالُ زَعْمٌ بِزَعْمٍ (مِنْ بَابِ شَرْفٍ): يَعْنِي سَادٌ وَرَأْسٌ.

(٢) يَقَالُ: أَغْرِبُ النَّاسِيَ: إِذْ أَكْبَرَ الْفَرْبَ، أَيْ الْمَلِ، وَأَغْرِبُ الْحَوْضَ وَالْإِنَاءَ: مَلَأْهُمَا.

(٣) الْمَعْصِبُ مِنْ (الْإِبْلِ): الْمَحْلُ الذِّي لَا يَقْنَدُ.

(٤) الْمَخْلَبُ (كَمْعَطَمٌ): الْكَبِيرُ الْوَشِيُّ.

تمتع بريungan الشباب وظله فلا بد يوماً أن يبینا ويذهبنا
فما العيش إلا أن تروح وتغتدي محباً براه سمه أو محباً
وكتب إلى الكاتب أبي الحسن راشد يستدعه إلى مجلس قد لاحت
شموس مدا، وارتاحت نفوس ندامه :

عندی مشکود^(١) من الخمر عبق
فيه مني مصطبخ ومتبتق
يحكى شذا المسك إذا المسك فرق
كأنه من خلقك الحلو خلق
كأنما كوسه تحت الغسق
في راحة الساقي نجوم تائلق
تحالا وهي تلطي كالحرق
أحشاء صب ملئت من الحرق
ترى لدى المزج إذا الماء اندفق
فها حباباً لاح كالدر السق
وأنت أنسى والمفدى بالحدق
فاطلع طلوع القمر التم انسق
في يومنا هذا إذا دجي الغي غسق
وما جداً قد حاز في السبق السبق
للله معنى طابق اسمأ لك حق
تواافقاً فيك إذا الإسم اتفق

وقال في الزهد وهو غرض قد أكثر القول فيه، وذلك مما يدل
على ورعه، وصفاء منهله في التقى ومشرعيه :
إلهي إني شاكر لك حامد وإنني لساع في رضاك وجاهد

(١) في الأصول : « مسکود » ولا معنی له، ونظمه محرفاً عما أثبتناه. والمشکود : المعنون.

وإنك مهما زلت النعل بالفتح
 تباعدت مجدًا وادنيت تعطفًا
 وما لي على شيء سواك معول
 أغيرك أدعوك لي إليها وحالقاً
 وقد أوضح البرهان أنك واحد
 وقدماً دعا قوم سواك فلم يقم
 على ذاك برهان ولا لاح شاهد
 وبالفلك الدوار قد ضل عشر
 وللنفلات السبع داع وساجد
 وكلهم عن منهجه الحق حائد
 وللعقل عباد وللنفس شيعة

 وقال يمده الطافر بن عبد الرحمن بن عبد الله بن ذي التون :
 لكم بعد التجنّب والهجر
 تدبّلون من بعد وتشفون من ضر
 فإن الذي غادرتم بين أضلعي
 يزيد على مر الزمان ويستشري
 رحلتم من الجهنّم القريب إلى الفكر
 ومنزلكم بين الجوانح والصدر
 كأن ضياء الصبح في الليل إذ سرى
 بصيرة إيمان سرت في عمي كفر
 كأن منها في الأفق ريعت وقد بدا
 لها ذنب السرحان من وضع الفجر
 كسا ورق الإاصح ذوبًا^(١) من التبر
 فجلّى ظلام النعيم في الجحفل المجر
 عجيت لأيام تداعت خطوبها
 ولن تدرّأني في حمى الطافر الرضا
 ثقلت جنابا منه مد ظلاله
 على وأعطاني أماناً من الدهر
 وإن حباب بكث فيه غمامٌ جوده
 فأضحكن روض المجد عن زهر الشكر
 وكُم نلت مذ أصبحت ألم كفه
 بيمناه من يمن ويسراه من يسر
 لدى ملك ما لاح ضوء جبيه
 وبجنح الدجى إلا كفى مطلع البدر

 وكتب مراجعاً إلى الوزير أبي محمد بن سفيان رجمه الله :
 يا سيدى الأعلى، وعمادي الأستى، ومشري الأصفى، ومن أadam

(١) في م : « ثواب ».

الله عزته، وحبي من التواب حوزته؛ وفاني لك كتاب سري الموضع،
مني الموقع، أطاف على إيجازه، وأطمع بعد إعجازه، وقابلت الرغبة
التي ضممتها فيه، بما تقتضيه جلالة مهديه؛ ولكن تراخي الكتاب، عن
حسن في ذلك العتاب؛ فإن المودة لم يقدح فيها من الملل قادح،
ولم يسْنَح لها من الخلل سانح، بل كانت كالبرد طوى على غرفة،
إلى أوان جلاله ونشره؛ وقد علم علام الضماير، والذي يظن غالباً
وهو حاضر، أنني أعتقدك القدر المعلى، وأصررت بك المثل الأعلى،
وأرى أنك تحجّيل واضح في دهمة الرمان، وعلق راجح في كفة
الامتحان، وبقية سُنْخٍ كريمٍ، ما عهدتم عنا بدميم :

عليهم سلام الله ما ذر شارق ورحمته ما شاء أن يترحما

وما أدعى لك جانباً من السيادة، إلا وذلك عليه أعدل الشهادة؛
ولكن قدِّمَ سفل ذو الرجحان، وعاد الكمال على أهل بالقصان،
وكبت الأعلى بارتفاع الأساقف، حتى اقضى ذلك قول القائل :
فواعجاً كم يدعى الفضل ناقص وواأسفاً كم يظهر النقص فاضل
وقال المنمر للاتجـين متى ذمرت قبلي الأرجل^(١)

وقد جاريتك - أعزك الله - في ميدان من البلاغة أنا فيه كمن
كثير البحر والمطر، وجلب التمر إلى هجر؛ والذي حداني إليه، أنه
مربي زمن، ألهي خاطري عنك فيه وسن، فقلت قد كان من العقوق،
ترك رعاية الحقوق؛ فلأستمطرن مزن القول، فقد كنت عهدهما تسجم
فتدفق، ولأستقين جایة الشیخ العرائی، فقد كانت تعظم فتفهق^(٢)،

(١) هنا البيت للكميـت. والمنمر : الذي يدخل يده في حيـاء الناقة ليـنظر أذاـكر جـنـيـها
أم أثـنـيـ. يقول : إن التـنـمـرـ إنـماـ هوـ فيـ الأـعـانـقـ لاـ فيـ الأـرـجـلـ.

(٢) الجـايـةـ : الحـوضـ، والـعـارـقـ إـذـاـ تـسـكـنـ مـنـ الـعـادـ مـلـاـ جـانـيـهـ لـأـنهـ حـضـرـيـ فـلاـ يـعـرـفـ
مـوـاـقـعـ الـماءـ وـلـاـ مـحـالـةـ. وـفـيـ الـعـيـارـ إـشـارـةـ إـلـىـ قولـ الأـعـشـيـ :

نـفيـ الدـمـ عـنـ رـهـطـ الـمـحلـنـ جـفـنـ كـجـايـةـ الشـيـخـ العـرـائـيـ تـفـهـقـ

أيام كنت أسبح ذيل الشباب، وأسلك مسلك الكتاب، ويعجني سلوك سهل الكلام وحزونه، والتصرف بين أيكاره وعونه، أستن استنان الطرف (الجامع)، ولا أثني عنان الطرف^(١) الطامع، وأروي هامتي، وأقول بما صبت على غمامتي، إلى أن تعمم مفرقي بالقبر^(٢)، وعلنتي أبهة الكبير؛ وودعت زمني الزائل، وعادت سهامي بين رث وناصل^(٣)؛ وعررت أفراس الصبا ورواحله^(٤)، وسدلت على سوى قصد السبيل معادله^(٥)؛ فلن هريق ماء الشباب، واستشن الأدم^(٦)، وأقشع السحاب، وتجلت النبوم، فلعل في الأفق رياه وفي الحوض صباه، وعسى أن يكون في أخلف المقالة در يرجع، وفي حفاق البلاغة در يرصع؛ ولأزفتها عذراء، لا ترضي إلا الأكفاء، فليس بين التجد إلا في مازق الهيجاء، ولا يحسن العقد إلا في عنق الحسناء؛ ولأجعلن الشعر لها شعاراً، وفقر التر لها دثاراً.

وقال يخاطب مكة أعزها الله :
أمكمة تفديك النفوس الكرام
ولا يرحت تنهل فيك الغائم
وكفت أكف السوء عنك وبلت منها قلوب كي ترك حوائمه

(١) التكملة عن القلائد.

(٢) القبر : رعوس مناصير حلق الدروع، شه بها الشيب إذا نتف في سواد الشعر.
(اللسان).

(٣) الناصل من الشهان : ما لا تصل له.

(٤) يشير إلى بيت زهير بن أبي سلمى :

صحا القلب عن سلمي وأقصى باطله وعرى أفراس الصبا ورواحله

(٥) معادل الطريق : مذاهبه ومسالكه . وهو من قول زهير :

وأقصرت عما تعلمك وسدلت على سوى قصد السبيل معادله

(٦) استشن الأدم : بيس وتشنج . وجلد الإنسان : تغضن عند الهرم . وهو من قول أبي حية التميري : هريق شبابي واستشن أدمي .

لعرته ذل الملوك الأعظم
 وشادتك أيد برة ومعاصم
 تناول به الرلني وتحمى المائمه
 وفيك مقامان : الهدى والمعالم
 لهم أولاً في فضله وهو خاتم
 كما يلثم اليمني من الملك لاثم
 ضحى قدم برهانها متقادم
 قطوف من الفج العميق وراسم
 ولم يعها إلا ذكي وعالمن
 فلم تنهض مني إليك العرائم
 إذا ما دعت الله فيك الغمام
 خطى فيك لي أو ي العملات رواسم
 ومن زمزم يروي بها النفس حاتم
 إذا بذلك للناس فيك المقاس
 فحطت به عنك الخطايا العظام
 وقد أمنت فيك المها والحمائم
 فإن هوى نفسي عليك لدائم
 عليك فإني بالرؤاد لقادم
 بكتبتك العليا وما قام قايس
 إليك فمهديها الرياح التواسم
 ونفسي فما منها سوى الله عاصم
 لعلي به من كبة النار سالم

فإنك بيت الله والحرم الذي
 وقد رفعت منه القواعد بالتقى
 وساويت في القضل المقام كلاكم
 ومن أين تمدوك الفضائل كلها
 نبي حوى فضل النبيين وأغندى
 وفيك يمين الله يلثها السورى
 وفي لإبراهيم إذ وطئ الشرى
 دعا دعوة فوق الصفا فأجابه
 فأعجب بدعوى لم تلح مسمعي فنى
 ألهى لأقدار عدت عنك همتى
 فيما ليت شعري هل أرى فيك داعيا
 وهل تحبون عنى خطايا اقرافها
 وهل لي من سقرا حجيجل شربة
 وهل لي في أجر العليني مقسم
 وكم زار مغناك معظم مجرم
 ومن أين لا يضحى مرحيك آمنا
 لعن فاتني منه الذي أنا رائى
 وإن يحمني حامي المقادير مقدما
 عليك سلام الله ما طاف طائف
 إذا نسم لم تهد عنى تحية
 أعوذ بمن أسنانك من شر خلقه
 وأهدي صلاتي والسلام لأحمد

ابن الأبار :

ومن أعلام الأندلسين أبو عبدالله بن الأبار من مشيخة أهل بلنسية، وكان علامة في الحديث ولسان العرب، وبليناً في الترسيل والشعر، وكتب عن السيد أبي عبدالله بن حفص بن عبد المؤمن بلنسية، ثم عن ابنه السيد أبي زيد، ثم دخل معه الحرب حين نزح إلى دين النصرانية، ورجع عنه قبل أن يأخذ به، ثم كتب عن ابن مرديش. ولما زحف الطاغية إلى بلنسية ونازلها، بعث زيان بوفد بلنسية وبيعتهم، إلى الأمير أبي زكرياء، وكان فهم ابن الأبار هنا الحافظ، فحضر السلطان، وأنشد قصيده على روي السن يتصدرخه، فنادر السلطان بإغاثتهم، وشحن الأساطيل بالعدم إليهم، من المال والأقوات والكسا، فوجدهم في عشرة الحصار، إلى أن تغلب الطاغية على بلنسية، ورجع ابن الأبار بأهله إلى تونس، غبطه بإقبال السلطان عليه، فنزل منه بخير مكان، ورشحه لكتب علامته في صدور رسائله ومكتوباته، فكتبها مدة، ثم إن السلطان أراد صرفها لأبي العباس الغساني، لما كان يحسن كتابتها بالخط المشرقي، وكان آثر عنده من الخط المغربي؛ فسخط ابن الأبار، أتفة من إشار غيره عليه، وافتات على السلطان في وضعها في كتاب أمر بإنشائه، لقصور الترسيل يومئذ في الحضرة عليه، وأن يبقى مكان العالمة منه لوضعها. فجاهر بالرد، ووضعها استبداداً وأتفة، وعوب على ذلك، فاستشاط غضاً، ورمى بالقلم، وأنشد متطللاً :

أطلب العز في لطفي وذر الذل ولو كان في جنان الخلود

فني ذلك إلى السلطان، فأمر بلزمته بيته، ثم استعنت السلطان بتأليف رفعه إليه، عد فيه من عوتب من الكتاب وأتعبه، وسماه إعتاب الكتاب، واستشفع فيه بابنه المستنصر بالله، فقرر السلطان له، وأقال عترته، وأعاده إلى الكتابة. ولما هلك الأمير أبو زكرياء رفعه المستنصر إلى حضور

مجلسه، مع الطبقة الذين كانوا يحضرونها من أهل الأندلس (وأهل تونس). وكان في ابن الأبار أنفة وبأو^(١) وضيق خلق، وكان يزري على المستنصر في مباحثه، ويستقرر مداركه، فخشى له صدره، مع ما كان يخطط به السلطان، من تفضيل الأندلس وولاتها عليها.

وكانت لابن أبي الحسين فيه سعاية، لحقد قديم، سببه أن ابن الأبار لما قدم في الأسطول من بلنسية، نزل بيتررت وخطب ابن أبي الحسين بفرض رسالته، ووصف أباه في عنوان مكتوب بالمرحوم، وبه على ذلك فاستضحك، وقال : إن أبا لا تعرف حياته من موته لأب حامل، ونفيت إلى ابن أبي الحسين، فأسرها في نفسه، ونصب لها، إلى أن حمل السلطان على إشخاصه إلى بجاية، ثم رضي عنه واستقدمه، ورجمه إلى مكانه من المجلس، وعاد هو إلى مسامة السلطان ببرعاته، إلى أن جرى في بعض الأيام ذكر مولد الواثق، وسائل عنده السلطان بعض من حضره فاستفهم، فندا عليه ابن الأبار بتاريخ الولادة وطالعها، فانهم بتحقق المكروه للدولة والtribus بها، كما كان أعداؤه يشعون عنه، بما كان ينظر في التنجوم، فتفقىض عليه، وبعث السلطان إلى داره، فرفعت إليه كتبه أجمع، وألقي في أثاثها — فيما زعموا — رقعة أبيات أولها :

طغا بتونس خلف سموه ظلما خليقه

فاستشاط لها السلطان، وأمر بامتحانه ثم بقتله، فقتل قصاصاً بالرماح وسط محرم من ستة ثمان وخمسين، يعني وستمائة. ثم أحرق شلوه، وسيقت مجلدات كتبه، وأوراق سماعه ودواوينه، فأحرقت معه.

وله يستصرخ أبا زكريا الحفصي لنجد الأندلس :
أدرك بخيلك خيل الله أندلسـ إن السبيل إلى مجدها درساـ

(١) البأو : الكبر.

فلم يزل منك عن النصر ملتمسا
 فطالما ذاقت البلوى صباح مسا
 للحدائق وأمسى جدها نعسا
 يعود مأتمها عند العدا عرسا
 ثثي الأمان حذاراً والسرور أما
 ولا عقائلها المحجوبة الأنسا
 ما ينسف نفس أو ما يتزلف الفسا
 جذلان وارتحل الإيمان مبتسما
 يستوحش الطرف منها ضعف ما أنسا
 ومن كنائس كانت قبلها كنسا
 وللنداء غداً أثناءها جرساً
 مدارساً لل الثنائي أصبحت درساً
 ما شفت من خلع موشية وكسا
 فصوح النصر من أدواهها وكسا
 يستجلس الركب أو يسترك الجلسا
 عيت الدبا في مقانيها التي كبسا
 تعيف الأسد الصاري لما افترسا
 وأين^(١) غصن جينيه بها نعسا
 ما نام عن هضمها حيناً ولا نعسا
 فغادر الشم من أعلامها خسا
 إدراك ما لم تطأ رجلاه مختلسا
 ولو رأى رأة التوحيد ما نيسا
 أيقى المراس لها حيلاً ولا مرسا
 أحبت من دعوة المهدى مقتضا

وهب لها من عزيز النصر ما التعمست
 ووحاش مما تعانبه حشاشتها
 يا للجزيرة أضحي أهلها جزراً
 في كل شارقة إلمام بالثقة
 وكل غاربة إجحاف نائية
 تقاسم الروم لا نالت مقاسهم
 وفي بلسمة منها وقرطبة
 مدائن حلها الإشراك مبتسما
 وصبرتها العوادي العابثات بها
 فمن دسакر كانت دونها حرباً
 يا للمساجد عادت للعدا بعما
 لهفي عليها إلى استرجاع فاقتها
 وأربعاً تمنمت أيدي الربيع لها
 وكانت حدائق للأحداق مونقة
 وحال ما حولها من منظر عجب
 سرعان ما عاث جيش الكفر واحربا
 وانتز برتها مما تحيفها
 فأين عيش جينيه بها خضرأ
 حمي محاسنها طاغ أتيح لها
 ورج أرجاءها لما أحاط بها
 خلا له الجو فامتدت يدها إلى
 وأكثر الرعم بالتلبيث منفرداً
 صل حيلها أيها المولى الرحيم فما
 وأخي ما طمست منها العدة كما

(١) في ط : «فأني عيش... واني».

وَيْتَ مِنْ نُورٍ ذَاكَ الْهَدِيَّ مُقْبِسًا
كَالصَّارِمِ اهْتَرَأَ كَالْمَعَارِضِ ابْجِسَا
وَالصَّبَحُ مَاحِيَّةً أَنْوَارَهُ الْغَلِسَا
يَوْمَ الْوَغْيِ جَهَرَةً لَا تَرَبَّ الْخَلِسَا
وَأَنْتَ أَفْضَلُ مَرْجُوَ لِمَنْ يَسَا
مِنْكَ الْأَمْرِ الرَّضَا وَالْسَّيْدُ النَّدْسَا
عَبَابَهُ فَعَانِيَ الْلَّمِينَ وَالشَّرِسَا
كَمَا طَلَبْتَ بِأَفْصَنِ شَدَّهُ الْفَرِسَا
حَفْصُ مَقْبِلَةَ مِنْ تَرِبَهُ الْقَدْسَا
دِينَا وَدِنِيَا فَعَشَاهَا الرَّضَا لِيَسَا
وَكُلَّ صَادَ إِلَى نَعْمَاهُ مُلْتَمِسَا
وَلَوْ دَعَا أَفْقَا لَيَّ وَمَا احْبَسَا
مَا جَالَ فِي خَلْدِ يَوْمَا وَلَا هَجَسَا
وَدُولَةُ عَرَبَا يَسْتَصْبِحُ الْقَعْسَا
وَيَطْلُعُ الْلَّيْلُ مِنْ ظَلَمَائِهِ لَعْسَا
طَلْقُ الْمَحْيَا وَوَجْهُ الدَّهْرِ قَدْ عَبِسَا
تَحْفَ مِنْ حَوْلَهُ شَهَبُ الْقَنَا حَرْسَا
وَعْرَفَ مَعْرُوفَهُ وَأَسَى الْوَرَى وَأَسَا
وَأَنْشَرَتْ مِنْ وَجْهِ الْجَوْدِ مَا رَمَسَا
مَا قَامَ إِلَى إِلَى حَسْنِي وَلَا جَلَسَا
فَمَا يَبْلِي طَرْوَقُ الْحَطْبِ مُلْتَسَا
فِي الْلَّيْلِ مُفْتَرِسًا وَالْغَيْثُ مُرْتَجِسَا
حَيَا لَقَاحًا^(١) إِذَا وَفِتَهُ يَخْسَا
وَرَبُّ أَشْوَسْ لَا تَلْقَى لَهُ شَوْسَا

أَيَّامَ سَرَتْ لِصَرِّ الْحَقِّ مُسْتَبِقَا
وَقَمَتْ فِيهَا بِأَمْرِ اللَّهِ مُنْتَصِرَا
تَمْحُو الَّذِي كَتَبَ التَّجَسِيمَ مِنْ ظُلْمِهِ
وَتَقْضِي الْمُكْلِمُ الْجَهَارَ مِهْجِهِ
هَذِي رَسَالَاهَا تَدْعُوكَ مِنْ كِتَبِهِ
وَاقْتَنَكَ جَارِيَةً بِالنَّجْعِ رَاجِيَةً
خَاضَتْ حَضَارَةً يَعْلَمُهَا وَيَخْفَضُهَا
وَرِبِّيَا سَبَحَتْ وَالرَّبِيعُ عَاتِيَةً
تَتَّمَّ يَحْيَى بْنُ عَبْدِ الْوَاحِدِ بْنُ أَبِي
مُلْكٍ تَقْلِدَتْ الْأَمْلَاكَ طَاعِنَهُ
مِنْ كُلِّ عَادٍ عَلَى يَعْنَاهُ مُسْتَلِمَا
مُؤْيِدٌ لَوْ رَمَى نَجْمًا لِأَبِيهِ
تَائِلٌ إِنَّ الَّذِي تَرْجِي السَّعْدُ لَهُ
إِمَارَةً بِحَصْلِ الْمَقْدَارِ رَايَهَا
بِيَدِي النَّهَارِ بِهَا مِنْ ضَوْهَهُ شَتِّيَّا
مَاضِيَ الْغَزِيمَةِ وَالْأَيَّامِ قَدْ نَكَلَتْ
كَأَنَّهُ الْبَدْرُ وَالْعَلَيَاءُ هَالَّهُ
تَدْبِيرَهُ وَسَعَ الدُّنْيَا وَمَا وَسَعَتْ
قَامَتْ عَلَى الْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ دُولَهُ
مِسَارُكَ هَدِيهِ بِإِدَادِ سَكِينَهُ
قَدْ نُورَ اللَّهُ بِالْتَّقْوَى بَصِيرَتَهُ
بِرَى الْعَصَمَةِ وَرَاشَ الطَّائِعِينَ فَقُلَّ
وَلَمْ يَغَدِرْ عَلَى سَهْلٍ وَلَا جَبَلٍ
فَرَبُّ أَصِيدَ لَا تَلْفِي بِهِ صَيْدًا

(١) حَيَا لَقَاحًا : لَمْ يَدِينُوا لِلْمُلُوكَ، وَلَمْ يَمْلِكُوكُوا، وَلَمْ يَصْبِهِمْ سَيِّدٌ.

في نبعة أثerton للمجده ما غرسا
 وصان صيقه أن تقرب الدنسا
 أغز من خطبه ما سما ورسا
 إليه محياه أن البيع ما وكسا
 عصاه محترما بالعدل محترسا
 وبات يوقد من أضوالها قبسا
 آماله ومن العذب المعين حسا
 من البحار طريقاً نحوه يسا
 من صفحة فاض منها النور وانعكسا
 من راحة غاض فيها البحر وانغمسا
 عليه توسيع أعداء الهدى تعا
 يحي بقتل ملوك الصفر أندلسيا
 ولا طهارة ما لم تغسل النجسا
 عيونهم أدمعاً تهمي زكا وخشوا
 داء وما لم تباشر حسمه انتكسا
 جرداً سلاhib أو خطبة دعوا
 لعل يوم الأعدادي قد أتى وعسى
 ومن بديع ثراه رحمه الله رسالته الحافلة، التي كتب بها للمتصدر،
 وهي الرسالة الغريبة مساقاً، المتلائمة نظماً واتساقاً، التي لم يتسع على
 متواهها، ولم يأت أحد بمثالها؛ يصف وصول الماء إلى تونس، ويشير
 في ذلك إلى إشارات عجيبة، تدل على أن قريحته الوقادة لداعي الإجابة
 مجيبة؛ وهي :

الحمد لله حمداً لا نقلله. هذا الزمان الذي كنا نؤمله، « بلدة طيبة
 ورب غفور »، ودولة مباركة لمحاسنها سفور إلى أبي حفص آلاء

(١) الركا، الروج، الخسا : الغرد.

فهل جالت النجوم حيث جالوا، أو نالت الملوك بعض ما نالوا، ملك يشتمل بالإقبال، وعز يقلل الأجلال، وكرم صريح الاتساع، في النساء، وشرف سمت ذوالبه على السماء، إلى عدل وإحسان، هما قوام نوع الإنسان، مع رفق وإسحاح، ضمناً كل فوز ونجاح، فقد آضت الظلماء أنواراً، وفاضت البركات أنجاداً وأغواراً، أليس العام ربنا، والعالم جميعاً، والسعود طالعه، والعصور طائمه، مصالح الأعمال تحليها، وعلى منصات الكمال تجليها؟ فمن ذا أنها المولى يجاريك إلى مدي، أو يياريك في إقدام صادق وندي، وأياتك للأبصار هدى، وحياتك للكفار ردى، بسيرتك عدل الدهر وما جار، ولو لا نور غرتك ما أنار، لقد حست بك الأوقاف، حتى كأنك في قم الزمن ابتسام أعرقت في المجد والعلاء، وعنيت بالدين فنت لك الدين، أي عنيد أو عميد ما ألقى باليد، واتقى في اليوم عاقبة الغدر، إصقاقاً على التعوض بصفحك وإسعادك، وإشقاقاً من التعرض لصفحك وصعادك، تعمر بالحسنات آناءك، وتتبع في القربات آباءك، ياياناً كما بنوا، بل زائداً على ما أنوا، وبadianاً من حيث انتهوا: أناس من التوحيد صيغت. نقوسهم فزورهم تر التوحيد شخصاً مركباً ومن ساكنيات العزن فيض أكفهم فردهم ترى ماء الفمام وأعذبها أمجاد أجواد، في الحياة بحار وفي الحياة أطوااد، تقليل أبو زكرياء نهج أبي محمد، وأيضاً جميعاً بأبي حفص المؤيد: نسب كان عليه من شمس الضحى نوراً ومن فلق الصباح عموداً أولئك صفوة الأئمة، وحقيقة الأذنة، والقائمون دون الأئمة، في الحوادث المدلهمة، وهذه الدولة المحمدية، الخالدة بمكانها الدعوة المهدية؛ إليها انتهت المراشد، وعليها الفت المحامد، وبها اعتزت حين اعرضت العناصر والمحاتد، ومن خصائصها انفعال الوجود، ومن مراميها الإبثار بالوجود، والبلار إلى إغاثة الملهوف وإغاثة المنتجود، ما يرحت للخيرات إيتضاعها وخيبها، وبالصالحات غرامها وحبها. حتى

لقد فهمت أسرارها، وأودعت أنوارها، وكفت أو كفلت إفشاءها وإظهارها، يميناً أن يمتن الحق به طولي، وللآخرة خير لها من الأولى، بمولانا أيده الله عز مكانتها، وخلدت سيدة آثارها، شديدة أركانها، لا حرج أنه الظاهر كالملائكة الذي جلبه للطهارة، والظاهر ولاه ولواء في مسجد الخلافة ومقدمة الإمارة، بالسعادة الأبدية وجده وكفره، وما همه إلا تجاوز ما أسلقه سلفه، فجر من الأرض بنوعاً، وجدد للمجده رسوماً عافية وربوعاً، ساححة الحرم وهو زمزم قصاده ومحاجبه، وراحه البحر الخضم، غير طعمه وارتاججه، ما أظهره خلاة، وأبهره جلاة، «هكذا هكذا وإنما فلانا» غابت كثامة المعارك وشهد، ونامت ولاة المالك وشهد، فمتى قسطوا أقسط، وإذا غوروا أنيط، ولذلك ما أبطل عمله أعمالهم وأحبط، غلبهم على صفتى الندى والبايس، وسلبهم منقيتي حمزة والعباس.

فلا غرو أن من أمن ووقي، ثم لما كسا وأطعم سقى، آية نعمى وفت بالمعياد، وحسنى مثلها يعود للمعاد، وأنت بما معين قد أصبح غوراً، وملألت ما بين لابتها جناناً ترف ظلاً وترق نوراً، فما يشري لتونس أخصب جديها، وأحسن وصف الروض والغدير أديها، وطالما أطلعت صحراء بل بقضاء، فكم للإمارة قبلها من يد يبغضاء، غشيت حبر الحبور والسرور، وعوضت برد الظل من وهج الحرور، خمائل وجدائل، تزاول منها العين ما تزاول، تلك يضل من أحصاها، وهذه يصل بها حصاها، وبما لقصرها السعيد ! نعمت أدواحه، وهبت على خضر الأغصان وزرق الغدران أرواحه، هنا وإن بات السماح المقاض يسقيه، والجود الفضفاض ينقع قواده ويشفيه، وهنئاً للمسجد الجامع أن رويت جوانحه الصاديه، وجمعت في شرعيه السارية والقاديه، فها هو فجره بادي الغرر والأوضاح؛ وصخره منجس بالزلال القراب، وللمجھور بصفوه المتسباب، لهج الغياب بالإياب، وطرب الشيب لذكر

الشباب، أمسوا قد سوغوا مآربهم، وأضحوها قد علم كل أناس مشربهم،
فهم يردون على العذب التمير، ويجدون بركة رأي الأمير، مكرمة ذخرها
لسلطانة الزمان، وكرامة هنأها به الإيمان، وقضية إن حجت عن داود
فما حجب عنها سليمان :

جمعـت لـلنـاس بـين الرـى وـالـشـيعـ
فـهـم بـاخـصـب مـصـطـافـ وـمـرـبـعـ
تـضـيـفـ مـبـدـعاـ مـنـهـا لـمـبـدـعـ
عـلـيـهـمـ فـيـدـواـ فـيـ أـجـمـعـهـ
فـلـاـ فـضـيـلـةـ لـأـعـيـادـ وـالـجـمـعـ
دـامـتـ مـسـاعـيـكـ وـالـأـقـدـارـ تـسـعـدـهاـ
تـولـيـ الـمـسـاجـدـ إـنـصـافـاـ مـنـ الـبـعـ

اللـهـمـ إـنـ إـلـيـاهـ الـحـفـصـيـةـ قـدـ أـعـلـيـتـ مـظـاهـرـهـ، وـنـصـرـتـ مـعـاـشـرـهـ،
وـقـصـرـتـ عـلـىـ الـمـصالـحـ الـدـينـيـةـ وـالـدـنـوـيـةـ مـوـارـدـهـاـ وـمـصـادـرـهـ، ثـمـ اـصـطـفـيـتـ
مـنـ شـرـفـ بـيـتهاـ الـصـرـاحـ، وـمـعـدـنـ سـوـدـدـهـاـ الـوـضـاحـ، مـوـلـانـاـ الـأـمـيرـ الـأـجـلـ،
الـمـؤـيدـ الـمـبارـكـ، أـبـاـ عـبـدـالـلـهـ، فـانـتـضـيـهـ حـسـاماـ فـيـ يـدـكـ قـالـمـهـ؛ وـاـرـتـضـيـهـ
إـيمـاماـ لـاـ تـلـيـنـ فـيـ ذـاـلـكـ صـرـائـمـ، وـلـاـ يـلـحـقـ شـاؤـهـ فـيـ النـيلـ مـنـ عـدـاتـكـ
رـالـمـ، يـمـضـيـ يـاـسـاـ حـيـنـ لـاـمـضـاءـ لـلـحـسـامـ الـعـضـ، وـيـهـمـيـ جـوـداـ وـالـسـماءـ
فـيـ أـزـرـ مـنـ نـجـيـعـ الـجـدـ، وـيـتـدـبـ سـعـيـاـ لـكـلـ حـسـنـيـ أـعـيـتـ عـلـىـ الـقـرـيبـ.
الـنـدـ.

وـلـهـ يـشـكـوـ الـزـمـانـ :

تـحـيـفـ حـالـتـيـ حـيـفـ الـزـمـانـ
وـصـدـقـ الـيـأسـ مـنـ كـذـبـ الـأـمـانـ
بـنـروـيـمـيـ فـلـانـيـ بـالـأـمـانـ
وـضـيـمـيـ دـوـنـ أـبـنـاءـ الـبـيـانـ
أـمـاـ قـنـعـتـ وـقـدـ كـلـفـ بـهـضـمـيـ
فـنـقـعـدـنـيـ الـخـطـوبـ بـلـاـ توـانـيـ
أـحـاـوـلـ أـنـ أـقـوـمـ لـمـاـ يـوـاتـيـ
وـأـطـبـاقـ الـشـرـىـ بـالـحـرـ أـحـرـىـ
إـذـاـ أـلـفـىـ الشـرـاءـ مـنـ الـهـوـانـ
فـهـلـ مـنـ آـخـذـ بـيـدـ أـخـيـدـ
بـعـيـنـ اللـهـ شـدـةـ مـاـ يـعـانـيـ

أياماً أشتكيه من أيامى عوار في يد البلوى عواني
وما أبغى على تلقي دليلًا كفانى أنسى حى كفانى

وله في معنى التسليم للمقدرو :
ولا تسخط المقدور وارض بما جرى عليك به إن الرضا يفضل السخط

- ٦ -

محyi الدين بن عربi :

هو محمد بن علي بن محمد الطائي بن عربي الصوفي، من أهل إشبيلية، وأصله من سبتة، يكنى أبي بكر، ويعرف باسم عربي، وبالحاتمي أيضاً.

أخذ عن مشيخة بلده، ومال إلى الأدب، وكتب لبعض الولاة بالأندلس، ثم رحل إلى المشرق حاجاً، فأدى الفريضة، ولم يعد بعدها إلى الأندلس، وسمع الحديث من أبي القاسم الخرستاني وغيره وسمع صحيح مسلم من الشيخ أبي الحسن ابن أبي نصر، في شوال سنة ست وستمائة، وكان يحدث بالإجازة العامة عن أبي طاهر السلفي، ويقول بها، وبرع في علم التصوف، وله في ذلك تواليف كثيرة، منها : « ملاك التأويل »، في حقائق التنزيل »، و« كتاب الإسراء » إلى المقام الأسرى »، و« كتاب مواقع النجوم ومطالع أهلة أسرار العلوم »، و« كتاب عنقاء مغرب »، في صفة ختم الأولياء وشمس المغرب »، وكتاب في فضائل شيخه عبد العزيز بن أبي بكر القرشي المهدوي، والرسالة الملقبة « بمشاهد الأسرار القدسية، ومطالع الأنوار الإلهية »، في كتب أخرى عديدة.

وقدم على العربية من مرسية مستهل شهر رمضان سنة خمس وستين
وخمسين، وبها ألف كتابه الموسوم، بموقع التحوم.
قال ابن الأبار : وقد لقيه جماعة من العلماء، وأخذوا عنه، وتوفي
بعد الأربعين وستمائة.

— ٧ —

ابن القصیر :

هو عبد الرحمن بن أحمد بن محمد المعروف بابن القصیر
الأزدي، من أهل غرناطة، يكنى أبا جعفر، ويعرف بابن القصیر، من
بيت شورى وجلالة؛ روى عن أبيه القاضي أبي الحسن أحمد بن أحمد،
وعن عمه أبي مروان عبد الملك بن أحمد وعن أبيه الحسن بن
دری وابن البادش، وأبي الولید بن رشد، وأبي إسحاق إبراهيم بن رشيق
الطليطلی، نزيل وادي آش، وأبي يکر بن العربي، وأبي الحسن بن
موهبد، وأبي محمد عبد الحق بن غالب بن عطية، وأبي عبدالله بن
أبي الخصال، وأبي الحسن يونس بن مغيث، وأبي القاسم بن ورد
وأبي يکر بن مسعود الخشنی، وأبي القاسم بن بقی، وأبي الفضل عیاض
ابن موسی وغيرهم وكان فیھا مشاوراً، رفیع القدر، جلیلاً بارعاً للأدب،
عارفاً بالوثيقة، نقاداً لها، صاحب رواية و درایة، تقلب ببلاد الأندلس،
وأخذ الناس عنه بمرسية وغيرها، ورحل إلى مدينة فاس، فأخذ الناس
عنه بها، ثم رحل إلى إفريقيا، وولي قضاء تقویوس، ببلاد الحريد، بمقرية
من توزر، ثم ركب البحر فقصد الحج، فتوفي شهيداً في البحر، قتلته
الروم بمرسى تونس، مع جماعة من المسلمين، صباح يوم الأحد، في
العاشر الوسط من شهر ربيع الآخر، سنة ست وستين وخمسمائة.
وله تأليف وخطب ورسائل ومقامات، وجمع مناقب من أدركه من

أهل عصره، وانحصر كتاب الحيل لابن خاقان الأصفهاني، وغير ذلك، وألف برنامجاً يضم رواياته.

- ٨ -

القاضي عياض :

قال فيه القاضي أبي عبدالله بن عياض^(١) يصف والده القاضي عياضاً معظماً عند الأشياخ من أهل العلم، كثير المجالسة لهم، والاختلاف إليهم، إلى أن برع أهل زمانه، وساد جملة أقرانه، فكان من حفاظ كتاب الله تعالى، مع القراءة الحسنة، والنسمة العذبة، والصوت الجهير، والحظ الوافر من تفسيره وجميع علومه؛ وكان من أئمة الحديث في قوله، أصولياً متكلماً، فقيها، حافظاً للمسائل، عاقداً للشروط، بصيراً بالأحكام، نحوياً، حجة في الأدب، شاعراً مجيداً، كاتباً بليغاً، خطيباً حافظاً للغة والأخبار والتواريخ، حسن المجلس، نبيل النادرة حلو الدعابة، صبوراً حليماً، جميل العشرة، جواداً سمحاً، كثير الصدق، دعوباً على العمل، صلباً في الحق، وبلغ في الفنون في العلوم ما هو مشهور.

أخذ عن أشياخ بلدة سبعة، كالقاضي أبي عبدالله بن عيسى، والخطيب أبي القاسم، والفقير أبي إسحاق الفاسي، وغيرهم. ثم رحل إلى الأندلس وكان خروجه من سبعة يوم الثلاثاء متتصف جمادى الأولى سنة سبع وخمسين وفوجئ إلى قرطبة يوم الثلاثاء مستهل جمادى الآخرة بعده،

(١) ص ٧ وما بعدها حد ٣ أزهار الرياض في أشعار القاضي عياض ط مصر ١٩٤٢.

فأخذ بها عن ابن عتاب، وابن حمدين، وابن الحاج، وابن رشد، وأبي الحسن بن سراج، وأبي الحسن بن مغيث، وأبي القاسم بن النحاس، وأبي بحر الأسدية، وأبي القاسم بن بقي، وأبي الوليد هشام بن أحمد ابن العواد، وغيرهم من أعلام قرطبة. ثم خرج إلى مرسية يوم الاثنين لخمس بقين من المحرم، سنة ثمان من التاريخ، فوصل إلى مرسية يوم الثلاثاء الثالث من صفر بعده.

ولقي في رحلته هذه جماعة من أعلام الأندلس، وأجاذه أبو علي الججاني^(١) وشريح وابن شرين، وغيرهم من أعلام غرب الأندلس، وأجاذه أيضاً أبو جعفر بن شتغيرة، وابن الأدق، وأبو زيد بن متال، وغيره من أعلام شرق الأندلس.

ووصل بلدـه بعد هذه الرحلة ليلة السبت سايع جمادى الآخرة سنة ثمان وخمسـمائة، وأجلسه أهل بلدـه للمناظرة في المدونة، وهو ابن ثـنين وثلاثـين عامـاً، وبعد ذلك يـسـير أـجلـس لـلـشـورـى، ثم ولـيـ القـضـاءـ عـامـ خـمـسـةـ عـشـرـ وـخـمـسـائـةـ، لـثـلـاثـ بـقـينـ مـنـ صـفـرـ، فـسـارـ قـبـيـاـ أـحـسـنـ سـيـرـةـ، مـحـمـودـ الطـرـيقـةـ، مـشـكـورـ الـحـالـةـ، أـقـامـ جـمـيعـ الـحـدـودـ عـلـىـ ضـرـوبـهـ، وـاـخـلـافـ أـنـوـاعـهـ، وـبـنـيـ الـزـيـادـةـ الـغـرـيـبـةـ فـيـ جـامـعـ سـيـنـةـ، الـتـيـ كـمـلـ بـهـ جـمـالـهـ، وـبـنـيـ فـيـ جـيلـ الـمـيـنـاـ الـرـابـطـةـ الـمـشـهـورـةـ، إـلـىـ غـيـرـ مـنـ الـأـتـارـ الـمـحـمـودـةـ، وـالـمـسـاعـيـ الـمـرـضـيـةـ، فـعـظـمـ جـاهـهـ، وـبـعـدـ صـيـتـهـ.

ثم نـقـلـ إـلـىـ غـرـنـاطـةـ، وـوـصـلـ إـلـيـ الـكـتـابـ بـذـلـكـ فـيـ أـوـلـ يـوـمـ مـنـ صـفـرـ عـامـ أـحـدـ وـثـلـاثـيـنـ وـخـمـسـائـةـ، فـهـضـ إـلـيـهـ، وـتـقـلـدـ خـطـةـ قـضـالـهاـ، عـلـىـ الـمـعـتـادـ مـنـ شـيـمـتـهـ السـيـنـيـةـ، وـأـخـلـاقـهـ الـمـرـضـيـةـ، مـشـكـورـاـ عـنـ جـمـيعـ النـاسـ، لـكـنـ اـبـنـ تـاشـفـيـنـ ضـاقـ بـهـ ذـرـعـهـ، وـغـصـ بـمـرـاقـبـتـهـ، وـصـدـ أـصـحـابـهـ عـنـ الـبـاطـلـ، وـخـدـمـتـهـ عـنـ الـظـلـمـ، وـصـرـفـهـ عـنـ الـأـعـمـالـ، فـسـعـيـ فـيـ صـرـفـهـ

(١) هو الحسين بن محمد بن أحمد الصانعي المعروف بالججاني توفي سنة ٤٩٨هـ.

عن قضاء غرناطة، فصرف بعد انفصاله عنها زائراً أهلها، وترك ابن أخيه الراشد أبي عبدالله رحمة الله على الأحكام؛ وذلك في رمضان المعمض، عام الثين وتلاته وخمسمائة.

ثم ولی قضا سبعة ثانية، في آخر عام تسعه وثلاثين وخمسمائة،
قدمه إبراهيم بن تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين، فابتهج أهل
بلده بذلك، فسار فيهم السيرة التي عهدوا منه، ثم يادر بالمسابقة إلى
الدخول في نظام الموحدين، والاعتصام بحملهم المتن؛ فأقره أمير
المؤمنين، على ما كان عليه، وصرف أمرور بلده إليه؛ وخطابه بالتتوي،
وخطبي عنده وشكر بداره وسقيه. ثم رحل إليه، فاجتمع به بمدينة
سلام، عند توجهه إلى محاصرة مراكش، فأواسع له، وأجزل صلاته، ولقي
منه برأً تماماً، وإنكراماً عاماً، وانصرف على أحسن حال، إلى أن ثارت الفتنة.

وقال الشيخ العلامة أبو زيد عبد الرحمن الغناطي، المعروف بابن القصيري، رحمة الله : لما ورد علينا القاضي عياض غرناطة، خرج الناس للقائه، وبرزوا تبريزاً ما رأيت لأمير مؤمر مثله، وحضرت أعيان البلاد الذين خرجوا إليه راكباً، نيفاً على متني راكب، ومن سواد العامة ملا يحصى كثرة، وخرجت مع أبي في جملة من خرج، فلقينا شخصاً يادي السيادة متيناً عن اكتساب المعالى والإفادة.

ولما استقر عندنا كان مثل التمرة : كلما ليكت زادت حلاوة ، ولقفظه عذب في كل ما صرف من الكلام ، للنفس إليه توق وله طلاوة ، وكان برأ يلسنه ، جواداً بيانه ، كثير التخشن في صلاته ، مواصلاً لصلاته ، وقد جمعنا من سيره جملة في الكتاب الذي جمعنا فيه مناقب من أدركنا ، من أعيان عصرنا وبتهاته ، وذكرنا له ما يفاخر برورقة وبهاهه ، وكان مع براعته في علوم الشريعة خطيباً ، في تجิيره للخطب وفي لفظه ، ظاهر الخشوع عند التلاوة وفي لحظه ، سريع العبرة ، مدحياً للتفكير والعبرة ، كتابياً إذا نثر ، ناظماً إذا شعر .

أمير أديب :

كان من أمراء البيت الأموي في الأندلس الأمير الأديب الشاعر أبو عبد الملك مروان بن عبد الرحمن بن مروان بن عبد الرحمن الناصر الأموي (٣٥٢-٤٠٠هـ)، وكان يلقب « ابن معتر الأندلس » ويعرف بالطليق. كان أديباً شاعراً مكتراً، وأكثر شعره نظمه وهو في السجن، قال أبو محمد بن حزم فيه : « هو فيبني أمية كابن المعتر فيبني العباس : ملاحة شعر، وحسن تشبيه ». .

وقد سجن الأمير وهو ابن ست عشرة سنة، لأنه كان فيما ذكر يعشق جارية كان أبوه قد رياها معه وذكرها له ثم بدا له فاستأثر بها، فاشتدت غيرة الشاعر لذلك، فانتقض سيفاً، وانهزم فرصة من بعض خلوات أبيه معها فقتلها، فسجين في أيام المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر، ومحك في السجن ستة عشر عاماً، ثم أطلق سراحه بعد ذلك لقب « الطليق »، وقد عاش بعد إطلاقه ست عشرة سنة، وتوفي نحو عام ٤٠٠هـ ومن شعره قوله :

غضن بهتر في دعص نقا يجتني منه قوادي حرقا
أطلع الحسن لنا من وجهه قمراً ليس بيرى ممتحنا
ورنا عن طرف ريم أحور لحظه سهم لقلبي فوقا

ومن هذه القطعة :

أصبحت شمساً وفوه مغرباً
وبد الساقي المحىٰ مشروقاً
فإذا ما غربت في فمه تركت في الخد منه شفقاً^(١)

(١) راجع ترجمته في ص ٤٤٧ بقية المكتسب في تاريخ رجال أهل الأندلس للضبي، وهو الجزء الثاني من المكتبة الأندلسية، وتحمل ترجمته رقم ١٣٤٣ ونجد بعض =

وعلى أبيات الأمير الأندلسي صيغة من الجمال الفني، والترف في الأسلوب والصنعة، وحب التشبيه، وعذوبة النقط، وسلامة التركيب، وكثرة الصور الفنية في شعره، مما يشهي في ذلك ابن المعتر إلى حد كبير، وما استوجب من غير شنك أن يلقبه النقاد « ابن معتر الأندلس »، ومن الطريق أنه أشبه في الشأة والتكونين الأدبي، وفي الترف.

— ٦٠ —

ولادة بنت المستكفي :

ولادة بنت المستكفي بالله محمد بن عبد الرحمن بن الناصر لدين الله. وكانت واحدة زمانها، المشار إليها في أوانها، حسنة المحاضرة، مشكورة المذاكرة. وكانت مع ذلك مشهورة بالصيانة والعفاف؛ وفيها خلع ابن زيدون عذاره.. وكانت أدبية شاعرة، جزلة القول، حسنة الشعر، وكانت تناضل الشعراء، وتتساجل الأدباء، وتتفوق البلغاء، وعمرت عمرًا طويلاً، ولم تتزوج قط، وماتت لليلتين خلتا من صفر سنة ٤٨٠ هـ، وقيل سنة ٤٨٤ هـ. وكان أبوها المستكفي قد بايعه أهل قرطبة لما خلعوا المستظهر، وكان جاهلاً ساقطاً، وقد خرجت ابنته « ولادة » على نهاية في الأدب والظرف، حضور شاهد، وحرارة أوابد، وحسن منظر ومخبر، وحلوة مورد ومصدر، وكان مجلسها يقرطبة لأحرار مصر، وفناؤه مليناً لجهاد النظم والشعر، يعشوا أهل الأدب إلى ضوء غرتها، وبتهاatk أفراد الشعراء والكتاب على حلقة عشرتها.. على أنها وجدت للقول فيها السبيل، لقلة مبالغتها، ومجاهرتها بلذاتها، وهي في المغرب كعملية في المشرق، إلا أن هذه تزيد بمزية الحسن الفائق، وكان لها صنعة

== هذه الترجمة في هامش ص ٣١٨٦ فتح الطيب للمقرئ نشر فريد رفاعي بتحقيق أحمد يوسف نجاشي، وراجع كتاب ابن المعتر وتراثه في الأدب والنقد والبيان ص ٣٢٢ — المؤلف.

في الغناء، وكان مجلسها يغشاه أدباء قرطبة وظرفاؤها، لما اقتضاه من مثل ذلك.

وقد قال عنها ابن بشكوال في الصلة : « كانت أديبة شاعرة، جزلة القول، حسنة الشعر، وكانت تناضل الشعراء، وتساجل الأدباء، وتتفوق البرعاء، عمرت طويلاً ولم تتزوج قط، وكان مجلسها متدى لأهل مصر، وفناؤها ملعاً لجياد النظم والشعر، يعشوا أهل الأدب إلى ضوء غرتها، وبتهاatk الشعراe والكتاب على حلأة عشرتها، وهي على سهولة حجابها، وكثرة متابها، تخلط ذلك بعلو نصاب، وكرم أنساب، وطهارة أنواب، ولقد تناقل الناس نادرة بدرت منها، دلت على بارع أدبها، وحسن فهمها، وبدفع ظرفها فقد مرت بابن عيدوس، وهو جالس بباب داره، وأمامه بركة تتولد من كثرة الأمطار، وربما استمدت مما هنالك من الأقدار، فقالت تخاطبه :

أنت الخصيـب وهذه مصر فـدقـقا فـكـلاـكـما نـهـر

فلم يحر الوزير جواباً، وحفظت هذه النادرة، وشغل بها الناس حيناً، والبيت لأبي نواس، في مدح الخصيـب والـيـ مصر، فـتمـلتـ بهـ ولـادـهـ، وـنـقـلـتـهـ هذا النـقـلـ الحـسـنـ، من المـدـحـ إـلـىـ الـهـجـاءـ ! وـتـرـكـتـ ابنـ عـبـدـوسـ لاـ يـحـيرـ حـرـفاـ، ولاـ يـرـدـ طـرـفاـ.

ولولادة مكانة عالية بين شعراء الأندلس وشاعراتها، وهي ذات شخصية فلذة، جمعت بين عراقة النسب الأموي، والذكاء العربي المفرط، والجمال الساحر، والصبا الأخاذ، هذا إلى لياقة، وظرف في الحديث، وسعة في الاطلاع، وحلأة في البيان، كل هذا في جو القصور البهيج، وبين الجواري والحواشي.

وتلقيت ولادة بعلية المغرب، نسبة لعليه بنت المهدى، التي نبغت في المشرق وعاشت خمسين عاماً في بغداد (١٦٠-٢١٠ هـ).

وكانت أديبة بالفطرة، وشاعرة مجلية بين أقرانها ولداتها، وشعرها قوي

السيك، سهل الألفاظ، سلس العبارات، أقرب إلى شعر الرجال منه إلى شعر المرأة، نظمته في الحب والقهر والفكاهة والدعاية والاجتماع.

وما أروع ما تقول ولادة :

أنا والله أصلح للمعالى وأمشي مشيتني وأئيه تها
أمكن عاشقي من لشم ثغري وأعطي قبلي من يشهيها
وكان ابن زيدون من المعجبين بأدبها وجمالها، والمتوددين لها، وينسب إليها شعر نسب لابن زيدون، وهو :

ودع الصبر محب ودعك ذاتع من سره ما استودعك
يقرع السن على أن لم يكن زاد في تلك الخطى إذ شيعلك
يا أخا البدر ضياء وسنا حفظ الله زماناً أطلعلك
إن بطل بعدك ليلي فلكم بت أشكوك قصر الليل معلمك

وفي هذه الأبيات وحدتها من جمال السيك، ورقة الشاعرية وحلوة اللفظ العسير عن مضطرب الشوق ولابع العاطفة، ما يكفي لحمل ولادة شاعرة متفوقة بين كبار شعراء عصرها. وتبرز شاعرية ولادة فياضة بمستعر الحب في هذين البيتين الذي قالتهما لابن زيدون، مبينة عظم الهموي الذي ملاً قلبها وسيطر على كيانها، فانطلقت بصراحة جريئة تقول :

ترقب إذا جن الظلام زيارتي فإني رأيت الليل أكتم للسر
وبه منك ما لو كان بالشمس لم تلح وبالبدر لم يطلع، وبالنجم لم يسر
ومما يروى عن ذلك : أن عتبة غشت مرة — وهي جارية ولادة —
في حضرة ابن زيدون. فسألها الإعادة بغير أمر ولادة وكان قد بدا
عليه الإعجاب الشديد. فاضطربت شاعرتنا عند ذلك وامتنع لونها، وسرت
في كيانها نفحة نار أحرقتها، ولم تستطع أن تخفي توجهها وتأثيرها،
فعانتت جاريتها ولامتها، ثم مالت إلى ابن زيدون تقول :
لو كنت تنصف في الهوى ما بيننا لم تهوا جاريتي ولم تخيسر

وتركت غصنا مشرأ بجمالي وجحث للضعن الذي لم يشعر
ولقد علمت بأنني بدر السما لكن ولعت لشقرة بالمشترى
ولابن زيدون فيها قصائد تذوب وجداً وحينها وهياماً، ومنها قصيدة
الشهورة :

أضحى الثاني بديلاً من تدانيا وتاب عن طيب لقيانا تجافينا
بتم وبنا فما ابعت جوانحنا شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا

ويقول فيها مستديماً عهدها :

لا تحسبيوا نأيكم عنا بغيرنا إن طال ما غير النائي المحبينا
والله ما طلبت أهواونا بدلـاً منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا

وكذلك بقيت ولادة على حبها له ووفاتها، فيعثـت إليه يقول :
ألا هل لنا من بعد هذا التفرق سيلـ فيشكـو كلـ حبـ بماـ لـقـيـ ؟
تمرـ اللـيـاليـ لاـ أـرـىـ الـبـينـ يـنـقـضـيـ ولاـ الصـيرـ منـ رـقـ الشـوـقـ مـعـتـقـيـ
وقدـ كـنـتـ أـوقـاتـ التـزاـورـ فـيـ الشـنـاـ أـلـيـتـ عـلـىـ حـجـرـ مـحـرـقـ فـكـيـفـ وـقـدـ أـمـسـيـتـ فـيـ حـالـ قـطـلـةـ لـقـدـ عـجـلـ المـدـورـ مـاـ كـنـتـ أـنـقـيـ

وقدـ عـاشـتـ وـلـادـةـ بـعـدـ ذـلـكـ مـحـرـومـةـ، وـبـقـيـتـ عـلـىـ عـهـدـهـاـ لـمـ تـزـوـجـ
مـدـىـ حـيـاتـهـاـ، وـمـاـ يـؤـسـفـ لـهـ أـنـ تـكـوـنـ أـشـعـارـهـاـ مـفـقـودـةـ، مـعـ مـاـ فـقـدـ
مـنـ مـصـادـرـ التـرـاثـ الـأـنـدـلـسـيـ الـذـيـ أـبـادـهـ الـإـسـبـانـيـوـنـ بـعـدـ إـجـلـاءـ الـعـرـبـ
وـالـدـهـاـ قـدـ تـوـفـيـتـ فـيـ عـامـ ٤١٤ـهـ وـتـوـلـىـ الـخـلـافـةـ شـهـرـاـ قـلـيـةـ فـيـ عـامـ نـفـسـهـ.

أديات من الأندلس

- ١ -

من الأديات الأندلسية حفصة الركوبية، قال ابن سعيد في الطالع
السعيد : كتبت حفصة إلى بعض أصحابها :

أزورك ألم تزور ؟ فلن قلبي إلى ما تشتهي أبداً يميل
فتغري مورد عذب زلال وفرع ذوابتي ظليل ظليل
وقد أملت أن تظماً وتضحي إذا وافى إليك بي العقيل
فعجل بالجواب، فما جميل إياوك عن بشنة يا جميل !

وهي تشبه أبيات سلمى بنت القراطسي من أهل بغداد وكانت
مشهورة بالجمال :

عيون منها الصريم فداء عيني وأجياد الظباء فداء جيدي
أزيس بالعقود، وإن تحري لأزيس للعقود من العقود
ولا أشكوا من الأوصاب ثقلاً وتشكتو قامتي ثقل النهود

وبلغت أبيتها أمير المؤمنين المقتفي بالله، فقال : أسلوا : هل تصدق
صفتها قولها ؟ فقالوا : ما يكون أجمل منها، فقال : أسلوا عن عفافها،
قالوا هي أعنف الناس. فأرسل إليها مالاً جزيلاً، وقال تستعين به على
صيانة جمالها ورونق بمجتها.

وقال الحجاري في المسهب : إن أمير المؤمنين يوسف بن تاشفين، أهدى إلى المعتمد جارية مغنية نشأت بالعدوة، وأهل العدوة بالطبع يكرهون أهل الأندلس، وجاء بها إلى إشبيلية، وقد كثر الإرجاف بأن سلطان الملثمين يتربع بلاد ملوك الطوائف منهم، واشتغل خاطر ابن عباد بالفكرة في ذلك، فخرج بها إلى قصر الزهراء، على نهر إشبيلية وقد عدل على الراوح، فخطر بفكراها أن غنت عندما انشئ هذه الآيات : حملوا قلوب الأسد بين ضلوعهم ولوروا عمامتهم على الأفمار ونقلدوا يوم الوجى هندية أمضى إذا اتضحت من الأقدار إن حروفك لقيت كل كريهة أو أمنوك حللت دار قرار فوق في قلبه أنها عرضت بساداتها، فلم يملك غضبه، ورمى بها في النهر فهلكت.

— ٤ —

ومن شاعرات الأندلس، أمة العزيز الشريفة الحسنية، التي تقول : لحاكمكم تجرحنا في الحشا ولحظنا بجرحك في الخدو جرح بجرح، فاجعلوا ذا بذا فما الذي أوجب جرح الصدود ؟

— ٣ —

ومنهن حفصة الركوبية، وكانت تجمع إلى نصاب الأدب، نصاب الجمال والمال والنسب. وهي القائلة : ثانى على تلك الشيايا لأننى أقول على علم وأنطق عن خير وأنصفها لا أكذب الله إننى رشقت بها ريقاً أرق من الخمر

وتولع لها السيد أبو سعيد ملك غرناطة، ويغير رسبيها على أبي
جعفر بن سعيد حتى قتلها^(١).

— ٤ —

ومنهن اعتماد جارية المعتمد بن عباد وأم أولاده، وتشتهر بالرميكية، وهي التي أغرت المعتمد بابن عمار فقتله، لما هاج ابن عمار المعتمد بقصيدة ذكر فيها الرميكية؛ فقال :

تخرتها من بناط الهجان رميكية ما تساوي عقالا
فجاءت بكل قصیر العذار لثيم التجارين : عما وخالا
قصار القددود ولكنهم أقاموا عليها قرونًا طوالا
ويقال إن ابن عباد حقد على ابن عمار قوله^(٢) :
ما يزهدني في أرض أندلس أسماء معتصد فيها ومعتمد
اللقب مملكة في غير موضعها كالهريحيكي انفاخاً صولة الأسد
وفهم أنه يعني، فكان هذا إلى ما سبق سبب قلبه، بعد أن استوزره
وأحسن إليه.

— ٥ —

ومن غريب ما يحكى عن أمير المؤمنين الناصر أنه أراد الفصد، فقد باليه في المجلس الكبير المشرف بأعلى مدنته بالزهراء، واستدعى الطبيب لذلك، وأخذ الطبيب الآلة وجس يد الناصر، فبينما هو إذ

(١) راجع أعيارها في النفح ج ٢ ص ٤٣٠ وما بعدها.

(٢) يسب الأكثرون هذين اليمين إلى ابن رشيق القمي.

أطل زرزور، فصعد على إباء ذهب بالمجلس، وأتشد:
أيها الفاقد رفقاً بأمير المؤمنينا
إنما تقصد عرقاً فيه محيا المسلمين

وَجَعْلَ يَكْرَرُ ذَلِكَ الْمَرَأَةَ بَعْدَ الْمَرَأَةِ، فَاسْتَظْرَفَ النَّاصِرَ ذَلِكَ غَايَةَ الْأَسْتَظْرَافِ، وَسَرَّ بِهِ غَايَةُ السُّرُورِ، وَسَأَلَ عَنْ اهْتِدَى إِلَى ذَلِكَ وَعِلْمِ الْزَّرَزُورِ، فَذَكَرُوا لَهُ أَنَّ السَّيِّدَةَ أُمَّ وَلَدِهِ وَلِي عَهْدَ الْحُكْمِ الْمُتَّصِّرِ بِاللَّهِ صَنَعَتْ ذَلِكَ، وَأَعْدَتْهُ لِذَلِكَ الْأَمْرِ، فَوَهَبَ لَهَا مَا يَنْبَغِي عَلَى ثَلَاثَتِيْنَ أَلْفَ دِينَارٍ.

- 7 -

ومن شاعرات الأندلس أيضاً غاية المني، وهي جارية أندلسية متأدبة
قدمت إلى المعتصم بن صمادح، فأراد اختبارها، فقال لها: ما اسمك؟
قالت: غاية المني، فقال لها: أحجزي: أسلأوا غاية المني، فقالت:
.....
من كسا جسمى الصنا
وأراني مولها س يقول الهوى: أنا

- V -

ومنهن حمدة، وبقال حمدونة بنت زياد المؤدب من وادي آش، وهي خنساء المغرب، وشاعرة الأندلس.
قال المقري : خرجت حمدة مرة للوادي مع صبيه، فلما نضت عنها ثيابها وعامت، قالت :

له للحسن آثار بوادي	أباح الدمع أسراراي بساد
ومن روض يرث بكل وادي	فمن نهر يطوف بكل روض

ومن بين الظباء مهأة إنس
سبت لي، وقد ملكت قوادي
وذاك الأمر يعنى رقادى
رأيت البدر فى أفق السواد
فمن حزن تسريل بالحداد

لها لحظ ترقده لأمر
إذا سدت ذوايها عليها
كان الصبح مات له شقيق

ودخلت على المظفر بن المنصور بن أبي عامر، وبين يديه ولد
له فارتجلت :

أراك الله فيه ما تريده
ولا ببرحت معاليه تزيد
تؤمله، وطالعه السعود
حسام هوى، وأشرفت البنود
إلى العليا ضراغمة أسود
فسوف تراه بدرأ في سماء
فأنتم — آل عامر — خير آل
وليدكم لدى رأى كشيخ

— ٨ —

ومنهن نزهون الغرناطية، قال في المغرب : هي من أهل المائة
الخامسة، ذكرها الحجاري في المسهب، ووصفها بخفة الروح والانطباع
الزائد، والحلادة، وحفظ الشعر، والمعرفة بضرب الأمثال، مع جمال
فائق، وحسن رائق، ولها مع الوزراء والشعراء، مساجلات فكهة، نروي
منها لترويع النفس بعض دعایاتها مع أبي بكر المخزومي الشاعر الأعمى،
فمن ذلك أنه قال فيها :

على وجه نزهون من الحسن مسحة
وتحت الثياب العار لو كان ياديا
قواصد نزهون، توارك غيرها
ومن قصد البحر استقل السواقيا

فأجابته :

إن كان ما قلت حقاً
من بعض عهد كريم
يعزى إلى كل لوم
فصار ذكري ذمياً
وصرت أقبح شيء في صورة المخزومي^(١)
ودخل بعض الشعراء وهي تقرأ على المخزومي، فقال يخاطبه:
لو كنت تتصور من تجالسه، فأفهم وأطال الفكر، فما وجد شيئاً،
فقالت نزهون :
لقدوت أخرى من خلاصله
البدر يطلع من أزترته والغصن يمرح في غلاته
ولها :

لله در الليالي، ما أحيسنها
لو كنت حاضرنا وقد غفلت
أبصر شمس الضحى في ساعدي قمر
وما أحيسن منها ليلة الأحد
عين الرقيب، فلم تنظر إلى أحد
بل ريم خازمة في ساعدي أسد

(١) راجع ٦/٨٩ نفح الطيب.

الباب الرابع

الأدب العربي في المغرب وجزر البحر
وهو وثيق الصلة بالأندلس

الأدب العربي في المغرب وجزائر البحر

تمهيد :

أ — تنظم بلاد المغرب البلاد التي بين برقه والمحيط الأطلسي من شمال إفريقيا وهي :

- ١ — المغرب الأدنى أو إفريقيا — بلاد طرابلس وتونس.
- ٢ — المغرب الأوسط — بلاد الجزائر.
- ٣ — المغرب الأقصى أو مراكش.

وهذه البلاد يسكنها من قديم الأزمان أمم حامية أطلق عليهم اسم البربر ل مجتمعهم. وبهذا كان الرومان ثم العرب يسمونهم، ويزعم كثيرون من نساivelyهم أنهم كلهم أو بعضهم من سلاطيل عربية حميرية ومصرية وليس بصحيح.

ب — وأمم البربر صنوف كثيرة لهم لغات لا تتعصى، وهم أهل يدو في معيشتهم لم يخضعوا لأمة من الأمم خضوعاً تماماً لشدة شجاعتهم وعصبيتهم، ولم يلاق المسلمين في تاريخهم للبلاد التي انتجوها ما لاقوه في هذه البلاد، فقد أسلموا وارتدوا بعض عشرة مرة وغدرروا في كل مرة منها بالعرب وفكوا بهم إلى أن دانوا الإسلام : زمن ولاية موسى بن نصير ثم زمن الدولة الإدريسية بال المغرب الأقصى والأغالبة

بافريقيا، ولما أسلموا اتخذوا الاسلام سيفاً بأيديهم ينكرون به على الولاة والملوك، باسم الشيعة مرة والأباضية أخرى والسنوية حيناً، وبيؤسون بعض بيوتاتهم، أو بيوتات الأشراف العلوين، ببعضهم دولاً ببربرية أو عربية في حمایتهم، ولذلك بقيت لغتهم منتشرة إلى الآن بال المغرب، وخاصة البلاد المنيعة منه، غير أن هذه اللغة لم تكن لغة قراءة وكتابة وعلم وأدب، بل كانت اللغة العربية في جميع أطوارهم هي اللغة الرسمية في السياسة والعلم والأدب، وحكم البلاد ولادة العرب زمن الأمويين ثم دولة الأدارسة (١٧٢-٢٧٠هـ) مستقلة بالمغرب الأقصى، والأغالبة من قبل العباسين بافريقيا (١٨٤-٢٨٩هـ)، ثم دولة الفواطم ولادة بنى أمية بالأندلس، ثم دولة البربر من المرابطين فالموحدين فبني مرين بالمغرب الأقصى والأوسط، ومن الصنهاجيين بافريقيا. ونشأ من هذه الدول دول صغيرة بافريقيا والمغرب الأوسط حتى ولـي الأشراف السعديـون ثم السـحلـامـسـيون بالـمـغـرـبـ الأـقـصـىـ، وـاستـولـىـ التـرـكـ العـثـمـانـيـونـ علىـ المـغـرـبـ الأـوـسـطـ وـالـأـدـنـىـ، فـمـنـ ذـلـكـ تـرـىـ أـنـ العـصـرـ الـأـوـلـ وـهـوـ عـصـرـ الـوـلـاـةـ لـبـنـيـ أـمـيـةـ فـيـ دـوـلـتـهـمـ وـالـأـغـالـبـةـ مـنـ قـبـلـ بـنـيـ الـعـبـاسـ، كـانـ لـلـعـربـ فـيـ النـفـوذـ الـأـعـلـىـ، فـارـتـقـتـ الـلـغـةـ وـآـدـابـهـ وـعـلـومـهـ زـمـنـ الـأـغـالـبـةـ وـالـفـوـاطـمـ وـخـلـقـاهـمـ مـنـ الصـنـهـاجـيـنـ اـرـتـقاءـ لـمـ يـحـظـ الـعـرـبـ بـعـدـ بـعـدـ بـعـدـ. وـكـانـتـ مـدـيـنـةـ الـقـيـرـوـانـ هـيـ كـمـيـةـ عـلـمـوـنـ الدـيـنـ وـالـلـغـةـ وـالـأـدـبـ، وـبـيـعـ فـيـهاـ مـنـ الـعـلـمـاءـ وـالـكـتـابـ وـالـشـعـرـاءـ فـرـيقـ كـادـواـ يـلـحـقـونـ فـحـولـ الـمـشـرـقـ خـطـابـةـ وـكـاتـبـةـ وـشـعـرـاـ وـعـلـمـاـ. ثـمـ أـدـخـلـ الـفـوـاطـمـ بـعـصـرـ كـثـيرـاـ مـنـ الـعـرـبـ الضـارـبـينـ يـشـرقـيـ مـصـرـ مـنـ بـنـيـ هـلـالـ وـسـلـيمـ وـجـشمـ وـرـيـاحـ وـغـيـرـهـمـ بـلـادـ الـمـغـرـبـ، تـأـدـيـاـ لـلـصـنـهـاجـيـنـ الـخـارـجـيـنـ عـلـيـهـمـ، فـاـنـتـشـرـوـاـ فـيـ الـمـغـرـبـ كـلـهـ وـكـانـوـ بـدـاـةـ جـهـلـةـ، فـخـرـبـوـ كـثـيرـاـ مـنـ مـدـنـهـ، وـنـشـرـوـاـ فـيـ الـلـسـانـ الـعـرـبـيـ الـبـدـوـيـ بـلـاـ عـلـمـ وـلـاـ أـدـبـ مـدـونـ.

ويقـيـ الـعـلـمـ وـالـأـدـبـ يـخـمـدـانـ تـارـيـاـ وـيـتـعـشـانـ أـخـرىـ زـمـنـ دـوـلـ الـبـرـبرـ حـتـىـ اـسـتـولـىـ التـرـكـ ثـمـ الـفـرـنـسـيـوـنـ عـلـىـ الـمـغـرـبـ الـأـدـنـىـ وـالـأـوـسـطـ، فـاضـمـحـلـاـ

بها وبقي منها ذماء بالغرب الأقصى أخذ الآن يتحول إلى حياة تجديدة متأثراً بالنهضة العامة في مصر والشرق. وكان أكثر الناهضين بالعلم والأدب في هذه الأطوار رجالاً من الأندلسيين أو المشرقيين استوطناً المغرب وخدموا ملوكه إلا ما كان بافريقية زمان الأغالبة والغواطم وخلفائهم.

جـ - أما جزائر البحر فتتصد بها صقلية وعددًا من الجزر الواقعة في البحر الأبيض المتوسط حكمها المسلمون مدة طويلة، ونشروا فيها العلم. والإمام أبو حفص عمر بن شعيب القرطبي الأندلسي القائد الراهد هو فاتح (جزيرة كريت). والإمام القائد اسد بن الفرات الفقيه العابد هو فاتح (جزيرة صقلية).

وقد أنجبت صقلية كثيراً من العلماء والأدباء والشعراء منهم : أبو القاسم علي بن جعفر السعدي الصقلي المعروف بابن القطاع (٤٣٣-٥١٥هـ)، وله كتاب أبنية الأسماء، وكتاب الدرة الخطرة في المختار من شعر شعراء الجزيرة - صقلية - وقد ولد بالجزيرة، ورحل عنها إلى مصر عام ٥٠٠هـ لما أشرف الأفرنج على تملكها... ومنهم أبو عبدالله محمد بن أبي محمد بن ظفر الصقلي حجة الدين، وقد ولد بصقلية وسكن آخر الوقت في حماة وتوفي بها سنة ٥٦٥هـ ومنهم أبو بكر محمد بن سايك الصقلي المتوفى بمصر سنة ٤٩٣هـ وأبو عبدالله محمد بن عيسى بن عبد المسغم الصقلي وكان كاتباً شاعراً مهندساً مترجمًا.

ومن أدبائها : ابن حمديس، وكان قد دخل الأندلس سنة ٤٧١هـ ومدح المعتمد وتوفي سنة ٥٢٧هـ بجزيرة ميورقة وقيل بجاية.

ومن الأدباء : كذلك أبو العرب مصعب بن محمد بن أبي القراء القرشي، ولد سنة ٤٢٣هـ وخرج عنها لما تغلب عليها الروم سنة ٤٦٤هـ قاصداً المعتمد بن عباد.

د — وأهم منطقة في بلاد المغرب العربية كلها تونس، التي أبعت منها شتى التهضات الدينية والعلمية والأدبية في مختلف العصور، ولا ضير في أن نتحدث عن تاريخ تونس بشيء من التفصيل، ففي الحديث عنها بإضاح لحال الأدب فيها خاصة وفي خلال المغرب عامة :

١ — لما استولى العرب على مصر سنة ١٧ هـ في عهد الخليفة عمر بن الخطاب اتجهوا بفتحاتهم نحو الشمال، فاتذروا برقة وطرابلس من يد الروم، ثم حولوا أنظارهم إلى بلاد المغرب، وغزوا إفريقيا لأول مرة سنة ٢٧ هـ، ثم رجعوا إليها سنة ٤٥ هـ، ولكنهم لم يستقرروا بها ولم يتركوا وراءهم أثراً يذكر. فكانت هاتان الحمدتان تمهدان لفتح النهائي الذي تم على يد عقبة بن نافع سنة ٥٠ هـ، وقد رأى عقبة أن أحوال إفريقيا لا يمكن أن تستقر للعرب إلا إذا أنشأوا لهم مركزاً قارياً بها وجعلوا يخرجون منه لفتح بقية المغرب، فصرف عناته لبناء مدينة القبروان^(١)، ومنذ اليوم الذي أصبح فيه للعرب عاصمة في إفريقيا اهتموا بفتح بلاد المغرب فتحاً نهائياً، وصاروا يعتبرون إفريقيا ولاية مستقلة الشخصية بعد أن كانت تابعة لمصر.

وقد وقف كل من الروم والبربر في وجه استيلاء العرب على إفريقيا وبقية المغرب وتحالفوا لمقاومة العرب. ولكن عقبة عرف كيف يقضي على هذه المقاومة في بادئ الأمر، واستطاعت جيوشه أن تستولي على البلاد إلى أن وصلت حتى المحيط الأطلسي. غير أن جيوشه انهزمت في طريق رجوعها من المغرب الأقصى أمام جيوش البربر التي كان يقودها « كسيلة » فخرجت إفريقيا من يد العرب للمرة الأولى بعد أن احتل البربر القبروان وأقاموا دولة بربرية في جنوب إفريقيا، بينما كان الروم محتفظين بشمالها، ومحصنتين في قرطاجنة وبقية المراكز المحسنة، أن غير انهزام الجيوش العربية لم يمح أثر العرب في إفريقيا

(١) توفي عقبة عام ٦٢ هـ - ٩٢ جـ ١ حسن المحاضرة.

إذ يقى الكثير منهم مقيماً بالقيروان تحت حكم كسلة، وكانت تناصرهم قبائل برب الجنوب الذين دخلوا الإسلام منذ الغزو الأولي، وفي عهد عبد الملك بن مروان توجه العرب إلى القضاء على دولة الروم ودولة البربر، وكسر شوكة قبائل برب الشمال المعتصمين في الجبال. فاستطاع زهير بن قيس البلوي القضاء على المقاومة البربرية سنة 64هـ. وجاء بعده حسان بن النعمان إلى إفريقيا سنة 76هـ، وكانت مهمته القضاء على مقاومة الروم، فتمكن من الاستيلاء على حصونهم وطردتهم من عاصمتهم قرطاجنة، ولكن إفريقيا خرجت من يد العرب مرة ثانية، إذ انتظمت مقاومة البربر برعامة امرأة منهم تلقب « بالكافنة » بينما جاءات مساعدات الروم من بيزنطية نفسها. وعاد حسان إلى إفريقيا سنة 81هـ، وبقضائه على جيوش الكافنة قضى على آخر مقاومة قام بها أهل البلاد، ثم اتجهت عناته إلى الروم فاستولى على قرطاجنة بعد أن حاصرها برأ وبحراً. هكذا تم الفتح العربي في إفريقيا، ويفي على العرب أن ينظموا شؤون ولاياتهم الجديدة وأن يستقرروا فيها، وأن يفتحوا بقية المغرب حتى يتم لهم أمر البلاد كلها.

وكانت إدارة البلاد موكلاة إلى الوالي الذي يعين من قبل الخليفة. واتخذ العرب مدينة القيروان مركزاً إدارياً، وأنشأوا بها الدوائر المختلفة، وعينوا العمال للإشراف على شؤون الولاية. وبادر حسان بإنشاء ميناء جديد يحل محل قرطاجنة، فبني مدينة تونس التي ما لبثت أن أصبحت المنفذ الذي خرج منه العرب لفتح صقلية وإيطاليا.

وكانت المعاملة الحسنة التي كان العرب يعاملون بها البربر مما ساعد على فتح أجزاء المغرب الأخرى، إذ بمجرد ما دخل البربر في الإسلام واعتبروا متساوين في الحقوق والواجبات مع الغزاة العرب، أصبحوا يشاركونهم في الفتوحات ومناصب الإدارة وغيرها. وقد أدت هذه السياسة في بلاد إفريقيا إلى نهوض البربر وأخذهم بأسباب الحضارة

العربية وتلعلهم بلغة العرب ودينهم، واندماجهم شيئاً فشيئاً في العنصر العربي، فأنشأوا عدة دول وأقاموا حضارة زاهرة مميزة في تاريخ الحضارة الإسلامية.

٢ - وقد كان للخلافات التي حدثت في المشرق أواخر القرن الأول الهجري والتي أدت إلى ظهور « الخوارج » صداتها في بلاد المغرب فانتشرت حركة الخوارج بسرعة بين قبائل البربر وحتى في بلاد الأندلس التي كانت في ذلك الحين تابعة لإمارة القفروان. وصارت إفريقية بدورها ميداناً للفتن الداخلية. فلم تستقر فيها دولة قوية إذا استثنينا دولة بنى المهلب، التي ظهرت الدولة الأغلبية في أواخر القرن الثاني الهجري.

وكان لدعابة الخوارج أثر عظيم في انتشار الإسلام واللغة العربية بين القبائل البربرية. وفي هذا العهد أيضاً وجه الخليفة عمر بن عبد العزيز عنابته إلى نشر الإسلام في المغرب. فأرسل جماعة من مشاهير التابعين لتنظيم هذه المهمة، وبناء صرح المغرب الإسلامي، فأسسوا المساجد في سائر أنحاء البلاد لنشر مبادئ الدين الإسلامي، وأنشأوا الكتالبيب لتعليم اللغة العربية. ويرجع تاريخ بناء جامع الريوتونة إلى هذا العهد (سنة 114 هـ). وبالرغم من الفتن والاضطرابات فقد بدأت تظهر في إفريقيا بوادر ازدهار الحضارة العربية، وشرعت إفريقيبة في ظل الإسلام تأخذ طريقها إلى الحياة السياسية والعلقانية الخاصة بها، إلى أن تكون فيها دول قوية لها شخصيتها وحضارتها، وأولى هذه الدول هي الدولة الأغلبية.

٣ — ولم تستقر الأحوال في إفريقية إلا في عهد الخلافة العباسية عندما عين هارون الرشيد سنة ١٨٤هـ ابراهيم بن الأغلب والياً عليها، جاعلاً الإمارة وراثية في بيته، وهكذا نشأت في تونس أول دولة عربية قوية مستقلة داخلياً عن الخلافة، وتعاقب أمراؤها على الحكم أكثر من

قرن بلا انقطاع. وقد اتخد الأغالبة القروان عاصمة لملكهم التي كانت تشمل مقاطعة قسطنطينية (بالجزائر) وطرابلس الغرب وفي ظل الأمن الذي استطاعت الدولة تحقيقه ساد البلاد الرخاء ونمث ثروتها الطبيعية، فانتشرت الزراعة كما كانت في عهد الرومان، وانتظمت وسائل الري في البوادي، وأنشئت المدن، وظهرت فيها الصناعات وبخاصة صناعة نسج الصوف والحرير. وعنيت الدولة بالمناجم فاستخرجت منها المعادن، وقويت الحركة التجارية في الموانئ مع العواصم الأوروبية، وانصرفت الدولة إلى الأعمال العمارة؛ فجددت مسجد القروان وأنشأت المساجد في سوسة وصفاقس، وأقامت الأسوار حول المدن والحسون على السواحل، وبنت السدود والأحواض في أنحاء البلاد لجمع مياه الأنهار والأمطار، وأشهر هذه الأحواض «صهريج الأغالبة» في القروان الذي ما يزال موجوداً حتى الآن.

وكانت مدينة القروان في هذا العصر مقلداً من معاقل الحضارة الإسلامية ومنبعاً من متابعات الفكر العربي، فانتظم التعليم في الكتب والمدارس والجامع، وتكونت المكاتب العامة لطبع الكتب الأدية والعلمية، وأنشئ بالقروان مهند لدراسة الرياضيات والطب والصيدلة وترجمة الكتب اللاتинية، وسمى هذا المعهد «بيت الحكمة». وقد ظهر في ذلك العصر من مشاهير الرجال القاضي أسد بن الفرات (المتوفى سنة ٢١٣هـ) والقاضي سحنون المتوفى (سنة ٢٤٠هـ) من أئمة المذهب المالكي، ومن الأطباء أحمد بن الجزار. واعتنى الأغالبة بالفن المعماري الذي امتاز في عهدهم بطابع خاص. وأشهر بلاط الأغالبة في القروان بمعظمته وأبهته، وكانت لهذه الدولة صلات ودية بالامبراطور شارلمان. واعتنى الملوك الأغالبة إلى جانب هذا بالفتح فسيطرؤ نفوذهم على البحر الأبيض المتوسط وكانوا ورثة قرطاجنة وروما. وقد احتلوا جزيرة صقلية سنة ٢١٢هـ واستولوا على جنوب إيطاليا سنة ٢٨٩هـ، وهكذا أوصلوا

الثقافة العربية إلى أوروبا وصار الأستانة العرب في صقلية ينشرون العلوم
ممهدين السبيل للنهضة الأوروبية التي ظهرت فيما بعد في إيطاليا. وبالجملة
فإن عصر الأغالبة كان عصر نهضة اقتصادية و عمرانية و فكرية تركت
أثراً عميقاً في بلاد إفريقيا.

٤ — وكان للمذاهب المختلفة الناشئة عن الخلافات الدينية والسياسية
القاتمة في الشرق العربي أثراً في الدولة التي نشأت في المغرب،
وقد كانت هذه البلاد حتى أواسط القرن الثالث الهجري يسودها المذهب
المالكى الذي وطد أركانه بها كل من الفقهين المالكين أسد بن
الفرات وسحنون، ولكن شيئاً فشيئاً بدأ البربر يحصلون بدرجات
المذاهب الأخرى، ووجدوا في فرق الخوارج وصلابتها في الدين تلاؤماً
مع طبيعتهم، وسرعان ما أقبلوا على اعتناق مذهبها، وما كان القرن
الثالث يوفي على نهايته حتى كان مذهب الأباسية — وهي فرقة من
فرق الخوارج — قد انتشر انتشاراً كبيراً في القبائل التي تسكن جنوب
المغرب. أما قبائل الشمال : كتمامة وصهاجة وما يبعهما فقد اعتنقت
المذهب الشيعي الذي قام بالدعوة إليه في المشرق عبد الله المهدى،
وأوقف في ذلك الحين الداعي أبي عبد الله ليتولى نشر مذهبة بلاد المغرب،
وكانت دولة الأغالبة قد أشرفت على نهايتها. فنظم أبو عبد الله الدعوة
ضدها، كون الجماعات لنشر المذهب الشيعي وحمل طاعة الأغالبة،
والعمل على تكوين خلافة شيعية بالمغرب. وعندما رأى عبد الله المهدى
أن الدعوة قد انتشرت بالمغرب، وأن جوش داعيه قد أصبحت قاب
قوسين من التصر، انتقل من دمشق إلى سجلماسة، وظل مختفياً بها
إلى أن انتهى الأمر بانهزام جوش الأغالبة، وفر آخر أمير منهم وهو
زيادة الله الأغلبي بعد أن ينس من وصول نجدة العباسين إليه. فدخل
عبد الله إلى القبروان حيث بويع بها سنة ٢٩٧ ولقب بأمير المؤمنين.
وهكذا تكونت بإفريقية خلافة الفاطميين، بينما كانت الخلافة العباسية

ما تزال قائمة ببغداد، والخلافة الأموية بالأندلس. وبعد ذلك أخذ الفاطميون يوطدون أركان دولتهم ببلاد المغرب. فأسسوا عاصمتهم الجديدة سنة ٣٠٨ وأسموها المهدية، واستطاعوا أن يخضعوا لسلطائهم كافة بلاد المغرب بعد أن قضاوا على الدولة الأليانية في تيهرت (الجزائر). والصفرية في سجلمناسة (المغرب الأقصى) والأدريسيّة في فاس، وبعد ذلك اتجه الفاطميون بدعوتهم إلى منبعها الأول في الشرق العربي، وأرادوا أن يسطروا سلطائهم عليه، فوجهوا جيوشهم بقيادة مولاهم جوهر الصقلي الذي ما لبث أن استولى على مصر ودخل عاصمتها الفسطاط، وأسس بجوارها مدينة القاهرة سنة ٣٥٨ التي أصبحت منذ ذلك الحين حاضرة الخلافة الفاطمية التي امتد نفوذها من الشام إلى أقصى المغرب؛ وعلى الرغم من الثورات التي انتابت تونس في هذا العهد فإن الحضارة العربية قد ازدهرت بها من جديد، ونشطت النهضة العلمية وانتشرت المعاهد الثقافية ليس في تونس فقط بل حتى في مدن صقلية التي كانت خاضعة لسلطائهم. وإلى جانب هذا احتفظ الفاطميون بالسيادة العربية على البحر الأبيض المتوسط، فكان أسطولهم يحجب البحار ويشن الغارات على المدن الإفرنجية وعلى جزر اليونان، واستطاعوا أن يضموا إلى خلافتهم كلاً من جزيرتي أفريطيش (كريت) وسردينيا وقسماً من جزيرة كورسيكا.

٥ — ولما انتقلت عاصمة الخلافة إلى القاهرة أصبح المغرب ولاية تابعة لمصر، يدير شؤونها أمير من أصل بربرى اسمه بلکين بن زيري ابن مناذ الصنهاجي. وهكذا تأسست الدولة الصنهاجية، وكانت مرتبطة بالخلافة ارتباطاً صورياً فحسب. واستطاع ملوكها الاحتفاظ بملكية الواسعة التي ورثوها عن الفاطميين. ثم خرج عن طاعتهم المغرب الأوسط، حيث تكونت به دولة بني حماد في فجر القرن الخامس هـ. وبقيت مملكة بني زيري محصورة في إفريقيا بعد الفتح الإسلامي،

ويعود عصرها من أشهر عصور الحضارة التونسية. وقد مهد لهم السبيل الأغالبة والفااطميين في نهضتهم بالبلاد من الوجهة الاقتصادية والعمانية والثقافية. فشارك الصنهاجيون بأوفر قسط في بناء صرح الحضارة العربية، وبلغت تونس في عهدهم الذروة العليا في الرقي والتمدن. فانتشرت الزراعة في أنحاء البلاد بفضل انتشار وسائل الري، وارتفع مستوى الصناعة الوطنية ونشطت التجارة مع الخارج، أما المهمة الأدبية والفكيرية فإنها وصلت إلى درجة لم تبللها تونس من قبل فاملاً بلاط ملوكيها برجال العلم والأدب، وعني أغلبهم بالفن المعماري فأنشأوا القصور الفخمة والمتزهات الجميلة، وتنافسوا في تشييد المعالم كالجسور والطرقات وصهاريج المياه والحقون والأسوار.

٦ — و حوالي سنة ٤٣٥ هـ، أظهر الملك المعز بن ياديس الصنهاجي انحيازه إلى أهل السنة في القبروان، وأصبح يناصر الخلافة العباسية في بغداد معلنًا خروجه عن طاعة الخليفة الفاطمي المستنصر سنة ٤٣٩ هـ. فرأى المستنصر أن يتقمّن من المعز، وأنزل إلى إفريقيا قبائل بني هلال وبني سليم ورياح التي كانت تقيم في الصعيد المصري، فوصلوا إفريقيا سنة ٤٤٠ هـ، وقد أحدث هذا الزحف العربي العظيم انقلابًا عميقاً في مختلف نواحي الحياة بإفريقيا، إذ تم بفضل هذه استعراب البلاد بصورة نهائية، إلا أنه كان من نتائجه أن عمّت البلاد الأضطرابات وتمزقت أوصال الدولة الصنهاجية، كما وقع في سائر البلاد التي كان يحكمها العرب شرقاً وغرباً وقذلاً، وبقي يتو زيري محفوظين بالمهدية والمناطق المجاورة لها. وفي تلك الفترة انتزع النورمان من العرب جزيرة صقلية بعد أن كانت تابعة لتونس مدة تقارب من ثلاثة قرون، وصاروا يغزون المهدية بين الحين والآخر حتى استولوا عليها سنة ٥٤٣ هـ، كما استولوا على معظم السواحل التونسية، بينما كانت مدن الداخل تخضع لحكم القبائل العربية. وهكذا انقرضت الدولة الصنهاجية في تونس.

٧ — وقد استنجد الملك الحسن بن علي الصنهاجي بعد المؤمن ابن علي مؤسس الدولة الموحدية في المغرب الأقصى لإنقاذ تونس من أيدي الإفرنج، وكان عبد المؤمن في ذلك الحين قد أحضى سلطانه المغرب الأقصى كما ضم إلى مملكته بلاد الأندلس، فاستجاح عبد المؤمن لاستنجاد الصنهاجيين، وسار إلى إفريقيا محلاً في طريقه المغرب الأوسط، ثم أخذ يحتل بلاد إفريقيا، وبعد أن استولى على المناطق الداخلية سار إلى مدن الساحل وطرد منها التورمان. فتم له أمر البلاد سنة ٥٥٥ هـ وهكذا تأسست دولة متaramية الأطوار تضم أقطار المغرب العربي الثلاثة، ودام أكثر من سبعين سنة استطاع فيها الموحدون أن يخدموا الثورات العديدة التي كانت تقوم ضدتهم بين الحين والآخر.

٨ — وعمل ملوك بني حفص على إصلاح البلاد من جراء العهد المضطرب الذي مر على إفريقيا، وساروا على متوال الموحدين في تنظيم دواوين الدولة واستطاع أبو زكريا مؤسس الدولة وكذلك المستنصر الذي خلفه توسيع دعائم الأمان في تونس وإخماد نار الفتن بين القبائل والقضاء على الثورات التي نشبت في مختلف أنحاء البلاد، وقد اتسعت المملكة الحفصية حتى شملت طرابلس والجزائر ومراکش التي انضم ملوكها بني مرين إلى الحفصيين وقدموا لهم فروض الولاء، كما بايعهم أمير مكة وأهل الحجاز سنة ٦٥٨ هـ. وفي عهد المستنصر أغاث لويس التاسع ملك فرنسا على تونس في الحملة الصليبية الثامنة، ونزل الطاغعون بجيشه فأفني معظمهم ولقي الملك لويس نفسه حتفه بتونس سنة ٦٦٩ (١٢٧٠) ثم شاهدت الخلافة الحفصية عهداً مضطرباً دام حوالي مائة سنة، وكان التنافس بين أمراء البيت الحفصي وتطليعهم إلى الخلافة من جهة، والخلافات القائمة بين القبائل من جهة أخرى باعثاً لكثير من الفتن التي أضفت سلطنة الخلافة المركبة، فخرج عن طاعة الخليفة أطراف المملكة، واستقل بالحكم بني يملول في توزر وبنو خلف في نفطة، وبنو مكلي في قابس، وبنو ثابت في طرابلس. وقد شجع التدهور

الذي لحق الخلافة الحفصية في ذلك العهد ملوك بني مرين في المغرب الأقصى على الاستيلاء على إفريقيا مرتين دون أن يستقر لهم الحكم بها زمناً طويلاً. وفي أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع الهجري عادت البلاد إلى وحدتها القديمة ومجدها السالف، وساد فيها الأمن بفضل أعمال الخليفة أبي العباس وال الخليفة أبي فارس، فندعمت أركان الدولة من جديد، وامتد نفوذ بني حفص إلى المغرب الأوسط بعد أن سقطت تلمسان في أيديهم ثم إلى المغرب الأقصى والأندلس. وقد عني كل من هذين الخليفتين باقامة الحصون على السواحل لرد الحملات التي ابتدأ يشنها الصليبيون على تونس، بيد أن الخلفاء الذين تولوا بعدهما لم يستطيعوا أن يحافظوا على مكانة الدولة فساروا بالبلاد في التهori، وخرج عن سعادتها كثير من الأتحاء حتى لم يبق تابعاً لهم في أواخر القرن التاسع الهجري غير مدينة تونس، وما جاورها من المناطق، واستقلت مدن السواحل بحكم نفسها، وأخذت كل واحدة منها تلعب دوراً هاماً في البحر الأبيض المتوسط.

وفي عهد الدولة الحفصية رأت البلاد عصراً زاهراً بالرغم مما انتابها من اضطرابات وضعف سلطة الخلفاء المركبة، وقد عقدت الدولة الحفصية عدة معاهدات لتنظيم الملاحة وتوثيق العلاقات التجارية والسياسية بينها وبين البلاد الأوربية، كبرشلونة وجنتو وبيزه وصقلية والبنديقية ومرسيليا وانتشرت بين التجار الأوروبيين أسواق تونس والمهدية وقبس وعنابة وأصبحت قبلة تجارة البحر الأبيض المتوسط. وأيعدت الحياة الأدبية والعلمية في هذا العصر، وكان تزوح العرب من الأندلس وصقلية إلى تونس من العوامل التي كان لها أكبر الأثر في انتشار العلوم والفنون، ظهر أثر القرن الأندلسي فيما أنشئ من المباني : كجامع القصاء بعاصمة تونس وصومنته المشهورة وأسواق المدينة وأبوابها التي ما تزال موجودة إلى الآن. كما عمل الملوك الحفصيون على تشجيع

العلم والأدب في البلاد، فأسسوا المدارس لسكنى الطلبة ونظموا التعليم بجامع الزيونة، ومن مشاهير رجال العصر ابن خلدون وابن عرفة والأطباء من آل الصقلي.

٩ — وشهد القرن العاشر الهجري ذلك التزاع الكبير الذي كان قائماً بين الأسبان والأتراك للتحكم في البحر المتوسط والسيطرة عليه، وقد ابتدأ نفوذ الأسبان يمتد إلى سواحل المغرب بعد أن طردوا العرب من الأندلس، بينما ظهر في الموضع الشرقي للبحر الأبيض المتوسط بعض القواد الأتراك مثل يابا عروج وأخوه خير الدين الذين كانوا يعملون باسم السلطان العثماني. وهكذا أصبح العثمانيون والاسبان يتسابقون للسيطرة على سواحل تونس بعد أن عجز أمراء بنى حفص على رد هجماتهم. واستطاع أمراء الإفرنج احتلال أهم مركز السواحل التونسية، وسقطت مدينة تونس سنة ٩٥٠هـ، في أيدي الأتراك الذين احتلوها بعد استيلائهم على مدينة الجزائر. ثم انتزعها منهم الأمير الحفصي الحسن وعاد إلى حكمها تحت الحماية الإسبانية سنة ٩٤٢هـ. وفي النهاية استطاع الأتراك طرد الأسبان من مدن السواحل، بفضل الحملات التي شها عليهم القائد التركي الشهير درغوث بمساعدة القبائل العربية. وبقيت الحرب بين الأسبان والأتراك قائمة مدة طوبلة، وبعد أن استرجع الأتراك مدينة تونس سنة ٩٧٧ بقيادة علي باشا أمير الجزائر عاد إليها الحكم الأسپاني الحفصي سنة ٩٨٠، ثم غزاها أسطول تركي جاء من الأستانة بقيادة سنان باشا، بينما رحقت إليها قوات أخرى من طرابلس والقبرص سنة ٩٨١هـ. وهكذا أصبحت تونس ولاية تابعة للسلطنة العثمانية وجزءاً من ممتلكاتها في شمال أفريقيا الممتدة من الجزائر إلى القطر المصري.

و عمل سنان باشا قبل مغادرته تونس على تنظيم إدارة شؤون البلاد حسب النظام المعمول به فيسائر البلاد التركية، وكان يحكم ولاية

تونس نيابة عن السلطان العثماني والي يحمل لقب «باشا» ويساعده ديوان يتتألف من ضباط الجيش، وكانت قيادة الجيش بيد «آغا»، وقيادة كل فرقة عسكرية بيد «الدai»، وعین لجباية المال موظف يسمى «البای»، وقد أخذ نفوذ الديوان يتسع شيئاً إلى أن أدى الأمر بالبلاد إلى قيام ثورة سنة ٩٩٩هـ (١٥٩٠م) كانت نتيجتها اعطاء مقاليد الأمور إلى أحد «الدaiات»، ثم أخذ نفوذ الدai يتسع شيئاً شيئاً، بينما كان يضاعل نفوذ «باشا» الممثل الرسمي للدولة العثمانية في تونس، وقد نظمت شؤون هذه الولاية في عهد عمان داي الذي عمل على تقوية الجيش وإعطاء قياداته إلى «باي»، وسار على مثاله يوسف داي الذي تولى الحكم سنة ١٠١٩هـ (١٦١٠م)، فاستبد الأمن في عهدهما ونهضت البلاد من جديد.

ثم ساءت الأحوال في تونس بعد ذلك، لأن الدaiات الذي تعاقبوا على الحكم من سنة ٤٧٠هـ (١٦٣٧م) إلى سنة ١١١٧هـ (١٧٠٥م) لم يستطعوا أن يحتفظوا لأنفسهم بالنفوذ، وقد تضاعلت سلطتهم أمام سلطة «البايات» التي أخذت تتسع يوماً بعد يوم طول القرن الحادى عشر الهجري. ومن العوامل التي قوت نفوذ البايات ما أعمد إليه الباب العالي من إعطائهم لقب «باشا»، وجعل منصب البای وراثياً وقد امتازت الثالث الأخيرة من القرن الحادى عشر وأوائل القرن الثاني عشر بما انتاب البلاد من حروب واضطرابات ناتجة عن التنافس على العرش. فنشبت الفتن الداخلية، وقامت حروب بين إمارة الجزائر وإمارة تونس، فعمت الفوضى، وتمزقت أوصال الدولة وضفت السلطة المركزية، مما شجع أساطيل الدول الأوروبية على ضرب سواحل تونس بالقنابل مرات عديدة، وعلى آخر غزوة قام بها والي الجزائر سادت البلاد اضطرابات شديدة، وتمكن آغا الجيش حسين بن علي من الاستيلاء على الحكم بمساعدة الجيش التركي وموافقة الأهالي سنة ١١١٧هـ (١٧٠٥م).

وهكذا تأسست الدولة الحسينية التي توارث الحكم في تونس إلى يومنا هذا. فعاد الأمن للبلاد بعد حالة من الاضطرابات دامت أكثر من أربعين سنة. وقضت الدولة الحسينية منذ أوائل عهدها على الثورات التي كان يقوم بها الجيش من حين لآخر لقلب نظام الحكم، وجعلت الولاية وراثية في العائلة الحسينية، واستطاع حسين بن علي مؤسس الدولة الذي دام عهده خمساً وتلذين سنة إصلاح شؤون البلاد، فانتشر العمران في تونس ونشطت الفلاحة والصناعة والتجارة، وتأسست المنشآت العلمية. ومن بين ملوك البيت الحسيني الذي اشتهروا بأعمالهم ومازالت آثارهم يجيء أن نذكر على باي (١١٤٨هـ - ١١٦٩هـ) : ١٧٢٦م - ١٧٣٥م) الذي استطاع أن يحقق لتونس عشرين سنة من الرخاء والطمأنينة. أما حمودة (١١٩٦هـ - ١٢٢٩هـ) : ١٧٨٢م - ١٨١٤م) فقد اشتهر في التاريخ بعمق علاقاته مع أوروبا وخاصة مع تابليون سنة ١٨٠٢م، وبحربه مع البندقية التي دامت ثمان سنوات (١٧٩٢-١٧٨٤م).

وقد امتاز الحكم التركي في تونس - شأنه في ذلك كشأنه في كل الملك التي كانت تسيطر عليها الدولة العثمانية - بأنه كان يقوم على القوة وعلى الجيش. وكان هم الدولة العثمانية الاستيلاء على أزمة الحكم في ممتلكاتها مستندة في ذلك على الجيش. ولم يكن لها اتجاه معين في سياستها. ولا مبادئ تسير عليها في تنفيذ هذه السياسة، وبقدر ما يستطيع الجيش أن يحافظ على الأمن تزدهر الحياة الاقتصادية، وتنمو التجارة والصناعة والفلاحة والعلوم والفنون. وكان يتحكم في البلاد قوتان عظيمتان هما : الجيش من جهة، ويعتمد عليه الوالي في حفظ الأمن وجباية الأموال، وطائفة « الرياس » من جهة أخرى، وهم الذين يتولون عمليات القرصنة، وهي نوع من العمليات الحربية التي كان يقوم بها الجانians المتهاجرين من الدول الأوروبية والشرقية وقد

رأى تونس تحت الحكم التركي عهوداً زاهراً بالرغم مما انتاب البلاد من اضطرابات بفضل ما بذله بعض الأمراء الصالحين من مجهد جبار للنهوض بالبلاد في سائر نواحي حياتها. وفي أوائل هذا العهد كان تزوج عدد كبير من العرب الذين طردوا من الأندلس سنة ١٠١٦هـ (١٤٠٩م) من العوامل التي نشطت التجارة وال فلاحة والصناعة، وقد استوطن عرب الأندلس في سهول بنزرت ومجردة والدخلة، وشيدوا فيها القرى الفلاحية كطبرية ومجاز الباب وتستور والعالية وقلعة الأندلس وقربالية وزغوان وسليمان والجديدة وأنشأوا المزارع والبساتين، حتى عادت إلى البلاد رفاهيتها القديمة، وكانت الفنائين التي يضمها القرصان في البحر الأبيض المتوسط من عوامل إثراء السكان، وقد قوت القرصنة حركة البلاد التجارية وجعلت أسواق المدن مزدهرة. على أن أعمال القرصنة لم تكن حالاً دون ربط الصالات بين تونس وأوروبا، واستثناف علاقتها التجارية مع الدول كاسبانيا والدانمارك والولايات المتحدة، فبمجرد أن انقطعت أحوال الدولة، نشطت تجاراتها مع مرسيليا وليفورن وبقية المدن الأوروبية، وقد تكونت علاقات رسمية بين تونس وفرنسا سنة ١٥٧٧م وأرسل ملك فرنسا هنري الثالث قنصلاً إلى تونس بعد الحصول على موافقة الدولة العثمانية التي أعطت لفرنسا امتيازات كبيرة في سائر ممتلكاتها. وقد ابتدأت تونس تسير شيئاً فشيئاً نحو شكلها الحاضر، وبخاصة منذ تولي حسن بن علي الحكم وجعله وراثياً في بيته. وكانت الروابط التي تربط الأمراء الحسينيين بالدولة العثمانية تتلاشى على مر الأيام، وضعف سلطان تركيا في تونس حتى كاد يكون عديم الوجود. وهكذا ابتدأت تنمو في تونس قومية تونسية بالمعنى الحديث وظهرت للوجود دولة تونسية اعترفت الدول الأوروبية بكيانها وعقدت معها المعاهدات، والحقيقة أن العنصر التركي الذي نزل بأرض تونس وأقام الحكم فيها قرонаً عديدة لم يدخل تغيراً جوهرياً في أحوال البلاد، ولم يعتبر أهل تونس الغزاة الأتراك أجانب عنهم إذ كانوا يحكمون

البلاد نيابة عن السلطان خليفة المسلمين جميعاً على أن العنصر التركي لم يحتفظ بشخصيته بل اندمج بمرور الزمن في العنصر العربي. واستمرت الهبة التونسية التي ابتدأت في عهد الدولة الحفصية. وأخذت طابعها الخاص بلا انقطاع تحت الحكم العثماني، وأخذت تونس تسير بخطى سريعة نحو التطور العصري بعد أن طلع عليها فجر القرن التاسع عشر الميلادي.

وفي أوائل القرن التاسع عشر بدأت تونس تستيقظ متدرجة في طريق النهضة العصرية، وكان يربطها بالدولة العثمانية مجرد روابط روحية، فبادرت بالتحرر من هذه القيود الصورية، واعترفت الدول الأوروبية كفرنسا وإنكلترا والمسا باستقلالها، وعقدت معها المعاهدات والاتفاقات. ثم اتجهت همة أمرائها إلى إدخال الإصلاحات على مرافق البلاد الحيوية، وفي مقدمها إصلاح الحكم بما يتفق والنظام الدستوري السائد في الأمم المتقدمة، وقبل فرض الحماية الفرنسية ب نحو أربعين سنة تجد على عرش تونس الباي المصلح الشهير أحمد باشا (1827م - 1855م)، ثم محمد باشا (1855 - 1860) وقد أصدر عام 1858 دستوراً لبلاده هو أول دستور في العالم العربي ثم الصادق باي (1860 - 1881) وفي عهده فرضت فرنسا حمايتها على تونس في 12 مايو 1881.

الفصل الأول

الحالة الفكرية في بلاد المغرب

تمهيد :

منذ فتح المغرب العربي، وأُسْتَقِرَّ القَبْرَوانُ عَامَ ٥٥٠ هـ، وَأَنْشَئَ جَامِعَ الْزَّيْتُونَةَ فِي تُونِسَ، وَالثِّقَافَةُ الْعَرَبِيَّةُ إِلَيْهِمْ آخِذَةٌ فِي الظَّهُورِ وَالْوُضُوحِ وَالْغَلِيلِ، وَكَانَتِ الصِّبَغَةُ الْغَالِبَةُ عَلَى الْعُلَمَاءِ هِيَ الصِّبَغَةُ الدِّينِيَّةُ وَالثِّقَافَةُ الْذَّائِعَةُ فِي الْمَغْرِبِ هِيَ ثِقَافَةُ الشَّرِيعَةِ وَعِلْمَهَا، وَكَانَ لِمَدْهُبِ مَالِكٍ السِّيَادَةُ الرُّوْحِيَّةُ عَلَى هَذِهِ الْبَلَادِ، الَّتِي لَمْ يَنْتَعِّمْ مِنْهَا فِي لِسُونِهِ أَوْ عَالَمِهِ كَبِيرًا فِي ذَلِكَ الْحِينَ، وَكَانَ أَنْبَعُ عَلَمَائِهِ إِنَّمَا يَنْتَعِّمُ فِي عِلْمِ الدِّينِ أَوْ لِلْغَةِ أَوِ الْأَدَبِ.

وَكَانَ الْقَرْنُ الرَّابِعُ أَوَّلَ عَهْدِ الْمَغْرِبِ بِالْفَلْسُفَةِ وَمِبَاحِثِهِ، إِذَاً أَنَّ الْقَاطِمِيْنَ قَدْ نَقْلُوهُمْ مَعَ دِعَوْتِهِمْ، وَمَزْجُوا بِمَسَالِهِمْ عَقِيْدَتِهِمْ، فَأَخْدَتِ الْفَلْسُفَةُ تَظَاهَرَ فِي رَبْوَةِ الْمَغْرِبِ، مَكْرُوْهَةً مُضطَهَدَةً، يَحْرِمُهَا الْعَامَةُ وَالْفَقِيْهُ، وَقَامَتْ دُولَةُ الْمَرَايِطِينَ فِي الْمَغْرِبِ وَالْأَندَلُسِ، فَاضْطَهَدَ مُلُوكُهَا كُلُّ مَنْ يَشْتَغِلُ بِهَا، أَوْ يَجْمِعُ كِتَابَهَا، وَحَرَمُوا جَمِيعَ فَرَوْعَهَا مَا عَدا الرِّيَاضَةِ وَالْمِيقَاتِ وَالْأَطْبَابِ.

ثُمَّ قَامَتْ دُولَةُ الْمُوْهَدِينِ، فَمَزْجَ أَبْنَ تَوْمَرَتْ دِعَوَتِهِ بِمَدْهُبِ الْأَشْاعِرَةِ

من المتكلمين، وخاض هو وخلفاؤه في مسائل من الفلسفة، وجمعوا كتبها، وقدموا رجالها، وبعد انتهاء دولتهم أخذت الفلسفة تنشط حيناً وتهدى حيناً آخر، وكان أظهر من نفع فيها من المؤرخين وال فلاسفة ابن خلدون (٧٣٢-٨٨٠هـ)، وسنن خلدون بعد ذلك بحدث طويل مستفيض، تتحدث عن حياته، ونلم بتراثه الفكري، ومذهبه في التاريخ ونقده، ونرج على كثير من أمهات المسائل التي ابتكرها ابن خلدون وأشار إليها في مقدمته الخصبة الرائعة.

الحياة العلمية :

١— كان المسلمين في أول أمرهم بالمغرب لا يعنون إلا بعلوم القرآن والحديث والفقه، فأخذنوا فقههم عن صاحب مالك بن قاسم المصري، وأولهم أسد بن الفرات مفتى الجماعة بالقيروان زمن الأغالبة، وتلميذه سحنون الذي نقل مدونة الفقه التي رواها ابن قاسم عن مالك، ولخصها ابن أبي زيد القيرواني. وعنهم انتشر مذهب مالك في المغرب إلى وقتنا هذا، إلا في فترات كان يروج فيها فقه الشيعة الأدارسة والقاطنين وفقه الخوارج، وكان من أعظم المؤيدين لمذهب مالك بالمغرب والعاملين على إبادة فقه الشيعة وغيرهم المعز بن ياديس عندما خلع طاعة خلفاء مصر من القاطنين.

أما علم الحديث فانتشر بالمغرب وجزائره بعد الفقه بقليل. وكان لهم فيه حفاظ ثقات، إلا أن بعد الشقة عليهم جعل أكثرهم لا يرحلون في طلبه إلا إذا خرجوا للحج ولذلك كان عمدتهم كتب الحديث التي صحت عند المشارقة ككتاب السنة الستة المشهورة، واشتهر عندهم من بينها صحيح مسلم، وفضلوه على صحيح البخاري وشرحه كثير منهم، ومن أشهر شروحه شرح المازري الصقلي. وتتصبب المرابطون للسنة وطاردوا المشتغلين بعلم الكلام والفلسفة أي مطاردة.

أما علم الكلام فلم يكن من دأب المغاربة البحث في الجدلية المستمدّة من غير الكتاب والسنة، إلا أن الفوادِم أدخلوا معهم في المغرب عقائدهم في الدين ممزوجة بالفلسفة، فاشتغل بها في زمانهم بعض أهل قرية أفريقيا وبعض من دخل في طاعتهم في دولة الأدارسة. ولما نقلوا حاضرة ملوكهم إلى القاهرة نسخ مذهب الشيعة في المغرب أو كاد، ولكن الاشتغال بعلوم الأوائل لم يضعف إلا قليلاً ربما ظهر مهدي الموحدين ابن تومرت ناقلاً مذهب الأشاعرة من المتكلمين عن الغزالى، وجعل علم التوحيد غايتها من دعوته، وألف كتاباً، وجاء خلفاؤه من بنى عبد المؤمن فحفروا به وشجعوا المؤلفين فيه والمستشرقين بعلوم الأوائل.

٢— وكانت عناية المغاربة بعلوم العربية لا تقل كثيراً عن عنايتهم بعلوم الدين، وكان أكثر اعتمادهم فيها على ما نقلوه من كتب البصريين والكوفيين، ولم يكن لهم في النحو رواية عن الاعراب ولا مذهب خاص كما صار للأندلسيين فيه.

ولكن اهتمام المعر بن ياديس وأهله أثبت في القبروان نابتة من أئمة النحو والأدب واللغة، كالأمام ابن القزار محمد بن جعفر صاحب المعجم الكبير المسمى الجامع في اللغة، ويعتبر من أمهات كتبها، رتبه على حروف المعجم سنة ٤١٢، وعليه تخرج ابن رشيق وابن شرف وغيرهما من أدباء القبروان، والعلامة في كل علم والرحالة إلى كل قطر ابن فضال المجاجعي القبرواني، صاحب التصانيف الممتعة في اللغة والأدب والحديث والتفسير، مات ببغداد سنة ٤٧٩، ومن أشهر علماء النحو والقراءة بصفلية على بن القطاع الصقلي صاحب كتاب الأسماء، وكتاب الأفعال وغيرهما من المؤلفات الضخامة، توفي بالقاهرة سنة ٥١٤، وعثمان ابن علي السرقوسى الصقلى المقرى النحوى اللغوى وغيرهما. ومن علماء المغاربة الذي برزوا في هذه العلوم، وخاصة الفلك

والجغرافية، الشريف الإدريسي الذي ألف لرجار نرماندي ملك صقلية كتاباً في الفلك والجغرافي، ورسم له الأرض في مصور جغرافي اتخذه من الفضة، فكان أصح من رسم بطليموس.

ومن رحل إلى الغرب من الأندلسيين، أبو عبدالله محمد بن أبي الخصال، وأخوه أبو مروان، وأبو محمد بن عبد المجيد بن عبدون، وقد تخرج عليهم من أبناء البلاد كثير مثل : ابن العيمون وابن محشوة، وقد مر بك أن ابن هاني لما ضاقت به بلاد الأندلس لم يجد ملحاً إلا بلاد المغرب، فنزل على الفاطميين بها، فلاقى منهم الإكرام والحفاوة بالبالغين. والأثر الواضح لاستفادة هذه البلاد من رحلة العلماء والأدباء إليها، بل أهل الصناعات وأرباب الفنون عامة، إنما كان حين انتقامه مدة العرب بالأندلس وإجلائهم عنها، فإنهما انساحوا في بلاد المغرب، فكان لهم عليهم اليد الطولى في الأدب والعلم والصناعة والزراعة حتى أتملأوا أهل البلاد. وقطعوا أرزاقهم. وكان لا يستعمل بلدي ما وجد أندلسي. ويقول ابن خلدون في هذا : « وألقت الأندلس أفالذ أكبادها من أهل المملكة — يريد المملكة العربية — بالجلاء إلى إفريقيا، ولم يلبثوا أن انقضوا، وانقطع سند تعليمهم في هذه الصناعة، بعسر قبول أهل العدوة لها، وصعوبتها عليه، ووعج أستحهم، ورسوخهم في العجمة البربرية ».٨

٣ — ومن أهم مراكز الثقافة في القديم والحديث (جامع الزيتونة)، وهناك اليوم أكثر من ستة ملايين مسلم من سكان شمال إفريقيا يتطلعون إلى (جامع الزيتونة) بتونس، ويزرون فيه ملجاهم وملاذهم، ويعدونه ركن الإسلام ومعهد الثقافة العربية، وهذا المسجد من أقدم المعاهد الإسلامية الباقية، فهو أقدم عهداً من الجامع الأزهر، إذ بني في العام التاسع والسبعين للهجرة (٦٩٨هـ) في عهد حسان بن النعمان الفساني والي إفريقيا، الذي توجه إلى تونس بأمر الخليفة الأموي عبد الملك

ابن مروان لمقاتلة البيزنطيين سنة 693 م في جيش عدته أربعون ألف مقاتل، فهزم البيزنطيون بادي الأمر، ثم عاد قتلت أمامهم وانتصر عليهم، ودخل قرطاجنة، عاصمة البلاد وحصتها المنيع، سنة 695 م، ولكنه فقدها، ثم عاد إليها ثانية في العام التالي برأ وبحراً فاستولى عليها، وصالحة الرومان على الخارج، غير أنهم ما ليتوا أن ركبوا مراكبهم وهربوا، فتم الأمر لحسان، فأخذ يبذل الجهد ليكون دولة إسلامية قوية في جميع نواحيها. فشيد مدينة تونس، وبنى بها داراً لصناعة السفن، وأنشأ أسطولاً عظيماً جعل ممالك البحر الأبيض تهاب هذه الدولة العربية الناشئة، وتخشى بأن جيوشها. ولم يمض إلا أعوام قلائل حتى داتت البلاد كلها لحسان، واستتب الأمن بها، واستطلت برأية الإسلام، فأخذ يوجه عباده إلى العلم، فاختار نشراً نظلله أشجار الزيتون، وأمر بتشييد جامع يؤمه المؤمنون للصلوة، ويطلقون فيه أصول دينهم الجديد، فسمى (جامع الزيوتنة) نسبة إلى موقعه. وقد بني هذا الجامع على طراز مسجد القبروان، ونقلت أعمدة الرخامية المنتشرة في ساحاته من خراب قرطاجنة، وصنعت أبوابه ومبرده من خشب الصندل. وفي سنة خمسين ومائتين للهجرة شيدت به قبة كقبة مسجد القبروان، مما يدل على أن هذه القبة كانت حيئذة أنمودجاً بارزاً يقع في بناء القباب. وفي سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة توج المنصور جامع الزيوتنة بقبة ثانية، اشتغلوا من نظام مسجد القبروان أيضاً، وأسموها قبة باب البهور، وبذلك صارت القباتان في هيئة واحدة، وإن كان بينهما مائة وستون سنة، فعنصرهما واحدة، وعدد ما بهما من الأعمدة والعقود والأقواس والضلوع واحد، وكانت مئذنة (جامع الزيوتنة) متساوية لسطحها أول ما بني، فهدمت في أواخر القرن الماضي، وحل محلها أخرى يربو ارتفاعها إلى الأربعين متراً، وتعتبر آية من آيات فن البناء، فهي تمثاز عن مآذن المساجد في البلاد الإسلامية الأخرى بتربيع ضخم ساق يكاد يفرد لها به في عمارة المآذن، وأخر

بمن يهتم بذلك الفن أن لا يغفل زيارتها إن حرص على أن لا يفوته
أثر خالد في ذلك الباب.

وتعاقبت الدول، وتوالي الملوك والولاة على تونس، فلم تصرفهم مشاكل السياسة وشئون الحرب عن العناية بالأداب والعلوم، لا سيما العلوم الإسلامية واللغوية، ممثلة في (جامع الزيتونة)، الذي ما لبث أن صار بعد خمس وثلاثين سنة من إنشائه معهداً علمياً تدرس فيه الفلسفة والمنطق والهندسة والحساب والطب، بالأسلوب الذي كان معروفاً في ذلك العهد البائد، فأقبل عليه الطلاب من كل فج، وتخرج فيه الأدباء والعلماء في كل فن، وارتقت إلى مصاف الجامعات الدينية، حتى لقد نافس — في القرن الثالث الهجري — معاهد قرطبة والقيروان ودمشق وبغداد، وفيه تخرج، المؤرخ الفيلسوف (ابن خلدون) والفقيم المجتهد (ابن عرفة) الذي ما برح آراؤه وفتاویه مرجعاً في الأقطار الإسلامية، وخاصة في أفريقيا الشمالية.

ولما ارتقى العرش التونسي (الباي أحمد باشا الأول) وضع نصب عينيه أن ينهض بهذا المعهد بهمة تتفق ومكانته الدينية والعلمية. فأصدر في ٢٧ رمضان سنة ١٢٥٨ هجرية قانوناً نظم به الدراسة في الجامع الأعظم. وقد كتب هذا القانون بماء الذهب؛ وسمى (المعلقة)، لأنه علق على باب الشفا من أبواب الجامع. ولا يزال معلقاً إلى اليوم ذكرى طيبة لهذا العاهل العظيم، الذي لم يقف به همه عند هذا الحد، بل أعاد تنظيم مكتبة الجامع، وأهدىها آلاف المجلدات النفيسة، ومن بينها مخطوطات أثري فريد. هو تفسير القرآن بالخط الكوفي، كتب في القرن الثالث الهجري.

ومنذ صدور هذا القانون أخذت الحكومات المتعاقبة تؤلف بين الحين والحين لجاناً لوضع برامج التعليم وتنفيتها، ومن بين هذه اللجان لجنة شكلت في سنة ١٣١٥ هجرية، اقررت وجوب امتحان الطلبة في

بعض العلوم الحديثة، غير أنها لم تخصص لهذه العلوم دروساً معينة بالجامع، اعتماداً منها على دروس يتقاها الطلبة خارج المعهد، فنظمت المدرسة الخلدونية دروساً ليلية لهذه العلوم، لأن روح المحافظة الجامدة والطرق التربوية التقليدية المتبعه في الجامع قد تاهضت كل محاولة للنهوض بها، ووقفت في سبيل كل اجتياح في العلوم الدينية، أو تقدم في العلوم الدنيوية.

وكان من أثر التطور العلمي الحديث أن ضيق الدائرة أمام خريجي هذا المعهد، فقصر عملهم على المناصب الشرعية التعليمية، كالأمامه والوعظ والقضاء والتدريس. فسيقهم خريجو المعاهد الأخرى. وتبعوا دونهم أسمى مناصب الحكومة. فكان لا بد من ترقية هذا المعهد ليتناسب مع روح العصر. وليخرج طبقة من المتلقين يصلحون لتولي مختلف الوظائف. فشكلت لجنة ثانية في سنة ١٣٣٠ هجرية (١٩١٢ م) صدر عنها قانون من إحدى وثمانين مادة، أدخلت بمقتضاه إصلاحات كثيرة على نظام التعليم. فصارت بعض العلوم العصرية تدرس إيجارياً داخل المعهد، وأضحت الامتحانات شفوية وتحريرية منظمة. وقد نص في المادة الأولى من هذا القانون على المواد التي تدرس في (الجامع الأعظم) هي : القرآن والقراءات والتجويد والتفسير والحديث ومصطلح الحديث والتوجيد والفقه والأصول والسيرة والنحو والصرف والبلاغة والعرض والإنشاء وأدب اللغة والخط والتاريخ والجغرافيا والحساب والهندسة والرسم والهيئة والمنطق والتصوف. وبعض هذه العلوم يدرس في توسيع وإفاضة، فالحديث مثلاً يدرس في الموطأ مع شرح الزرقاني، وصحيف البخاري بشرح القسطلاني، وصحيف مسلم بشرح الأبي، والتوجيد يدرس في شرح الجرجاني على مواقب عضد الدين الإيجي، والكبيري للستوسي، وشرح الفتازاني على العقائد النسفي، وعلم الأصول يدرس في التوضيح لصدر الشريعة عبد الله المحجوبي، وشرح الإيجي

على المختصر لابن الحاجب، وشرح المحلى على جمع الجواصع للسيكي. وال نحو يدرس في المختصر لابن هشام. والتصرف في الإحياء للغزالي. والبلاغة في المفتاح للسكاكى مع شرح الجرجانى. ولللغة والأدب فى المثل السائر لابن الأثير، والمزهر للسيوطى، وفقه اللغة للشعالى، وشرح المرزوقى على ديوان الحماسة.

وفي سنة ١٣٤٤ هجرية ظهرت الحاجة إلى إصلاح جديد، فشكوت لجنة أخرى لوضع برنامج حديث يتفق وتطور الفكر ونهضة العلم في هذا العصر، غير أن مقترناتها اصطدمت مرة أخرى بمعارضة المحافظين من الشيوخ والعلماء، فلم يقدر لها أن تبرز إلى الوجود؛ فقد أدى المحافظون إلا صيانة الأثر القديم، وإبقاءه كما تسلمه من السلف، ولكن جهود المجددين القائمين على إدارة هذا المعهد — وعلى رأسهم أحد شيوخى الجامع، العالم التونسي الكبير فضيلة الشيخ محمد الطاهر ابن عاشور — تغلبت على معارضة المعارضين، فاستطاعت أن تعدل المنهاج، وتضيف إلى مواد الدراسة علوم التاريخ والجغرافيا والرياضيات والفلك والتربية وعلم النفس والفلسفة، وجعلت تدريسها في الكتب الحديثة.

الفصل الثاني

أعلام من المغرب

كان أغلب ما يسود تأليف^(١) المشارقة الإيجاز، لش肯 ملكتهم من التصرف، مثل كتاب ابن الحاجب، في فروعه وفي أصوله، والخونجي في المنطق، وغيرهما، وإن كان الغالب على جل آئمه المشارقة الإطناب، مثل الغزالى والإمام الفخر وغيرهما. وأما أهل الأندلس فالغالب عليهم فقه البلاغة، في حسن رصف الكلام وانتقامه، مثل عبارة القاضى عياض فى تأليفه، التى لا تسمح القراء باليات بمثلها، والنسيج على متواها. وقد انتهت صناعة التأليف فى علماء المغرب، على صناعة أهل المشرق، لشيخ شيوخ العلماء فى وقته : ابن البناء الأزدي المراكشي^(٢) فى جميع تصانيفه، أوجب ذلك براءة نسبة من البناء، وملكته فى التصرف، التى هي نتيجة تحصيله، ولم يظهر من علماء فاس شيء من التأليف المرتجلة ولا الملخصة إلا ما كان سببه النسيج بها على ما هي عليه فقط، كما فى التأليف المدونة المتسوية للشيخ

(١) راجع ص ٢٣-٢٤ أزهار الرياض فى أخبار القاضى عياض.

(٢) هو أحمد بن محمد بن عثمان الأزدي، أبو العباس المراكشي، المشهور بابن البناء، ولد سنة ٦٥٤هـ، وتوفي بيده سنة ٧٢١هـ. (عن الدبياج لابن فرجون).

(أبي الحسن^(١)) وهي التي اعنى بها طلبه، وبنوها على ما قيدوا عنه من فوائد المجلس، وذلك كله في العشرة الرابعة من المقة الثامنة. ثم تلاميذ طلبة الشيخ الجزوئي^(٢)، على الرسالة، وتعددت تلك التفاصيل أيضاً، ونسبت للشيخ، وإنما له فيها ما قيد عنه في المجلس. واختلف نظر الشيوخين بحسب تعدد السلاسل^(٣). فقيد كل طالب ما سمع. فلا يقال في هذه تاليف، لكونها منسوخة من أماكن معروفة، والعلة في ذلك كون صناعة التعليم، وملكة التقى، لم تبلغ فاساً كما هي بمدينة تونس، اتصلت إليهم من الإمام المازري^(٤)، كما تلقاها عن الشيخ الخمي، عن حذاق القرويين، وانتقلت مملكة هذا التعليم إلى الشيخ ابن عبد السلام^(٥)، مفتى البلاد الأفريقية وأصيقها، المشهود له برتب التبريز والإمامية، واستقرت تلك الملكة في تلميذه ابن عرفة^(٦) رحمة الله، وفي الشيخ ابن الإمام التلمساني^(٧)، ونجب طلبه ابن الإمام

(١) هو علي بن محمد بن عبد الحق الزربلي المعروف بالصغير (بصيغة الصغير) توفي عام ٧٧١٩هـ (عن الديباج).

(٢) هو أبو زيد عبد الرحمن بن عمان الجزوئي، صاحب تفاصيل الرسالة المشهورة الفقهية المحافظة : توفي سنة ٧٤١هـ (عن الديباج لأحمد بابا).

(٣) يراد بالسلاسل عند المغاربة : العرات التي يقرئ فيها الشيخ تلاميذه الكتاب، المرة : سلسلة.

(٤) هو محمد بن علي بن عمر الشمسي المازري الصقلي. توفي (سنة ٥٣٦) عن ثلاث وثمانين سنة.

(٥) هو محمد بن عبد السلام بن يوسف بن كثير قاضي الجماعة بتونس، له تفاصيل، وشرح مختصر ابن الحاجب شرحاً حسناً، ولد سنة ٦٧٦هـ وتوفي سنة ٧٤٩هـ (عن الديباج، لابن فرحون).

(٦) هو محمد بن محمد بن عرفة الورغمي : ولد سنة ٧١٦هـ. وتوفي سنة ٨٠٣هـ تقيده الكبير في منصب مالك في نحو عشرة أسفار.

(٧) للامام أبي زيد محمد بن عبدالله التلمساني ابنان، هما أبو زيد عبد الرحمن توفي سنة ٧٤٣هـ، وأبو موسى عيسى، توفي سنة ٧٤٩هـ، وهو العරاد هنا.

تلميذه الامام أبو عبدالله الشريفي^(١)، شارح الجمل، وانتهت طریقته لولده أبي بحی المفسر العالم. واستقرت أيضاً طریقة ابن الإمام في تلميذه سعید بن محمد العقاباني^(٢)، وانتهى ذلك إلى ولده أبي الفضل قاسم العقاباني^(٣) : رحمهم الله جميعاً.

قال ابن خلدون، ولمن ذكرنا من أهل الملة الثامنة انتهت طریقة التعليم، وملکة التلقی. يعني بذلك الشیف والعقاباني رحمهما الله... لكونهما ألهما التصانیف البعیدة، وزاحما رتبة الاجتیاد من غير منازع. وكذلك يبلغ رتبة التبریز في تحصیل العلم، كل واحد من ولدیهما، الفقیہ السید أبو القاسم بن سعید، والفقیہ الأوحد السید أبو بحی الشریف^(٤)، إذ بلغا درجة الأمامة والفتیا. وأما الإمام بن عرفة، فانتفع به جماعة، فكان أصحابه كاصحاب سجحون^(٥)، أئمة في كل بلد. فمثمنهم أيضاً من بلغ درجة التألیف، ووقع الاتفاق على إمامته، وتقديمه وسمو رتبته، كشیخنا الإمام الحافظ المحصل أبي القاسم ابن أحمد البرزلي، مفتی البلاد الافريقیة، ومؤلف كتاب الأسئلة الحاوی للنوازل والفتاوی. ومنهم شیخنا الإمام الحافظ المجتهد، صاحب التصانیف المقیدة، أبو عبدالله محمد بن مرزوقي، وله «المترعرع النبیل»، في شرح مختصر خلیل «شرح التهذیب»^(٦)، وغير ذلك من المسائل العلمیة.

(١) هو أبو عبدالله محمد بن أحمد الشریف التلمسانی. ولد سنة ٧١٠ وتوفي سنة ٧٧٧١.

(٢) هو سعید بن محمد بن محمد العقاباني التلمسانی. ولد سنة ٧٢٠ وتوفي سنة ٧٨١١.

(٣) هو قاسم بن سعید بن محمد سنة ٧٨٥٤ هـ. يكنی أبي الفضل وأبا القاسم.

(٤) هو عبد الرحمن بن محمد بن أحمد الشریف التلمسانی. ولد سنة ٧٥٧، وتوفي سنة ٨٢٦.

(٥) هو عبد السلام بن سعید المعروف بسجحون، الفقیہ المالکی المشهور. ولد سنة ٦٦٠ وتوفي سنة ٧٤٠ هـ.

(٦) كتاب (التهذیب) لأبي سعید البراذعی، من علماء القیروان، لخص فيه مختصر المدونة والمخاتلۃ لابن أبي زید القیروانی، واعتمدہ المشیخة من أهل افريقيا، وأخذوا به، وتركوا ما سواه. (عن مقدمة ابن خلدون).

وإنما اقتصرت على ذكر هذين الشيختين الإمامين، لما لهما من المشيخة على الكثريين، ولشهرتهما بالتأليف، التي تقوم مقام الشاهد لما قلناه، حتى نبعد عن شبهة التعصب.

وأما من نجح من تلاميذه شيخ الشيوخ ابن عرفة، وتمكن من ملكرة التعليم فخلق بطول عددهم فمنهم من أدركه ابن خلدون، وأخذ عنه، وأجازنا مروياته، و (منهم) من لم يدركه.

وهنا انتهت ملكرة الفقه من علماء القبوران عن المازري، إلى من ذكرنا.

وأما ملكرة العلوم النظرية، فهي قاصرة على البلاد المشرقية، ولا عنابة لحدائق القرويين والإفريقيين إلا بتحقيق الفقه فقط. ولم يزل الحال كذلك إلى أن رحل الفقيه ابن زيتون^(١) إلى المشرق، فلقي تلاميذه القخر بن الخطيب. ولا زدهم زماناً، حتى تمكن من ملكرة التعليم. وقدم إلى تونس. فانتفع به أهلها. وانتهت طريقة النظرية إلى تلميذه ابن عبد السلام المذكور. واستقل تلميذه ابن عرفة بعده بتلك الطريقة، وكذلك أبو عيسى موسى ابن الإمام التلمساني المذكور، ولهذا تجد أثر العلوم النظرية بتلمسان.

ولم يشاهد في الملة الثامنة من سلك طريق النظار بفاس، بل (في) جميع هذه الأقطار، لأجل انقطاع ملكرة التعليم عنهم، ولم يكن منهم من له عنابة بالرحلة، بل قصرت همهم على طريق تحصيل القرآن ودرس (التهذيب) فقط، نعم أخذوا شيئاً من مبادئ العربية من أهل الأندلس، القادمين عليهم من سبتة وغيرها، باستدعاء ملوك بني مرين، ولهذا لم يتصدر من الفاسيين من يقرئ الكتاب^(٢) كما هو متداول

(١) هو أبو القاسم القاسم بن أبي بكر الشهير بابن زيتون، الفقيه التونسي ولد سنة ٦٦٦، وتوفي سنة ٧٣٠ هـ.

(٢) يريد كتاب سبورة.

بين أهل الأندلس، مثل ابن أبي الريبع والشلوبين وغيرهما؛ لوجود ملكة النحو في قطر الأندلس، بسبب رحلة علمائهم إلى تلقيه من أربابه بالشرق، كما ارتحل علمائهم إلى بغداد في تحصيل الفقه عن الأبهري^(١)، وكذا يحيى بن يحيى عن مالك، وغير واحد، وكذلك علوم الحديث وغيرها، كرحلة الإمام الحافظ أبي بكر بن العربي.

(١) هو أبو بكر محمد بن عبد الله صالح الأبهري، صاحب التصانيف في شرح مذهب مالك والاحتجاج له وارد على من خالفه، سكن بغداد وحدث بها عن جماعة، وتوفي بها سنة ٣٩٥هـ.

ابن حازم القرطاجي

۶۰۸۴-۶۰۸

من أعلام المغرب من الأدباء، وهو الشيخ حازم بن محمد بن حسن ابن محمد بن خلف بن حازم الاصنافي القرطاجي التحوي، أبو الحسن،
شيخ البلاغة والأدب^(١)، قال أبو حيان : كان أوحد زمانه في النظم،
والشعر، والتحوّل، واللغة، والعروض، وعلم البيان، روى عن جماعة يقاربون
الآلاف، وروى عنه أبو حيان وابن رشيد وذكراه في رحلته، فقال :
خير البلاء، وبحر الأدباء، ذو اخبارات فائقة، واختيارات راقفة، لا
نعلم أحداً من لقيناه جمع من علم اللسان ما جمع، ولا أحكم من
ما عاقد علم البيان ما أحكم، متفوق ومبتدع، وأما البلاغة فهو بحراً
العذب، والمفترد يحمل رايتها أميراً في الشرق والغرب، وأما حفظ
لغات العرب وأشعارها وأخبارها، فهو حمد روایتها، وحمل أوقارها،
يجمع إلى ذلك جودة التصنيف، وبراعة الخط، وضرب بهم في
العقليات، والدررية أغلب عليه من الرواية. صنف : سراج البلاغة في
البلاغة وكتاباً في القوافي، وقصيدة في التحوّل على روبي الميم، ذكر
منها ابن هشام في المغني أبياتاً في المسألة النبوية.

(٣) ص ١٧٢ ج ٣ أزهار الرياض — بقية الوعاة للسيوطى.

وكان مولده سنة ثمان وستمائة، ومات ليلة السبت الرابع والعشرين من رمضان سنة أربع وثمانين وستمائة. ومن شعره.

من قال حسي من الورى بشر فحسبى الله حسي الله
كم آية للإله شاهدة بأنه لا إله إلا هو

ومن بديع نظمه رحمة الله قصيدة جميمية، عربية المترنخ، لها صيت عظيم عند الحذاق من أهل الأدب، والمشهورين من الفضلاء. عارض بها في المعنى رأية ابن عمار^(١) الوزير للمعتمد بن عباد. وفضل غير واحد هذه الجميمية الحازمية على تلك الرأية العمارية :

أهوا المدامه فالنسيم مسُورج والروض مرقوم البرود مدبيج
والأرض قد ليست ببرود جمالها فكأنما هي كاعب تسرج
والنهر مما ارتاح معطفه إلى لقيا النسيم عبايه متسموج
يمشي الأصيل بمسجدي شعاعه أبداً يوشى صفحه ويديج
وتروم أيدي الريح تسلب ما اكتسى فتزريده حتنا بما هي تنسج

(١) مطلع رأية ابن عمار :

أدر الزجاجة فالنسيم قد اتبرى والنجم قد صرف العنان عن السرى

ابن خلدون

ـ٧٣٢ هـ ٨٠٨

هو ولی الدين عبد الرحمن بن محمد، ينتهي نسبه إلى جده الأعلى ابن خلدون، وأسرته من بني وائل، وقيل إنها هاجرت إلى الأندلس في القرن الثالث.

ولد في أول رمضان عام ٧٣٢ هـ بتونس، من أسرة أندلسية اشتهرت بالعلم والأدب والسياسة، وكان نزوحها من الأندلس في أواسط القرن السابع الهجري من إشبيلية ونشأ عبد الرحمن في تونس في ظلال دولة الحفصيين ودولة بني مرين بالمغرب وكان منهم السلطان أبو الحسن المربي (٧٣١-٧٥٢ هـ)، وابنه أبو عنان (٧٥٢-٧٥٨ هـ)، ثم سالم ابن أبي الحسن المربي (٧٥٨-٧٦٢ هـ). وأكمل دراسته الأولى على والده، وعلى بعض الأساتذة المشهورين، ولكن الوباء الكبير الذي اجتاح البلاد قضى على أسرته في المغرب، فحزن لذلك حزناً شديداً، واشغل بالكتابة قديعاً للسلطان أبو إسحاق ملك تونس عام ٧٥١ هـ ليتولى له كتابة «العلامة»^(١)، وقربه إليه ولكن ابن خلدون لم يلبث أن ترك

(١) هي التوقيع على المراسيم السلطانية والمخاطبات الرسمية باسم السلطان.

أبا إسحاق واتصل بالسلطان أبي عنان المربي ملك المغرب الأقصى عام ٧٥٥هـ. فتولى له الكتابة والتسيير حيناً، ثم اتهم بالثأر على السلطان فسجن ولم يفرج عنه إلا بعد وفاة السلطان أبي عenan، ورد إلى وظائفه، ثم تولى كتابة السر والإنشاء وخطبة العظائم للسلطان لأبي سالم ابن أبي الحسن المربي، فأظهر كفاية وإخلاصاً، ولاذ بالسلطان أبي سالم في هذه الفترة ملك الأندلس محمد بن الأحمر وزفيره لسان الدين ابن الخطيب، بعد أن اغتصب العرش منه، فاتصلت رابطة الصداقة والأدب بين ابن خلدون ولسان الدين بن الخطيب من ذلك الحين، ثم توفي السلطان أبي سالم سنة ٧٦٢هـ، ولم يليث ملك الأندلس أن استرد عرشه. فرحل ابن خلدون إلى الأندلس عام ٧٦٤هـ، وأقام في العاصمة غرناطة مشمولاً بعطف ابن الأحمر وزفيره ابن الخطيب، وأرسله في سفارة رسمية إلى ملك قشتالة باشبيلية، فقام بها خير قيام، يد أن قبور العلاقة بينه وبين ابن الخطيب كان ياعطاً له على الخروج من الأندلس عام ٧٦٦هـ، حيث تولى الحاجة لأمير «يجاية» ولكن عرش هذا الأمير لم يليث أن اغتصبه مقتضب، فظل ابن خلدون ينتقل من خدمة أمير إلى خدمة أمير، حتى حيكت حوله المؤامرات ففر إلى الأندلس مهاجراً إليها مرة أخرى عام ٧٧٦هـ، ولكن فراره إلى غرناطة وهرب ابن الخطيب منها إلى المغرب الأقصى كان مثاراً لمشكلات سياسية بين ملك بني الأحمر في غرناطة وبين مرين في فاس بالمغرب الأقصى، وقد انتهت الأحداث بقتل ابن الخطيب في فاس وبطرد ابن خلدون من الأندلس.

عاد ابن خلدون إلى المغرب الأقصى، ملتحقاً إلى أحياء شريف بتلمسان، حيث أقام مؤلف كتابه التاريخي الكبير، وهو كتاب «العبر وديوان المبتدأ والخبر»، ثم عاد إلى وطنه تونس عام ٧٨٠هـ، فاتم كتابه ، ورفعه إلى سلطان تونس أبي العباس الحفصي عام ٧٨٣هـ.

وقربه السلطان إليه، ولكن الوشايات عادت تحوك حوله الدسائس من جديد، فلزم على الرحلة إلى المشرق، مستأذناً من السلطان في السفر إلى مكة لأداء فريضة الحج، فأذن له وركب ابن خلدون سفينة أفلته إلى الإسكندرية فنزل بها وسافر إلى القاهرة، فوصلها عام ٧٨٤هـ، وأخذ ابن خلدون يلقي دروسه في مذهب مالك في الأزهر الشريف، واتصل ببرقوق رأس دولة «العمالك البرجية»، الذي حكم مصر سبعة عشر عاماً (٧٨٤-٨٠١هـ) وولاه التدريس في المدرسة القمحة المالكية بجوار جامع عمرو، وتولى قضاء المالكية أيضاً، فأرسل إلى بلاد المغرب يستقدم أسرته، ولكنها غرقت بها السفينة التي كانت فيها، ولم ينج أحد، فعظم حزن ابن خلدون لذلك.

كان وجود ابن خلدون في مصر وولايته لمنصب قضاء المالكية فيها، مثار دسائس وأحاديث بينه وبين علماء عصره الذين يتعلمون لهذا المنصب، واضطربوا الأفق حوله، وعزل عن القضاء، فاستأذن من برقوق في الحج فأذن له، وعاد بعد الحج فعيّنه برقوق استاذًا في المدرسة الصرغمتية — شمال جامع ابن طولون، ثم عينه شيخاً لخانقاہ بيرس، وانقطع إلى التدريس والتعليم. يوطد الصلات السياسية والعلمية بين مصر والمغرب. حتى أعاده برقوق إلى منصب القضاء وظل فيه إلى أن توفي برقوق عام ٨٠١هـ، وتولى بعده ابنه فرج فعزله عن القضاء.

في هذه الأثناء كان جيش تيمورلنك يغزو الشرق، ويعيث في بلاده فساداً، ودخل الشام، فخرج فرج للقاء، وخرج معه ابن خلدون، ولكن فرج رجع مسرعاً ليقضي على ثورة سياسية قامت في مصر، وأقام الجيش حيث هو، وأقام مع الجيش ابن خلدون، ثم انتصر جيش تيمورلنك، فسار ابن خلدون إلى معسكر الظافرين يفاوض في شروط الصلح، وفي تسلیم دمشق بعد أن أنهکها الحصار.. وكما عاد ابن

خلدون إلى مصر أعيد إلى القضاء لثالث مرة، ثم عزل عام ١٨٠٤ واستمر بين ولاية لقضاء المالكية وعزل منه، حتى تولاه لسادس مرة عام ١٨٠٨هـ، فلما فيه ستة أسابيع توفي بعدها في آخر رمضان عام ١٨٠٨هـ، ودفن في مقبرة الصوفية في العباسية خارج باب النصر.

ولابن خلدون كتابه التاريخي العظيم، ومقدمته الرائعة، الخالدة، وقد انقطع عام ٧٧٧ للتأليف تاريخه في أيام العرب والجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، وأقام سنتين يكتب في مقدمته التي أنتها عام ٧٧٩هـ، وفي بعض فصول الكتابة التاريخية، ثم كتب فصولاً أخرى منه في تونس وفي القاهرة، وانتهى أخيراً من الكتاب في القاهرة عام ٧٩٢هـ، وسأله «البر وديوان المبتدأ والخبر»، وقسمه إلى مقدمة وثلاثة كتب، وأشار في المقدمة إلى فضل علم التاريخ وتحقيق مذاهبه، ونقد أخطاء المؤرخين وأغالطتهم، أما الكتاب الأول فخاص بالعمران وما يعرض فيه من العوaris الذاتية من الملك والسلطان والكتب والمعاش والصناعات والعلوم، وما لذلك من علل وأسباب، والكتاب الثاني في أخبار العرب وأحيائهم ودولهم من بدء التاريخ إلى عصره، مشيراً إلى الدول التي عاصرتهم، وسرد في الثالث أخبار البربر ودولهم وملوكهم وبقائهم، وهذا القسم الأخير هو أهم أقسام الكتاب^(١)، وقد أهدى ابن خلدون نسخة كاملة من الكتاب لسلطان المغرب الأقصى أبي فارس المربي، الذي تولى حكم المغرب ثلاثة أعوام (١٧٩٦-١٧٩٩هـ)، والكتاب سبعة مجلدات، والمجلد الأول منها في فلسفة التاريخ والاجتماع وهو المشهور بالمقدمة، والستة الباقية في تاريخ العرب والجم والبربر. وقد خلدت هذه المقدمة النفيسة ابن خلدون، ورفعته إلى مصاف

(١) وهو ما قصده ابن خلدون كما يذكر في المقدمة (ص ٣٢ المقدمة طبعة سنة ١٢٢٠هـ).

الفلامية الملهمين، وبوأته في تاريخ التراث الفكري الإسلامي مكاناً رفيعاً، ويعجب علماء المغرب وفلاسفته بالمقدمة، ويرون أن ابن خلدون بها يعد المبتكراً لعلم الاجتماع، وواضع أساس العلوم الاجتماعية والسياسية وفلسفة التاريخ والقانون العام، وقد عرف الغربيون فضل ابن خلدون قبل أن يعرفه الشرقيون، فترجموا المقدمة إلى لغاتهم، وطبعت في القاهرة لأول مرة منذ حوالي تسعين عاماً، وكان لابن خلدون وأسلوبه في المقدمة أثر واضح في أساليب الكتاب والأدباء في مصر منذ ذلك الحين، وفي عام ١٩٣٢ أحيا جماعة من أدباء مصر ذكرى ابن خلدون، فكتبوا المقالات والبحوث والدراسات عنه ونشر الأستاذ محمد عبدالله عنان كتاباً عنه.

ولا شك أن المقدمة أثر لحياة ابن خلدون وثقافته وتجاربه وشخصيته التي هي مثل للمفكر والمؤرخ السياسي والرجل السياسي أيضاً، إذ أن تجاربه وصلاته السياسية بعروش دول المغرب، وتوليه أعظم المناصب فيها، وتقلبه شاباً ورجالاً وكهلاً في الأحداث السياسية، كل هذا خلق منه سياسياً داهية، وهو أيضاً مما عاون الرجل على إخراج مقدمته الفنية، والمسائل التي عالجها ابن خلدون في المقدمة ذات رقة متاهية، ولم يسبق لأحد من علماء المسلمين أن تناولها بالتأليف على هذا النطء والأسلوب، وهو يبني في المقدمة على أن الكلام فيها « مستحدث جديد أدى إليه البحث والتفكير » وأنه « ليس من علم الخطابة المنطقية ولا من علم السياسة المدنية » وأنه « مستقل » ابتكره وابتدعه ابن خلدون دون أن يطلع على تأليف في معناه، وإن كان بعض الأبيجديات التي ذكرها في المقدمة قد تجري لأهل العلوم بالعرض في براهين علومهم، مثل ما يذكره الحكماء في إثبات النبوة من أن البشر متفاوتون في وجودهم فيحتاجون فيه إلى الوازع والحاكم. ومثل ما يذكر في أصول الفقه من أن الناس يحتاجون إلى العبارة عن المقاصد بطبيعة التعاون

والاجتماع وبيان العبارات، ومثل ما ورد في حكم الحكماء وكتب الفلاسفة كالكتاب المنسوب لأرسطو في السياسة ورسائل ابن المقفع وسراج الملوك للطروشي، فقد حوم فيه وبوه على أبواب تشابه أبواب القدمة ولكنه لم يستوف المسائل، بل ينبع الباب للمسألة فيستكثرون من الأحاديث والحكم بدون تحقيق، فهو نقل وترغب أشبه بالمواعظ، وكان حوم على الغرض قلم يدركه.. وابن خلدون يؤكد أن المسائل التي ورد ذكرها في القدمة قد ألممه الله إليها إيماناً، فهو الذي نهج للباحثين فيها السبيل، ووضح لهم الطريق.

ويذكر ابن خلدون في مقدمته التاريخ فيصفه بأنه « خير عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم وما يعرض له من أحوال وما ينشأ عنه من ملك وما يتحله البشر من صناعات و المعارف »، ويحدد في موضع آخر بأنه « ذكر الأخبار الخاصة يحصر أو جيل » فاما ذكر الأحوال العامة للأفاق والأجيال فهو أساس ثقافة المؤرخ، وإن كان المسعودي وسواء يفردء بالتاليق.

ويشرح ابن خلدون في مقدمته نظريات عديدة، منها أن الإنسان مدنى بالطبع، أي لا بد له في الاجتماع الذي هو المدنية في اصطلاحهم، وأن الترف يقضى – عندما يستشرى في جسم الأمة – عليهما، وسيسر بالدولة إلى الهرم والشيموخة، وأن العسف مصر بالملك مفسد له، وأن الظلم مؤذن بخراب العمران، وأن الهرم إذا حل بالدولة لا يرتفع إلا إذا جدت عوامل أخرى تدعوا إلى تجدد الدولة، ويذكر كذلك أن الحضارة غاية العمران مؤذنة بفساده، وأن العواصم تخرب بخراب الدولة، وسوى ذلك من عديد النظريات.

وابن خلدون يشرح ويفسر لنا حقيقة النبوة وكيفية نزول الوحي على الرسل والأنبياء، ويفرق بين ذلك وبين الرؤى والأحلام، وكلامه في ذلك يعد أساس النظرية الحديثة لفرويد، ولا ابن خلدون رأى في

العرب عجيب، فهو يذهب إلى أنهم لا يتغلبون إلا على البساطة، وإذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الفساد والخراب، وإذا حصل لهم الملك فإنما يحصل لهم بصفة دينية، وهو عنده أبعد الأمم عن سياسة الملك، وهم أبعد الناس عن الصنائع، وأن مبانيهم يسرع إليها الفساد، وحملة العلم في الإسلام عجم، وهذا الرأي الغريب غير الباحثين في تراث ابن خلدون الفكري؛ فعلوه بأسباب مختلفة متناقضة، أما نحن فتعلمه بأحد أمرين :

الأول أن ابن خلدون يريد بالعرب البدو في أن مكان كما عبر هو عنهم بهذا أحياناً^(١) لعرب الجزيرة العربية خاصة، وهذا الرأي يحتاج إلى إثبات السر في ترجيحنا هذا المعنى دون المعنى الآخر للنقطة عرب.. والثاني أن ابن خلدون يقصد العرب وغيرهم ويتكلم عنهم، ومن الملاحظ من غير التاريخ أن العرب في جاهليتهم حين تحملهم من الدين بعد الإسلام كانت أحوالهم كما يصفها ابن خلدون، فكأنما ابن خلدون يقصد بهذه الفصول ذكر طبيعة العرب حين ضعف الدين في نفوسهم، وكأنه يريد التعميم في أحوالهم، فإن العرب حين تمسكهم بآسلامهم وشريعتهم، كانوا كما نعرف عدلاً وسياسة وإصلاحاً ونبل حكم، وفي هذا البحث يذكر ابن خلدون أن أهل البادية مغلوبون لأهل الأ蚊ار. أو يذكر ابن خلدون أحوال الموالي والمصطنعين وما يعرض للدول من الحجر على السلطان والاستبداد به ومشاركته في نفوذه وألقابه، وأراء ابن خلدون في الفصل الخامس في المقدمة عن المعاش ووجوهه والكسب والصناعات مباحث قيمية في الاقتصاد السياسي والاجتماعي، وقد اقتبس منها كارل ماركس في كتابه «رأس المال» ومن آراء ابن خلدون في المقدمة :

(١) ص ١١٥ المقدمة ط ١٢٢٠ هـ.

١ — أن النقد التاريخي هو تطبيق طبائع العمران على التاريخ وحوادثه،
فما جاز لنا قوله من التاريخ قبلنا، وما لا يجوز فيه رفضه.

٢ — أصول التوحيد هي عقائد متلقة عن الشريعة كما نقلها السلف
من غير رجوع فيها إلى العقل ولا تعویل عليه، وهنا يذكر ابن خلدون
أن العقل معزول عن الشرع لأن مدارك صاحب الشريعة أوسع لاتساع
نظافتها عن مدارك الأنوار العقلية، فهي فوقها محبوظة بها، لاستمدادها
من الأنوار الالهية^(١)، ويأخذ في ذم الفلسفة وتحليلها، ولا شك ان
ابن خلدون كان بحاجة إلى تأكيد ذلك ليغض المجتمع الاسلامي في
عصره للفلسفة وعلومها وأصحابها وللعنف في البطش بكل ما عرف
عنه أنه محب لها، ولا تخال ابن خلدون سوى فلسفه ملهم، فأفكاره
في المقدمة أفكار فلسفية عميقة، وكذلك دراسته للفلسفة وعلومها وتاريخ
نشأتها تدل على أنه من أنصارها ومحبيها وعارفي قدرها، ويدو أنه
كان يقصد التمويه على عامة الناس وجمهور العلماء حتى لا يتهم
بالإلحاد والكفر، ويعرض نفسه لمحن لا داعي لها، بل إن المقدمة
نفسها لون من ألوان الفلسفة في عصرنا الراهن، ولا شك أن ابن
خلدون يستحق تقدير المفكرين والتاريخ والأنسانية جموعه. وكان يعاصره
من أعلام تونس ومفكريها : أبو عبدالله بن مرزوق من أدباء القرن
الثامن الهجري وسواء...

(١) راجع من ٤٦٩ المقدمة.

ابن بطوطة

- ١ -

عني العرب في القرون الوسطى بالأسفار والرحلات وارتياد المناطق البعيدة واكتشاف مجاهل الطرق. وكانت عنائهم بهذه الناحية شديدة جداً، بحيث لا تقل عن الهمة التي بذلها رواد العصر الحاضر من الأوروبيين ومن وقفوا حياتهم على الأسفار، ولا سيما إذا راعينا وفرة السبيل وتوع وسائل النقل وقلة ما يتعرض له المسافر اليوم من مصاعب وأخطار. وفي الحقيقة أن تلك العناية وهذه الهمة اللتين لمسنا آثارهما في ثوابي التاريخ ليستا بالأمر الغريب نظراً إلى طبائع العرب وجاذبهم التي أورثتها إياهم البيئة الصحراوية التي نشأوا فيها، فالعربي يحكم فطرته الأصلية ميال إلى التنقل شغوف بالرحلة والتجوال. ولعل من الطريف أن تشير هنا إلى ما ذهب إليه أحد علماء اللغة في اشتقاق كلمة « عرب » فقد ذهب هذا الباحث إلى أنها مأخوذة من كلمة « عبر »، وذلك للدلالة على العبور والتنقل وعدم الاستقرار في مكان خاص.

لقد بدأ نشاط العرب في الرحلات من أوائل القرن العاشر للميلاد ولدينا سجل ضخم بأسماء الرجال الذين تركوا أوطانهم وساحروا في الأرض في حدود المملكة الإسلامية وفيما وراء حدود المملكة الإسلامية،

ما كانوا يطلقون عليه إذ ذاك اسم « مملكة الكفار »، وقد ترك لنا أولئك الرجال أسفاراً قيمة دونوا ما شاهدوه من العجائب والغرائب وما رأى لهم من أحوال الأمم وتقاليدها وعاداتها المختلفة. ومن أقدم أولئك الرحاليين : أبو دلف واليعقوبي وقادة والبلخي وأبن حوقل وهؤلاء كلهم من رجال القرن العاشر، ويلي هؤلاء طبقة أخرى منهم ياقوت الرومي وأبو عبد البكري وأبن جبير وأبن سعيد وأبن بطوطة وهذا الأخير من رجال القرن الرابع عشر للميلاد.

لم يكن هذا النشاط الذي بدأ ظهوره في القرن العاشر نتيجة للمصادفة والاتفاق، وإنما هو وليد ظروف سياسية خاصة رافقت حياة العرب في ذلك العصر، فقد كان العالم العربي الإسلامي في تلك الفترة بلغ غايته من التوسيع، وامتد حتى شمل أهم أقطار آسيا والساحل الشمالي لأفريقيا وبعض أقسام أوروبا، وهذا العالم الواسع مع تباعد أطراه كان يموج بالأجناس والألوان والمعصيات المختلفة، ولذا كان هم الخلقاء والولاة ومن بيدهم مقايد الأمور أن يوجدوا رابطة تجمع شمل هذه العناصر المتبااعدة وتصل بعضها ببعض بحيث يمكن القضاء ولو على بعض الفروق، وتخفيض حدة تلك المعصيات وتوجيه الناس إلى غاية واحدة، فرأوا في الأسفار خير واسطة لربط تلك الأجزاء وإنشاء صلات بينها، ثم إن الأسفار تمكنهم من دراسة المناطق البعيدة دراسة نافعة تهيء لهم الطريق إلى معالجة المشكلات التي تحدث فيها والتي يتعدى القضاء عليها بدون إمام بأحوال تلك البلاد. أضف إلى ذلك أن العالم العربي الإسلامي كان يشعر بالرغبة في التقارب بين أجزائه، وكان كل فرد من أفراد المملكة الإسلامية يحن إلى الاتصال بالملك البعيدة، ويجد من صميم القلب لو يعرف ما عليه إخوانه الذين تربطهم وإياه الروابط المتنية، هذا الشعور الجماعي كان من جملة البواعث التي حركت في الناس الرغبة في السفر من حين إلى آخر.

على أن هناك غير واحد من العلماء الذين ساقتهم غريزة حب الاستطلاع، فطافوا في العالم لمجرد الوقوف على أحواله ودراسة شعوبه المختلفة : منهم العلامة المسعودي صاحب كتاب « مروج الذهب » الذي ساح في بلاد فارس والهند والصين، وكان عمره إذ ذاك لم يتجاوز العشرين سنة، ومنهم الفيلسوف الفلكي البيروني الذي توغل في الهند وترك لنا كتابه القيم « تاريخ الهند ».

ويمكن أن يضاف إلى ذلك الرحلات التجارية التي قام بها التجار، وهؤلاء وإن لم يستهدفوا درس البلاد التي وصلوا إليها أنهم أفادوا علمي التاريخ والجغرافيا، بخبطفهم المدن وذكرهم عدد السكان والحاصلات والطرق التجارية. وهذا ما نلاحظه في رسائل ياقوت صاحب كتاب « معجم الأدياء ».

أما الرحلة لأداء فريضة الحج فهي ديدن المسلمين في جميع العصور، وذلك لأن الرغبة في زيارة الأماكن المقدسة أمنية كل مسلم يرجو التوابل في الآخرة، ولذا كان المسلمون في كل عام يحجون فرادى وجماعات إلى الكعبة وإلى غيرها من الأماكن المقدسة، كالقدس وقبور الأنبياء في العراق وغيرها، وهم في طريقهم إليها يزورون البلاد ويعرفون ما عليه الناس وقد يمكن أخذهم مدة طويلة من الزمن ثم يعودون إلى بلاده. والحقيقة أن الشرق الأدنى كان في العصور الوسطى هدفاً لكثير من الزوار الذين كانوا يقصدون إليه لا لغرض التبرك بالأماكن المقدسة فحسب، بل لتلقي العلم والتزود من الثقافة مع ذلك. وكان معظم هؤلاء الوافدين من الأندلس ومن شمالي أفريقيا، حتى قال ابن خلدون : « أهل المشرق على الجملة أرستخ في صناعة تعليم العلم حتى ليظن الكثير من رحالي أهل المغرب إلى المشرق في طلب العلم أن عقولهم على الجملة أكمل من عقول أهل المغرب وأنهم أشد نياحة وأعظم كيساً بفطرتهم الأولى وأن نفوسهم الناطقة أكمل بفطرتها من نفوس

أهل المغرب؛ ويعتقدون التفاوت بينا وبينهم في حقيقة الإنسانية ويتشيرون لذلك ويولعون به لما يرون من كيمهم في العلوم والصناعات، فالذى حدا بالناس إلى الرحمة إلى هذه المناطق يرجع إلى تمكن الناس هنا من لغة القرآن ومن الثقافة الإسلامية والثقافة اليونانية القديمة.

وذلك يوم أخذت الكنيسة الشرقية نظار العلماء وتعتبر فلسفتهم خطراً يهدى المسيحية على نحو ما فعله جستيان بمدارس أثينا، فإن أولئك العلماء الذين وسموهم بالوثنيين والرناذة والذين اعتبروا كثيئهم من نوع الهرطقة والإلحاد، لجأوا إلى الشرق الأدنى وتوطنوا في سوريا والعراق وأسسوا فيها عدداً كبيراً من المدارس. ولما فتح العرب هذه البلاد حافظوا على تلك المدارس وشجعواها، لا سيما أيام المؤمن الخليفة العباسي.

— ٤ —

ولد ابن بطوطة في مدينة طنجة عام ١٣٠٣ هـ - ١٢٧٠ م من أسرة دينية عريقة في الاشتغال بالعلوم الشرعية وينتهي نسبها إلى قبيلة لوانة، إحدى قبائل العرب التي كانت في وقت ما في بلاد برقة بين مصر وطرابلس. أما ثقافته فلم تكن تتجاوز العلوم الدينية والأدب وممارسة بعض الشعر واللهجة الفارسية، ولما بلغ الثانية والعشرين من عمره أي عام ١٣٢٥ هـ - ١٢٧٦ م خرج في وقد من الحاج إلى مكة، ومنها قطع طريق البادية إلى العراق، وظل يتنقل في بلاد العرب وفارس وتركيا والهند والصين زهاء ربع قرن، حجَّ خلال هذه المدة أربع مرات، وتزوج كثيراً من النساء. وفي سنة ١٣٤٩ م - ٧٥٠ هـ، عاد إلى طنجة وكان بلاد المغرب في تلك الفترة تحت سلطانبني مرين الذين كانوا يعطفون على العلماء والشعراء ويجزلون لهم العطايا، فلاذ ابن بطوطة بأبي عنان أمير مراكش وصار من جملة حاشيته وكان يقص في مجالسه

على الناس ما رأه في أسفاره، فطلب إليه الأمير أن يدون رحلته. فأملأها على كاتب الأمير الفقيه محمد بن جزي الكلبي، وانتهى من كتابتها سنة ١٣٥٣ وسماها « تحفة النثار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » وعاش ابن بطوطة في بلاد فارس حتى توفي سنة ١٣٧٧ م. ٥٧٧٩.

يكاد يجمع المؤرخون على أن الدافع الذي حمل ابن بطوطة على القيام بهذه الرحلة هو الحج، وأنه لما وصل إلى مكة والتقى بالحجاج حصلت له فكرة الطواف حول العالم، وهم يستدلون على ذلك بقول : « وكان خروجي من طنجة معتمداً حج بيت الله الحرام » ثم أنه لم يكن متائلاً للسفر الطويل. ييد أنه يلوح لي أن ابن بطوطة لم يكن يوم خروجه من طنجة بعيداً عن فكرة الطواف حول العالم، إن لم تكن هذه الفكرة الهدف الرئيسي الذي كان يرمي إليه أولاً. لا ينكر أحد الحج كان في نظره غاية سامية ياعتبره مسلماً شديداً بالإيمان والثقة بالله، لكن لا مانع من أن يكون هذا الإيمان البالغ المتمكن من نفسه بعض ما كان يروم من تلك الرحلة والدليل على ذلك ما رواه ابن بطوطة نفسه فقد حدث أنه نزل في مصر ضيفاً عند أحد علماء الاسكتدرية المسمى « برهان الدين » ثلاثة أيام، فtorsom فيه برهان الدين حب التجول، وأوصاه بأنه إذا ذهب إلى الهند أو الصين أن يزور أفراداً أسامهم له، ثم ما رواه ابن بطوطة بنفسه أيضاً أنه زار وهو في طريقه إلى القاهرة أحد الأولياء الصالحين الذي كان مقيناً بقرية « قبالة » بلدة « قوه » على النيل. فرأى في منامه وهو عنده أنه زار مكة واليمن والعراق وببلاد الترك والهند. وأما أنه لم يتخذ الأهمية الكافية لهذا السفر الطويل ففي الحقيقة أن ابن بطوطة لم يتأهب حتى بالنسبة إلى الحج، إذ كان جل اعتماده على الهبات والمعطيات يوم فارق طنجة. ولعل عدم التأهب لهذا يعتبر دليلاً على أنه كان ينوي السفر

الطويل من أول الأمر. إذ يعذر على مثل ابن بطوطة الذي عرفنا حاله من الفقر والفاقة أن يطوف حول العالم، وبعد ما يكفيه من المال والزاد. لمثل هذا السفر الطويل الشاق.

تعتبر رحلة ابن بطوطة من أهم المصادر التاريخية الجغرافية بالنسبة إلى حياة الأمم الشرقية في القرون الوسطى، وهي ليست بأول مشروع من نوعه في هذا الصدد كما نعلم، لقد قام « ماركو بولو » الإيطالي برحلة في الشرق قبل « ابن بطوطة » بنصف قرن تقريباً ودون مشاهداته إلا أن ابن بطوطة لم يطلع على تلك الرحلة. والذي يميز، رحلة ابن بطوطة هو أنها رسمت لنا صورة واضحة للشعوب التي كانت تتكلم في ذلك الوقت اللغة الفارسية كإيران والهند، وذلك راجع إلىتمكن ابن بطوطة من هذه اللغة، في حين أن رحلة « ماركو بولو » تمتاز بناحية أخرى وهي أنها عرّفتنا حالة الدول المغولية التي كانت تسيطر نفوذها من شواطئ المحيط الهادئ إلى ما وراء نهر الفولغا بشكل أوضح مما ذكره ابن بطوطة. وسبب ذلك راجع إلى معرفة « ماركو بولو » اللغة المغولية، الأمر الذي ساعده مساعدته كلية على فهم حالة أولئك الأقوام. والحقيقة أن هاتين الرحلتين تعتبران مكملة للأخرى.

لقد أيد « فرسکو بالدي » الرحالة الإيطالي الذي سافر في الشرق بعد ابن بطوطة بأكثرب من نصف قرن ما رواه ابن بطوطة في رحلته، ومع هذا يقول « ابن خلدون » : ورد بال المغرب لعهد السلطان « أبي عنان »، رجل من مشيخة طنجة يعرف « بابن بطوطة » كان رحل منذ عشرين سنة إلى المشرق وتقلب في بلاد العراق واليمن والهند، وكان يحدث عن شأن رحلته وما رأى من العجائب، فتاجي الناس بتكتنيه. ونلاحظ أن ابن بطوطة في رحلته الثانية خرج من طنجة عام ١٣٢٦هـ - ١٣٢٥ م للحج فمر بمصر والشام ومكة ثم العراق واليمن وجدة، ثم الصومال وأريتريا، ثم عاد إلى الحجاز ومنها إلى آسيا الصغرى

والأناضول ثم الهند وسيلان وأطراف من الصين وسيلان، ثم عاد إلى الشام فالقاهرة في عهد السلطان حسن قلاوون ودخل مدينة فاس عام ٧٥٠هـ، ثم ذهب إلى طنجة وقام برحمة إلى الأندلس، ثم عاد منها، وقام برحمة أخرى إلى السودان عام ٧٥٣هـ، وعاد منها إلى سجلماسة عام ٧٥٥هـ.

الفصل الثالث

اللغة العربية في بلاد المغرب

لم تنتشر اللغة العربية إلا بين العرب في المدن الكبرى، التي تنتظم المدارس والجامعات والمساجد وعواصم الملك، أما خارج المدن، فأكثر السكان من البربر، وهؤلاء لم يتعود لسانهم العربية، ولم ينطق بها، ومن ثم كان البربر بعيدين عن اللسان العربي بعدها كثيراً.

يقول باحث^(١) :

ولشدة العجمة في لسان البربر : لم تحسن استفادتهم من عاشرهم، وقام بتعليمهم من الرحيلين إليهم من الأندلس وغيرها، وقد ضرب ابن خلدون المثل بالبربر في قلة استفادة الأعجمي من اللسان العربي، إذا كان معرقاً في العجمة، قال : « وما كان من لغات أهل الأماصار أعرق من العجمة وأبعد عن لسان مصر، فصر بصاحبه عن تعلم اللغة المصرية، وحصل ملكها لتمكن المنافاة حيثُلَهُ، واعتبر ذلك في أهل الأماصار، فأهل إفريقيا والمغرب لما كانوا أعرق في العجمة وأبعد عن اللسان الأول، كان لهم قصور تام في تحصيل ملكته بالتعليم ». ولقد

(١) ٢/١٧٣ الأدب العربي وتاريخه — محمود مصطفى.

نقل ابن الرقيق^(١) أن بعض كتاب القبور كتب إلى صاحب له^(٢) : « يا أخى ومن لا عدلت فقدك قد أعلمك أبو سعيد كلاماً، أتاك ذكرت أتاك تكون مع الذين تأتى وعاقنا اليوم فلم يتها لنا الخروج. وأما أهل المنزل الكلاب من أمر الشين، فقد كذبوا، هذا باطل ليس من هذا حرفاً واحداً، وكماي إليك، وأنا مشتاق إليك إن شاء الله^(٣). وقد مر ما كان من أمر يوسف بن تاشفين لما قدم الأندلس المعونة المعتمد بن عباد، وجعل الشعراء يتضدونه أشعارهم، قال له ابن عباد : أعلم أمير المسلمين ما يقول هؤلاء ؟ قال لا أعلم، ولكنهم يطلبون الخبر !! وأنه لما عاد يوسف هذا إلى المغرب، كتب إليه المعتمد رسالة ورد فيها البيان :

يَنْتَمِ وَبِنَا فَمَا ابْتَلَتْ جَوَانِحَنَا شُوقًا إِلَيْكُمْ وَلَا نَجَفَتْ مَا قِنَا
حَالَتْ لِفَقْدِكُمْ أَيَامًا فَقَدَتْ سُودًا وَكَانَتْ بِكُمْ يَضْأَ لِيَالِيَنا
فَلِمَا قَرِئَ عَلَيْهِ هَذَا الْبَيَانَ قَالَ الْقَارِئُ : يَطْلُبُ مِنْ جَوَارِي سُودًا
وَيَضْأَ ؟ فَقَالَ لَهُ : يَا مُولَانَا ! مَا أَرَادَ إِلَّا أَنْ لِيَهُ كَانَ بِقَرْبِ أَمِيرِ
الْمُسْلِمِينَ نَهَارًا، لَأَنْ لِيَالِي السُّرُورِ يَضْأَ، فَعَادَ نَهَارَهُ بَعْدَ لَيَالِيَ، لَأَنْ
أَيَامَ الْحَزَنِ سُودَ، فَقَالَ : وَاللهِ جَيْدًا ! أَكَبَ لَهُ جَوَابَهُ : إِنْ دَمَوْنَا
تَحْرِي عَلَيْهِ، وَرَعَوْنَسَا تَوْجَنَا مِنْ بَعْدِهِ !....

وَكَانَ أَبُو الْعَبَاسِ الْجَزَائِريُّ أَشْعَرُ شُعُرَ الْمَغْرِبِ الْأَفْصَنِيِّ فِي وَقْتِهِ،
وَلَهُ يَمْدُحُ مُلْكًا :

إِذَا كَانَ أَمْلَاكَ الزَّمَانِ أَرْقَمَا فَإِنَّكَ فِيهِمْ دَالِمُ الدَّهْرِ ثَعَبَانَ

(١) ابن الرقيق شاعر من أهل القبور كان يكتب بالكتابة في دواوين الانتقام، وله كتب منها (تاريخ إفريقية) مات سنة ٤٠٠ هـ.

(٢) راجع ٧١٤ نفح الطيب.

(٣) الرسالة غنية بالخلفية والمعجمية.

وقد نبغ من أهل المغرب أنفسهم : علماء وكتاب وشعراء، سامي بعضهم أمثالهم بالأندلس. ولكنهم قليلون لا يصح أن ينسب فضلهم إلى بيتهم، وإنما ينسب إلى امتياز ملوكهم، بما وهبهم الله من خصائص في الإدراك، وإلى ظروف أخرى أحاطت بهم، فابن خلدون منهم، وهو هنا العالم العالمي ذو النظريات التي مرت عليها السنون، وهي باقية تدل على غور إدراكه، وبعد تصوره وصدق تقديره، ولكنك لا تجد من تعدد نظيره في فضله، أو من يقع قريباً منه من أهل هذه البلاد في جميع أطوارها.

ومن أدباء أهل المغرب، أبو إسحق إبراهيم التلمساني الأنباري، الكاتب الشاعر، الرحالة الذي دخل مصر والشام وغيرهما. ومات بستة مائة و٦٩٠.

النشر الأدبي

كانت الكتابة وهي أهم ألوان الأدب زمن الولاة مقصورة على الأمراء والعلماء حتى تخرج في الفصاحة المولاي من البربر فشار كوهن فيها، ولما رسخ سلطان الدولة الإدريسية بالمغرب الأقصى ودولة الأغالبة في المغرب الأوسط والأدنى أصبحت الكتابة صناعة اقدي الكتاب فيها بكتاب الأندلس غرباً وبكتاب المشرق شرقاً ففتشا فيها السجع والتألق في المجاز والاستعارة. وما جاءت الدولة الفاطمية ثم الصنهاجية إلا ولصناعة الكتابة منزلة عند ملوكها ليس وراءها إلا منزلة أمراء الجوش وأمراء الأساطيل. ومن أشهر كتاب عصر الصنهاجيين: علي بن أبي الرجال، وابن رشيق، وابن شريف، وابن القر芷. ولما قامت دولة المرابطين جدوا في استدعاء الكثير من أعيان كتاب الأندلس حتى اجتمع في بلادهم

من العدوة الإفريقية ما لم يجتمع مثله لملك من ملوك الطوائف في الأندلس، وأشهرهم : أبو عبد الله محمد بن أبي الحصال، وأخوه أبو مروان وأبو محمد عبد المجيد بن عبدون فتشروا طريقة الأندلسيين في الكتابة وتخرج عليهم كثيرون، ونفع منهم في دولة الموحدين ابن عياش، وابن محشوة، وابن الميمون، ثم اضطلع أمر الكتابة بالتدریج حتى أصبحت مجرد سمع قليل البلاغة متکلف التقنية.

وقد فصل من رسالة كتب بها أبو الميمون عن المستنصر بالله ابراهيم جد الخلفاء الموحدين إلى بعض نواهيه وقد نقض المهدى على بعض المهاجرين من الصوارى قال بعد الديبياجة : وقد بلغنا ما كان منكم من اكتساح النصارى والزيادة على ذلك باختطاف الأسرى، ونعموز بالله من شهوة تقلب عقلاً ونحوه تعقب هوانا وذلاً . وقد أخطأتكم في فعلتكم الشنائع من ثلاثة أوجه :

أحدها أنه خلاف ما أمر الله من الوفاء بالعهد والوقوف مع العقد.

الثاني : عصيان الأمر العزيز وفيه التغير بالمنهج، وترك السعة للحرج.

الثالث : أنكم تثيرون على أنفسكم من شر عدوكم — قصمه الله — شرراً يستعرض ضرراً ي عدم فيه المتصر، فليتكم إذا تحليتم بالعصيان، ورضيتم الغدر المحروم في سائر الأديان، ثبتم للعدو إذ دهمكم، ولقيتموه بالجانب القوي حين زحمكم. فإذا وافقكم كتابنا هذا بحول الله وقوته فأدروا من أسرتكم إلى مأنته، وردوا ما انتهيتم إلى مسرحه، ولا تمسكوا من الأسرى بشعرة، ولا من الماشية ببيرة، ومن سمعنا عنه بعد وصول هذا الكتاب أنه تعدى هذا الرسم، وخالف هنا الحكم، أتفدنا عليه الواجب وحكمنا فيه المنهى القاضب. فلتسرع من نومة الغفلة إفاقكم، ولا تتعرضوا من الشر لما تعجز عنه طاقتكم. ونحن متعرفون ما يكون منكم من تأن أو بدار، ومقابلون لكم لما يصدر عنكم من إقرار وإنكار، وهو يرشدكم بمنه.

الفصل الرابع

الشعر العربي

يتقلل الشعر مع العرب أينما نزلوا؛ ولكنه لا يصير صناعة عبيدة يتوافر عليها أناس يكتسبون بها إلا حينما تكون جمهرة العرب : بتأثر ملكها وتعدد حواضرها. وكل ذلك لم يكن بالغاً أشدّه في ممالك البربر أوائل الفتح الإسلامي، حتى إذا توطدت للملوكيون الأدارسة دولة بالمغرب الأقصى، وللأغالبة التميميين دولة بافريقيا من قبل العباسين، جلا إلى الدولتين جوال من الأندلس والمشرق فهم العلماء والأدباء والشعراء والنجاة فغرسوا فضائل العلم والأدب بالمغرب ونشأت فيهم نابة طابت العلم من معادنه، ورحلت إلى المشرق فنمّت تلك الغراس وأينعت ثمارها زمان الدولتين العبيدية الفاطمية وأخلاقها من الصنهاجيين، ثم لما غلبت دولة المرابطين من لمنونة والموحدين من المصاصدة وغيرهم استقدموا إلى حواضرهم بالمغرب الكتاب والشعراء من مراكش وفاس وتونس، فكانت منهم في المغرب صورة أندلسية في كل العلوم والأداب والشعر.

ولكن الشعر لم يصل في جملة أطواره بالمغرب إلى الغاية التي سما إليها في الأندلس وإن نبغ فيه في بعض العصور من لا يقل عن

الأندلسيين بلاعة قول، وبداعة تصور، وروعة وصف، كعلى الأيدي والمحصري وابن رشيق القيرواني وابن شرف القيرواني وابن حمديس الصقلي وغيرهم، وقد حاكي شعاء المغرب الأندلسيين في التوشيح والزجل، وراج بينهم بعد اكتساح بدو المشرق من : رياح وجشم وهلال وسلمي لإفريقية، ضرب من الشعر العامي في شكل القصائد العربية الفصيحة من الأوزان والتزام قافية واحدة في القصيدة، وربما أنها بمربيات من نوع الشعر المسمط ولكنهم لا يلتزمون الإعراب، وتسمى هذه القصائد في المغرب بالأصميات نسبة إلى الأصمي الرواية الشهير وأكثر ما تكون من بحر الطويل، وبأني الشاعر فيها أولاً على ذكر اسمه ثم يجمع بالسبب أو بالدخول على الغرض.

ومن شعرائهم، عبد الجبار بن حمديس الصقلاني^(١)، المشهور بوصف المصانع والحدائق والقصور، وسيمر بك شيء من شعره، وقد توفي سنة ٥٢٧ هـ بجزيرة مبورقة. ومنهم ابن شرف القيرواني^(٢)، الكاتب الشاعر المشهور المعروف بالجودة والطبع، الذي كان قرين ابن رشيق في خدمة المعز بن ياديس ومنادته، وقد رحل إلى الأندلس بعد موت المعز، وتوفي سنة ٤٦٠ هـ المريية، ومن شعره، وكان يشوهه بالديدع وخاصة الجناس :

إن تدعك الغربية في عشر
قد جبل الطبع على بغضهم
فدارهم ما دمت في دارهم وأرضهم ما دمت في أرضهم
ومنهم ابن رشيق القيرواني، وهو من موالي الأزد، كان أبوه رومياً
صائغاً، فتعلم ابنه الأدب، وألف فيه كتابه « العمددة » الذي لم يؤلف
مثله في نقد الشعر، وكان من كتاب المعز بن ياديس، وقد توفي

(١) هو عربي الأصل، يحصل نسبة بالأزرد إحدى قبائل كهيلان من عرب اليمن.

(٢) هو عربي من قبيلة جدام اليمنية.

بحزيرة صقلية سنة ٤٥٦هـ، ومن شعره :

في الناس من لا يرتجي نفعه إلا إذ من باض——رار
كالعود لا تطمع في طيبه إن أنت لم تمسه بالسار

وقوله :

أحب أخي وإن أعرضت عنه وقل على مسامعه كلامي
ولي في وجهه تنطيط راض كما قطبت في وجه العدام
ورب تجهم من غير بغض وضعن كامن تحت ابتسام
ومنهم إبراهيم بن علي الحصري القير沃اني، صاحب « زهر الآداب »
وغيره المتوفى سنة ٤٥٣هـ ومن شعره قوله :
كحتم هواك حتى عيل صيري وأدنتني مكانتي لرمسي
ولم أقدر على إخفاء حال يجول بها الأسى دون التأسي
وحبك مالك لحظي ولحظي وإظهاري وإضماري وحسبي
ومنهم أيضاً أبو الحسن علي بن علي عبد الغني الفهري المقربي
الضرير القير沃اني، المعروف بالحصري، ذكر ابن بسام في الذخيرة أنه
« بحر براعة، ورأس صناعة، وزعيم جماعة »، وقد طرأ على الأندلس
في منتصف المائة الخامسة، وتوفي سنة ٤٨٨هـ بطنجة من بلاد المغرب،
وهو رقيق الشعر، أشهر شعره داليته، التي افتن الشعراء بها، وعارضوها
في كل زمان.

ابن رشيق القيرواني

٤٦٣-٣٩٠

كان من أدباء القبروان وشعرائها وأحد البلاء والنقاد، واسمه الحسن ابن رشيق ولد بالمسيلة وقيل ولد بالمهدية، وأبوه مملوك رومي من موالي الأزد، كان صائغاً فلعله أبوه صنعه وقرأ الأدب وقال الشعر، واتاقت نفسه إلى التزيد منه وملاقاة أهل الأدب؛ فرحل إلى القبروان عام ٤٠٦ هـ، ومدح صاحبها وطارت شهرته بها، ولما هجم العرب على القبروان وخربوها انتقل إلى صقلية وأقام في مازر إحدى قراها حتى توفي عام ٤٥٦ هـ، وقيل عام ٤٦٣ هـ.

وكان بينه وبين عبدالله بن أبي سعيد بن أحمد المعروف بابن شرف القيرواني مناقضات ومهاجة، وصنف عدة رسائل في الرد عليه منها رسالة سماها ساجور الكلب ورسالة نجح الطلب، ورسالة قطع الأنفاس ورسالة نقض الرسالة الشعوذية والقصيدة الدعية والرسالة المنقوضة ورسالة رفع الأشكال ودفع المحال، وله كتاب ألمودج الشعراء في شعراء القبروان ورسالة قراصنة الذهب، والمعدة في معرفة صناعة الشعر ونقده وعيوبه وهو كتاب جيد وغير ذلك.. قال صاحب الباقي : وقد وقفت على هذه المصنفات والرسائل المذكورة جميعها فوجدتها تدل على تبحره في الأدب واطلاعه على كلام الناس ونقله لمواد هذا الفن وتبصره

في التقد، وله كتاب في شذاذ اللغة يذكر فيه كل كلمة جاءت شاذة
 في بابها.. ومن شعره :
 أحب أخي وان أعرضت عنه وقل على مسامعه كلامي
 ولني في وجهه تقطيب راض كما قطبت في وجه المدام
 ورب تقطيب من غير بغض وبغض كامن تحت ابتسام
 ومنه :
 اذا ما حفقت لعهد الصبا أبى ذلك الخمس والأربعونا
 وما نقلت كبراً وطائسي ولكن أجر ورائي السينما
 ومقاتلة ماذا الشحوب وهذا الضنا
 فقلت لها قول المشوق المتم فأطعنته لحمي وأستيقنه دمي
 هواك آثاني وهو ضيف أعزه
 ومنه :
 ذمت لعينك أعين الغزلان قمر أقر لحسنه القمران
 وما أرتك ولا قضيب البان ومشت فلا والله ما حقف النقا
 وثن الملاحة غير أن دياتي تأبى على عبادة الأواثان
 ومنها في المدح :
 يا بن الأعزه من أكابر حمير
 من كل أبلج أمر بلسانه
 يضع السيف مواضع التيجان
 ومن شعره :
 في الناس من لا يرجي نفعه إلا اذا من باضـرار
 كالعود لا يطمع في طيه الا اذا أحـرق بالسـار
 ومنه :
 أقول كالمسور في ليلة ألقت على الآفاق كلـكلـها

يا ليلة الهدى التي لي لها
ما أحست جمالاً ولا أجملت
هذا وليس الحسن الا لها
هذا وليس الحسن الا لها

۲۰

ومن حسناط الدهر عندي ليلة
خلوناها نتفى القدى عن عيوننا
ولملا لتفيل الغور ولهمها

قال الأبيروادي وما هذا يأحسن من قول ابن المعتز :
كم من عناق لنا ومن قبل مخلصات حذار مرتب
نقر العصافير وهي خائفة من التوابير يانع الربط

ومقام ابن المعتز غير مقام ابن رشيق لأن ابن رشيق ذكر أنه في ليلة أمن وهي عنده من حسنيات الدهر فلهذا حسن تشبيه القبيل مع الأمان بالقطاط الطير الحب لأنه يتوالى دفعة بعد دفعة وأما ابن المعتز فإنه كان خالقاً بخلص القبيل ويسرقه كما يفعل العصافور في نظر الربط البائع لأنه يقدم جازعاً خالقاً من الناطور فلا يطمئن فيما يلمسه،
ألا يرى الآخر كيف قال فاحسن :

أقله على جزء
رأى ماء فوقه
كشرب الطائر الفزع
وخاف عوّاقب الطمع

ومن شعر ابن رشيق :

قد أحكمت مني التجا
أبداً أقول لفن كسب
حتى إذا أثرت عد
ان القمام بممثل حا
لا بد لي من رحلة

ومنه :

معنقة يعلو الحباب متونها فتسحبه فيها نمير جمان
رأت من لجين راحة لمديرها فطافت له من عسجد بيان
ومن أئتذة ابن رشيق في الأدب أبو عبدالله محمد بن جعفر القراء
القيرواني التحوي وغيره من أهل القيروان..

ابن حمديس الصقلي

٤٤٧—٥٥٣٧

ميلاده ونشأته :

هو أبو محمد عبد الجبار، بن حمديس، الأزدي الصقلي. أحد وصافى الطبيعة والمشاهد البدعية.

ولد في أوسط القرن الخامس الهجري، بجزيرة صقلية، وهي في يد المسلمين العرب، إبان حكم ملوك الطوائف في الأندلس.

ونشأ بصقلية، في أسرة عربية محافظة، تلقى عنها شيئاً من أدب الإسلام، وحفظ طرفاً من الأدب العربي؛ وقرأ القصص والأساطير التي كانت يومئذ حديث الناس، كما طرق أذنه كثيراً من أخبار المسلمين وشعر العرب وتراثهم، فاستعدّ الشاعر، وعالج القريض وهو حديث.

ولبيبة صقلية أثرها في شعره وشاعريته، وصقلية ربي نضرة؛ هوازها بليل، ومازها موفور، وجانتها مزهرة، وأشجارها مورقة مشمرة، وطيرها غرد، وأهلها مزيج من العرب والرومان والأندلسيين، وكانت تدين بالطاعة لملوك الطوائف، الحاكمين في البلاد. كما كان العرب فيها يعيشون بين الرجاء في الحاكمين، والخوف من الإفرنجـة المغزبين.. وكان الترف واللهو والمجون. وألوان من الحضارة ذاتها بينهم، وكثرت فيهم مجالس

٧٨٥

الأدب الأندلسي

الأنس.. وكان حمديس يرقب هذا عن كتب فيضييق صدره، ويترقى على الإسلام، في عفة تبين في شعره، وتحول بينه وبين الراح وإن شهد مجلسها، وتربية شب عليها تمنعه أن يغامر مع الماجين، كما أن طيب الهوا، وألوان الزهر وتنوع الشمر، وانهاج الحاكفين سياسة العسف، كل أولئك شحد ذهنه، وأرهف فكره فشعر، وهو بعد ذي، ونبغ في الشعر وهو في نضرة الشباب، وكان طبعاً أن تؤثر كل هذه المعيقات في خلقه وذهنه، غير أنه على ما يظهر من شعره لم يدنس ولم يسعف، وعاش على دينه وعفته كريماً نيلاً.

وفي عهد الشاعر كانت الدولة العربية في صقلية في آخرياتها، قد نهكها الفرقة وأضعها الترف، وأمضها ما ذير لها الأفرنجة من دواعي الشيشوخة، وأسباب الأضمحلال، مما اخبطه «شارل ماتل»، إذا قال لقومه في القرن الثاني الهجري، عن العرب : لا تعارضهم فإنهن كالسيل، ولكن أمهلواهم، حتى تمتليأ أيديهم، ويتخذوا الشهوات لهم إماماً، وتشبع بعطونهم، ويتنافسوا في الرياسة، ويستعين بعضهم على بعض — فحيثند تتمكنون منهم —

وكذلك حقت كلمة ربك فلم تمض على ابن حمديس أيام الشباب، حتى استولى الترمانديون على صقلية وطنه، وهو في شرج الفتوة، فشهد مصرع قومه، وهاجر إلى إشبيلية عام ٤٧١هـ، وقصد إلى سيدها المعتمد ابن عباد من ملوك الطوائف ففضل عنه، ولم يكرث له، فضجر ابن حمديس وهمس (قطلت لخيتي مع فرط تعني، وعممت بالنكوص على عقبي)، ولكن الله نفس الكربلة، بغلام السلطان، فركب معه إليه، وأدخل على المعتمد، فأجلسه على حشبة من فرو، وقال له: افتح الطاقة التي تلتك، ففتحها. وإذا كور من زجاج والنار تلوح من بابه، وواقدة تفتحها تارة، وتسددهما أخرى، ثم أطال سد أحدهما، فحين تأملهما ابن حمديس قال له المعتمد: أجز:

انظرهما في الظلام قد نجما
فقال المعتمد : يفتح عينيه ثم يطبقهما
فقال : فعل امرئٌ في جفونه رمد
فقال المعتمد : فابتزه الدهر تور واحدة
فقال : وهل نجا من صروفه أحد
فاستحسن المعتمد ذلك، وأمر له بجائزة سنية، وألزمه خدمته.

ومن هنا لمع كوكب ابن حمديس بهجرته، واتصاله بالمعتمد، وقد
يقي ميجلاً في خدمته، حتى أخذت تين دولة المرابطين، وأزالت فيما
أزال ملك المعتمد، إذ عزله ونفاه يوسف بن تاشفين، الذي أذل أشبيلية،
فبع ابن حمديس ولـي نعمته إلى منفاه، ثم أقام الشاعر بالمهديـة قاعدة
أفريقـيا، ورحل إلى سفاقـس ثم انتقل إلى مـورقة.

وتصاريف الزمان هذه يابـن حمـديـس، أذـاقـهـ الـحـلوـ فـرقـ شـعـرهـ، وأـطـعـمـهـ
الـعـلـقـ فـانـقـبـضـ وـتـشـاءـ، وـزـهـدـ فـيـ الدـنـيـاـ. وـلـمـ يـأـتـهـنـهاـ. وـلـمـ يـأـنـ لهاـ
عـودـهـ. عـلـىـ آـنـ هـجـرـتـهـ إـنـ كـانـتـ قدـ نـشـرـتـ صـيـبـهـ. إـلـاـ آـنـهاـ أـفـضـتـ
مـضـجـعـهـ. فـلـقـدـ حـنـ إـلـىـ صـقـلـيـةـ. وـمـلـأـ شـعـرـهـ حـيـنـاـ إـلـىـ وـطـهـ الـأـولـ.

وبـيـعـةـ الشـاعـرـ وـالـحـيـاةـ السـيـاسـيـةـ فـيـ عـصـرـهـ أـوـجـدـتـاـ مـؤـمـناـ
رـقـيقـ المـشـاعـرـ يـغـلـبـ جـدـهـ هـزـلـهـ، يـشـامـ فـيـ اـفـرـاطـ، وـيـقـبـضـ نـقـمةـ منـ
الـنـاسـ. وـفـرـارـاـ مـنـ شـيـاطـيـنـ الـأـنـسـ، لـذـاـ سـلـمـ مـنـهـمـ إـنـ خـالـطـهـمـ فـلـمـ تـمـتـزـجـ
نـفـسـ إـلـاـ بـالـخـيـرـ، إـنـ انـغـمـسـ فـيـ الشـرـ، عـلـىـ آـنـ الـبيـعـةـ قـدـ فـقـتـ ذـهـنـهـ،
كـمـاـ أـنـ السـيـاسـيـةـ دـفـعـتـ بـهـ إـلـىـ الـمـهـجـرـ، فـاتـصـلـ بـالـمـعـتمـدـ الـذـيـ حـبـ
إـلـيـهـ الـحـيـاةـ.

شعر وشاعريـهـ :

أـخـلـاقـ الشـعـرـاءـ وـمـوـاهـبـهـمـ تـبـيـنـ جـلـيـةـ فـيـ أـشـعـارـهـ، وـمـنـ ثـمـ غـلـبـ
عـلـىـ شـعـرـ اـبـنـ حـمـديـسـ : عـفـةـ الـلـفـظـ وـنـبـلـ الـفـكـرـ، وـالـزـهـدـ وـالـوـرـعـ. فـشـعـرـهـ

يبين فيه كل هذا، إلى تصرف في التشبيه العذب، وغوص على درر المعنى، وميل إلى الحكمة.

وبمطالعة شعره يتضح لنا أنه أغرم بزهد أبي العناية، فسج على متواه، كما أعجب بالبحترى، فتنى على قيثارته، وافتتن بالمتيني فقلده في بعض شعره. كما حاكى ابن المعزن في شيء من أدبه.

ويشتمل شعره على أكثر أنواع الشعر المعروفة : من وصف ومدح وغزل ومجون ورثاء وشكوى ودعابة وعبرة، وغير ذلك. ومن المعانى التي مرت بخاطره كثيراً وأكثر من ذكرها في شعره حينئذ إلى وطنه، وذكر أيامه الأولى في جزيرة صقلية. حيث يبكي فيها صباء، وتلمى عليه ذكرياته الماضية، كثيراً من الآلام. وأحياناً تذكره ما كان هناك من سرور يمرح في بحريohn، وكثيراً ما تجده يبكي وطنه لما حل به من المصائب، ويمزج ذلك بذكر الشباب والشكوى من المشيب. ولستا من يقول إن زهده مصروع، وأنه كان متهمأً فيه، كما اتهم أبو العناية في زهده بأنه أحب المخالفه لشعراء عصره ليظهر.

على أن ابن حمديس وإن برع في الزهد إلا أنه كان في الوصف أربع وعلى الرغم من تفوقه حين كان يشكو الزمان، وخاصة بعد أن كف بصره وأخذ يتبرم بالحياة، إلا أنه كان له الوصف المشرق، حتى ليكاد يصل إلى عينك من لفظه الأنيد صورة ملموسة لما وصف، وإن اشتمل لفظه على شيء من الغريب الذي جاء في شعره والذي كان من أسبابه أن اللغة في المغرب لم يسرع بها التغير مثل ما أسرع بها في المشرق، تجد شاعراً قبله كالشريف الرضي سهل اللقط، لأن المشارقة لات لغتهم باختلاطهم بالأعاجم، على حين تجد شعر ابن حمديس - الذي تأخر به الزمان عن الرضي نحو نصف قرن - أكثر غريباً، وأغمضاً لفظاً.

وخياله متسع يقظ، يعني بتمثيل المحسوسات بالمعقولات،

والمعقولات بالمحسوسات، في أسلوب عذب، وبيان ناصع، وتعبير بلين.

ويعد ابن حمديس من أعلام الشعراء، وقد سبق شعراء العرب إلى «الواقية» بمعناها العلمي الحديث، فهو يكثُر في قصائده من الحديث عما يجول بالنفوس، وما كان يشعر به من آلام الحياة وأحداثها، وما كان يتعريه من حيرة وشك، وسطخ على الحياة حيناً، ومن أمل وانتسام وتفاؤل وثقة بها حيناً آخر. كل ذلك مع الجد في التعبير ومع تمثيل حركات نفسه وعقله وأسلوبه، ومع اجتماع قوة الفكر وسعة الخيال في قصائده. فهو شاعر وجاذبي نفسى مفكِّر، في طليعة الشعراء المفكرين من العرب.

نماذج من شعره

١ — قال ابن حمديس، وهو في المغرب:

تدرعت صبرى جنة للنواب
فإن لم تسلم يا زمان فحارب
عجمت حصاة لا تلين لعاجم
ورضت شموماً لا تدل لراكب
كأنك لم تقنع لنفسى بغربة
إذا لم أنق卜 في بلاد المغارب
قطمت بها عن كل كاس ولذة
وأنفقت كنز العمر في غير واجب
بيت رياش العضب في ثني سادعى
معاوضة من جيد غداء كاعب
ومضاربه يوم الوعى في الضرائب
فكت وقدي في الصبا مثل قده
عهدت إليه أن منه مكاسبى
فإن تلك لي في المشرقي مأرب
فكم من عصا موسى له من مأرب
أتحسيني أنسى وما زلت ذاكرا
خيانة دهري أو خيانة صاحبى
تغنى بالأخلاقى صغيراً ولم تكون
ضراريه إلا خلاف ضرائبى
ويا رب نيت تعزيره مرارة
وقد كان يسوق عذب ماء السحائب
علمت بتجربى أموراً جهلتها
وقد تجهل الأشياء قبل التجارب

ومن ظن أمواه الخضار عذبة . قضى بخلاف الظن عند المشارب

ومن شعره قوله :

ذكرت صقلية والأمس
ومنزلة للتصاصي خلت
فإن كنت أخرجت من جنة
ولولا ملوحة ماء البكاء

وقوله :

ولو أرضي حرة لأيتها
لكن أرضي كيف لي بفكاكها
أمثالها في خاطري كل ساعة
أحن حنين النبض للوطن الذي
ومن يك أبقى قلبه رسم منزل

ومن قوله في الوعظ :

غرتك دنياك التي
يضرك الحرص بها
لا تأمنين متيبة
مغريك القبر الذي
وللحساب موقف
يراك ذو العرش الذي
فتق به ولا يكن

وقال يصف البحر :

أراك ركب في الأحوال بحراً
تسير فلكه شرقاً وغرباً
وأصعب من ركوب البحر عندي
أمور أجالائك إلى ركوبه

وقال في الشيب والحنين إلى وطنه (صقلية) :
نفي هم شبي سرور الشباب لقد أظلم الشيب لما أضاء
أتعرف لي عن شبابي سلوا ومن يجد الداء يغلي الدواء
آكسو المشيب سواد الخضاب فأجعل للصبح ليلاً غطاء
وكيف أرجي وفاء الخضاب إذا لم أجده لشبابي وفاء

إلى أن قال :

واراك يا بحر لي جنة ليست العييم بها لا الشقاء
إذا منع البحر منها اللقاء إذا أنا حاولت منها صباحاً
تركت الهلال به زورقاً تعرضت من دونها لي مساء
فلو أتيت كنت أعطي المعنى لكنني أتعانق فيها ذكاء

وقال يتغزل :

كظيبة روعت بذب زارت على الخوف من رقيب
ومسكة في ذكي طب كافورة في بياض لون
فؤاده منه في لهيب كادت تروي غليل صب
كان زمان اللقاء منها أقصر من جلسة الخطيب

وقال في المروءة والوفاء والتدبر :
أدم المروءة والوفاء ولا يكن حبل الديانة منك غير متين
والعز أبقى ما تراه لمكرم إكرامه لمروءة أو دين

وقال في العصا :

ولي عصا من طريق الذم أحدها بها أقدم في تأخيرها قدمى
كأنني فوس رام وهيولي وتر أرمي عليها رمي الشيب والهرم

وقال في فرس أدهم :

أدهم كالظلمام تشرق فيه شعرات متيرة للعيون
كالذى يخضب المشيب ويقى شاهدات بهن نفي الظنوون

على أن بعض الناس أصبح يهجوني
وأعظم من فوقي وأحقر من دوني
يجيل على الأغراض حد السكاكن

وقال في الترفع عن الهجو :
وما أنا من يرتضي الهجو خطة
أسلام من ألقيت قدرى كقدره
ولو شئت يوماً لانصرت بمقول

فأي حي مخلد فيها
 فهي نعوس ردت عواريها
 يمتنى ذكرها ويحييها
 كأنني للأسى أجاريها
 لها أفقها به وأحميها
 وصبغة الكحل في ما فيها
 عن ضمة فاض روحها فيها

وقال يرثى جوهرة :
يهدم دار الحياة بانيها
وان ترددت من قبلنا أسم
 وأوحشتنا من فراق مؤنسة
 أذكراها والدموع تعفني
 جوهرة كان خاطري صدفاً
 ونفحة الطيب في ذوالها
 عانقها الموج ثم فارقتها

بدمع القلوب مما أصفوه
 من البث والحزن ما أهملوه
 بفوديك إلا الردى أو أبوه

وقال في الشباب :
بكى الناس قبلي فقد الشباب
 وإنني عليه لم استدرك
 لعمرك ما الشيب ما بدا

ودنياك مفنيه فانيه
 ومحبي عظامهم البالية
 ولدغته ما لها راقية
 يمد إليها يداً حانية
 ولا بد من ردة العاربة
 فسقياه رائحة غاديبة
 ومسير عن جسمه روحه
 وقال يمدح الأمير أبا الحسن علي بن يحيى ويصف فتحه الأجم :

وقال يرثى آباء :
يد الدهر جارحة آمية
 وربك وارت أربابها
 رأيت الحمام يهد الأنام
 وأرواحنا ثمرات له
 وعارية في الفتى روحه
 سقى الله قبر أبي
 ومسير عن جسمه روحه

يمضي لك السيف ما تنبوه والقلم
لو شئت أغناك جداً عن مجلدة

إلى أن قال :

حصن بنته لصون الملك كاهنة
كأنه من بروج الجو منفرد
وأعين الخلق منه كلما نظرت
كأنما الحصن من خوف أحاط بهم
إن الصوارم في فتح الحصون لها
إن ابن يحيى علياً بدر مملكة
قد أشرب الله في قلبي مجبه
يا واحد الجود واليأس الذي اتفقت
زد زادك الله في صون الهدى نظراً
عليهم وهو المبني منهم
ضرب به تجلبي الأجياد والقمم
لصيد آبائه الأجداد والقدر
فشب في مدحه طبعي وبي هرم
بلا اختلاف على تفضيله الأمم
إن الصليب ليشقى منك والصنم

ومن معانيه البديعة في صفة نهر :
وصبا أعلنت للعين ما في ضميره
ومطرد الأجزاء يصدق منه
جريح بأطراف الحصى كلما جرى
عليها شكاً أو جاعه بخريره
كأن جيانا ربيع تحت حابه
فأقل ينقى نفسه في عديره

وله من قصيدة :
لأروي غلل الشوق بما
صبا أعلنت للعين ما في ضميره
ولعله من قول البحري :
لم يكن في قدرة الماء القراب
عليها شكاً أو جاعه بخريره
إلى نهلة من ريقها البارد العذب
وبي ظماً لا يمكن الماء دفعه

ومن معانيه النادرة :
زادت على كحل العيون تكحلاً
وبيسم نصل السهم وهو قوله
وقال يواسى المعتمد بن عباد وهو في معقله بعد عزله عن ملكه :
أتباس من يوم ينافق اسمه وشهب الدراري في البروج تدور

ولما رحلتم بالندى في أكفكم وقلل رضوى منكم وثير
رفعت لسانى بالقيامة قد دنت فهذا الجبال الراسيات تسير
ولعل بيته الأخير ماخوذ من قول عبدالله بن المعتز :
قد استوى الناس ومات الكمال وقال صرف الدهر : أين الرجال
هذا أبو القاسم في نعشه قوموا انظروا كيف تزول الجبال
وقال يتربم بالزمان ويشكو الصحاب :
أتحسبني أنسى وما زلت ذاكرا خيانة دهري أو خيانة صاحبى
ولما رأيت الناس يرهب شرهم تجنبتهم واخترت وحدة راهب
ولابن حمديس ديوان شعر، عرف فضله المستشركون الطليان فطبعوه،
وقد أحياوا بطبعه ذكر شاعر من أبنائهم بلادهم، وإن كان شعره في
غير لغتهم.

فهرس

مقدمة: سلام عليك يا أندلس ٥	
الحضارة العربية في الأندلس ٧	
باب الأول: الأندلس الطبيعة... والتاريخ... والحياة	
الفصل الأول: الأندلس: الجنة الساحرة ٤٩	
الطبيعة الأندلسية الفاتنة ٦٠	
الفصل الثاني: العرب في الأندلس ٦٧	
الفصل الثالث: ٣٠ — الحياة الأندلسية في ظلال الحكم العربي ١٠٠	
مشاهد من الحياة الأندلسية ١٠٧	
صور أندلسية ١٣٠	
٢ — الحياة الفكرية في الأندلس ١٦٧	
الثقافة والعلوم في الأندلس ٢٠٥	
شخصية أندلسية: أبو علي القالي ٢٤٦	
اللغة العربية في الأندلس ٢٥٩	

الباب الثاني
الشعر الاندلسي

تمهيد	٢٧٣
الفصل الاول : مواقف للشعر والشعراء	
آراء في الشعر الاندلسي	٢٨٦
من أعلام الشعراء الاندلسيين	٢٩٣
الشعر الاندلسي وتياراته	٣٠٦
الشعر الاندلسي بين التجديد والتقليد	٣٢٤
الفصل الثاني : صور من الشعر الاندلسي	
فن الموشحات — صور منها	٣٤١
فن الموشحات الأندلسية	٣٨٦
الرجل في الادب الاندلسي	٣٩٨
الفصل الرابع : ترجم لأشهر الشعراء الاندلسيين	
ابن هانئ الاندلسي	٤٢٠
مختارات من شعره	٤٢٠
ابن زيدون	٤٦٦
محنة ابن زيدون كما بدت في شعره	٤٧٠
ابن خفاجة الاندلسي	٤٨٤
ابن سهل الاندلسي	٥٠٢
ابن عبيدون	٥٢٢
بني عباد	٥٢٧
الادباء في عصر بنى عباد	٥٣٢
ابن غالب	٥٥٩
ابن طفيل	٥٦١

باب الثالث
التراث الأندلسي

تمهيد: التراث الأندلسي في الأندلس وانواعه	٥٧١
الفصل الأول: صور من التراث الأندلسي	٥٧٤
الفصل الثاني: الكتابة الفنية الأندلسية	٦٠٠
صورتان من الكتابة الأندلسية	٦٠٩
كتاب أندلسيون: احمد بن شهيد	٦١٢
ابن زيدون ونشره	٦١٨
عبد الملك بن أبي الحصال	٦٣١
لسان الدين بن الخطيب	٦٣٣
الفصل الثالث: الخطابة في الأندلس	٦٥٥
صور من الخطابة	٦٥٥
خصائص الخطابة الأندلسية	٦٧٠
أعلام أندلسية	٦٧٧
احمد ابن عبد ربه	٦٧٧
التجيبي القرطبي	٦٨٦
أبو بكر بن العربي	٦٨٧
البطليوسى	٦٩٠
ابن الأبار	٧٠٠
محyi الدين بن عربي	٧٠٨
ابن القصيم	٧٠٩
القاضي عياض	٧١٠
أمير أديب	٧١٣
ولادة بنت المستكفي	٧١٤
أدبيات من الأندلس	٧١٨

الباب الرابع
الأدب العربي في المغرب وجزر البحار

٧٢٧	تمهيد
٧٤٤	الفصل الأول : الحالة الفكرية في بلاد المغرب
٧٥٢	الفصل الثاني : أعلام من المغرب
٧٥٧	ابن حازم القرطاجي
٧٥٩	ابن خلدون
٧٦٧	ابن بطوطة
٧٧٤	الفصل الثالث : اللغة العربية في بلاد المغرب
٧٧٨	الفصل الرابع : الشعر العربي
٧٨١	ابن رشيق الغيرواني
٧٨٥	ابن حمدين الصقلي
٧٩٥	الفهرس

